

النبي وأهل بيته

قدوة وأسوة

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



يهدى ثواب هذا الكتاب الى روح المرحومة
ام عادل العمارى
« رحمَ الله من قرأ على روحها الفاتحة »

النَّبِيّ وَأَهْلُ بَيْتِهِ

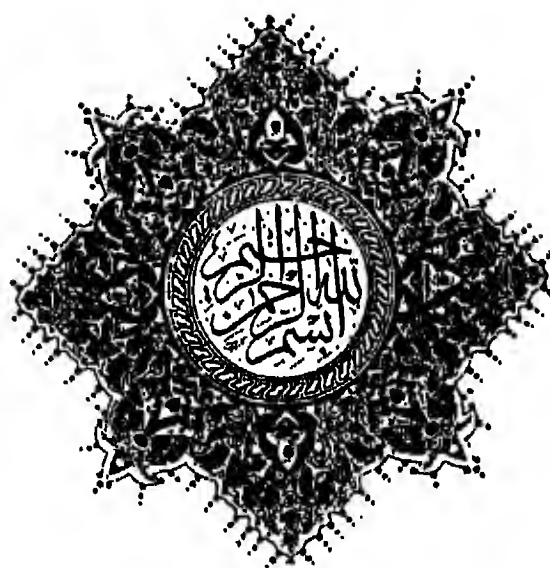
قُدُوةٌ وَأَسْوَةٌ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ



دار البقية للطباعة والنشر

اسم الكتاب :	النبي وأهل بيته قدوة وأسوة
المؤلف :	آية الله السيد محمد تقي المدرسي
الناشر :	دار البقية للطباعة والنشر
الطبعة :	الاولى - ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م
عدد النسخ :	٣٠٠٠ نسخة
السعر :	٩٠٠٠ ريال



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على قدوة المرسلين محمد المصطفى وعلى آله الهداة الميامين .
اين كانت البشرية اليوم لولم يبعث الله فيهم رسلا من انفسهم يطون عليهم آياته ويذكونهم ويعلمونهم ،
لولم يكونوا في ضلال مبين ؟

انى لهم الهدى وقد قادتهم امواسهم الى ذلك التيه البعيد بالرغم من كل الرسل واوصياهم والريانيين
والشهداء من تابعيهم وما قدموا من عطاء وما تحملوا في الله ومن اجل انقاذ البشرية من اذى .
حقا تلك كانت نعمة كبرى من الله بها علينا فقال سبحانه ،

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران/١٦٤)

واكتملت مسيرة الرسالات الإلهية بنبوة خاتم الأنبياء وسيدهم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله .
ولكن حاجة البشرية الى بيان الحق ، وتفسير الرسالة ، والشهادة على تطبيقها تلك الحاجة لم تزل ، لولم
يختلفوا فيها ولما يبدفوا صاحبها الحبيب . فجاءت النعمة الثانية ، والعظيمة إن من الله على الأمة بئمة
الهدى الذين اصطفاهم من ذرية الرسول واختارهم لقيادة الأمة .

فكانوا اعلاماً لهدى القرآن ، ومنازلاً لضيء الرسالة ، وبيوتاً لذكر الله اذن الله لها ان ترفع .
في طلعتهم سيد الوصيين الإمام امير المؤمنين (ع) وسيدة النساء الصديقة الزهراء (ع) ثم سبطي
الرحمة وإمامي الهدى الحسن والحسين (ع) ، ثم الأئمة الهداة من ذرية السبط الشهيد (ع) .
لقد كانت حياتهم دفاعاً عن مثل الرسالة وقيم الحق . وتبياناً لحقائق الدين ، وتفسيراً للقرآن الكريم
وتبصرة بمعارفه وموعظة وحكمة بالغة .

لم تأخذهم في الله لومة لائم جاهدوا في الله حق الجهاد ، وسالت دمائهم الطاهرة ودماء ذريتهم
وشيعتهم لترسم على الافق لوحة الخلق الرفيع وجمال التضحية في الله ومن اجل الحق والحرية .
اربعة عشر قدوة واسوة إلهية شهداء على درب الإيمان ، معالم في طريق الجنة ، واعلاماً للهدى ، هل
تجد لهم في الخلق نظيراً ؟

ولوردوا الأمة من بعدهم - الى جانب كنوز العلم - تلك السيرة النيرة التي لاتزال تدعونا الى الفضيلة

والهدى .

مسيرة اعلام الهدى تعطينا - ابدأ - عزما راسخا لاقتحام المستقبل واكتشاف المزيد من امكانات الانسان الكبيرة وبالذات الافاق الروحية التي لاتحد .
واليوم حيث استطاع الانسان بفضل نعمة المعرفة والتقنية ، ان يتقدم خطوات واسعة نحو تسخير الطبيعة . ازدادت حاجته الى الاخلاق لكبح جماح فرس العلم برسن الفضيلة لنلا يقتحم بنا وديان الدمار ..

فليس سواءً المتكبر المجرم الذي يمسك بيده خنجرا والذي يمسك بيده زرا لعشرات الالوف من القنابل النووية ولاريب ان التوازن بين المادة والروح قد اختل منذ زمن فياترى كم نحن بحاجة الى العطاء الروحي لاعادة التوازن ؟

واني لا اشك ولم اشك لحظة ان اعادة التوازن وبالتالي بسط راية السلام والامن في ربوع الارض لايمكن إلا بالقرآن ومفسريه من النبي واهل بيته الطاهرين فهما امان لاهل الأرض .
وان نشر سيرتهم النيرة ليساهم في هذا السبيل . ولذلك فقد سعيت بالتوكل على الله لرسم لوحات من تلك السيرة ولا ريب انني لم اقتطف من تلك الرياض الروحية إلا عدداً بسيطاً من الزهور - ولكنها - بالرغم من ذلك - تعطينا شذى - رائحة نافعاً .

واليوم حين تبادر دار الكلمة الطيبة باعادة طباعة هذه اللوحات الاربعة عشر ارجو الله سبحانه ان ينفع بها المؤلف والناشر والقراء الكرام ما يكون زاداً لأخرتهم ورحمة جامعة لدنياهم انه ولي التوفيق .

١٣ / رمضان المبارك / ١٤١٣ هـ

محمد تقى المدرسي

النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

قلوة وأسوة

تمهيد

كل من وقف أمام الشخصية الفذة التي خلقها الله تعالى . كافتخر وأروع شخصية في الحياة . ثم تأمل في سيرة هذه الشخصية ، انبهر بها أيما انبهار .
فشخصية النبي محمد (ص) هي اللوحة الجميلة الجلية التي رسم فيها كل سمو ، وكل جمال تأخذ بمجامع قلوب الناظرين إليها ، سواء كان الناظر مسلماً أو غير مسلم .. وسواء كان ممن يدرك معنى الجمال والكمال ، أولا يفهم ذلك ، فإن هذه اللوحة الباهرة تبلغ من الظهور والوضوح مبلغاً لا يدع فرداً نظراً إليها إلا وجذبتة نحوها جذباً .



إن هذه اللوحة الرائعة ، التي أريد أن أبدي جانباً منها - بعرضي هذا - هي لوحة تاريخ رسول الإسلام . محمد بن عبد الله (ص) ، التي يصعب عليّ - وأنا لأحاول أن أوجزها في صفحات قليلة - أن أقحم كل ما في العالم من مظاهر الجمال والكمال في قطعة صغيرة .
ولذلك فليعلم أن كل نقص يظهر في هذا الجانب من اللوحة ليس نقص المعبر عنه من واقع التاريخ النبويّ ، بل هو لنقص في الريشة التي رسمته ، لأنها حاولت تركيز الدنيا في مكان صغير .. وهكذا اعتذر من كل نقص يرى في هذه القطعة من اللوحة .. وأسأل الله القدير ، أن يتقبل مني هذا اليسير ، وهو المستعان .

- ٩ -

مكة المكرمة .. مدينة حجازية أنشئت منذ عهد إبراهيم الخليل (ع) ، الذي أمره الله تعالى أن يرحل ببعض ذريته إلى أرض الحجاز ، ليبنى هناك بيتاً لله يعبد فيه ولا يشرك به ، فجاء وعمر البيت الذي سُمي الكعبة .

ومن نسل إبراهيم انحدرت قبائل استعربت فيما بعد .. وكانت إحدى هذه القبائل تسمى بقریش وكانت هذه القبيلة منقسمة إلى عشرة فروع .. وكان لكل فرع سيادته واستقلاله ، كما كان لكل منها نظامه القبلي الخاص الذي يتكوّن من رئيس للقبيلة النافذ الكلمة ، المُطاع الأمر ، ومن سائر أفراد القبيلة الطائعين له اتباع الفصيل لأمه .

بنو هاشم :

وكانت إحدى هذه القبائل العشر تسمى بـ " بني هاشم " كما كانت لفظة " بني أمية " قد وضعت للقبيلة أخرى .

وبنو هاشم ، هي القبيلة التي كان النبي محمد (ص) ينتمي إليها ، حيث إنه كان من أحفاد عبد المطلب الذي كان بدوره من لبّاء هاشم ، شيخ العشيرة .

- ١٠ -

عبد الله وأمنة :

كان عبد المطلب ، شيخ بني هاشم ، ورئيسها المطاع . وكان له عشرة أولاد ، أصغرهم وأفضلهم هو عبد الله .

وكانت في مكة قبيلة قريبة تعرف ببني زهرة ، منحدرّة من نسل زهرة بن كلاب بن مرة .. وكانت امرأة من هذه القبيلة تسمى بـ " أمّنة " بنت أحد شرفائها " وهب بن عبد مناف " .

فلما شبَّ عبد الله ، زوّجه والدّه بأمّنة ، وتمّ الزواج على أسعده .

- ١١ -

الميلاد المبارك :

ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى حملت أمّنة بسيد البريّة النبي محمد (ص) في حين أن عبد الله ، ولده الكريم ، كان قد سافر في رحلة تجارية إلى الشام . فلما بلغ مدينة " يثرب " التي سميت فيما بعد بمدينة الرسول ، توفاه الله تعالى ، فولد النبي يتيماً .

ورافقت ميلاده الكريم حوادث خارقة حيث انخدمت نيران فارس المجوسية ، وغاضت بحيرة ساوة^١ وسقطت شرفات قصر كسرى ملك الفرس ، ونُكست الأصنام .

== ع ==

عهد الرضاع :

واحتفلت لسرة بني هاشم بمولده المبارك احتفالاً باهراً ، وذلك لأن عبد الله كان أحب بني هاشم إلى أنفسهم . غير أن المنية اختطفته وهو في نضرة شبابه .. وبقيت منيته ثلماً في قلوبهم وجرحاً عميقاً في نفوسهم . فكان ميلاد محمد (ص) بلسماً لذلك الجرح ، وسداً لذلك الفراغ ، وذكرى لذلك الشاب العظيم .

وحيث كان من عادة الشرفاء في مكة أن يطلبوا لأبنائهم مراضع من أهل البادية ، لتكون نشأة أولادهم سليمة عن الضعف الجسدي والنفسي ، فقد اتخذ عبد المطلب - شيخ بني هاشم ، وكفيل النبي محمد - امرأة عربية من أفصح القبائل العربية لساناً وأكرمهم خلقاً لتكون مرضعة ومربية له . تلك كانت " حليلة " المنسوبة إلى قبيلة " بني سعد " التي كانت تسكن أطراف مدينة طائف .

ودرج الطفل المبارك في أحضان القبيلة البدوية التي كانت تنظر إليه نظرة المحبة والود ، لأنه كان منشأ البركة والخير فيها ، ولأخذ ينمو نمواً سريعاً .

ولما بلغ السادسة من عمره ، رافق أمه أمنة في سفرة ودية إلى يثرب " المدينة " .. وحينما قفلوا راجعين . توفيت أمنة في منزل " الأبواء " تاركة ابنها الوحيد يتيم الأبوبن .

ولما بلغ الثامنة توفي عبد المطلب جد النبي وكفيله ، وترك كفالة محمد (ص) إلى أبي طالب ، كما خول إليه سيادة بني هاشم ، ووفادة الحاج .

ولم يكن أبو طالب كفيل النبي فقط ، بل كان بمثابة والٍ حنون يرى في إكرام ابن أخيه " محمد " وفاءً لحق أخيه عبد الله ، وإطاعةً لأمر أبيه عبد المطلب ، واداءً لمسؤولية سيادته على بني هاشم ، وعملاً بوظيفته الإنسانية المقدسة في الحياة .

فكان النبي (ص) يذهب معه إلى المرافق العامة ، حتى تلك المناطق التي كانت محرمة على غير السادة والأشراف ، مثل دار الندوة التي كانت بمثابة رئاسة الوزراء في المملكة . وكان لا يدخلها إلا من كان سيداً في قومه ، ذلك لأن أبا طالب كان حريصاً على حياة محمد وتربيته ، حتى أنه لما أراد أبو طالب أن يواصل رحلة قريش التي كانت تتجه إلى كل من اليمن في الشتاء ، والشام في الصيف لغرض التجارة ، اصطحب معه النبي (ص) وهو فتى لم يبلغ مبلغاً من العمر يؤهله إلى مثل هذه الرحلة المليئة بالأخطار.

(١) ساوة : مدينة إيرانية لا تزال بجانبها بحيرة قد غاض ماؤها وأصبحت وحلاً لا يتقدم إليها أحد إلا وارتطم فيها .

وحينما سارت القافلة ، رأوا شيئاً غريباً لم يكونوا عرفوه من قبل . فقد رأوا أن سحابة ترفرف على القافلة فتَظللهم من الشمس . وتُبدلُ الرحلة الخطيرة إلى رحلة سعيدة مريحة .

= ٥ =

الراهبُ بحيرا :

بالقرب من مدينة بصرى القديمة ، كانت تقوم صومعة يسكن فيها عابدٌ مسيحيٌ اشتهر في الداس انه صاحب كرامات وتنبؤات صادقة .

ولم يكن هذا الراهب يعتني بالقوافل التجارية التي كانت تمرُ بمنطقة في سيرها إلى الشام وإلى الحجاز ، لأنه كان مستغنياً عنهم ، في الوقت الذي كانوا محتاجين إليه .. وكانت قد مرّت قافلة قريش التجارية بهذه المنطقة مرات عديدة ، ولم يرمقهم هذا الراهب بطرف ولا خطرُوا عنده ببال .

اما في هذه المرة فقد تبدلت الأمور .. قبل أن يصل الركب ، رأى الداس ان الراهب يتطلع إلى الصحراء .. ثم يقلب وجهه في السماء كأنه يطلب شيئاً في الأرض وشيئاً في السماء .. فلما اقترب الركب ، لاحظ الداس ان الراهب يراقب سحابة في السماء كأنها تسير على اثر خطوات الخيل والجمال سواء بسواء . وحينما وصلت قريش إلى رحاب الصومعة دعاهم الراهب إلى الإقامة فيها للعشاء تلك الليلة ، وتعجب الداس كلهم من هذه البادرة ، إلا ان الراهب ازال دهشتهم بتصريح أدلى به على مائدة العشاء حيث قال ، إن إكرامه وإعظامه لقريش إنما هو لوجود هذا الفتى السعيد بيدهم ، وبشرهم بما سوف يكون من امره من الرسالة المقدسة .

وتكررت هذه البشارة مرة أخرى في الشام ، حيث التقى بالنبىِّ راهب آخر كان يدعي بـ " ابو المويعب " وبشر الداس قائلًا ، هذا نبيُّ الزمان .

= ٦ =

ورجع النبي الى مكة وامتلا رفاقه في تلك الرحلة إعجاباً به وإعظاماً له . فلما قصّوا على الداس قصصهم في السفرة ، اشتهر امر النبي ليّما اشتهار .

ثم بدّرت من النبي بوادر طيبة جعلت الداس تنتظر إليه نظر التوقير والإحترام . فحينما هدم السيل بنيان الكعبة ، ولزادت قريش ترميمها ، اختلفت في الذي يجب ان يحظى بفخر وُضِعَ الحجر الأسود في مكانه من ركن الكعبة ، فقد كان لذلك الحجر شأن عظيم في نظر قريش وسائر العرب . وكاد الزعماء في قريش يحارب بعضهم بعضاً ، بيد أن حكماهما قالوا ، لاحتكم إلى أول داخل من هذا الباب ، فرضي الجميع بذلك .

ووقف الداس ينتظرون أول الداخلين من ذلك الباب ، فإذا بطلعة النبيِّ محمّر قد اشرفت عليهم ، وإذا صوت واحد يقول ، هذا الأمين قد رضينا به . فعرف النبيُّ ماجرى بيدهم ، فامر بان يؤتى بدوب ، ثم امر

بان ياخذ كل زعيم بطرف منه ثم وضع الحجر فيه وأمر برفعه حتى إذا تساوى مع الحائط أخذه النبي ووضع في موقعه . وهكذا حفظ النبي بهذا الحكم العادل المنصف حقوق القبائل كلها ، كما أنه فاز بفخر تركيز الحجر بنفسه ، ورضيت به قريش صاحب فخر ومجد بالغين .

وكانت الرذيلة والأخلاق السيئة متفشية بين الشباب بصورة فاحشة ، حتى أنه لم يكن في العرب شاب لم يتدنس بسيناتها إلا الشاذ النادر .

ومع كل ذلك فلم يسجل العرب المعاصرون للنبي والمراقبون لأيام شبابه ، أي ميل إلى الباطل أو أي مشاركة في لهو أو لغو ، بل العكس فقد لاحظ الناس في النبي (ص) كل معاني الشرف والنبيل ، وكل سمات الإنسانية والصلاح .

والمعروف أنه كان قد تم الإقتراح على شرفاء مكة وساداتها ، أن يكونوا لجنة تدافع عن حقوق الضعفاء ، وتراعي أمورهم . فاستجابت النفوس الطيبة إليه ، وأقسموا قسماً شرفياً بذلك ، وسُميَ بـ " حلف الفضول " وسواءً كان النبي هو المقترح أو غيره ، فإنه قد حضره وقد أشاد به بعد الرسالة حيث قال : " لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جعدان ما لحب أن لي به حمر النعم ، ولو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت " .

= ♡ =

الأمين .. الحكيم :

وحيث عرف أهل مكة فيه هذا السمو الخلقي والنبيل المعنوي ، فقد ائتمنوه على أمورهم ، وسلموا إليه ودائعهم ، كما افشوا إليه أسرارهم ، واستشاروه في قضاياهم الخاصة .. فكان يعرف بينهم بالأمين وبالصادق الحكيم .

أما ما يخص أمر كنفه لبي طالب ، فقد كان النبي وفيّاً له ، برّاً به . فلقد كان أبو طالب فقيراً معيلاً ، حيث إنه كان سيداً يتحمل مسؤوليات السيادة الخطيرة التي كانت تحتاج إلى المال قبل كل شيء ، وكانت موارده قليلة جداً ، فلذلك أخذ النبي يفكر منذ صباه في طريقة للعيش يخفف بها مسؤولية الكفالة عن عمه أبي طالب .

فاشتغل برعي الغنم شأن صبيان العرب في مكة ، بفارق أنه كان يتاهل بذلك لمسؤولية الرسالة أيضاً ، وذلك أنه ما بعث الله نبياً إلا وقد كان راعياً في يوم من أيام حياته :

= ♡ =

ومرّت الأيام ، وشبّ النبي ، ولم تعد هذه الطريقة لائقة به في مثل سنّه ، فلخذ يمارس التجارة . ثم سعى عمه في إرساله بتجارة إلى الشام تخص السيدة خديجة بنت خويلد ، المرأة الثرية التي كان يتاجر بأموالها كثيرون من سكان مكة ، على أن يكون الريح بيدها وبينهم ، فتمّ له ذلك .

وحينما ذهب النبي (ص) في هذه الرحلة التجارية ، كان من أوفق التجارات التي تمت بمال خديجة

إلى ذلك الحين . وقد كان ظهر من النبي (ص) في تلك الرحلة معاجز كثيرة ، لما قصت على خديجة رغبت بالزواج بالنبي ، فقبل النبي بذلك ، ووافق عليه عمه أبو طالب . فتم الزواج السعيد في السنة الخامسة والعشرين من عمر النبي الشريف . وكان زواجه تحولاً في حياته الاجتماعية . حيث لم يعد الآن صاحب بيت ولولاد فقط بل وصاحب ثروة كبيرة ضخمة أيضاً .

ورزق النبي من خديجة خمسة أولاد هم (زينب) و (أم كلثوم) و (فاطمة) و (رقية) و (القاسم ،

لو الطاهر) عليهم السلام .

= ٩ =

لقد كان هذا الزواج لوفق زواج يعرف في صدر الإسلام . أما بالنسبة إلى خديجة فإنها أصبحت به ، زوجة النبي ، والأم الكبرى للمسلمين . بعد أن اتصل بها اشرف الخلائق لجمعين . وأما بالنسبة للنبي (ص) فقد كانت خديجة أول من آمن به ، ثم نصرته وبذلت ما لديها من المال والجاه والحكمة في سبيله وفي سبيل نشر دعوته المقدسة . ولم يزل النبي يذكر لها ذلك حتى آخر لحظة من حياته . وقد كانت وفاة خديجة تعادل عند النبي (ص) موت عمه أبي طالب ، فلقد تأثر بهما تأثراً بالغاً . ثم فقدتهما في عام واحد حينما كان لحوج ما يكون إليهما معاً .

وبعد الرسالة

= ٩ =

العالم في ذلك الوقت لحوج ما يكون إلى رسالة . وإلى رسول .
فهذهي عربٌ تند البناات وتقول ، نَعَمْ الصهرُ القبر . وتكثر الحرب ، وتصيب أنها مفخرة للإنسان .
وتؤمن بالخرافات بالكهّان والعرفّيين ، وتعبد الأصنام وقد شاع بها الظلمُ ، فهناك طائفة من المستغلين
الذين لا يعرفون للطمع حدوداً ، ولا للاستغلال قيوداً . وهناك طائفة من الكادحين الذين تُستنزف
جهودهم استنزافاً وتُستثمر قواهم استثماراً . وهذه سائر مناطق الأرض في مملكة الروم ، وفي امبراطورية
الفرس ، شاع فيها الفساد والعدوان ، وكثرت فيها الفواحش والموبقات .

= ١٠ =

وهؤلاء حكماء العرب الذين يطلعون على الكتب السماوية مثل ، ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش
وعثمان بن الحويرث وغيرهم ، يبشرون بنبيٍّ يُبعث ، وينقذ الإنسانية من هذه الهاوية السحيقة .
وهؤلاء يهود يثرب يتناولون على العرب بنبيٍّ يبعث فيهم ويأتي بكتاب عظيم ، ويخضع لدعوته العالم ،
فيصبحون أعزاء في الحياة .
وهؤلاء الكهنة والعرفّون لا يزالون ينتظرون النبيّ الذي يكون خاتم النبيين . وسيدهم .
فمن هو هذا النبيّ ، ومتى يبعث ؟؟.

= ١١ =

هنا في بيت خديجة — بمكة وفي أرض الحجاز — يُعرف رجل لم يشترك في باطل قط ، ولم يعترف عن
حق قط . ولم يعرف الإثم جنابه ولا غاب الخير والصلاح عن رحابه .
إنّ هذا الرجل تجتمع فيه جميع مؤهلات الرسالة ، وكل ما ذكر في الكتب من علائمه . فهو من أعرق
العرب فخرًا ومجدًا ، ومن أسمى أسَر العرب شرقًا وكرمًا .. وهو أحسن الناس خلقًا ، وأفضلهم عملاً ،
وأقربهم إلى الحق وأبعدهم عن الباطل .
وقد حدث مرات عديدة ، أن فقدته مكة فوجدته في غار حراء يعبد الله ويطيعه ، ويمارس سُكاً خاصة
لا يعرفها أهل مكة .

ففي الشمال الشرقي من مكة ، يرتفع جبل النور ، وفيه غارٌ اعتاد النبيّ (ص) أن يظلّ فيه ليلاً يواصل

فيها عبادةٌ مجهولة عدد الناس .

— ٤ —

وذات يوم يروح محمدٌ (ص) إلى حراء فيرى كلَّ شيء قد تبدل . فإن روحانية جديدة تشمل كيانه ، وتستوعب شعوره .. وإذا به يرى السماء قد فتحت أبوابها ، والمَلَك على أرجائها ، وجبرائيل يهبط إليه ويقول له ، اقرأ .. فيقول له النبي ، ما اقرأ ؟

فقال له جبرائيل (ع) ،

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق/١-٥) .

وكان هذا الحادث في السابع والعشرين من شهر رجب حيث يحتفل المسلمون بعيد " المبعث النبوي " باعتباره بدء حياة الخير والسعادة للإنسان على وجه الأرض .

— ٥ —

وهكذا بُعث النبي بالرسالة .. وابتدأت مرحلة جديدة من حياته الكريمة ، حيث لم يعد الإنسان المليب الذي يعمل المعروف فقط ، ويؤدي الأمانة ويصدق الحديث ، ويعيل الأقرباء ، بل أصبح الآن البشير الخدير الذي يحمل على كتفه مسؤولية قيادة الإنسان الى كل خير . وصيانتة من كل شر .
كما انها ابتدأت بالبعثة مرحلة جديدة للجزيرة العربية ، بل للعالم كله . فسوف لا يبقى العالم يسوده الظلم والظلام ، والشر والطغيان ، بل ستفتح فيه ابواب الخير التي تنتهي الى سيادة العدل والنور والخير والمعروف .

— ٦ —

ورجع النبي الى مكة فبلغ خديجة ما جرى له ، وقص عليها القصة فأمنت به ، كما انه حدث بها ابن عمه علياً — وهو فتى مراهق كان النبي قد تكفل تربيته — فأمن دم آمن كذلك جعفر أخو علي .. ثم أعلن النبي (ص) دعوته حينما نزلت هذه الآية ،

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبُّكَ الْكَبِيرُ ﴾ (المدثر/١-٣)

وابتدا بعشيرته حيث نزلت عليه آية اخرى تقول ، ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء/٢١٤) .
فجاء النبي (ص) حتى وقف على الصفا فنادى ، " يا صباحاه . فاجتمعت إليه قريش فقالوا ، مالك ؟ قال ، ارايتكم ان أخبرتكم ان العدو مصبحكم او ممسيكم ، ما كنتم تصدقوني ؟ قالوا ، بلى .

قال ، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

فقام أبو لهب — أحد اعمام النبي — وقال ، تباً لك ، الهذا دعوتنا ،

وخطب فيهم مرة أخرى وقال ،

إنها الناس ١. إن الرائد لا يكذب أهله . ولو كنت كاذباً لَمَّا كَذَبْتُمْ . والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ؟ والله لَمُوتُونَ كما تنامون . وَلَتَبْعُونَ كما تستقيظون وَلَتَحَاسِبُونَ كما تعملون ، وَلَتَجْزُونَ بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً . وإنها الجنة أبدأ ، والنار أبدأ . وإنكم أول من أنذرتهم " .

= ♡ =

ولكن لم تكن طبية القوم إلا مثل طبية أبي لهب . فقد أعرضوا عنه ، واستهزأوا به ، وسخروا بدعوته . أما هو فقد ظلَّ يواصل دعوته بشتى الأساليب ، حتى اشتهر خبرها في مكة وما حولها . وبلغت دعوته بعض النفوس النيرة الخيرة التي كانت تريد الحق والخير ، فأمنت بها ، واتبعتها . بيد أن أكثرية التابعين لها كانوا من الطبقة الفقيرة التي لم تكن تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

أما سادة قريش واشرافها .. أما المستغلون المرابون .. أما الذين كانت مصالحهم ترتبط بالأصنام والأزلام . أما ذوو العقول المتحجرة ، والنفوس المتصلبة .. أما هؤلاء فقد اعتبروا هذه الدعوة شراً يجب أن يقاوم وإن يحارب بكل وسيلة .

ولذلك فهؤلاء لم يمتنعوا عن قبول الدعوة فقط ، بل أخذوا يسلكون معها مسلكاً معادياً ، وساروا في جبهة معاكسة تماماً .. فكل من أسلم قباله بالكبت والإضطهاد ، وحاولوا رده إلى دينهم الخرافي السخيف . فكم من رجل منشرح الصدر ، ومنور القلب اعترف بالنبى ، فتعرض للتعذيب والتكيد من جانب قريش ؟ وكم من عبد أو أمة آمن بالرسالة فهتبر دمه ومات فداء إيمانه ؛ فهذا عمار قد عذبوه ونكلوا به . وهذا ياسر أبوه ، وهذه سمية أمه قد قتلوهما قتلاً ١.

= ♡ =

ولم يكن نصيب النبى (ص) من هذا التعذيب والأذى قليلاً . فإنه كان كلما سمع أنه عذب أو أودى أحدٌ في سبيل دعوته تألم وتأثر ، ولربما فاضت عيناه بالدموع .. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت قريش تتعرض للنبى بالذات ، إذ كان أبو لهب يرمي النبى بالحجارة ، وكانت زوجته تُلقي في طريق الرسول الأشواك . وكان أبو جهل يحاول إثارة غضبه بإلقاء الغرث على رأسه وهو في الصلاة ، أو يرمي القدر في طعامه وهو ياكل ؟

وشجَّ أحد الكفار رأسه الشريف بالقوس حتى جرت دماؤه على وجهه الكريم ١ . وكان بعض آخر منهم يلطخون داره بالأقذار ، وقد يلقون بها في فناء داره ..

أما السخرية والاستهزاء والتفريع ، فقد كانت تملئ بها أفواه الكفار . ويصبونها على النبى كل حين ١ .

= ♡ =

وكان النبى (ص) يقابل كل ذلك بصبر حكيم ، وحلم قائد . وإناء نبى .. فإذا جاءت إليه طائفة من

الكفار استقبلهم بكل طلاقة ، ودعاهم إلى الدين بالحسن طريق . فإذا لبّوا دعوته يكون ذلك خيراً ، وإلاّ فانه كان يطلب منهم ان يأتوا بمثل ما اتى به من القرآن .. ثم يثبوا عليهم ، ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الاسراء/ ٨٨) . ولطالما كانوا يسخرون منه ويستهنون بدعوته ، فكان يعظهم ويدعو الله لهم بالهداية دون ان يخضب لو يثور .

وكان في بعض الأحيان يتجول في العشائر والمجامع ، ويدعو الناس إلى ربهم . بيد ان كفار قريش كانوا يعرقلون طريق دعوته بامرين ، الأول ، انهم كانوا يحذرون الناس من ان يتأثروا بدعوته قائلين لهم ، إنّ الرجل منّا ، وهو ساحر ومجنون لو كذّاب . حتى ان الناس كانوا يضعون القطن في آذانهم لكي لا يسمعوا قول النبي (ص) . الثاني ، انه كان يسير خلفه رجل منهم ويصيح انه كذاب فلا يُسمع قوله ، ولا تُتَّبى دعوته .

= ٩٥ =

وعجز كفار قريش عن ان يمنعوا سير الدعوة الحثيث واشتغارها بهذه المعارضة . ففكروا في انتهاج مسلك آخر في منع الناس عن الإسلام ، فجأؤوا إلى النبي (ص) وقالوا له ، يا محمد شتمت الالهة ، وسفّيت الأحلام ، وفرّقت الجماعة . فإن طلبت مالاً أعطيناك ، او الشرف سوّدناك ، او كان بك علة داويذاك . فقال (ص) ، " ليس شيء من ذلك ، بعثني الله إليكم رسولاً ، وانزل كتاباً فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه اصبر حتى يحكم الله بيننا " .

= ٩٦ =

وفكروا هذه المرة بان يستاصلوا الشجرة الطيبة من أصلها وان يقاتلوا النبي (ص) نفسه ، بيد انه كان يومئذ يلوي إلى ركن شديد ، وسنر قويّ ، لم يقتدر الكفار ان يأتوا عليه ، وهو عمه وناصره ابو طالب سيد قريش وشيخ بني هاشم . فحاولوا أوّل الأمر إغراء ابي طالب فقالوا له ، إنّنا نعطيك ولداً وسيماً من أبنائنا وناخذ محمداً وننقله . فقال ، ما انصفتُموني . أخذ ولدكم فأطعمه واسقيه ، وتأخذون ولدي فتقتلونه . فقالوا له ، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّاه آحلامنا ، وضلل أبائنا . فإما ان تكفه عنّا ، وإما ان تتخلّى بيننا وبينه فننكّيه . لكن ابا طالب الذي لم يشك في صدق مقالة ابن أخيه والرسول المبعوث إليه ، ردّهم ولم يقبل أيّ واحد من اقتراحاتهم ، وخطب النبي (ص) قائلاً ، أدع إلى ربك . فإني لن اتخلّى عنك أبداً ..

= ٩٧ =

وحينما رأت قريش ان ابا طالب لن يتخلّى عن النبي ، دبّرت له خطة اخرى ، حيث اجمعت امرها على مقاطعة النبي وكلّ من يؤازره من بني هاشم . وكتبوا صحيفة بشأن هذا القرار ، ومنعوا الناس من ان

يبيعوا شيئاً إلى بني هاشم . فجمع أبو طالب بني هاشم وجعلهم في شُعبٍ كان له في أطراف مكة ، ويقوا هناك ثلاث سنين في أشد ما يكون من سوء العيش . وأكثر ما يكون من الخوف والقلق ، حتى أن أبا طالب كان يبذل فراش النبي في كل ليلة مرات خوفاً على حياته الكريمة .

وشاء الله بأن تنقضي مدة هذا النفي فامر بالارضة " وهي دابة صغيرة " بأن تاكل الخطوط الملونة التي رسمت على الصحيفة . فلكتها ، وألهم نبيّه بشأن ذلك ، فلخبر النبيّ أبا طالب (ع) - وهو بدوره - ذهب إلى الكفار وحدهم بذلك . وقال إن ذلك علامة صدق ابن أخي في ادّعائه الرسالة ، وكذبكم في إنكاركم أمره .. فجعلوا الاطلاع على الصحيفة حكماً بينهم فإن كانت الصحيفة كما أخبر الرسول أخرجوهم من المنفى ، وإن لم تكن فإنهم ماكنون فيه .

وحيثما أطلعوا عليها وجدوها كما أخبر الرسول . فخرج بنو هاشم من المنفى منتصرين . وتمّ بذلك عهد كان من أشد العهود على النبيّ وآله . وأصعبها جميعاً .

وإنّ الضراء التي مست الأسرة الهاشمية في منغافها بشُعب أبي طالب كانت شديدة للغاية . ولذلك فإن خسارتها كانت بالغة وكبيرة أيضاً ، حيث نتج عن الحصار الإقتصادي والاجتماعي على بني هاشم موت خديجة زوجة النبي (ص) ، وموت أبي طالب عمه وكفيله .

== ١٣ ==

لقد كانت خديجة شريكة النبيّ (ص) في كلّ آلامه وآماله ، والمسئولة له بما أصابه من أذى ، بل كانت المعينة له على مكاره قريش ، كما كان أبو طالب حامياً للنبي الذي كان قد لقى بينه وبين أذى قريش حجاباً ثقيلاً .

لقد كان أبو طالب سيّد قريش وشيخ بني هاشم ، وكان له حق مشروع في الدفاع عن النبيّ محمد (ص) في منطق النظام الاجتماعي السائد في تلك الأيام ، حيث إنه كان يعتبر النبيّ ابناً له . والمرء يمكنه الدفاع عن ولده في ذلك النظام بكل أسلوب وفي جميع الأحوال حتى ولو كان ابنه خارجاً عن طريقة أهل البلاد ودينهم .

فموت أبي طالب وخديجة كان بمثابة هدم حصن حصين ذي ركبتين ثابتين بالنسبة إلى النبي (ص) في تلك الظروف ، ولذلك سميت تلك السنة بعام الحزن . وحيث اشتدّ فيه حزن النبيّ وتأثره بموت حاميه والمدافعين عن دعوته ورسالته . وكان ذلك بين العام السابع والثامن من البعثة .

== ١٤ ==

واشتدت الأزمة بالنبي (ص) بعد وفاة أبي طالب . لأن قريشاً أجمعت أمرها على سحق المسلمين ومحرق الدعوة الإسلامية ، فقامت بضغط عنيف على المسلمين ، وبلاذى كثير للنبيّ (ص) وحاولوا مرات عديدة قتله إلا أن الله منعه منهم . فاخذ النبي (ص) يعدّ تدابير لهذه الأزمة المحيطة به وبالمسلمين .. فبالنسبة إلى المسلمين أمرهم بالهجرة إلى الحبشة .. وقد تمت هذه الخطة بترحيل طائفتين

كبيرتين منهم إليها عن طريق البحر ، فتخلصوا من شر الكفار وكيدهم ، وقد أواهم ملك الحبشة . وأكرم وفادتهم .

وأما بالنسبة إليه نفسه (ص) فقد ذهب إلى الطائف - وهي مدينة قريبة من مكة تقطنها قبيلة ثقيف الكبيرة - لعله يستطيع أن يهدي أهلها فيمنعوه من قريش . بيد أن هذه الخطة لم تحظ بنجاح ، فقبيلة ثقيف لم تقبل الإسلام ، بل سلّطت سفهاءها وجُهاً لها على النبي (ص) ، فادّوه شر أذية وأرسلوا إلى مكة ينقلون إلى قريش قصة دعوته لهم إلى الإسلام ، فاستعدت قريش له من جديد ، فلم يامن النبي (ص) يومئذ على نفسه من الرجوع إلى مكة بصورة عادية ، فاضطرّ إلى أن يرأسل بعض سادات قريش ورؤسائها يطلب منهم أن يجيروه من قريش ، فاجاره واحد منهم حتى جاء إلى مكة تحت حمايته .

= ٩ =

وعرف النبي (ص) أخيراً أن أهل مكة لا يمكن أن يكونوا الحاملين للرسالة الإسلامية المقدسة إلى الأفاق ، لأن دعوته الملحة المستمرة التي ظلت فيها زهاء عشر سنوات لم تجده دفعا أبداً ، ولم تنتج غير اصرار من الكفار وعداد بالغين .

فصمّ على نشر الدعوة بين سائر القبائل العربية الأخرى ، فإذا استطاع أن يهدي قبيلة واحدة ذهب إليها وظلّ ينشر نور الإسلام من خلال أفرادها . فلخذ يدعو الناس في المواسم التي كانت العرب تتدفق فيها على مكة لغرض العبادة أو التجارة فيذهب إلى القبيلة ويقول لها ،

" يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، وأنا أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وإن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وإن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به " . وكانت قريش ترسل وراءه من يعقب على كلامه بتحذير العرب من طاعته ، وتهجّن دعواه ، وكان عمّه أبو لهب يتولى هذه المهمة في أغلب الأحوال .

أما القبائل العربية فكانت تتعصّب لآلهتها المزعومة ، وتؤثر البقاء على تقليد الآباء . كما كانت تحذر من قريش إذ لو كانت تسلم لكانت تتعرض لحرب قريش قطعاً . فكانت تردّ النبي ولا تقبل دعواه وتردّه إما رداً جميلاً أو قبيحاً .

١٠٩

إلا أن قبيلة واحدة استجابت إلى دعوة النبي (ص) ، تلك كانت القبيلة العربية الساكنة في يثرب ، والتي كانت منقسمة إلى طائفتين . الأوس والخزرج ، وكانت الحرب بينهما قائمة على أشدها ، وكانوا قد ملّوها .

نعم ، استجاب أهل يثرب إلى قول النبي (ص) وقبلوا دعوته . وبذلك أخذ الإسلام ينتشر في المدينة " يثرب " انتشار الضياء بعد ليل طويل .

وتمّت بيعة مسلمي المدينة الثانية مع محمد (ص) في العقبة بمنى في السنة الثانية ، وتمت بها

الاتفاقية العسكرية بين النبي وانصاره من اهل المدينة . وكان اللازم بموجبها على المسلمين من اهل المدينة الدفاع عن النبي (ص) وعن سائر المسلمين من اتباعه بكل ما لديهم من قوى حربية .

= ٩٧ =

وابتدا النبي (ص) بتنظيم الهجرة الى المدينة . فاخذ يرحل اصحابه إليها واحداً بعد آخر على حين غفلة من كفار قريش .

وحيثما سمع الكفار بذلك قالوا في ما بينهم : ان المسلمين إذا اجتمعوا في المدينة ، كَوْنُوا قُوَّةً معارضة تكلفنا كثيراً من المال والدم .. ففكروا في إعاقة الهجرة بمنع المسلمين ترغيباً او ترهيباً .. بيد ان المسلمين اخذوا يفلتون من أيديهم تحت أجنحة الظلام وفي غياهب الليل .. فقال الكفار لأنفسهم : ان النبي لا يزال بين أيدينا ، وليس له منعة عنا . فلو هاجر إلى المدينة وجمع انصاره حوله ، فهذا يصيح من الصعب القضاء عليه . فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في الأمر . حتى استقر رأيهم على ان يأتوا من كل قبيلة برجل ، ثم يهجموا على النبي هجمة واحدة فيقتلوه ويضيع دمه بين قبائل العرب ، فلا يستطيع بنو هاشم من أخذ الثار منهم .

واختاروا من كل عشيرة رجلاً ، فجاؤوا ولحاطوا بدار النبي (ص) ، ولكن الوحي نزل وأمره بان يتخذ الليل جماً مهاجراً إلى المدينة ، ثم أوضح له كل شيء من تدابير قريش وخططهم .

فجعل النبي الإمام علياً مكانه يبيت في فراشه لكي يظن الكفار ان النبي (ص) موجود فيشتغلوا به ويخرج هو من طريق آخر .. فبات الإمام على فراش الموت ينتظر المصير الكائن .. بينما ذهب النبي بلمتمس طريقه إلى غار ثور .. حيث بقي هناك وقتاً كافياً ثم سار إلى المدينة على غير الجادة ، لكي لا تلحقه قريش لو عملاؤها الذين جعلت لكل من اخذ محمد منهم مقدراً كثيراً من المال .

= ٩٨ =

وعندما وصل النبي إلى المدينة احتفلت احتفالاً رائعاً بقدومه ، وسارت فيها مواكب السرور بهازيج الفرح . وتمت بذلك الهجرة النبوية التي كانت بداية حياة جديدة للمسلمين ، حياة العزة والمنعة ، وحياة الدفاع عن حقوقهم ، والجهاد لأعدائهم ، وحياة التوسع والانطلاق إلى آفاق العالم .. وفي الواقع كانت الهجرة بدء تكوين الأمة الإسلامية الموحدة ولذلك اتخذ المسلمون منها بدء تاريخهم الديني ، لأنها كانت أهم الأحداث بالنسبة إليهم .

وبقيت في مكة طائفة من المسلمين تمّ ترحيلهم ايضاً بقيادة الإمام علي بن ابي طالب (ع) ، بعد التغلب على صعوبات شديدة . وهناك فكرت قريش في أساليب أخرى للقضاء على الإسلام والمسلمين بعد ما فات وقت الأساليب السابقة .

= ٩٩ =

الأساليب الجديدة كانت توجز في خطتين اتبعتهما قريش الواحدة تلو الأخرى :

الخطوة الأولى ، كانت بعث رسائل إلى أهل المدينة يريدون فيها منهم تسليم محمد (ص) إليهم مع شيء من الترهيب والترغيب ، بيد أن المسلمين هزنوا بهذه الفكرة ، وسخروا من أهلها ، وبعثوا بقصيدة هجائية إلى قريش يبيّنوا بها جوابهم الصريح بعد أن أثبتوا حقيقة النبي (ص) وحقيقة قريش التي تناوّه .

والخطوة الثانية ، وضع الحصار الاقتصادي على المدينة حيث كانت لقريش كل التجارة العربية .. وكانوا قد أمّنوا طرق تجارتهم بالتحالف مع القبائل البدوية التي كانت تسكن في طريق الشام وطريق اليمن . فاصدروا إليها بياناً حظروا فيه بيع المواد الغذائية لأهل المدينة ، أو الإجازة لمرور القوافل التجارية لأهل المدينة التي ترمي إلى استيراد المواد إليها .



وأما النبي (ص) الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن المدينة والذي كان يرى أن الحصار الاقتصادي الذي ابتلي به أهل المدينة إنما هو لأجله وبسببه . فإنه دبر خطة دفاع عن هذا الحصار بما سيأتي من أمر غزوة بدر ، إلا أنه يجب علينا أن نلقي نظرة عاجلة على حالة أهل المدينة وامكانياتهم المادية والمعنوية قبل الحديث عنها .

فقد جاء النبي (ص) إلى المدينة فوجد فيها عناصر ثلاثة ،

١- المسلمون ، وهم يتالفون من لؤس وخزرج ومهاجرين ، وكل منهم يخطف عن الآخر .. فاستطاع النبي (ص) أن يصهرهم في قالب واحد ، حتى صاروا أخوة متألّفة قلوبهم ، مترابطة صفوفهم ، واصبحوا "أمة واحدة كلسان المشط .. في التساوي والتعاون " .

٢- المنافقون ، وهم طائفة كبيرة من العرب ، اظهروا الإسلام واضمروا الكفر . وقد قدر النبي (ص) على أن يشل حركات هذه الطائفة ونشاطاتها باللفظ حيناً ، وباعطائهم بعض المناصب التي تشغلهم ، وبعض المسؤوليات التي تسدّ فراغهم حيناً آخر .. واشترك الوحي في تقويمهم بالآيات التي نزلت في المنافقين وكانت تؤكد على ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الشَّرِّكَ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (النساء/١٤٥) .

٣- اليهود ، الذين كانوا قوة رهيبة يملكون من المال والسلاح والحيلة الشيء الكثير . ولقد وضع النبي (ص) اتفاقيات سياسية وعسكرية معهم ، تضمن للفريقين التعايش السلمي والدفاع المشترك عن البلاد وأهلها .



وكانت مسؤوليات الرسول (ص) في المدينة أكثر منها في مكة ، وإن كان الضغط هناك أكثر . حيث كان الرسول يريد أن يكون أمة ، قبل أن يشيد دولة . فمسؤولية التبليغ لخبر المسلمين ، ومسؤولية تهذيب المسلمين ، ومسؤولية تطبيق نظم الإسلام ، ومسؤولية الدفاع عن المسلمين في الجزيرة العربية التي كان شعارها الحروب والغزوات ، ودارها السيوف والرماح ، هذه المسؤوليات كانت بعض ما أخذ النبي (ص) على عاتقه أدامها من المسؤوليات الخطيرة . ففي نفس الوقت الذي كان النبي (ص) يقود

الجيش الإسلامي إلى جبهات القتال كان يوصيهم بإداء الأمانة والوفاء بالعهد ولو مع العدو اللدود . وفي نفس الوقت الذي كان يلقيهم دروس التضحية والجهاد للدين ، كان يشرح لهم معاني العفو والصفح ، وإشاعة السلام وإطابة الكلام . وفي نفس اللحظة التي كان يتولى دفن الشهداء في أحد وقد مُلئ بهم شرّاً تمثيل فامتلات قلوب المسلمين حقداً على الكفار وغيظاً وأملاً بالثار ، كان النبي (ص) يطلبوا عليهم آيات العفو وتحريم المثلة ولو بالكلب العقور ..

ومن كل هذا نكتشف مدى خطورة مسؤولية النبي^ﷺ (ص) التي كانت تهدف إلى تكوين الأمة الموحدة ، كافضل وامجد امة في الحياة .

= ٢٢ =

وهنا نرجع الى الحصار الإقتصادي الذي ضربه كفّار مكة على المدينة لنعرف ما كان موقف النبي^ﷺ (ص) وكيف فكه عنها .

فالخطة التي اتبعها النبي^ﷺ (ص) في رد هذا الحصار كان شيئا مماثلاً .. فالقوافل التجارية التي كانت تريد أن تسير إلى الشام من مكة كان الواجب عليها أن تقطع المضيق البرّي بين البحر الأحمر والمدينة . فجعل النبي^ﷺ (ص) سرية مسلحة لمراقبة هذه المنطقة .. وكانت هذه السرية من المهاجرين حيناً ومن الأنصار حيناً آخر ، وكانت وظيفة هذه السرية منح القوافل التجارية . ولكن القوافل هذه كانت قد تعاملت مع القبائل البدوية في الطريق على أن تمنعها من المهاجمات التي كان يقوم بها قراصنة الصحراء ، على أن تعطى القوافل التجارية لها ضرائب معلومة كل سنة . ولذلك فقد فشلت هذه الخطة مرات عديدة حيث كانت هذه السرية المسلحة تريد التعرض للقوافل ، فكانت القبائل البدوية تدافع عنها بحجة المعاهدة التي بينهما .

بيد أن النبي (ص) ذهب الى هذه القبائل البدوية العربية وعقد معها اتفاقية في شأن الأمور الحربية ، وبذلك أمّن من دفاعها عن قوافل مكة .

= ٢٣ =

وارسل النبي^ﷺ (ص) طائفة من أصحابه إلى موضع بين مكة والطائف ليترصّدوا له قافلة قريش التجارية ، فكتب رسالة مختومة ولعطاها قائد هذه الطائفة المدعو بـ "عبد الله بن جحش" وقال له ، اذهب في اتجاه مكة ، فإذا سرت يومين فافتح الكتاب واعمل بما فيه . فلما فتحه وجد فيه ما يلي ، إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها . فذهب إلى نخلة ورأى قافلة تجارية تمر بها في طريقها إلى مكة ، فاستولى عليها . وأتى بها إلى المدينة بعد أن أسر منها رجلين وقتل رجلاً وهرب آخر .

والنبي^ﷺ (ص) وإن كان لم يرضَ بفعل هذا القائد إلا أنه استفاد من هذا المال .. في حين كان لحوج ما يكون إليه . كما أنه ربح الموقف بإلقاء الرعب في قلوب الكفار .

وقاد النبي^ﷺ (ص) السرية المسلحة في المرة الثانية ، ولخذ يراقب بنفسه الركب التجاري لقريش وسمع غير مرة بمسيرة قريش للتجارة . وخرج إليها . غير أن الركب كان قد فاته ولم يلحق به .. ولقد سبق أن قلنا ، إن إعاقة مسير قريش للتجارة كان دفاعاً مشروعاً للنبي^ﷺ ، باعتباره عملاً مماثلاً لمنع القوافل التجارية عن اهل المدينة ، وفكاً للحصار الإقتصادي ، وإدانة لقريش مقابل ما استولوا عليه من اموال المسلمين في مكة ولم يرضوا إعطائها لهم .

وذات مرة خرج النبي^ﷺ (ص) لهذه الغاية - حيث سمع بركب قرشي للتجارة فخرج إليه ليستولي عليه - فوصل الخبر إلى الركب ، فإرسل بخبر ذلك إلى مكة واستنفرهم بأن اموالهم في خطر والعرب في مكة كانوا يفدون أنفسهم لأموالهم ، ويبدلون ارواحهم في سبيل حفظها ، فحينما سمعوا بالنبا ، وهو أن محمداً (ص) يتعرض لأموالهم ، خرجوا إليه مسرعين نحو المدينة .

وكان أبو سفيان يتولى رئاسة القافلة التجارية ، فتتكب بها عن الطريق حتى سيرها على ساحل البحر الأحمر بعيداً عن النبي (ص) وعن سريته المسلحة ، وانقذها بذلك من سيطرة واستيلاء المسلمين عليها . وأما كفار قريش فإنهم ساروا إلى جهة المدينة . ومع أنهم سمعوا بنجاة القافلة التجارية ، فإنهم لم يسمحوا لأنفسهم بالرجوع إلى مكة إلا بعد إبادة المسلمين وكسر شوكتهم .

وكان النبي^ﷺ (ص) لا يزال في طريقه إلى مكة - وهو يطلب غير قريش - وقريش في طريقها إلى المدينة تريد إبادة المسلمين ، فالتقى على ماء كان يسمى ببدر ولم يكن النبي^ﷺ (ص) قد استعد للحرب ، بل كما سبق كان هدفه الاستيلاء على اموال التجارة القرشية . ومع ذلك فإنه رأى رجوعه إلى المدينة انهزاماً ، ولم يسمح لنفسه بذلك حتى لا يذنب الطمع في قلوب الكفار بالقضاء على المسلمين .



وكانت هذه أول حرب يخوضها المسلمون وكانت في السنة الثانية من الهجرة ، وكان عدد الكفار يتجاوز تسعمائة وخمسين رجلاً ، بينما لم يكن عدد المسلمين يبلغ أكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، ومع كل ذلك فقد ربحها المسلمون وألحقوا خسارات فادحة بأعدائهم وهزمهم بإذن الله .

لقد كان التكتيك الحربي في الجزيرة العربية لا يعدو عن مقابلة الفرد بالفرد في مشهد ينظر إليه الفريقان ، حتى إذا قتل الأبطال ، هاجم الفرد ، لو الجبهة - الجبهة المعادية - حتى ينهزم أحد الفريقين .

بيد أن النبي^ﷺ (ص) اتبع في حرب بدر طريقة جديدة حيث شكّل مثلثات حربية فريدة من نوعها . وذلك بأن أمر باصطفاف المسلمين على شكل مثلث كبير على شرط أن يكون ظهر كل فرد داخل المثلث - أي إلى سائر افراد المثلث - ووجهه إلى الخارج - أي إلى الكفار - .

ولقد نصره الله بجنوده من الملائكة أنزلهم لُنصرة نبيِّه (ص) فانهزم الكُفَّار بعدما قُتل إبطالهم على يد الإمام علي بن أبي طالب (ع) . وانجلت الحرب عن سبعين قتيلاً من الكُفَّار أكثرهم من رؤسائهم وإبطالهم ، وأربعة عشر شهيداً من المسلمين ، ثمانية منهم من الانصار ، وستة من المهاجرين .

= ٢٥ =

وهذه الحرب الدامية فتحت باب الحروب بوجه النبي (ص) ، الذي تصدى لها ببسالة وصمود .. فجعلت قريشا موتورة بقتلاها ، وطالبة لثاراتها ، كما جعلت المسلمين مؤمنين بنصر الله لهم وقدرتهم على صد كلُّ هجوم مسلح من أي طراز كان .

وهذه الحرب دعت قريشاً إلى حبك المؤامرات الكائنة للنبي (ص) . فقد أرسلت ببعض إبطالها إلى المدينة خفية للغدر بالنبي وقطعه . بيد أن الله تعالى فضحه . فلما جيء به إلى النبي (ص) وتكلم النبي معه وأخبره بالمؤامرة تفصيلاً أسلم الرجل الذي كان يدعى " عمير بن وهب " وذهب إلى مكة داعياً للإسلام متحمساً نشيطاً .

وهكذا فشلت هذه المؤامرة الماكدة .

= ٢٦ =

ثم قامت قريش بمحاولة فاشلة أخرى ، إذ خرجوا وهم مائتاً نفر يقودهم أبو سفيان ، وغاروا على المدينة ليلاً فقتلوا رجلين . فلما لحقهم المسلمون بقيادة النبي (ص) ولوا هاربين ، وخلفوا بعض امتعتهم ليخفوا عن أنفسهم في السير .. وتسمى هذه الغزوة بـ " السويق " حيث إن المسلمين غنموا من السويق ما كان زاداً للكفار .

= ٢٧ =

واخذ أبو سفيان قيادة قريش هذه المرة ، إذ نصب لواء الكفر وحشد تحته خمسة آلاف رجل مقاتل ، وزحف نحو المدينة . فلما بلغ جبل أُحُد على بعد كيلو مترات من المدينة ، تصدَّى له الرسول (ص) بجيش لم يتجاوز عدده ستمائة محارب . ووضع النبي خطة حربية باهرة ، إذ اتخذ من الجبل ظهراً للجيش ، وجعل على ثغور الجبل الذي وراءه سرية برئاسة " عبد الله " وأمرهم بأن لا يغادروا موقعهم الحربي الخطير مهما كان الأمر ، غلب المسلمون لو غلبوا ، ثم أمر المسلمين بالهجوم الموحد على الكفار .

والكفار الذين لم يكونوا يعرفون نظام الهجوم الموحد لأنهم لم يروه من ذي قبل انهزموا بعد ساعات من الاشتباك الدامي ، فاستولى المسلمون على امتعتهم — فرأى أهل الثغور خلف المسلمين فوق جبل أُحُد رأى هؤلاء أن أخوانهم — في تقدم باهر وفي جمع الغنائم فنزلوا عن الموقع الخطير واشتركوا في جمع الغنائم . وكلما ناشدهم قائدهم عبد الله بالبقاء لم يقبلوا منه ، وحينما رأى الكُفَّار ذلك داروا من خلف الجيش الإسلامي ، وهجموا على ما بقي من أصحاب عبد الله — صاحب الثغر — بقيادة خالد بن الوليد

وكان في جيش قريش ، وقطوهم وهجموا على المسلمين من ورائهم ونادوا بالكفار المهزيمين ليرجعوا . فاحاط جيش قريش بالجيش الإسلامي ، وهرب القسم الأكبر من المسلمين . بيد أن الدين بقوا مع النبي والإمام علي عليهما الصلاة والسلام وطائفة أخرى من المسلمين المخلصين ، ربحوا الموقف . واخيراً قتل الإمام عشرة أفراد من حاملي البوكة الكفار حتى وقع لوانهم وانهزموا راجعين ..

ويعد ذلك غنم المسلمون غنائم كثيرة .. مع أنهم خسروا خسارات باهظة ، مثل قتل حمزة بن عبد المطلب الشجاع البطل والقائد الثالث للقوات الإسلامية بعد النبي والإمام علي ، والذي سمّاه النبي (ص) "بسيد الشهداء" .

- ٢٨ -

وجمع أبو سفيان قلوب جيشه وعسكر في بعض المواقع بين مكة والمدينة . فخرج الرسول (ص) إلى الروحاء مع كل ما لحقه من خسارات الحرب الباهظة ، وكل ما اضر باصحابه من متاعبها ومصاعبها . وحينما وصل إليه هابه أبو سفيان وفرّ هارباً إلى مكة . وكان خروج النبي هذا كسباً للموقف بعد خسارته ، وإرجاعاً لمكانة الجيش الإسلامي في نفوس اعدائه بعد زوالها .

- ٢٩ -

ثم بعد مدة جمع أبو سفيان ألف مقاتل وزحف بهم إلى المدينة ، فلما سمع النبي (ص) بخبره خرج حتى بلغ بدرًا ولكن الكفار لما سمعوا بذلك ولّوا هاربين ولم يبق من أمر كفار قريش مع النبي إلا غزوة واحدة فقط ، وهي غزوة الخندق التي اشترك فيها قريش وغيرها .

- ٣٠ -

وقاد هذه الغزوة أبو سفيان بوصفه قائداً للقوات العربية في مكة ، حيث جمع قريشاً والأعراب وتحالفوا مع بعض اليهود في المدينة ، وجأفوا إلى إبادة المسلمين . والحروب التي خاضها المسلمون في حياة النبي (ص) كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع ، الأول ، الذي كان بينهم وبين قريش .

والثاني ، الذي كان بينهم وبين اليهود الساكنين في حصون اليهود حول المدينة . والثالث ، الذي كان بينهم وبين سائر الأعراب الذين تصدوا لمنع تقدم الإسلام ، ووقفوا امام انتشاره . وقد اجتمعت الحروب بانواعها الثلاثة في غزوة الخندق . ولذلك سميت بـ "الأحزاب" ايضاً ، حيث تحالفت قريش مع "بني سليم" و "اسد" و "فزارة" و "اشجع" و غطفان " ومع "بني قريظة" . وبعض يهود المدينة تحالفوا جميعاً على محاربة النبي (ص) . وحينئذ تمّ رأي المسلمين على أن يبقوا في المدينة ، ويحفرها بينهم وبين الأحزاب خندقاً عميقاً وعريضاً .

وجاءت الجيوش المعادية كالسيل الهادر يملأ السهل والجبل ، فزلوا الخندق فقالوا ، هذه حيلة جديدة . وجاء شجعانهم ، وهما ، " عمرو بن عبد ودّ ، وعكرمة بن أبي جهل " واقتحما الخندق حتى توسّطا بينه وبين المسلمين .. فآخذا يطلبان المبارزة فتقدم الإمام علي بن أبي طالب (ع) إلى أشجع العرب في زمانه عمرو بن عبد ود فقطه . وبموته ساد الرعب في صفوف الكفار . وتبادل الفريقان المُرّامة بالسهم . وبقيت الجيوش الكافرة أكثر من عشرين يوماً ، ثم رجعوا على أعقابهم خائبين بعدما كلفهم الأمر خسائر معنوية ومادية كثيرة .

وشاع في الجزيرة العربية خبر صمود المسلمين أمام القوى مهما تضاعفت وتجمّعت ، فهذا جيش الإسلام لم يتجاوز عدده ثلاثة آلاف ، بينما الكفار كانوا عشرة آلاف . ومع ذلك كان النصر للإسلام .

= ٣٩ =

وبغزوة الخندق انتهت السلسلة الكبرى من حروب النبي (ص) مع قريش . ولم يخض النبي بعدها أية معركة ، إلا فتح مكة التي لم تكن حرباً في الواقع بل كانت انتصاراً وغلبة نهائية للمسلمين على الكفار . وبقيت هناك سلسلتان من الحروب الإسلامية .

الأولى ، حروب المسلمين مع اليهود .

والثانية ، حروبهم مع القبائل العربية الأخرى .

= ٤٠ =

أما حروب المسلمين مع اليهود فتوجّز بما يلي ، اليهود كانوا أجزاً ناتئة ناشزة وضعت في الجزيرة العربية لترد ما لحقهم من سيوف الملوك والسلطين . وكانت الأكثرية الساحقة منهم يسكن في المدينة ، وهم بنو قينقاع وبنو النضير ، وبنو قريظة ويهود خيبر ، ويهود فدك ، ويهود وادي قرن ، ويهود تيماء .

فأما بنو قينقاع فقد كانت قبيلة مهندية تستولي على صياغة الجزيرة .. وقد ذهبت امرأة من المسلمين عند أحد الصاغة منهم فراودها ليكشف عن وجهها فابت فعمد اليهودي إلى طرف ثوب المرأة فعهده إلى ظهرها من حيث لم تعلم المرأة بذلك . فلما قامت انكشفت سواتها فضحك اليهودي منها ، فصاحت تستصرخ المسلمين . فودب أحد المسلمين وقتل اليهودي ، فاجتمع اليهود وقتلوا ذلك المسلم .

ثم احتدم النزاع بين المسلمين واليهود . وجاء النبي (ص) إلى اليهود ينصحهم بالدخول إلى الإسلام وقبول نظمه المقدسة ، فاستهزأوا به ، وطلبوا النزال . فذهب الرسول إلى حصونهم وحاصرهم خمسة عشر يوماً فانتهى إلى الصلح مع النبي بالخروج عن المدينة مع أموالهم وذراريهم وخلفوا تركاتهم وامتعهم لتكون للمسلمين ففعلوا ذلك وذهبوا إلى أطراف الشام .

= ٤١ =

وأما بنو النضير ، فقد كانت قبيلة ثرية تعطي أموالها قرضاً للناس ، فذهب النبي (ص) إليها يطلب منها القرض . فارادوا اغتياله ، حيث اصروا عليه بالدخول إلى دورهم فلبى ذلك ، واتكا على الحائط فارادوا

القاء حجر الدفن على رأسه من فوقه . ففتحى عنه ، ورجع إلى المدينة قبل أن يقترض منهم ، وارسل إليهم أن اخرجوا من ديارى حيث نقضتم ميثاقى . وقد أجلكم عشرة ايام . فاخبروا النبي (ص) بانهم لن يخرجوا فليفعل ما شاء .

فخرج النبي (ص) إليهم ، وحاصرههم وهدم مساكنهم فاخذوا يتنقلون من حصن إلى حصن . حتى ضاق عليهم الأمر فطلبوا من النبي (ص) أن يخرجوا بانقالمهم عن المدينة ، فلم يقبل منهم . فخرجوا وخلفوا اموالهم غنائم للمسلمين .

== ٢٢ ==

اما بنو قريظة فإنهم كانوا حلفاء للاوس ، ثم أصبحوا معاهدين مع الرسول (ص) . ولكنهم انضموا إلى الأحزاب في غزوة الخندق .. فبعد انتهاء الغزوة بانتصار المسلمين امر الرسول (ص) الجيش بالمسير إلى بني قريظة . فجاؤا حتى حاصروهم مدة خمسة وعشرين يوما . ثم اراد الإمام امير المؤمنين (ع) أن يقتحم حصونهم . فنزلوا على حكم رسول الله (ص) .

فامر بهم فأوثقوا . ثم جاء إليه بعض الأوس يستشفعون في امرهم فقال لهم ، الا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . فاخترنا سيدهم " سعد بن معاذ " فلما جاء سعد حكم فيهم بحكم التوراة (الكتاب المقدس الذي يتبعونه) بأن يقتل رجالهم ، ويسبي نساءهم ، ففعل ذلك بهم .

== ٢٣ ==

وفي السنة السابعة من الهجرة حيث تم صلح الحديبية فكرّ النبي (ص) في محاربة يهود خيبر الذين كانوا يكثررون الضغط على المسلمين ويعاونون اعدائهم عليهم دائما . فلما سار إليهم الجيش كان لهم حصون سبعة كلها منيعة اشد ما تكون المنعة . فحاصروا الحصون مدةً مديدة .. حتى ضاق اليهود ذرعاً بالحصار . بيد أنهم قاوموا حتى فتح المسلمون تحت قيادة الإمام علي بن ابي طالب (ع) حصونهم واحداً تلو الآخر ، وقتل الإمام أشجع ابطالهم " مرحب " وقلع الباب الكبير الذي كان يعجز عنه اربعون فارساً ورمى به بعيداً . وانتهت المعركة بقتل مائة من اليهود ، واستشهاد سبعة عشر من المسلمين . وقد غنم المسلمون الشيء الكثير من المال والسلاح والأسرى .

وبعد هذه الغزوة لم يبق لليهود شأن يذكر في الجزيرة العربية فقد أصبحوا — بعدها — عبيداً بينما كانوا قبلها اسبيداً .

ولذلك فإن يهود فدك ويهود تيماء رضوا بأن تكون اراضيهم للرسول (ص) ويعملوا فيها على أن تكون الغلة بينهما نصفين .

وكانت طائفة من اليهود في وادي قرن لم يستسلموا للنبي (ص) فذهب الرسول إليهم ، ونازلهم وحاربهم حتى قبلوا أن يكونوا مثل إخوانهم ..

= ٣٦ =

أما حروبهم مع سائر العرب فهي كما يلي :

١- بنو سليم ذهب إليهم الرسول (ص) بعد تجمعهم لمحاربتهم في موضع كان يسمى بـ " الكدر " ولكنهم تفرقوا خوفاً منه (ص) .

٢- " بنو ثعلبة " و " محارب " اجتمعوا تحت قيادة رجل كان يدعى بـ " دعثور " في واحة عطفان في أطراف نجد ، فرحل إليهم النبي (ص) وقبل أن يحاربهم اتفق أنه (ص) اضطلع على تلّ فعرف بذلك دعثور قائد الجبهة المعادية فجاء إليه . ووقف على رأسه شاهراً سيفه وقال من يمنعك مني ؟ . فقال النبي ، " الله " . وفيما أراد دعثور إنزال سيفه دفعه جبرائيل فوقع بجانب التل ، فوثب النبي (ص) ولخذ سيفه ووقف عليه وقال ، من يمنعك مني ؟ . فقال ، عفوك . فعفا عنه النبي (ص) وأسلم ، ودعا قومه إلى الإسلام ولم تقع محاربة قط .

٣- بنو سليم أيضاً أرادوا الحرب فخرج إليهم النبي (ص) فولّوا هاربين قبل أن يلحقهم .

٤- بنو ثعلبة ومحارب ، وبنو عطفان أيضاً ، اجتمعوا للحرب في نجد ، فلحقهم الرسول (ص) ففرّوا من وجهه قبل النزال وخلفوا نساءهم وأموالهم غنيمةً للمسلمين .

٥- البدو في دومة الجندل ، وكانت هذه المنطقة قرب الشام ، وكانت هذه القبيلة قد عاشت على السلب والنهب مما قوّض الأمن والاستقرار ، فذهب النبي (ص) لتأديبهم بيد أنهم فرّوا هاربين قبل بلوغ النبي (ص) إلى هناك .

٦- ومن هذه الحروب الحرب التي قامت بين المسلمين وبين الكفار في مؤتة .. وانتهت بظلبة المسلمين بعد تحملهم خسارات فادحة . ولكن هذه الحرب لم تكن تختص بالنبي مباشرة ، ولذلك فإننا نعرض عن ذكرها كما نعرض عن ذكر سائر الغزوات التي قام بها الجيش الإسلامي دون أن يشترك فيها النبي (ص) ، . ونعطف إلى ما هو المهم من أعماله (ص) في الحقلين السياسي والديني .

= ٣٧ =

واليك موجزاً لأهم الأحداث السياسية والدينية :

صلح الحديبية ، منذ أن أخرجت قريش المسلمين وعلى رأسهم رسول الله (ص) عن وطنه مكة ، كان يشترط إلى الرجوع إليها ، لأنها البلد الأمين والمقدس عند الله .. ولأنها - مع ذلك - محط أنظار العرب جميعاً .

ولكن الحروب والغزوات التي اكتنفت السنوات السبع بعد الهجرة ، والضعف الذي كان يراه في أصحابه ، منعه من المسير إلى مكة . ولذلك فإنه حين رأى الوقت مناسباً عزم على الزحف إلى مكة وأعلن في المسلمين ذلك . وقال ، إنه يريد مكة لأداء مناسك البيت فقط ، فسار بالف وأربعمئة رجل من المهاجرين والأنصار .

بيد ان كفار قريش الذين راوا ان دخول القوم مكة بعد ان أُخْرِجُوا منها من دون ان يلحقهم اذى ، إنما هو ضعف وانهازام صريح في وجه المسلمين .

ولذلك فإنهم ارادوا منعه منها ، وارسلوا بطلائع من جنودهم ليقفوا في وجه المسلمين . وحين ذاك تنكّب النبي (ص) عن الطريق المألوف لنالا يصطدم بهذه الطلائع . ولما عرف الكفار تنكبه ، وأنه بلغ ثنية المرار اسفل مكة ، ارسل النبي (ص) احد المسلمين يدعى قريشاً بأنه لم ياتهم محارباً بل معتمراً .

وارسلت قريش سفراء يريدون من النبي (ص) الرجوع عن عزمه . وكانت من قبل قد ارسلت سرية لمقاومة اعمال النبي (ص) فاخذها المسلمون وحبسوا جميع افرادها ..

ولما اصرت قريش على منع النبي (ص) عن البيت قال النبي لأصحابه ، " لا نبرح حتى نناجز القوم " وطلب من المسلمين البيعة فبايعوه على الفتح او الشهادة ..

وحيثما بلغ قريشاً نبا البيعة الجديدة للنبي (ص) هابوه فراسلوه على الصلح ، فاصطلح معهم بما يلي وكان اهم بنوده ،

١- إيقاف الحرب بين الفريقين لمدة سنتين .

٢- القادم إلى المسلمين يُردّ وليس بالعكس .

٣- رجوع المسلمين هذه السنة واثنيهم في المقبلة .

٤- يستطيع الفريقان قبول عهد من شاء .

وكانت هذه السياسة السلمية التي اتبعها النبي (ص) هي التي فتحت عليه طرق التقدم والنجاح ، حيث زحف المسلمون لمواجهة العالم الخارجي بعد ان امنوا الجانب الداخلي ، وكان بذلك الحدث التالي .

= ٣٨ =

٢- بعد هذا الصلح مباشرة بعث النبي (ص) رسائل إلى زعماء وملوك كافة الدول المجاورة . فراسل ملك الروم ، والفرس ، والحبيشة ، والقيط ، كما ارسل رسائل إلى كل من امير بصرى ، وامير دمشق ، وملك البحرين ، وامير عمان ، وملك اليمامة بشأن الرسالة التي حمل مسؤولية تبليغها . وقد كان لهذه الرسائل آثارها البعيدة في نشر لواء الإسلام ومحقق آثار الكفر ..

اما اجوبة هؤلاء فمنهم من اسلم - وهو كل من ملك الحبيشة ، وامير البحرين ، وملك عمان - فكان ذلك فتحاً مبيداً للإسلام . ومنهم من لم يسلم ولكنه احترم الرسول فأيدّه ، وهو كل من ملك الروم وملك القبط وملك اليمامة .. ومنهم من أساء " إلى الرسول واستهزأ به وهو كل من ملك الفرس ، وامير بصرى وامير دمشق " .

٣- وفي السنة التالية - السابعة للهجرة - اعتمر النبي (ص) على راس اصحابه الذين كانوا في الحديبية . وفسح الكفار المجال امامهم ، وخرجوا عن مكة لنالا يقع تضارب بين الفريقين - على ما كان

يتضمنه أحد بنود الصلح الماضي - . وكانت هذه المرة أول مرة يدخل فيها النبي^ﷺ (ص) مكة بعد هجرته عنها بسبعة أعوام .

= ٣٩ =

٤- ورجع النبي (ص) إلى المدينة بعدما بقي في مكة ثلاثة أيام . وبعد ذلك نقضت قريش بعض بنود الصلح بأن كانت قبيلة تسمى بـ خزاعة " معاهدة مع النبي " وكان على قريش ألا تحاربها ولا تعين عليها أعداءها ، لكنها فعلت ذلك .

وحلّ للنبي (ص) بذلك قتالها ، فجمع أصحابه وجمع من القبائل المسلمة التي كانت تقطن حول المدينة عدداً كبيراً ، وزحف نحو مكة بعد أن ملا الطريق عيوناً وركباء على السانين ، لكي لا يصل خبر خروجه إلى قريش فيتم الأمر بالحرب التي لا يريدونها النبي (ص) أبداً .

ولما بلغ النبي بجيشه حي ظهران بقرب مكة ، أمر أصحابه بأن يكتفوا من ليقاد النار ، ففعلوا ذلك . فاسترهب ذلك قلوب الكفار أي استرهاب ، وكان أبو سفيان يراقب طريق مكة إذ رأى النار فملكه الرعب ، والتقى بالعباس - عم النبي (ص) فحملة إلى النبي (ص) ودار بينهما محادثات تمت بإظهار أبي سفيان للإسلام وبإسلام بعض أبطال قريش وزعمائها قبله ، ففقدت مكة قوتها . ومنعتها ، ولم تملك قوة تدافع ضد دخول النبي إليها . وقد انتهج النبي (ص) مسلكاً فريداً في هذا الهجوم العسكري ، وذلك بأن أعلن قبل الزحف إلى مكة أن من القى السلاح أو دخل دار أبي سفيان أو دخل داره أو فناء الكعبة أو تحت لواء أبي ربيعة فهو آمن . ثم أمر قواته بإحاطة البلد والزحف عليها من جميع جهاتها ، وألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .. ثم دخل مكة من دون أن يعترض أحد طريقه إلا من جهة أسفل مكة حيث جاء منها خالد بن الوليد ، وقُتل اثني عشر نفرًا ممن عارضه ، وقُتل من المسلمين واحد . ثم أعلن النبي (ص) في البيت الحرام العفو العام عن المشركين جميعاً ، أثناء خطبة القاها عليهم ..

وبفتح مكة تمت السيطرة المطلقة للمسلمين على الجزيرة العربية التي كانت تعتبر مكة دينها وديناها معاً .

= ٤٠ =

ثم أمر النبي (ص) بهدم - الأصنام - التي كانت تُعبد من دون الله فهدمت جميعاً . وبعد ذلك سمع النبي بأن قبائل عربية اتحدت تريد الانقضاض على مكة للقضاء على المسلمين ، ومن بين تلك القبائل هوازن وثقيف .. فلما تحقق النبي (ص) الخبر جند اثني عشر ألفاً من المسلمين وتوجه إليها ، فالتقى الجمعان في وادي حُنين ، حيث كان مضيق جبلي واقع بين جبلين . وقد كان العدو قد سبق المسلمين إلى احتلال المواقع العسكرية في الجبلين . وحينما زحف المسلمون إلى العدو بين الجبلين انقض الكفار عليهم انقضاضاً ، فهزمت طائفة منهم ثم التقت بالطائفة التي بعدها فسادت الفوضى في الجيش الإسلامي ، وهُزموا هزيمة قبيحة . بيد أن النبي (ص) بقي صامداً . وبقي معه بعض المسلمين ثم

اجتمع قلوب المسلمين حتى كُونُوا جبهة حاربوا بها الكفار وغلبيوهم . وحيث إن الكفار كانوا قد أخرجوا جميع ممتلكاتهم ونسألتهم إلى ساحة الحرب لعل ذلك يسبب قوة لمعدويات الجيش ، فإن المسلمين ربحوا غنائم كثيرة . واستعمل النبي^ﷺ (ص) تلك الأموال في تاليف قلوب قريش ، ثم عزم الرجوع إلى المدينة .

= ٩٤ =

وقبل الرجوع أرسل سرايا من المسلمين في ملاحقة المنهزمين من الكفار الذين أرادوا التجمع مرة أخرى وإيقاد نار الحرب .

ومن تلك السرايا ، قوة مسلحة إلى الطائف حيث تحصن الكفار فيها .. بيد أن حصون الطائف كانت لمنع من أن يتغلب عليها المسلمون فرجعوا وعندما بلغ النبي^ﷺ (ص) المدينة تقاطرت عليه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة يعلنون دخولهم في الإسلام ويطلبون منه إرسال المبلّغين المرشدين لهم . وفي السنة التالية لفتح مكة نزلت سورة البراءة التي أعلنت انتهاء الدور المظلم للجزيرة وابتداء الدور المشرق .

فأرسل النبي^ﷺ (ص) الإمام علي بن أبي طالب إلى مكة حيث تلا هذه السورة في الحجاج المعتمدين في منى .. ولعل بصراحة منع دخول المشركين إلى المسجد الحرام لأنهم نجس ولأن الله بريء منهم .. كما لعل أنه لا عهد ولا ذمة لمشرك ، وإن دم كل مشرك حلال بعد أربعة أشهر .

وبعد هذا الإعلان لم يبق في الجزيرة من يظهر الشرك ، إلا قلوب منهزمة مختفية على خوف من المسلمين . فآخذ الرسول يتأهب لمقاطعة الروم ، وقد كانت طلائعهم تستقي في أرض الشام التي كانت إمارة عربية تابعة للإمبراطورية الرومية . فزحف بالجيش الإسلامي ، الذي كان عدده أكثر من ثلاثين ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف . وكان المسلمون مدججين بالسلاح الكامل .

وكان فعل النبي^ﷺ (ص) ذلك بعد إشاعة راجت في المدينة بأن جيش الروم قاصد لفتح الجزيرة العربية وإبادة المسلمين . ولكن حينما وصل النبي^ﷺ بجيوشه إلى تبوك عرف كذب الإشاعة ، فصالح أهل تلك البلاد وملك الروم . ثم رجع بعدما جعل من أهل الحدود الشامية الحجازية مرابطين له ضد الأعداء ، وبعدها زرع الخوف والذعر في قلوب الرومانيين بمباغطة المسلمين لهم .

= ٩٥ =

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة اعتزم النبي^ﷺ (ص) أن يحج ، فاجتمع إليه المسلمون من كل مكان .. فلما اكتمل عددهم سار بهم إلى مكة حيث أراهم كيفية الحج بعدما منع المشركون من إجراء مراسم الحج في السنة التاسعة .

فلما أتم النبي^ﷺ (ص) مناسكه خطب في المسلمين خطبته المشهورة التي بين بها تعاليمه الدينية والخلقية ورجع قاصداً المدينة .

ولعل بعض من رافق النبي (ص) في هذه الرحلة المقدسة لاحظوا بوضوح مظاهر القلق والاضطراب في ملامحه كل حين ، كأنه يريد إبداء شيء يخاف منه أو يرتقب فرصة أخرى لفسح وأولى !! ولكن هذه الحجة كانت الحجة الأخيرة للنبي (ص) . ولذلك سميت بحجة الوداع . ومن الضروري أن يبين فيها النبي كل شيء يتعلق بمصالح المسلمين وشؤونهم السياسية والدينية . وإن أهم هذه الشؤون هي السلطة . فإذا توفي النبي (ص) اختلفت العرب الذين لم يتسرب الإسلام إلى قلوبهم كما هو في واقعها ، وتنازعت أمرها وذهب الدين ضحية للإختلاف .

ولقد أنبأه الوحي بأن السلطة تكون من بعده لعلي بن أبي طالب (ع) ، أول من آمن بالله ورسوله (ص) ، وأشد من أبلي في سبيله ، وأقضى المسلمين وأفضلهم . ولقد ذكر النبي (ص) ذلك للمسلمين مراراً إلا أن خوف النبي (ص) كان شديداً لمستقبل الأمة ، حيث رأى في المسلمين بعض الذين يهدفون للسيطرة وقد التفوا حول النبي لها فقط .. فلما كان النبي (ص) بمنزل " كراع الغميم " من أراضي عسفان نزلت عليه الآية المباركة تقول ، ﴿ فَلَمَّا كَانَ ثَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَنُوكَ ﴾ (هود/١٢) .

ولمّا بلغ غدير خم نزلت عليه هذه الآية ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة/٦٧) .

وأطمأن النبي بنصرة الله في خلافة علي (ع) فعزم على الأمر وأمر المسلمين بأن يزلوا في ذلك المكان وبنان يجتمعوا . فلما اجتمعوا قام فيهم خطيباً وأعلن خلافة علي (ع) عليه السلام) قائلاً ، بعد خطبة كريمة ، " من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه واحب من احبه ، وابغض من ابغضه ، وانصر من نصره ، واغز من لعنه واخذل من خذله ، وأبر الحق معه حيث دار " . ثم أمر المسلمين بالبيعة له ، والسلام عليه بإمرة المؤمنين .. ولما تم أخذ البيعة جاءت الآية الأخيرة التي أعلنت إكمال الدين وتمامه ،

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣) .

== ٣٣ ==

وبعد رجوعه إلى المدينة .. سير جيشاً كبيراً فيه أبو بكر وعمر وكثير من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليه اسامة بن زيد وهو فتى لم يبلغ العشرين - سير هذا الجيش إلى الشام حيث قتل جعفر وزيد أبو اسامة القائدان للجيش الإسلامي ..

ومع حرص النبي (ص) على أن يخرج هذا الجيش في اقرب وقت ليبعد العناصر الفاسدة في المسلمين الذين كان يخشى منهم على مستقبل الأمة ومصيرها ، في حين كان يرى اقتراب اجله .. ومع ذلك فإن المنافقين ارجلوه ، حتى أمر النبي (ص) اسامة بكل إصرار على متابعة سيره فعسكر بالجرف على فرسخ من المدينة .

بيد أنه اشتد خلال ذلك مرض النبي (ص) الذي كان سببه السم الذي سقّيه على ما يذهب إليه بعض الرواة ، وقد دس إليه بيد بعض اليهود . فرجع أفراد الجيش إلى المدينة مع أن النبي (ص) لعن من يتخلف عن الجيش أشد لعنة .

== ع ع ==

وفي الثامن والعشرين من شهر صفر من السنة الحادية عشرة بعد الهجرة ، وبعد ثلاث وستين سنة قضاهما في الله ، ثلاثة وعشرين عاماً منها بصورة خاصة في حمل الرسالة العالمية إلى الأفاق ، عشرة مدنها في مكة ، وثلاثة عشر في المدينة ، التحق النبي محمد (ص) بالرفيق الأعلى ، وكان ذلك في ضحى يوم الاثنين من سنة " ٦٢٣ " ميلادية .

وكانت وفاة النبي (ص) نكبة فادحة في الإسلام لم يسبق لها مثيل .. كما كان فيها انحراف مباشر لخط السير السريع لتقدم الإسلام . وقام الإمام علي بي أبي طالب (ع) بمراسم الغسل والتكفين وصلّى عليه هو والمسلمون ، ثم دفن في بيته حيث مرقدته الآن .
فعليك يا رسول الله أفضل الصلاة والسلام وعلى آلك الطيبين الطاهرين .

الخلق العظيم

= ٤ =

- تعدد الزوجات :

لقد حسب العدو انه يستطيع ان يتخذ من تعدد زوجات النبي (ص) نقطة ضعف ليفتري منها عليه من يشاء .

بيد ان الدراسة الواعية لتاريخ النبي (ص) ، توحى بالفلسفة الواقعية لزيجات رسول الإسلام ، فإذا هي من صميم أخلاقه الطيبة ، ومن مظاهر إنسانيته ونشاطاته الدينية المقدسة .. ونحن إذ لانستطيع ان نوجز ما يحتاج إلى سفر في صفحة ، نامل أن نشير إلى موجز من فلسفة زيجات النبي ، ومجملها أبينه في ما يلي :

١- إن الرسول (ص) لم يتزوج في شبابه حينما تبلغ غريزة الإنسان الجنسية مشهاها . بل اكتفى بالسيدة خديجة وهي كما يعلم الجميع - كانت امرأة ثيباً .. ولم يتزوج بامرأة بكر إلا بعائشة ، وذلك حيث لم تكن له زوجة ، وكان بدء التبليغ الإسلامي وتأسيس شرائعه التي كانت تخالف الرهبانية المسيحية التي تحظر الزواج . وكان النبي يريد ان يكون عاملاً قبل ان يكون قائلاً ليكون اسوة حقة للمسلمين ؟

٢- إن الرسول (ص) تزوج بنساء " لرامل " كانت العادة العربية تنبذها نبذاً ، فتذهب إما فاجرة لو فقيرة " معدمة " . تلك الأرامل التي كانت الحروب الإسلامية تكثر منها . كما انه تزوج بنساء لكي يستميل اهلهن إلى الإسلام .

فمن القسم الأول ، ام سلمة وسودة بنت زمعة ورملة ام حبيبة وحفصة بنت عمر وميمونة وغيرهن . ومن القسم الثاني ، صفية بنت ثابت احد زعماء اليهود ، ولعل النبي تزوج بها لتأليف قلوب اليهود الذين هُدمت حصونهم ، وأُبيد مجدهم . وجويرة التي تزوجها بعد هزيمة إربابها في غزوة بني المصطلق ، فاعتق بسببها كل من اسر من بني المصطلق . واسلموا ببركة هذا الزواج الميمون . اضعف ذلك كله ان النبي (ص) لم يبعث الى الرجال فقط بل الى النساء ايضاً فكان يتصل هو مباشرة بالرجال .. وبالنساء فيريهم ويهدب نفوسهم . فإن لم يكن يتزوج هذا المقدار لم تتح له الفرصة الكافية للاتصال بالنساء إلا من بعيد . وهو لا يكتفي في تربية المرأة التي تؤهل لقيادة النساء فكرياً وتربوياً . ومع ان الرسول (ص) تزوج بهؤلاء النساء المختلفات الجنسية ، فقد استطاع ان يكون المثل الأعلى في

تدبير الشؤون العائلية مع ما كان له من مشاكل إجتماعية بالغة التعقيد .

== ٤٦ ==

أما في سائر الشؤون فقد استطاع النبي (ص) بفكره وسعة صدره وحسن تدبيره وبما آتاه الله . من تفوق كامل على جميع الناس في جميع العصور ، لقد استطاع ، ان يكون - وهو اليتيم المطارد - من جحيم الصحراء العربية ، جنة البلاد الإسلامية ، ومهد الحضارات الإنسانية . ومن أهلها شر أهل الأرض وأسوأهم خلقاً ومبداً وعادات ، كَوْنُ منهم قادة العالم وسادته على طول الخط .. كما سبق تفصيل بعض أحداثه آنفاً . أفلا يدل هذا على حسن التدبير وسعة التفكير . وجميل السيرة والاكتمال في السمو النفسي والعقلي .

== ٤٧ ==

لما إذا تكلمنا عن رحابة الصدر وسعة النفس في مجال التدبير للشؤون الخاصة والعامة - إلى سائر مظاهر السمو النفسي والخلقي - فإننا يجب ان نعترف بالعجز عن التعبير الكامل لكل جوانب التفوق والشماسي في الأخلاق بالنسبة إلى النبي (ص) الذي جعله الله خاتم النبيين الذين كانوا قادة الناس وسادتهم في كِلَا الحقلين المادي والروحي .

ولقد احتج الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بعجز الإنسان عن التعبير الكامل عن اخلاق النبي (ص) ، احتج لذلك احتجاجاً لطيفاً بأن الله يقول في كتابه ، ﴿ وَإِنْ تَعْلَمُوا يَغْمَتَ اللَّهُ لَا تُخْصِرُهَا ﴾ (إبراهيم/٣٤) ، في حين يقول في آية أخرى ، ﴿ فَمَا مَنَّاغُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة/٣٨) فالحياة الدنيا مع أنها قليلة عند الله ، فإنها لايمكن الإحاطة بها . وإحصاء ما فيها .. فكيف بإخلاق النبي الذي يقول فيه الله تعالى ، ﴿ وَإِلَيْكَ أَعْلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم/٤) حيث عبر عنه بالعظيم .. فإذا لم يكن إحصاء القليل ممكناً فكيف يمكن إحصاء العظيم .

== ٤٨ ==

ومع كل ذلك فاني اسرد لك شيئاً من مظاهر الخلق العظيم ، تاركاً الشيء الكثير منه . كان النبي - اشجع ، ولحلم ، وعدل ، واعف ، واسفى الناس جميعاً ، وكان لايبببت عنده دينار ولا درهم .

وكان ازهد الناس ، ولبسطهم في العيش ، حيث كان يخسف الدحل ويرقع الثوب ، ويخدم في البيت مع سائر أهل بيته .

وكان اشد الناس حياءً ، فلا يثبت بصره في وجه احد ابداً .

وكان اسمح الناس واسهلهم . وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، ويكافئ عليها احسن مكافأة . وكان لايستكبر عن اجابة أمرٍ أو مسكين .

وكان يغضب لله ولا يبغيض لنفسه ، ويجري حكم الله وإن تضرر هو أو احد من اصحابه به . فقد اُشار

عليه أصحابه ذات مرة بأن ينتصر على أعدائه المشركين بسائر المشركين ، فابى قائلا ، أنا لا نستتصر بمشرك مع أنه كان لحوج ما يكون إلى ذلك .

وكان يربط الحجر على بطنه من الجوع . فإذا حضر الأكل . أكل ما وجد ولم يرد شيئاً .. وكان متواضعاً في أكله ، فلا يأكل متوكناً ، ولا على خوان . ويؤاكل المساكين ويجالس الفقراء ، ويكرم أهل الفضل ، ولا يجفو لحداً .

أما في شؤونه الإجتماعية ، فكان يعود المريض كائناً من كان وكيف كان ، ويشيع الجنائز ، ويمشي وحده ولا يتخذ حاشية لبدأ . ويركب ما حضر إن فرساً ، أو بغلة ، أو حماراً ، إن حافياً أو ناعلاً ، مع الرداء حيناً ، وحيناً بلا رداء وبلا عمامة ولا قلنسوة . ولكنه كان يسير بمظهر القوة لا الضعف . فإذا مشى اقتطع رجله عن الأرض اقتلاعاً حتى كأنه ينحدر من عل .

وكان يحب الطيب حباً جمّاً .. وكان له عبيد وإماء ، ولكن لم يكن يترفّع عليهم أبداً . وكان لا يمضي عليه وقت ليس في طاعة الله .

وكان يبداً من لقيه بالسلام ، ومن قام معه في حاجة سألّه حتى يكون هو المنصرف . وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بداه بالمصافحة ، ثم أخذ يده وشابكه ثم قبض عليها .

وكان لا يجلس إليه لحد وهو يصلي إلا خفف صلاته والتفت إليه قائلاً ، لك حاجة ؟ . فإذا تمت حاجته قام إلى صلاته .

وكان أكثر جلوسه جلسة التواضع وهي أن يرفع ساقيه ويمسكها بيديه ، ويجلس حيث ينتهي به المجلس . وما رؤي قط ماداً رجله بين أصحابه وكان أكثر ما يجلس يستقبل القبلة . وكان يكرم من يدخل عليه ، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبين الرسول قرابة . وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته فإن أبي عزم عليه حتى يقبل .

وما استصغاه لحد إلا ظن أنه لكرم الناس عليه ، حتى أنه كان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ونظره .

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم وتعظيماً . فإذا لم يكن لأحد كنية كنّاه من جديد حتى يكتنى بها .

والمرأة إن كان لها ولد كنّاهم به وإن لم يكن لها ابتدا بكنية لها جديدة . حتى الصبيان فإنه كان يكتنهم . وكان أبعد الناس غضباً على أحد ، وأسرعهم رضى ، وأرقهم لهم قلباً ، وخيرهم لهم نفعاً . وكان إذا جلس مجلساً قال ، " سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك " .

وكان إذا جلس بين أصحابه لا يُعرف إيهام محمد (ص) لاختلاطه بهم . فلما كثر الوافدون الذين كانوا يسألون عنه أمام عينيه قائلين ، ليكم محمد ؟ . صنع له دكة من طين .. وكان يقول ، إنما أنا عبد .

أما صلته بريه فلقد كان نبي الإسلام ، أخشى الناس لريه ، وأتقاهم له ، وأعلمهم به ، وأقواهم في طاعته ، وأصبرهم على عبادته ، وأكثرهم حباً له ، وأزهدهم فيما سواه . فكان يصلّي حتى انشقت بطن قدّميه من كثرة الصلاة . فإذا وقف إلى الصلاة انهمرت دموعه . وارتجت البقعة بنشيجه وضراعتة .. وكان يصوم حتى يقال : إنه لا يفطر . ويفطر حتى يقال إنه لا يصوم . وكان نظيف الجسم طاهر الثياب ، يرجل جمته ، ويسرح لحيته ، ويستاك ، ويعطر جسده ، حتى كان يشم منه الرائحة الطيبة من بُعد ، ويعرف الشخص الذي يصاحبه لو يجالسه انه قد التقى به بما يسري منه إليه من العطر . ويطعم الجائع ويكسو العاري ، ويؤكّب الراجل ، ويُعين ذا الحاجة فيها ، ويقضي دين المدين .

وكان اشجع الناس ، حتى قال الإمام علي (عليه السلام) لقد رايتنا يوم بدر ونحن نلون بالنبي (ص) وهو أقربنا إلى العدو . وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً . وقال - أيضاً - كنا إذا حمي الوطيس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله (ص) ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . وكان أجود الناس كفاً ، وأصدقهم لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأوسطهم نسباً . من رآه هابه ، ومن خالطه أحبه . ما سنل شيئاً إلا أعطاه . وإن رجلاً أتاه سائلاً فأعطاه غنماً سدّت بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : أسلموا فإن محمداً (صلى الله عليه وآله) يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة .

وكان يُذكر كل منكر ، ويأمر بالمعروف .

وكان أخيراً قدوة لكل خير . واسوة في كل فضل ورائد إلى كل ما ينفع الإنسان في العالمين .

فعليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

(٣) اعتمدنا في نقل هذه الحصال الفاضلة على كتاب " المعارف الإسلامية " : ص ٤٨ - ٧٤ .

فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)

قدوة وأسوة

تمهيد

" القدوة " هو ذلك الإنسان الذي يقود ركب البشرية إلى سبيل السلام . " والأسوة " هو ذلك المثل الأعلى لكل القيم .

فالأسوة تعني النموذج الكامل ، لأفضل ما يفكر فيه الإنسان من خلق وعمل ، بينما القدوة تعني الهادي إلى السبيل . بين سبل الحياة المتفرقة .

وإن نكتب هذه السلسلة . باسم " القدوة والأسوة " فإنما نريد أن نشير إلى أن القادة الذين نشر سيرة حياتهم ليسوا فقط " قدوة الأمة " بل هم " أسوة الأمة " ايضاً .

فكما يجب أن نستنير بهداهم الذي خلفوه لنا في اقوالهم ، فكذلك يجب أن نتأسى بهم في اعمالهم التي عملوها وكانت سنة للبشر .

ويعتبر من ميزات الرسائل الإلهية أنها تصوغ ، جميعاً ، أشخاصاً مثاليين ليكونوا النموذج الذي يجب أن يجعله الفرد نصب العين ، فيطبق جميع شؤونه وفقه ليتخرج طبقاً لأفضل حياة كريمة .

أما سائر المبادئ فإنها حينما يفشل المنتظمون إليها في صياغة نماذج مثاليين ، فإنهم يعمدون إلى أحجار جامدة .. وأخشاب صامتة . فيجعلونها الأسوة الرمزية التي يجب عندهم اتباع ما ينسب إليها من الأساطير . وهكذا يحاولون سد الفراغ .. ومن ذلك كانت قديماً أند ساف الألهة التي كانت الشعوب المتخلفة تزعمها نماذج للبطلات الخارقة والأمجاد العظيمة .. ومن ذلك — حديثاً — الجندي المجهول ، الذي يعتبر رمزاً للقداني الذي يجب أن يتبع من قبيل سائر المواطنين .

أما في الإسلام ، فقد جعل الله سبحانه حامل رسالته ، أسوة للأمة فقال ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الاحزاب/ ٢١) حيث اعتبر الأسوة معصوماً ، وقال ، ﴿ وَمَا يَطْلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم/ ٣-٤) . وهو يعني كونه ، لايرتكب أي خطأ ولا يميل إلى أي انحراف . وإن لم يكن كذلك ، لبطل كونه أسوة ، ولم يصح أن يجعل الرسول سيداً مطاعاً في الخلق إذا أمكن أن يخطئ فيجبر إلى تابعيه الويل ، وأمكن أن يحرف فيكتب بتابعيه الطريق ، وأمكن أن ينحرف إلى الأهواء ويتبع الشهوات فيهوي بالخلق إلى المهوي بعد أن يبدل حكم السماء ويحرف كلماته .

ولم تقتصر نعمة الله على المسلمين بجعل النبي أسوة ، إن جعل لهم خلفاء للنبي ، وجعل كلاً منهم أسوة تتبع ، بعد أن جعلهم معصومين عن الزلل .. بل جعل للنساء من الأمة أسوة من جنسهن ، تكون

رمز الفضائل والقيم ، وشاهدة على مدى صلاحية تعاليم السماء للتطبيق العملي بكل تفاصيلها ، وفي كل المجالات ... وتلك هي فاطمة الزهراء (ع) .

ففاطمة الزهراء التي أضيفت هذه الأسطر بقبس من سيرتها الوهاجة ، معصومة شأن سائر الأئمة والأنبياء عليهم صلوات الله . فهي إذاً ، لاتفعل سوى الحق ، ولا تتبع غير الحق ، وهي إذاً ، قد طبقت تعاليم السماء على نفسها تطبيقاً كاملاً . وهي — إذاً — قد أصبحت المثل المحتذى في جميع الفعال والخصال ، وهي لذلك كله " القدوة ، والأسوة " .

فإذا كُيفنا حياتنا وفق سيرتها ، وأفكارنا وفق أفكارها ، وتخلّقنا بمثل خلقها ، فقد بلغنا الصواب . لأنها كانت نسخة ناطقة عن القرآن الكريم ، وشاهدة صدق على واقعية تعاليمه الحياتية .

أقول ذلك في مقدمة هذه الصفحات — لكي نعرف أهمية البحث عن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) . لأنها تتصل بحياتنا بصورة مباشرة .

الفصل الأول

الأصل الكريم

﴿ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ يُخْرِجُ بَآئِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (الاعراف/٥٨)

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) رسول الله وخاتم النبيين وسيد المرسلين ، هو والد فاطمة (ع) ، وأعظم به رسولاً ، وأكرم به أباً .

وخديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين ، والسابقة إلى الإسلام والمحامية عن دين الله والمضحية في سبيل الرسالة ، هي أم فاطمة (ع) .

☆ ☆ ☆

في أجداد النبي (صلى الله عليه وآله) شخص يُسمى (لؤي بن غالب) إليه يسمو نسب خويلد ، والد خديجة . فهو ابن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن كعب بن غالب .

ولقد كان خويلد من سادة قريش ومن أثرياء مكة ، وكان له من الأبناء ثلاثة ، العوالم وهالة وخديجة .
العوالم هو والد زيد بن العوالم .. وصهر سيد قريش ، عبد المطلب - جد النبي (صلى الله عليه وآله) - فمن ذلك كان لزيد صلتان بفاطمة عليها السلام في النسب . فهو من جهة ابن خال ، ومن جهة ابن عمّة فاطمة (ع) .

وأما هالة بنت خويلد ، أخت خديجة (ع) فإنها بقيت في الحياة إلى ما بعد الهجرة ، وكانت تتردد أحياناً على النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة ، فكان الرسول (صلى الله عليه وآله) ييدي لها احتراماً بالغاً نظراً إلى نسبها إلى خديجة - الزوجة الحانية والحامية - للرسول وكان يلخذ عائشة زوجة الرسول ما يأخذ النساء من أمر ضرائكن . بيد أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يهونها ، مشيداً بمواقف خديجة ومآثرها التي تقتضي تكريم النبي (صلى الله عليه وآله) لها في احترام أختها .

☆ ☆ ☆

كان من المنتظر أن تتزوج خديجة في شبابها بابن عمها " نوفل بن أسد " ولكن الزواج لم يتم ، لأن نوفل كان من الحكماء في الجزيرة فشغله البحث عن الحقيقة عن الزواج . وتقدم بعد نوفل سيد من زعماء بني تميم للزواج بخديجة وكان يسمى بـ " هند بن بناس " . ولكن هذا الزواج لم يسعد إذ توفي هند في شبابه ، وترك خديجة أرملة غديّة .

وكان عتيق بن عابد من مشاهير كرماء العرب ، فتقدم إلى الزواج بخديجة ، ورزق منها ابنة سماها بـ

" همد " غير أنه مات هو الثاني وترك همداً ابنته يتيمه في بيت خديجة .
وكان مولد خديجة خمسة عشر عاماً قبل الحدث التاريخي لهجوم أبرهة على مكة ، الذي كان مبداً
تاريخ العرب . واشتهرت تلك السنة بـ " عام الفيل " .

ومع ذلك فقد تزوجها النبي (صلى الله عليه وآله) ثالث ثلاثة ، نظراً لرغبتها في ذلك ، ولمّا عرفه
الرسول في نفس خديجة من حب الخير والدفاع عن الحق ، ولمّا اتّصف به من الحكمة ، والخلق
الفاضل . أمّا هي فقد أحببت النبي (صلى الله عليه وآله) بعد سفرة تجارية ارتحل بها النبي (صلى
الله عليه وآله) إلى الشام في مال خديجة ، لما رأت هي وأخبرها عبدُها الذي رافق النبي (صلى الله
عليه وآله) - في الرحلة - من مكارم الخلق ، وبشائر النبوغ ، والعظمة . ولعلها كانت قد علمت بنبوة
الرسول ، فرغبت في الزواج به .

وتمّ وسعد الزواج الجديد بين محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) وبين خديجة .. وكان من
لكثر الزوجات بركة في الإسلام ، وقد أنجبت خديجة للنبي ولداً صالحين ، هم ،
١- القاسم ، الذي ولد قبل البعثة . وتوفي قبلها أيضاً . وبه كُني النبي (صلى الله عليه وآله) بابي
القاسم .

٢- عبد الله ، الذي كان كاخيه ، في الميلاد والوفاة قبل البعثة . على القول المشهور .
٣- الطاهر ، الذي ولد في الإسلام . وبذلك سمّي " الطاهر " ولكنه توفي أيضاً .
٤- زَيْنَب ، وكانت أكبر بنات الرسول .. وتزوجت بآبَن خالتها أبي العاص بن الربيع ، وأنجبت له بنتاً ،
ولداً . وهما " أمّة وعلي " . أما أمّة فقد حظيت - في يوم من الأيام - بالزواج من الإمام أمير
المؤمنين (عليه السلام) بعد فاطمة الزهراء (ع) وبوصية منها . وأمّا عليّ فقد وافاه الموت طفلاً .
وتوفيت زَيْنَب - أكبر بنات النبي (صلى الله عليه وآله) في السنة الثامنة للهجرة .
٥- رُقِيَّة ، وتزوجت بآبَن عمها عتبة بن أبي لهب . ولكنه كان عدواً شديداً للعناد للإسلام . مثل والده
أبي لهب المعروف بعدائه الشديد للدين الجديد . وحيث إنه سبّب مشاكل للنبي (صلى الله عليه وآله)
ولسير الدعوة الإسلامية فقد دعا عليه الرسول .. واستجيبَت دعوته حين مرقته أسود الحجاز ، وظلّت
رُقِيَّة أرملة .

ثم تزوجها عثمان بن عفان ، ورزق منها ولداً سماه " عبد الله " إلا أنه توفي في الطفولة . ولم يرزق
منها ولداً غيره . حتى لبّت رُقِيَّة دعوة ربها . فماتت في نفس الوقت الذي كان الرسول يجهاد كفار قريش
عدد آبار بدر .

٦- أم كلثوم ، التي سميت " أمّة " باسم أمّ النبي (صلى الله عليه وآله) " أمّة بنت وهب " ،
وتزوجت بآبَن عمها أبي لهب الذي كان يدعا بـ " عتبية " ولكن الزواج لم يسعد . نظراً للخلاف القائم بين
الزوجين حيث أصرّ أبو لهب على عداؤه ، وأجبر ولده على طلاق زوجته ، بنت النبي ، أدية له وتذكيراً به .

وتزوجها بعد فراق عتيبة - عثمان بن عفان - لأن رقية كانت قد توفيت في ذلك الوقت .. ولكن لم
كلثوم ماتت هي الأخرى في السنة التاسعة للهجرة .

٧- فاطمة الزهراء (ع) ،

كانت خديجة ملكة الحجاز ، في ثرائها العريض ، وتجارها الواسعة . وكانت مشهورة بحسن الخلق
ورجاحة العقل ، وحيما تزوجت بالنبي (صلى الله عليه وآله) كانت الزوجة المثالية في إدارة الحياة
دخل البيت وخارجه وفي تربية السلالة الطيبة .

وحيما بُعث النبي (صلى الله عليه وآله) بالرسالة ، استجابت للدعوة ، قبل كل أحد ، ورضخت
لتعاليم الإسلام ، وطبقتها على نفسها ، وأبدت نشاطاً واسعاً في تبليغها ونشرها ، كما أنها جعلت كل
ثروتها في خدمة النبي يدفعها في سبيل الله حيث يشاء ، وحيث وجد الإسلام - أول الأمر - أذناً واعية
بين أبناء الطبقة الفقيرة ، وفي تحرير العبيد سواء بصورة مباشرة أو عبر وسطاء كلبى بكر الذي كان ثرياً
ولم يكن شراره للعبيد يثير شبهة عند لثراء قريش . لأنه إنما كان يفعل ذلك من أموال خديجة ويأمر
الرسول (صلى الله عليه وآله) .

وقد حدا هذا العطاء اللامحدود من خديجة للإسلام ، حدا بالنبي (صلى الله عليه وآله) الذي لم
يكن يطلق عن الهوى ، بكلمة واحدة إلى أن يبين الحقيقة التي أصبحت وساماً على كتف التاريخ الرسالي
بلنه ، " قام الإسلام بسيف علي ومال خديجة " . فلقد كانت ثورة خديجة المالية ، بمثابة الحجر الأساس
لبناء الأمة إقتصادياً ، كما كان سيف علي بمثابة الدرع الحصين لبنائها السياسي .. فإذا اجتمعوا إلى
جانب الرسول (صلى الله عليه وآله) الذي كان صاحب الوحي ، ومهبط الرسالة الإلهية ، تكاملت
شروط بناء الأمة الرسالية الحنفية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً .

كما أن تكامل خديجة النفسي وتفاعلها الفكري مع الرسالة الإسلامية . في كل بنودها النازلة حتى ذلك
الوقت على الرسول (صلى الله عليه وآله) ، حدا بالنبي الكريم (صلى الله عليه وآله) إلى أن يجعل
خديجة في مصاف النساء الأربع الكاملات كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام إذ قال ،

" كُمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع ،

- أسية بنت مزاحم .

- مريم بنت عمران .

- خديجة بنت خويلد .

- فاطمة بنت محمد .^١



(١) أنوار التنزيل - في تفسير سورة التحريم .

وكان ذلك أيضاً سبباً في أن يكون لموت خديجة أثر بالغ في فؤاد النبي (صلى الله عليه وآله)
لتأثيره في انتشار الدعوة ، تأثيراً بالغاً ، حتى سمي ذلك العام الذي توفيت خديجة فيه بـ " عام الحزن "
فقد ورد على النبي (صلى الله عليه وآله) فيه مصيبتان كبيرتان ، وفاة أبي طالب كفيله ونصيره في كل
موقف ، وموت خديجة بنت خويلد زوجته المدافعة عنه وعن دعوته .

الفصل الثاني

الشجرة المباركة

= ٩ =

(عن أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله قال ،
قيل يا رسول الله انك تلثم فاطمة وتذنيها منك وتفعل بها ما لا تفعل باحد من بناتك ؟
فقال : ان جبرائيل اتاني بتفاحة من تفاح الجنة فاكلتها فتحولت ماءً في صليبي ثم واقعت خديجة فحملت
بفاطمة فلما اشم منها رائحة الجنة) .

☆ ☆ ☆

ولا زالت تحفها مالة من المعاجز الخارقة ، وهي في بطن أمها تكبر ساعة بعد ساعة حتى أنها كانت
تحدث أمها وهي في بطنها ، فتؤنسها بذلك ، حتى ولدت وكان لميلادها ميزة تدل على اهتمام الخالق بها
اهتماماً بالغاً .

= ١٠ =

وقد يتملكنا العجب حين نرى مثل ذلك مخصوصاً بميلاد فاطمة ، مع انها لم تكن بالبنات الوحيدة
لنبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) ، ولا بالبنات الكبرى ، كما انها لم تكن من الذكور .
ولكن يجب ان نعرف ان الكبير والصغر لايعترف بهما الإسلام كمقياس .. كما انه لايعترف بمقياس
الأنثى والذكر بصفة عامة ، بل المقياس المعترف به في الإسلام إنما هو الحكمة البالغة التي يفعل الله
بحسبها ما يشاء . كما ان هناك مقياساً آخر معترفاً به في الإسلام ، وهو مقياس العمل الصالح ، وكلاً
من المقياسين له موقعه .

فالمقياس الأول ، يتحكم في الشؤون الكونية . اي في مرحلة التكوين ، فخلق الشمس والقمر والأرض
و.. ، إنما هو خاضع لمقياس الحكمة .

وأما المقياس الثاني ، فهو يجري في الأمور التشريعية ، اي في جانب الاختيار الذي اصبح الإنسان
بسببه مختاراً مريداً .

فلذا اردنا ان نعرف الرجل الطيب الذي يحبه الله ، وجب علينا ان نقيسه وفق المقياس الثاني ، فننظر

إلى أعماله وإلى الأمور التي فعلها هذا الفرد نفسه بإرادته وبمشيئته الخاصة . أما مقياس النسب أو المعنصر أو البلد أو ما أشبه ذلك ، فليست هذه المقاييس معترف بها في الإسلام ، أبداً .
 فالإسلام لايعترف بالف أبي لهب ، في مقابل سلمان واحد ، مع كون أبي لهب عمّ النبي (صلى الله عليه وآله) وابن سيد قريش عبد المطلب ، ومن الأسرة المختارة ، بني هاشم . من بلديهم رفادة البيت ، وسقاية حجاجه ، وكون سلمان عبداً أعجباً ، لفظته البلاد ، ونقضت قواه السنين .
 كما لايعترف الإسلام بالف عتبة وعتيبة . وهما صهرا النبي (صلى الله عليه وآله) الثريين ، في قبال بلال الرجل الأسود ، وإن كانا ابنا أبي لهب من لشد الناس بياضاً ، وكان بلال من أشدهم سواداً .
 وهكذا الإسلام لايعترف بالف أبي سفيان ، وهو قائد قوات مكة العربية ، في قبال صهيب وهو مستضعف من بلاد الروم البعيدة .

= ٣ =

وفاطمة الزهراء (ع) يلفتنا من حياتها جانبان كلّ منهما يرضخ لمقياس ، وهما ،
 الأول ، ما نراه يحدث قبل ميلادها . من تكوينها عن فاكهة الجنة وحديثها لامها وهي جنين ، ومرافقة ميلادها حوادث خارقة ، مما يدل على أن لله تعالى عناية خاصة بها من جميع الجوانب ، اترى ذلك باي مقياس ؟ .

إنه وفق المقياس الأول - أي الحكمة البالغة التي يفعل الله حسبها ما يشاء سبحانه وتعالى - .
 فلحكمة خص الله فاطمة عليها السلام بهذه المزايا دون سائر النساء جميعاً ، وبينهن بنات النبي (صلى الله عليه وآله) وزوجاته .. وبنات المهاجرين والأنصار وزوجاتهم ، وذلك لمصلحة شاء الله أن يجعل بين الأمة الإسلامية من تفوق درجة على مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها أي جميع نساء زمانها .

ولأم خلق الله فاطمة عليها السلام من ثمر الجنة . بينما كان للنبي ستة اولاد آخرين لم يخلقوا من ثمر الجنة .

ولسبب رافقت فاطمة سلام الله عليها حوادث خارقة لم ترافق ميلاد سائر اولاد النبي (صلى الله عليه وآله) .

ونحن لانعرف كل شيء عن الحكمة الإلهية البالغة ، اكان ذلك لكي تضاهي الأمة الإسلامية الأمم السابقة ، فإذا كانت مريم (ع) سيدة نساء عالمها في أمة عيسى ، تكون فاطمة (ع) سيدة نساء العالمين في أمة محمد (صلى الله عليه وآله) .

أجل ، لانعرف اكان ذلك من أجل ذلك ، أم كان لأن العرب مثل سائر الأمم ، كانوا يبالغون في الدليل من المرأة . والخط من شأنها حتى جعلوها حيواناً خلق على صورتهم لخدمهم وليقضي حوائجهم الجنسية ، فلزاد الله أن يقطع هذا المفهوم الخاطئ المخالف للواقع عن افكارهم وينقذ البشرية من اثاره السيئة فجعل

للنساء سيدة يفتخرن بها ويتطلون على الذكور ؟

ام كان ذلك لأن الله تعالى أراد ان يجعل لهذه الأمة أئمة يهدون بامرهم ويرشدون إلى سبيله ، فقد كونهم من خير سلالة ، وفضل درية ، من النبي خاتم الأنبياء والموصي سيد الأوصياء ، فخلق فاطمة (ع) لتكون الصلة الرابطة بين نور الجانبين ؟ نور النبي ونور الوصي ؟

كل ذلك ممكن . ولكن الأمر الذي يطمئن إليه الباحث بعد مطالعة دقيقة لجميع جوانب حياة فاطمة الزهراء عليها السلام ، هو أن الله تعالى كما أراد أن يجعل للأمة قادة من الذكور ، شاء أن يخلق لها قدوة من الإناث ، لكي لا يبقى للنساء مجال للعذر عن التمسك بتعاليم الإسلام ومثله وقيمه بصورة مجتمعة ، بحجة أن الدين تمسكوا بكل ما في الإسلام إنما كانوا من الرجال وليس من النساء ، وإن قوى الرجل ومواهبه وكفائاته أكبر من المرأة .

لقد تملط الله سبحانه في دعوة عباده إلى نفسه ، حتى لم يبق عذراً لمعتذر ، ولا حجة لمن يريد التبرير . فجعل للنساء أسوة تشاركهن في المسؤوليات العامة ، كالشؤون المنزلية ، مثل الحمل والوضع والتربية . والأعمال البيتية من طبخ وتنظيف ، والوظائف الشرعية ، مثل الحجاب وإطاعة الزوج ، وقلة الحظ في الميراث والشهادة ، وما إلى ذلك ..

ان ما تختص به المرأة من المسؤوليات الفطرية أو غير الفطرية ، قد تصبح عند البعض داعياً إلى انسحابها من ميادين العمل الديني والتواني عن بعض التكاليف الشرعية . ولكن الله حيث جعل فاطمة (ع) مثلاً لكل الفضائل والقيم ، مع ما كانت عليها من المسؤوليات الخطيرة في تلك الظروف العصيبة ، لعله أراد — سبحانه — قطع حجة لية امرأة تبرر تقاعسها عن واجباتها منها من الجنس الضعيف .

فما حكمة خلق فاطمة عليها السلام بهذه الكيفية ، إلا كحكمة خلق الأنبياء والأوصياء ، بما فيهم رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، خلقهم بترك الكيفية مفضلين على سائر الناس درجات ، ومخصوصين بمواهب وكفائات .

فليست حكمة عصمة الأنبياء والأوصياء وتفضيلهم ، إلا أنهم أسوة وقدوة للناس ، وإن على الخلق اتباعهم واتخاذهم مثلاً لحياتهم . وكذلك حكمة خلق فاطمة عليها السلام من بين النساء . وإذا كان النبي والأوصياء سادة الخلق ، فإن فاطمة (ع) سيدة نساء العالمين .

== ٤ ==

الثاني ، والجانب الآخر من حياة فاطمة الزهراء عليها السلام ، يتعلق بالآيات النازلة في حقها ، والأحاديث المروية فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله) . وتتسائل لماذا وردت هذه النصوص بشأن فاطمة (ع) دون غيرها من النساء ؟ ولماذا جاءت هذه النصوص بحقها دون سائر أخواتها من بنات النبي (صلى الله عليه وآله) .

والجواب ، إنما وردت هذه النصوص وفقاً للمقياس الثاني المذكور آنفاً ، وهو ، أن الله جعل مقياس

الفضيلة والرفعة عنده العمل الصالح دون النظر إلى شخص العامل وجسده . وفاطمة الزمراء عليها الصلاة والسلام ، حيث أدركت هذه الحقيقة ، لم تعتمد على مكانتها عند الناس بقربها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) والوصي (ع) نسباً وسبباً ، كما لم تعتمد على مكانتها عند الله تبعاً للمقياس الأول الذي أشرنا إليه ، بل راحت تجتهد بنفسها لبلوغ الكمال العظيم .

ولقد كان المفروض أن توثق فاطمة عليها الصلاة والسلام صلتها القريبة برسول الله (صلى الله عليه وآله) فتعتمد عليها ، ولكنها لو تفتت صلتها بالله الذي بعث هذا الرسول ، وجعله نبياً ، وأعطاها ما أعطاها من الرفعة والسناء . وسوف تظهر في خلال الأسطر الآتية ، هذه الحقيقة بصورة أوضح إن شاء الله تعالى .



كان ذلك اليوم ، يوم العشرين من شهر جمادي الثانية بعد المبعث النبوي بستين أو خمس سنين — وكانت شقة الخلاف تزداد بين النبي (صلى الله عليه وآله) وبين قريش كل يوم ، وكانت أموال خديجة تُنفق في سبيل الدعوة ، فلا يبقى لها ، ذلك الثراء العريض ، ولا تلك التجارة الواسعة ، بل اقتربت من الفقر ، من جانب ، وتصلب موقفها للدعوة ضد الأفكار الرجعية التي كانت نساء قريش قد تعودت عليها ، وتبنت الدفاع عنها من جانب آخر ، فقد تخلت عنها نساء قريش مرة واحدة .

كانت رقعة الخلاف تتسع بين قريش والمسلمين . وكان عداو قريش وحسها بضرورة الانتقام يتطور من سبى إلى أسوأ ، إذ أرسلت خديجة — تماماً في العشرين من شهر جمادي الثاني — أرسلت إلى نساء قريش تطلب منهن العون في أمر الولادة . ولكنهن جابهن بالرد المشوب باللوم ورفضن التعاون معها . جلست خديجة كئيبة حزينة ، إذ لم تكن هناك نساء يستاجرن لهذا الغرض مثلما هو موجود الآن . كما لم تكن هنالك مستشفيات للولادة . ومن المعلوم أن المرأة تحتاج في مثل هذه الحالة إلى من يهيئ أمرها . جلست كئيبة ، وحق لها ذلك ، ألم تكن بالأمس سيدة قريش ، وملكة المجاز ، تقوم على أموالها تجارة الجزيرة شمالاً ، وجنوباً ؟ ولكنها حين انفقت أموالها في سبيل الله ، بقيت مضطرة مفردة معرض عنها حتى من تلك النسوة اللاتي كنّ خدمها بالأمس القريب .

واني هنا أسأل القارئ الكريم ، ماذا كان ينبغي لجلال الله ورحمته الواسعة أن يفعل بخديجة التي لولا أنها تبنت الدعوة إلى الإسلام ، وصرفت أموالها في سبيلها لكان وضعها مختلفاً جداً ؟ ماذا ينبغي لكريم الله الودود الرحيم الذي خاطب مريم الصديقة عليها السلام — في حالة متشابهة — بأن تهز جذع الدخلة لئلا يساقط عليها رطباً جدياً . الله الذي فلق جدار البيت لفاطمة بدت اسد ، في حالة مماثلة لتدخل البيت ، وتلد علي بن أبي طالب (ع) ؟

ماذا ينبغي لكريم وجهه أن يفعل في هذه الساعة ؟ لقد كانت خديجة جالسة في حالتها الكئيبة ، إذ رأت نساءً سمراً طوالاً ورددن عليها البيت ، وقالت إحداهن ، لا تخافي ولا تحزني ، فانا معك ، جنداك لطي

منك ما تلي الحساء من منك في هذه الحالة . ثم اضافت تقول : انا سارة زوجة إبراهيم ، وهذه آسية بنت مزاحم ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلهم اخنت موسى .
 ثم أخذن يتعاون في أمر المخاض ، حتى ولدت فاطمة عليها الصلاة والسلام ، قالت وهي تستهل الكلام في هذه الحياة ،
 (اشهد ان لا إله إلا الله ، وان ابي رسول الله ، سيد الأنبياء ، وأن يحلي سيد الأوصياء ، ولدي سادة الأسباط) .
 ثم أخذت تنشأ نشأة مباركة .

= ٩ =

وقد ابتدأت حياة فاطمة عليها الصلاة والسلام ، في الوقت الذي كانت قد ابتدأت للنبي (صلى الله عليه وآله) حياة الجهاد والمقاومة الفكرية العنيفة تماماً ، وفي تلك السنين التي كان النبي يتلقى الوحي الإلهي ، يأمره بان يصرح بالرسالة دون ان يعبا بما في طريقه من أشواك دامية ، وعقبات كأداء ، فقام النبي (صلى الله عليه وآله) بإعباء الرسالة الإسلامية ، وقامت ضده قوى الضلال تهدف إلى إحباط جهوده (صلى الله عليه وآله) وصدده عن الدعوة بكل وسيلة .
 وكانت فاطمة تتزعزع في تلك الظروف المتأزمة التي كان النبي (صلى الله عليه وآله) كلما بالغ في الدعوة إلى الله والحق ، بالغ أعداؤه في التتكيل به وتعذيب أصحابه .
 لقد عاشت فاطمة عليها الصلاة والسلام مأساة الشعب (شعب أبي طالب) حيث كانت ضمن صفار السن الذين منعت قريش عنهم الطعام .. فكانوا يتضورون جوعاً ، وكانت ذناب قريش تحرس باب الشعب لكي لا يتسرب إلى المسلمين شيء من الطعام .
 ولقد شاهدت فاطمة عليها الصلاة والسلام بعدما أفرج عن المسلمين من حصار شعب أبي طالب ، شاهدت أباهما ذات مرة ، وقد ألقت قريش سلاً الجزور على رأسه ، وهو ساجد يصلي لربه ، فجاءت وطهرحت السلا عن رأس والدها ، وقد أخذ منها الحزن والتأثر ، مأخذاً بليغاً .
 ولقد شاهدت أباهما أيضاً وهو مهاجر إلى الطائف ، مبلغ في أهلها دعوة الله ، ولم يستجب له أحد .
 كما شاهدت ذلك اليوم الذي كانت أمها خديجة (ع) تضطرب على فراش الموت وتلفظ أنفاسها الأخيرة وهي لا تملك من مال الدنيا شيئاً . بعدما كانت تجارتها تملأ سهول الحجاز وبطاحها ، حتى إذا استجابت دعوة ربها ، لم تملك حتى ما تكفن به .
 نعم لقد لاحظت فداء أمها خديجة للدين ، وتفانيها في سبيله ، ودفاعها عنه بكل ما كانت لديها من القوة والإمكانات ، فتأثرت بذلك ، وطلعت في نفسها معانٍ حية .. بقيت في ضميرها تبعث الحيوية والنشاط في سبيل الدين .
 فكانت كابة وفاة أمها ، تمتزج في قلبها ببطلولات خديجة ، لا كام لها فقط ، بل كام للمؤمنين والمؤمنات

أيضاً ، وكمدافعة عن الحق ، ومضحية في سبيله بكل شيء .
ولقد كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تعيش في السنين الأولى من حياتها ، التجارب التي قلما اتفقت لأحد أن يعيشها في التاريخ .

إنها سائرت الدعوة ، في معركتها العنيفة ، وهي في قلب المعركة . لأنها كانت ، بدت قائد المعركة ، وهو النبي (ص) ، فلذلك كانت تدور أيما دارت المعركة وتعيش وفق ما عاشت .

لم يذكر التاريخ عن حوادث تتعلق مباشرة بفاطمة عليها الصلاة والسلام أثناء وجودها في مكة ، إلا أننا وافقون من أن حياتها فيها لم تكن خالية عن الأذى . ولقد بغلت الصلابة بقريش الكافرة مبلغاً يدل على أنهم كانوا يتعرضون لأذى أهل النبي (ص) كتحريضهم لأذى النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه وكتحريضهم لأذى أهل بيت سائر المسلمين .

فمن الموثوق به أن فاطمة عليها الصلاة والسلام ابطنيت بأذى قريش كثيراً . كما أن حياتها ، كانت محفوفة بالمخاطر . هذا كله إلى جانب ما كان يصيبها من الأسى ، بصورة غير مباشرة ، إذ أن كل صدمة كانت ترد على النبي (ص) فإنما كانت صدمة بالغة الأثر بالنسبة إلى فاطمة عليها الصلاة والسلام .



وحينما أحيط بيت محمد (ص) وقد أرادوا قتله كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تلاحظ ذلك ..
وحينما هاجر النبي (ص) إلى المدينة كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام تشعر بمرارة الفراق .. وكانت كذلك حينما كلف الإمام أمير المؤمنين (ع) من قبيل النبي (ص) بأن يهاجر مع من بقي من أهل بيت النبي . الذين كانوا يتالفون من الفواطم .

فاطمة بنت اسد . أم الإمام وزوجة سيد الأباطح أبي طالب ، فاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، فاطمة بنت محمد عليها الصلاة والسلام .

وسار الركب إلى المدينة . ولحققتها سرية مسلحة من قبيل قريش لكي تمنع لحوق أهل النبي (ص) به ، فاشتدت المعركة بين الإمام علي (ع) وبين تلك السرية ، حتى هزمها الإمام ، وبعد أن كبدها خسائر .. كانت فاطمة عليها الصلاة والسلام حينذاك ، في الركب المهاجم عليه .

وكان النبي (ص) ينتظر قدوم ابنته فاطمة عليها الصلاة والسلام والإمام (ع) ، فلم يدخل المدينة حتى لحقاً به .



وكانت فاطمة في المدينة ، ترافق الأحداث .. وتراقبها فتتصلق شخصيتها وتكمل يوماً بعد يوم ، ففي يوم أحد إن دارت الحرب على المسلمين جاءت فاطمة عليها الصلاة والسلام تضمّد جراح والدها برماد

حصيرة أحرقتها ولخدت سيفي النبي والوصي عليهما السلام وغسلتهما ونظفتهما .

= ٩ =

وكان لزواج فاطمة من بين أحداث حياتها قصة تُروى ، فتأخذ جانباً عظيماً من حياتها . والواقع أن زواجها تم وفق القيم الإسلامية ، في كل جوانبه ، ولذلك فقد أصبح النموذج والمثل لكل زواج لأبد منه لكل إنسان .

ولقد جعل الفقه الإسلامي الطريقة التي اتبعت في زواج فاطمة عليها الصلاة والسلام سنةً مندوبة ، لأنها كانت صورة مجسدة لتعاليم الإسلام . واليكم شرح هذا الحدث ، بإشارة إلى المواقع الحساسة منه .

أولاً : الخطبة

كان الزواج يتحقق في بساطة ، وبدون أن يُغالى فيه لو يُنقص من شأنه ، وكان مفهوم الزواج الإسلامي ، مفهوماً نابعاً عن واقعه وطبيعته ، من أنه ظاهرة فطرية ، جعلت في الإنسان لبقاء النوع واستمرار الحياة . هكذا قرر الإسلام الزواج ، وهكذا وضع تعاليمه بالنسبة إليه .

ولذلك فلم يكن بحاجة إلى ما نعرفه في بعض المجتمعات المسلمة من مقدمات ومؤخرات لا فائدة منها .

كان يُبتدأ الزواج بخطبة الرجل للمرأة التي تعجبه من حيث الصب والنسب ، ثم ينظر أهل المرأة في الزوج ، فإن رلوه صالحاً ، عيّنوا مهراً بسيطاً وأنكحوه ابنتهم بدون لف ودوران ، وبدون أن تمشي إلى بيت الطرفين طائفة من هؤلاء ، وطائفة من هؤلاء . ثم يبدلون محادثات طويلة ، بدون جدوى ، وكان الزواج تصديق للعلاقات الدولية بين الشعوب ، كما هو الموجود في بعض البلاد .

ولذلك نرى أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب عليه السلام يأتي إلى النبي (ص) فيسلم عليه . ويتخذ موقعه .. فيسأله النبي (ص) عن سبب مجيئه ، فيعرض عليه أمر الزواج بفاطمة (ع) فيقول النبي (ص) له بكل بساطة ، أهلاً ومرحباً .

ثانياً : القبول

ولا يبت النبي (ص) الأمر إلا بعد أن يعرض على فاطمة عليها الصلاة والسلام ذلك ، بكل تفاصيله ، يذكر لها موجزاً من تاريخ علي عليه السلام وشيئاً من فضائله ومناقبه ، وفاطمة تسكت مشيرة إلى رضاها بذلك ، فيقول النبي (ص) في هذا المجال ، الله أكبر ، سكوتها رضاها .

إن الإسلام يعتبر المرأة إنسانة لها كرامتها ، ولها حقها في اختيار المصير . ورغم أن لوالدها أيضاً الحق في المساهمة في الاختيار ، لأن الأب اعرف بمواقف الخير لابنته . ولأنه إن لجحف الوالد ، وتطرف في استغلال هذا الحق ، فإن الشرع سوف يحد سلطته ويضع كل الحق بيد المرأة . وبهذا يتخذ المنهج الإسلامي في اختيار الزواج بلا إفراط ولا تفريط ، فلا يتفق مع الأسلوب الأوروبي الذي يفصل المرأة عن أسرته ، ويجعل لها وحدها الحق في اختيار زوج قد يسبب انفصالها عن سائر أفراد أسرتها . ولا يوافق

على منهج الجاهليين الذين كانوا يبتاعون ويبيعون المرأة ، كما يتعاطون الأمتعة والسلع .

ثالثاً : الكفاءة

لقد بلغت فاطمة عليها السلام مبلغ النساء في الوقت الذي بلغت قوة المسلمين مبلغاً استطاعوا به ان يتحدوا اكبر قوة في الجزيرة .. وهي قريش مكة وتسايق الرجال يريدون ان يكتسبوا شرف الزواج ببنت رسول الله (ص) فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام التي كانت قد اشتهرت مآثرها ومناقبها ، وما لها من عفة ، وحياء وحكمة ، وسداد ، وورع واجتهاد ، وعلم ومعرفة .. هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، كان المسلمون يعرفون مدى حب النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها الصلاة والسلام فلذلك تعرّض الكثير من ذوي الجاه والمال والشرف ، في ذلك ، ولكن النبي (ص) كان يردهم رداً لطيفاً لما كان يعرف من عدم صلاحيتهم لزواج فاطمة عليها الصلاة والسلام ، وعدم كفايتهم لها . مضافاً إلى ما كان يعرفه النبي (ص) عن الوحي من ان زواج فاطمة ، المرأة المفضلة المعصومة في الإسلام ، والتي كان المقرر ان يكون منها نسل النبي (ص) وذريته ، وأوصياؤه وخلفاؤه ، ان زواجها يجب ان يكون بالرجل الذي يختاره الله سبحانه وتعالى .

ولذلك كان يقول لكلّ من يتعرض لهذا الأمر ، اني انتظر القضاء " أي قضاء الله تعالى " وحين جاء عليّ يعرض عليه ذلك ، أخبره بأن جبرائيل عليه السلام قد سبقه بذلك وهو يخبر بان الله ، قد زوجها في السماء ولشاهد على ذلك الملائكة .

كل ذلك لان علياً عليه السلام افضل من مشى على الأرض بعد محمد (ص) وقد عرفه النبي (ص) بذلك كما عرفته فاطمة ، فهو الكفء الوحيد لفاطمة ، ولا يجوز تزويج البنت بغير الكفء . وبذلك يصرح الحديث المأثور عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال ،

" لولا ان الله تبارك وتعالى خلق امير المؤمنين لفاطمة ما كان لها كفء على وجه الأرض آدم فمن دونه " .

رابعاً : المهر والتجهيز

كلما تكلف المرء في العيش كلما ازداد تعباً ، بينما البساطة والزهد يعطيانه الراحة . وكما يقول الإمام علي (ع) في حديث يصف فيه المؤمنين ؛
(اصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم) .

وتزداد أهمية هذه المعادلة عند الزعماء ، وبالذات عند الأئمة والهداة الربانيين .

ولعل ببساطة مهر سيدة النساء وتجهيز بيتها كانت — بالإضافة إلى الزهد في درجات الدنيا — تهدف إلى تيسير قضية الزواج ليصبح زواج فاطمة مثلاً يحتذى لكل زواج رسالي . أوليست فاطمة بنت محمد

(٤) أعيان الشيعة : ج ٢٢ ، ص ٥٦٩ .

(٥) نهج البلاغة رسائل (٢٧) .

بن عبد الله ، رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهي صديقة زوجها سيد الوصيين الإمام عليّ ؟ . فلم لا يصبح زواجها الرمز والمودج .

وفعلًا إنك تجد الأئمة (ع) لا يتجاوزون في زيجاتهم هذا المثل بل يحددون انفسهم ضمن " مهر السنة " وهي قيمة مهر علي لفاطمة (ع) .

لقد كان المهر مقدار " ٤٨٠ " اربعمائة وثمانين درهماً ، وفي بعض النصوص أنه كان خمسمائة درهم .

اما التجهيز الذي قام بإعداده النبي (ص) فهو كالآتي ،

- ١- قميص بسبعة دراهم .
- ٢- خمار بأربعة دراهم (وهو بمنزلة العباءة) .
- ٣- قطيفة سوداء خيبرية (وهي دنار له خمل) .
- ٤- سرير مزمل .
- ٥- فراشان من خيش مصر (وهو قماش في نسجه رقة وخيوطها غلاظ) . حشو لدهما ليف ، وحشو الآخر صوف الغنم .
- ٦- أربع مرافق من آدم (وهي بمنزلة المخدة) حشوها أدخر (وهو نبت طيب الرائحة) .
- ٧- ستر رقيق من صوف .
- ٨- حصير هجري (أي مصنوع في هجر وهو بلد في اليمن) وقد يكون الحصير من العلف .
- ٩- رحى يدوية .
- ١٠- مخضب من نحاس (أي إناء تغسل فيه الثياب مثل الطشت) .
- ١١- سقاء من آدم .
- ١٢- قدح (كعب) من خشب .
- ١٣- قسن (سقاء) .
- ١٤- مطهرة .
- ١٥- كيزان خزف .
- ١٦- نطع (وهو بساط من آدم كان يستعمل لمائدة الطعام) .
- ١٧- عباءة من صنع الكوفة .
- ١٨- قرية ماء .
- ١٩- شيء من الطيب .

(٦) كان السرير يصنع على الظاهر من سعف النخيل ، رقيق بليف حتى يكون بالإضافة إلى شد الأعواد بعضها إلى بعض زينة وجمالاً .

ولقد جهّز الإمام بيته بافتراش صحن داره بالرمال الداعم ونصب خشبة طويلة بين جانبي الحائط لغرض تعليق الثوب عليه (كالعلاقة) . واقتراش غرفته بأهاب كبش ومخدة ليف فقط .

خامساً : الخطاب

وقال النبي (ص) للإمام تكلم لنفسك خطيباً ، فقال الإمام (ع) ،
(الحمد لله الذي قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة لمن يتقيه ، وأنذر بالنار من يعصيه . نحمده على قديم إحسانه وأياديه ، حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومميته ومحبيه ، وسائله عن مساويه . ونستعيده ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه .
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تبلغه وترضيه ، وإنّ محمداً عبده ورسوله (ص)
صلاة تزلفه وتحضيه ، وترفعه وتصطفيه ، وهذا رسول الله (ص) زوجني ابنته فاطمة على خمسمائة درهم ، فاسأله واشهدوا) .

فقال رسول الله (ص) ،
(قد زوجتك ابنتي فاطمة على ما زوجك الرحمن ، وقد رضيت بما رضي الله فنعم الختن^٧ أنت ، ونعم
الصاحب أنت ، وكفأك برضى الله رضى) .
ثم أمر رسول الله (ص) بطلب بسر لو تمر وأمر بنهبه .

وهناك حديث آخر يروي قصة الزواج عن لسان الإمام أمير المؤمنين (ع) ، سوف نثبته فيما يلي لأهمية هذه الزيجة في الإسلام . ويدل على هذه الأهمية أننا نجد في كتب الحديث والتاريخ حشداً ضخماً من الأخبار التي تتناول بتفصيل لو بإيجاز زواج علي من فاطمة عليهما السلام ، مما يعكس اهتمام السابقين من المسلمين بهذه الزيجة .

والحديث مروي عن الضحاک بن مزاحم قال ، سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول ،
(لتاني أبو بكر وعمر فقالا ، لو اتيت رسول الله فنكرت له فاطمة .
قال ، فانيته فلما رأي رسول الله (ص) ضحك ثم قال ، ما جاء بك يا أبا الحسن ، حاجتك ؟
فنكرت له قرابتي ، وقدمي في الإسلام ، ونصري له ، وجهادي ، فقال ، يا علي صدقت ، فانت أفضل مما تذكر .

فقلت ، يا رسول الله ، فاطمة تزوجينها ؟
فقال ، يا علي ، إنه قد ذكرها قبلك رجال فنكرت ذلك لها فرايت الكرامة في وجهها ، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك .

فدخل عليها فقامت فاخذت رداءه ونزعت نعليه واتته بالوضوء فوضاها بيدها وغسلت رجله ، ثم قعدت ،

(٧) أي الصهر .

فقال لها ، يا فاطمة ! فقالت : لبيك لبيك ، حاجتك يا رسول الله ؟
 قال : إن علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته ، وفضله ، وإسلامه ، وإنني قد سألت ربي أن يزوجه
 خير خلقه ولحيهم إليه ، وقد ذكر من أمرك شيئاً ، فما ترين ؟
 فسكتت ولم تحوّل وجهها ، ولم ير فيه رسول الله (ص) كراهة ، فقام وهو يقول : الله أكبر ، سكوتها
 إقرارها .

فلما جبرائيل (ع) فقال : يا محمد زوجها علي بن أبي طالب ، فإن الله قد رضيها له ورضيه لها فقال
 علي : فزوجني رسول الله (ص) ثم اتاني فآخذ بيدي فقال : قم بسم الله ، وقل على بركة الله ، وما شاء
 الله ، لا قوة إلا بالله ، توكلت على الله . ثم جاء بي حتى أقعدني عندها (عليه السلام) ، ثم قال :
 اللهم إنهما أحب خلقك إليّ فاحبهما ، وبارك ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظاً ، وإنني لعينهما بك
 وذريتهما من الشيطان الرجيم .

سادساً : الزفاف

وركبت فاطمة على بغلة أبيها الشهباء ، وحفّت بها نساء النبي ينشدن أهانيج الفرج . وقد أخذ سلمان
 بلجام البغلة . وتقدم عليها النبي (ص) في وسط فتيان بني هاشم الذين كانوا قد جردوا السيوف وهم
 يلوحون بها ، إيماء بدفاعهم عن العرض والزماء .

نعم كانت حفلة العرس ، قد زينت بأشعار نساء النبي حيث كانت سائر النسوة يرددن بعض أبياتها .
 كانت أم سلمة . تنشد قائلة ،

سررن بعون الله جاراتي	واذكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلى	من كشف مكروه وأفاة
وقسد هداينا بعد كفر وقد	انعشنا رب السموات
وسررن مع خير نساء الورى	تفدى بعمات وخالات
يا بنت من فضله ذو العلى	بالوحى منه والرسالات
وكانت عائشة تقول ،	

يا نسوة استررن في المغابر	واذكرن ما يحسن في المحاضر
واذكرن رب الناس إذ خصنا	بدينه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على إفضاله	والشكر لله العزيز القادر
سررن بها فالله أعلى ذكرها	وخصها الله بطهر طاهر
وفضة كانت تنشد أبياتاً فتقول ،	

فاطمة خير نساء البشر
فضلك الله على ذي السورى
زوجك الله فتى فاضلاً
وسرن جارأتى بها إنها
ومن لها وجه كوجه القمر
بفضل من خص بأى الزبر
لعدى علياً خير من فى الحضر
كريمة بدت عظيم الخطر
وبعد أن وصلت فاطمة إلى دار علي عليه السلام تقدم النبي (ص) وأخذ بيد فاطمة . ووضعها بين
يدي عليّ عليهما السلام ، بعد أن بث بينهما الحب بكلماته الذهبية الدافئة ، التي مدح بها كلا من
الزوجين للأخر .

== ٩٥ ==

ومضت فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام تعيش حياة جديدة ، وهي حياة الزوجية ، بعدما عاشت
تسع سنين تضرب المثل الأعلى للبنات الفاضلة في بيت لبيها . نعم راحت فاطمة ، تكون أول أسرة مثالية
في المجتمع الإسلامي ، لكي تعرف العالم معنى الحياة الهادئة في ظلّ تعاليم الإسلام .
واليك صورة عن هذه الأسرة النموذجية التي كونتها فاطمة بالإشتراك مع عليّ أمير المؤمنين (عليهما
السلام) ، ويوحى من الرسول (ص) من الله تعالى .

١- الحب العميق كان يوثق صلة كل منهما بالآخر . وهو الحب الذي كان منشأه إيمان كل منهما بما
للآخر من المناقب والفضائل . ففاطمة كانت تعرف علياً (ع) كسيد الأوصياء ووالد الأسباط ، وأفضل
الناس بعد الرسول ، ومن له عند الله الجاه العظيم والدرجة الرفيعة ، ولذلك كانت تحبه أشد الحب ،
وعليّ عليه السلام كان يعرف ما لفاطمة من مجد وسناء ، وإنها سيدة نساء العالمين ، وإنها والدة
الأسباط ، والشفيعة المقبولة شفاعتها عند الله ، فكان يحبها حباً شديداً .

٢- التعاون في العمل ، فلم تكن فاطمة عليها السلام تتوانى عن مسؤولياتها داخل البيت ، كما لم
يكن عليّ عليه السلام يترك وظيفة مما يتعلق به . وقد كان النبي (ص) قسم الأعمال من أول يوم كالاتي ،
أ - على الزوج أن يمارس تنظيف الأرض (الكس) واستقاء الماء بالإضافة الى ما عليه من النفقة .

ب - على الزوجة الطحن والعجن والإخياز ، بالإضافة إلى امر تربية الأولاد .. ومراعاة شؤونهم .

وجاء في حديث عن الإمام الباقر (ع) قال ،

(إن فاطمة عليها السلام ضمنت لعلي عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقم البيت . وضمن
لها علي عليه السلام ما كان خلف الباب ، نقل الحطب وإن يجيء بالطعام . فقال لها يوماً ، يا فاطمة هل
عندك شيء ؟ قالت ، والذي عظم حقك ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شيء نقرئك به . قال ، أفلا أخبرتك ؟
قالت كان رسول الله (ص) نهاني أن أسالك شيئاً . فقال ، لا تسالين ابن عمك شيئاً . إن جاك بشيء ،
والأفلا تسالينه) .

وقد كانت هذه الأعمال تكلفها تعباً ونصباً بالغين . وذات مرة دخل النبي (ص) عليهما ، فرأهما قد

لعيامهما العمل . فقال ، أليكما أكثر تعباً ؟ فقال علي ، فاطمة فاقامها النبي عن العمل وجلس مكانها يعمل .

وجاءت فاطمة عليها السلام تسعى إلى النبي (ص) وقد أصابت المسلمين غنائم كثيرة وطلبت منه أن يجعل نصيبها من الغنائم ، خادمة تستعين بها على الأعمال والواجبات البيتية التي لم تعد تحتملها خصوصاً في غياب زوجها الكريم الذي كان يتكرر بسبب الحروب المستمرة .

فعن علي (ع) أنه قال لرجل من بني سعد ، ألا احذرك عني وعن فاطمة ؟ إنها كانت عندي وكانت من أحب أهلي إلي . وإنها استنقت بالقرية حتى أثر في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها ، ولوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها . فانصابتها من ذلك ضمار شديد .^٩

فلما طلبت خادمة تستعين بها . قال النبي (ص) لها ،

" اني سوف أعلمك شيئاً يفيدك أكثر من الخادمة .

قالت وما هو يا أبتاه ؟

قال لها ، إذا فرغت من الصلاة .. فقبل " أن تلتفتي يميناً أو شمالاً قولي ، [الله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة . ثم قولي الحمد لله وسبحانه مثل ذلك] .

فإذا فعلت ذلك ، أعطاك الله القوة والنشاط .. ثم توجه إليها النبي (ص) يقول ، هل رضيت بذلك ؟

قالت ، نعم يا رسول الله ، رضيت " .

وهذه هي التسبيحة المشهورة بـ " تسبيحة الزهراء " التي يلتزم بها أكثر الشيعة ، عقيب صلواتهم المفروضة .

هذه هي السيدة الطاهرة الزهراء عليها السلام التي علمتنا كيف يجب أن يتحمل الإنسان عناء العمل ، ويرضى بالدرجات الرفيعة التي ينالها عند الله ، دون أن يلتفت إلى ما يفوته من الدنيا الزائلة .

وحين تأتي " فضة " لتفتخر بشرف خدمة الزهراء (ع) بعد أن تنزل هذه الآية ،

﴿ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ - يعني عن قرابتك وابنتك فاطمة - ائْتِئَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ (الاسراء/٢٨)

وينفذ الرسول فضة إليها بمقتضى هذه الآية التي تامله بذلك حسب بعض الروايات ، فتأبى فاطمة عليها السلام أن تتعامل معها ، كما كانت سيدات العرب تعامل الخادمة .. كانت تامل وتتهي وما على الخادمة إلا أن تطيع السيدة بكل خضوع .

كلا، إنها قسّمت الأيام بينها وبين فضة (الخادمة) دون أن ترجّح نفسها على فضة بآية ميزة .

٢- وكانت فاطمة عليها السلام تتحمل شظف العيش وجشوبة الماكل وخشونة الملبس ، محتسبة

(٩) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٨٢ .

ذلك عند الله ولليوم الآخر . وقد جاء في حديث شريف عن سويد بن غفلة قال ، أصابت علياً عليه السلام شدة فانت فاطمة عليها السلام رسول الله (ص) فدقت الباب فقال ،
 (اسمع حس حبيبتي بالباب ، يا لمُ أيمن قومي انظري . ففتحت لها الباب ، فدخلت ، فقال (ص) ،
 لقد جئتنا في وقت ما كنت تاتينا في مثله ، فقالت فاطمة ، يا رسول الله ما طعام الملائكة عدد ربنا ؟
 فقال ، التحميد ؟ فقالت ، ما طعامنا ؟ قال رسول الله (ص) ،
 والذي نفسي بيده ما اقتبس في آل محمد شهراً ناراً ، ولعلمك خمس كلمات علميهن جبرائيل عليه
 السلام قالت ، قلت يا رسول الله ما الخمس الكلمات ؟ قال ،
 [يا رب الأولين والآخرين ، يا ذا القوة المتين ، ويا راحم المساكين ، ويا ارحم الراحمين] .
 ورجعت فلما ابصرها علي (ع) قال ، بابي انت وامي ما وراك يا فاطمة ؟ قالت ، ذهبت للندى وجدت
 للآخرة ، قال علي (ع) ، خير خير امامك خير امامك .
 وعن الإمام جعفر بن محمد (ع) قال ،
 (شكت فاطمة الى رسول الله (ص) علياً ، فقالت ، يا رسول الله لا يدع شيئاً من رزقه إلا ورّعه على
 المساكين ، فقال لها ، يا فاطمة اتستخطيني في اخي وابن عمي ، إن سخطه سخطي وإن سخطي سخط
 الله عز وجل .
 وفي غضون الفترة الواقعة بين زواج الزهراء ، وبين وفاتها ، كانت البتول تقوم بمهمة الوسيط بين النبي
 (ص) وبين نساء المسلمين في المسائل الشرعية . فكانت النساء تتراد ببيتها وتسالن منها ما اشكل
 عليهن من المسائل العملية او الفكرية ، فتحل فاطمة لهن ذلك وتعلمهن من ثقافة الوحي ، ما يشفي
 صدورهن ويروي غليلهن .
 كما كانت تسافر في بعض الرحلات الهامة ، وتقوم ببعض المهمات ، فقد اشتركت في فتح مكة ،
 وكانت تقوم باعمال والدها النبي (ص) وزوجها الوصي (ع) الشخصية . ليتوفر لهما الوقت المناسب
 للمهام التي كان عليهما إنجازها .

الفصل الثالث

مقام الزهراء

= ٩ =

روى الزمخشري في الكشف عند ذكر قصة زكريا ومريم عليهما السلام عن النبي (ص) انه جاع في زمن قحط ، فاهدت له فاطمة رغيقين وبضعة لحم اثرته بها ، فرجع بها اليها وقال هلمّي يا بُدِيّة ، وكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً . فبهتت وعلمت انها نزلت من الله . فقال لها اني لك هذا ، فقالت ، هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فقال ، الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل . ثم جمع رسول الله (ص) عليّ بن ابي طالب والحسن والحسين عليهم السلام ، وجمع اهل بيته حتى شبعوا . وبقي الطعام كما هو ، ولوسعت فاطمة على جيرانها .

= ١٠ =

وعن صحيح الترمذي ، عن صبيح مولى ام سلمة ، وزيد بن ارقم قالا ، إنّ رسول الله (ص) قال لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، (انا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم) .
وعن ابن خالويه في كتاب الال يرفعه عن الرضا عن ابيه عن علي عليهم السلام ، قال رسول الله (ص) ، (إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش يا محشر الخلائق غُضُّوا ابصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله) .
وفي رواية اخرى ، (يا اهل الجمع ، نكسوا رؤوسكم وغُضُّوا ابصاركم حتى تجوز فاطمة على الصراط ، فهي ومعها سبعون الف جارية من الحور العين) .

= ١١ =

وروى البخاري في صحيحه بسنده ان رسول الله (ص) قال ، (فاطمة بضعة مني فمن اغضبها فقد اغضبني) .

وروى هذا المضمون اكثر علماء الحديث من الفريقين باسناد صحيح ونصوص صريحة ، حتى كان البعض يستشهد به كقضية مفروغ من صحتها . فهذا ابو الفرج الاصبهاني يحدثنا ، ان عبد الله بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط (ع) دخل على عمر بن عبد العزيز وهو (اي عبد الله) حديث السن وله وقار وتمكين ، فرفع عمر مجلسه وكرمه وقضى حوائجه ، فسئل عمر عن ذلك فقال ، إنّ الثقة حدثني ان رسول الله (ص) قال ، فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ، ويغضبني ما يغضبها . فعبد

الله بضعة من بضعة رسول الله (ص) .

= § =

وعن ابن سعد وابن المنثى عن علي (ع) قال ، قال رسول الله (ص) ، (يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويَرْضَى لِرِضاكَ) .

= ⑤ =

وروى أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني بسنده عن مسروق عن عائشة قال ، كنّا عند رسول الله (ص) في مرضه الذي مات فيه إذ جاءت فاطمة ، ما تخطيء مشيتها عن مشية النبي (ص) شيئاً ، فلما رآها قال ،

(مرحباً يا بنتي ، فاقعدها عن يمينه أو عن يساره ثم سارها بشيء فبكّت ، فقلت لها أنا من بين نسائه ، خصك رسول الله من بيننا بالسرار وانت تبكين؟ " ثم سارها بشيء فضحكت . فسألتها عائشة . فقالت ، ما كنت لأفشي على رسول الله (ص) سرّاً " فلما توفي النبي (ص) سألتها " فقالت ، أما بكائي ، فإنّ رسول الله قال لي ، إن جبرائيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كل عام مرة فعرضه العام مرتين ، ولا أراني أجلي إلاّ قد اقترب ، فبكيت . فقال لي اتقي الله واصبري فإنني أنا نعم السلف لك . ثم قال ، يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ، أو نساء هذه الأمة ، فضحكت) .
وقد روى علماء الحديث هذا الخبر بإسناد كثيرة ، ونصّ واحد ، أو مختلف قليلاً .

، ٢٩٠ ،

وفي الاستيعاب بسنده عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ص) ، سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد . ثم خديجة . ثم أسية امرأة فرعون .

وروي عن الفصول المهمة . لابن الصباغ المالكي عن كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) قال ،

(كَمَلُ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم ابنة عمران ، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد) .

وهذان النصّان مرويان في كتب الحديث بإسناد كثيرة مستفيضة . وهناك في الأحاديث ما يؤكد على أن فاطمة أفضلهن جميعاً . بيد أن مريم سيدة نساء عالمها ، وفاطمة سيدة نساء العالمين جميعاً . ويؤيد ذلك ما روي من قول النبي (ص) لفاطمة ، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة .. ولا شك في أن هذه الأمة أفضل من سائر الأمم ، فسيدتها أفضل من سائر السيدات أيضاً .

، ٢٩١ ،

روى الحاكم في المستدرک انه كان رسول الله (ص) إذا رجع من غزوة أو سفر أتى المسجد فصلّى ركعتين ، ثم ثنى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه .

ولكن النبي كان إذا أراد سفراً أو غزوةً اختتم وداعه بفاطمة بعد كل أزواجه ، كما يرويه لنا الحاكم أيضاً عن ابن عمران أنه قال ، كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة .
وهذه الواقعة ماثورة في كتب الحديث بإسناد مستفيضة .



وفي كتاب الاستيعاب عن عائشة أنها سئلت عن أحب الناس إلى رسول الله ؟ فقالت ، فاطمة . فسئلت فمن الرجال ؟ قالت ، زوجها .

وفي نفس الكتاب بسند مرفوع إلى ابن بريد عن أبيه قال ، كان أحب النساء إلى رسول الله (ص) فاطمة ومن الرجال عليّ بن أبي طالب (ع) .

وتقول عائشة في الحديث الذي ذكره الحاكم في المستدرک عن جميع بن عمير ، تقول بعدما سألت عن علي ، تسأليني عن رجل والله ما أعلم رجلاً أحب إلى رسول الله (ص) من عليّ ، ولا في الأرض امرأة كانت أحب إلى رسول الله (ص) من امرأته .

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النبي (ص) قوله ، (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة) .

الفصل الرابع

الصديقة فاطمة تتحدى نكسة الأمة

== ٩ ==

وقبض النبي (ص) في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة ، بعد أن اكتملت الرسالة الإلهية ، وبتحقيق آخر هدف من أهدافها الرئيسية ، وهو نصب القائد والمنفذ الصالح ، وإرساء قواعد القيادة الصالحة للمسلمين إلى الأبد .

وكان ذلك القائد الذي نصبه الله للمسلمين بعد النبي (ص) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي كان صورة حية ومائلة للتعالم والمثل الإسلامية جميعاً .

وكانت تلك القيادة التي أمر بها الله تعالى ، قيادة الفرد الذي أدرك الشريعة الإسلامية إدراكاً كاملاً ، حتى صار فقيهاً في أحكامها ، بصيراً بأهدافها ، ثم طبقها على نفسه ، وامتزج فيها وتجاوبت أطرافه لها ، ثم عرف الناس ذلك منه واطمانوا على زعامته ، فجعلوه حجة بينهم وبين ربهم .

ولما اكتملت أهداف الرسالة ، اكتملت مسؤوليات الرسول وأعلن الله ذلك بقوله ،

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة/٣)

== ١٠ ==

ومرض النبي (ص) واشتد مرضه ، وأخذ السم الذي دس إليه يؤثر فيه ، يوماً بعد يوم .. وكل يوم كان يقضيه الرسول ، كان خطوة إلى الموت .

وفاطمة (ع) تعرف أباهما كفضل ما تكون المعرفة . تعرف فضله ، ومجده وتعرف خدماته في سبيل الله والإنسانية .. وهي تحبه ، لأنه والدها ، وكان أحب الناس إلى الله جميعاً ، والله أحب إلى فاطمة من كل شيء .

فهي تحب أباهما ، لأنه أقرب إليها ، ولأنه رسول الله الذي يجب أن تكن له الحب والإحترام .

وأما الآن فهي ترى والدها يجود بنفسه ، فلم تستطع أن تصبر على هذا المنظر الكئيب .. فخرجت .. وأخرج كل من كان في الغرفة ، إلا علياً (ع) ، الذي كان يراقب أحوال الرسول (ص) . ذهبت فاطمة إلى بيتها ، وقبل أن يستقر بها المجلس ، إذا بها تسمع الصياح قد ارتفع من حجرة الرسول . وكانت قريبة إلى بيت فاطمة عليها الصلاة والسلام ، فأسرعت إليها مدهوشة ، وإذا بها تنبأ بوفاة والدها .

كان لموت الرسول (ص) أثر عميق وبلغ في فؤاد فاطمة (ع) حتى أنها ما رويت مبتسمةً بعده قط ، إلا حين نعى إليها نفسها ، حيث علمت باقتراب أجلها وحلول ميعاد الالتحاق بابيها .
فما زالت فاطمة بعد أبيها معصبة الرأس ، ناطلة الجسم ، منهدة الركن ، يغمس عليها ساعة بعد ساعة .

وبلغ بها البكاء على أبيها أن أهل المدينة شكوا إلى أمير المؤمنين أمرها واقترحوا عليها أن تبكي إما ليلاً أو نهاراً . بيد أنها لما سمعت بذلك اشتد بكاءها وأبت إلا أن تبكي على والدها أبداً ، حتى تلتحق به ، وإضافت بأنه ما أقل مكثي بين أظهرهم .

وقد كان لبكاء فاطمة أثر ديني ، كما كان لمنع أهل المدينة مغزى سياسي .. كانت فاطمة تبكي فتلفت انظار العالم إلى أنها هي المخصوصة بالنبي (ص) . وهي بقيته في الأرض ، ومنها نسكه الطاهر المطهر ، ولولدها أولاده إلى أبد الأبد . وكان لمنع أهل المدينة لها من البكاء تحد لهذا البيت - بيت أمير المؤمنين (ع) - الذي يحمل إعباء حفظ الرسالة بعد النبي ، وتحد للنبي ولكل ما جاء به عن ربه ، بدلوها يظهره مرة بعد مرة إلى أن انتهى بلخذ فذك ، ونهبها وغصبها .

النصوص تتحدث عن فضائل الزهراء عليها السلام

ألف - العابدة الزاهدة :

١- روى ابن شهر آشوب عن الحسن البصري أنه قال : ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة ، كانت تقوم حتى تورمت قدمها .

٢- وروى عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال : رأيت أمي فاطمة ليلة الجمعة وقد وقفت للعبادة .. وما زالت بين راحة وساجدة وقائمة وقاعدة ، حتى أسفر الصبح . وهي تدعو للمؤمنين والمؤمنات ، تسميهم باسمائهم .. قال الإمام (ع) فقلت يا أمه ، لماذا لم تدعي لنفسك ، وإنما دعوت لساائر المؤمنين ؟ قالت : يا بُنيَّ الجار ثم الدار .

٣- وروى عن الصادق (ع) أنه حدث : بأنه دخل رسول الله (ص) على فاطمة يوماً ، فراها قد لبست ثوباً من صوف الإبل . وهي تطحن بيديها ، وترضع ابنها ، فلما رأى الرسول ذلك بكى وقال : بنية ، دوقي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة . فقالت فاطمة : أحمد الله على نعمانه وأشكره على الآنة .. فنزلت هذه الآية ،

﴿ وَكَسَّوْا بُعْطِيكَ رَبُّكَ فَزَمْنِي ﴾ (الضحى/٥)

٤- وروى أحمد بن حنبل في مسنده : أن رسول الله (ص) كان إذا سافر ، آخر عهده بإنسان ، فاطمة .

وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة . فقدم من غزاة ، فأتاها فإذا بمسح^{١١} على بابها ، ورأى على الحسن والحسين ، قلابين^{١٢} من فضة فرجع ولم يدخل عليها . فظنت أنه من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلابين من الصبيين ، فقطعتهما . فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسول الله وهما يبكيان فلخذه منهما ، وقال ، (يا ثوبان - هو مولى الرسول الراوي لهذا الحديث - اذهب بهذا إلى بني فلان واشتر فاطمة قلادة من عصب - وهو سن دابة بحرية - وسوارين من غاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا) .

وفي رواية أخرى أن النبي (ص) حين وصلت إليه هذه الأمتعة وأمرته فاطمة بإنفاقها في سبيل الله قال ، (فعلت فداها أبوها ، فعلت فداها أبوها ، فعلت فداها أبوها ، ومثل هذا الحديث ما روي عن الرضا (ع) عن آبائه ، عن علي بن الحسين (ع) أنه قال ، حدثتني أسماء بنت عميس قالت ، كنت عند فاطمة (ع) إذ دخل عليها رسول الله (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب كان اشتراها لها علي بن أبي طالب (ع) من فيه ، فقال لها رسول الله (ص) ، يا فاطمة لا يقول الناس إن فاطمة بنت محمد تلبس لباس الجبابرة ، فقطعتها وباعتها واشترت بها رقبة - أي أمة - فاعتقتها ، فسر رسول الله (ص)) .

٥- وروى الصدوق (ره) عن علي (ع) أنه قال ،

(إن فاطمة (ع) استققت بالقربة حتى أثرت في صدرها ، وطلحت بالرحى حتى نطحت^{١٣} يداها ، وكسحت^{١٤} البيت حتى أغبرت ثيابها وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت^{١٥} ثيابها) الحديث .

٦- وكانت فاطمة عليها السلام تتحمل مع علي مشاكل الحياة في ظروف الجهاد الصعبة فقد جاء في الحديث عن أبي جعفر (ع) قال ،

(إن فاطمة (ع) ضمنت لعلني (ع) عمل البيت والعجين والخبز وقم البيت وضمن لها علي (ع) ما كان خلف الباب ، نقل الحطب وإن يجيء بالطعام ، فقال لها يوماً ، يا فاطمة هل عندك شيء ؟ قالت ، والذي عظم حقك ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شيء نقرئك به . قال ، أفلا أخبرتني ؟ قالت ، كان رسول الله نهاني أن أسالك شيئاً . فقال ، لا تسالين ابن عمك شيئاً إن جاك بشيء ، وإلا فلا تسالينه .

قال فخرج عليه السلام فلقني رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثم أقبل به وقد أمسى فلقني المقداد ابن الأسود فقال للمقداد ، ما أخرجك في هذه الساعة ؟ قال ، الجوع والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين ، قال ، قلت لأبي جعفر عليه السلام ، ورسول الله (ص) حي^{١٦} ، قال ، ورسول الله (ص) حي^{١٧} ؟ قال ، فهو أخرجني

(١١) وهو كساء .

(١٢) أي سوارين .

(١٣) كما يحدث عند كثرة ممارسة العمل .

(١٤) أي كنست .

(١٥) أي أسودت .

وقد استقرضت ديناراً وسأؤترك به فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول الله (ص) جالساً وفاطمة تصلي وبينهما شيء مغطى . فلما فرغت اجتربت ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم قال : يا فاطمة أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال له رسول الله (ص) : ألا لحدك بمثلك ومثلها ؟ قال : بلى ، قال : مثلك مثل زكريا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فاكلوا منها شهراً وهي الجفنة التي ياكل منها القائم (ع) وهي عندنا) .

وفي حديث آخر ماثور في المراسيل أن الحسن والحسين كان عليهما ثياب خلقة وقد قرب العيد ، فقالا لأمهما فاطمة (ع) ،

(إن بني فلان خيطت لهم الثياب الفاخرة ، أفلا تخططين لنا ثياباً للعيد يا أماه ؟ فقالت : يخاط لكما إن شاء الله ، فلما إن جاء العيد جاء جبرائيل بقميصين من حلل الجنة إلى رسول الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : ما هذا يا أخي جبرائيل ؟ فلخبره بقول الحسن والحسين لفاطمة ويقول فاطمة يخاط لكما إن شاء ، ثم قال جبرائيل : قال الله تعالى لما سمع قولها : لا تستحسن أن نكذب فاطمة بقولها ، يخاط لكما إن شاء الله .

وعن سعيد الحفاظ الديلمي بإسناده عن انس قال : قال رسول الله (ص) :
(بينما اهل الجنة في الجنة يتنعمون ، واهل النار في النار يعذبون إذا لاهل الجنة نور ساطع ، فيقول بعضهم لبعض : ما هذا النور لعل رب العزة اطلع فنظر إلينا ، فيقول لهم رضوان ، لا ، ولكن علياً (ع) مازح فاطمة فتبسمت فاضاء ذلك النور من ثناياها) .^{١٦}

ولم يكذ الإمام علي (ع) يفرغ من دفن رسول الله (ص) حتى هبت على الأمة رياح الجاهلية ولوشكت أن تقطع شجرة الإسلام الطرية .. وكان على بيت الرسالة أن يقف كالجبل الأشم في وجه عواصف الردة . ويحافظ على كيان الإسلام وفاءً بعهده مع رسول الله ، وتحقيقاً لدوره المرسوم الذي عبر عنه صاحب الوحي (ص) حيث قال :

(إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً) .
وحين قال : (مثل اهل بيتي كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك) .
وحين قال : (فاطمة بضعة مني ، من أذاها فقد أذاني ، ومن لغضبيها فقد لغضبي ، ومن لغضبي فقد أغضب الله) .

وكانت فاطمة قطب الرchy في بيت الرسالة .. فماذا فعلت وكيف نهضت بأعباء الحركة التصحيحية ؟
والجواب : أنه بالرغم من سيطرة الإسلام السياسية على شبه الجزيرة العربية التي ضمنت دخول الناس

افواجاً في دين الله ، ابتداء من صلح الحديبية ، فإن دعائم الإيمان وشرائع الإسلام لمَّا تترسَّخ في النفوس ..

بل كانت النفوس الطامحة للمغانم . والتي مردت على النفاق ، تهدد سلامة المجتمع الإسلامي ، خصوصاً بعد غياب النبي (ص) الذي كان يشكل ، الرسول ، القائد ، الأب ، والعمد ، والنقل الأعظم في الدين والدولة والمجتمع .

وبالرغم من أن الرسول لم يترك فرصة إلا لانتهازها لتوجيه انظار المسلمين إلى الخط الرسالي الذي يمثل الصراط المستقيم في الأمة ويؤدي دوره ، وينهض بذات المسؤوليات التي كان يقوم بها ، كل ذلك من أجل التحويض عن الفراغ الذي كان سيسببه غيابه (ص) عن الأمة .

وكان لعظم مناسبة أكد فيها الرسول دور وصيه ، الإمام علي (ع) وأهل بيته الصديقين ، هي مناسبة عودته من حجة الوداع وتوقفه في منطقة صحراوية سميت باسم " غدير خم " فاشتهرت المناسبة بغدير خم حيث رفع النبي يد الإمام علي (ع) أمام أكثر من مائة ألف من مرافقيه وقال ،
(من كنت مولاه فهذا عليُّ مولاه) .

أقول بالرغم من ذلك كله ، فإن تكريس عهد الوصاية بعد عهد الرسالة لم يتم من دون صعوبات ، بل تضحيات . وكانت فاطمة الزهراء أول مضحية في سبيل الله . ومن أجل هذا الهدف ،

كانت صرخة محمدية دوت في حياة الأمة قائلة : إن مات محمد فإن خطه لم يمض .. وإن سكوت محمد (ص) فإن بضعته الطاهرة تنطق عنه ، وتخرس اصوات الجاهلية بكل قوة .

كانت فاطمة البدر الزاهر الذي تحدى ظلام الأفق بعد غياب شمس الرسالة وهي تقول ، إن كان الوحي قد انقطع وغاب ، فإن شعاعه لايزال منيراً ، لأنه صب في ضمير فاطمة بنت محمد (ص) كل رسالاته وشرائعه وخلقه . فهي انعكاس ذلك الضوء ، ومشكاة ذلك النور .

وكانت فاطمة الشمس الدافئة التي التمس الناس منها الدفء في عهد كاد زمهرير حب الراحة والركون إلى الدعة تقضي على حرارة الإيمان وعنفوان الجهاد والتضحية .

لم تقف فاطمة الزهراء ، ضد السلطة السياسية ، بقدر ما وقفت ضد عوامل الضعف والتواني التي كادت تتغلب على المجتمع ، وبالذات على الطليعة ، من المهاجرين والأنصار ..

وقد اتبعت فاطمة (ع) خطاً حكيمة ، لتحقيق الهدف ، ومن أبرزها ،
أولاً ، تحريض النساء على رجالهن .

ثانياً ، إحياء ذكرى الرسول في الأمة ، بالوله إليه والبكاء عليه .

ونحن نتحدث إليكم ببعض التفصيل عن هاتين الخطتين ،

فاطمة الزهراء تحرض نساء المدينة :

لم تعش فاطمة الزهراء (ع) بعد أبيها إلا تسعين يوماً حسب بعض التواريخ . وأما حسب البعض الآخر

فانها عاشت اقل من ذلك بكثير وخلال الفترة كانت حزينة كثيفة منهدة الركن ، بل كانت مريضة طريحة الفراش ، فزارتها نسوة من المهاجرين والأنصار يُعَدُّنَهَا في علتها ، فقلن : السلام عليك يا بنت رسول الله (ص) ، كيف أصبحت ؟

فقلت : أصبحت والله عاتفة لدنياكن ، قالية لرجالكن لفظتهم بعد إذ عجمتهم^{١٧} وسئمتهم بعد أن سبرتهم فقبُحاً لأفون الرأي ، وخطل القول ، وخَوَّرَ القناة^{١٨} ، ولبئس ما قدَّمت لهم لأنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، لاجرم والله لقد قلدتهم ريقتها ، وشننتُ عليهم غارها ، فجعداً ورغماً للقوم الظالمين .

ويحهم^{١٩} أني زحزحوها عن أبي الحسن ، ما نقموا والله منه إلا نكير سيفه^{٢٠} ونكال وقعه ، وتتمَّره في ذات الله ، وتالله لو تكافؤا عليه من زمام نبذه إليه رسول الله (ص) لاعتلقه ، ثمَّ لساير بهم سيرة سحجاً^{٢١} ، بجحاً ، فإنه قواعد الرسالة ، ورواسي النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، والطَّيِّين^{٢٢} بامر الدين والدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

والله لا يكلم خشاشه ، ولا يتعتع راكبه ، ولا وردهم منهلاً رويّاً فضفاضاً^{٢٤} تطفح ضفته ، ولا صدرهم بطاناً قد خثر بهم الرِّيُّ غير متحل بطائل إلا تغمر الناهل وردع سورة سغب^{٢٥} ، ولفتحت عليهم . بركات من السماء والأرض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون .

(١٧) " عاتفة " كارهة . و " قالية " مبغضة و " لفظت " الشيء من فمي - رميته و " عجمت " العود - إذا عضبته .

(١٨) " شنأه " أبغضه و " سبرتهم " اختبرتم و " الفلول " - التلعة والكسر و " الخور " - الضعف و " الحطل " الفاسد المضطرب .

(١٩) " لقد قلدتهم ريقتها " جعلت أتم الخطيئة في رقابهم و " شننت عليهم غارها " فرقت الفارة عليهم من كل صوب و " جعداً " قطع الأنف والأذن أو الشفة .

(٢٠) " نكير سيفه " انكار سوفه وخوف شجاعته .

(٢١) " نكال وقعه " هيبة صدمته في الحرب و " تنمَّره في ذات الله " - سكرته من أجل الله كما النمر لا تكفاه إلا غاضباً شديداً .

(٢٢) " لو تكافؤا عليه من زمام " لو منعوا أنفسهم عن التصرف في مفوداً أعطاه الرسول و " لاعتلقه " أخذ المقود بحب شديد .

(٢٣) " سيراً سحجاً " سيراً ليناً سهلاً . " الطيِّين " الفطن الحاذق .

(٢٤) " لا يكلم " لا يجرح و " الخشاش " ما يجعل في أنف البعير وربما التعبير كناية عن قدرته الكبيرة على متابعة السير . و " يتعتع راكبه " يزجج راكبه " المنهل " المورد و " الفضفاض " الواسع .

(٢٥) " ردع سورة سغب " مقاومة شدة الجوع .

فهلُم فاسمع ، فما عشت اراك الدُّهر عجباً ، وإن تعجب بعد الحادث فما بالهم ؟ بأيُّ سند استندوا ، أم بآية عروة تمسكوا ، لبئس المولى ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلاً .
استبدلوا الذنابي بالقوادم ، والحرور بالقاحم ، والعجز بالكاهل ^{٢٦} ، فتعساً لقوم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً . الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يهدي إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ؟..

لقحت فنظرت ريثما تنتج ، ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً ، ودعافاً ممضاً ^{٢٧} هنالك يخسر المبتلون ، ويعرف التالون غبُّ ما اسكن الأولون ، ثم طيبوا بعد ذلك عن انفسكم لفتنها ، ثم اطمئندوا للفتنة جاشاً ، وابشروا بسيف صارم ، وهرج دانما شامل ، واستبداد من الظالين ، فزرع فينكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً ، فيا حسرة لهم ، وقد عميت عليهم الأنباء ، انلزمكموها وانتم لها كارهون .

فاطمة الزهراء تنذب أباه :

لم تكن علاقة فاطمة بابيها كئيبة بنت بوالدها ، بل إنها اضحيت امتداداً لجميع ابعاد شخصية رسول الله ، أولم يقل عنها النبي (ص) وهو أخذ بيدها ،

(من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي الذي بين جنبي فمن آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله) ^{٢٨} .

أولم يحدثنا علي عليه السلام عن فاطمة عليها السلام انها قالت ،

(قال لي رسول الله ، يا فاطمة من صلى عليك غفر الله له والحقه بي حيث كنت من الجنة) ^{٢٩} .
وحب فاطمة لأبيها كان اسماً من حب النسب . بل كان حباً إلهياً نابعاً من معرفتها بمقام الرسول من الله ، وعظمته عند ربه .

وحين افتقدت فاطمة رسول الله احست بخطورة الموقف كما لم يشعر بذلك أحد ، وشعرت وكأنَّ جبال الأرض تداكت على رأسها الشريف .

وبالرغم من أن الحزن قد دب إلى كل قلب مؤمن بفقد الرسول ، وإلى قلب الأمة ، وضمير الحياة ، إلا أن شلال الحزن صب في فؤاد ابنته ووريثته الوحيدة ، وقلبه المنفصل ١١

ولقد اذهل المصاب الجلل الكثير عن التفكير الجدِّي في إملاء الفراغ الكبير بإحياء ذكرى الرسول .

(٢٦) " الذنابي بالقوادم " المتأخر بالمتقدم والذنابي آخر ريش الطائر والقوادم أول ريشه . و " الحرور " الفرس الذي لا يتقاد استعير للجاهل و " القاحم " و " العجز بالكاهل " المتأخر بالمتقدم .

(٢٧) " لقحت " حملت " فريت لما تنتج " انتظروا ساعة الولادة و " ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً " دعوا القدح يمتلئ من الدم العبيط ، و " دعافاً ممضاً " سماً مرأ .

(٢٨) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٨٠ .

(٢٩) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٥٥ .

وكان على فاطمة ان تملأ هذا الفراغ بذكر رسول الله ، وبيان عظمته ، والصلاة عليه ، وإعلان شديد الحزن عليه . و . و .

إن فاطمة كانت تتعبد لله بالكباء على فقد رسول الله (صلى الله عليه وآله) . لأن ذلك كان يحيي ذكر الرسول .

وقد بلغ بكاء الزهراء على والدها جداً عُدَّت من البكاين الخمسة إلى جنب آدم ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، ثم علي بن الحسين (ع) .

وجاء في حديث مروى عن فضة التي لازمت خدمة فاطمة الزهراء ، قصة حزن فاطمة ، الحديث يقول ، ولم يكن في أهل الأرض والأصحاب ، والأقرباء والأحباب ، أشدُّ حزنًا وأعظم بكاءً وانتحاباً (على رسول الله) من مولاتي فاطمة الزهراء (ع) ، وكان حزنها يتجدد ويزيد ، وبكاؤها يشتد .

فجلست سبعة أيام لا يهدأ لها أنين ، ولا يسكن منها الحنين ، كلُّ يوم جاء كان بكاءها أكثر من اليوم الأول ، فلما كان في اليوم الثامن أبدت ما كتمت من الحزن ، فلم تطلق صبراً إذ خرجت وصرخت ، فكانها من فم رسول الله صلى الله عليه وآله تنطق ، فتبادرت النسوان ، وخرجت الولائد والولدان ، وضجَّ الناس بالبكاء والنحيب وجاء الناس من كلِّ مكان ، واطفئت المصابيح لكيلا تتبين صفحات النساء وخيل إلى النسوان أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قام من قبره ، وصارت الناس في دهشة وحيرة لما قد رهمهم ، وهي (ع) تنادي وتتدبأها ، يا ابتاه ، يا صفيّاه ، يا محمداه ، يا أبا القاسماه ، يا ربيع الأرامل واليتامى ، من للقبلة والمصلّى ، ومن لابنك الوالهة الثكلى .

ثم أقبلت تعثر في أذيالها ، وهي لا تبصر شيئاً من عبرتها ، ومن تواتر دمعها حتى دنت من قبر أبيها محمد صلى الله عليه وآله ، فلما نظرت إلى الحجرة وقع طرفها على الملائنة فقصرت خطاها ، ودام نحيبها وبكاها ، إلى أن انغمى عليها ، فتبادرت النسوان إليها فنضجن الماء عليها وعلى صدرها وجبينها حتى أفاقت ، فلما أفاقت من غشيتها قامت وهي تقول ،

(رفعت قوتي ، وخانني جلدي ، وشمت بي عدوي ، والكمد قاتلي ، يا ابتاه بقيت والهة وحيدة ، وحيرانه فريدة ، فقد انخمد صوتي ، وانقطع ظهري ، وتنغص عيشي ، وتكدّر دهرى ، فما لجد يا ابتاه بعدك انيساً لوحشتي ، ولا راداً لدمعتي ، ولا معيناً لضعفي ، فقد فني بعدك محكم التذليل ، ومهبط جبرائيل ، ومحل ميكانيل . انقلبت بعدك يا ابتاه الأسباب ، وتغلقت دوني الأبواب ، فانا للدنيا بعدك قالية ، وعليك ما ترددت لفاسي باكية ، لا ينفد شوقي إليك ، ولا حزني عليك) .

ثم نادت ، يا ابتاه والبّاه ، ثم قالت ،

إن حزني عليك حزن جديد
وفؤادي والله صبّ عنيدي

كل يوم يزيد فيه شجوني واكتسابي عليك ليس يبيدُ
جلُّ خطبي فبان عني عزائي فبكائي في كل وقت جديدُ
إن قلباً عليك يالف صبراً أو عزاءً ، فإنسه لجليدُ

ثم نادت ، يا ابتاه ، انقطعت بك الدنيا بانوارها ، وزوت زهرتها وكانت ببهجتك زاهرة ، فقد اسودَّ
نهارها ، فصار يحكي حنادسها ويابسها ، يا ابتاه لازلت أسفة عليك إلى التلاق ، يا ابتاه زال غمضي منذ
حقَّ الفراق ، يا ابتاه من للأرامل والمساكين ، ومن للامة إلى يوم الدين ، يا ابتاه امسينا بعدك من
المستضعفين ، يا ابتاه أصبحت الناس عنا معرضين ، ولقد كنا بك معظمين في الناس غير
مستضعفين ، فأي دمعٍ لفراقك لا تنهمل ، وأي حزن بعدك عليك لا يتصل ، وأي جفن بعدك بالنوم
يكتحل ، وانت ربيع الدُّين ، ونور النبيين ، فكيف للجبال لا تمور ، وللبحار بعدك لا تغور ، والارض كيف
لم تتزلزل .

رُميت يا ابتاه بالخطب الجليل ، ولم تكن الرزية بالقليل ، وطرفت يا ابتاه بالمصائب العظيم ، وبالفادح
المهول .

بكك يا ابتاه الاملاك ، ووقفت الافلاك ، فمبرك بعدك مستوحش ، ومحرابك خال من مناجاتك ، وقبرك
فرح بموارئك ، والجنة مشتاقة إليك وإلى دعائك وصلاتك .

يا ابتاه ما اعظم ظلمة مجالسك ، فوا اسفاه عليك إلى ان اقدم عاجلاً عليك ، وأكُلْ ابي الحسن المؤمن
ابي ولديك ، الحسن والحسين ، واخيك ووليكَ وحبيبك ومن ربيته صغيراً ، وواخيته كبيراً ، واحلى احبابك
واصحابك إليك من كان منهم سابقاً ومهاجراً وناصرأ ، والكل شاملنا ، والبكاء قاتلنا ، والاسى لازمنا .

ثم زفرت زفرة وأنت أنه كادت روحها ان تخرج ثم قالت ،

قل صبري وبان عني عزائي بعد فقدي لخاتم الأنبياء
عين يا عين فاسكبي الدمع سحاً ويك لا تبخلسي بفيض الدماء
يا رسول الإله يا خيرة الله وكهف الايتام والضعفاء
قد بككت الجبال والوحشُ جمعاً فبكست الأرض من بكاء السعاء
وبكاء الحجون والركن والـ مشغسِر يا سيدي مع البطحاء
ويكاك المحراب والدُّرس للقر ان في الصبح معلناً والمساء
ويكاك الإسلام إن صار في النا س غريباً من سائر الغرباء
لو ترى المنبر الذي كنت تعلو ه علاه الظلام بعد الضياء
يا إلهي عجل وفاتي سريعاً فلقد نقص الحياة بكائسي

قالت ، ثم رجعت إلى منزلها واخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها ، وهي لا ترقا دمعها ، ولا تهدأ
زفرتها .

واجتمع شيوخ أهل المدينة وأقبلوا إلى أمير المؤمنين علي (ع) فقالوا له ، يا أبا الحسن إن فاطمة (ع) تبكي الليل والنهار ، فلا أحد منا يتهنأ بالنوم في الليل على فراشنا ، ولا بالنهار لنا قرار على أشغالنا وطلب معاشنا . وأنا نخبرك أن تسالها إما أن تبكي ليلاً أو نهاراً ، فقال (ع) ، حباً وكرامةً .

فأقبل أمير المؤمنين (ع) حتى دخل على فاطمة (ع) وهي لا تفيق من البكاء ، ولا ينفع فيها العزاء . فلما رآته سكنت هنيئة له ، فقال لها ، يا بنت رسول الله (ص) ، إن شيوخ المدينة يسألوني أن أسالك إما أن تبكين أباك ليلاً وإماً نهاراً .

فقلت ، يا أبا الحسن ما أقل مكثي بينهم ، وما أقرب مغيبني من بين أظهرهم ، فوالله لا أسكت ليلاً ولا نهاراً أو الحق بابي رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال لها علي عليه السلام ، أفعلي يا بنت رسول الله ما بدا لك .

ثم إنه بنى لها بيتاً في البقيع نازحاً عن المدينة يسمى بيت الأحرار ، وكانت إذا أصبحت قدّمت الحسن والحسين (ع) أمامها ، وخرجت إلى البقيع باكياً .^{٣١}

وكانت فاطمة الزهراء تستغل بعض المناسبات لتعريف الناس برسول الله ، وتجديد ذكره العطرة . فلقد روي [أنه] لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان ، قال ، لا أؤذن لأحد بعد رسول الله (ص) ، وإن فاطمة (ع) قالت ذات يوم ، إني اشتيتي أن أسمع صوت مؤذن أبي (ص) بالأذان ، فبلغ ذلك بلالاً ، فأخذ في الأذان ، فلماً قال ، الله أكبر الله أكبر ، ذكرت أباهما وأيامه ، فلم تتمالك من البكاء ، فلما بلغ إلى قوله ، أشهد أن محمداً رسول الله شهقت فاطمة (ع) وسقطت لوجهها وغشي عليها ، فقال الناس لبلال ، امسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله (ص) الدنيا ، وظنوا أنها قد ماتت ، فقطع أذانه ولم يتمه فاذنات فاطمة (ع) وسالته أن يتم الأذان ، فلم يفعل ، وقال لها ، يا سيدة النسوان إني أخشى عليك ممّا تنزليه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان ، فاعفته عن ذلك .

الصديقة عليها السلام تلتحق بوالدها (ص) :

كان النبي (ص) يتقلب على فراش المنية ، وكانت فاطمة تجلس بجانبه فيسأرها النبي فتبكي ، ثم يسأرها ثانية فيتهلل وجهها الكريم . وحين تسال عن السر الأول تقول ، إنه أسر إليها بأن جبرائيل كان يعرض عليه القرآن كل عام مرة واحدة . فعرض عليه هذا العام مرتين ، وما ذلك إلا لاقتراب أجله ..

أما السر الثاني فإنها ستكون أول من تلتحق به ..

وهكذا ، ظلت فاطمة تعزي نفسها رغم شدة الظروف المحيطة بها ، بأنها ستكون أول من يلتحق برسول الله (ص).

أما الظروف التي عاشتها فاطمة (ع) بعد وفاة الرسول ، فكانت صعبة جداً ، لأنها وقفت وحدها تتحدى

(٣١) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

العواصف العاتية . وحتى الإمام علي بطل الإسلام الأول لم يكن من الحكمة ان يشاطرهما الجهاد ، فكان عليها ان تتصدى لذلك وحدها ، وهي امرأة لما تبلغ العشرين ربيعاً .. ولكل تلك الظروف يكفينا ان نستمع اليها وهي مفجوعة تشكو إلى علي (ع) حالها بكلمات تنقطر المأ وتحدياً ،
لما انصرفت فاطمة من عند أبي بكر اقبلت على امير المؤمنين (ع) فقالت له ،

(يا بن ابي طالب شملت شيمة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين ، فنقضت قادمة الأجدل ، فخانك ريش الأعزل . اضرعت خدك يوم وضعت جدك ، افترست الذناب وافترشت التراب ، ما كففت قاتلاً ، ولا اغديت باطلاً هذا ابن ابي قحافة يبتزني نحيلة ابي ، وبليغة ابني ، والله لقد لجره في خصامي ، والبغيتة الد في كلامي ، حتى منعني القيلة نصرها والمهاجرة وصلها ، وغضت الجماعة دوني طرفها ، فلا دافع ولا مانع ، خرجت كاظمة ، وعدت راغمة ، ولا خيار لي ، ليتني مت قبل هينتي ، ودون زلتي ، عذيري الله منك عادياً ، ومنك حامياً ، ويلاي في كل شارق ، ويلاي مات العمد ووهنت العضد ، وشكواي إلى ابي ، وعدواي إلى ربي . اللهم أنت لشد قوة ، فاجابها امير المؤمنين ، لا ويل لك ، الويل لشانك ، نهني عن وجدك يا بنية الصفوة ، وبقية النبوة ، فما ونيت عن ديني ، ولا اخطأت مقدوري ، فإن كنت تريدني البالغة ، فرزقك مضمون ، وكفيلك مامون ، وما اعد لك خير مما قطع فاحتسبي الله . فقالت حسبي الله ونعم الوكيل)^{٣٢} .

وحان ميعاد اللقاء ، واستعدت الصديقة للقاء الله والاتحاق برسول الله ، وكان لذلك قصة تروى فلقد مرضت فاطمة (ع) مرضاً شديداً ومكثت اربعين ليلة في مرضها ، إلى أن توفيت صلوات الله عليها . فلما نعت إليها نفسها دعت أم ليمن واسماء بنت عميس ووجهت خلف علي وأحضرتة ، فقالت ، ابن عم إن قد نعت إلي نفسي وانني لا ارى ما بي إلا انني لاحقة بابي ساعة بعد ساعة وانا اوصيك بلشياء في قلبي .
(قال لها علي (ع) ، اوصيني بما احببت يا بنت رسول الله ! فجلس عند راسها واخرج من كان في البيت ثم قالت ، يا بن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ، ولا خالفك منذ عاشرتني . فقال (ع) ، معاذ الله لنت لعلم بالله ، وابر وانقى واكرم واشد خوفاً من الله [من] ان اوبخك بمخالفتي قد عز علي مفارقتك وتفقدك ، إلا أنه امر لابد منه ، والله جددت علي مصيبة رسول الله (ص) ، وقد عظمت وفانك وفقدك ، فإننا لله وإننا إليه راجعون من مصيبة ما افجعها وآلمها وامضها واحزنها . هذه والله مصيبة لا عزاء لها ، ورزية لا خلف لها .

ثم بكيا جميعاً ساعة ، واخذ علي راسها وضمه إلى صدره ثم قال ،
اوصيني بما شئت ، فإنك تجدينني فيها امضي كما امرتني به ، واختار امرك على امري .
ثم قالت ، جزاك الله عني خير الجزاء يا بن عم رسول الله ، اوصيك أولاً ان تتزوج بعدي بابنة [اختي]

(٣٢) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٤٨ .

امامة ، فإنها تكون لولدي مطي ، فإن الرجال لأبد لهم من النساء .
ثم قالت ، اوصيك يا بن عم أن تتخذ لي نعشاً ، فقد رايت الملائكة صوّروا صورته ، فقال لها ، صفيه لي فوصفته فاتخذته لها . فلؤل نعش عمل على وجه الأرض ذاك .
ثم قالت ، اوصيك ان لا يشهد احد جنازتي من هؤلاء الذين ظلموني واخذوا حقّي فإنهم عدوي وعدو رسول الله (ص) ، ولا تترك ان يصلّي عليّ احد منهم ، ولا من اتباعهم ، وادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار ، ثم توفيت صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها .
فصاح اهل المدينة صيحة واحدة واجتمعت نساء بني هاشم في دارها ، فصرخوا صرخة واحدة كادت المدينة ان تتزعزع من صراخهن وهن يلقن ، يا سيدته ا. يا بنت رسول الله ا. واقبل الناس مثل عُرْف الغرس إلى علي (ع) ، وهو جالس والحسن والحسين (ع) بين يديه بيكيان ، فبكى الناس لباكئهما .
وخرجت أم كلثوم وعليها برقة وتجر ذيلها متجللة برداء عليها وقد علا نحيبها وهي تقول ، يا ابتاه ، يا رسول الله ، الآن حقاً فقدناك ، فقد لا لقاء بعده أبداً .
واجتمع الناس فجلسوا وهم يضحون ، وينتظرون ان تخرج الجنازة فيصلون عليها ، وخرج ابو ذر وقال ، انصرفوا فإن ابنة رسول الله (ص) قد أخر إخراجها في هذه العشية فقام الناس وانصرفوا .
فلما ان هدأت العيون ومضى شطر من الليل اخرجها علي والحسن والحسين (ع) ، وعمار والمقداد وعقيل والزبير وابو ذر وسلمان وبريدة ونفر من بني هاشم وخواصهم ، صلّوا عليها ودفنوها في جوف الليل ، وسوّى علي (ع) حوالها قبوراً مزورة مقدار سبعة حتى لا يعرف قبرها . وقال بعضهم من الخواص ، قبرها سوّى مع الأرض مستويّاً فمسح مسحاً سواء مع الأرض حتى لا يعرف موضعه ٣٣ .
ثم إن علياً (ع) حوّل وجهه إلى قبر رسول الله ثم قال ،
(السلام عليك يا رسول الله عني ا. والسلام عليك عن ابنتك ، ورائتك والبائنة في الثرى ببقعتك ، والمختار الله لها سرعة اللحاق بك . قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، وعفا عن سيدة نساء العالمين تجلدي ، إلا أن في التلّسي لي بسنتك في فرقتك ، موضع تعز ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت نفسك بين نحري وصدري .
بلى ا. وفي كتاب الله لي انعم القبول ، إنا لله وإنا إليه راجعون . قد استرجعت الوديعه ، واخذت الرّهينة ، اخلست الزهراء ، فما اقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله ا.
أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهّد ، وهم لا يبرح من قلبي ، لو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم ، كمد مقيح ، وهم مهيج ، سرعان ما فُرق بيننا . وإلى الله اشكو .
وستدبئك ابنتك بتضافر أمّك على هضمها ، فأحفها السؤال ، واستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج

بصدرها ، لم تجد إلى بئس سبيلاً ، وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين)^{٣٤} .
وظلت فاطمة الزهراء شحلة الحب التي لاتخبو في صدور المؤمنين ، وراية الكفاح التي لاتسقط عن يد
الرساليين ، وقبسة الخلق الرفيع ، وظلامة الحق التي تصيغ صفحات الشفق بلون الدم الموقور ، والحق
المخدور ، فتتحول نبضة ثورية في عروق فتيان المروءة ، يتزودون بها عبر مسيرتهم الجهادية ضد
المتسلطين والانتهازيين والقشربين ..

وما أحوج امتنا اليوم إلى تجديد ذكرى فاطمة ، ليقتردي بها النساء ، بل الرجال أولاً ..
ولنصلي عليها . وعلى أبيها ، وعلى بعلها وبنيها ، كما صلى الله عليها ، وملائكته ، والمؤمنون ..
ولقد بلغ من التزامها بتطبيق الإسلام على نفسها تطبيقاً حرفياً ، ما روي من أنه لما نزلت الآية
المباركة :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور/٦٣)

صار اللازم على المسلمين أن يغيروا خطابهم مع الرسول ، من قولهم : يا محمد !! إلى قولهم يا
رسول الله . الكلمة التي شاعت بعد نزول هذه الآية باعتبار ذكر الرسول في الآية ، تعبيراً عن النبي
— محمد — .

وكان هذا الدستور مختصاً بالدين كانوا يستخفون باسم النبي ويدعونه باسمه المدعى به ، دون أي
احترام .

ولكن فاطمة ، لما سمعت نزول هذه الآية ، غيّرت أيضاً طريقة خطابها مع النبي (ص) فبينما كانت
تقول لوالدها ، يا أبتاه !! اضحت تناديه بقولها ، يا رسول الله . فلما سمع النبي منها ذلك . تسائل عن
وجه ذلك . فقالت ، إطاعة لحكم الله . فقال النبي ، إني أحب من فمك كلمة " يا أبتاه " .

ب- أصدق الناس لهجة :

كانت عائشة تربية لفاطمة في العمر تقريباً ، وكانت الزوجة الأولى للرسول (ص) بعد خديجة .. وكانت
تغار من خديجة كثيراً ، وكان يزيد غيبتها شدة أن النبي (ص) كان يحب فاطمة كثيراً ويشيد بها ويقبل
يدها ويذكر أنها سيدة نساء العالمين وما إلى ذلك ، مع أنه لا يذكر شيئاً من ذلك لعائشة .
و مع ذلك فإنها اعترفت ذات مرة بهذا الإعتراف العجيب فقالت ، ما رأيت أحداً أصدق لهجة من فاطمة ،
إلا أن يكون الذي ولدها (أي رسول الله صلى الله عليه وآله) .

ج- بطلة الإيثار :

كانت فاطمة (ع) حينذاك ربة البيت .. وكانت الظروف الاقتصادية متازمة جداً . وكانت فاطمة ، وسائر
أفراد أسرتها يريدون الصوم وفاء بالنذر ، وإي نذر ؟ . لقد كان الحسنان (ع) قد أصابهما مرض منذ وقت

(٣٤) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ١٩٣ .

سابق ، وكان الإمام علي (ع) قد نذرله ان يصوم لو شوفيا . وكانت فاطمة والحسنان وفضة (الخادمة) قد تبعوا علياً في هذا النذر ، فالآن قد عوفيا . فجاء دور الوفاء بالنذر .

المرسوم في بلادنا ، اليوم ، ان الأسرة المسلمة إذا شاعت أن تصوم صوماً واجباً أو مندوباً ، هيأت مقداراً من الطعام ، أطيب وأكثر من سائر الأيام التي لا تريد صومها .
لما أسره علي (ع) ، فقد كانت فقيرة في تلك الأيام ، حتى عن المقدار اللازم للطعام .

نعم لم يكن في بيت العلم والشرف والتقوى ، عين من المال لا قليلاً ولا كثيراً ، ليفطروا . فذهب أمير المؤمنين ولخذ مقداراً من الصوف وأعطاه لفاطمة عليها السلام لكي تغزله . ولخذ مكانه ثلاثة أصنوع من الشعير أجراً على ذلك . لكي يفتروا عليها .

وجاء بالشعير إلى البيت ، وصامت الأسرة ، وصنعت الزهراء منه خمسة اقراص من الخبز .. وانتهى النهار ، وجلسوا لياكلوا .. وتاماً في الوقت الذي أرادوا الأكل سمعوا صوتاً من وراء الباب يقول :
السلام عليكم يا أهل بيت النبوة . إني مسكين من مساكين المدينة وجائع .. فاعطوني .. بارك الله فيكم .

فاخذ الإمام أمير المؤمنين رغيته وتبعته فاطمة ثم الحسن والحسين (ع) وحتى فضة ، لخذوا أرغفتهم الخمسة وأعطوها للمسكين .. ثم افطروا بالماء القراح وشكروا الله .

وفي اليوم الثاني ، كان الوقت عند الإفطار ، وكانت فاطمة قد صنعت خمسة أرغفة أيضاً .. وكانوا قد أرادوا الإفطار فجاء يثيم وطلب منهم طعاماً ، فقدم كل منهم رغيته وافتروا بالماء وحمدوا الله .
وجاءت الليلة الثالثة .. وجاء دور الأسير .. ففي نفس الوقت - أي عند الإفطار - طلب منهم الأسير ، وأعطوه الأرغفة وياتوا جيعاً لثلاثة أيام وليال كاملة .

والمفروض أن ثروة هذه الأسرة ، كانت لا تتجاوز ثلاثة أصنوع من الشعير . وها هي قد تمت .. وقد صاموا ثلاثة أيام بلياليها ، غير شربة من ماء افطروا عليها فقط .

ولما جاء الرسول لزيارتهم ، وشاهد الحسنين يرتجفان جوعاً ، وفاطمة عليها السلام قد اشتد بها الضعف ، والإمام وفضة . كلاهما قد أثر فيه الجوع أثراً بليغاً ، قال الرسول حينذاك ،

واغوثاه بالله أهل بيت محمد (ص) يموتون من الجوع .. وها هنا نزلت عليه سورة ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ (الإنسان/ ١) في حق أهل البيت .

وجاءت فيها الآيات التالية ،

﴿ يُولَـهُنَّ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمْنَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعَمُونَ السَّاعِمَ عَلَىٰ حَبِّ مَسْكِينٍ وَيَنبَغِي وَأَسِيرٌ * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نَرْجُو مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْماً غَمُوساً قَمَطِرٌ * قَرَأَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْقُرْآنِ وَقَالَهُمْ نَعَزْزُهُ وَنُرَوِّدُهُ ﴾ (الإنسان/ ٧-١١) .

وهكذا ضربت فاطمة الزهراء عليها السلام وبعلمها وابنتها وحتى خادمتها ، مثلاً رائعاً للإيثار ، ولخذت

أسرتها مدلاً عظيماً من ربهم على ذلك .
وفي حديث شريف رواه علماء المسلمين عن ابن عباس . نقرأ فصولاً من فضائل الزهراء ، التي تجعلها
سيدة نساء العالمين ، وقدوة الصديقات ، ولسوة المؤمنات الفاضلات ..
والى القارئ هذا الحديث الذي نختم به هذا الفصل ،

عن ابن عباس قال :
خرج أعرابيٌّ من بني سليم يتبدى في البرية ، فإذا هو بضرب قد نفر من بين يديه ، فسعى وراءه حتى
اصطاده ، ثم جعله في كمة واقبل يزدلف نحو النبي (ص) . فلما ان وقف بازائه ناداه ، يا محمد يا
محمد ، وكان من خلاق رسول الله (ص) إذا قيل له ، يا محمد ، قال ، يا محمد ، وإذا قيل له ، يا
أحمد ، قال ، يا أحمد ، وإذا قيل له ، يا أبا القاسم ، قال ، يا أبا القاسم ، وإذا قيل [له] ، يا رسول
الله ، قال ، ليبيك وسعديك وتهلل وجهه .

فلما ان ناداه الأعرابي ، يا محمد يا محمد قال له النبي ، يا محمد يا محمد ، قال له ، أنت الساحر
الكتاب الذي ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة هو أكذب منك ، أنت الذي تزعم ان لك في
هذه الخضراء إلهاً بحث بك إلى الأسود والأبيض ؟ واللآل والعزى ، لولا اني أخاف ان قومي يسمونني
العجول لضربتك بسيفي هذا ضربة أقتلك بها ، فأسود بك الأولين والأخريين .
فوجب إليه عمر بن الخطاب ليطيش به فقال النبي (ص) ، اجلس يا أبا حفص فقد كاد الحليم ان يكون
نبياً .

ثم التفت النبي (ص) إلى الأعرابي فقال له ،
(يا أبا بني سليم ، هكذا تفعل العرب ؟ يتهمون علينا في مجالسنا يجابهوننا بالكلام الخليط ؟ . يا
أعرابي والذي بعثني بالحق نبياً ان ضربين في دار الدنيا هو غدا في النار يتلظى ، يا أعرابي والذي بعثني
بالحق نبياً ان اهل السماء السابعة يسمونني أحمد الصادق ، يا أعرابي اسلم تسلم من النار يكون لك
مالنا وعليك ما علينا وتكون اخانا في الإسلام) .

قال ، فغضب الأعرابي وقال ، واللآل والعزى لا أؤمن بك يا محمد او يؤمن هذا الضب ثم رمى بالضب
من كمة ، فلما ان وقع الضب على الأرض ولّى هارباً ، فناداه النبي (ص) أيها الضب اقبل إلي ، فاقبل
الضب ينظر إلى النبي (ص) ، قال ، فقال له النبي (ص) ،

(أيها الضب من أنا ؟ . فإذا هو ينطق بلسان فصيح درب غير مقطوع فقال ، " أنت محمد بن عبد الله
بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف " . فقال له النبي (ص) ، من تعبد ؟ قال ، اعبد الله عز وجل
الذي فلق الحبة وبرأ النسمة واتخذ إبراهيم خليلاً واصطفاك يا محمد حبيباً ثم انشأ يقول ،

إليسا رسول الله | نك صادق
فبوركت مهدياً وبوركت هادي .
عبدنا كأمثال الحمير الطوامر . |
شرعت لنا دين الحنيفة بعد ما

فيا خير مدعو وبيا خير مرسل
ونحن أناس من سليم وندنا
أتيت ببرهان من الله واضح
فبوركت في الأحوال حياً وميتاً
إلى الجن بعد الإنس لبيك داعياً
أتيناك درجوا نال العوالي
فأصبحت فينا صادق القول زاكياً
وبوركت مولوداً وبوركت ناشياً

قال : ثم أطبق على فم الضب فلم يحر جواباً . فلما ان نظر الأعرابي إلى ذلك قال : وأعجباً ، ضب اصطدته من البرية ثم أتيت به في كمي لا يفقه ولا يفقه ولا يعقل ، يكلم محمداً (ص) بهذا الكلام ويشهد له بهذه الشهادة ، وأنا لا اطلب لثراً بعد عين ، مدّ يمينك فانا أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً عبده ورسوله ، فاسلم الأعرابي وحسن إسلامه .

ثم التفت النبي (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " علموا الأعرابي سوراً من القرآن " ، قال : فلما علم الأعرابي سوراً من القرآن قال له النبي (ص) : " هل لك شيء من المال " ؟ قال : والذي بعثك بالحق نبياً ، إنا أربعة آلاف رجل من بني سليم ما فيهم أفقر مني ولا أقل مالاً .

ثم التفت النبي (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " من يحمل الأعرابي على ناقة أضمن له على الله ناقة من نوق الجنة " ؟ قال : فوثب إليه سعد بن عبادة فقال : فذاك أبي وأمي عندي ناقة حمراء عشراء وهي للأعرابي .

فقال له النبي (ص) : " يا سعد تفخر علينا بنفاقك ؟ . الا اصف لك الناقة التي نعطيها بدلاً من ناقة الأعرابي ؟ فقال : بلى فذاك أبي وأمي .

فقال : " يا سعد ناقة من ذهب أحمر وقوائمها من العنبر ، ووبرها من الزعفران وعيناهما من ياقوتة حمراء ، وعنقها من الزبرجد الأخضر ، وسنامها من الكافور الأشهب ، وذقنها من الدر ، وخطامها من اللؤلؤ الرطب ، عليها قبة من درة بيضاء يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها تطير بك في الجنة " .

ثم التفت النبي (ص) إلى أصحابه فقال لهم : " من يتوَّج الأعرابي أضمن له على الله تاج التقى " ، قال : فوثب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وقال : (فذاك أبي وأمي وما تاج التقى ؟ فنذكر من صفته) ، قال : فذرع علي (ع) عمامته فعمم بها الأعرابي .

ثم التفت النبي (ص) فقال : من يزود الأعرابي أضمن له على الله عز وجل زاد التقوى " ، قال : فوثب إليه سلمان الفارسي فقال : (فذاك أبي وأمي وما زاد التقوى) قال : " يا سلمان إذا كان آخر يوم من الدنيا لقدك الله عز وجل قول شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن انت قلتها لقيتني ولقيتك ، وإن انت لم تقلها لم تلقني ولم لك أبداً " .

قال : فمضى سلمان حتى طاف تسعة أبيات من بيوت رسول الله (ص) فلم يجد عندهن شيئاً ، فلما لن ولّى راجعاً نظر إلى حجرة فاطمة (ع) فقال : إن يكن خير فمن منزل فاطمة بنت محمد (ص) ، فقرع

الباب فاجابته من وراء الباب ، من الباب ؟ . فقال لها ، انا سلمان الفارسي . فقالت له ، يا سلمان وما تشاء ؟ . فشرح قصّة الأعرابي والضبط مع النبي (ص) . قالت له ، يا سلمان والذي بعث محمداً (ص) بالحق نبياً إن لنا ثلاثاً ما طعمنا ، وإن الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدة الجوع ، ثم رقدنا كأنهما فرخان منتوفان ، ولكن لا أردُ الخير إذا نزل الخير ببابي .

يا سلمان خذ درعي هذا ثم امض به إلى شمعون اليهودي وقل له ، تقول لك فاطمة بنت محمد ، اقرضني عليه صاعاً من تمر وصاعاً من شعير أردّه عليك إن شاء الله تعالى .

قال ، فآخذ سلمان الدرع ثم أتى به إلى شمعون اليهودي فقال له ، يا شمعون هذا درع فاطمة بنت محمد (ص) ، تقول لك ، اقرضني عليه صاعاً من تمر وصاعاً من شعير أردّه عليك إن شاء الله . قال ، فآخذ شمعون الدرع ثم جعل يقلّبه في كفّه وعيناه تذرفان بالدموع وهو يقول ، يا سلمان هذا هو الزهد في الدنيا ، هذا الذي أخبرنا به موسى بن عمران في التوراة . انا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم وحسن إسلامه .

ثم دفع إلى سلمان صاعاً من تمر وصاعاً من شعير فأتى به سلمان إلى فاطمة فطحنته بيدها واختبزته خبزاً ، ثم أتت به إلى سلمان فقالت له ، خذه وامض به إلى النبي (ص) ، قال ، فقال لها سلمان ، يا فاطمة خذي منه قرصاً تعلّين به الحسن والحسين ، فقالت ، يا سلمان ، هذا شيء امضيناه لله عزّ وجلّ لسنا نأخذ منه شيئاً .

قال ، فآخذه سلمان فأتى به النبي (ص) ، فلما نظر النبي (ص) إلى سلمان قال له ، يا سلمان من أين لك هذا ؟ . قال ، من منزل ابنتك فاطمة ، قال ، وكان النبي (ص) لم يطعم طعاماً منذ ثلاث . قال ، فوثب النبي (ص) حتى ورد حجرة فاطمة ، فقرع الباب وكان إذا قرع النبي (ص) الباب لا يفتح الباب إلا فاطمة فلما أن فتحت له الباب نظر النبي (ص) إلى صفار وجهها وتغيّر حدقتيها ، فقال لها ، يا بنية ما الذي أراه من صفار وجهك وتغيّر حدقتيك ؟ فقالت ، يا أباي إن لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً وإن الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدة الجوع ثم رقدنا كأنهما فرخان منتوفان .

قال ، فأنبههما النبي (ص) فآخذ واحداً على فخذه الأيمن والآخر على فخذه الأيسر وجلس فاطمة بين يديه واعتنقها النبي (ص) ودخل عليّ بن أبي طالب (ع) فاعتنق النبي (ص) من ورائه ، ثم رفع النبي (ص) طرفه نحو السماء فقال ، " إلهي وسيدي ومولاي ، هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً " .

قال ، ثم وثبت فاطمة بنت محمد (ص) حتى دخلت إلى مخدع لها فصنّعت قدميها فصلّت ركعتين ثم رفعت باطن كفّيها إلى السماء وقالت ، (إلهي وسيدي هذا محمد نبيّك ، وهذا عليّ ابن عمّ نبيّك ، وهذان الحسن والحسين سبطا نبيّك ، إلهي انزل علينا مائدة من السماء كما أنزلتها على بني إسرائيل ، أكلوا

مدنها وكفروا بها ، اللهم أنزلها علينا فإننا بها مؤمنون) .

قال ابن عباس ، والله ما استتمت الدعوة فإذا هي بصحفة من ورائها يغور قطارها وإذا قطارها ازكى من المسك الأذفر ، فاحتضنتها ثم أتت بها إلى النبي (ص) وعلي والحسن والحسين ، فلما إن نظر إليها علي بن أبي طالب (ع) قال لها ، (يا فاطمة من أين لك هذا ؟ ولم يكن عهد عندها شيئاً) فقال له النبي (ص) ، " كل يا أبا الحسن ولا تسال ، الحمد لله الذي لم يمتني حتى رزقني ولداً مثلها مثل مريم بنت عمران " .

﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ مِنْهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران/ ٣٧)

قال ، فاكل النبي (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين وخرج النبي (ص) ، وتزود الأعرابي واستوى على راحلته وأتى بني سليم وهم يومئذ أربعة آلاف رجل . فلما إن وقف في وسطهم ناداهم بعلو صوته قولوا ، " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، قال ، فلما سمعوا منه هذه المقالة أسرعوا إلى سيوفهم فجردوها ، ثم قالوا له ، لقد صبوت إلى دين محمد السّاحر الكذاب ، فقال لهم ، ماهو بساحر ولا كذاب . ثم قال ، يا معشر بني سليم ، إن إله محمد (ص) خير إله ، وإن محمداً (ص) خير نبي أتيته جائعاً فاطعمني ، وعارياً فكساني ، وراجلأ فحملني ، ثم شرح لهم قصة الضب مع النبي (ص) وأنشدهم الشعر الذي أنشد في النبي (ص) .

ثم قال ، يا معاشر بني سليم اسلموا تسلموا من النار ، فأسلم في ذلك اليوم أربعة آلاف رجل ، وهم أصحاب الرايات الخضراء ، وهم حول رسول الله (ص) .

الامام علي (عليه السلام)

قلوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

حين يقف المرء على محيط بعيد الشواطئ ، عالي الموج يتردد كثيراً قبل ان يخوض غماره ؟
كذلك ترددت ، قبل ان اقرر الكتابة حول امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) ، بل بيّضت بعض
الأوراق قبل عشرين عاماً بحياة امام المتقين ، ولمّا اكملها حتى اليوم . ولولا اني فرضت على نفسي ذلك ،
بالقدر لَمّا اقتضت هذه العتبة .

ولكن ، إذا كانت حياته بمرّاً زخاراً واسع الأطراف ، أفلا يخسر من لا يبيل غليله منه ولو بقطرة ؟..
فهذه السحب الخيرة لاتزال تروي الأراضي الموات ، أكثر من ألف عام فيحييها الربُّ بها ، أفلا اعرض
قلبي لها ، فلعل الله يحييه فيما يحيي ؟

حياته الغدة التي تكاد لا تنتهي عبْرُها ، أفلا اجعلها نبراساً في ظلمات دهري ؟ بلى .
والتزاماً مني بأسلوب هذه السلسلة (قدوة وأسوة) اجتهدت في لملمة أطراف الموضوع قدر
المستطاع ، وأسأل الله ان يوفقني بفضله لإتمام المشروع ، إنه ولي التوفيق .

الفصل الأول

الأصل الكريم والميلاد المبارك

وليدها عظيماً :

كانت مكة تحتفل بالوافدين إلى زيارة بيت الله الحرام .. في الشهر الحرام ، رجب الأصعب . وكانت الوفود الكريمة تؤدي مناسك البيت ، والناس يطوفون حوله ، وينادون ربهم حيناً ، والأصنام أحياناً . وكانت هنالك امرأة كريمة ، تطوف لا كما يطوفون ، إذ كانت تتجه إلى الله وحده لا شريك له ، فتعمر نفسها ضراعةً المتبذل ، وخشوع المحتاج ، ووقار المطمئن إلى فضل الله ، تدعو الله وحده ، وتسأله أن يخفف عنها وطأة ما تخافه وتحذره .

لقد كانت أمّاً لثلاثة أبناء وبنات واحدة ، ولكن لم يشتهد بها المخاض ولا عصر اعصابها كهذه المرة . ودعت ، فالتحت في الدعاء لعل الله يخفف عنها آلام الطلق ، وتضرعت فابلغت في التضرع ، وفي الجانب الغربي من البيت ، إذ اجتمع طائفة من الحجاج ، حدث أمر عجيب ، لقد كانت في أخريات أشواطها ، عند مقترب الركن اليماني ، إذ انشقت لها جانب البيت ، وكان نداءً خفياً يدعوها أن تدخل بيت ربك !

دخلت البيت ، والناس يشهدون في ذهول ويصيحون صيحة العجب !، فيتقاطر عليهم سائر الطائفتين ، يسألون عن الحدث ؟ ومن هذه السيدة التي كانت الساعة تطوف ؟. إنها حفيدة هاشم بنت أسد ، زوجة أبي طالب والدة أم هاني وطالب وعقيل وجعفر ، إنها فاطمة !. ويجتمع الناس وبيهم الزعماء والأشراف .. وبعد مدة ، ينشق الجانب ذاته ، فتتهلّل وجوه الحاضرين كما يتهلل وجه الوليد العظيم ، وهو يتقلب على أذرع الوالدة الكريمة .

إنه حادث فريد من نوعه ، أن ينشق طرف البيت ، فتدخل الحامل وتلد في مركز الإشعاع الروحي والبركة الإلهية ، بيت الله الحرام الذي يعتبر أقدس محل " يحترمه العرب " .. وإنها لكرامة لبني هاشم على قريش ، ولقريش على العرب أن يولّهم رب البيت بهذه العناية ، فيسمح لامرأة منهم أن تضع حملها ببطن بيته ، مكرماً ومعظماً .

وسرت البشرى في بيوت الهاشميين !. وانطلقت نساؤها تزف تهنئتها إلى فاطمة معجبة مغرمة .. وجاء الزعماء يبشرون أبا طالب بالوليد العظيم ، ومن بين هؤلاء فتى يهيم أمر الوليد أكثر من غيره ، ينظر إليه لا كما ينظر الرجال الآخرون .. إنه محمد بن عبد الله (ص) الذي لم يزل يحسب من عائلة أبي طالب ،

فإذا تناول الوليد تلا آيات الله فلعجب به وبارك بولادته .

وقالوا ، إن الوليد لم يفتح عينيه إلا على محيا ابن عمه النبي العظيم وسُميَ علياً ، واختارت أمه له اسم (حيدر) وإذا كان هذا الاسم يوحي باكتمال الجسم الذي يبشر بالبطولة ، فإن الاسم الآخر كان يوحي ببشائر السمو المعنوي .

الولادة المعجزة :

كانت ولادته - كما لمقطه - (ع) ، شهادة حق على صدق رسالات الله .. إنه آية الله العظمى في كل جوانب حياته ، من ولادته إلى شهادته .

فلماذا تحاط ولادة الرسل والأنمة بالآيات ؟ فموسى (ع) يقذف في التابوت ليلقيه اليم بالساحل .. وليُصنع على عين الله .

وعيسى (ع) يولد من غير أب ، ويكلم الناس في المهد صبيّاً .

وسيدنا محمد (ص) ترافق ولادته حوادث عظيمة ، تسقط شرفات قصر فارس ، وتخدم نيرانهم ، وتفيض بحيرة ساوة ، وتفيض الأخرى في سماوة .و .

والإمام علي يولد في الكعبة بعد أن يندشق لأمه فاطمة بنت اسد ، جانب المستجار ، لماذا ؟ .

هل لأنهم قد اصطفاهم الله لرسالاته قبل الولادة ، حيث بادروا بالتلبية في عالم الذر قبل غيرهم من الصالحين ، فاجتباهم على علم ، وإبان فضلهم بالولادة المعجزة .

لم لأن الله سبحانه أطلع على مستقبل حياتهم ، فأكرم مواقفهم المسؤولة التي يعلم أنهم سوف يختارونها بكل حرية فأكرم مثوالم ، وجزاها بطيب الولادة ، وإعجازها ؟ ..

لم لأن الرب سبحانه أراد بذلك أن يكرم الأصلاب الشامخة والأرحام الطاهرة ممن ولدوهم ، كما فعل بمريم الصديقة ، لمخاها عند ربها ، لو بذكرها وزوجته عليهم السلام جميعاً ؟ .

لم لأسباب أخرى ؟

ولكن الولادة المعجزة بلاغ مبین للناس ، بشأن الوليد العظيم بدون أدنى شك .

بعد أن خرجت أم علي (ع) تحمله ، استقبله النبي محمد (ص) وهو يعلم أنه سيكون وصيه وخليفته ، فعم السرور قلبه الكبير .

ولم يتفارقاً منذ تلك اللحظة حتى ارتحل عنه النبي (ص) إلى ربه ، فلزم الوصي سنته حتى الشهادة .

وحين يصف الإمام بفخر عظيم تلك العلاقة الحميمة بينه وبين النبي (ص) لا يدع لنا إشكالاً في أنها

كانت من تقدير الله عز وجل وإن لها آثارها في بلاغ رسالاته إلى الناس .. يقول ،

" أنما وضعت في الصغر بكلال العرب ، وكسوت نواجم قرون ربيعة ومضر ، وقد علمتم موضعي من

(١) هكذا جاء في بعض النصوص المأثورة .

رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعتني في حجره وأنا ولد يضمنني إلى صدره ، ويكتفني في فراشه ، ويمسني جسده ، ويشمني عرقه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمني به ، وما وجد لي كذبة في قوله ، ولا غلطة في فعل ، ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان طفليماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره ، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أدر أمه ، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداه به . ولقد كان يجاور كل سنة بهراء فلراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة . واشم ريح النبوة " .

الفتى المبارك :

ولم يزل يدرج ويتعرج متميزاً بين أتريابه ، في أعماله ، وأقواله ، ففي ذات يوم ، وكان له آنذاك سنوات قلائل .. وكان يلعب مع أتريابه ، إذ ينزلق أحد الأطفال بجانب بئر كانت هناك .. وقبل أن يسقط فيها يلحقه علي (ع) فيأخذ منه عضواً ، فيعلق رأس الطفل إلى الأسفل وتمسك عضوه الأعلى يد علي ، ويصبح الأطفال ، ويأتي أهل الطفل .. ويتعجبون للمنظر .. وكان يسمى علي - مباركاً - فقالت والدته الطفل ، ليها الناس اترون مباركاً ، كيف انقذ ولدي من الهلاك .

وكانت الظروف صعبة في مكة ، وقد أصاب البلد الحرام قحط شديد ، عم بيت أبي طالب . فجاء النبي (ص) إلى بعض لعامه الأثرياء ، يفاوضهم في الأمر . واقترح أن يتكفلوا أبناء عمه . فلما عرضوا عليه قال ، أبقوا لي عقيلاً وخذوا من شنتم . فلأخذ كل من العباس وحمة عم النبي وهاله بنت عبد المطلب عمته ، واحداً من أبناء أبي طالب ، وبقي علي (ع) فإذا بالنبي يستدعيه ليكون له صاحباً ، فيفمره البشر ، ويلوي إليه كما يلوي الفصيل إلى أمه .

إن علياً الذي فتح عينيه - أول ما فتحهما - على ملامح النبي (ص) ، وظل مغموراً ببركاته أيام صغره . إن علياً الذي رأى في محمد (ص) الحب والحنان ، وكل خصال الخير والجمال ، لأهد أن يلوي إليه ويسارع إلى قبول كفالته له ، ويفيض فرحاً بذلك وابتهاجاً .

أخذ علي ، يتبع كفيله وحبيبه النبي محمداً (ص) ويطمئن إليه بكل قلبه ، ويقلده في كل عمل ، وذهب النبي (ص) يصدق على ابن عمه كل ما أفاضت إليه رحمة الله ، من آداب حسان وخلق كريم .. ولم يزل علي يرى النبي (ص) دائم التفكير بقلب وجهه في السماء يلتمس من ربه نوراً . في تلك الأيام التي كان يتعبد النبي في غار حراء ، كان علي يتدبر في عبادته ، ويفكر فيها فيفهم معني العبادة ومغزاها ، ويؤمن بمن يعبد ويهدي إليه بفطرته النقية التي لم يتسرب إليها الشك أبداً . إن علياً (ع) أوتي من النبوغ والذكاء ما يؤهله لكل ما كان النبي (ص) مؤهلاً له . ومن الخطأ أن نحدد.

(٢) نهج البلاغة الخطبة (١٩٢) .

اول وقت امن فيه ، فلقد كان مؤمناً بفطرته ولا يصح لنا ان نقرن إيمانه بزمان دون زمان - هكذا عبر النبي - ذات مرة إذ ساله رجل من المسلمين عن اول وقت آمن فيه الإمام علي فقال ، إنه لم يكن كافراً حتى يؤمن ، كما انه نفسه بين ذلك حين أكد انه لم يكن مسبوقاً بالشرك .

وعندما هبط الوحي على قلب محمد (ص) وجاء النبي إلى الإمام يخبره ، يفتح قلبه على امر موعود ، وحقيقة منتظرة ، ذلك اليوم كان عمر الإمام عشر سنوات ، ولم يكن يعرف إنساناً طيب يمتاز عليه من الآخرين ، بل كانت فيه كل معاني الفضيلة والسمو ، صدقه ، امانته ، بره بالخلق ، إحسانه ، صلته للرحم وغير ذلك .. أجل لم يكن هناك من يمتاز عليه غير محمد بن عبد الله (ص) البر الكريم ، فيكيف لا يصدقه وكيف لا يتبعه .

وذات يوم دعاه النبي إلى الصلاة ، فقام عليه السلام يتعلم قواعدها ويتوجه إلى المسجد الأقصى حيث القبلة الأولى للمسلمين .. فيصلي بصلاة النبي ، وتصلي وراعهما خديجة زوجة الرسول . فهؤلاء ثلاثة ليس لهم الآن نظير على الأرض ، يبتهلون إلى الله بركعات ، يرتلون من أي الذكر الحكيم ، ما يزيدهم هدى ، ويملا شعورهم إيماناً واطمئناناً .

لقد تشكلت الآن أول خلية حية ، بين ملايين الخلايا الميتة في المجتمع البشري . وإنها تسعى لكي تزيد نفسها حجماً وقوة ، وتبعث الحياة - بإذن الله - إلى سائر الخلايا .

ومن هذا العقد من حياة علي (ع) يبتدئ عهده مع الجهاد والتضحية ، لقد انتقل من بيت كفيه إلى بيت والده من سنتين ، بيد انه لا يزال يقضي غالب أوقاته في بيت خديجة قريباً من الرسول (ص) ليرفع له كل يوم علماً في المعارف والآداب ، فيتبعه .

وظل الإسلام يتخذ من هذه الأنفس المباركة - أنفس محمد وعلي وخديجة - أولى قواعده وأركانها .. حتى اجتمع إليه رجال ونساء يتحدثون بالإسلام الوضع الفاسد .

وظل دعاة الإسلام يبدلون في سبيل الدعوة طاقاتهم ودمانهم ، حتى نمت شجرة الإسلام ، وجاء الوحي بإمر النبي بأن يصدق بما يؤمر وينذر عشيرته الأقربين وإظهارها للناس أجمعين .

فأمر النبي علياً (ع) ان يهيئ طعاماً ويدعو بني هاشم إلى بيته . واجتمعوا إليه يقودهم أبو طالب سيدهم ووالي أمورهم .

فلما طعموا ورؤوا ان قصصة الثريد ، التي اكلوا منها لم ينقص منها شيء وعجبوا ، وجاء النبي يكلمهم بشأن الدعوة راح عمه أبو لهب ، يبعث كلماته الساخرة !!

إن أبا لهب كان من الد أعداء الإسلام ، مع انه كان من اقرب الناس رحماً بالنبي (ص) ولم ينزل في القرآن آية يذكر فرداً من معاصري النبي بالسوء غير ما نزل في حق أبي لهب ، وفي سورة كاملة تبثها بقول شديد :

﴿ كُنتَ تَدَّأِ بِأَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (السد/١)

وقد كان أول المستهزئين بالرسول ، ذلك النهار ، حيث قال بين فتیان بني هاشم الذين كانوا زماء أربعين رجلاً ، قال ، لشد ما سحرکم صاحبکم ، أي ما أعجبه رجلاً قد سحرکم . فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول (ص) .

فلما كان من غد استضافهم علي (ع) مرة أخرى فجازوا واكلوا وشربوا ، وقبل ان يتكلم ابو لهب ، ابتداهم الرسول قائلاً ،

" يا بني عبد المطلب ! اني - والله - ما اعلم شاباً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به . اني قد جئتكم بخير الدنيا والاخرة . وقد امرني الله تبارك وتعالى ان ادعوكم ، فليکم يؤازرنی علی امری ، علی ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيکم ؟ " .

فلحجم القوم جميعاً ، إلا علياً ، وكان ذلك اليوم - كما يصف نفسه - احدهم سنّاً ، ولرمضهم عيداً واعظمهم بطناً ، واحمشمهم ساقاً فقال ،

" انا يا نبي الله اكون وزيرك عليه " .

فاخذ برقبته ثم قال ، " فاسمعوا له واطيعوا " .

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب ، قد امرك ان تسمع لعلي وتطيع .

وظلت هذه الدعوة تتراوح بين علي (ع) وخديجة (ع) ثلاث سنوات ، وكان النبي يصلي بهم في خفاء ، ويؤدي بهم مناسك الحج على سنة الإسلام ، حنيفاً بها عما كان ياتيه اهل الجاهلية .

فلقد أثر عن عبد الله بن مسعود قوله : ان اول شيء علمته من امر رسول الله (ص) قدمت مكة في عمومة لي ، فارشدونا إلى العباس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه وهو جالس إلى من ثم^٥ فجلسنا إليه فبينما نحن عنده ، إذ أقبل رجل من باب الصفا تعلوه حمرة ، وله وفرة جعدة إلى النصف اذنيه ، انسى الأنف ، برأق الثنايا ، ادعج العينين^٦ كث اللحية^٧ رقيق المسربة^٨ شثن الكفين^٩ حسن الوجه ، معه مراهق او محطم تقفوه امرأة قد سترت محاسنها ، حتى قصدوا نحو الحجر ، فاستلمه ثم استلمه الغلام ، ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبغاً ، والغلام والمرأة يطوفان معه . فقلنا ، يا ابا الفضل ! ان هذا الدين لم نكن نعرفه فيكم . أو شيء حدث ؟ قال ، هذا ابن اخي محمد بن عبد الله والغلام علي بن ابي

(٣) رمضت عينيه : حميت حتى كادت تحترق .

(٤) حمشت الساق : دقت .

(٥) لعل مراده انه كان جالساً عند جماعة هناك .

(٦) أي شديد السواد مع سعتها .

(٧) مجتمع الشعر : غير طويل .

(٨) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .

(٩) غليظ الكفين .

طالب ، والمرأة امراته خديجة بنت خويلد ، ما على وجه الأرض أحد يعبد الله تعالى بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

وقال عفيف الكندي ، كنت امرأة تاجراً ، فقدمت الحج فانثيت العباس بن عبد المطلب ، لأبتاع منه بعض التجارة ، - وكان امرأة تاجراً - فوالله إني لعنده بمنى إذ خرج من خيأ قريب منه فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت ، قام يصلي (قال) ثم خرجت امرأة من الخيأ الذي خرج ذلك الرجل منه فقامت خلفه فصلت ، ثم خرج غلام هين راهق الحلم من ذلك الخيأ فقام معه فصلي (قال) فقلت للعباس من هذا يا عباس ؟ قال ، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي (قال) فقلت ، من هذه المرأة ؟ قال ، امراته خديجة بنت خويلد (قال) فقلت ، من هذا الفتى ؟ قال ، علي ابن أبي طالب ابن عمه (قال) فقلت له ، ما هذا الذي يصنع ؟ قال ، يصلي ، وهو يزعم انه نبي ولم يتبعه على امره إلا امراته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم انه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر .

ومضت على الدعوة مدة ، وعلي يستقيم على الصراط السوي ، ويقاوم الضغوط ، ويصوغ الوحي شخصيته الفذة . ثم التف حول الدعوة رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر ربهم . فلما امرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة وأمر عليهم جعفرًا أخا علي عليهما السلام ، قامت قيامة قريش الذين راوا من مناوئهم - العظيم - القوة وحسن التدبير ، فاخذوا يدرسون خطة أخرى أشد واقسى مما سبق ، وذلك بفرض حصار اجتماعي على بني هاشم زاعمين انهم شدوا عن النظام الاجتماعي السائد . فدبروا امر الصحيفة الملعونة ، حيث أجمعوا على ان لا يخاطب النبي (ص) ومن دار في أفقه من الهاشميين ، وعلى رأسهم سيدهم أبو طالب ، ولا يحاملهم أحد أبداً .. فجمع أبو طالب أهله في شعيبه له ، ودب عنهم بما كان لديه من طاقة وسلطان .

وتلك كانت فرصة سانحة للإمام علي (ع) ان يهمل من نبع النبي الفيأض ، كل مكربة وفضيلة ومعرفة ، كما استطاع أيضاً ان يمارس جهاده الشاق طيلة ثلاث سنوات . ولعل هذا كان اول ميادين الجهاد التي خاضها ابن أبي طالب (ع) ولكن كان له من قبله جهاد آخر ، إلا أنه ليس في هذا المستوى ، وذلك ان النبي (ص) كان يمر بطرقات مكة فيرشقه أبناء مكة بالحجارة والحصى ، بامر من لوليانهم ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يعبا بذلك ، بيد ان علياً (ع) كان يصاحبه ، فإذا اساء احدهم إلى النبي (ص) اخذه وجدع لذنه ، وكان علي (ع) قوياً منذ صباه وشجاعاً ، وكان كذلك مهيباً في أعين أتباعه ، فإذا رآه يمشي مع النبي ، قالوا لبعضهم مهلاً فإن معه القضم ، أي الذي يقضم اناهم واذانهم .

الفصل الثاني

حياته في عهد الرسول (ص)

الهجرة :

وبعد ما نُقضت الصحيفة الملعونة ولم تفتُ في عضد الدعوة ، واضطرت قريش أن تسمح لبني هاشم بالدخول في ربيع مكة ، والإختلاط مع الناس ، أصاب المرض عمه وكفيله أبا طالب ، كما أصاب زوجته الوفية خديجة عليهما السلام ، لما كانا قد لاقياه في الشعب من العنت ، فماتا في السنة التالية التي سميت بعام الحزن ، وفقد النبي (ص) أكبر معين وأشد ركن يعتمد عليه في الملمات .

وعزم النبي (ص) على الهجرة إلى المدينة المنورة ، وعزم الكفار أن يقطوه غيلة قبل أن يهاجر إليها ، وانتخبوا من بينهم ثلاثين مقاتلاً مغامراً ، يهجمون على دار النبي (ص) ليلاً فيقتلونه ، وينتقمي كل منهم إلى بطن من قريش فيضيق دمه بين قريش جميعاً . وجاء نبا ذلك إلى النبي (ص) فبرسم خطة مسيره إلى المدينة ، وذلك بأن يتجه تحت جناح الظلام إلى غار ثور ، ثم يتخذ طريقاً منحرفاً عن الهادة إلى المدينة ، بيد أن الخطة كان يحوزها شيء واحد ، وهو أن هؤلاء الفتية من قريش إذا عرفوا خروج الرسول أول الليل ، فإنهم سوف ينتشرون حول مكة بحثاً عنه ، ولا محالة سوف يجدونه ، وإن وجدوه قتلوه ، فقرر الرسول (ص) أن يموء عليهم بأن ينام مكانه شخص ، ليخيل إليهم أنه النبي ، وسوف لا يكتشفون الحقيقة إلا بعد أن يكون النبي مبتعداً عن مكة أميالاً أو يستقر في غار ثور فعلاً .

ولكن من هو ذلك الذي يُقدم على الموت على الفراش ؟ وليس في ساحة الحرب ، حيث الثورة والمهاج وحيث يُقاتل فيُقتل ويُقتل ، بل الموت على الفراش لا يدافع عن نفسه ، ولا تنور اعصابه ، ولا يقوم بحركة ، إن لهذه المهمة رجلاً واحداً فقط ، هو ابن أبي طالب !! إنه لا يتهيب أبداً وقَعَ الموت عليه ، لو وقع هو على الموت .

وجاء إليه النبي (ص) يعرض عليه أمر الهجرة ، ويأمره بالمهمة ، فإذا بعلي (ع) وكأنه قد بُشر بملك الدنيا ، يرحب بها بعد أن يطمئن إلى سلامة الرسول (ص) . وينجو الرسول من أيدي المتأمرين ، ويتقلب الإمام على فراشه ، وتلمع حول البيت سيوف تنتظر الفجر لتهمج على المستلقي على الفراش فتقطعه إرباً إرباً ، وعندما اقترب الصبح ، رموا حجراً إليه ، فلم يتحرك ، ثم رموا الثاني . وعندما رموا الثالث قام من مكانه ، فقال قائلهم من هذا ؟ إنه ابن أبي طالب ، يا علي ، ابن محمد ؟ فأجال علي طرفه بينهم وقال : وهل أودعتموني محمداً ؟ .. فاراد بعضهم أن يفتك به ، ولكن منعه الآخرون ، وانجابه

الله من شرهم .

وكان على الإمام (ع) مهمة كبيرة أخرى ، تلك مسؤولية حمل أهل بيت النبي (ص) وضعفاء المسلمين المتخلفين في مكة إلى المدينة . وكانت مهمة شاقة حيث إن أهل مكة حينما عرفوا بخياب النبي تميزوا غيضاً ، لما علموا بأن تخلص النبي عن أيديهم سوف يكلفهم كثيراً ، فعزموا على أن يمنعوا بقية أصحابه عن الالتحاق به بكل وسيلة ، وراحوا يراقبونهم ، مراقبة شديدة ، ألا يفلتوا من أيديهم ، وعلى رأس هؤلاء أهل النبي (ص) وعياله .

وبعد مدة جمع علي (ع) أمره ، وخرج - خفية - بالفواطم ، فاطمة بنت (رسول الله) ، وفاطمة بنت لسد (والدته الإمام) وفاطمة بنت الزبير (عمته) وبعض الضعفاء من المسلمين يريدون المدينة ، وكانوا قد ابتعدوا عن مكة أميالاً ، عندما علم أهل مكة بالأمر ، فجهزوا سرية سريعة إلى الركب لإعادته قسراً إلى مكة ، وكانت السرية بقيادة جناح ، مولى حارث بن أمية .

فجاءت حتى إذا بلغت الركب ، التفت إليهم علي (ع) فحمل عليه جناح بسيفه فأسرع علي (ع) وأخذ السيف من يده ، وضربه ضربة فارداه قتيلاً ، واستسلم سائر الأفراد لما رأوا من شجاعة علي (ع) وقوة بأسه ، فتركهم الإمام ، وحث راحلته إلى المدينة .

غزوة بدر :

وحشدت قريش قواها ، لتعارب النبي (ص) الذي أخذ يكون في مهجره مجتمعاً إسلامياً يهدد الظالمين ، فإذا بها ترسل إلى المدينة ألف مسلح شجاع ، وجند النبي (ص) لها ما كان يملك من قوة عسكرية فالتقى الجمعان في منطقة (بدر) .

وفي يوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الأولى من الهجرة ، ابتدا الفريقان بالمبارزة . وكان من بينهم ثلاثة من الشجعان يدعون شيبه بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن ربيعة ، فبرزوا للحرب وطالبوا بأقرانهم من قريش ، فلنهن رسول الله عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . وعلياً (ع) فراح الإمام حتى قتل الوليد وشيبه ، وشارك في قتل الآخر .. وبذلك فقدت قريش أشجع أبطالها ، وبعد مبارزة أخرى قتل فيها علي (ع) حنظلة بن أبي سفيان ، والعاص بن سعيد بن العاص ورجلاً آخرين من شجعان مكة ، فلنهنزوا وانتصر المسلمون بإذن الله تعالى .

غزوة أحد :

ورجع جيش مكة منهزماً وقد قتل شجاعانه وأبطاله . فاخذت سلطة الأشراف تستعد لشن حملة أخرى ، تفسل بها ما أصابها في بدر من عارٍ وذلل ، وتبديد بها دعوة النبي (ص) ورسالته .

ويصف علي (ع) هذه الغزوة ، فيقول ، وأقبل إلينا أهل مكة على بكره أبيهم - قد استحاسوا (أي حرضوا وجمعوا) من يليهم من قبائل قريش ، طالبين بثار مشركي قريش في يوم بدر ، فهبط جبرائيل على النبي (ص) فأنباه بذلك ، فذهب النبي (ص) وعسكر بأصحابه في سد أحد ، وأقبل المشركون إلينا

فحملوا علينا حملة رجل واحد ، واستشهد من المسلمين من استشهد ، وكان ممن بقي ما كان من الهزيمة وبقيت مع رسول الله (ص) . ومضى المهاجرون والأنصار إلى منازلهم من المدينة كل يقول قتل النبي (ص) وقتل أصحابه - ثم ضرب الله عز وجل وجوه المشركين ، وقد جرحت بين يدي رسول الله (ص) نيفاً وسبعين جرحاً ، منها هذه وهذه ، ثم القى علي (ع) رداً وأمر بيده على جراحاته .

غزوة الأحزاب :

ثم كانت الأحزاب ، حيث تجمعت قريش والأعراب لمحاربة الإسلام من جديد ويصف ذلك الإمام ويقول ، وعقدت بينها عقداً وميثاقاً ، لا يرجع من وجهها حتى تقتل رسول الله ، وتقتلنا معه - معاشر بني عبد المطلب - ثم أقبلت بحددها وحديدها ، حتى انأخت علينا بالمدينة ، وانقاة بانفسها ، حينما توجهت له فهبط جبرائيل على النبي (ص) ، فأنباه بذلك فخذق على نفسه ومن معه من المهاجرين والأنصار ، فقدمت قريش فاقامت على الخندق محاصرة لنا ، ترى في انفسها القوة وفيها الضعف ، ترعد وتبرق ، ورسول الله (ص) يدعوها إلى الله عز وجل ، ويدأشدها بالقرابة والرحم ، فتأبى ولا يزيدنها ذلك إلا عتواً . وفارسها وفارس العرب يومئذ عمرو بن عبد ود يهدر كالبعير المغظم ، يدعو إلى البراز ويرتجز ، ويخطر برمحه مرة ويسيفه مرة ، ولا يقدم عليه مقدم ، ولا يطمع فيه طامع ، ولا حمية تهيجه ، ولا بصيرة تشجعه ، فأنهضني إليه رسول الله (ص) وعممني بيده ، ولعلاني سيفه هذا (وضرب بيده إلى ذي الفقار) فخرجت إليه ، ونساء أهل المدينة بوالك إشفاقاً علي من ابن عبد ود ، فقتله الله عز وجل بيدي ، والعرب لاتعد لها فارساً غيره ، وضربني هذه الضربة - ولوما بيده إلى هامته - فهزم الله قريشاً والعرب بذلك ، وبما كان مني من النكاية .

بل كانت تلك هي الضربة التي عدلها النبي (ص) بعبادة الثقلين ، فرجعت وقال ، " ضربة علي يوم الخندق تعزل عبادة الثقلين "

ومضى أصحاب الرسول (ص) يمجّدون تلك الضربة التي انقذت المسلمين من أخطر هجوم عسكري قام به كل مستكبري قريش والقبائل المشركة ، بالتعاون مع اليهود والمنافقين .

يروى الشيخ المفيد في إرشاده ، عن قيس بن الربيع عن أبي هارون السعدي ، أنه قال ، انتهت حذيفة اليمان فقلت له ، يا أبا عبد الله ، إنا نتحدث عن علي ومناقبه ، فيقول لنا أهل البصرة ، إنكم تفرطون في علي ، فهل أنت محدثي بحديث فيه ؟

فقال حذيفة يا أبا هارون : وما تسألني عن علي ؟ فوالذي نفسي بيده لو وضعت جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميزان ، منذ بعث محمد (ص) إلى يوم القيامة ، ووضعت عمل علي في الكفة الأخرى ، لرجح عمل علي على جميع أعمالهم . فقال ، هذا الذي لايقام له ولا يقعد ولا يحل ، فقال حذيفة ، يا

لكع ١. وكيف لا يُحمل ، ولين كان فلان وفلان ، وجميع اصحاب محمد (ص) يوم عمرو بن عبد ود العامري ، وقد دعا إلى البرار ، فاججم الناس كلهم ما خلا علياً فإنه برز إليه وقلته الله على يده ؟ والذي نفسي بيده ، لَعَمْلَهُ ذاك اعظم لجرأ من اعمال اصحاب محمد إلى يوم القيامة ١١ .

وبعد وقعة الخندق ، سار النبي إلى مكة ، وكان يحب ان يدخل مكة معتمراً ، ومعه عدد كبير من المسلمين . فاعطى اللواء لعلي عليه السلام ، فلما وصل مشارف مكة منعه قريش منها ، واجتمع اصحاب الرسول تحت شجرة هناك وباعوه على الموت بما سمي بعدئذ ببيعة الرضوان ، وقال بعض المفسرين ، نزلت الآية الكريمة فيها ،

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح / ١٨)

فلما رأت قريش مدى استعداد المسلمين للقتال طلبوا الصلح ، والهدنة ، وكان من بين بدود الصلح التي اصررت قريش عليه ورفضه النبي صلى الله عليه وآله انه قالوا ،

يا محمد ١. خرج إليك ناس من ابنائنا واخواننا وارقاتنا ، وليس لهم فقه في الدين ، وانما خرجوا فراراً من اموالنا وضياعنا فردوهم إلينا .

فقال ، " إذا لم يكن لهم فقه في الدين — كما يزعمون — سنفقههم فيه " .

ثم اضاف ، " يا معشر قريش لتنتهن أو لبيعن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه بالإيمان " .

فقالوا ، من هو ذلك الرجل يا رسول الله ؟

فقال ، " هو خاصف النمل " .

وكان قد اعطى نعله لعلي يخصفها له ١٢ .

هكذا تعرف مدى خشية قريش ، وسائر المشركين من باس الإمام (ع) ، وانه كان سيف الله الذي لاينبو ، وسهم الإسلام الذي لا يُخطئ ، يبعثه النبي (ص) متى احس بالخطر على الدين ، ويُنذر به الأعداء متى ما تهادوا في الفبي .

كيف اقتحم الإمام (ع) حصون خيبر ؟

كان اليهود يشكّلون خطراً كبيراً في الجزيرة العربية ، وكانوا يتحصنون بمواقع جيدة ، ربما تشبه مستعمراتهم اليوم في ارض فلسطين . وكانوا قد نقضوا عهدهم مع الرسول ، وشاركوا في حرب

(١١) سيرة الأئمة : ص ٢٢٩ .

(١٢) سيرة الأئمة الاثنى عشر ص ٢٣٦ عن مجموعة النسائي في حواصله . والحاكم في مستدرکه وطائفة من العلماء .

المشركين في الأحزاب ضد المسلمين ، فلما استراح المسلمون من شر قريش ، بسبب صلح الحديبية السابق ، انعطف النبي (ص) بأصحابه على أعظم قلاعهم في خيبر وحاصرها . وكان النبي (ص) يبعث كل يوم قائداً من المسلمين لاقتحامها فيعود خائباً . ويروي ابن إسحاق أن النبي (ص) بعث أبا بكر ثم عمر ، فما فتح الله على أيديهما شيئاً . وبعث غيرهما فعادوا جميعاً خائبين ، فقال كلمته المعروفة ، " والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " .

فتمنى كل أن يكون هو ١. لعلمهم بأن علياً أرمَدَ العينين ، ولكنه حين أصبح نادى أين علي ؟ فلما جيء به معصّب العين من شدة الألم ، مسح عليها فانزال الله مرضها واندفع الإمام يحمل راية النصر ، واشترك مع طلائع اليهود ، وقتل بطلم المعروف (مرحباً) بضربة صاعقة قدّمت مغفرته ، ووصلت إلى اضراسه ، فولّى اليهود منهزمين إلى حصونهم التي اقتحمها الإمام (ع) وقلع باب خيبر العظيم وتترّس به ، وكانت تلك من آيات النصر الإلهي التي تجلت على يد أمير المؤمنين علي (ع) .

وبعد عودة المسلمين إلى المدينة ، ونقض قريش لمعاهداتهم في صلح الحديبية الذي كتب الإمام بُنودَه ، استعدّ الرسول (ص) لفتح مكة . وكان يريد لها مفاجأة ، إلا أن بعض ضعفاء النفوس تجسس لقريش مجانداً ، فكتب رسالة إليهم ينبأهم بخير التعبئة ، وسلّمها لزوجته وسارت بها إلى مكة ، وانبأ جبرائيل النبي (ص) بذلك فسير إليها علياً والزبير .

فلما أوقفها ، أنكرت وعاد الزبير لأدراجِه ، إلا أن الإمام امتشط سيفه ، وأنكر على الزبير رفته لها ، وقال ، إن رسول الله يخبرنا بأنها تحمل كتاباً إلى أهل مكة ، وتقول أنت بأنها لاتحمل شيئاً ؟ . ثم قال للمرأة ، والله إن لم تخرجي الكتاب لكشفك . فخرجت له الكتاب من عقيصتها .

وهكذا حافظ الإمام — بأمر من الرسول — على سرّيّة الحركة ، وسار الجيش البالغ اثنا عشر ألف مقاتل ، وأعطى الرسول الراية لعلي (ع) الذي دخل مكة وهو يقول ، اليوم يوم المرحمة ، إيداناً بالعفو العام الذي أصدره النبي (ص) بعدئذ ، وقال لهم اذهبوا فانتم الطلقاء .

وحطم الأصنام التي على الكعبة ، حيث حمل النبي (ص) الإمام وأمره بأن يحطم أصنام قريش ، ففعل (ع) .

ويوم حنين :

لقد تم فتح مكة ببسر لم يحلم به المسلمون ، ودب إلى قلوبهم الخور ، ولكنهم لم يهنأوا به طويلاً إذ استقبلهم خطر عظيم فما هي هوازن وثقيف وحلفاؤهم المشركون ، يُعبّون كل طلائعهم للهجوم على المسلمين ، فيجهزون جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف جيش الإسلام . وحين بادروهم الرسول (ص) بالخروج إليهم استفادوا من خبرتهم بأرضهم ، فكمثوا له في مضيق جبلي لأبد من مرور جيش الإسلام به في وادي حنين ، وهي من أودية منطقة تهامة ، ويصف المعركة بعض مشاهديها قائلين ،

فما راعنا — ونحن نسير إلى القوم لناخذهم على غرة قبل أن يأخذوا حذرهم — ، إلا وكثائب هوازن ومن

معهم من العرب قد شدوا على المسلمين شدة رجل واحد من كل جانب ، فامنعوا فينا ضرباً وطعنأ ، واختلط الناس بعضهم ، فاستولى الخوف على المسلمين ودب فيهم الذعر ، فانهزموا عن النبي (ص) لا يلوون على شيء ، وثبت رسول الله (ص) في مكانه ، ومعه علي والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث ، واسامة بن زيد .

وثبت الرسول وحوله الفتية من بني هاشم يتقدمهم علي بن ابي طالب (ع) الذي اخذ يكشف الكرب عن وجه رسول الله ، ويضرب بالسيف يمنة ويسرة ، فلم يقترب إلى الرسول لحد إلا وضربه بسيفه . ونادى العباس عم النبي برفع صوته وبامر الرسول : يا اهل بيعة الشجرة ، يا اهل بيعة الرضوان ، إلى اين تفرون عن الله ورسوله ، فعادت طائفة منهم بلغت زهاء مائة فيرز " جرول " حامل راية هوازن فتحاماه الناس لصلواته الشديدة ، فبرز إليه علي (ع) وقتله فذب الذعر في نفوس القوم ، وقتل الإمام منهم اربعين بطلاً وعاد المسلمون إلى المعركة ، والتحم الجيشان ، ولخذ النبي (ص) حفنة من التراب ولعطاها للإمام فالقاما في وجه المشركين وهو يقول : شامت الوجوه ، وخلال ساعات دارت المعركة على الكفار وتركوا أرض المعركة ، وفيها تساؤهم واطفالهم واموالهم ، وحمل الإمام علي (ع) وسام النصر كعادته في كل الحروب .

وحين استخلفه الرسول على المدينة :

وعاد الرسول إلى المدينة ، فأنتهى إليه ، في العام التاسع من الهجرة ، خبر مفاده ان الروم يُعدون جيشاً لغزو البلاد الإسلامية . فعبا قواته لمواجهتهم ، وكان ذلك أول مواجهة - لو تمت - بين المسلمين والكفار خارج الجزيرة ، وبالدات مع الإمبراطورية الرومانية العظيمة ، وكان من الحكمة ان يرتب الرسول أمور بلاد العرب بصورة تامة حتى إذا لم تقدر له العودة ، تكون البلاد الإسلامية بأيدي أمينة ، تامن شر الاعتداءات الخارجية والمؤامرات الداخلية التي كانت قد اضحت في تلك الفترة متنامية بسبب دخول مجاميع من الناس في الإسلام ليحفظوا دماهم ويحصلوا على مغنم ومكاسب .

وهكذا استخلف النبي علياً مكانه ، إلا ان المنافقين الذين كانوا ينتظرون فرصة كهذه ، ليقفوا إلى السلطة او ليعيدوا فساداً في أرض الجزيرة ، راحوا يبيتون شائعات بان النبي (ص) إنما استخلف علياً لأنه لم يحب ان يكون معه ، فحمل الإمام سيفه وسلاحه ولحق بالرسول في منطقة " الجرف " فاخبره بمقالة المنافقين ، فقال له النبي (ص) :

" إنما خلفك لما ورائي ، إن المدينة لاتصلح إلا بي او بك . فانت خليفتي في اهل بيتي ، ودار هجرتي وقومي ، اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي " .

ولعمل وراء استخلاف النبي (ص) للإمام (ع) وتسليمه شؤون البلاد الإسلامية أثناء غيابه عنها ، حكمة

بالغة ، إذ إن علياً وصيه الذي اختاره الله له وأعلن ذلك للناس منذ " يوم الدار " حين أندر عشيرته الأقربيين ، فلا بد إذن من تمهيد الظروف لذلك . ويوجي بهذه الحكمة ما نجده في مسند أحمد من قوله (ص) بعدئذ حسب هذا المصدر .

" لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي " ^{١٤} .

ويا ليت شعري ، كيف لا يترك الرسول المدينة إلا وعلي خليفته ، ثم يترك الدنيا دون أن يستخلف علياً (ع) ؟ .

الفارة التي خلفها الكتاب :

لادعت الجزيرة العربية لحكم الله ، بعد فتح مكة ومعركة حنين ، إلا أن الأعراب الذين كان دأبهم الغزو ، تجمّعوا في منطقة قريبة من المدينة وأرادوا الإغارة عليها على حين غفلة من أهلها . فلما انتهى خبرهم إلى الرسول ، ندب لهم أبا بكر ثم عمرًا ثم عمرو بن العاص ، ولكنهم كانوا يؤثرون الإنسحاب بسبب تحصن الأعراب بواد هناك يسمى وادي الرمل ، كان صعب المسالك كثير الأحجار ، وكان مواقع المدافعين الحصين سبباً لكثرة إصابات المسلمين .

وكعادة الرسول في الاستعانة بعلي (ع) عند الشدائد ، أرسله وضم إليه القيادات السابقة ، فمضى إليهم الإمام يكمن بالنهار ويسير بالليل ، فلما اقترب منهم وحاصر مواقعهم في الليل ، انقض عليهم أول الفجر ، وأمعن فيهم قتلاً وأسراً حتى استسلموا .

وذا صبح صلى الرسول بالمسلمين صلاة الغداة وقرأ عليهم فيها سورة لم يسمعوها من قبل ، ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُجِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا * فَأَوْسَعْنَ بِهِ جُنْحًا ﴾ (المعاديات/١-٥) فلما سألوه عنها قال ،

" إن علياً ظفر بأعداء الله ، وبشرني جبرائيل في هذه الليلة " ^{١٥} .

وحين عاد الإمام (ع) استقبله النبي (ص) والمسلمون معه ، فترجّل الإمام عن فرسه احتراماً للرسول فقال له النبي اركب فإن الله ورسوله عنك راضيان . وأضاف ،

" لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في المسيح ، لقلت فيك مقالة لا تمر على ملا من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك " ^{١٦} .

وهكذا كان الإمام (ع) سيف الإسلام الذي لا يندبو ، يوجهه الرسول (ص) حيث يُحْدَق الخطر بالرسالة ، وقد بعثه مرتين إلى اليمن - حسب الأخبار - حيث أسلمت على يديه قبائلها ، وبالذات قبائل همدان .

(١٤) المصدر : ص ٢٥٩ نقلاً عن فضائل العنسة : ص ٢٢٩ .

(١٥) المصدر : ص ٢٦٣ - ٢٦٤ نقلاً عن مجمع البيان عن الإمام الصادق (ع) .

(١٦) المصدر : ص ٢٦٢ .

بيعة غدير خم :

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة - حين عزم النبي (ص) على المسير إلى مكة وإدائه الحج الأخير الذي سمي " بحجة الوداع " - كان الإمام (ع) في اليمن أو نجران . فكتب إليه الرسول (ص) بأن يوافيه مكة حاجاً ، وقد أوحى إلى النبي (ص) أنه راحل عن أمته .

فلما قفلوا عن مكة راجعين ، أوقف الرسول الركب بمنطقة تسمى " بغدير خم " حيث نزلت عليه الآية الكريمة ،

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْعِلُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة/ ٦٧) .

فقام في الناس خطيباً وقال في مستهل حديثه ، " أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب " .
وأضاف ، " إني تارك فيكم الفقلين ، كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يريدا عليّ الحوض " .

ثم قال بعد أن اخذ بيد علي ورفعهما ،

" الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم " ؟

قالوا ، بلى يا رسول الله ، فقال ،

" من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعار من عاده " .

ثم أفرد النبي لعلي خيمة وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ، ففعل ذلك كلهم حتى من كان معه من أزواجه ونساء المسلمين .

فأنزل الله تعالى على رسوله ما يعتبر إعلاناً عن خاتمة الوحي ،

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة/ ٣) .

وانتشرت في الأفاق أنباء استخلاف النبي لوصيه الإمام علي . ولكن النبي (ص) الذي كان أخيراً قانئاً بالناس من حوله ، كان يعلم أن الكثير من التمهيد يحتاج إليه المسلمون ، خصوصاً وقد تكرر عدد الوصوليين بينهم بعد فتح مكة ، وإن الكثيرين منهم بطلابون علياً بأوتار الجاهلية ، فلا يقبلون بولاية الإمام (ع) بسهولة .

كما أحيط علماً بالمؤامرات التي كانت تجري في البلاد للسيطرة على الحكم من بعده ، وكانت " قريش " التي دخلت - الآن - في الإسلام تتخذ منه أداة جديدة لسلطتهم على الجزيرة العربية ، كانت مركز هذه المؤامرة . ومن هنا لم يدع الرسول (ص) مناسبة إلا وأعلن فيها عن أن وصيه الذي اختاره الله للولاية من بعده إنما هو الإمام علي (ع) ، لتبقى الأقلية المؤمنة وفيه بعدها مع الله والرسول ، وملققة حول قيادة الإمام (ع) وتحافظ على الخط السليم للامة ، وتكون ميزاناً للحق والباطل ، ومقياساً سليماً لمتغيرات الحوادث .

من هنا نجد النبي (ص) يسعى حتى آخر لحظة من حياته في هذا السبيل ، فقد جاء في رواية البخاري - من كتاب المرض والطب - أنه اجتمع عند رسول الله رجال فيهم ، عمر بن الخطاب ، فقال لهم النبي (ص) هلموا اكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده أبداً . فقال عمر بن الخطاب ، " إن النبي غلبه الوجع ، وعددنا القرآن ، حسبنا كتاب الله " فاختطف الحاضرون واختصموا فامرهم النبي بالإنصراف .^{١٧}

وفي بعض روايات البخاري قال بعضهم ما شأنه اهجرَ ١٩ استغفموه فذهبوا يرددون عليه فقال ، دعوني ، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه ، وأوصاهم بثلاث ، إخراج المشركين من جزيرة العرب ، وأن يجيزوا الوفود بمثل ما كان يجيزهم ، وسكت الراوي عن الثالثة أو قال ، إني نسيتها .^{١٨}

وواضح ان المسلمين لم يكونوا ليسوا وصية نبيهم الأخيرة ، إلا أنها كانت متعلقة بالوضع السياسي بعد النبي مما يستدعي تناسيه رغبا أو رهبا .

والواقع أن الخليفة الثاني برز ذات مرة اتهامه للنبي (بأنه قد غلبه الوجع) بأنه لم يكن يرى مصلحة في استخلاف النبي للإمام علي . فقد جاء في شرح ابن أبي الحديد ، روى أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد مسنداً عن ابن عباس قال ، دخلت على عمر في أول خلافته وقد ألقى له صاع من تمر على خضفة ، فدعاني إلى الأكل فاكلت ثمرة واحدة ، وأقبل ياكل حتى أتى عليه ، ثم شرب من جر كان عنده واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد الله يكرر ذلك ، ثم قال ، من أين جئت يا عبد الله ؟ قلت ، من المسجد . قال ، كيف خلفت ابن عمك - فظننته يعذني عبد الله بن جعفر - قلت ، خلفته يلعب مع اتراب له . قال ، لم لعن ذلك ، إنما عذيت عظيمكم اهل البيت ، قلت ، خلفته يمتح بالقرب على نخيلات من فلان وهو يقرأ القرآن . قال ، يا عبد الله عليّ دماء البدن إن كتمتنيها ، هل بقي في نفسه شيء من امر الخلافة ؟ قلت ، نعم . قال ، ايزعم أن رسول الله نص عليه ؟ قلت ، نعم ، وأزيدك إني سألت إبي عمّا يدعيه فقال ، صدق . فقال عمر ، لقد كان من رسول الله في أمره ذرو من قول لا يُثبت به حجة ولا يقطع عدراً ، ولقد كان يرجع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمضت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام . لا ورب هذه البنية لاتجتمع عليه قريش أبداً ، ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها . فعلم رسول الله إني علمت ما في نفسه فامسك وأبى الله إلا إمضاء ما حتم .^{١٩}

(١٧) المصدر : ص ٢٧٦ .

(١٨) المصدر : ص ٢٧٧ .

(١٩) راجع كتاب " قضاء أمير المؤمنين " : ص ٣٢٠ .

الفصل الثالث

الإمام علي (ع) يواجه المحنة

لوصى النبي (ص) الإمام (ع) بأنه سيعاني من امته الكثير ، وبأنهم لا يمتثلون لأوامره فيه وفي سائر أهل بيته ، فعليه أن يتسلح بالصبر . ثم التحق النبي (ص) بالرفيق الأعلى ، وفاضت نفسه ورأسه الشريف على صدر الإمام (ع) .

واشتغل الإمام بمراسم الغسل والتكفين والدفن ، كما يقول (ع) :
" ولقد قبض سول الله (ص) ، وإن رأسه لعلّى صدري ، ولقد سألت نفسي في كفي ، فامررتها على وجهي ، ولقد وليت غسله (ص) والملائكة اعواني ، فضجت الدار والأوفية ، ملأ يهبط وملأ يعرج ، وما فارقت سمعي هيممة منهم ، يصلون عليه حتى واريذاه في ضريحه ، فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً " .
إلا أن هناك من كان يفكر في كيفية الانقلاب . ويبدو أن ثلاثة خطوط ارتسمت على الخارطة السياسية بعد وفاة النبي (ص) مباشرة هي :

لولا ، خط الإمام علي (ع) ومعه جمهور الأنصار ولة من المهاجرين .
ثانياً ، جناح سائر المهاجرين ، ولة من الأنصار خصوصاً من قبيلة الخزرج .
ثالثاً ، حزب الأمويين بقيادة أبي سفيان .

وبالرغم من أن الخط الثالث ، كان منبؤدا ، ولاتزال ذكريات بدر وأحد حية في نفوس المسلمين ، وبالتالي لم يكن لرموز هذا الخط الجراة بأن تطرح نفسها كسلطة سياسية ، إلا أن انتشار شبكتها في الجزيرة وتراكم التجربة القيادية لديها ، وامتلاكها لكثير من الرجال الأشداء ، والأموال الطائلة ، كل ذلك كان يجعلها الغائب الشاهد في كل قرار سياسي للامة ، حيث كانت أكبر قوة ضاغطة من وراء الأحداث ..
ويبدو للباحث في التاريخ أن لية قوة سياسية كانت تتحالف مع خط أبي سفيان ، كان بإمكانها أخذ أزممة الأمور بيديها . وإن أبا سفيان حاول في البدء التحالف مع الإمام علي (ع) فرفضه ، فتحالف مع بعض عناصر الخط الثاني الذي كان يعتبر معتدلاً تجاهه ، إذا قيس بتصلب الإمام علي (ع) ومدى شدته في دات الله .

فلقد جاء في بعض النصوص التاريخية ، أن أبا سفيان مشى إلى الإمام (ع) بعد وفاة الرسول ، فحطه

(٢٠) نهج البلاغة - شرح د . صبحي الصالح : ص ٣١١ .

على المطالبة بحقه ، ووَعَدَهُ بأن يملأها خيلاً ورجالاً . فابى (ع) ذلك بقوة ، والقى خطاباً هاماً رَغِبَ الناس في الآخرة وزَهَّدَهُم في الدنيا ، جاء في أوله :
 " ليها الناس ! شَقُّوا أمواج الفتن بسُفْنِ النجاة ، وعَرَّجُوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفارقة .
 أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فاراح . هذا (الدنيا أو الملك) ماء أجن ، ولقمة يَغْصُ بها أكلها ،
 ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها ، كالزراع بغير أرض ، فإن أفل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت
 يقولوا جزع من الموت " ٢١ .

وهكذا غلب الخط الثاني والذي اتفقت قياداته على بيعة الخليفة الأول على السلطة ، وكانت قيادات الجيش متفقة مع هذا الخط في الأغلب . وباستطاعتنا أن نفسر سيطرة هذا الخط بأنه سيطرة للخط العسكري . فبالرغم من أن الإمام علياً كان أبرز القيادات العسكرية في ذلك اليوم ، حيث حمل راية الإسلام في أكثر المعارك ، إلا أن أغلب أنصاره كانوا من المحرومين والمستضعفين كالأنصار .
 وهكذا يمكننا أن نفسر تسيير النبي (ص) لجيش أسامة إلى خارج العاصمة - بل خارج الجزيرة العربية - وقد ضم إليه كبار الأصحاب فيما بينهم أنصار وقيادات الخط الثاني ، إلا أنهم لم ينفذوا جيش أسامة ، وتخلفوا عنه ، سواء عن سابق إصرار ومعرفة بالهدف من بعثهم فيه ، أو لاشفاقهم على حالة الرسول كما زعموا .

وقد قال الرسول (ص) :

" تَفْذُوا جيش أسامة ، لعن الله مَنْ تَخَلَّفَ عن جيش أسامة " .

وقد جاء تفصيل ذلك في نص صريح ماثور عن الإمام أمير المؤمنين (ع) جاء فيه :
 " ثم أمر رسول الله بتوجيه الجيش الذي وجهه مع أسامة بن زيد عندما أحدث الله به المرض الذي توفاه فيه . فلم يَدَعْ النبي (ص) أحداً من أبناء العرب ولا من الأوس والخزرج وغيرهم من سائر الناس ممن يخاف على نقضه ومنازعة ، ولا أحداً ممن يراني بعين البغضاء ممن قد وترته بقتل أبيه أو أخيه أو حميمه إلا وجهه في ذلك الجيش ، ولا من المهاجرين والأنصار والمسلمين وغيرهم والمؤلفة قلوبهم والمنافقين ، لتصفو قلوب من يبقى معي بحضرته ، ولئلا يقول قائل شيئاً مما أكرهه ، ولا يدفعني دافع عن الولاية والقيام بأمر رعيته من بعده . ثم كان آخر ما تكلم به في شيء من أمر أمته أن يمضي جيش أسامة ولا يتخلف عنه أحد ممن انهض معه ، وتقدم في ذلك أشد التقدم ، ولوعز فيه أبلغ الإيعاز ، وأكد فيه أكثر التأكيد .

فلم أشعر بعد أن قبض النبي (ص) إلا برجالٍ من بَعَثُوا أسامة بن زيد وأهل عسكره قد تركوا مراكزهم ، وأخلَّوا بمواضعهم ، وخالفوا أمر رسول الله (ص) فيما انهضهم له وأمرهم به ، وتقدم إليهم من ملازمة

(٢١) نهج البلاغة الخطبة (٥) .

أميرهم ، والسير معه تحت لوائه حتى ينفذ لوجهه الذي أنفذه إليه ، فخلفوا أميرهم مقيماً في عسكره ، وأقبلوا يتبادرون على الخيل ركضاً إلى حل عقدة عقدها الله عز وجل ورسوله لي في اعناقهم ، فحلّوها ، وعهد عاهدوا الله ورسوله فنكثوه ، وعقدوا لأنفسهم عقداً ضجّت به اصواتهم ، واختصت به آراؤهم ، من غير مناظرة لأحد من بني عبد المطلب ، أو مشاركة في رأي ، أو استقالة لما في اعناقهم من بيعتي .

فعلوا ذلك ، وأنا برسول الله مشغول ، وبتهيّزه عن سائر الأشياء مصدود ، فإنه كان أهمها وإحق ما بدئ به منها ، فكان هذا يا اخا اليهود اقبح ما ورد على قلبي مع الذي أنا فيه من عظيم الرزية ، وفاجع المصيبة ، وفقر من لا خلف منه إلا الله تبارك وتعالى ، فصبرت عليها إذ أتت بعد اختها على تقاربها ، وسرعة اتّصالها .

ثم التفت (ع) إلى اصحابه فقال : اليس كذلك ؟ قالوا : بلى يا امير المؤمنين عليك السلام ٢٢ .

كيف طالب الإمام (ع) بحقه :

ولم يشأ الإمام علي (ع) أن يحمل السيف ، ويأخذ حقه بقوة السلاح لأمرين - كما يبدو للباحث في تاريخه - وهما :

أولاً ، لأنه لم يجد تجاوباً كافياً لدى المؤيدين له ، مما كان يجعل مطالبته نوعاً من المغامرة .

ثانياً ، خشيته على الإسلام أن يرتد عنه أولئك الذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم .

ولقد أشار (ع) إلى هذين الأمرين في أكثر من مناسبة ، نذكر منها قوله - في حديث مفصل يأتي إن شاء الله - : فقلت يا رسول الله فما تعهد إليّ إذا كان (ذلك) ؟ فقال :

" إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد أعواناً كفّ يدك ، واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً " ٢٣ .

وقال - وهو يوضح موقفه من السلطة عموماً بعدبيعة عثمان - :

" لقد علمتم ، اني أحق الناس بها من غيري ، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه " ٢٤ .

ولقد طالب الإمام (ع) بحقه ومشى إلى المهاجرين والأنصار ، وحرضهم على الدفاع عنه . وإنهض كبار شيعته وأهل بيته لإعلان حقه ، مما جعل الناس يعرفون بخطأ مبادرتهم للبيعة ١ ، بل جعل الخليفة الثاني يقول : إنبيعة أبي بكر كانت قلّة وقى الله المسلمين شرّها ، فمن عاد إليها فاضربوا عنقه .

إن البعض يحاول أن يوهمنا أن انتقال السلطة إلى الخليفة الأول تمّ بهدوء ، من أجل أن يضيفي على عهده صبغة القداسة والعصمة عن الخطأ . ولعل منشأ هذا الرأي الحمية للإسلام ، بما يخالف واقعيّات

(٢٢) مرسوعة بحار الأنوار : ج ٢٨ ، ص ٢٠٧ .

(٢٣) مرسوعة بحار الأنوار : ج ٢٨ ، ص ١٩١ .

(٢٤) المصدر : ص ١٠٢ .

التاريخ .

والواقع ان خلط الدين بالتراث ، ومحاولة تقديس الماضي بإيجابياته وسلبياته هو المسؤول عن مثل هذه النظرة الساذجة .

إن عشرات النصوص الدينية والتاريخية ، التي لايرقى إليها أدنى شك ، تؤكد ان مَنْ كان حول الرسول لم يكونوا إلا بشرأ ، فيهم الصالحون ، وفيهم الكثير من المنافقين والفاسقين ، وكان فيهم من قال عنه الإمام (ع) ،

" لقد رايت أصحاب محمد (ص) فما ارى أحداً يشبههم منكم .^١ لقد كانوا يصبحون شعناً غبراً ، وقد باتوا سجداً وقياماً ، يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم "^{٢٥} .

كما كان فيهم من عشق السلطة ، وسعى إليها على تلال من جثث القتلى دون اي وازع من دين او ضمير ، وكان فيهم مَنْ أكثر من الكذب حتى حذر الرسول (ص) من ذلك قائلا ،
" ستكثر من بعدي القالة ، فمن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار " .

وكان فيهم من قال عنه الله سبحانه ،

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَإِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران/ ١٤٤)

وقال عز من قائل أيضاً ،

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة/ ١٠١)

وقال تعالى ،

﴿ وَيَوْمَ حُشِنَ إِذْ أَغْشَيْتَكُمْ كَفْرَكُمْ فَلَئِمَّ نَفْسُ عُنُكِكُمْ حُشْنًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ ﴾ (التوبة/ ٢٥)

وقال سبحانه ،

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة/ ٥٤)

وقد نقل المحدثون جميعاً عن الرسول (ص) كثيراً من النصوص التي تؤكد ان بعض اصحاب يحرفون من بعده .. إنن كيف يمكن تصور القداسة فيهم ، وانهم سلّموا السلطة إلى اهلها من دون صراع ، علماً بان الروايات التاريخية الصحيحة شهدت بوجود هذا الصراع على لشده ، منذ يوم السقيفة ،

(٢٥) نهج البلاغة : ص ١٤٣ .

ثم ولم يلبث أن اصطبغ الصراع بلون الدم في حادثة مالك بن نويرة ، الذي لبي إعطاء الزكاة للخليفة الأول ، فبعث إليه قائداً عربياً عريقاً في الجاهلية ممن انضم إلى الرسالة بعد الفتح ، وأضحى سيفاً مسلواً بيد الدولة ، وهو خالد بن الوليد ، الذي فتك بمالك وانتكح عرضه وافتعل بزوجته ليلة قتلها وجعله عبرة لكل القبايل التي ربما فكرت بالتمرد على السلطة الجديدة .. ثم باركت عمله هذه السلطة الجديدة ؟ ..

واستمرت سلسلة الصراعات حتى انتهت بالحروب الداخلية التي جرت في عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) ، فلولا وجود خلفيات لهذه الصراعات لم تكن لتظهر بتلك الصورة الدموية .

بيد أن الباحث يقتنع من خلال عشرات الشواهد التاريخية أن الإمام علياً (ع) لم يكن يرغب في تحويل الصراع إلى تنافس سياسي على السلطة ، ولا يرضى بتصعيده إلى حرب دامية ، ولا حتى باعتزال الساحة السياسية ، بل كان يشارك الخلفاء في كافة الشؤون ، ويولي أمورهم ويحل معضلاتهم .

و من جهة ثانية ، كان الخلفاء يدعون لفضل الإمام (ع) ، ويعملون بنصائحه وقضائه ويشيرون به في أكثر من مناسبة .. فلقد شاع قول الخليفة الأول .. اقبلوني فلست بخيركم وعلي فيكم . وتواتر الحديث عن الخليفة الثاني ، " لولا علي لهلك عمر " .

حيث قالها في أكثر من مائة مناسبة . وقال أيضاً ، " معضلة ليس لها أبو الحسن " .

وإنما قالها عمر لمزيد من المشاكل التي حلها الإمام (ع) وأراح منها المسلمين .

وقد ثبت تاريخياً ، أن أصحاب الإمام (ع) قد تولوا كثيراً من المناصب الإدارية والعسكرية للدولة ، فسلمان تولى ولاية فارس في المدائن ، وهو من أقرب أنصار الإمام (ع) واشهدهم إخلاصاً له . والإمام الحسن المجتبي (ع) شارك في جيش الإسلام الذي فتح الله على يديه بلاد الفرس ، كما أن الإمام نفسه استخلفه الخليفة الثاني عند ذهابه إلى فلسطين .

ونستوحي من حديث ماثور عن الإمام الصادق (ع) أن الحكم في عهد الخليفة الأول والثاني كان يشبه حكماً انتلافياً بين الأجنحة المختلفة ، بينما استبد جناح بني أمية بالحكم في عهد الخليفة الثالث ، وخلص الحكم - بعد الإنتفاضة وقتل الخليفة - للجناح الأول الذي كان يقوده الإمام علي ، ولولي البصائر من المهاجرين والأنصار ، ولذلك ثارت ثائرة أصحاب عثمان وتمرد الأمويون ومن اتبعهم على حكم الإمام علي (ع) .

سيدة النساء النصيرة الأولى للإمام عليه السلام :

هكذا أفرزت الأجنحة السياسية بوفاة الرسول (ص) ، وحددت ملامح المعارضة الرسالية التي طالبت بعودة الإمام علي إلى الحكم لأنه الأفضل ، ولأن الرسول الذي لا ينطق عن الهوى قد أمر بذلك وشدد أمره باخذ العهود والمواثيق .

وكانت بدت رسول الله - فاطمة الزهراء عليها السلام - أشد المدافعين عن الإمام (ع) وأقواهم ، وبالرغم من أنها لم تعيش بعد والدها طويلاً ، لأنها صُفيت ، وكانت أول من يلتحق بابيها ، إلا أن

معارضتها الشجاعة فتحت ابواب المعارضة امام انصار الإمام (ع) واعطتهم المنهج وشجنت لرادتهم بالعزم ، خصوصاً بعد استشهادهما ووصيتها بأن يُخَفَّى محلُّ دفنها ، ولا يحضر جنازتها مَنْ ظَلَمَها .. ولقد أصبحت شهادة فاطمة (ع) راية ظلامة حارب تحت ظلها كل المحرومين عبر التاريخ .. وإن غيابها المبكر وبتلك الصورة الفجيعة ، جدد احزان المسلمين بفقد الحبيب محمد (ص) ، واثار في القلوب المجروحة بمصيبة الرسول زوبعة من العواطف الصادقة التي تحولت مع الزمن إلى قوة تحد لاتقهر ..

لقد حفرت كلماتها المضنية في أفئدة الناس انهرأ من الحماس والتحدى الرسالي . فقد قالت لساه الانصار حين زرنها في مرض موتها وقلن لها : كيف أصبحت يا بنت رسول الله ؟ قالت لهنّ فيما قالت ، لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الامين ، والطهين بامر الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، ومضت قائلة :
" وما الذي نقموا من ابي الحسن ، نقموا منه - والله - نكير سيفه ، وشدة وملته ، ونكال وقعته ، وتتمره في ذات الله " .

ثم قالت : " استبدلوا والله الذنابي بالقوادم ، والعجز بالكمال ، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون انهم يحسنون صنْعاً ، إلا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون .
ويحهم ، افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون " ٢٦ .
أصحاب النبي (ص) يدافعون عن الإمام (ع) :

ولكن .. كيف دافع اصحاب النبي عن حق الإمام في الخلافة ؟ .

الكتب التاريخية حفظت لنا عشرات الحوادث في ذلك . بيد ان القصة التالية تبدو جامعة حيث احتج كبار الاصحاب على تغيير السلطة بادلة قوية . كما انها تروي أيضاً جانباً هاماً من تاريخ الإمام علي (ع) .. والإمام الصادق يروي تفاصيل هذه الحادثة التاريخية في حديث مفصل نذبت هنا ليعكس لنا حالة الأمة آنذاك .

وحيث اجتمع فريق من اصحاب رسول الله ، فيهم سلمان الفارسي ، ولبودر ، والمقداد بن الاسود ، وبريرة الأسلمي ، وعمار بن ياسر ، وآخرون إلى الإمام (ع) فقالوا ،
يا امير المؤمنين تركت حقاً أنت لحق به ولولى منه ، لانا سمعنا رسول الله (ص) يقول ، " عليّ مع الحق ، والحق مع علي ، يميل مع الحق كيف مال " .
ولقد هممنا ان نصير إليه فنزله عن منبر رسول الله (ص) فجئناك نستشيرك ونستطلع رأيك فيما تامرنا . فقال امير المؤمنين (ع) ،

(٢٦) سيرة الأئمة الاثني عشر : ج ١ ، ص ١٢٤ .

"وليم الله لو فعلتم ذلك لَمَّا كنتم لهم إلاً حرياً ، ولكنكم كالمِلح في الزاد ، وكالكحل في العين ، وليم الله لو فعلتم ذلك لَاتَيْمُونِي شَاهِرِينَ أَسْيَافَكُمْ مُسْتَعِدِينَ للحرب والقتال ، إِذَا لَاتُونِي فَقَالُوا لِي يَا بَيْع ، وَالْأَقْتُنَاكَ ، فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ أَدْفَعُ الْقَوْمَ عَنْ نَفْسِي ، وذلك أن رسول الله (ص) لَوَعَزَّ إِلَيَّ قَبْلَ وفاته وقال لي ، يا أبا الحسن إن الأمة ستغدر بك بعدي ، وتنقض فيك عهدي . وإنك مني بمنزلة هارون من موسى ، وإن الأمة من بعدي بمنزلة هارون ومن أتبعه ، والسامري ومن أتبعه " .

فقلت يا رسول الله فما تعهد إليَّ إِذَا كَانَ ذَلِكَ ؟ . فقال ،

" إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد أعواناً كُفَّ يَدُكَ واحقن دَمَكَ حتى تلحق بي مظلوماً " .

ولما توفي رسول الله (ص) اشتغلتُ بغسله وتكفينه والفراغ من شأنه ، ثم آليتُ يَمِيناً أن لا ارتدي إلا للصلاة حتى أجمع القرآن ، ففعلت . ثم أخذت بيد فاطمة وابنتي الحسن والحسين فدرت على أهل بدر وأهل السابقة فذاشدهم حقي ودعوتهم إلى نصرتي ، فما أجابني منهم إلا أربعة رهط منهم سلمان وعمار والمقداد ولبودر^{٢٧} . ولقد راودت في ذلك تقييد بيئتي ، فائقوا الله على السكوت لَمَّا علمتم من وَغَر صدرور القوم ، ويغضهم لله ولرسوله ولأهل بيت نبيه (ص) . فانطلقوا باجمعكم إلى الرجل فعرفوه ما سمعتم من قول رسولكم (ص) ليكون ذلك لوكد للحجة ، وأبلغ للعدو ، وأبعد لهم من رسول الله (ص) إِذَا وردوا عليه .

فسار القوم حتى أهدقوا بمدير رسول الله (ص) وكان يوم الجمعة ، فلما صعد أبو بكر المنبر قال المهاجرون للأنصار تقدموا فتكلموا ، وقال الأنصار للمهاجرين ، بل تكلموا أنتم ، فإن الله عز وجل أوداكم في كتابه إِذ قال الله ،

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (التوبة/١١٧)

قال أبان ، فقلت له ، يابن رسول الله ، إن العامة لا تقرأ كما عندك ، فقال ، وكيف تقرأ يا أبان ؟ قال ، إنها تقرأ .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (التوبة/١١٧)

فقال ، " ويلهم وأي ذنب كان لرسول الله (ص) حتى تاب الله عليه منه ، إنما تاب الله به على أمته " . فأول من تكلم به خالد بن سعيد بن العاص ، ثم باقي المهاجرين ، ثم من بعدهم الأنصار . وروي أنهم كانوا غُيْباً عن وفاة رسول الله (ص) ففقدوا وقد تولى أبو بكر وهم يومئذ أعلام مسجد رسول الله (ص)

(٢٧) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ١ ص ١٣١ : ومن كتاب معاوية المشهور إلى علي (ع) : وأعهدك أمس تحمل قميدة يبتك ليلاً على حمار ويدك في يدي ابنتك الحسن والحسين يوم يبيع أبو بكر الصديق ، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسرايق إلا دعوتهم إلى نفسك ومشييت إليهم بأمرانك ، وأدليت إليهم بأبنيتك ، واستنصرتهم على صاحب رسول الله ، فلم يجيبك منهم إلا أربعة أو خمسة .

إني الله يا أبا بكر ، فقد علمت أن رسول الله (ص) قال ونحن محتشوه يوم قريظة حين فتح الله له وقد قتل علي يومئذ عدة من صناديد رجالهم ، وأولي الديار والنجدة منهم ،
 " يا معاشر المهاجرين والأنصار ، إني موصيكم بوصية فاحفظوها ومودعكم امرأ فاحفظوها ، ألا إن علي بن أبي طالب (ع) أميركم بعدي ، وخليفتي فيكم ، بذلك أوصاني ربي ، ألا وإنكم إن لم تحفظوها فيه وصيتي وتوازروه وتنصروه اختلقتكم في أحكامكم ، واضطرب عليكم أمر دينكم ، وليكن شراؤكم . ألا إن أهل بيتي هم الوارثون لأمري ، والعالمون بأمر أمتي من بعدي . اللهم من أطاعهم من أمتي ، وحفظ فيهم وصيتي ، فاحشرهم في زمرتي ، واجعل لهم نصيباً من مرافقتي ، يدركون به نور الآخرة . اللهم ومن أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض " .

فقال له عمر بن الخطاب : اسكت يا خالد فلست من أهل المشورة ، ولا ممن يقتدى برأيه . فقال خالد : اسكت يا ابن الخطاب فإنك تنطق عن لسان غيرك . ولهم الله لقد علمت قريش أنك من آلهم حسباً ، وأدناها مناصباً ، وأخسها قدراً ، وأخملها ذكراً ، وأقلهم غناء عن الله ورسوله . وإنك لجبان في الحروب ، بخيل بالمال ، لئيم العنصر ، مالك في قريش من فخر ، ولا في الحروب من ذكر ، وإنك في هذا الأمر بمنزلة الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهم أنهم في النار خالد بن سعيد ، وذلك جزاء الظالمين ، فابلس عمر ، وجلس خالد بن سعيد .

٢- ثم قام سلمان الفارسي وقال : كرديد ونكرديد (وندانيد جه كرديد) أي فعلتم ولم تفعلوا (وما علمتم ما فعلتم) وامتنع من البيعة قبل ذلك حتى وُجِّهَ عنقه ، فقال : يا أبا بكر إلى من تستند أمرك إذا نزل مالا تعرفه ، وإلى من تغز إذا سئلت عما لا تعلمه ، وما عذر في تقدم من هو أعلم منك واقرب إلى

(٢٨) قال ابن الأثير في أسد الغابة : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، يكنى أبا سعيد ، كان من السابقين إلى الإسلام ثالثاً أو رابعاً بعثه رسول الله صلياً على صدقات اليمن وقيل على صدقات مذحج وعلى صنعاء فتوفي النبي (ص) وهو عليها ولم يزل خالد وأعموه عمرو وأبان على أعمالهم التي استعملهم عليها رسول الله (ص) حتى توفي رسول الله فرجعوا عن أعمالهم فقال لهم أبو بكر : مالكم رجعتم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله . ارجعوا إلى أعمالكم . فقالوا : نحن بنو أبي أحيحة لانعمل لأحد بعد رسول الله أبداً . وكان خالد على اليمن ، وأبان على البحرين ، وعمرو على تيماء ، وتآخر خالد وأعموه أبان عن بيعة أبي بكر فقال لبني هاشم : إنكم لطوال الشجر طيِّبوا الثمر ، ونحن لكم تبع ، فلما بايع بنو هاشم أبا بكر بايعه خالد وأبان وسبيحهم تمام الكلام فيه .
 (٢٩) روى ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ٢ ص ١٧ عن أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري بإسناده عن المغيرة أن سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هوامم أن يبايعوا علياً بعد النبي فلما برع أبو بكر

رسول الله (ص) وإعلم بتلويل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ، ومن قدمه النبي (ص) في حياته ، ولوصاكم به عند وفاته ، فندبتم قوله ، وتناسيتم وصيته ، وأخلفتم الوعد ، ونقضتم العهد ، وحللتهم العقد الذي كان عقده عليكم من النفود تحت راية أسامة بن زيد حذراً من مثل ما اتبتموه ، وتنبهوا للأمة على عظيم ما اجترحتموه من مخالفة أمره ، فعن قليل يصفو لك الأمر وقد انقلك الوزر ونقلت إلى قبرك ، وحملت معك ما اكتسبت يداك ، فلو راجعت الحق من قرب وتلافيت نفسك ، وتبت إلى الله من عظيم ما اجترمت ، كان ذلك أقرب إلى نجاتك يوم تفرد في حفرك ويسلمك ذوو نصرتك ، فقد سمعت كما سمعنا ، ورأيت كما رأينا ، فلم يردك ذلك عما أنت متشبث به من هذا الأمر الذي لا عذر لك في تقلده ولا حظ

قال سلمان للصحابة : أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن قال : وفي رواية أخرى : أصبتم ذا السن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولا كلتموها رَغداً .

قال ابن أبي الحديد : قلت هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال : (كرديد ونكرديد) تفسره الشيعة فتقول : أراد اسلمتم ، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه أخطأتم وأصبتم .

وقال السيد المرتضى في الشافي : (٤٠١) : فإن قيل : المروي عن سلمان أنه قال : (كرديد ونكرديد) وليس بمقطوع به قلنا : إن كان عبر السقيفة وشرح ما جرى فيها من الأقوال مقطوعاً به ، فقول سلمان مقطوع به ، لأن كل من روى السقيفة رواه ، وليس هذا مما يختص الشيعة بنقله فيتهم فيه ..

وليس لهم أن يقولوا كيف عايطهم بالفارسية وهم عرب ، وذلك أن سلمان وإن تكلم بالفارسية فقد فسره بقوله : أصبتم وأخطأتم : أصبتم سنة الأولين وأخطأتم أهل بيت نبيكم إلى آخر ما سيحيي في آخر هذا الباب (تتميم) نقلاً عن تلخيص الشافي .

أقول : وللفظ سلمان على ما في أنساب الأشراف (٥٩١/١) العثمانية : (ص ١٧٢ و ١٧٩ و ١٨٧ و ٢٣٧) (كرداد ونا كرداد) ، فالظاهر من قوله : (كرداد ونا كرداد) أن صنيعهم هذا صنيع وليس بصنيع (قال في البرهان : كرداد - وزان بغداد بالفتح البناء والأساس وقال : كرداد بكسر الأول القاعدة والسورة : (آمين - روض) فنفي الفعل ثانياً بعد إثباته أولاً يفيد أن ما صنعه لم يكن على وفق الحق ومقتضاه حيث إن الناس وإن كان لابد لهم من أمير يطاعون له ، يصدرون عن نهيه ويردون بأمره ، ولكن الذي يجب أن يطاع ويتابع ليس هو أبو بكر الذي لا يمكنه أن يتخطى خطى النبي (ص) ويحذو حذوه ، ولا له عصمة كمصمة النبي ، فلا يؤثر في أشعارهم وأبشارهم ولا ... ألف ولا .

وأما الاعتراف بأنه كيف عايطهم بالفارسية أولاً ثم عايطهم بالعربية - وقد أكثر في ذلك الجاحظ في العثمانية : (ص ١٨٦) فعندي أن ذلك معهود من طبيعة الإنسان إذا أن في نفسه نفثة لا يمكنه أن يصدرها كما هي ، أعرجها مَهْمِهاً كعواطر النفوس . وإذا كان عارفاً بلسانين كسلمان الفارسي أصدر النفثة بلسان خير لسان المعاطبين ، ثم مضى في كلامه بلسانهم ، فروي تلك الكلمة من سمعها من سلمان وترجمها من كان يعرف اللغة الفارسية بعد ذلك .

للدين والمسلمين في قيامك به ، قاله الله في نفسك ، فقد لعذر من انذر ، ولا تكن كمن ادبر واستكبر .
 ٣- ثم قام ابو ذر فقال : يا معاشر قريش اصبتم قباحة وتركتم قرابة ، والله لاحتدن جماعة من العرب ولتشكن في هذا الدين ، ولو جعلتم الامر في اهل بيت نبيكم ما اخطف عليكم سيفان . والله لقد صارت لمن غلب ولطمحن إليها عين من ليس من اهلها ، وليسفكن في طلبها دماء كثيرة ، فكان كما قال ابو ذر رضوان الله عليه .

ثم قال لقد علمتم وعلم خياركم ان رسول الله (ص) قال :
 " الامر بعدي لعلي ، ثم لابني الحسن والحسين ، ثم للطاهرين من ذريتي " .
 فاطرحتم قول نبيكم وتناسيتم ما عهد به إليكم ، فاطعتم الدنيا الفانية ، وبعتم الآخرة الباقية التي لا يهرم شبابها ، ولا يزول نعيمها ، ولا يحزن اهلها ، ولا يموت سكانها ، بالحقير التافه الفاني الزائل ، وكذلك الامم من قبلكم كلفت بعد انبيائها ، ونكصت على اعقابها ، وغيّرت وبدلت ، واختلفت ، فساويتموهم حدو النحل بالنحل ، والقذة بالقذة وعما قليل تنفون وبإل امركم ، وتجزون بما قدمت ليدىكم ، وما الله بظلام للعبيد .

٤- ثم قام المقداد بن الأسود وقال : ارجع يا ابا بكر عن ظلمك ، وتب إلى ربك ، والزم بيتك ، وابلو على خطيئتك ، وسلم الامر لصاحبه الذي هو أولى به منك ، فقد علمت ما عقده رسول الله (ص) في عنقك من بيعته ، والزمك من النفود تحت راية اسامة بن زيد وهو مولاة ، ونّب على بطلان وجوب هذا الامر لك ولمن عضدك عليه بضمه لكما إلى علم النفاق ومعدن الشنآن والشقاق عمرو بن العاص الذي انزل الله تعالى فيه على نبيه (ص) :

﴿إِنْ شَاقَّكَ هُوَ الْبَتْرُ﴾ (الكَرَّزُ/٣)

فلا اختلاف بين اهل العلم انها نزلت في عمرو - وهو كان اميراً عليهما وعلى سائر المنافقين في الوقت الذي انقذه رسول الله (ص) في غزاة ذات السلاسل^{٣١} وإن عمراً قدكما حرس عسكره فمن الحرس إلى

(٣٠) وقد صدق التاريخ كلام أبي ذر هذا حيث أرتدت العرب بعدما سمعت من أن أصحاب النبي (ص) ابتزوا سلطانه من مقره ، فطمعوا أن يكون لهم في ذلك نصيب ، فطغوا على الخليفة أبي بكر واشتهر طغيانهم هذا بعنوان الردة ، نعم كانت الردة ولكن على من ؟ على الله ورسوله ؟ أو على الخليفة من بعده ؟ سيحيى تمام الكلام في أبواب المطاعن عند خلاف بني تميم وقتل مالك بن نويرة إن شاء الله تعالى .

(٣١) البلاذري : (١ / ٣٨٠) وفي السير أن رسول الله بعث عمرو بن العاص أولاً ثم بعث أبا عبيدة مسدداً له وفيهم أبو بكر وعمر فاجتمعوا تحت قيادة عمرو ، راجع سيرة ابن هشام : (ج ٢ ، ص ٦٣٢) ، أسد الغابة : (ج ٤ ، ص ١١٦) ترجمة عمرو بن العاص منتخب كنز العمال : (ج ٤ ص ١٧٨) ، تاريخ الطبري : (ج ٣ ص ٣٢) ، ولعمرو بن العاص ترجمة اضافية من شتى نواحي البحث تراها في كتاب الغدير : (ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٧٦) .

الخلافة ؟ إتقى الله وبادر الاستقالة قبل فوتها ، فإن ذلك أسلم في حياتك وبعد وفاتك ، ولا تركن إلى دنيائك ، ولا تغررك قريش وغيرها ، فعن قليل تضمحل عنك دنياك ، ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك . وقد علمت وتيقنت أن علي بن أبي طالب (ع) صاحب هذا الأمر بعد رسول الله (ص) فسلمه إليه بما جعله الله له فإنه أتم لسترك ولخف لوزرك ، فقد والله نصحت لك إن قبلت نصحي ، وإلى الله ترجع الأمور .

٣٢
٥- ثم قام بريدة الأسلمي فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا لقي الحق من الباطل يا أبا بكر ؟ انسيت أم تداسيت أم خدعتك نفسك وسوّلت لك الأباطيل ؟ أولم تذكر ما أمرنا به رسول الله (ص) من

(٣٢) بريدة بن الحصبب الأسلمي أبو ساسان أو أبو عبد الله كان ذا بيت كبير في قومه مر به رسول الله مهاجراً فأسلم هو ومن معه وكانوا ثمانين بيتاً فصلوا خلف رسول الله (ص) العشاء الآخرة ثم قدم عليه (ص) بعد غزوة أحد وشهد معه المشاهد كلها ورواه رسول الله صدقات قومه . روي أنه لما سمع بموت النبي (ص) وكان في قبيلته ، أخذ رايته فنصبها على باب بيت أمير المؤمنين فقال له عمر : الناس اتفقوا علىبيعة أبي بكر ، مالك تحالفهم ؟ فقال : لا أبايع غير صاحب هذا البيت .

وأما حديث التسليم على علي بامرة المؤمنين فقد أخرجه العلامة المرحشي (قدس سره) في ذيل الإحقاق عن معاجم كثيرة من كتب أهل السنة راجع : (ج ٤ ، ص ٢٧٥) وما بعده .

وأما حديث خلافه فقد روى علم الهدى في الشافي (٣٩٨) عن الثقيفي بإسناده عن سفيان بن فروة عن أبيه قال : جاء بريدة حتى ركز رايته في وسط أسلم ثم قال : لا أبايع حتى يبايع علي بن أبي طالب . فقال علي : يا بريدة ادخل فيما دخل فيه الناس ، فإن اجتماعهم أحب إلي من اختلافهم اليوم . وبإسناده عن موسى بن عبد الله بن الحسن قال : أبت أسلم أن تبايع ، فقالوا : ما كنا نبايع حتى يبايع بريدة لقول النبي (ص) لبريدة (علي وليكم من بعدي) قال : فقال علي : إن هؤلاء خيرونني أن يظلموني حقّي وأبايعهم ، وارتد الناس حتى بلغت الردة أحداً فاحتوت أن أظلم حقّي وإن فعلوا ما فعلوا .

أقول : وحديث بريدة (يا بريدة لا تبغض علياً) لا تقع في علي (إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي) من المتواترات وقد أخرجه أصحاب الصحاح . راجع مسند الإمام ابن حنبل : (ج ٥ ، ص ٣٥٦) ، معصائص النسائي : (٣٣) شرح النهج الحديدي : (ج ٢ ، ص ٤٣٠) مجمع الزوائد : (ج ٩ ، ص ١٢٧) وهكذا حديث عمران بن الحصين ويقال إنه أخا بريدة لأنه أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده : (١١١) تحت الرقم (٨٢٩) ، الترمذي في صحيحه : (ج ٥ ، ص ٢٩٦) ، تحت الرقم (٣٧٩٦) و (٣٨٠٩) وأخرجه عنه في مشكاة المصابيح (٥٦٤) جامع الأصول (٩ / ٤٧٠) ، ورواه النسائي في المعصائص : (٣٣ و ٢٦) مستدرك الصحيحين : (ج ٣ ، ص ١١٠) ، إلى غير ذلك من المعاجم الحديثية راجع بسط ذلك في ذيل الإحقاق : (ج ٥ ، ص ٢٧٤ - ٣١٧) .

تسمية علي (ع) بإمره المؤمنين ، والنبي بين أظهرنا ، وقوله في عدة لوقات ، هذا أمير المؤمنين ، وقائل القاسطين ؟ فاتق الله وتدارك نفسك قبل أن لا تدركها وانتقذها مما يهلكها ، واردد الأمر إلى من هو أحق به منك ، ولا تتماذ في اغتصابه . وراجع وأنت تستطيع أن تراجع ، فقد محصتُ النصح ، ودللكت على طريق النجاة ، فلا تكونن ظهيراً للمجرمين .

١- ثم قام عمار بن ياسر فقال : يا معاشر قريش يا معاشر المسلمين ، إن كنتم علمتم وإلا فاعلموا أن أهل بيت نبيكم أولى به وأحق بآرثه ، وأقومُ بأمور الدين وأمن على المؤمنين ، واحفظ لملته ، وانصح لأمرته ، فمروا صاحبكم فليرد الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ، ويضعف أمركم ، ويظفر عدوكم ، ويظهر شتاتكم وتعظم الفتنة بكم ، وتختطفون فيما بينكم ، ويطمع فيكم عدوكم ، فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم ، وعلي من بينهم وليكم بعهد الله وبعهد رسوله ، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عندما سد النبي (ص) أبوابكم التي كانت إلى المسجد فسدتها كلها غير باب^{٣٣}هـ وإيثاره إياه بكريمته فاطمة دون سائر من خطبها إليه منكم ، وقوله (ص) : " أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد

(٣٣) حديث سد الأبواب إلا باب علي (ع) قد مر في (ج ٣٩ ، ص ١٩ - ٣٤) من بحار الأنوار تاريخ مولانا أمير المؤمنين (ع) وأخرج المؤلف العلامة المجلسي من روايات الفريقين في ذلك ما فيه غناء وكفاية ، وإن شئت راجع ذيل الإحقاق : (ج ٥ ، ص ٥٤٠ - ٥٨٦) فقد أخرجه عن الترمذي : (ج ١٣ ، ص ١٧٣) ط الصاوي بمصر ، وهو في ط الإعتقاد : (ج ٥ ، ص ٣٠٥) تحت الرقم (٣٨١٥) ، وعن النسائي في الخصائص (١٣ و ١٤) والحافظ أبي نعيم في الحلية (١٥٣ / ٤) ، ابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية (٧ / ٣٣٨) ، ابن حنبل في مسنده : (ج ٤ ، ص ٣٦٩) ، الحاكم في مستدركه (١٢٥ / ٣) وللعلامة الأميني قدس سره في كتابه التدبر بحث ضاف ونظرة ثاقبة في حديث سد الأبواب من شأها فليراجع : (ج ٣ ، ص ٢٠٢) وما بعده .

ومما يناسب ذكره هنا أن الترمذي : (ج ٥ ، ص ٢٧٨) روى بإسناده عن عروة عن عائشة (ان النبي (ص) أمر بسد الأبواب إلا باب أبي بكر) ولغظ البخاري (٥ / ٥) (لا يقيم في المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبي بكر) ولم يتفقوا أن النبي لم يأمر بسد الأبواب إلا بابيه للحلة ولا للقرابة ، وإنما أمر بسد الأبواب لحكم شرعي اقتضى ذلك ، وهو أنه لا يحل لأحد أن يستطرق جنباً لمسجد الرسول (ص) إلا من كان طاهراً طيباً بنص آية التطهير ، ولذلك قال (ص) : (يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك) رواه الترمذي في (ج ٥ ، ص ٣٠٣) تحت الرقم (٣٨١١) البيهقي في سننه (٧ / ٦٥) ، الخطيب التبريزي في مشكاة المصابي (٥٦٤) ، العسقلاني في تهذيبه (٩ / ٣٨٧) إلى غير ذلك مما تجده في ذيل الإحقاق .

وأما حديث (أنا مدينة العلم وعلي بابها) فقد مضى البحث عنه في (ج ٤٠ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٧) من تاريخ أمير المؤمنين (ع) وإن شئت راجع ذيل الإحقاق (ج ٥ ، ص ٤٦٩ - ٥١٥) أخرج الحديث بالفاظه

الحكمة فليأتها من بابها " .

وانتم جميعاً مصطرخون فيما أشكل عليكم من أمور دينكم إليه ، وهو مستغن عن كل احد منكم ، إلى ما له من السوابق التي ليست لأفضلكم عند نفسه ، فما بالكم تحيدون عنه ، وتخبرون على حقه ، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، بنس للظالمين بدلاً . اعطوه ما جعله الله له ، ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (المائدة/ ٢١) .

٧- ثم قام أبي بن كعب ^{٣٤} فقال : يا ابا بكر لا تجحد حقاً جعله الله لخيرك ، ولا تكن اول من عصى رسول الله (ص) في وصيّه وصفيّه ، وصدف عن امره . اردد الحق إلى اهله تسلم ، ولا تتصاد في غيبك فتندم ، وبادر الإنابة يخف وزرك ولا تخصص بهذا الأمر الذي لم يجعله الله لك نفساً ، فطلقى وبال عملك ، فعن قليل تغارق ما ادت فيه ، وتصير إلى ريك ، فيسالك عما جئيت ﴿ وَمَا زُكَّ بِطُلَاحٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (نصبت/ ٤٦) .

٨- ثم قام خزيمة بن ثابت فقال : ايها الناس الستم تعلمون ان رسول الله (ص) قبل شهادتي وحدي ، ولم يُرد معي غيري ؟ قالوا بلى قال : فأشهد اني سمعت رسول الله (ص) يقول : " اهل بيتي يُفرّقون بين الحق والباطل ، وهم الأئمة الذين يُقتدى بهم " .
وقد قلت ما علمت ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

٩- ثم قام ابو الهيثم بن التيهان فقال : وانا اشهد على نبيّنا (ص) انه اقام علياً (ع) - يعني في يوم غدِير خم - . فقالت الأنصار ما اقامه إلا للخلافة . وقال بعضهم ما اقامه إلا ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله (ص) مولاه . واكثروا الخوض في ذلك ، فبعثنا رجالاً منا إلى رسول الله (ص) فسألوه عن ذلك ، فقال : قولوا لهم ،

" غلي (ع) ولي المؤمنين بعدي ، وانصح الناس لامتي ، وقد شهدت بما حضرنى . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ان يوم الفصل كان ميقاتاً " .

١٠- ثم قام سهل بن حنيف فحمد الله والذى عليه ، وصلى على النبي محمد (ص) ثم قال : يا معاشر

عن معاجم كثيرة منها المستدرک (٣ / ١٢٦ و ١٢٧) تاريخ بغداد (٢ / ٣٧٧) أنساب السمعاني (١١٨٢) تاريخ الخلفاء : (٦٦) .

(٣٤) استعرض أبو الفداء في كتابه المختصر في إخبار البشر حديث السقيفة قائلاً : بادروا سقيفة بني ساعدة فباح همر أبا بكر واثال الناس يبايعونه خلا جماعة من بني هاشم والزبير وعتبة بن أبي لهب وخالد بن سعيد بن العاص والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر وعمار بن ياسر ووراء بن عازب ، وأبي بن كعب ، وأبي سفيان من بني أمية ومالوا مع علي رضي الله عنهم .

وقال الحقوقي في تاريخه (٢ / ١١٤) أنه تحلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي .. ثم ذكر هؤلاء الجماعة المفكرين لبيعتة .

قريش اشهدوا على اني اشهد على رسول الله (ص) وقد رأيته في هذا المكان يعني الروضة ، وهو أخذ بيد علي بن ابي طالب (ع) وهو يقول :

" ايها الناس هذا علي امامكم من بعدي ، ووصيي في حياتي وبعد وفاتي ، وقاضي ديني ، ومنجز وعدي ، وأول من يصافحني على الحوض ، فطوبى لمن تبعه ونصره ، والويل لمن تخلف عنه وخذله " .

١١- وقام معه أخوه عثمان بن حنيف فقال : سمعنا رسول الله (ص) يقول :

" اهل بيتي نجوم الأرض ، فلا تتقدموهم وقدّموهم ، فهم الولاة بعدي " .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله وائي اهل بيتك ؟

فقال (ص) ، " علي والطاهرون من ولده " .

وقد بين (ص) فلا تكن يا ابا بكر اول كافر به ولا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون .

١٢- ثم قام ابو ليوب الأنصاري فقال : اتقوا الله عباد الله في اهل بيت نبيكم ، وردّوا إليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل ما سمع إخواننا في مقام بعد مقام لديننا (ص) ومجلس بعد مجلس يقول : اهل بيتي انتمكم بعدي ، ويؤمى إلى علي (ع) ويقول : هذا امير البررة ، وقاتل الكفرة ، مخذول من خذله ، منصور من نصره . فتوبوا إلى الله من ظلمكم ، إن الله تواب رحيم ، ولا تتولوا عنه مدبرين ، ولا تتولوا عنه معرضين .

قال الصادق (ع) : فافجم ابو بكر على المنبر حتى لم يُحَرَّ جواباً ثم قال : (وليتكم ولستُ بغيركم ، اقبلوني ، اقبلوني)^{٣٥} فقال عمر بن الخطاب : انزل عنها يا لكع .

كيف قيم الإمام (ع) الشيخين :

أما كيف عاش الإمام في عهد الشيخين ؟ وكيف قيم هذا العهد ؟ . فلقد عاش صابراً يسعى لإصلاح الوضع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ثم أخذ يربي جيلاً من الرساليين ، ويشكل قوة ضغط ضد الانحرافات الإجتماعية ، وضد جناح بني امية الذين كانوا يسعون للتسلل إلى أجهزة الحكم . ويصف الإمام هذا العهد وصفاً دقيقاً في خطبته المعروفة بالشقشقية . وستغني نحن بدورنا ، عن المزيد من التفاصيل بشرح فقرات هذه الخطبة التي اوجزت في كلماته ما يمكن ان تنتسح لها موسوعة تاريخية .

(٣٥) روي حديث إقائه هذا في الصواعق المحرقة : (٣٠) ولفظه (اقبلوني اقبلوني لست بغيركم) الإمامة والسياسة (٢٠) ولفظه بعد ما قالت السيدة فاطمة (ع) في محاجة لها معه : (والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصلها) (فخرج أبو بكر باكياً فاجتمع إليه الناس فقال لهم : بيت كل رجل منكم معانقاً حليته مسروراً بأهله وتركتوني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم اقبلوني من بيعتي) . ورواه في مجمع الزوائد : (ج ٥ ص ١٨٣) نقلاً عن الطبراني في الأوسط ولفظه (قام أبو بكر الصديق من الغد حين بويح فخطب الناس فقال : أيها الناس إني قد أقتلكم رأيي ، إني لست بغيركم فابعوا بغيركم) ونقله في شرح النهج : (ج ١ ، ص ٥٦) وقال : اختلف الرواة في هذه .

يذكر الإمام في هذه الخطبة التي انحدرت عنه كالشفقة تنحدر من الإبل ، ويذكر أن ابا بكر لبس الخلافة كالقميص في الوقت الذي كان يعلم اني أحق بها ، حيث اني كقطب رعى الخلافة ومثل القمة التي ينحدر عنها السيل ، ولا يبلغها الطير لشموخ محلها . اما اني قد ارخيت عليها ستارا ، لأن بدأت افكر بين امرين ، هل اقدم ولا يذل لي ، ام احجم واصبر على ظلام لعمى يطول حتى يجعل الكبير هراماً ، والصغير لشيب ، والمؤمن كادحاً حتى يلقى ربه ؟

وقد قال بالنص ^{٣٦} ،

" اما والله لقد قمصتها ^{٣٧} فلان (ابن ابي قحافة) وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرعى ، ينحدر عني السيل ، ولا يرقى إلى الطير ، فسدلت دونها ثوباً ^{٣٨} ، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت ارتتي بين اصول بيد جذاء ^{٣٩} ، لو اصبر على ملخية عمياء ^{٤٠} ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكن فيها مؤمن حتى يلقى ربه " .

ثم يبين الإمام (ع) انه رأى الصبر أقرب إلى الرشيد والعقل ، فصبر صبر من اصاب عينه قذى أو اعترضت حلقه عظمه لأنه يرى ما لورثه النبي (ص) من الخلافة ينتهب منه نهياً ، وظل على هذه الحال ، حتى مضى الخليفة الأول لسبيله (وتوفاه الله) فلوصى بالخلافة (للخليفة) الثاني .

ويتسامل الإمام (ع) ، كيف كان ابو بكر يستقيل من الخلافة في حياته ثم يتشبث بها حتى بعد مماته ، إذ كانت معاهدة بينهما أن يقتسماها معاً ، ويقول بالنص ،

" فرأيت ان الصبر على هاتنا احبى ، فصبرت ، وفي العين قذى ، وفي الحلق شجاً ^{٤١} لرى ترائي نهياً ^{٤٢} حتى إذا مضى الأول لسبيله ، فادلى بها إلى فلان بعده " .

ثم تمثل بقول الأعشى ،

شتان ما يؤمسي على كورهما ^{٤٣}
ويوم حيّان اخي جابر
" فيا عجباً ! . بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لأخر بعد وفاته ، لشد ما تشطر ضرعيها " ^{٤٤} .

(٣٦) فنقل النص والتعليقات من نهج البلاغة تحقيق د . صبحي صالح .

(٣٧) قمصتها : لبسها كالقميص .

(٣٨) سدل الثوب : أرخاه .

(٣٩) الجذاء بالجيم والذال المعجمة : المقطوعة .

(٤٠) الطخية : الظلمة .

(٤١) الشجى : ما اعترض في الحلق من عظم ونحره .

(٤٢) التراث : الميراث .

(٤٣) الكور : الرجل أو هو مع أدواته .

(٤٤) تشطرأ ضرعيها : اقتسماها ، فأخذ كل منها شطراً : والضرع : ندي الناقة .

ثم يصف شخصية الخليفة الثاني ، فيقول :
لقد وضع الأول الخلافة في محل خشن إذا جرح لحدث جرحاً غليظاً ، وإذا اقتربت منه يصعب عليك مسه ، و (بذلك) تكثر عنده الكبوات والاعتذار منها ، وقد أصبحت السلطة كالإبل الصعبة ، إذا لوقفها صاحبها اضر بها حيث يخرم لادنها . وإذا تركها اقتحمت المهالك ، وهكذا اضحت السلطة ، لا تنفع الشدة فيها لأنها تضر بالناس ، ولا يصح الإهمال لأنه يفسدها .

ويبدو أن الإمام (ع) يشير بذلك إلى أن حزمه وليته لم يكونا بقدر مناسب ولا كانا في الموقع المناسب ، بل كان شديداً في مقام يتناسب اللين . وليناً عندما يستوجب الشدة .

ثم يصف حال الناس الذين اصابوا بخبط فلم يعرفوا الهدى عن الضلال ، كما ابتلوا بحالة التمرد انتهت بهم إلى حالة النفاق ، والسير على غير هدى ، ولكن مع طول المدة وشدة المحنة أدت الصبر . ويقول الإمام (ع) :

" فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ^{٤٥} ويخشن مسها ^{٤٦} ويكثر العثار ^{٤٧} فيها والاعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة ^{٤٨} ، إن اشنق لها ^{٤٩} خرم ^{٥٠} لها تسلس ^{٥١} لها تقحم ^{٥٢} فمني الناس ^{٥٣} - لعمز واللّه - بخبط ^{٥٤} وشماس ^{٥٥} وتلون ^{٥٦} واعتراض ^{٥٧} فصبرت على طول المدة وشدة المحنة " .

ثم يصف الشورى التي أمر بها الخليفة الثاني حيث جعلها في ستة ..
من كان يشك في أنه افضل من الأول ، فكيف يوضع عند امثال الاقران المتشابهين مع بعضهم وليس معه .

وقد قيل الإمام (ع) لِمَا رآه من مصلحة الدين بالوضع ، كانه واحد من سرب الطيور ، إذا هبطوا هبط معهم ، وإن حلّقوا طار معهم .

(٤٥) كلمها : جرحها : كانه يقول : خشونتها تجرح جرحاً غليظاً .

(٤٦) العثار : السقوط والكبوة .

(٤٧) الصعبة : من الإبل : ما ليست بذلول .

(٤٨) اشنق البعير وشنقه : كفه بزمام حتى ألصق ذنبره (العظم الناتج خلف الأذن) بقادمة الرجل .

(٤٩) خرم : قطع .

(٥٠) أسلس : أرخى .

(٥١) تقحم : رمى نفسه في القحمة أي الهلكة .

(٥٢) مني الناس : ابتلوا .

(٥٣) خبط : سير على غير هدى .

(٥٤) الشماس : بالكسر - إباء ظهر الفرس عن الركوب .

(٥٥) الاعتراض : السير على غير خط مستقيم ، كانه يسير عرضاً في حال سيره طولاً .

يقول الإمام (ع) ،

" حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها في جماعة زعم أنني أحدهم ، فيالله وللشورى ، متى اعرض الريب في مع الأول منهم ، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر ^{٥٦} ، لكنني أسففت ^{٥٧} إذ أسفوا ، وطرت إذ طاروا " .

ويمضي الإمام (ع) في حديثه يصف عهد الخليفة الثالث ومن بعده مما نتحدث عنه تباعاً .

كيف قتل الخليفة الثاني؟

يرى بعض الباحثين أن الحزب الأموي كان وراء مقتل الخليفة الثاني ، خصوصاً وقد ضيق عليهم في أواخر عهده . فهذا عمرو بن العاص يتألف ويقول : لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر بن الخطاب ، والمغيرة يحقد عليه لأنه عزله عن البصرة بعد اتهامه بالزنا ، وفي أكثر من مناسبة ، كان يخاطبه قائلاً ، والله لا اظن أبا بكر قد كذب عليك .

ويرى عبد الرحمن بن أبي بكر أن جفينة غلام سعد بن أبي وقاص كان مشتركاً في الجريمة ، وسعد كان تربطه بالبيت الأموي قرابة حميمة ، حيث إن أمه كانت لخت أبي سفيان .

والواقع ، أن الأسباب التي يرى المؤرخون أنها كانت وراء إقدام أبي لؤلؤة على اغتيال الخليفة الثاني ، تافهة ، ولا يمكن أن تصمد أمام النقد ، حيث إن مجرد رفع المغيرة مولاة الضريبة عليه لا تدعو لاغتيال الخليفة ، بل لاغتيال مولاة ، والذي تذهب إليه الضريبة مباشرة ، فلما اشرف الخليفة على الوفاة جعلها شورى بين ستة . وجعل الإمام علياً (ع) واحداً منهم ، أما الباقر فهم ، عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص .

وكان واضحاً من طليعة الشورى ، ومن وصية عمر بن الخطاب ، الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، الذي كان يفضل صهره عثمان . وهكذا فإن الخليفة الثاني اختار خليفته بلباقة ، ولعله فعل ذلك بوحى مخاوفه السابقة من انتقال الخلافة إلى الإمام (ع) باعتباره النجم اللامع الذي إذا سطع في سماء الخلافة ، ولم يبق لغيره بريق ، ولم يقل - وهو يستعرض صفات الست ، وينعت كل واحد منهم بأشجع الصفات ، إلا علياً . فيقول فيه : لله أنت لولا دعاية فيك . أما والله لو وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

وهذا يعني أن خلافة علي (ع) كانت تنسف الأسس التي بناها الخليفان من قبله ، ولعله لذلك رفض الإمام شرطاً من عبد الرحمن بن عوف عليه بأن يعمل بسيرة الشيخين . إلا أن الإمام (ع) حين خرج من بيت الشورى وقد تمت البيعة ، لعثمان بن عفان قال ،

" نحن أهل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، أمان لأهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، إن لنا حقاً إن نعطه

(٥٦) النظائر : جمع نظير أي المشابه بعضهم بعضاً درنه .

(٥٧) أسف الطائر دنا من الأرض .

أخذناه ، وإن تمنعه نركب لعجاز الإبل " .

(أي نكون تبعاً لغيرنا) . ثم التفت إلى ابن عوف وقال ، " ليس هذا بول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . والله ما وليته الأمر إلا ليردّه عليك " ^{٥٨} .

وقال أيضاً ، " أيها الناس ! لقد علمتم أنني أحق الناس بهذا الأمر من غيري . أما وقد انتهى الأمر إلى ما ترون فوالله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليّ خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه " ^{٥٩} .

بنو أمية تتسلل إلى السلطة :

إذا كانت معادلة السلطة مالت في أخريات أيام الخليفة الثاني إلى جانب الخط الرسالي ، فإنها فسدت في عهد الخليفة الثالث ، لمصلحة الخط الأموي بعد نجاح هذا الخط في دعم خلافة واحد منهم ، وإخفاء آثار اغتيال الخليفة ، بقتل المشاركين فيها من غير حزبهم !

وهكذا لم يكن تسلل بني أمية إلى السلطة في عهد الخليفة الثالث خارجاً عن منطق الأحداث . فإنما صعد نجم الخليفة بهم ، ولعل الشرط الثالث الذي اقترحه عبد الرحمن على الإمام علي فرفضه وقبله عثمان كان محتواه إبقاء امتيازات بني أمية ، ومنها ولاية الشام لمعاوية . ولقد قال الخليفة الثاني عند وفاته لعثمان ، هبها إليك كني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بني أمية وبني معيط على رقاب الناس ، وأترتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذهبوك على فراشك دهباً . والله لئن فعلت لفعلن ولئن فعلت ليفعلن بك ، ثم أخذ ناصيته وقال ، فإذا كان ذلك فاذكر قولِي ^{٦٠} .

هكذا أوجز بعض المؤرخين الوضع في عهد الخليفة الثالث فقال ،

لقد أوطأ بني أمية رقاب الناس ، وولاهم الولايات ، وأقطعهم القطائع وافتتحت أرمينية في زمانه فآخذ الخمس كله ووهبه لمروان .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد خلة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم ، وافتتح خلافته بإرجاع الحكم بن أبي العاص وبنيه وأسرتهم إلى المدينة بعد أن طردهم رسول الله (ص) منها ، ولم يقبل (رسول الله (ص)) بهم شفاعاً أحد أبداً . كما رفض الشيخان أبو بكر وعمر إرجاعهم إليها وشفاعة المتشفعين بهم . وقد أنكر المسلمون ذلك أشد الإنكار . ولكن عثمان لم يلبث أن ولاء صدقات قضاة قبلت ثلاثمائة ألف درهم فوهبها له .

ثم إن رسول الله (ص) كان قد تصدق بموضع سوق في المدينة يُسمى (بهزون) على المسلمين فأقطعهم ابن عفان إلى الحرث بن الحكم شقيق مروان — كما يذكر ذلك ابن أبي الحديد — ويضيف ،

(٥٨) راجع : سيرة الأئمة الاثنى عشر (ج ١ / ص ٣٩٤) .

(٥٩) المصدر : ص (٣٩٧) .

(٦٠) المصدر : (ص ٣٨٠) .

اقتلع مروان خدعاً وكانت لقاطمة الزهراء (ع) ، وحمي المراعي حول المدينة كلها ، منع عنها مواشي المسلمين ، وأباحها لمواشي بني أمية . وأعطى عبد الله بن أبي سرح - وهو أخوه من الرضاعة - جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة ألف ، وكان قد روجه أبنته أم أبان ، فجاءه زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى - فقال له ، لتبكي أن وصلت رحمي ؟ فقال ، لا ولكن أبكي لأنني ظننت أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في حياة رسول الله ، والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً عليه ، فقال له ، ألقى المفاتيح يا بن أرقم فإننا سندج غيرك .

الثورة التي لم ترحم :

اندشبت بدو أمية ، اغفلارها في السلطة ، وبدأت تنهب أموال المسلمين نهباً ، وتبني بها حزبيها السياسي ، وقتتها العسكرية . ولأنها كانت ذات نفوذ سياسي قبل الإسلام ، ولها علاقات مع القوى السياسية والعسكرية في الجزيرة ، وتجارب سياسية ، ولأن سماحة الإسلام ، وضعف بعض القيادات هيات لهم فرصة النمو في الظل ، فقد حافظوا على أفكارهم وتقاليدهم وعلاقاتهم ، بل وهيكلية قيادتهم طوال الفترة التي كانوا يسيطرون فيها عن السلطة ظاهراً ، بالرغم من تدخلهم فيها ..

بل ، إن أبا سفيان ، وهو قائدهم في الجاهلية وموجههم في الإسلام ، يزور الخليفة الثالث ، فيجد عنده حاشيته من بني أمية ، فيسأل جلسيه هل في الحضور غريب ؟ . وكان قد كُفَّ بصره آنئذ ، فلما أجابه بالنفي وأطمأن أبدي ما يجول في خاطره فخطب قومه ، تلقفوها يا بني عبد الدار تلقف الصبيان للكرة . فَوَ الذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار . فقام إليه الإمام علي (ع) الذي كان حاضراً في طرف المجلس فنهده .. فقال أبو سفيان العتب ليس علي وإنما علي الذي غرني وقال لا غريب بين الحضور .. فتصور هذا العذر السخيف من ذلك الشيخ الذي ما دخل الإيمان إلى قلبه .

وعندما تصاعدت أمواج الثورة ضد تصرفات بني أمية ، في عهد الخليفة الثالث ، مرّ معاوية وكان يومذاك قائد قوات بني أمية واقعاً ، ووالي الشام - في الظاهر - ، مرّ بقوم من كبار المهاجرين ، فيهم علي (ع) وطلحة والزبير فقال ،

إنكم تعلمون أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه ، حتى بحث الله نبيه فتفاضلوا بالسابقة والقدمة والجهاد . فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع . وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ، ورده الله إلى غيرهم . وإن الله على البديل لقادر ، وإنني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك .

(٦١) في رحاب أئمة أهل البيت : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

وعرف الحاضرون مغزى كلامه ، فلقد هددهم بأنه وحزبه سوف ينقلبون على أصحاب النبي (ص) لولم ينتصروا لعثمان .. وهكذا يقول ابن أبي الحديد المعتزلي ، من هذا اليوم أنشأ معاوية أظفاره في الخلافة لأنه غلب على ظنه قتل عثمان ألا ترى إلى قوله ، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ورده إلى غيرهم وهو على البديل لقادر . وإنما يعني نفسه ولذا تربص بنصرة عثمان لما استنصره .
لقد أتم الحزب الأموي استعداده للإنقلاب على النظام الإسلامي ، وإقامة نظام جاهلي جديد ، يتخذ من الدين وسيلة جديدة للسيطرة .

وثار الناس من كل مكان ، ولا سيما من الكوفة والبصرة ، ومصر .. ومشى من كل منها ألف مسلح إلى المدينة في محاولة للضغط على الخليفة ، وكان هوى أهل الكوفة في الزبير ، بينما كان أهل البصرة يميلون إلى طلحة ، أما أهل مصر فكانوا شبيعة الإمام (ع) .
ولم يكن الإمام (ع) راضياً لفعال الخليفة ، ولكنه حاول جهده تجنب الفتنة . وكم كان يسعى لإصلاح ما أفسده بنو أمية في الحكم ، إلا أن الخرق كان قد اتسع على راقعه .
ولعل الحديث التالي يكفينا شاهداً على موقف الإمام الإصلاحي ، وكيف كان يجابه بضغوط بني أمية الغالبين على أمر الخليفة . ولعلمهم كانوا ينتظرون أمراً آخر . أو كانت قيادتهم المتمثلة في معاوية تخطط فعلاً لقتل الخليفة عسى أن يتخذوه شعاراً لحركتهم نحو السلطة .
الحديث يقول ،

إن الفوار كتبوا إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ، وأقسموا له بالله أنهم لا يرجعون عنه أبداً ، وغير تاركيه حتى يعطيهم ما يلزمهم من حق الله ، ولحس عثمان أن القوم جادون في طلباتهم ، فأرسل إلى علي (ع) فلما جاءه قال له ، يا أبا الحسن قد كان من الناس ما رايت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمنهم على قطي ، فأرددهم عني ، فإن لهم والله أن لعفيهم من كل ما يكرهون ، وإن أعطيهم من نفسي ومن غيري ما يريدون وإن في ذلك سفك دمي .
فقال له أمير المؤمنين (ع) ،

" إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، وإنني لأرى القوم لا يرضون إلا بالرضا . وقد كنت أعطيهم في المرة الأولى عهد الله أن ترجع عن جميع ما نقموا ، فرددتهم عنك ، ولم تغر لهم بشيء من ذلك ، فلا تغرني - هذه المرة - من شيء فإنني معطيهم عليك الحق " .
قال ، نعم ، فاعطهم والله الآن ، فوالله لأفئن لهم بكل ما تريد .
فخرج علي إلى الناس ، وقال ،

" أيها الناس ! إنكم إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه ، إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره ،

وراجع عن كل ما تكرهون " .

فاقبلوا منه ، ووكدوا عليه .

فقال الناس : قد قبلنا ، فاستوفق لنا منه ، فإننا والله لانرضى بقول دون فعل .

فقال لهم : ذلك لكم .

وتمضي الرواية تحدثنا عن ان رسالة خرجت - بعد هذه المعاهدة - من بيت الخليفة الثالث إلى عمّاله وعليها خاتم الخليفة ، يدعوهم فيها إلى نصرته ، وقتل رؤساء المعارضين ، وأنه اخذ يتأهب للقتال ويعدّ جيشاً عظيماً من رقيق الخمس .. مما اثار شكوك المعارضين ، فعادوا إليه ، وطالبوه بعزل الولاة فوراً ، لو خلع نفسه فلم يفعل . ثم انكر الرسالة وادّعى انها تزوير عليه .. ولعل اصابع بني امية داخل البيت كانت قد زورت الرسالة وغيّمت سحب الشكوك ، ووقعت الفتنة ^{٦٣} .

وهكذا جرت الرياح في اتجاه العنف ، وقتل عثمان ، وغلب الثوار على المدينة ، ولخص الإمام علي (ع) الواقعة بعدئذ في كلمتين ، حين قال عن مقتله :

" لو امرت به لكنت قاتلاً ، او نهيت عنه لكنت ناصراً " .

واضاف : " وانا جامع لكم امره : استأثر فاساء الاثرة ، وجزعتم فاستم الجزع ، والله حكم واقع في المستأثر والجائع " ^{٦٤} .

ولعل حكم الله الواقع في المستأثر ان يكبو به فرس السلطة ويقتل على فراشه ، وحكمه في الجائع ان يكون كمن يجتلي الثمرة في غير لوانها فلا يهنا بها . وهكذا استطاع الحزب الأموي ان يستفيد من مقتل الخليفة أكثر من الثوار . حتى تبرأ من مقتل الخليفة من كان من أشدّ المحرّضين عليه ، فهذه لم المؤمنين عاتشة كانت تهتف ، اقلطوا نعتلاً فقد كفر . وهذا طلحة والزبير ، كانا يواصلان التحريض عليه ويجردان الجيوش ضده . وهذا عمرو بن العاص يؤلّب عليه حتى الرعاة . ولكنهم جميعاً انحازوا إلى صف المطالبين بدمه .

ولو سمعوا نصيحة الإمام عليه السلام لكانت الخلافة تعود إلى مراسيها دون إراقة دماء ، وإثارة الفتن .

(٦٣) سيرة الأئمة الاثني عشر : ج ١ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ نقلاً عن الطبري : ص (١١٢) المجلد الخامس .

(٦٤) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ٣٤٨) . ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج ج ١ / ص ٢٣١ :

" سئل ابو سعيد العدري : هل شهد مقتل عثمان احد من الصحابة ؟ قال نعم : شهده ثمانمائة " .

الفصل الرابع

عهد امامته عليه السلام

هكذا سعت الخلافة نحو الإمام (ع) :

وحملت أمواج الإضطراب سفينة الأمة بعيداً عن شواطئ الأمان ، واجتمع المهاجرون والأنصار وفيهم طلحة والزبير ، واجمعوا على بيعة الإمام (ع) فجأؤوا إليه مسرعين وقالوا ، لابد للناس من إمام . قال ، لا حاجة لي في أمركم ، فَمَنْ اخترتم رضيت به . قالوا ، ما نختار غيرك ، وأضافوا ، إنا لا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك . قال ، لاتفعّلوا ، فإنني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً . فقالوا ، لا والله ، ما نحن بفاعلين حتى نبإيعك . قال ، ففي المسجد ، فإن بيعتي لاتكون خفية ولا تكون إلا عن رضا المسلمين . فخشى الناس علياً ، فقالوا نبإيعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام . فقال ، " دعوني والتمسوا غيري ، إنا مستقبلون أمراً له وجهه واللوان . لاتقوم له القلوب ، ولا تنبت عليه العقول " .

فقالوا ننشدك الله ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ فقال ، " قد أجبتمكم وإنني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم " ^{٦٥} .

أجل ، إن الإمام (ع) يرفض الخلافة لأن أمواج الفتنة قد بلغت أعلى مد ، ويود لو يكون وزيراً يساهم من موقع حر في إخماد نيران الفتنة ، ولكن لا أحد رشح نفسه للخلافة ، ولا أحد كان يقبل بغير الإمام (ع) . والإمام يرفض بيعة أهل الحل والعقد من دون رضا الناس ، ويرى ذلك حق عامة الناس ، فيجعلها في المسجد على الملأ العام .

ويشترط عليهم بأن يقودهم على علمه ، لا بجهلهم ، ووفق سنة الرسول ، لا مصالح أصحابه وضغوط القوى السياسية .

واستقبل الإمام عهده ، بالثورة ضد الوضع الفاسد ، وقد عقد عزمات قلبه جميعاً على مواجهة كل تلك العقبات التي خضع لها أو توقف عندها من كان قبله ، وأعظمها القوة السياسية المتنامية عند بني أمية ،

(٦٥) المصدر : ج ٢ ، ص ٤ ، عن الطبري وابن الأثير .

ومن تحالف معهم من بقايا العهد الجاهلي .

والواقع ان تصفية هذه القوة ، كانت من اعظم المهام الرسالية التي بداها الرسول ، وتابع اصحابه من بعده نهجه بفتور ، حتى اذا جاء الإمام (ع) وكانت الظروف مؤاتية ، نهض بها بعزم راسخ .
او ليسوا هم الشجرة الملعونة في القرآن ، اوليس الرسول (ص) قد حذر منهم ، وقال ، " اذا رايتهم معاوية هذا على منبري فاقتلوه ، ولن تفعلوا " .

إنهم كانوا اكبر قوة سياسية في الجزيرة ، وكان الرسول قد احتوهم ، لعلهم يؤوبون إلى رشدهم ، ويكيفون انفسهم مع الواقع الجديد ، او تقوى شوكة الإسلام فتقضي عليهم في الوقت المناسب . وها قد حان ذلك الوقت ، فإنهم ليس فقط لم يؤوبوا انفسهم في بوتقة المجتمع الإسلامي . بل ما فتنوا يدبرون المؤامرات ضد القوى الرسالية ، ويتحينون الفرص للانقضاض على السلطة .
ومن هنا نجد الإمام علياً (ع) يبدا عهده بالهجوم على بني امية وامتيازاتهم التي ابتزوها من الخليفة السابق .

بيروي ابن ابي الحديد ، عن ابن عباس ان علياً خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال ،
" إن كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور اضيق " ٦٦ .

وعزل الإمام عمال الخليفة السابق وهم حكام الولايات الإسلامية ، واصر على عزل معاوية ، قائد الحزب الأموي السياسي والعسكري ، والذي كان يرضى من الإمام إبقائه على الشام كما فعل السابقون ، لعله يجد فرصة أخرى لتحقيق هدف حزبه في السلطة .

لقد كانت تلك اعظم مسؤوليات الإمام (ع) إذ عهد إليه رسول الله (ص) تكميل ما بداه من تصفية القوى الجاهلية وبقاياها ، وقال له مرة ،
" تقاطبهم على تلويله ، كما قاطبناهم على تنزيله " .

وإن اهل البصائر من اصحاب رسول الله (ص) واعون تماماً لهذه الرسالة الإلهية التي يجب عليهم تنفيذها ، وإن الإمام إنما قبل بالإمارة لتحقيق هذا الهدف . وبذل قصارى جهده لتحقيق واحد من هدفين متدرجين ،

١- فلما سحق بقايا النظام الجاهلي وإقامة نظام العدل الإسلامي .

٢- وإما تعرية هذه القوة الجاهلية وفضحها وإيجاد حركة رسالية تهدف إلى القضاء عليها وتمنعها من تحقيق كل أهدافها .

ولأن الظروف لم تسمح لتحقيق الهدف الأول ، فلقد حقق الهدف الثاني ، وأنشأ في الأمة طليعة رسالية ناضلت ضد بني أمية حتى تمت تصفيتهم كاملاً دون أن يحققوا هدفهم الرئيسي ، وهو إعادة الناس إلى الجاهلية . والقصة التالية تكشف جانباً من أهداف معاوية .

كان معاوية - بعد أن تم له الأمر ظاهراً - يستمع إلى الأذان ، وإلى جانبه بعض خواصه ، وإذا به يتميز من الغيظ عندما يسمع المداوي يهتف " أشهد أن محمداً رسول الله " فيسأله صاحبه عن ذلك فيقول :

إن أبا تيم حكماً وذهب ، فقال الناس رحم الله أبا بكر .
وكذلك أخو عدي ، لم يزد الناس بعد حكمه أن قالوا ، رحم الله عمر .
ولكن هذا ابن أبي كبشة (أي رسول (ص)) لم يَرْضَ حتى قُرن اسمه باسم الله ، لا والله إلا دفناً دفناً .

أمّا يزيد ابنه الماجن فقد أنشد قائلاً ،
لعبت هاشم بالملك فلا خبرُ جِساء ولا وحيٌ نزل
من هنا وضع أمير المؤمنين (ع) استراتيجيته على أساس محاربة الباطل وتصفية الحزب الأموي مهما كلفه الأمر .

الإمام (ع) يجاهد أعداء الدين :

وكلية ثورة أصيلة ، واجهت ثورة أنصار الحق ، ثلاثة محاور معادية ،
١- بقايا العهد البائد .

٢- الإنتهازيين .

٣- المتطرفين .

أمّا الإنتهازيون فهم الذين يسايرون الثورة أيام تصاعد مداهم ييغون ركوبها لتحقيق مطالبهم السياسية باسم المساهمة فيها . فإذا رآوا قيادة الثورة واعية ، قلبوا ظهر المعجن وحاربوها وهم عادة ما يهزمون أمامها . إن قوة هذا الفريق كامنة في مكرهم وتلؤنهم ، فإذا افتضحوا فشلوا وانهزموا .

وكان طلحة والزبير وأقرانهما من هذا الفريق حيث عارضوا الخليفة الثالث ، وكانوا يمدّون أنفسهم بالسلطة أو بنصيب منها على الأقل . فلما رآوا ميل الناس إلى أمير المؤمنين ، انحسروا للعاصفة مؤقتاً ، وبإيعاده ، بل كانوا أول من بادر إلى بيعته طمعاً في تقاسم السلطة معه . ولكنهم وجدوا الإمام لا يطلب الحق بالجرور ، ولم يحقق طلب طلحة والزبير بإمارة الكوفة والبصرة ، وكان لهما فيها شيعة وهواة ، فتمردوا عليه ونكثوا بيعته ، وطالبوه بدم من قتلوه ، ودّعوا بأنهم أولياء الخليفة الثالث ، وتحملوا وزراً عظيماً ، لأنهم بادروا إلى إشعال نار الفتنة بين المسلمين ، وكانت الحرب التي أعلنوها أول حرب دامية بين المسلمين .

حرب الجمل :

كان أبو بردة عوف الأزدي ممن تخلف عن نصرة الإمام في الكوفة ، فلما عاد الإمام فاتحاً من البصرة ، عاتب المتخلفين ، وقال :

" ألا إنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال ، فانا عليهم عاتبٌ زار ، فامجروهم واسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، ليُعرفَ حزبُ الله عند الفرقة " .

فقام إليه أبو بردة ، وقال : يا امير المؤمنين ارايت القتلَى حول عائشة والزبير وطلحة بما قُتوا ؟ قال (ع) ، قُتوا شيعتي وعمالي وقُتوا اخا ربيعة العبدى رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين ، قالوا : لا نكتك كما نكتكم ، ولا نغرر كما نغررتم ، فوثبوا عليهم فقطوهم ، فسالتهم ان يدفعوا اليّ قطة اخواني اقتطع بهم ، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم ، فأبوا عليّ ذلك وقاتلوني ، وفي اعتاقهم بيعتي ودماء قريب من الف رجل من شيعتي فقطلهم بهم .

ثم خاطبه قائلاً : افي شك انت من ذلك ؟

قال : " قد كنت في شك ، فاما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم ، وانك انت المهديّ المهدي المصيب " ^{٦٧} . هكذا اختصر الإمام جرائم الناكثين .

ومرة أخرى حينما تواجه الفريقان بالبصرة ، دعا الإمام طلحة والزبير وحاججهما فقال : " لعمري لقد اعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، ان كنتما اعددتما عند الله عذراً فأتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتى نقصت غزلها من بعد قوة انكنا . ألم اكن اخاكم في دينكما ، تحرمان دمي واحرم دماكما ؟ فهل من حدث ما اهل لكما دمي " .

قال طلحة ، أثبت الداس على عثمان .

فقال علي ، " يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين . يا طلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قطة عثمان ، يا طلحة جنت بعرس رسول الله (ص) تقاتل بها ، وخبأت عرسك ، اما بلهعتني ؟ " ^{٦٨} .

ثم ذكر الإمام (ع) الزبير ببعض المواقف مع رسول الله (ص) ، فاعتزل المعركة ، ولما اعتزل الزبير الحرب وتوجه تلقاء المدينة ، تبعه ابن جرموز فغدر به ، وعاد بسيفه ولامة حربه الى الإمام (ع) فاخذ الإمام بقلب السيف ويقول :

" سيف طالما كشف به الكرب عن وجه رسول الله (ص) " .

فقال ابن جرموز ، الجائزة يا امير المؤمنين ، فقال : اني سمعت رسول الله (ص) يقول : " بشر قاتل ابن صفيه (الزبير) بالنار " .

(٦٧) المصدر : (ص ٥٤) .

(٦٨) المصدر : (ص ٣٨) .

ثم خرج ابن جرموز على عليّ مع أهل النهروان فقتله معهم فيمن قتل .
ومن خلال اسطر التاريخ نكتشف ان الزبير وطلحة وعائشة كانوا جميعاً ، مترددين في مسيرهم ، وكم قرر الولحد منهم العودة . إلا أن هناك يداً خفية كانت تثبط عزيمتهم وتعيدهم إلى قلب الفتنة من جديد .
فهذا طلحة يأتي إلى البصرة فيخطب الناس ، ويدعوهم إلى خلع الإمام (ع) فيقولون له : يا ابا محمد قد كانت كتبك تاتينا بغير هذا ، فسكت ولا يجد جواباً ، ويقدم الزبير للخطاب .
وهذه عائشة تمر في مسيرها إلى البصرة بماء يسمى (الحواب) فتنبج بها كلابه . قالت : اي ماء هذا ؟ قيل هذا ماء حواب . فإذا بها تصرخ بأعلى صوتها ثم تضرب عضد بغيرها فتدخيه ثم تقول :
انا والله صاحبة كلاب الحواب طروقاً رُدوني ، رُدوني ، رُدوني ..
هكذا ظلت هنالك ومعها قومها يوماً وليلة ، فخدعها عبد الله بن الزبير ، وجاؤا لها بأربعين رجلاً وقيل بخمسين من الأعراب رشّوهم فنشهدوا ان هذا ليس بماء الحواب .
ويظهر عبد الله بن الزبير ، في الصورة مرة أخرى حينما اراد والده الاعتزال ، فانحاه ، وغرّ به .. مظه مثل محمد بن طلحة .

كما أن مروان بن الحكم ، يظهر في الصورة في بعض الأحيان وهو يحرض على الإستمرار في القتال ..
هكذا نكتشف الأصابع التي كانت وراء الشخصيات الظاهرة في حرب الجمل ، وهم تحالف بني أمية مع بعض الطامعين في السلطة ، من غيرهم ، تستروا بهم ، وقالوا لأنفسهم : لو ظفروا كان لنا معهم مثلما كان أيام الخليفة الثالث . اما إذا فشلوا ، فقد ضربنا عصفورين بحجر واحد ، فمن جهة تخلصنا من المهاجرين والأنصار الطامعين في الخلافة ، حيث يصفي بعضهم بعضاً . ومن جهة ثانية سقطت هيبتهم بين المسلمين وظهروا في أعين الناس بمظهر الباحث عن مصالح شخصية .
وهكذا نستطيع ان نفسر وقوف الحزب الأموي إلى جانب طلحة والزبير وعائشة وهم من أشد المحرضين ضد عثمان ، وضد استئثار بني أمية بالسلطة والثروة في عهده .

وكان الناس يتساءلون انهم يريدون البصرة يطالبون أهلها بدم عثمان وقاطلوا عثمان معهم . فقد روى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأخنس قال : لقي سعيد بن العاص ، مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق فقال : لين تذهبون وثاركم على أعجاز الإبل ؟ (قال ابن الأثير يعني عائشة وطلحة والزبير) . أقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لا تقتلوا أنفسكم . قالوا : بل نسير فلعلنا نقل قطة عثمان جميعاً .
ولعلهم أشاروا في نهاية حديثهم إلى ان هدفهم ضرب الناس ببعضهم للتخلص منهم جميعاً ، وهذا يفسر أيضاً ما ذكره ابن الأثير من ان مروان بن الحكم هو الذي رمى سهماً نحو طلحة فاصابه في رجله

(٦٩) المصدر : (ص ٣٩) عن ابن أبي الحديد .

(٧٠) المصدر : (ص ٢٥) .

(٧١) المصدر : (ص ٢٢) .

وقته ^{٧٢} . لقد أبلغ أمير المؤمنين (ع) حينما بين في أكثر من خطاب طبيعة هذه الحرب وإن وراها قريش التي حاربها لأجل الرسالة وهم كافرون ، ويحاربها اليوم لذات الهدف ، وهم مقتنونون .

يقول الشيخ المفيد ، لما نزل أمير المؤمنين (ع) الريغة لقي بها آخر الحاج فاجتمعوا إليه ليسمعوا من كلامه - وهو في خبائه - قال ابن عباس فاتيته فوجدته يخصف نعلأ ، فقلت له ، نحن إلى أن تصلح امرنا لحوج منا إلى ما تصلح . فلم يكلمني حتى فرغ من نعله ، ثم ضمها إلى صاحبها وقال لي ، قومها .

فقلت ، ليس لهما قيمة ، قال ، على ذاك ، قلت ، كسر درهم قال ،
" والله لهما أحب إلي من امركم هذا ، إلا أن أقيم حقاً أو ادفع باطلاً " .

قلت إن الحاج قد اجتمعوا ليسمعوا من كلامك ، فتادن لي أن اتكلم ، فإن كان حسناً كان منك ، وإن كان غير ذلك كان مني ؟ قال ، لا ، أنا اتكلم . ثم وضع يده على صدري ، وكان شثن الكفين فالمني ثم قام ، فاخذت بثوبه ، وقلت نشدك الله والرحم (وكأنه خاف أن يتكلم بما يتفر الحاج) قال ، لا تتشدني ، ثم خرج ، فاجتمعوا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ،

" أما بعد فإن الله بعث محمداً وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة ، فساق حتى بواهم محلثهم ، وبلغهم الناس إلى منجاتهم . أما والله ما زلت في ساقتها . ما غيرت ولا بدلت ولا خنت حتى قولت بحدافيرها ، مالي ولقريش ؟ . أما والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلتهم مقتونين ، وإن مسيري هذا عن عهد إلي فيه . والله لأبقرن بالباطل حتى يخرج الحق من خاصرته . ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم ، فادخلناهم في حيزنا " .

وانشد ،

أَدَمْتُ - لَعَمْرِي - شُرَيْكَ الْمُحَضِّ خَالِصاً	واكلك بالزبد المقتشرة البُحْرَا
ونحسن وهبناك العلاء ولم تكن	علياً وحطنا دونك الجرد والسُمرا ^{٧٣}

وهكذا نجد قريشاً - التي لاتزال للاحلام السلطة على العرب تراودها - تتظاهر بالدين ، وتقود حرباً ضده وقد استعادت قواها المنهارة ، مستغلة ضعف الخليفة الثالث ، وغررت ببعض اصحاب الرسالة ، وطمعتها في الخلافة وذلك لعدم وضوح الرؤية عندهم . فهذا طلحة الذي كان يطمع في الخلافة بعد الخليفة الثاني فيؤلب اهل البصرة ضد الخليفة الثالث ، ويحرضهم على قتله ، يأتي بنفسه إلى البصرة وينادي مناديه ، من كان فيهم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاء بهم فقطوا ولم ينج منهم إلا قليل ^{٧٤} بالأمس كان يقودهم ، واليوم ينقلب عليهم ويقتلهم . اوليس هذا غريباً ؟ بلى ، ولكن طلحة كان بالأمس قائداً ، واصبح اليوم رقماً في حسابات بني امية ، واضحى يصفى حزيه بنفسه . ولم يكن يشك أمير

(٧٢) المصدر : (ص ٤٢) .

(٧٣) المصدر : (ص ٢٤) .

(٧٤) المصدر : (ص ٣١) .

المومنين في وجوب قتالهم لانه كان يعرف طبيعتهم واهدافهم الخبيثة ولأن رسول الله (ص) كان قد أخبره بمسيره إليهم ، وأنه سوف يقتل الناكثين .. نعم ، إنه لاقى صعوبة حقيقية في توعية الناس ، ولولا اهل البصائر من المهاجرين والأنصار الذين نهضوا معه ضد الفتن الناكثة ، وأزروه ونصروه بذات القوة التي أزروا بها رسول الله (ص) لكانت قريش بمكاندها وقوتها وعصبياتها تشكل خطراً حقيقياً ضد بقاء الإسلام .

ولقد استنهض الإمام (ع) جيش الكوفة الذين فتحوا بلاد فارس ، ثم استقروا هناك يحمون ثغور الإسلام ويبعثون بالسرايا لفتح المزيد من البلاد ، وإنما اختارهم لحلمه بوجود اهل البصائر من اصحاب النبي (ص) والفقهاء والقرّاء بينهم . ولقد قال لهم حين التقى بهم في منطقة ذي قار ، " يا اهل الكوفة ، إنكم من اكرم المسلمين وأقصدكم تقويماً ، وأعدلهم سنةً وأفضلهم سهماً في الإسلام ، واجودهم في العرب مركباً ونصاباً ، أنتم لشد العرب ودأ للنبي (ص) واهل بيته ، وإنما جنتكم ثقة - بعد الله - بكم للذي بذلتم من انفسكم عند نقض طلحة والزبير ، وخلعهما طاعتي وإقبالهما بمعانضة للفتنة " ٧٥ .

ولقد استمرت عرب الكوفة ، في ولائها لال البيت ومحاربتها للخط الأموي حتى ازال الله دولة بني أمية في عهد العباسيين .

وحينما عبأ الإمام (ع) جيشه ، سار بهم إلى البصرة حتى وردها ، وألقى خطاباً هاماً بين فيه مشروعية قتاله للناكثين ، كما أوضح استراتيجية حربه هذه ، فقال فيما قال ،

" عباد الله ! انهدوا إلى هؤلاء القوم ، منشرحة صدوركم بقتالهم ، فإنهم نكثوا بيعتي ، واخرجوا ابن حنيفة " عاملي ، بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السبابة ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي ، وقتلوا رجالاً صالحين ، ثم تتبّعوا منهم من يحبني يأخذونهم في كل حائط ، وتحت كل رابية ، ثم يأتون بهم يضرّبون رقابهم صبراً . مالهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! انهدوا إليهم وكونوا لشدهاء عليهم والقوهم صابرين محتسبين ، تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم وقد وطنتم انفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران .

وأي أمرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من إخوانه فشلاً ، فلينب عن أخيه الذي فضل عليه ، كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله " ٧٦ .

وكان الإمام (ع) يرفض معاملة الناكثين كما لو كانوا كفاراً ، بل منع أصحابه من المبادرة بالقتال ، ولم يلدن لهم به إلا بعد أن رمى أصحاب الجمل عسكره بالنبل رمياً شديداً متتابعاً ، فضج إليه أصحابه وقالوا ، عقرت سهامهم يا أمير المؤمنين ، فلم يلدن لهم حتى بعث إلى عسكر البصرة رجلاً يحمل مصحفاً ويدعوهم إلى التحاكم إليه فقطوه فاصدر امره بقتالهم .

(٧٥) المصدر : (ص ٣٥) .

(٧٦) المصدر : (ص ٣٧) .

وظل القتال ثلاثة أيام وأبدى أصحاب النبي (ص) من المهاجرين والأنصار البطولات التي اشتهروا بها ليام رسول الله (ص) ، وقد اجتمعوا في كتيبة واحدة سميت بالكتيبة الخضراء ، يقودهم سيدهم وأميرهم الإمام علي (ع) وقد هجمت في اليوم الأخير على الجمل الذي كان يعتبر راية الناكثين ، فعقروه . فلما سقط انهزم جميعهم ، وانتهت المعركة بانتصار الإمام (ع) الذي نادى مناديه ، ألا تتبعوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور ، ولا ترزأوا سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً . ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن .

ثم مشى الإمام (ع) إلى عائشة وهي الباقية من قيادات المعارضة فاستقبلته صفية بنت الحارث وقد تكلمت بأبدها فقالت له ،

يا علي ! يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، ليتم الله منك بنيك كما ليتمت ولد عبد الله منه . فمشى عندها ولم يرد عليها . ثم دخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها ، فأخذت تعتذر إليه وتقول ، إني لم أفعل . فلما خرج الإمام أعادت صفية قولها المنكر للإمام فكف عنها ولكنه قال ، وهو يشير إلى بعض غرف الدار ، أما لَهَمْتُ أن افتح هذا الباب وأقتل مَنْ فيه . ثم هذا فأقتل مَنْ فيه ، ثم هذا فأقتل مَنْ فيه . وكان أناس من مجرمي الحرب قد لجأوا إلى عائشة ، منهم مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ، فتغافل الإمام (ع) عنهم . فقال رجل من الأزد وهو يشير إلى صفية ، والله لاتغلبنا هذه المرأة فغضب الإمام ، وقال ،

" صه ، لا تهتك سترأ ، ولا تدخلن داراً ، ولا تهيجن امرأة ياذي وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أماركم وصلحاكم ، فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن ، وإنهن لُمُشركات " ^{٧٧} .

وهكذا ادب الإمام أصحابه كيف يتعاملون مع أعدائهم بالرفق ، بالرغم من أن انهراً من الدم قد جرت بهذهم . ثم مضى الإمام إلى بيت المال وقسم ما فيه على الجند بالسوية ، فأعطى كل واحد خمسمائة ، وأخذ أيضاً خمسمائة ، وجهر عائشة بما تحتاج من مركب وزاد ، وأرسلها إلى المدينة واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأرسل معها أخاها محمداً ، وكان من أقرب أصحاب الإمام إليه . واستخلف على البصرة ابن عباس وكتب إليه عهداً قال فيه .. فارغب راغبهم بالعدل عليه والانصاف له والاحسان إليه ، وحل عقدة الخوف عن قلوبهم .

وكتب إلى أمراء الجيش وهو يحدد معالم حكمه ،

" لكم عندي ألا أحتجز دونكم سرراً إلا في حرب ، ولا أطوي عنكم أمراً إلا في حكم ، ولا أؤخر حقاً لكم عن محله ، ولا أرتاكم شيئاً وإن تكونوا عندي في الحق سواء " .

وعاد ادراجه إلى الكوفة ورايات النصر ترفرف عليه ، وأبى أن يدخل قصر الإمارة بل اختار بيت جعدة بن

لبي هبيرة المخزومي ، وكان ابن اخته لم هاني ، وقال عن قصر الإمارة ، إنه قصر خبال لا تنزلونيه .

صفيين : المنعطف الخطير :

وكانت لاتزال امام الإمام عقبة كداء لابد من تجاوزها حتى يقيم العدالة ويجري احكام الله ، فهذا معاوية ابن ابي سفيان قائد الردة الجاهلية يعبئ اليه كل الحاقدين على الإسلام ، والموتورين وبقايا العهد البائد ، ويجمع إليهم الطامعين والأثرياء المترفين . وقد اركز نفسه في الشام منذ ان ولاه عليها الخليفة الثاني بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، قائد جيوش الشام . وقد حاول الخليفة الثاني جلب رضا بني أمية — القوة السياسية والعسكرية الأكثر تماسكاً والأبعد عن الدين — وقد زعم الحزب الأموي ان الشام قد أضحت إقطاع خالصة لهم وإلى الأبد ، فركز قواه العسكرية هناك ولم يتصور أن حاكماً في البلاد يجرؤ على مطالبتهم بها ، مادام الخليفة الثاني الأقوى بين الخلفاء غرض طرفيه عما يجري في الشام من تدعيم وجود الحزب المنافس للإسلام ، وكان يستتني الشام من قوانينه المشددة ، كقانون من أين لك هذا الذي اخترعه لمقاومة الترف الذي هبط إليه الحكام الجدد ، حتى أبو هريرة الراوية المعروف ، لم ينج من هذا القانون الصارم ، ففقد الكثير مما جمعه في البحرين تبعاً له ، بينما معاوية وحزبه الأموي ، الذي كان يرسى قواعد ملكه العضوض في الشام ، ويجمع الثروات الطائلة ، ويغدق الهبات السخية على المنتفعين ، كان يُستتني منهم . وحينما قيل له في ذلك برر سكوته عنه بأنه يمثل عز الإسلام ، ولا تظن انه كان قادراً على ضبط معاوية دون ان يدفع ثمناً باهضاً . وفعلأ قد دفع حياته ثمناً لبعض الضغط على الحزب الأموي في العاصمة وليس في الشام .

هكذا زعم معاوية ان بإمكانه ان يبقى حاكماً على الشام في عهد الإمام (ع) وما راعه إلا حكم علي (ع)

بفصله وتولية غيره !!

وكان الإمام (ع) اعلم من غيره بواقع معاوية ، وان مسيره إليه لايعني النصر عليه بالتأكيد ، إذ ان جيش معاوية المتماسك ذي الولاء الجاهلي ، يختلف عن جيشه الذي تتضارب أهواؤهم ولم يخلص ولاؤهم ، بالرغم من وجود قلة مؤمنة فيهم .

وقد صرح بذلك في أكثر من مناسبة فقال لجيشه مرة ،

" يا ليت معاوية يبادلني جيشه صرّف الدينار بالدرهم ، يعطي واحداً ويأخذ عشرة " .

وقبل المسير إلى الشام قال احد قادة جيش الإمام للثاني وهو يسئلهما ، ان يومنا ويومهم ليوم عصيب لا يصبر عليه إلا كل مشيع القلب ، صادق النية . رابط الجاش . واضاف القائل وهو زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بديل قال ، وايم الله ما اظن ذلك اليوم يبقيني منا ومنهم إلا الأردال . فقال له صاحبه ، وأنا والله اظن ذلك . فنظر إليهما الإمام (ع) ولكنه يؤيدهما ، ولكنه يطالبهما بمراعاة ظروف الحرب ، وقال ،

" ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع . ان الله كتب القتل على قوم

والموت على آخرين ، وكل آتية منيته كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين في سبيل الله . والمقتولين في طاعته " ٧٨ .

هكذا كان يجري الحوار بين قيادات الجيش وهكذا كان الإمام (ع) يحدد الهدف من القتال وهو ابتغاء رضوان الله . ومقاومة المفسدين مهما كانت العواقب .

معاوية يعترف ويعاند :

ومعاوية - بدوره - كان يعترف بفضائل الإمام (ع) وأنه الأفضل بعد رسول الله (ص) إلا أنه كان يتمسك بقميص عثمان ، ويرى أنه أحق الناس به . وإذا كانت حجة معاوية واهية فإن دهاؤه ومكرهه وأسباب القوة التي اجتمعت عنده كان يغنيه عن قوة الحجة . وكان يعترف بذلك مما يكشف عن طبيعة الصراع بينه وبين الإمام (ع) .

وقد حفظ التاريخ سجلاً كبيراً من اعترافات معاوية بفضل الإمام (ع) وبالذات في الرسائل الخاصة المتبادلة بينه وبين كبار الأصحاب ، ولكن الرسالة الأبلغ كانت التي بعثها إلى محمد بن أبي بكر ، وكان محمد من أشد المدافعين عن نهج الإمام علي (ع) . لقد بحث معاوية إلى محمد ابن أبي بكر كتاباً جاء فيه من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر ، سلام على أهل طاعة الله .

أما بعد ، فقد اتاني كتابك ، لرأيت فيه تضعيف ، ولأبكت فيه تعنيف . ذكرت حق ابن أبي طالب ، وقديم سوابقه وقرباته واحتجاجك بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد الله صرّف الفضل عنك وجعله لغيرك . وقد كنا - وأبوك معنا - في حياة نبيّنا نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا ، وفضله مبرزاً علينا ، فلما اختار الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) ما عنده كان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه وخالذه ، ثم قام عثمان يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما إلخ " ٧٩ .

وهكذا يعترف معاوية بفضل الإمام عليه وعلى كل أصحاب الرسول محاولاً إثارة عصبية محمد بن أبي بكر .

وفي حوار جرى بين معاوية وعمر بن العاص الذي كان من قادة العرب في الجاهلية ، وكان حليفاً تاريخياً لبني أمية ، قال له معاوية ، يا أبا عبد الله ، إنني ادعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم .

قال عمرو ، إلى من ؟

قال ، إلى جهاد علي .

فقال له عمرو ، ما أنت وعلي بعكمي^{٨٠} بعير ، مالك هُجرتُه ، ولا سابقته ، ولا صحبتَه ، ولا جهاده ،

(٧٨) المصدر : (ص ٩١) .

(٧٩) المصدر : (ص ٩٣) .

(٨٠) المكم بالكسر : العدل والعكمان : العدلان .

ولا فقهه ، ولا علمه . والله إن له — مع ذلك — حَدّاً وحدوداً ، وحظاً وحظوة وبلاء من الله حسناً .

فما تجعل لي إن شايءك على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟

قال ، حكّمك .

قال ، مصرّ طُعْمَة .

فلتكا عليه معاوية .

قال له ، إني أكره لك أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لعرض الدنيا . قال ، دعني عنك .

هكذا تم التحالف بين معاوية وبين قائد جاهلي جمع خبرة العرب في الحرب .

ويعد إجراء هذه الصفقة التي تعكس طبيعة التجمع الأموي غضب مروان — وهو أحد القيادات الأموية — وقال ، ما لي لأُشْتَرَى كما اشْتَرَى عمرو ؟ . فقال له معاوية ، إنما تُباع الرجال لك ^{٨١} .

وكان يشير معاوية بذلك إلى أن مروان جزء من الحزب الأموي وأنه إنما يسعى لإعادة أمجاد الجاهلية .

ومرة أخرى اعترف معاوية لقراء الشام ، وهم الطائفة المؤمنة فيهم ، اعترف بفضل الإمام (ع) فحين قالوا له ، علام تقاتل عليّاً وليس لك مثل صحبته ولا قرابته ولا سابقته ؟ . قال لهم ، ما أقاتل عليّاً ، وأنا ادعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته .

ولكنه تشبّث عندهم بقميص عثمان فقال لهم ، ولكن الستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ؟ قالوا ، بلى .

قال ، فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به ، ولا قتال بيننا وبينه ^{٨٢} .

ولكن الإمام (ع) أجاب عن هذا الطلب الماكر ، فقال ، في رسالته إلى معاوية نقلها المبرد في الكامل هذا نصها ،

من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى معاوية بن صخر بن حرب ،
أما بعد ،

" فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده . دعاه الهوى فأجابته ، وقاده الضلال فاتبعه . زعمت أنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين ، لوردت كما وردوا ، وأصدرت كما صدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ولا يضربهم بالعمى .

وبعد ، فما أنت وعثمان ؟ . إنما أنت رجل من بني أمية ، ويؤد عثمان أولى بذلك منك .

فإن زعمت أنك أقوى من دم أبيهم منهم ، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على

(٨١) المصدر : (ص ٧٤) .

(٨٢) المصدر : (ص ٨٤) .

المحبة " ٨٣ .

هكذا اتم الإمام (ع) الحجة على معاوية بما يلي ،
ولاً ، بان شرعية عمله مدبقة من انه إجماع المهاجرين الذين لا يجمعهم الله على الضلال .
ثانياً ، بان بني عثمان هم أولياء الدم ، وليس معاوية .
ثالثاً ، بان طريقة المطالبة بالدم ، هي التحاكم إلى السلطة الشرعية وليست التمرد عليها باسم
المطالبة بالدم .

إلا أن معاوية لم يكن يابه بهذه الحجج ، لأنه كان يسعى لإعادة امجاد بني امية الجاهلية . وقد اجتمع
إليه الموتورون الحاقدون على الإسلام ، من بقايا العهد البائد . وقد اقام لهم نظام مصانع ، وحول
السلطة الى شركة مساهمة ، بين الطلقاء والأدعياء والمترفين .
وهكذا جرى تبادل رسائل بين الإمام (ع) ومعاوية ردحاً من الزمن ، وقد قام لهل الإصلاح بمحاولات
شتى لردع معاوية عن سفك دماء المسلمين ، فلم يغفلوا . وفي آخر رسالة بعدها الإمام (ع) قبل قراره
بالمواجهة العسكرية كتب يقول (بعد حديث طويل) ،
" واني ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وحقن دماء هذه الأمة . فإن قبلتم اصبتم رشدكم ، وإن لميتم
إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة ، لن تزدادوا من الله إلا بُعداً ، والسلام " .
فكتب إليه معاوية :

ليس بيني وبين قيس عتابٌ غير طعن الكلى وضرب الرقاب^{٨٤}
وكان الجواب بمثابة إعلان حالة الحرب . فكتب الإمام (ع) إلى عماله في الأفاق يحرضهم للقتال ، كما
عباً قدرات جيش الكوفة العسكرية ، بخطب حماسية لأهبة . وقد ساهم نجلاه الإمامان الحسن والحسين
(ع) وأصحاب رسول الله ، وبالذات البدريون وأصحاب بيعة الرضوان منهم ساهموا - بما كان لديهم من
مكانة مرموقة بين المسلمين - في تعبئة الطاقات الإيمانية في الأمة .
ولقد كان مع الإمام (ع) من اصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعة عشر من المهاجرين ،
وسبعون من الأنصار . وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة (بيعة الرضوان) تسعمائة ، وكان
مجموع عدد اصحاب رسول الله ، في ركب الإمام (ع) الفين وثمانمائة رجل^{٨٥} .
وكان الإمام (ع) يعطيهم مكانتهم المناسبة لهم ، وهم - بدورهم - كانوا متفانين في الدفاع عن حق
الإمام في الخلافة ، لمعرفتهم بفضلهم ، وعلمهم بواقع بني امية ، أعدائه وإعداء الإسلام .
وهكذا نجد الإمام (ع) لا يبيت في أمر ، إلا بعد أن يستشيرهم ، ولم يعقد العزم على الحرب إلا بعد أن

(٨٣) المصدر : (ص ٧٩) .

(٨٤) المصدر : (ص ٩٠) .

(٨٥) المصدر : (ص ٨٦) نقلاً عن المسعودي .

سألهم وقال وهو يخاطبهم ،

"أما بعد ١. فإنكم ميامين الرأي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركوا الفعل والأمر . وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم ، فاشيروا علينا برأيكم" ٨٦ .

فبادروا بالتأييد ، واستشهد كل منهم بحجة بالغة في شرعية قتال بني أمية .

فقال عمار بن ياسر ، يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن لاتقيم يوماً واحداً فاشخص بنا قبل استعمار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى رشدكم وحظهم . فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلّا حربنا ، فوالله إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم ، لقربة عند الله ، وهو كرامة منه ٨٧ .

أما عدي بن حاتم ، فقد أوضح خلفية بني أمية في القتال ضد الإمام (ع) وقال ،

إن القوم لو كانوا لله يريدون ، لو لله يعملون ما خالفونا . ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة وحباً للآثرة ، وضناً بسلاطنتهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحدٍ في أنفسهم ، وعداوة يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها - يا أمير المؤمنين - بهم قديمة ، قتلت فيها أباعهم وأخوانهم .

ثم التفت إلى الناس فقال ،

كيف يبايع معاوية علياً ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة في موقف واحد ٨٨ .

لقد لخص هذا الصحابي الجليل طبيعة الموقف في كلمات . فإن الحزب الأموي يطلب الدنيا ويحاول الحفاظ على مكاسبه في السلطة ، ويريد الإنتقام من الإمام (ع) والتابعين له ، لما أنزلوا به هزائم نكراء في صدر الإسلام . وإنها بالتالي الردة الجاهلية بكل معنى الكلمة .

هكذا نجد اصحاب النبي محمد (ص) يجتهدون في الدفاع عن الخلافة الراشدة ، وقد استشهد الإمام (ع) في أكثر من مناسبة بموقف الأصحاب منه ومن بني أمية .

وفي المعركة شكل الإمام كتيبة خاصة بهم يقودها شخصياً ، سميت بالكتيبة الخضراء . وقد أبلت هذه الكتيبة في الدفاع عن الإسلام وحرماته بلاءً حسناً .

والواقع أن حضور هذه الكتيبة في معركة صفين كان دليلاً على عافية الأمة وبقظة ضميرها ، فبعد وفاة الرسول (ص) بربع قرن حفل بالأحداث السياسية العظيمة ، ولاتزال الفتن التي نصرت الرسالة وتعرضت للآلام وقدمت التضحيات ، لاتزال تخوض غمار معركة الحق ضد الباطل ، دون أن تميل مع رياح الشهوات وعواصف السياسة .

ومن المعروف أن كثيراً من هؤلاء الصحابة الكرام كان قد تقدم بهم العمر ، حتى بلغوا من الكبر عتياً ، ولكنهم لا يزالون في مقدمة المجاهدين ، وفيهم عمار بن ياسر ، الذي فقد والديه شهيدين في صدر

(٨٦) المصدر .

(٨٧) المصدر : (ص ٨٦) .

(٨٨) المصدر : (ص ٨٨) .

الإسلام ، وتعرض للضرب والإهانة منذ الأيام الأولى للبعثة ، وهو اليوم يناهز التسعين من عمره ويشد على وسطه حزاماً تنتصب قامته به ، ثم يدخل المعركة ، وهو ينادي الرواح الرواح إلى الجنة :. هكذا يصنع الإيمان بالقلوب الطاهرة والنفوس الزكية .

هكذا وقعت الواقعة :

في البلاد الإسلامية جيشان جيش الشام وجيش الكوفة ، وما هما يلتقيان لا ليحاربا عدوً مشتركاً ، وإنما ليتحاربا . فكم كانت الصدمة عنيفة في نفوس المسلمين ، وكم مشى رجال طيبون ، وكم سعى الإمام (ع) لردع معاوية عن هذا الغي والفساد العريض .

فمئذ أن التقى الجيشان بعث الإمام كبار قادته ، إلى معاوية وقال لهم : انتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى الطاعة والجماعة .

ولكنه يرفض إلا المطالبة بدم عثمان — كما يزعم — ويحاول أن يستخدم الوسائل الحربية التي كانت شائعة في الجاهلية . فلقد كتب في سهم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ، فيغرقكم فخذوا حذرکم ، ويرمي به إلى معسكر الإسلام فيقع السهم بيد رجل فينقل الخبر إلى الآخرين ، وكالعادة تنتشر الشائعة في المعسكرات سريعاً ، ويرتحل الجيش عن الشريعة ويهجم معاوية عليها . ولكن اصحاب الإمام لا يلبثون أن يرحزحوه عنها .

وعندما منع معاوية الماء — بعد سيطرته على الشريعة — عن اصحاب الإمام ، وأمر الإمام بكسر الحصار عنها ، وقال كلمته المشهورة :

" الحياة في موتكم مقهورين ، والموت في حياتكم قاهرين " .

وزحف اصحاب الإمام (ع) نحو الماء وهزموا أعدائهم ، واستولوا عليه . وزعم البعض أن الإمام سوف يقابل أعداءه بالمثل لأن الحرمات قصاص .

ولكنه رفض ذلك بقوة ، وأرسل إلى معاوية رسولاً وأخبره بأن السبيل إلى الشريعة سالك وبإمكان جيشه الورد إليها متى ما شافوا .

صور من معارك صفين :

وبدأت المعارك وكانت في صورة مناوشات على الأطراف ، وكانت القوى متكافئة في الأغلب . بيد أن دوافع الحرب كانت مختلفة ، فبينما نجد العصبية الجاهلية توقد نار الحرب عند جيش الشام ، نجد الروح الإيمانية في اصحاب علي (ع) تحثهم على الجهاد والشهادة . فهذا قائد أموي كان يعدُّ معاويةً ولَدَهُ ، واسمه عبد الرحمن بن خالد ، يبارز قيادة جيش الإمام المتمثلة في تلك المعركة بعدي بن حاتم ويرتجز قائلاً :

قل لعدي ذهب الوعيدُ لنا ابن سيف الله لا مزيدُ
وخالد يزنيه الوليدُ فما لنا ولا لهم محيدُ

عن يومنا ويومكم فعودوا

إنك تراه كيف يفتخر بنسبه حتى تعود إلى أذهاننا ذكريات الجاهلية حيث كان الشخص يفتخر بأبائه وعشيرته .

و لكن عدي بن حاتم — بالرغم من مفاخره العظيمة — يذكر في رجزه الحربي دافعه الإيمان ويقول :
ارجو الهـي واخاف ذنـبي
وليس شيءٌ مثل عفـو ربي
وقد افصح عبيد الله بن عمر ، وكان في صف معاوية عن خلفيات الحرب ، وذلك حينما التقى بالإمام الحسن المجتبى في أرض المعركة فقال :

إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخرأ ، وقد شنوه . فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر ؟
وهكذا كشف عن الأحقاد الجاهلية التي طفت بها قلوب قريش وهم قيادات ذلك الجيش .
ولكن الإمام الحسن (ع) رده بقوة وقال : كلا ، واضاف :
" لكنني انظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك . اما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك خلقاً بالخالق ، ترى نساء اهل الشام موقفك ، وسيصرعك الله ، ويبطئك لوجهك قتيلأ " .

هكذا قاتل عمار بن ياسر :

قام عمار بن ياسر فخطب في القوم يحرضهم على معاوية ويكشف حقيقة المعركة ، وخلفياتها فقال :
امضوا عباد الله ، إلى قوم يطلبون — فيما يزعمون — بدم عثمان ، والله ما اظنهم يطلبون دمه ،
ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرلوها ، وعلموا لو ان الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها . ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون لها الطاعة والولاية ، فخدعوا اتباعهم بان قالوا :
قتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون . ولولا هي ، ما بايعهم من الناس رجلا .

ثم التقى بعمر بن العاص فقال له : يا عمرو بعث دينك بمصر ؟ . تبأ لك ، وطالما بغيت الإسلام عوجأ .

ثم حمل على القوم ، وهو يرتجز بابيات تفيض إيماناً و يقيناً ، وتعكس شخصية عمار الجهادية وهو يومئذ يناهز التسعين من عمره :

صدق الله وهو للصدق اهل	وتعالى ربي وكان جليلا
رب عجل شهادة لي بقتل	في الذي قد احب قتلا جميلا
مقبلا غير مدبر ، إن للقتل	ل على كل ميتة تفضيلا
إنهم عند ربهم في جنان	يشربون الرحيق والسلسيلا
من شراب الأبرار ، خالطه المس	ك وكلسا مزاجها زنجيلا

ثم قال ، اللهم إنك تعلم اني لو اعلم ان رضاك ان اقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت . اللهم إنك تعلم اني لو اعلم ان اضع ظبة سيفي في بطني ثم احنى عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت ، ولو اعلم اليوم

عمالاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين لَفَعَلْتَهُ ٨٩ .

وبهذه الروح الإيمانية المتسامية ، حارب الصفوة من أصحاب الرسول (ص) معاوية والمنافقين معه .
لقد كانت الشهادة غاية مناهم ، وكانوا على يقين أنهم على حق . وإن عدوهم طالب ملك وبأغي دنيا ..
وهكذا تقدم عمار بين الصفيين ونادى ، أيها الناس ، الرواح إلى الجنة ، فلما بصراية عمرو بن
الخاص ، قال ، والله إن هذه الراية قد قاطتها ثلاث مرات ، وما هذه بأرشدهم . ثم قال ،

نحن ضريناكم على تنزيله فاليوم نضريكم على تأويله

ثم استسقى - وقد اشتد ظمأه - فالتته امرأة بضياح من اللبن ، فقال حين شرب الأجنة تحت الأسنة ،

اليوم القسى الأحببة محمداً وحزبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وهم على باطل ٩٠ .

هكذا تقدم الشيخ العظيم الذي التحق بمسيرة الرسالة منذ شبابه ، ولم يتخلف عن لية مهمة أوكلت
إليه ، ودفعه النبي (ص) إلى مستوى الصديقين ، ولم تأخذه في الله لومة لائم . تقدم إلى الشهادة
ببصيرة نافذة ، وخطى ثابتة ، وهو يحمل معه صحيفته المضيئة ، ذات التسعين صفحة مشرقة ، فلما
توسط المعركة حمل عليه اثنان من المجرمين (أبو العادية الفزاري ، وابن جون) فقتلاه ، فالزم الله
بقلته الحجة على أهل الشام ، إذ قال الرسول الأكرم (ص) يوماً ،
" آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن ، وتقتلك الغنة الباغية " .

فلما انتشر خبر مقتله في معسكر أهل الشام ، وكاد يؤثر على معنوياتهم ، قال معاوية إن علياً هو الذي
قطه ، لأنه هو الذي أخرجه لقتالنا . ولقد كان معاوية قد استخف قومه فاطاعوه ، وهكذا كان يتعامل مع
سائر النصوص الدينية .

الدفاع بكل وسيلة :

لقد كانت معارك صفين غريبة ، فمعاوية كان قد أعد جيشه إعداداً جيداً ، وكانت إلى جانبه القيادات
العربية العريقة ، والقبائل التي دخلت الإسلام بعد الفتح حاملة معها رواسيها وتقاليدها وطاعتها
لشيوخها . وقد استفاد من خبرة الروم بحكم احتكاكه بحضارتهم في الشام ، وجّه جنوده بأفضل
الأسلحة ، ومناههم بالأموال التي تكسبت عند الحزب الأموي ، منذ أيام الجاهلية وتضاعفت على عهد
عثمان .

وفي الجانب الآخر كانت التعبئة الروحية عند أنصار الإمام (ع) في القمة ، فها هم أصحاب رسول الله
(ص) وعددهم ألف وسبعمائة ، بينهم كبار المهاجرين وبقية البدرين ، والمشتريين في بيعة الرضوان ،
يتبعهم جيش من قراء القرآن والعباد وأصحاب البرانس ، وما نمت وتبارك من الجيل القراني ، ومن ورائهم

(٨٩) المصدر : (ص ١٥٣) .

(٩٠) المصدر : (ص ١٥٧) .

القبائل العربية التي اتبعت هذا الخط بدافع لو بأخر .
وحين التقى الفريقان ، كانت الكفة متعادلة تقريباً ، ولذلك قلما كانت المعارك حاسمة ، وانقل إليكم
صورة معبرة واحدة من هذا التعادل :

يقول زياد بن نصر الذي كان في مقدمة جيش الإمام (ع) :
شهدت مع علي بصفين ، فاقتطنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ، حتى تكسرت الرماح ، ونفدت السهام ، ثم
صارنا إلى المسابقة ، فاجتدنا بها إلى نصف الليل ، حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث
يعانق بعضنا بعضاً . وقد قاتلت يومئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلا قاتلت به ، حتى
تحاثينا بالتراب وتكادنا ، حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض ما يستطيع واحد من الفريقين أن
يدهض إلى صاحبه ولا يقاتل .

فلما كان نصف الليل ، من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف ، وغلب علي على القتلى ،
واقبل على أصحاب محمد وأصحابه فدفنهم ، وقد قتل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر .^{٩١}

الإمام (ع) يقود المعارك :

في صفين تجلّى علي بشجاعته وبطولاته وصدق موافقه ، لقد ذُرف الآن على السنين ، ولقد تواردت
عليه مصائب لو نزل بعضها على الجبال لانهدت ، ولكنه سيد المتقين الذي يتعالى على قمم الجبال .
موافقه في صفين تعكس جانباً من تلك الروح العظيمة ، وذلك الإيمان الصادق .
لقد أرسل الإمام (ع) إلى معاوية أن يُرْزِ إليّ وأعفُ الفريقين من القتال ، فلما قتل صاحبه كان الأمر
له .

فانظروا إلى هذه البطولة .. إنه يستعد لافتداء المسلمين بنفسه . ولكن معاوية قال في الجواب بالحرف
الواحد : إني أكره أن أبارز الأهوج الشجاع ، ثم نظر إلى عمرو بن العاص الذي شجعه على قبول تحدي
الإمام (ع) قائلاً : لقد انصفك الرجل ، نظر إليه وقال : لعلك طمعت فيها يا عمرو !
أما عمرو بن العاص الذي كان يعتبر من دهاة العرب ، ومن القيادات العربية العريقة في الجاهلية ،
فقد أراد أن يأخذ الإمام (ع) على غرة ، فحمل عليه الإمام ، فلما كاد يخالعه رمى بنفسه عن فرسه ورفع
ثوبه وشغل برجله فبدت عورته ، فصرف علي (ع) وجهه عنه ، وقام معفراً بالتراب هارباً على رجليه
معتصماً بصفوفه فقال القوم : أفلت الرجل يا أمير المؤمنين .. قال : وهل تدرون من هو ؟ قالوا : لا ،
قال : إنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه .^{٩٢}

وفي موقعة أخرى برز عروة بن داود الدمشقي إلى الإمام (ع) فضربه ضربة علوية فقتله نصفين وقع
نصفه يميناً ونصفه يسرة ، فارتج العسكر ، وخاطبه الإمام (ع) بعد مقتله قائلاً :

(٩١) المصدر : (ص ١٥٩) .

(٩٢) المصدر : (ص ١٦٨) .

" يا عروة اذهب فاخبر قومك . أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار واصبحت من النادمين " ٩٣ .

فبرز إليه ابن عمه فالحقه الإمام (ع) بصاحبه . ومعاوية واقف على تل يبصر ويشاهد فقال : تباً لهذه الرجال وقبحاً . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة لو غيلة لو في اختلاط الغيلق وثوران النقع .

فقال الوليد بن عتبة : ابرز إليه انت ، فإنك أولى الناس بمبارزته . فقال : والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش . والله إني لا ابرز إليه ٩٤ .

وذات مرة قال معاوية لجلسائه وهو يذكر نكوله عن مبارزة علي وكشف صاحبه عمرو عن سواته للفرار عنه :

" إن الجبن والفرار من علي لا عار على احد فيهما " ٩٥ .

هكذا تجلى الإمام ببطلانيته - التي صنعها في حروب الإسلام الأولى ضد قريش وبني أمية بالذات - تجلى في الوقت الذي كان اميراً للمؤمنين ، والقائد العام للجيش الإسلامي ..

ولنا لو اطلعنا على ساحة المعركة في صفين ، وراينا اصحاب محمد (ص) يلتفون حول قائدهم الإمام علي (ع) ، وقد تراوحت اعمارهم بين الخمسين والتسعين عاماً ، وهم الرواد الأوائل ، وطلّاع الرسالة ، وحملّة راية التوحيد في الأرض ، وهم قادة الأمة بلا منازع ، لاستبدّ بنا العجب . سبحان الله ، ما أروع هذا المشهد ! ما الذي جعل هؤلاء الشيوخ يشكلون كتيبة خاصة بهم باسم الكتيبة الخضراء ؟ وما الذي جعلهم يرخصون انفسهم ؟ وما الذي اخرجهم إلى الحرب وهم كرام سواء خاضوا حرباً لم استقروا في بيوتهم ؟!

إنه الإسلام ، وهم الجيل القرآني ، والقرآن يصوغ شخصية الإنسان بحيث تتحدى حاجز السنين ، وتتعالى على الماديات . لقد احس القوم بالردة الجاهلية التي يقودها بنو أمية ، فلم يالوا جهداً في مقاومتها ، واقرؤا عين حبيبهم ومربيهم وقائدهم ، النبي محمد (ص) بفعلهم .

ما فاتته بالشجاعة أخذه بالمكر :

كانت التعبئة الروحية ، اعظم قوة اعتمد عليها جيش الرسالة ، وبالرغم من انها صنعت بطولات نادرة ، إلا أن حجمها كان دون مستوى النصر النهائي . فلما استمرت الحرب طويلاً بدأ المتخاذلون يتنامون في صفوف الجيش الرسالي . أما معاوية الذي لم يتورع عن التوسل بلية طريقة مهينة لنيل النصر ، فقد عرف كيف يستفيد من الصعوبات التي ازدادت في صفوف جيش الإمام . لم تكن اكثرية الجيش عند الإمام في مستوى فهم الصراع الرسالي - الجاهلي . وان الذي يطلع على تاريخ صفين يتمزق المأ ، كيف

(٩٣) المصدر : (ص ١٧٠) .

(٩٤) المصدر .

(٩٥) المصدر : (ص ١٧٣) .

كانت حيل معاوية تنطلي عليهم ، وكيف كان الإمام يستخدم براعته وبلاغته ، وقوة شخصيته ، وحضوره الدائم عند كل حادثة ، بل وجولاته الحربية المباشرة ، لكي يُفشل خطط معاوية الماكرة ..
لقد سألته - ذات مرة - بعض اصحابه كيف لم تنتصر حتى الآن على معاوية ؟ . فأمره ان يندو منه ثم
نجاهه ،

" ان قوم معاوية يطيعونه ، ولا يطيعني قومي " .

وكم كان يؤلم ذلك القلب الكريم الذي غمره حب الرسالة ، جهل المسلمين بها ، وتفرقهم عن الحق .
وكان معاوية يعرف ذلك ولا يكف عن محاولاته للتأثير على معنويات جيش الإمام ، وبث الفرقة فيهم .
وحتى لو فشلت سائر حيله فإن نجاح واحدة منها كفيلة بإنقاذه من ورطته وإعطائه فرصة العودة إلى
مؤامراته الخبيثة !

وهكذا خطط هذه المرة بطلب الصلح ، والتحاكم إلى القرآن الكريم .

في بداية الحرب ندب الإمام (ع) واحداً من فتيان الأنصار ليحمل القرآن إلى معسكر معاوية ، ويطالبهم
بالتحاكم إليه ، وقد بشره بالشهادة في هذا السبيل ، وضمن له الجنة ، فأسرع الفتى إلى القوم ، وهو
يحمل كتاب الله على يديه ، ويطالبهم بالنزول على حكمه ولكنهم أمطروه بوابل من السهام فسقط
شهيداً ، وسقط إلى جنبه كتاب الله العزيز .

ولكن معاوية يجد نفسه مهزوماً لا محالة ، وقد بدأ جيشه يولي الدبر امام صولات جيش الإمام وبالذات
أمام هجمات القائد المغوار مالك الأشتر ، الذي أخذ يزيد من ضغطه على جيش الشام .
واستشار معاوية عمراً (ذلك الداهية المعروف) فأنشأ عليه بجمل المصاحف ، فإذا بهم يحملون على
رماحهم ما يشبه المصاحف ويطالبون بحكم القرآن .

ولعل جواسيس معاوية في جيش الإمام كانوا وزعوا الأمانى على اصحاب القلوب المريضة فوعدوا
قيادات الجيش الكوفي ، الذين عصروهم الإمام بعدالته ومساواته عصراً ، المزيد من الأموال والمناصب .
فإذا بالحيلة تنطلي على الغوغاء ، ولا تقف دونها القيادات العميلة ، ولم تنفع شيئاً محاولات الإمام (ع)
والقيادات الرسالية الراشدة في توعية الغوغاء لو ردع العملاء .

فلنستمع إلى التاريخ وهو يروي قصة المؤامرة الكبرى ، لعلنا ننتفع بها عبرة لما يشبهها اليوم .
روى نصر بن مزاحم ان علياً (ع) غلس بالناس في صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول سنة (٣٧)
- وقيل عاشر صفر - ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر القرآن ، والناس على راياتهم ، وزحف إليهم أهل
الشام ، وقد كانت الحرب اكلت الفريقين ، ولكنها في أهل الشام اشد نكابة واعظم وقعاً .

ثم تمضي الرواية تنقل كيف التقى الجمعان في واقعة عظيمة كادت تُفني الطرفين ، مما سمي ليلة
الهرير ، حيث استمر القتال من صلاة الغداة إلى نصف الليل ، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجدوا لله
فيهن سجدة ، ولم يصلوا لله صلاة إلا التكبير ، ثم استمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى ،

وافترقوا على سبعين ألف قتيل ، في ذلك اليوم وتلك الليلة ^{٩٦} .

والإمام علي (ع) في القلب ، بينما ابن عباس في الميسرة ، والأشتر في الميمنة .

والإمام يحرض القوم ، ويدعو الرب ، ويجالد بالسيف حتى يقول الراوي ،

لا والله الذي بعث محمداً بالحق نبياً ، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض ،
أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب (أي الإمام عليه السلام) يخرج بسيفه منحنيًا فيقول ، معذرة إلى الله
والبيكم من هذا ، لقد أن أفلقه ، ولكن حجزني عنه اني سمعت رسول الله (ص) يقول كثيراً ،

لا سيف إلا ذو الفقار ، ر ، ولا فتى إلا علي
وأنا اقاتل به دونه (ص) .

قال (الراوي) فكاننا نأخذة فنقومه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف ، فلا والله ما
ليث بلشد نكابة منه في عدوه .

وخطب الإمام في الناس وقال ،

" ليها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رايتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس . وإن الأمور إذا أقبلت
اعتبر آخرها بولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا . وأنا عار عليهم بالغداة ،
أحاكمهم إلى الله عز وجل " ^{٩٧} .

فبلغ ذلك معاوية فاستشار عمرو بن العاص ، فقال له فيما قال ، ألق إليهم أمراً إن قبلوه اخطفوا ، وإن
ردوه اختلفوا . ادعهم إلى كتاب الله .

فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح .

وبالرغم من أن القيادات الرسالية قد حذروا من مكر معاوية ، وقال عدي بن حاتم للإمام ، (وقدجزع
القوم ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب فناجز القوم) ، وهكذا قال مالك الأشتر وعمرو بن الحمق وآخرون .

إلا أن كثرة الناس كانوا قد ملوا الحرب فقالوا ، اكلتنا الحرب وقطنت الرجال ، فقال الإمام (ع) ،

" إنه لم يزل أمرني معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم الحرب وتركت ،
ولأخذت من عدوكم فلم تترك . وإنها فيهم أنكى وإنهك ، إلا أني كنت بالأمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم
ملموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً ، وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملك على ما تكرهون " ^{٩٨} .

وبعد أن رضينا بالتحاكم ، وتقرر أن يختار كل فريق شخصاً يتفاوضان في شؤون الخلافة ، واختار
معاوية عمرو بن العاص . ذلك الدامية المعروف والطامع في ولاية مصر بعدد وقع الاختلاف - مرة
أخرى - في أصحاب الإمام . فبينما اختار لهم الإمام عبد الله بن العباس ، وقال ،

(٩٦) المصدر : (ص ١٩٢ - ١٩٣) .

(٩٧) المصدر : (ص ١٩٤) .

(٩٨) المصدر : (ص ١٩٥) .

"إن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة إلا عقدها " .
 فقال الأشعث ، لا والله لا يحكم فينا مضرين حتى تقوم الساعة .
 فاختار لهم مالك الأشتر ، فرفضوا ، وقالوا له سحر الأرض علينا ، غير الأشتر .
 فاصروا على اختيار أبي موسى الأشعري ، والذي اعتزل الإمام وخذل الناس عنه .
 وفي الواقع إن أصحاب الإمام (ع) كانوا طوائف شتى ، المخلصون ، والمعنفون ، والمتطرفون ، الذين
 اشتركوا في القيام ضد عثمان ، وكانوا يظنون أنهم لحق بالامر من علي وأصحابه ١١ وهم الذين انتهى بهم
 المطاف إلى التمرد على الإمام وسُموا بالخوارج .

قصة الخوارج :

بعد أن كتب الطرفان وثيقة الصلح ، ووقع عليها كل من الإمام ومعاوية ، دار بها أبو موسى الأشعري
 على عسكر الإمام ، فلما مرّ بربايات بني راسب قالوا : لا نرضى ، لا حكم إلا لله ، فلما أخبر الإمام قال له ،
 هل هي غير راية لو رايتين ونبد من الناس ؟ قال ، لا .
 صحيح أن أهل الكوفة كانوا قد تعبوا من الحرب ، إلا أن لوارها كان لا يزال يتقد في أفئدة الكثيرين . فلما
 بادر المتطرفون بإعلان التمرد ، انتشرت دعوتهم كالنار في الهشيم . فما راع الإمام إلا نداء الناس من كل
 جانب ، لا حكم إلا لله ، لا الحكم إلا لله ، لا الحكم إلا لله ، يا علي لا حكم لك ، لا نرضى بلن يحكم
 الرجال في دين الله ، إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه إن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم .
 وكما نصحهم الإمام وذكرهم بأن العهد لا ينقض وقد جعلوا الله عليه وكيلاً ، أبوا إلا الحرب وقالوا للإمام
 بالحرف الواحد : تب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

وعزز موقف الخوارج نتائج الحكمين حيث غرّر عمرو بن العاص بصاحبه أبي موسى الأشعري ، فاتفق
 معه على أن يخلعا كلا من الإمام ومعاوية ، وقدم عمرو صاحبه فلما فعل أبو موسى قام عمرو وقال : إن
 هذا خلع صاحبه ، وأنا خلعت صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية . وهكذا دعمت عاقبة التحكيم جانب
 المتطرفين فاجتمعوا في منطقة " الحروراء " وبعث إليهم الإمام ابن عباس فنناقشهم بالقرآن فلم يستجيبوا
 له ، فذهب إليهم بنفسه وسأل عن الرجل المقدم فيهم فقبل : يزيد بن قيس الأرحبي ، فذهب إلى خبائه
 وصلى ركعتين ، ثم قام وقال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة .
 ثم التفت إلى الناس وقال :

أنشدكم الله ، أعلمتم أحداً كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا ، اللهم لا ، قال ، اتعلمون بأنهم
 أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا ، اللهم نعم .

قال ، فعلام خالفتموني ونابذتموني ؟ قالوا ، إنا اتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله مده
 واستغفره نعد إليك .

فقال الإمام (ع) : إني استغفر الله من كل ذنب ، فاستجابوا إليه ورجعوا معه إلى الكوفة ، وكانوا أكثر

من ستة آلاف مقاتل .

ولكن يبدو أنهم - عند عودتهم إلى الكوفة - التقوا بالمدافعين عن التحكيم ، وهم أكثرية الجند ممن اتبع الأشعث ، فلما رآهم هذا الأخير الذي كانت مواقفه الخيانية مشهودة في كل مكان ، وهو الذي أكره الإمام على التحكيم أول مرة - فخرج القوم إلى منطقة تسمى بالنهروان فمر بهم مسلم ونصراني ، فقتلوا المسلم بعد أن عرفوا رأيه حول الإمام ، وتركوا الثاني قاتلين لأبد أن نحفظ ذمة نبيّنا ، وكان الإسلام لم يحقن دماء المسلمين !

والواقع ، أن تنامي التطرف وانحسار الوعي ، وتهافت أسس التفكير عند القوم ، كان السبب في جرائمهم ، كما كان سبب انقراضهم ..

لقد كان عبد الله بن خباب من أصحاب رسول الله (ص) وكذلك والده خباب بن الارت كان من أعظم أصحاب الرسول ، فمرّ بهم عبد الله وفي عنقه قرآن ، ومعه زوجته الحامل ، وكانت في شهرها الأخير ، فاخذوه وقالوا له ، إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك ، فقال لهم أحيوا ما أحياه القرآن ، وأميتوا ما أماته . وفيما هم يحاورونه كانت تسقط ثمرة من نخلة فيتناولها أحدهم ، فيصيحون به حتى يلفظها . ويمر بهم خنزير فيقتله أحدهم ، فينهرونه ويقولون هذا فساد في الأرض .

وعادوا إلى عبد الله بن خباب وقالوا له ، ما تقول في أبي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم ، وعثمان في الست السنين الأخيرة من خلافته ؟ فاندى عليهم خيرا ، فقالوا ، ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ؟ فقال ، إن عليا أعلم بالله ، واشد توقيا على دينه ، وانفذ بصيرة .

فقالوا ، إنك لا تتبع الهدى ، بل تتبع الهوى ، والرجال على أسمائهم ، ثم جرّوه إلى شاطئ النهر وذبّحوه وجازوا زوجته فبقروا بطنها ، وذبّحوها مع ولدها إلى جانبه ^{٩٩} .

وهكذا عاث الخوارج فسادا في الأرض وكادت روح القتال المتمردة على القيم تنتشر فيهم وهم أبناء الجزيرة العربية التي لا تزال أرضها تنفلي بالدم والثار والعصبية الدفينة .

ولولا أن الإمام (ع) بادر وسار إليهم لكان يخشى أن تشمل الفتنة كل أطراف بلاده .. فقد قصدهم للتو ، ولما بلغ مكانا قريبا أرسل إليهم من يأمرهم بدفع قطة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وزوجته وسائر من قتل من المسلمين على أيديهم . فقالوا له ، كلنا قطة عبد الله . وأضافوا ، ولو قدرنا على علي بن أبي طالب ومن معه لقتلناهم .

فمشى إليهم الإمام بنفسه ، وقال ،

"أيها العصابة ، إنني تنذير لكم أن تصبحوا لعنة هذه الأمة غداً وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنة " .

(٩٩) سيرة الأئمة الأئمة عشر : (ص ٤٩٠) .

وحاجّهم - مرة أخرى - ونصحهم بأن ينظّموا إليه لقتال معاوية ، وهو هدفهم المعلن ، فقالوا ، كلا لا بد أن تعترف أولاً بالكفر ، ثم تتوب إلى الله كما تبنا حتى نطيع لك ، ولأفدّحن منابذك على سواء . فقال لهم ، " ويحكم ، بم استحللتم قتالنا والخروج عن جماعتنا " . فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب ، الرواح إلى الجنة ، وشهروا السلاح على أصحابه واخذوهم بالجراح ، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهم ، وشد عليهم أمير المؤمنين وأصحابه ، فما هي إلا ساعات قلّانل حتى صرعوا^{١٠٠} .

وفتش الإمام بين قتلاهم عن شخص اسمه مخرج وكان معروفاً بذي الدنية ، فلما وجدته بعد بحث كثير ، كبر وكبر أصحابه لأن النبي (ص) كان قد أخبر عن هذه الفئة المارقة ، وأنبا عن علامتهم بوجود هذا الشخص بينهم .

فالرواية تقول ، لما عاد الرسول (ص) من حنين ، وبدا تقسيم الغنائم قام إليه رجل من بني تميم ، يقال له الخويعة فقال له ، إعدل يا محمد ! فقال (ص) ، لقد عدلت . وأعاد إليه التميمي قوله ثانية فقال (ص) له ، ويلك ، إن لم أعدل لنا فمن يعدل ؟ وفي الثالثة رد عليه النبي (ص) بقوله ،

" سيخرج من ضضيء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحرقون صلاتكم في جنب صلاتهم ، يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم بيدهم رجل أسود مخرج اليدين إحدى يديه كأنها ندي امرأة ، وفي رواية عائشة ، يقتله خير امتي من بعدي^{١٠١} " .

لقد أشار النبي (ص) بكلمته الرشيدة تلك إلى وجود طوائف قشرية جاهلة في الأمة ، وأنها ستظهر عدد أول فرصة تسنح لهم ، وذلك حين تقع الفتنة . فهذا الرجل الذي يأمر رسول العدالة بالعدل ، ويرى نفسه لحرص على القيم من ذلك الذي اختاره الله تعالى لرسالاته لا يشبه إلا الرجل الذي يأمر علياً (ع) بالتوبة والإيمان ، وهو ابن الإيمان ، وعلى اكتافه قامت قواعده وترسخت أسسه .

ولعل حرص الإمام (ع) على التفتيش عن جثمان ذي الدنية ، حيث بحث رجالا من أصحابه ليجثوا عنه فلم يجدوه فاضطر للبحث عنه شخصياً .. أقول ، لعل ذلك ، كان لإتمام الهجة على الناس ، وليعلموا أن هؤلاء مارقون عن الدين بشهادة رسول الله (ص) ، فلا يزالون على الناس بدينهم الأجوف . ولمعرفة أن هذه الفئة المارقة الملعونة ، لم تنله بتصفية أفرادها جميعاً ، إذ أنها حالة اجتماعية مستمرة سوف تبرز بين الغينة والأخرى هذا أو هنالك ، تحت راية هذا أو ذاك ، حيث لم يخلُ عصرٌ منهم أو من أمثالهم ذوي النفئات الغليظة ، والمظاهر الدينية والتطرف للقشور . وتكفير الناس بغير حجة من الله ، ولا دليل من العقل ..

والخوارج من هنا ، وأصحاب الأشعث المتخاذلون من هناك ، شكّلوا أكبر خطر على النظام الإسلامي ،

(١٠٠) المصدر : (ص ٤٩١) .

(١٠١) المصدر : (ص ٤٩٢) .

في عهد الإمام (ع) وهم يشكّون ذات الخطر على كل رسالة إصلاحية ..
وفعلاً برزت بُدور عفنة من تابعي نهج الخوارج بعدد في اطراف دولة الإسلام ، وشغلوا جانباً من اهتمام
الإمام (ع) بما اتاح فرصة لمعاوية بتثبيت حكمه :

الأيام الأخيرة لعهد الإمام (ع) :

حين يمر شريط حياته سلام الله عليه امام أعيننا تبدو نهاياتها اشد قتاماً حتى يكاد يتفطر القلب أسى .
فهذا معاوية يقود رايات الجاهلية ضد رسالة الله . وهذا الأشعث واهل الدنيا من قيادات الجيش
الكوفي ، يميلون الى باطل معاوية ، وتستهوهم وعوده الكاذبة اكثر من نصائح الإمام (ع) .. وهؤلاء
اصحابه الكرام يلقون منايهم ويُصرعون بالحرب حيناً ، وبالغيلة أحياناً .. ولا يمر عليه يوم إلا وتتوارد عليه
انباء مؤسفة ..

فالمتمطرفون يخرجون عليه ، ويزعجون جيشه ، والجيش قد تعب من الحرب ، ومعاوية يزداد قوة كل
يوم ، ويبعث بسررايا خفيفة تغير على اطراف البلاد . يحيي بذلك ستن الجاهلية التي ينتمي اليها ،
ويشجع القبائل العربية والقيادات الجاهلية على العودة إلى عاداتهم السابقة من سلب ونهب .. ثم يهاجم
اليمن والحجاز بجيش يقوده بسر بن أرطاة ، ويأمره بإثارة الفوضى وإرهاب الموالين للإمام (ع) .. ويجهز
جيشاً لمهاجمة مصر ، بقيادة عمرو بن العاص الذي أتبعه طمعاً في ولاية مصر ، فيعيثُ فساداً في
مصر ، ويقتل والي الإمام عليها (محمد بن ابي بكر) ويمثل به ويحرقه ..

وحينما ندب الإمام لمصر السيف الصارم (مالك الأشتر) ، دبر معاوية خطة لاغتياله بالسم في بعض
الطريق .. وكان نبا شهادته على الإمام عظيماً ، إذ فقد بطلاً راسخ الإيمان شديد الوطاة على اعداء الله .
كل ذلك ، واهل الكوفة لايزالون مخطفين ، إذ كانوا متآخرين قروناً عديدة عن افق الإمام (ع) ، حيث
كان يستحثهم بكل ما أوتي من بلاغة القول وحكمة الرأي وقوة الطرح ، على الجهاد في سبيل الله وعلى
المحافظة على كرامتهم ومكاسب ثورتهم ، فلم يكن يستجيب له إلا طليعة القوم .

ولعل الهدف الاسمي للإمام (ع) كان ترسيخ أسس الإيمان عند هؤلاء الطليعة الذين هم شيعته
المخلصون ، ليمتد الخط الرسالي حاملاً مشعل التوحيد ، عبر الأجيال .

وكان يؤلمه حقاً تفرق اهل الكوفة عن حقهم ، واجتماع اهل الشام على باطلهم ، وكان يتمنى أن لو
بادله معاوية باصحابه على ان يدفع منهم عشرة ويأخذ واحداً من اصحاب معاوية ، واخيراً رمى بأخر سهم
من كنانته فقال :

" أمّا إني قد سئمت من عتابكم وخطابكم ، فبيّذوا لي ما انتم فاعلون ، فإن كنتم شاخصين معي الى
عدوي فهو ما اطلب وما احب ، وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن امركم . فوالله لنن لم تخرجوا معي
باجمعكم الى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين . لادعون الله عليكم ولأسيين
الى عدوكم . ولو لم يكن معي إلا عشرة .

واضاف قائلاً ،

"لجلاف أهل الشام أصبرُ على نُصرة الضلال ، واشدُّ إجماعاً على الباطل منكم على هداكم وحققكم . ما بالكم وما دواؤكم ؟ . إن القوم أمثالكم لأينشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة" ^{١٠٢} .

فلما رأى أهل الكوفة منه العزم على أن يزحف بمن بقي معه من أصحابه المخلصين استجابوا له ، وتداعوا للجهاد وخرج المقاتلون إلى النخيلة حيث كان يعسكر فيه جيش الكوفة . ولبت الإمام (ع) ، هناك ، ووجهً واحداً من قادة جيشه (زياد بن حفصة) باتجاه الشام ، يقود طلائع الجيش ، بينما انتظر انسلاخ شهر رمضان ليذحف ببقية الجيش إلى الشام ، لولا أن القدر كان في انتظاره في ليلة التاسع عشر من شهر الله المبارك ..

تهدمت أركان الهدى :

ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ، تُعتبر من الليالي التي يُرجى فيها أن تكون ليلة القدر . وكان حديث الناس في تلك الليلة في كل مكان حول الحرب ، بعد أن بث الإمام (ع) فيهم روح الجهاد ، ودبَّ إليهم النشاط والعزيمة .

وفي طرف مسجد الكوفة كان يصلي جماعة من المصريين ، كعادتهم في كل ليلة ، قريباً منهم عدد السرة كان يصلي جماعة باجتهاد . وهناك في بيت متواضع على طرف تستضيف الإمام (ع) ابنته فتعمل إليه عند الإفطار ، رغيفاً من الخبز ولبناً وشيئاً من الملح ، فيأمرها برفع اللبّن . ولما تناول لقمات نهض لصلواته ، وبين الفينة والأخرى كان يتطلع إلى السماء فيقول : هي هي الليلة التي وُعدت بها . لا كُذبت ولا كُذبت .. ثم يخرج إلى المسجد ، ويدخله من ذات الباب الذي اجتمع خلفه أولئك الرجال .

يقول الراوي ، خرج عليهم علي بن أبي طالب (ع) عند الفجر ، فاقبل ينادي .. الصلاة الصلاة ، وبعدها رايت بريق السيف ، وسمعت قائلاً يقول ، الحكم لله لا لك يا علي ، ثم رايت بريق سيف آخر ، وسمعت علياً يقول ، لا يفوتكم الرجل . وكان الأشعث قال لابن ملجم الدجاة لما جئت قبلك ان يفضحك ^{١٠٣} .

فمن هو الذي اشترك في المؤامرة ضد حياة قائد المسلمين ؟

إنهم ثلاثة اجتمعوا في الحج وقرر كل واحد منهم اغتيال واحد من الثلاثة ، معاوية ، وعمرو بن العاص ، والإمام (ع) فلم ينجح صاحب عمرو بن العاص ، إذ كان قد استتاب عنه آخر ، للصلاة فقتل ، بينما وقع سيف صاحب معاوية على فخذه وجرحه جرحاً بسيطاً ..

اما ابن ملجم الذي كان قد اشترى سيفه بالف وسممه بالف فقد التقى - فيما يبدو - بالمعارضة التي تنامت في الكوفة ، وكان يقودها ابن الأشعث الذي بدا يتباكى على مصرع الخوارج ، وكان قد دخل

(١٠٢) المصدر : (ص ٤٩٩) .

(١٠٣) المصدر : (ص ٥٠٥) .

الإمام (ع) قبل فترة فاغلظ عليه لمؤامرتة المستمرة ضد الإسلام ، فتوعده وهدده بالفتك ، فقال له الإمام ،

"أَبِالموت تخوفني وتهددني ؟ . فوالله ما أبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموتُ عَلَيَّ" ^{١٠٤} .

وهكذا تعاون معه في جريمته سبب بن بجران ، ووردان بن مجالد ، ولعل رجالاً آخرين من جماعة ابن الأشعث كانوا مساهمين معهم .

ومن خلال الأشعث التقت مصلحة الخوارج (الذين كانوا من أشد المعارضين لمعاوية) بمصالح معاوية الذي كان يخشى هجوماً صاعقاً لجند الإسلام ضده . وكان لا يني من توزيع الوعود على الطامعين في الكوفة ، للفتك بالإمام (ع) . ومن هنا خاطب أبو الأسود الدولي معاوية بعد تنفيذ الجريمة قائلاً ،

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ لِبَنٍ حَرِيرٍ	فَلَا قَرَّتْ عَيُونَ الشَّامِتِينَ
أَفِي شَهْرِ الصِّيَامِ فَجَعْتُمُونَا	بَخِيرَ النَّاسَ طَرّاً أَجْمَعِينَ
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا	وَذَلَّلَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
وَمَنْ لَبَسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا	وَمَنْ قَرَأَ الْمُثَانِي وَالْمُنِيَا ^{١٠٥}

وبعد تنفيذ الجريمة ، حُمِلَ الإمام (ع) إلى البيت ، وأُحْضِرَ عنده ابن ملجم فقال الإمام ،

"النفس بالنفس ، إن أنا متُ فاقتلوه كما قتلني ، وإن سلمتُ رأيت فيه رأيي . وإضاف ، يا بني عبد المطلب لا الفيتكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين . أَلَا لَا يَقْتُلُنْ إِلَّا قَاتِلِي" .

ودخل على الإمام (ع) أكبر أطباء الكوفة واسمه ، أمير بن عمر بن هاني ، فلما فحصه ملياً قال ، يا أمير المؤمنين اعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم راسك ^{١٠٦} .

ويقول الأصمعي بن نباتة ، دخلتُ على أمير المؤمنين (ع) ، فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه وأصفُرَ وجهه . فما ادري وجهه أشد صفرة أم العمامة ، فأكببتُ عليه فقبلته وبكيت . فقال لي ، لا تبكي يا أصمعي فإنها - والله - الجنة .

فقلت له ، جَعَلْتُ فذاك ، إني أعلم - والله - أنك تصير إلى الجنة ، وإنما أبكي لفقداني إياك يا أمير المؤمنين ^{١٠٧} .

وبكت عنده أم كلثوم بعد أن نعى إليها نفسه ، فقال لها ،

" لا تؤذيي يا أم كلثوم ، فإنك لو ترين ما أرى ، إن الملائكة من السماوات السبع بعضهم خلف

(١٠٤) المصدر : (ص ٥٠١) .

(١٠٥) في المصدر (والمبينا) والظاهر ما ذكرناه انظر : (٥٠٢) .

(١٠٦) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ٢٥٥ ، ج ٢) .

(١٠٧) المصدر .

بعض ، والنبليون يقولون ، انطلق يا علي فما امامك خير لك مما انت فيه " ١٠٨ .

وبقي الإمام (ع) ثلاثاً تشد حالته ، حتى كان ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان ، في الثلث الأول منها ، وعهد عهده إلى الإمام الحسن ولوصاه وإخاه الإمام الحسين عليهما السلام ، بأخر وصاياه ، ثم ودع أهل بيته ، واستقبل ملائكة ربه بالسلام وفارقت روحه الزكية الحياة ، وصرخت بناته ونساؤه ، وارتفعت الصيحة في بيته ، فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين قد قبض ، فاقبل الرجال والنساء أفواجا ، وصاحوا صيحة عظيمة ، وارتجت الكوفة بأهلها ؛ وكان ذلك اليوم كيوم مات فيه رسول الله (ص) .

ثم غسله الإمام الحسن والإمام الحسين معاً سلام الله عليهم أجمعين ، بينما كان محمد بن الحنفية يصب الماء . وحُطَّ ببقية حنوط رسول الله ، ووضعوه على سريريه ، وصلى عليه الإمام الحسن (ع) ، وحُمِّل في جوف الليل من تلك الليلة إلى ظهر الكوفة فدفن بالنوبة عند قائم الغرَّيبين حيث مرقده الشريف الآن .

وكانت الحكمة في كتمان موضع قبره الذي ظل سرياً عن العامة حتى عهد الإمام الرضا (ع) ، اتقاء شر الخوارج وبني أمية .

ثم قتل ابن ملجم وأحرق بالنار .

وطويت صفحة ناصعة من حياة الإمام (ع) بشهادته ، لتنتشر على مدى الدهر صفحات مجده وعزه ، وفضائله ، وتابعيه على الهدى والاستقامة . فسلام الله عليه حين ولد في الكعبة ، وحين وقع صريعاً في محراب الكوفة ، وحين مضى شهيداً وشاهداً على الظالمين ، وحين أضحت راية العدالة وعلم الهدى ، ومنار التقوى . وسلام الله عليه حين يبعث حياً ، ليجعل الله ميزاناً يفصل به بين عباده ، وقسيماً للجنة والنار .. وسلام على الصديقين الذين اتبعوا خطاه ، وعلى شيعته الذين تحملوا في ولائه ما تعجز عنه الجبال الراسيات .

الفصل الخامس

فضائله ومناقبه

فضائله ومناقبه سلام الله عليه

وكاشعة الشمس ملات فضائل الإمام (ع) الأفاق ، واعطتنا ضياءً ودفناً روحياً . ولقد تنافس كبار علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم في سرد فضائله ، حتى ليكاد السذج من القراء يقولون ، فعلي - إذا - أفضل الناس جميعاً جاهلين بأنه أية صدق لرسالة محمد (ص) و امرأة صافية تتجلى فيها صورة مربيه وسيد محمد (ص) حتى قال سلام الله عليه ،
" انا عبد من عبيد محمد (ص) " .

بلى ، إن إصرار اصحاب الرسول (ص) ولولي البصائر من التابعين والصدّيقين من المسلمين على نشر فضائل الإمام (ع) كان تحدياً لخط الضلال الذي تسلط على المسلمين ، واجتهد لمحو معالم الحق .. وهكذا خرجت فضائله عن إطار الإحصاء .
بيد أن علينا ألا ننظر إلى فضائله بصورة منفصلة عن بعضها .. أرايت كيف لو مزقت زهرة ويدات تنظر إلى كل ورقة فيها وحدها ؟ .

إننا حين نتحدث عن الزهد نخيل إلينا انطواء المرتاضين ورهبة الهاربين عن الحياة ..
وإذا تحدثنا عن العلم قفزت إلى اذهاننا صورة أولئك المنكبين على أوراقهم في المكتبات ، أو على ادواتهم في المختبرات ، دون أن يتحملوا المسؤولية أو يخوضوا صراعاً .
وإذا ذكرنا الجود تذكرنا الملوك حين يوزعون الهدايا على الملا من قومهم ، ليسترجعهم إلى مؤازرتهم وليضمّنوا ولاهم .

ولذا بيّنا الشجاعة ، ارتسمت امامنا صورة ابطال الحروب ، الذين دأبهم القتل ومهمتهم إراقة الدماء ،
وهكذا ..

بيد أن علينا (ع) غير كل أولئك . لأن صفاته تجليات لروحه الإيمانية ، كاللور الواحد ينعكس على الأشياء فتجلى عليها ألواناً مخففة ، وهكذا نور التوحيد في ضمير الإمام (ع) ينبعث في واقعه صفة مئلى وأية عظمى للحق .

حين يتجلى الرب سبحانه للقلب السليم فيثبت بالقول الثابت ، ويُفيض عليه من نور عزه ، يصبح صاحبه الجواد العدل ، والشجاع الحنون ، والعالم المسؤول ، والزاهد المتصدي ، والبكاه في ظلام

الليل ، والقتال حين يرتفع النهار ..

ويقول قائلهم :

جمعت في صفاتك الأضدادُ
ولهذا عزت لك الأندادُ
ونقول إنها الصفات الحسنی يتبع بعضها بعضاً .. إنها الحب والصدق والأمانة ، تجمعها معرفة الله ،
وتتنسب منها سائر فضائل الخير ..

لقد عاش لله سبحانه ، لأنه عرف الله وتنمّر في ذات الله ، لأنه لوتي اليقين بعظمة ربّه . لو لم يقل

(ع) عن المؤمنين وهو أميرهم :

" عَظُمَ الخالقُ في أنفسهم ، فَصَغُرَ ما دُونَهُ في أعينهم " .

واستهان بالموت لأنه أحب لقاء ربّه ..

وعدل في الرعية لأنه تجاوز حواجز المادة إلى حقائق الجوهر ، فأسقط كل الميزات الظاهرية ، وتحدى
الضغط الذي يدعو إليها .

وزهد في الدنيا ، لأنه أبصر حقيقتها فصامت نفسه عنها قبل أن تصوم جوارحه ، وطلّقها ثلاثاً وقال
لها :

" يا دنيا يا دنيا !! إليك عني ، قد طَلَقْتُ ثلاثاً لا رجعة فيها " ١٠٩ .

ولنّهكت العبادة لأنه يلتقي هناك بحبيبه الكريم . فلم يزل ذاكراً ربّه ، يعيش قلبه بمناجاته . وهكذا كانت
سائر فضائله روافد من نبع الإيمان والمعرفة واليقين .

وها نحن نروي لك شيئاً قليلاً منها لعلنا نزيد معرفة بإمامنا سلام الله عليه ، ونزداد قريباً إلى ربنا
بمعرفة .

فقد روى أبو الدرداء في جمع من أصحاب النبي قصته مع الإمام علي (ع) ، وكيف شاهد جانباً من
عبادته الليلية :

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال : كنا جلوساً في مجلس ، في مسجد رسول الله (ص)
فتناكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان ، فقال أبو الدرداء : يا قوم ألا أخبركم بأقل القوم مالاً ، وأكثرهم
ورعاً ، وأشدهم اجتهاداً في العبادة ؟ قالوا : مَنْ ؟ قال : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) . قال :
فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلا مُعرض عنه بوجهه . ثم انتدّب له رجل من الأنصار فقال له : يا
عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ اتيت بها ، فقال أبو الدرداء : يا قوم إنني قاتل ما رأيت
وليقل كل قوم منكم ما رأوا شهدت علي بن أبي طالب (ع) بشويحطات النجار ، وقد اعتزل عن مواليه ،
واختفى ممن يليه ، واستتر بمغيلات النخل ، فافتقدته وبعُدَ عني مكانه ، فقلت : لحق بمنزله . فإذا إنسا

(١٠٩) قصار الحكم للإمام / نهج البلاغة .

بصوت حزين ونغمة شجي وهو يقول :

" إلهي كم من موبقة حملتَ عن مقابلتها بنقمتك ، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك ! إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصحف ذنبي ، فما أنا مؤمل غير غفرانك ، ولا أنا بِرَاجٍ غير رضوانك " .

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر ، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه ، فاستترت له واخملت الحركة ، فركع ركعات في جوف الليل الغابر ، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى ، فكان مما ناجى الله به أن قال :

" إلهي أُفكر في عفوك فتَهون عَلَيَّ خطيئتي ، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عَلَيَّ بليَّتي " .

ثم قال : " أه ، إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها ، فتقول : خذوه ! فيا له من مأخوذ لا تُجيبه عشيرته ، ولا تنفعه قبيلته ، ولا يرحمه الملائكة إذا أذن فيه بالنداء " .

ثم قال : " أه من نار تنضج الأكباد والكلى ، أه من نار نزاعة للشوى ، أه من غمرة من ملهبات لظى ! " . قال : ثم انعم في البكاء ، فلم أسمع له حساً ولا حركة ، فقلت ، غلب عليه النوم لطول السهر ، أوقفه لصلاة الفجر . قال أبو الدرداء : فاتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرَّكته فلم يتحرك وزويته فلم يَزِرْ ، فقلت : " إنا لله وإنا إليه راجعون " مات والله علي بن أبي طالب (ع) قال : فاتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم ، فقالت فاطمة (ع) : يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته ؟ فآخبرتها الخبر ، فقالت : " هي والله يا أبا الدرداء الغشبية التي تأخذ من خشية الله " .

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فافلق ، ونظر إلي وأنا أبكي ، فقال : مما بكأوك يا أبا الدرداء ؟ فقلت : مما أراه تنزله بنفسك . فقال :

" يا أبا الدرداء فكيف ولو رأتني ودُعيتُ بي إلى الحساب ، وليقين أهل الجرائم بالعذاب ، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ ، فوقفت بين يدي الملك الجبار ، قد اسلمني الأحباء ، ورحمني أهل الدنيا ، لَكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية " .

فقال أبو الدرداء : فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص) ^{١١٠} .

ولأن إمامنا (ع) كان أشد حُباً لربه وأكثر أنساً به وشوقاً إليه ، كان يحب لقاء ربه ، ولا يبالي بالموت . فقد جاء في حديث أنه كان يطوف بين الصفيين بصفين في غلالة ، ^{١١١} فقال الحسن (ع) : ما هذا زي الحرب ، فقال : يا بني إن أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

وحينما علاه أشقى الآخرين بالسيف متف عالياً ، فُزْتُ وربُّ الكعبة .

وقد كان (ع) يتمنى الشهادة ، ويكرر هذه الكلمة باستمرار .

(١١٠) موسوعة بحار الأنوار : (ج ٤١ ، ص ١٣) .

(١١١) الغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع .

ما ينتظر لشقاها ان يخضبها من فوقه بدم .^١ لقد كان يعتبر الشهادة لسمى الطريق إلى الله ولقائه .
 فإذا وفق الله لها عبداً فذاك نعمة كبرى لا بد أن يشكره عليها . يقول الإمام (ع) :
 لما أنزل الله سبحانه قوله ،
 ﴿لَمْ يَحْشِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت/٢-١)
 علمت ان الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله (ص) بين اظهرنا ، فقلت ، يا رسول الله ما هذه الفتنة التي
 اخبرك الله تعالى بها ؟ . فقال ،

" يا علي ، ان امتي سيفتنون من بعدي " .

فقلت ، يا رسول الله اوليس قد قلت لي يوم أحد حين استشهد من استشهد من المسلمين واخرت
 عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي ، " ابشر فان الشهادة من ورائك ؟ " .
 فقال لي ، " ان ذلك لكذلك ، فكيف صبرك إذا ؟ " .

فقلت ، " يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشري والشكر " ^{١١٢} .

حُب الله تعالى فوق كل وشيجة :

وكان حبه الشديد لربه سبحانه يجعله فوق كل وشيجة مادية ، وكل ضغط اجتماعي ، وكل مصلحة
 دنيوية زائلة .

فقد حدثنا (ع) بنفسه عن أسباب نصر الله للمسلمين . وجعل أعظمها التعالي عن علاقاتهم النسبية
 والتمسك بقيم الحق ، فقال ،

" فلقد كنا مع رسول الله (ص) وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والأخوان والقربات ، فما نزداد على
 كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق " ^{١١٣} .

ويروي التاريخ ان الإمام علي (ع) رأى يوم بدر عقيلاً أخاه وكان في معسكر الأعداء يومئذ ، راه مقيداً
 فصد عنه ، وصاح به عقيل ، يا علي ، أما والله لقد رايت مكاني ، ولكن عمداً تصد عني .
 فأتى علي (ع) إلى النبي (ص) وقال ،

" يا رسول الله هل لك في أبي يزيد ، مشدودة يده في عنقه بنسعه " ^{١١٤} فقال انطلق بنا إليه " ^{١١٥} .

وهكذا كان موقفه من أخيه أم هاني يوم فتح مكة حيث لوت رجالاً من قريش كما يروي التاريخ فلم
 يجرهم حتى أجارهم النبي (ص) ^{١١٦} .

(١١٢) المصدر : (ص ٧) .

(١١٣) نهج البلاغة الخطبة (١٢٢) .

(١١٤) وهي عريض طويل يشد به الرحال .

(١١٥) المصدر : (ج ٤١ ، ص ١٠) .

(١١٦) المصدر .

ومن هنا كان الإمام (ع) يعيش أبداً فوق الضغوط وكان الناس يعرفون منه ذلك ، ولذلك تعاونت ضده أصحاب المصالح ، وقوى الضغط الإجتماعية ، كما تخبرنا عن ذلك زوجته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) ،

" وما الذي نقموا من أبي الحسن ، نقموا منه والله نكير سيفه ، وشدة وطاته ، ونكال وقعته ، وتتمره في ذات الله " ١١٧ .

لقد عرفوا أنه لا يبالى ، ولا يدهان فيما يرتبط بربه . وهكذا شهدت حوادث التاريخ . فحينما مد إليه عبد الرحمن لبيابيه على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين رفض الإستجابة إلا لكتاب الله وسنة رسوله ، ولم يبال أن الخلافة بكل ما فيها من عظمة وجلال تزوى عنه .

بل إن نظراته إلى الحكم كانت أبداً من خلال ما يمكن أن ينفع دينه . فهو الذي قال مرة لابن عباس وقد استعجله لاستقبال الوفود وكان مشغولاً باصلاح نعله ، قال له : يا بن عباس ، كم تسوى هذه النعل عندكم ؟ قال : درهماً أو بعض درهم .

قال : " لأمركم هذه أزهى عندي منها ، إلا أن أقيم حقاً لو أدفع باطلاً " .

أولم يرفض إبقاء معاوية على إمارة الشام مدة من الزمن يستقر فيها الأمر له ثم يعزله كما أشار عليه البعض ، لأنه كان يرفض الغدر ؟ .

وقد قال مرة ،

" وما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس " ١١٨ .

ويروي التاريخ أن كل الملتحقين بمعاوية ممن كان مع الإمام علي (ع) هربوا من عدالته ، واستراحوا إلى محاباة معاوية ومداراته . وكذلك فقل والذين اثروا على عهد الخليفة الثالث ومثلهم ثراء فاحشاً على حساب المحرومين ، وخشوا من محاسبة الإمام علي لهم . الذين كانت بأيديهم ثروات المسلمين ، من بيت المال ، وأرادوا الاستئثار بها . وكذلك الذين كانوا يتصورون المجتمع الإسلامي كالباهلية يكلل القوي العزيز فيه الضعيف الدليل ، ولم يُعجبهم شعار الإمام (ع) ،

" الدليلُ عندي عزيز حتى أخذ الحق له ، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتى أخذ الحق منه " ١١٩ .

وكذلك هرب من عدله الذين كانوا يرتكبون جرائم يستحقون عليها الحد . والذين كانوا يبحثون عن جو التسامح في دين الله ، يسمح لهم ارتكاب بعض الجرائم كإقامة الحفلات الماجنة ومعاورة الخمر .

كل أولئك كانوا يتسللون إلى معاوية ويشفق عليهم الإمام (ع) ، لأنهم يهربون من النور إلى الظلام ، ومن العدالة الشاملة إلى مجتمع الظلم الزائل .

(١١٧) سيرة الأئمة : (ج ١ ، ص ١٢٤) .

(١١٨) الخطبة (٢٠٠) من نهج البلاغة .

(١١٩) نهج البلاغة الخطبة (٣٧) .

ولكنه لم يغير سياسته من أجل استمالتهم . والتاريخ يحفل بمئات الحوادث التي تروي لنا قصة ذلك الركن الشديد ، الذي تتراجع عنه عواصف الضغط الإجتماعية ، قصة ذلك الصلد الأصم الذي تتكسر عنده كل أمواج الإغراء والإرهاب .. فليجتمعوا حول معاوية ، ثم يزيد ، ثم من يأتي من سلاطين بني أمية ، وليرفعوا عقيرتهم ألف شهر ، بسب علي وذريته عليهم السلام ، ويتفخرون بقتل أولاده وشيعته .. وليفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا .. فالحق أغلى .. والله أكبر ، وأمير المؤمنين (ع) يصبر محتسباً ثواب ربه عز وجل . ولقد قال مرة ، " كنت أحسب الأمراء يظلمون الناس ، فإذا الناس يظلمون الأمراء " ^{١٢٠} .

أجل ، إن انعدام الوعي عند الناس وكثرة القوى المصلحية كانت وراء ظلمهم لأمير المؤمنين (ع) . فقد كان يريد إقامة مجتمع القانون ، والناس يرغبون في الفوضى والمحاباة ، وأن ينفذ القانون أبداً على غيرهم . أما هم فالأفضل أن تمشي لهم الوساطات .

لقد أخذ الإمام علي (ع) رجلاً من بني أسد في حد ، فاجتمع قومه ليكلموا فيه ، وطلبوا إلى الحسن (ع) أن يصحبهم ، فقال : انتوه فهو أعلى بكم عينا ، فدخلوا عليه وسألوه ، فقال : لا تسألوني شيئاً أملكه إلا أعطيتكم ، فخرجوا يرون أنهم قد نجحوا ، فسألهم الحسن (ع) فقالوا : اتينا خير مائتي ، وحكوا له قوله ، فقال : ما كنتم فاعلين إذا جلد صاحبكم فافعلوه .. فلخرجه علي (ع) فحده ، ثم قال : " هذا والله لست أملكه " ^{١٢١} .

وقد بين فلسفة ذلك في قصة أخرى حيث بلغ معاوية أن شاعراً من أصحاب الإمام (ع) كان اسمه النجاشي قد هجاه . ولعل معاوية كان يعرف أنه يشرب الخمر ، فدرس قوماً شهدوا عليه عند الإمام أنه شرب الخمر ، فلخذه وحده .

فغضب جماعة على الإمام (ع) في ذلك - وكان بينهم طارق بن عبد الله الفهدي - فقال : يا أمير المؤمنين مالنا نرى أن أهل المعصية والطاعة وأهل الفرقة والجماعة عند ولادة العقل ومعادن الفضل سيان في الجزاء ، حتى ما كان من صنيعك بإخيه الحارث - يعني النجاشي - فلوغرت صدورنا ، وشئت أمورنا ، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار (أي اتباع معاوية) . فقال علي (ع) ، ﴿ وَإِلَيْهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة/٤٥) .

يا أخا بني فهد ١. هل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله ، فاقمنا عليه حدها زكاة له وتطهيراً ؟ .

يا أخا ابن فهد ، إنه من أتى حداً فاليم ^{١٢٢} كان كفارته .

يا أخا ابن فهد ، إن الله عز وجل يقول في كتابه العظيم ،

(١٢٠) المصدر .

(١٢١) المصدر .

(١٢٢) أي ارتكب ما يوجب عليه الحد فلامه الناس أو ألمه إقامة الحد عليه .

﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَنَا نَقَرٍ عَلَىٰ إِلَّا تَغْدِلُوا اٰغْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلْقَوَىٰ﴾ (المائدة/١٢٣) .

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى العدل والمساواة مستوحاة من لب الوحي وروح الرسالة ، وقد انعكست على مواقفه ، وفي تادييه لولائه ، فهنا يوصي عامله على مصر مالك الأشتر فيقول له :
"أنصف الله ، وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعبك . فإنك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أرخص حُجته ، وكان لله حرباً حتى يفزع ويتوب . وليس بشيء ادعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد " .

ثم يحذره من محاباة الخاصة (وهم الأشراف وأولوا الوجاهات والوساطات) فيقول ،
" وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، واجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يحفف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة " ١٢٤ .

مكرمات الإمام (ع) على لسان النبي (ص) :

عشرات المجلدات لاتكفي وصف حياة الإمام (ع) الذي تجلّى الوحي في حياته ، وكان آية صدق لرسالات الله ، وشاهد حق لنبوّة خاتم المرسلين محمد (ص) .
وإذا كان هذا الكتاب لايسع من فيض مكرماته سوى قطرات ، فإن تلك القطرات تكفيها ، لأنها بالنسبة إلينا رافد عظيم .

ولعل البعض تصيبه الدهشة إذا سمع فضائل الإمام (ع) على لسان النبي (ص) لأنه لم يستوعب حكمة الخلق ، ولا يفكر في إطار البصائر القرآنية .

أما إذا نظر إلى السموات والأرض وما فيها بصفاتها مخلوقات لله ، وعلم أن الله سخرها للإنسان ، وفضل البشر على كثير مما خلق تفضيلاً ، وأنه إنما أكرم أبناء آدم لعبادتهم له ، وأن أكرمهم عنده اتقاهم ، استوعب آنئذ ما يذكر من كرامات لولياء الله .

أما إذا نظر إلى الإنسان نظرة مادية ، فإنه لايمكنه أن يصدق بشيء ، حتى بالوحي الذي يعتبر عنوان كرامة الله للإنسان ، ورمز تفضيله على سائر خلقه ، ومفتاح تسخير الأشياء له .

وها نحن نستعرض معاً بعض مكرمات الإمام (ع) على لسان النبي (ص) وننتذكر أن الصعاب التي مرّ بها في حياته كانت معراجاً إلى ربه سبحانه ، ووسيلةً وزلفى إلى رضوانه .

(١٢٣) المصدر : (ج ٤١ ، ص ١٠) .

(١٢٤) نهج البلاغة (المعجم المفهرس) : ص (٩٨) .

في فضائله (ع) على لسان النبي (ص)

روى سلمة بن قيس قال ، قال رسول الله (ص) ،

"عليّ في السماء السابعة كالشمس بالنهار في الأرض ، وفي السماء الدنيا كالقمر بالليل في الأرض . اعطى الله عليّاً من الفضل جزاءً لو قُسم على أهل الأرض لَوَسَّعَهُم ، واعطاه الله من الفهم لو قُسم على أهل الأرض لَوَسَّعَهُم . شبهت لينة بلين لوط ، وخلقهُ بِخُلُقٍ يحيى ، وزُهدهُ بزهد ليوب ، وسخاهه بسخاه إبراهيم ، وبهجته ببهجة سليمان بن داود ، وقوّته بقوة داود (و) له اسم مكتوب على كل حجاب في الجنة ، بَشْرَنِي به ربّي وكانت له البشارة عندي . عليّ محمودٌ عند الحق ، مَزَكَى عند الملائكة ، وخاصتي وخاصتي وظاهرتي ومصباحي وجنتي ورفيقي ، أنسني به ربي ، فسالت ربي أن لا يقبضه قبلي ، وسالته أن يقبضه شهيداً ^{١٢٥} . أدخلت الجنة فرليت حورَ علي أكثر من ورق الشجر ، وقصور علي كعدد البشر . عليّ منّي وأنا من عليّ ، مَنْ تولى عليّاً فقد تولاّني ، حُبُّ عليّ نعمة ، واتّباعه فضيلة . دان به الملائكة وحفت به الجن الصالحون . لم يمش على الأرض ماشٍ بعدي إلا كان هو أكرم منه عزّاً وفخراً ومنهاجاً . لم يك فظاً عجولاً ، ولا مسترسلاً لفساد ولا متعنّداً ، حملته الأرض فأكرمته . لم يخرج من بطن انثى بعدي لحدٍّ كان أكرم خروجاً منه ، ولم ينزل منزلاً إلا كان ميموناً . انزل الله عليه الحكمة ، ورداه ^{١٢٦} بالفهم . تجالسه الملائكة ولا يراها ، ولو أوجي إلى لحد بعدي لأوجي إليه ، فزين الله به المحافل وأكرم به العساكر ، واخصب به البلاد ، واعزّ به الأجناد . مثله كمثل بيت الله الحرام ، يُزار ولا يزور ، ومثله كمثل القمر إذا طلع اضاء الظلمة ، ومثله كمثل الشمس إذا طلعت اناارت (الدنيا) . وصفه الله في كتابه ومدحه بآياته ، ووصف فيه آثاره ، ولجى منازلَه ، فهو الكريم حياً والشهيد ميتاً " ^{١٢٧} .

وروى أبو ذر الغفاري قال ، بينما كنا ذات يوم من الأيام بين يدي رسول الله (ص) ، إذ قام وركع وسجد شكراً لله تعالى ، ثم قال ،

"يا جندب ، مَنْ أراد أن ينظر إلى آدم في علمه ، وإلى نوح في فهمه ، وإلى إبراهيم في خلّته ، وإلى

(١٢٥) في المصدر : شهيداً بعدي .

(١٢٦) رداه : ألبسه الرداء .

(١٢٧) أمالي الصدوق : (ص ٦ - ٧) .

موسى في مناجاته ، وإلى عيسى في سياحته ^{١٢٨} وإلى أيوب في صبره وبلائه ^{١٢٩} ، فلينظر إلى هذا الرجل المقابل ^{١٣٠} الذي هو كالشمس والقمر الساري والكوكب الدرّي . أشجع الناس قلباً . وأسخرى الناس كفاً ^{١٣١} ، فعلى مبغضه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

قال ، فالتفت الناس يظنون من هذا المقل ، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام ^{١٣٢} . وجاء في كتابي الخطيب الخوارزمي وأبي عبد الله النطنزي ، قال أبو عبيد صاحب سليمان بن عبد الملك ، بلغ عمر بن عبد العزيز أن قوماً تنقصوا بعلي بن أبي طالب (ع) ، فصعد المنبر وقال ، حدثني غزال بن مالك الغفاري عن أم سلمة ، قال ، بينا رسول الله (ص) عندي ، إذ أتاه جبرائيل فناده ، فتبسم رسول الله (ص) ضاحكاً ، فلما سرّني عنه قلت ، ما اضحكك ؟ قال ، " أخبرني جبرائيل أنه مر بعلي وهو يري ذوداً له ^{١٣٣} وهو نائم قد أبري بعض جسده . قال ، فرددت عليه ثوبي فوجدت برد إيمانه وقد وصل ^{١٣٤} إلى قلبي " .

وفي رواية الأصمغ أن علياً (ع) مضى من المدينة وحده ، فأتى عليه سبعة أيام فرئي النبي (ص) يبكي ويقول ، " اللهم ردّ إليّ علياً قرة عيني ، وقوة ركني ، وابن عمي ، ومفرج الكرب عن وجهي " . ثم ضمن الجنة لمن أتى بخبر علي (ع) . فركب الناس في كل طريق ، فوجده الفضل بن العباس ، فبشر النبي (ص) بقدمه ، فاستقبله فما زال يفتش عن يمين علي وعن يساره وعن رأسه وعن يده ^{١٣٥} فقلت ، تفتش علياً كأنه كان في الحرب ؟ فأخبرني عن جبرائيل (ع) أن أقواماً من المشركين يقصدونك من الشام فلأخرج إليهم علياً وحده ، فخرج معه جبرائيل (ع) في ألف ملك وميكائيل (ع) في ألف ملك ، ورأيت ملك الموت يقاتل دون علي .

وجاء في أربعين الخطيب ، وشرح ابن الفياض ، وأخبار أبي رافع ، في خبر طويل عن حذيفة ابن اليمان أنه دخل أمير المؤمنين (ع) على رسول الله (ص) وهو مريض ، فإذا رأسه في حجر رجل أحسن الخلق والنبي (ص) نائم ، فقال الرجل ، أدن إلى ابن عمك ، فالتفت لي مني ، فوضع رأسه في حجره ، فلما استيقظ النبي (ص) سألته عن الرجل ، قال علي (ع) ، كان كذا وكذا . فقال النبي (ص) ، ذاك

(١٢٨) ساح سياحة : رسب في الأرض للعادة والترهب .

(١٢٩) في المصدر : في بلائه وصبره .

(١٣٠) في المصدر : المقل .

(١٣١) في المصدر : الذي أشجع الناس قلباً وأسخرهم كفاً .

(١٣٢) الروضة : (٣ - ٤) .

(١٣٣) قال في القاموس (١) : (٢٩٣) : الذود ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين .

(١٣٤) في المصدر : قد وصل .

(١٣٥) في المصدر : وعن يده وعن رأسه .

جبرائيل (ع) كان يحدثني حتى خف عني وجعي . وفي خبر أن النبي (ص) كان يملئ عليه جبرائيل ،
فقلم^{١٣٦} (ص) وأمره بكتابة الوحي .

وروى محمد بن عمرو بإسناده عن جابر بن عبد الله أنه قال ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ،
" ما عصاني قوم من المشركين إلا رميتهم بسهم الله " .

قيل ، وما سهم الله يا رسول الله ؟ قال ،

" علي بن أبي طالب (ع) ما بعثته في سرية ولا لبرزته لمبارزة إلا رأيت جبرائيل (ع) عن يمينه وميكانيل
عن يساره وملك الموت (ع) أمامه ، وسحابة تظله حتى يعطيه الله خير النصر والظفر " .

وروي مشاهدته لجبرائيل (ع) على صورة دحية الكلبي حين سماه بطك الأسامي ، وحين وضع رأس
رسول الله (ص) في حجره ، وقال ، " أنت لحق به مني " وحين كان يملئ الوحي ونعس النبي (ص) ،
وحين اشترى الناقة من الأعرابي بمائة درهم وباعها من آخر بمائة وستين ، وحين غسل النبي (ص) ،
 وغير ذلك ، وروى نحوه أحمد في الفضائل .

وقد خدمه جبرائيل (ع) في عدة مواضع . روى علي بن الجعد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن ابن
جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى ،

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر/٤-٥)

قال ، لقد صام رسول الله (ص) سبع رمضان ، وصام علي بن أبي طالب معه ، فكان كل ليلة
القدر ينزل فيها جبرائيل (ع) على علي فيسلم عليه من ربه .

وقال أحمد القصري عن أبي محمد العسكري ، عن أبيه ، عن الحسين بن علي (ع) قال ، سمعت
جدي رسول الله (ص) يقول ،

" ليلة أسرى بي ربي عز وجل رأيت في بطنان العرش ملكاً بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي
بن أبي طالب (ع) بذي الفقار . وإن الملائكة إذا اشتاقوا إلى علي بن أبي طالب (ع) ^{١٣٧} نظروا إلى وجهه
ذلك الملك ، فقلت ، يا رب هذا أخي علي بن أبي طالب وابن عمي ؟ فقال ، يا محمد هذا ملك خلقتة
على صورة علي (ع) يعبدني في بطنان عرشي ، تكتب حسناته وتسبيحه وتقديسه لعلي بن أبي طالب إلى
يوم القيامة " ^{١٣٨} .

وجاء في كفاية الطالب عن أنس قال ، قال رسول الله (ص) ،

" مررت ليلة أسري بي إلى السماء ، فإذا أنا بملك جالس على منبر من نور والملائكة تحديق به .
فقلت ، يا جبرائيل من هذا الملك ؟ قال ، أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فإذا أنا بأخي

(١٣٦) في المصدر : فنام صلى الله عليه وآله .

(١٣٧) في المصدر : إلى وجه علي بن أبي طالب .

(١٣٨) عيون الأخبار : (ص ٢٧٢) .

وابن عمي علي بن ابي طالب (ع) فقلت ، يا جبرائيل سبقني علي إلى السماء الرابعة ؟ فقال لي ، يا محمد لا ، ولكن شكت الملائكة حبها لعلي (ع) فخلق الله هذا الملك من نور على صورة علي ، فالملائكة تزوره في كل ليلة جمعة ويوم جمعة سبعين ألف مرة ، ويسبحون الله ويقدمونه ويهدون ثوابه لمحبي علي (ع) " ١٣٩ .

وجاء في مناقب الخوارزمي ، عن عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله (ص) ، " لول من اتخذ علي بن ابي طالب (ع) لخوا من اهل السماء اسرافيل ، ثم ميكائيل " ١٤٠ ، ثم جبرائيل . ولول من احبه من اهل السماء حملة العرش ، ثم رضوان خازن الجنان ، ثم ملك الموت . وإن ملك الموت يترحم على محبي علي بن ابي طالب (ع) كما يترحم على الانبياء (ع) " ١٤١ .

ومن كتاب كفاية الطالب عن وهب بن منبه ، عن عبد الله بن مسعود قال ، قال رسول الله (ص) ، " ما بعثت علياً في سرية إلا رأيت جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره والسحابة تظله حتى يريزه الله الظفر " ١٤٢ .

وروى محمد بن علي بن عبد الصمد ، عن ابيه ، عن جده ، عن اصباهان بن اسبوزن الديلمي ، عن محمد بن عيسى الكاكي ، عن القعني ١٤٣ ، عن موسى بن وردان عن ثابت ، عن انس ان النبي (ص) قال ،

" ليلة أُسري به إلى السماء الرابع " ١٤٤ .

وروى الطبري والخرکوشي في كتابيهما بالإسناد عن سلمان قال النبي (ص) ، " إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة من ياقوتة حمراء على يمين العرش ، وضرب لإبراهيم قبة خضراء على يسار العرش ، وضرب فيما بينهما لعلي بن ابي طالب (ع) قبة من لؤلؤة بيضاء ، فما ظنكم بحبيب بين خليلين ؟ " .

ونقل أبو الحسن الدارقطني وأبو نعيم الاصفهاني في الصحيح والحلية بالإسناد عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن انس قال ، قال رسول الله (ص) ،

" إذا كان يوم القيامة نصب لي منبر طوله ثلاثون ميلاً ، ثم ينادي مناد من بطنان العرش ، أين محمد ؟ . فاجيب . فيقال لي ، ارق ، فلكون في اعلاه ، ثم ينادي الثانية ، أين علي بن ابي طالب ؟ .

(١٣٩) كشف الغمة : (ص ٤٠) .

(١٤٠) المصدر : وميكائيل .

(١٤١) كشف الغمة : (ص ٣٠) .

(١٤٢) كشف الغمة : (ص ١١٣) .

(١٤٣) في المصدر : عن محمد بن عيسى الكاكي : عن القعني .

(١٤٤) في المصدر : إلى السماء الرابعة .

فيكون دوني بمراقبة . فيعلم جميع الخلائق بأن محمداً سيد المرسلين ، وإن علياً سيد الوصيين " .
 فقام إليه رجل فقال ، يا رسول الله ، فمن يبغض علياً بعد هذا ؟ فقال ،
 " يا اخا الأنصار ، لا يبغضه من قريش إلا سَفَحِي ^{١٤٥} ولا من الأنصار إلا يهودي ، ولا من العرب إلا
 دعي ^{١٤٦} ولا من سائر الناس إلا شقي " .

— وفي رواية ابن مسعود —
 " ومن النساء إلا سلققية " ^{١٤٧} .

أما قوله تعالى ،
 ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَٰثِلِينَ ﴾ (النساء/٦٩)

عبد الله بن حكيم بن جبير عن علي (ع) انه قال للنبي (ص) ،
 " هل نقدر على رؤيتك في الجنة كلما اردنا ؟ " .
 فقال رسول الله (ص) ، " إن لكل نبي رفيقاً وهو أول من يؤمن به من أمته " . فنزلت هذه الآية .
 وروى عباد بن صهيب ، عن جعفر بن محمد ، عن ابيه ، عن جده ، عن النبي (ص) — في خبر —
 قيل ، يا رسول الله ، فكم بينك وبين علي في الفردوس الأعلى ؟ فترأوا قل من فتر ^{١٤٨} قال ،
 " أنا على سرير من نور عرش ربنا ، وعلي علي كرسي من نور الكرسي " .
 وعن عبد الصمد ، عن جعفر بن محمد ، عن ابيه ، عن علي بن الحسن ، عن ابيه (ع) قال ، سئل
 النبي (ص) عن قوله تعالى ،
 ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بُدِئَ بِهِمُ الْبِرُّ ﴾ (الرعد/٢٩)

قال ، " نزلت في امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وطوبى شجرة في دار امير المؤمنين علي بن ابي
 طالب في الجنة ، ليس في الجنة شيء إلا وهو فيها " ^{١٤٩} .
 وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال ، سمعت رسول الله (ص) يقول ،
 " ليلة أُسري بي إلى السماء أدخلت الجنة فرايت نوراً أضرب به وجهي ، فقلت لجبرائيل ، ما هذا النور
 الذي رأيته ؟ قال ، يا محمد ليس هذا نور الشمس ولا نور القمر ، ولكن جارية من جواري علي بن ابي

(١٤٥) أي من ولد من الزنا .

(١٤٦) الدعي : المتهم في نسبه .

(١٤٧) أي المرأة التي تحيض من دبرها .

(١٤٨) الفتر — بالكسر فالتسكون — : ما بين طرف الابهام وطرف السبابة إذا فتحتهما .

(١٤٩) اليقين في امرة امير المؤمنين : (ص ٦٢) .

طالب (ع) طلعت من قصورها^{١٥٠} فنظرت إليك وضحكت ، فهذا النور خرج من فيها وهي تدور في الجنة إلى أن يدخلها أمير المؤمنين (ع)^{١٥١} .

ونقل الحاكم الحافظ في إماله ، وأبو سعيد الواعظ في شرف المصطفى ، وأبو عبد الله النطنزي في الخصائص ، بإسنادهم أنه حدث زيد بن علي وهو أخذ بشعره^{١٥٢} ، قال حدثني الحسين بن علي وهو أخذ بشعره ، قال : حدثني علي بن أبي طالب وهو أخذ بشعره ، قال : حدثني رسول الله (ص) وهو أخذ بشعره فقال : " من أذى لبا حسن فقد أذاني حقاً . ومن أذاني فقد أذى الله ، ومن أذى الله فعليه لعنة الله " .

وفي رواية : " ومن أذى الله لعنة الله ملء السماء وملء الأرض " .

وأورد الترمذي في الجامع ، وأبو نعيم في الحلية ، والبخاري في الصحيح ، والموصلي في المسند ، وأحمد في الفضائل ، والخطيب في الأربعين عن عمران بن الحصين وابن عباس وبريدة أنه رغب علي (ع) من الغنائم في جارية ، فزايده حاطب بن أبي بلتعة وبريدة الأسلمي فلما بلغ قيمتها قيمة عدل في يومها أخذها بذلك ، فلما رجعوا وقف بريدة قدام الرسول (ص) وشكى من علي ، فأعرض عنه النبي (ص) ، ثم جاء عن يمينه وعن شماله ومن خلفه يشكو ، فأعرض عنه ، ثم قام إلى بين يديه فقالها ، فغضب النبي (ص) وتغير لونه وتردد وجهه^{١٥٣} وانتفخت أوداجه وقال : مالك يا بريدة ما أتيت رسول الله منذ اليوم ؟ . أما سمعت الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (الأحزاب/٥٧)

" أما علمت أن علياً مني وأنا منه ، وإن من أذى علياً فقد أذاني ، ومن أذاني فقد أذى الله ، ومن أذى الله فحق على الله أن يؤذيه باليم عذابه في نار جهنم ؟ . يا بريدة أنت أعلم لم الله أعلم ؟ . أم قرأ اللوح المحفوظ أعلم ؟ أنت أعلم لم ملك الأرحام أعلم ؟ . أنت أعلم يا بريدة أم حفظة علي بن أبي طالب ؟ " . قال : بل حفظته ، قال : " وهذا جبرائيل أخبرني عن حفظة علي أنهم ما كتبوا قط عليه خطيئة منذ ولد . ثم حكى عن ملك الأرحام وقرأ اللوح المحفوظ^{١٥٤} - وفيها - ما تريدون من علي ؟ . ثلاث مرات " .

(١٥٠) في المصدر : من قصرها .

(١٥١) اليقين في إمرأة أمير المؤمنين : (ص ٢٠ أو ٢١) .

(١٥٢) في المصدر بعد ذلك : قال حدثني علي بن الحسين وهو أحد شعره .

(١٥٣) تردد الرجل : تعس ، تردد اللون تعير .

(١٥٤) أي حكى رسول الله (ص) عن ملك الأرحام وقرأ اللوح المحفوظ أن علياً لم يعص الله قط منذ خلق . ويمكن أن يكون فاعل (حكى) جبرائيل (ع) .

الامام الحسن (عليه السلام)

قدوة وأسوة

الفصل الأول

الأصل الكريم

ولادته ونشأته :

١- النبي في رحلة :

في ليلة النصف من رمضان . كان بيت الرسالة يستقبل وليده الحبيب ، وقد كان ينتظره طويلاً .. واستقبله كما تستقبل الزهرة النضرة قطرة شفاقة من الندى بعد العطش الطويل . والوليد يتشابه كثيراً وجدّه الرسول العظيم ، ولكنّ جدّه لم يكن شاهداً ميلاده حتى تُحمل إليه البشرى . فقد كان في رحلة سوف يرجع منها قريباً .

وكان افراد الأسرة ينتظرون باشتياق ، ولا يتحفون الوليد بسنن الولادة ، حتى إذا جاء الرسول (ص) أسرع إلى بيت فاطمة (ع) على عادته في كل مرة عندما كان يدخل المدينة بعد رحلة . وعندما اتاه نبا الوليد غمّره البُشر ، ثم استدعاه . حتى إذا تناوله لخذ يشمه ويقبّله ويؤذّن له ويقيم ، ويأمر بخرقه بيضاء يلف بها الوليد ، بعدما ينهى عن الثوب الأصفر .

ثم ينتظر السماء هل فيها للوليد شيء جديد ، فينزل الوحي ، يقول : إن اسم ابن هارون - خليفة موسى (ع) كان شبراً .. وعلي منك بمنزلة هارون من موسى قسمه حسناً ، ذلك أن شبراً يرادف الحسن في العربية .

وسار في المدينة اسم الحسن ، كما يسير عبق الورد . وجاء المبشرون يزفون أحر آيات التهاني إلى النبي (ص) ، ذلك أن الحسن (ع) كان الولد البكر لبيت الرسالة ، يتعلق به أمل الرسول وأصحابه الكرام . فهو مجدد أمر النبي الذي سوف يكون القدوة والأسوة للصالحين من المسلمين .. إنه امتداد رسالة النبي من بعده . وفي الغد يأمر الرسول (ص) بكبش ، يعق عنه ، فلما يأتون به يجيء بنفسه ليقرأ الدعاء بالمناسبة فيقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

عقيقة عن الحسن :

اللهم عظمها بعظمه ، ولحمها بلحمه ، ودمها بدمه ، وشعرها بشعره ، اللهم اجعلها وقاءً لمحمد واله .

ثم يأمر بأن يوزع اللحم على الفقراء والمساكين ، لتكون سنة جارية من بعده ، تَدبج كل أسرة ثرية كبشاً بكل مناسبة متاحة ، لتكون الثروة موزعة بين الناس ، لا دولة بين الأغنياء منهم .

ثم يأخذه الرسول ذات يوم وقد حضرت عنده لبابة — أم الفضل — زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص) فيقول لها ، رأيت رؤيا ، في أمري ..

فتقول ، نعم يا رسول الله ..

فيقول (ص) ، قصيها .

فتقول ، رأيت كأن قطعة من جسمك وقع في حضني .

فناولها الرسول (ص) الرضيع الكريم ، وهو يبتسم ويقول ، نعم هذا تلويل رؤياك . إنه بضعة مني . وهكذا أصبحت أم الفضل مرضعة الحسن (ع) .

.. ويثب الوليد في كتف الرسول الأعظم (ص) ، وتحت ظلال الوصي (ع) ، وفي رعاية الزهراء (ع) ، ليأخذ من نبع الرسالة كل معانيها ، ومن ظلال الولاية كل قيمها ومن رعاية العصمة كل فضائلها ومكارمها . ولا يزال النبي والوصي والزهراء عليهم جميعاً صلوات الله يُؤلّون العناية البالغة التي تنمي مؤهلاته .

الورثة :

وليس هناك من شك بأن للورثة أثرها الكبير في صياغة الفرد صياغة مكيفة بالبيئة التي انبعث منها وخلق فيها . وبيت أبناء أبي طالب ، كان خير البيوت لإنشاء الإنسان الكامل ، فكيف وقد وُلد الحسن (ع) من عبد المطلب مرتين ، مرة من علي بن أبي طالب وأخرى من فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (صلى الله عليهم وآلهم) ؟ . كما كان علي (ع) مولوداً عن هاشم مرتين . ولا نريد أن نشرح مآثر بيت هاشم ، وبالأخص أسرة عبد المطلب فيهم ، فإنها ملأت السهل والجبل ، بل أقول ، ناهيك عن بيت يزغ منه الرسول الأكرم ، محمد (ص) ، والوصي العظيم علي (ع) ، وحسب علم حساب الورثة أن التأثير قد يكون من جهة الأب فيستصحب كل سماته وصفاته . وقد يكون من جانب الأم ، وقد تحقق في الحسن (ع) هذا الأخير . فقد برزت فيه سمات أمه الطاهرة لتعكس صفات والدها العظيم محمد النبي (ص) ، فكان أشبه ما يكون بالنبي منه بالإمام ، وطالما كان يطلق النبي قوله الكريم ، " الحسن مني والحسين من علي " .

وقد يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الكلمة في الأحداث التي جرت بعد الرسول (ص) وطبيعة الظروف التي قضت عند الحسن (ع) أن يتخذ منهج الرسول أسوة له دقيقة التطبيق شاملة التوفيق ، فيعطي الناس من عفوه وصفحه ، ويعطي إعداده من صلحه ورفقه ، مثلاً كان يعطي الرسول تماماً .. كما اقتضت عند الحسين (ع) أن يباليخ في شدته في الدين ، وغيرته عليه ، ويبيدي من منعته ورفعته في أموره ، ما جعل تشابهاً كبيراً بينه وبين عهد علي (ع) مع المشركين والكافرين والضالين .

التربية :

ولقد أولاه النبي^ﷺ والوصي^{عليه السلام} والزهر^{عليه السلام} الصلاة والسلام من التربية الإسلامية الصالحة ما أهله للقيادة الكبرى . فإن بيت الرسالة كان يربي الحسن وهو يعلم ما سوف يكون له من المنزلة في المجتمع الإسلامي ، كما يوضح للمؤمنين منزلته وكرامته .

فكان النبي^ﷺ (ص) يرفعه على صدره ، ثم يقيمه لكي يكون منتصباً ويلأخذ بيديه يجره إلى طرف وجهه الكريم جرّاً خفيفاً وهو ينشد قائلاً ،
" حَزَقَةُ حَزَقَةٍ تَرَقُّ عَيْنَ بَقَةٍ " .

ويلأطفه ويداعبه .. ثم يروح يدعو ، اللهم إني أحبه فاحبب من يحبه ويقصد أن يسمع الناس من أتباعه لكي تمضي سيرته فيه أسوة للمؤمنين ، بكرامة الحسن (ع) واحترامه .

ومرة يصلي النبي^ﷺ بالمسلمين في المسجد ، فيسجد ويسجدون ، يرددون في خضوع ، " سبحان ربي الأعلى وبحمده " مرة بعد مرة ، ثم ينتظرون الرسول أن يرفع رأسه ولكن النبي^ﷺ يطيل سجوده ، وهم يتعجبون ، ماذا حدث ؟ . ولولا أنهم يسمعون صوت النبي^ﷺ لا يزال يبعث الهيبة والضراعة في المسجد لظنوا شيئاً .

ولا يزالون كذلك حتى يرفع النبي^ﷺ رأسه ، وتتم الصلاة ، وهم في لحر الشوق إلى معرفة سبب إبطائه في السجود فيقول لهم : جاء الحسن فركب عنقي ، فاشفقت عليه من أن أنزله قسراً ، فصبرت حتى نزل اختياراً .

وحيناً ، يصعد النبي^ﷺ (ص) المنبر ويعظ الناس ويرشدهم ، فيأتي الحسنان من جانب المسجد فيتعثران بثوبيهما فإذا به يهبط من المنبر مسرعاً إليهما حتى يأخذهما إلى المنبر ، يجعل أحدهما على وركه اليمنى ، والآخر على اليسرى ، ويستمر قائلاً ، صدق الله ورسوله ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُ الْكُفِّ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال/ ٢٨) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما " .

وكان يصطحبهما في بعض أسفاره القريبة ، ويردفهما على بغلته من قدامه ومن خلفه لنلا يشتاقي إليهما فلا يجدهما ، لو لنلا يشتاقي إليه فلا يجدانه . وكان يشيد بذكرهما في كل مناسبة ، ويظهر كرامتهما إعلاناً أو تنويهاً . فقد أخذهما معه يوم المباهلة وأخذ أباهما وأمهما فظهر من ساطع برهانهما جميعاً ما أذهل الأساقفة " ٢ .

ودخل رسول الله دار فاطمة (ع) ، وسلم ثلاثاً على عاداته في كل دار ، فلم يجبه أحد . فأنصرف إلى فناء ، فقعده في جماعة من أصحابه ثم جاء الحسن ووثب في حبة جده فالتزمه حده ، ثم قبله في فبه ثم

(١) الحزقة : القصير الذي يقارب الحضر .

(٢) الحسن بن علي : (ص ٢١) .

راح يقول : الحسن مني والحسين من علي .
وكثيراً ما كان الناس يتعجبون من صنع الرسول هذا ، كيف يعلنها لإبنَيْهِ إعلاناً ، فذات مرة شاهده أحد
أصحابه وهو يقبل الحسن ويشمه فقال - وقد كره هذا العمل - : إن لي عشرة ما قبّلت واحداً منهم ، فقال
رسول الله : من لا يرحم لأُرحم . وفي رواية حفص قال : فغضب رسول الله (ص) حتى التمع لونه وقال
للرجل : إن كان الله نزع الرحمة من قلبك ما اصنع بك ؟ ثم لما رأى مناسبة سانحة أردف قائلاً :
" الحسن والحسين ابناي ، مَنْ أَحَبَّهُمَا أَحْبَبَنِي وَمَنْ أَحْبَبَنِي أَحَبَّ اللَّهَ ، وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهَ ادْخَلَهُ الْجَنَّةَ .
ومن أبغضهما أبغضني ، ومن أبغضني أبغضه الله ، ومن أبغضه الله ادخله النار " .
ثم أخذهما هذا عن اليمين وذلك عن الشمال ، مبالغة في الحب .
ولطالما كان يسمع الصحابة قولته الكريمة :
" هذان ابناي وابنا بنتي ، اللهم إني أحبهما ، وأُحب من يحبهما " .
أو كلمته العظيمة بقولها وهو يشير إلى الحسن (ع) ، " وأُحب من يحبه " .
ويرى أبو هريرة الإمام الحسن (ع) بعد وفاة جده الرسول فيقول له : أرني أقبّل منك حيث رايت رسول الله
يقبّل ، ثم قبّل سرّته . ومن ذلك يظهر أن رسول الله (ص) كان يعلن ذلك إعلاناً ، حتى يراه الناس جميعاً .
وقد بالغ النبي (ص) في مدح الحسنين ، حتى لكان يُظنّ أنهما أفضل من والدهما علي (ع) ، مما
حدا به إلى أن يستدرك ذلك فيقول : هما فاضلان في الدنيا والآخرة وأبوهما خير منهما .
.. وطالما كان يرفعهما على كتفيه - يدرع معهما طرقات المدينة والناس يشهدون ، وقد يقول لهما :
" نعم الجَمَلُ جَمَلُكُمَا ، ونعم الراكبان انتما " .
وطالما كان ينادي الناس فيقول :
" الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " .
أو :
" الحسن والحسين ريحانَتاي من الدنيا " .
أو :
" الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا " .
ولقد قال - مرة - :

" إذا كان يوم القيامة زين عرش رب العالمين بكلّ زينة ، ثم يؤتى بمنبرين من نور طولهما مائة ميل ،
فيوضع لدهما عن يمين العرش ، والآخر عن يسار العرش ، ثم يؤتى بالحسن والحسين ، فيقوم الحسن
على لدهما والحسين على الآخر ، يزيّن الربّ تبارك وتعالى بهما عرشه كما يزيّن المرأة قرطالها " .^٣

(٣) المصدر : (ج ٤٣ ، ص ٢٦٢) .

وعن الرضا عن آبائه عليه وعليهم السلام ، قال ، قال رسول الله ،
 " الولد ريحانة وريحانتاي الحسن والحسين " ^٤ .
 وعن رسول الله (ص) ، " من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني " ^٥ .
 وعنه (ص) ، " الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة " ^٦ .
 وروى عمران بن حصين عن رسول الله (ص) انه قال له ، " يا عمران بن حصين ! إن لكلّ شيء
 موقعا من القلب ، وما وقع موقع هذين من قلبي شيء قط ..
 فقلت ، كل هذا يا رسول الله !
 قال ، يا عمران وما خفي عليك أكثر ، إن الله امرني بحبهما " ^٧ .
 وروى ابو ذر الغفاري قال ، رأيت رسول الله يقبل الحسن بن عليّ وهو يقول ،
 " من أحب الحسن والحسين وذريتهما مخلصاً لم تفتح النار وجهه ، ولو كانت ذنوبه بعدد رمل عالج ،
 إلا أن يكون ذنباً يخرججه من الإيمان " ^٨ .
 وروى سلمان فقال ، سمعت رسول الله يقول في الحسن والحسين ،
 " اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من أحبهما .. " .
 وقال ، " من أحبّ الحسن والحسين أحببته ، ومن أحببته أحبه الله ، ومن أحبه الله ادخله الجنة ومن
 أبغضهما أبغضته ، ومن أبغضته أبغضه الله ، ومن أبغضه الله ادخله النار " ^٩ .
 وما إلى ذلك من اقوال مضيئة نعلم - علم اليقين - انها لم تكن صادرة عن نفسه ، بل عن الوحي
 الذي لم يكن ينطق إلا به .
 ولا زالت عناية الرسول تشمل الوليد حتى شبّ ، وقد اخذ من منبع الخير ومآثره ، فكان اهلاً لقيادة
 المسلمين . وهكذا راه الرسول ومن قبله إله الرسول ، إذ أوحى إليه أن يستخلف عليّاً ، ثم حسناً
 وحسيناً ، فملق بامر الناس بمودّتهم وأتباعهم واتخاذهم سبيلهم . ولئن شككنا في شيء فلن نشك في أن
 من رباه الرسول ، كان لولي الناس بخلافته .

بعد فقد الرسول :

وكان للحسن (ع) من العمر زهاء ثمانية اعوام حينما لحق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى (في السنة

(٤) المصدر : (ص ٢٦٤)

(٥) المصدر .

(٦) المصدر : (ص ٢٦٥)

(٧) المصدر . (ص ٢٦٩)

(٨) المصدر . (ص ٢٧٠)

(٩) المصدر . (ص ٢٧٥)

الحادية عشرة من الهجرة) فأنثر في قلبه ألم الفاجعة ، واضرم فيه نيران الكآبة والحزن .
ولانصراف دقة الحكم عن امير المؤمنين (ع) ، الذي كان له الحق الشرعي فيها ، احسن الحسن (ع)
بمزيد من الحزن والغیظ ، لا لأن والده حُرماً حقاً هو له ، او منصباً هو اهل له ، او زوي عنه من الدنيا ما
كان لهم .. كلا ، لأنه كان يرى ان انحراف المسلمين عن الجادة ، يعني انحذارهم الى هوة الضلال بعد
انتشالهم عنها ، ورجوعهم إلى مفاسد الجاهلية ، بعد تخلصهم منها ، لذلك حزن واشتد حزنه .
وذات يوم دخل المسجد فرأى الخليفة الأول يخطب في الناس على منبر جده ، بل ابيه ، فثارت في
فؤاده لوعة وكآبة ، فانقلب إلى غیظ وسخط ، فاخترق الجميع حتى بلغ المنبر قائلاً : انزل ، انزل عن
منبر ابي ..؟

فسكت الخليفة الأول ،

وكرر الحسن (ع) يقول ، وقد تقدم إلى المنبر شيئاً ، انزل ، اياك أعني . فقام صحابي ، وضم الحسن
(ع) إلى نفسه يسكت عنه الروح ، وساد الصمت حيناً ، ثم اخترقه الخليفة الأول وهو يقول ، صدقت فمَنبر
ابيك ، ولم يزد شيئاً . ولكنه عاتب علياً (ع) بعد ذلك وقد ظن انه اثار الحسن عليه ، بيد ان الإمام (ع)
حلف له انه لم يفعل .

ونلتقي بالحسن (ع) بعد هذا الحادث بثلاث وعشرين سنة حينما اندلعت الثورة الجامعة من
المسلمين تطالب الخليفة الثالث بخلع نفسه من الخلافة .. والثورة كانت تضطرم شيئاً فشيئاً ، وينضم
إليها المسلمون أفواجاً وأفواجاً .. وقد اشتد بهم الحنق على سياسة الخليفة وسلوك تابعيه ، وكانت الثورة
تتقاد بامر العظماء من اصحاب الرسول (ص) وزعماء المسلمين ، امثال عمار بن ياسر ، ومالك بن
الحارث (الأشتر) ، ومحمد بن ابي بكر ، غير انه انضوى تحت الويتهم عدة غير قليلة من سواد الشعب
من العراق ، ومصر وطائفة من الأعراب ، ولم يكن هؤلاء — طبعاً — ذوي سداد في الرأي ، وحنكة في
التجربة بل أولي نخوة ومصالح .. واشتد امر الثورة ، حتى حاصروا دار عثمان يطالبونه ، إما ان يخلع
نفسه وإما ان يلبي دعوتهم . وأبى عثمان إلا الإعتماد على جيش معاوية . الذي استنجد به وذلك الجيش
كان قد امره معاوية بالوقوف خارج المدينة حتى يأذن له بدخولها .

وذات يوم اراد الإمام امير المؤمنين علي (ع) ان يخبر عثمان بعزمه على الدفاع عنه ، والمشورة له
والنصح للعالم الإسلامي ، إن اراد ذلك .. ولكن من يبلغ هذه الرسالة إلى عثمان ، وحول بيته عشرات
الآلاف يهزون الرماح ويسلون السيوف . فقام الحسن (ع) قائلاً ، انا لذلك . ثم اخذ يخترق الجميع في
عزيمة الشجاع العظيم ، حتى أتى دار عثمان ، فدخلها بكل طمأنينة وبلغ رسالة والده ، وجلس ينصحه
ويشير عليه بالخير غير مبال بما يثيره الثوار خارج البيت من صلصلة سيوف ، ودمدمة سروج ، ودغدغة
رماح . فإنهم كانوا في حالة صرَع ، لا يؤمن ان يخترقوا الدار ، فيقتلوا من فيها ، وفيها الحسن . غير انه
جلس رابط الجاش ثابت العزيمة ، شجاع الفؤاد ، لأنه علم انه إن أصيب بشيء ففي سبيل النصح في

سبيل الله ودفع غائلة الفتنة عن المسلمين .

وهكذا جلس حتى أتم واجبه وبلغ رسالته ، ورجع يخرق جموع الثوار مرة أخرى ..
وحيثما آخر نجد الإمام الحسن (ع) ، وقد قتل عثمان وازدحمت الحوادث من بعده ، يرى من هنا معاوية يدعو إلى نفسه ، ومن هنا التاكثرون يحشدون الجيوش تحت قميص عثمان ، وقد أخرجت زوجة الرسول (ص) في الموكب لتنتقم .

والإمام الحسن (ع) كان يومئذ فتى له كل مؤهلات القيادة والوصاية ، وقد كان له الحظ الأوفر بعد أبيه في تسيير القضايا وتدبير الأمور ، والعالم الإسلامي آنذاك أحوج ما يكون إلى تدبيره وسياسته ، لأن خطاة واحدة كانت كهيئة بإبادتها رأساً .. والإمام أمير المؤمنين كان يتردد بين أمرين ما أصعب الاختيار بينهما . وهما أن يقعد ويتقاعس عن الحرب وقد أرادها له خصومه ليستولي على الأمور لولو المطامع والشهوات . أو أن يحارب - وقد فعل - وفي الحرب مذبة المسلمين ..

ولا يهمنا من ذلك إلا أن الإمام الحسن (ع) عاش تجارب والده الذي كانت تجاربه بنفسه . حيث إن والده العظيم كان يشاطره أمور الخلافة كلها لسببين :
أولاً ، لما كان فيه من الكفاءة والمقدرة .

ثانياً ، لكي يهدي الناس إلى الإمام من بعده ، وليروا في نجله العظيم القائد المحنك الحازم ، والحاكم العادل الرؤوف . ففي اليوم الذي بويع والده بالخلافة كان عليه أن يرقى المنبر على عادة الخلفاء من قبله ليبين سياسته ، لكي يكون الناس على خبرة وعلم . هكذا روت الأحاديث أنه (ع) استدعى الحسن (ع) ليصعد المنبر لنلا تقول قريش من بعده إنه لا يحسن شيئاً ، " هكذا " كما صرح بذلك أمير المؤمنين ذاته . فصعد المنبر ، ووعظ الناس وبلغ ، ثم راح الإمام يردد فضائل السبطين على الملأ العام .

وظل الحسن (ع) الساعد المتين لوالده العظيم ، في تلك الفتنة الكبرى ، التي رافقت خلافة علي (ع) ، نعم ففي فتنة البصرة بحث الإمام نجله على رأس وفد فيه عبد الله بن العباس ، وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ، يستنفر أهل الكوفة لحرب الغدرة من اصحاب الجمل ، وقد حمل معه كتاباً عن أمير المؤمنين فيه عرض خاطف عن قصة مقتل عثمان ، وبيان الحقيقة في ذلك .. فجاء الإمام ، يريد استنهاض الناس الذين كانت ، ولازالت ، ولاتها تنبطلهم عن الخروج مع الإمام فعاتب أولاً موسى الأشعري المراءوغ ، على تثبيطه الناس ، وكان يومئذ والياً على الكوفة ، ثم تلا عليهم الكتاب بنصه ،
" إنني خرجت مخرجي هذا ، إما ظالماً وإمّا مظلوماً ، وإمّا باغياً وإمّا مبعثاً عليّ ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلا نفر إليّ ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً استعنتني " .

ثم أخذ يحثهم على الجهاد وهو يقول على ما في بعض الروايات ،
" أيها الناس إننا جننا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفاقه من نفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، ولوفى من تنايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تحله السنة ،

ولم تقعد به السابقة . إلى من قرَّبه الله تعالى ورسوله ، قرابتين ، قرابة الدين ، وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كلِّ مآثرة . إلى من كفى الله به ورسوله ، والناس متخاذلون . تقرَّب منه والناس متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم مُحجمون ، وصدقَه وهم يكذبون ، إلى من لا ترد له راية ولا تكافأ له سابقة .

وهو يسالك النصر ويدعوكم إلى الحقِّ ويأمركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتتصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثَّلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ماله ، فلشخصوا إليه رحمكم الله ، فامروا بالمعروف ، وأنهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون .. " .

هكذا اتم المقطوعة الأولى من خطبته .. فبيِّن لهم أولاً دستور صاحب الدولة ، بنص الكتاب الذي ارسله الخليفة ، ثم راح يبيِّن شخصية الداعي لهم حتى ياتمنوه على دينهم وديناهم . ثم اخذ ببيان جانب الفتنة ليعت فيه الروح الإنسانية التي تحثهم على الدفاع عن المقدَّسات ، واخيراً تكلم معهم عن الناحية الدينية ، فابْلَغ بذلك كمال مراده .

ثم أتبع هذه الخطبة ، بأخرى ، الهب فيها حماساً ، ودعا إلى الجهاد ، ولازال بهم حتى إحتشد منهم جمع كثير ، وكان هناك تدابير لخرى تتبع هذه الخطب ، وتنفيذا .

وسار الجيش إلى البصرة ، والتقى الفريقان والتحم الجيشان ، وراى الإمام ، ان الراية المعادية هي المركز الذي يجب ان يقصد ، فإن وقعت فالعدو منهزم ، وإن بقيت فإن في ذلك مقتل كبيراً من الفريقين ولا يريد ذلك الإمام (ع) .

‘ فتوجه إلى محمد بن الحنفية - نجله الشجاع الصنديد الذي كان مضرب المثل في الناس بالقوة والشجاعة - يأمره بالإقدام ، ومحاولة اسقاط العلم ، وقد كانت تلك المحاولة صعبة جداً ، حيث إن الجيوش كانت تعتبر العلم كلَّ شيء في نصرها أو هزيمتها ، فكانت تدافع عنه بما لوتيت من قوة وبأس . فاقدم محمد في عزيمة ثابتة ، بيد انه لم يَخْطُ خطوات حتى عرف الخصم مداومه ، فجعل الجيش كله يُمطر عليه السهام ، فإذا به يجد نفسه تحت وابل من النبال ، فرجع إلى مركز القيادة عند امير المؤمنين .. فزجره الإمام فاجاب ، إنه إنما صبر حتى يخف النبل وثم يتابع زحفه وهنا يكتب بعض الرواة، ان الإمام عزم على إنجاز المهمة بنفسه ، بيد ان الإمام الحسن قام يكفيه ذلك ، فقال له والده ، بعد تردد ربما كان ناشئاً عن محافظته الكبيرة على حياة السبطين لأنه كان ينحدر منهما نسل النبي (ص) ، فإذا استشهد فمن الذي يحفظ نسب النبي (ص) ؟ . ومن الذي يكون امتداداً له ؟

قال له بعد ان تردد بعض الوقت ، سر على اسم الله .

واقتحم الإمام خضم الجيش .. فتقاطرت عليه النبال ، وعلي (ع) ينظر إليه عن كتب ، ومحمد على جنبه يرق .. ولم يزل الحسن (ع) يغيب في لجج الرجال ويطفو عليها حيناً آخر ، حتى بلغ مركز الراية فاسقطها ، وهزم الجيش وتمَّ النصر على يده (ع) .

.. ولو ظللنا نتابع الأحداث التي جرت على خلافة أمير المؤمنين .. نتحسس عن شخصية الإمام الحسن (ع) ، لطال ذلك بنا كثيراً ، لأنها كانت الشخصية الثانية في تلك الأحداث الرهيبة ، ولها من اللعان والموضاعة ما يبهر الأبصار ويدهش العقول .

الفصل الثاني

عهد امامته

وتمت المؤامرة الكائنة باغتيال الإمام أمير المؤمنين (ع) في التاسع عشر من شهر رمضان .. سنة أربعين هجرية .. والعالم الإسلامي يومئذ في أشد ما يكون من الإضطراب والتوتر .
فها هنا الخوارج ظلّ بقايا منهم هنا وهناك يدعون الناس إلى حكم الله الذي لا يتعلق بأي من القيادتين الشامية والكوفية - في زعمهم - بل يعيش بغير قيادة ١١ وانضوى تحت لوائهم الكثيرون من القشريين والمفسدين ، ممن لم يكن يعجبه الحق المتمثل في معسكر الإمام علي ولا نوع الباطل في معسكر الشام . وكان هؤلاء يستسهلون في سبيل إيادة الحكم ، كلّ صعب ، ويبررون كلّ فساد .
وهناك في الشام ، يحشر معاوية جيشه لتجريد حملة عسكرية أخرى على الكوفة يكون فيها الفصل ، ويكتب إلى عماله يقول ما هذا نصه بالحرف ،

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ، ومَنْ قَبْلَهُ من المسلمين ، سلام عليكم .. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم فترك أصحابه محرّفين مختلفين ، وقد جاعنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم . فاقبلوا إليّ حين ياتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم ، وحشد عدتكم . فقد أصبتم بحمد الله الثار وبلغتم الأمل ، واهلّ الله اهل البغي والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ١٠ - ١١
أما الخوارج فإنهم وإن كانوا سوف يؤيونه ضد معاوية ، إلا أنهم سوف لايزيدونه غير تخسير ، لأنهم لايعتقدون به كما أنهم لا يعتقدون بمعاوية سواءً بسواء .

ولنلق نظرة إلى بيت الإمام علي (ع) ، لنرى كيف يخبت فيه نور الإمام وسناؤه ، ليدفن مع جثمانه الطاهر في ظهر الغريّ في خفاء ، وعلى أشد الحذر من الخوارج إن يعرفوا مرقده ، فيفكروا في الإنتقام لصاحبهم (ابن ملجم) الذي احرق جثمانه ، ولخوفهم ومن غيرهم كجواسيس بني امية الذين لايفترون

(١٠) شرح ابن أبي الحديد : (ج ٤ ، ص ١٣) .

(١١) لايد أن نبيه القارئ إلى ما احتوت عليه رسالته من الدجل .

الرسالة هي : أن معاوية ذكر كتاب أشراف العراق إليه فإن كان ذلك كما ذكر فلم هذه الحرب ولم حشد الجيش ولمحاربة مَنْ ؟ إذا كان اهل العراق يريدون حكومته فلم يجمع ستين ألفاً ، يحرّج بهم إليه ، وقد كان يمكنه أن يدخله مع شرذمة من أصحابه .

عن نقل الأخبار إلى الحزب الأموي ١٢ .

ثم يرجع المشيعون من أبناء علي (ع) وأقربائه ، ولا يزالون يقيمون العزاء إذ يدخل عليهم عبيد الله بن العباس ، الذي كان والياً على البصرة من قِبَلِ علي (ع) .. فيخرج الحسن إلى المسجد والمسلمون ينتظرون مقدمه على لَحْرٍ لانتظار .. ذلك لأنه قبل أن يدخل على الإمام ، وقف في الراس خطيباً ، وقال : إن أمير المؤمنين تُوفِّي وقد ترك لكم خَلْفاً فإن أحببتم خرج إليكم وإن كرهتم فلا لأحد على أحد . فضج الناس بالبكاء والوعويل ، وكان قول ابن العباس فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْكَأْبَةِ والحزن في القلوب ، ثم نادوا بعلی اصواتهم ، بل يخرج إلينا ، فخرج إليهم الإمام الحسن (ع) ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم لبَّنَ فقيد العالم الإسلامي ، وقال :

" لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولم يدركه الآخرون بعمل ، لقد كان يجاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه ، وكان رسول الله (ص) يوجهه برأيه فيكتفه جبرئيل (ع) عن يمينه وميكائيل عن شماله ، ولا يرجع حتى يفتح الله على يديه . ولقد تُوفِّي في هذه الليلة التي عرج فيها عيسى ابن مريم ، وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى (ع) . وما خَلَفَ صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم ، فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله .. " .

ثم خنقته العبرة ، فبعث بأنفاسه زفرات يهز الصخر لها لوعةً وأسىً ، وارتفع من الناس حشرات تبعها أهات وأهات ، ثم قال :

" أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فلنا " الحسن بن علي " وأنا ابن النبي ، وأنا ابن الوصي ، وأنا ابن البشير النذير ، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرئيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا ، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم ، فقال تبارك وتعالى لنبيه (ص) : قل لا أسألكم عليه أجراً ومن يقترب حسنة نزل له منا حسناً . فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت " .

وهكذا انتهالت الجماهير إلى بيعة الإمام الحسن (ع) ، عن رضا وطيب نفس ، لأنهم رأوا فيه المثال الفاضل لمؤهلات الخليفة الحق ، (وعلى كل حال يجب أن يكون إمام المسلمين مختاراً من قبل الله تعالى منصوباً عن لسان النبي (ص) قمة في المكرمات والفضائل ، أكفأ الناس ولورعهم وأعلمهم والحسن (ع) كذلك ، قد توفرت فيه شروط والي أمر المسلمين بأكمل وجه وأحسنه . وهو صاحب النص الماثور عن الرسول العظيم ، الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا .. وهو الذي شهد والده في حقه فقال :

" هم " يعني آل الرسول " عيش العلم ، وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقتهم ، لا يخالفون الحق ، ولا يختلعون فيه . هم دعائم الإسلام ، ولولائهم

(١٢) وفي التاريخ مطالب يقشعر منها الجلد ، فلقد سبى بو أمية آلاف من المقار علمهم يعثرون على حثما علي (ع) .. فيستشعروا بإهانتهم وأبى الله عليهم ذلك وآمانهم مرعومة .

الاعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواية العلم كثير ورعاته قليل .

.. وبإيعه الناس بعد ان حضّهم عليها خيار الصحابة والأنصار ، فقد قال في ذلك عبيد الله بن العباس ، " معاشر الناس هذا ابن نبيكم ، ووصي إمامكم فبايعوه " .

.. وكان للإمام الحسن (ع) حُبٌ في القلوب نابعٌ عن صميم قلوب المسلمين .. وقد اتخذ أصله عن حُبِّ النبي (ص) له ، وحُبِّ الله تعالى لمن أحبه النبي .

اضف إلى ذلك ، ما كانت تقتضيه الظروف ، من رجل يقابل معاوية ومن التفُّ حوله من الحزب الأموي الماكر .. وله من كفاءة القيادة ، وسداد الرأي ، والمودة في قلوب المسلمين .

لذلك اسرع المسلمون إلى بيعته قائلين ، " ما أحبه إلينا ، واوجب حقّه علينا ، وأحقه بالخلافة " .

وجاء في مقدمة الزعماء المجاهدين الأنصاري الناصر ، قيس بن سعد فبايعه وهو يقول ،

(أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه .. وقتال المظلمين !) .

فقال له الإمام ، " على كتاب الله وسنة نبيه ، فإنهما يأتيان على كل شرط " .

.. وتمت البيعة ، في العقد الثالث من شهر رمضان المبارك بعد أربعين عاماً من الهجرة النبوية .. وكلما دخل فوج يبایعونه قال لهم ،

" تبایعون لي على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت .. " .

.. فلما استوى الإمام (ع) على الحكم ، فرضت عليه مسؤولية حسم الخلاف بين المعسكرين ، الذي كان في طريقه إلى هدّ ركن الإسلام هدّاً ، حيث إن الكفار في أطراف البلاد الإسلامية كانوا يترصدون بها الدوائر حتى إذا راوا ضعفاً أو ثغرة سددوا ضربة مؤلمة عليها .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانت أنباء جيش الشام تذاع في الكوفة والبصرة وسائر البلاد مع شيء من المبالغة . وكان الجميع يعلم أن حرباً وشيكة تنتظرهم .

وعندما حشد معاوية جيشه الجرار الذي انتهى عدده إلى ستين ألفاً ، وقاده هو بنفسه بعد ما استخلف مكانه الضحّاك ، فكان على الإمام (ع) أن يحشد قوة الحق أيضاً لتقابل جولة الباطل ، بيد أنه رأى أن يرأسه قبل ذلك ، إتماماً للحجة وقطعاً للعذر .

فأرسل إليه كتاباً ، هذا بعضه ،

" فلما توفي (أي رسول الله (ص)) تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته ولولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت أن القول ما قالت قريش وإن الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد فأنعمت^{١٣} لهم وسلّمت إليهم ، ثم حاجتنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت

(١٣) أي صدقتهم بقوله : نعم .

به العرب فلم تتصفنا قريش بإنصاف العرب لها . إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والإحتجاج ، فلما صرنا أهل بيت محمد ولولياهه إلى محاججتهم وطلب النصف منهم ، باعدونا واستولوا بالإجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا ، فالموعد الله وهو الولي النصير .

ثم قال ، " فاليوم فليتعجب من تَوَكُّبِك يا معاوية على امر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ، ولا اثر في الإسلام محمود ، وانت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه ، والله خصيمك فَسْتَرِدْ وتعلم لمن عقبى الدار . وبالله لَتَقِيَنَّ عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدّمت يداك وما الله بظلام للعبيد ..

.. وقال ، " وإنما حملني الى الكتابة إليك ، الإعتذار فيما بيني وبين الله عز وجل في امرك ، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم ، والصالح للمسلمين ، فدع التمادي في الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي ، فإنك تعلم اني احق بهذا الأمر منك عند الله ، وعند كل أبواب حفيظ ، ومن له قلب منيب . وائق الله ودع البغي ، واحقق دماء المسلمين . فوالله مالك خير في ان تلقى الله من دمانهم بالكثير مما انت لاقيه به ، وادخل في السلم والطاعة ، ولا تتنازع الأمر أهله ومن هو احق به منك ، ليطفى الله النائرة بذلك ، ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين ، وإن انت ابيت إلا التمادي في غيك ، سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .. " .

.. ويعد ما تُبَوِّدُ لت الرسانل بين القيادتين .. ومنها رسائل الحسن (ع) تقوم بالحجة الدامغة التي ملاكها النقد والتجربة ، ورسائل معاوية التي تقوم على المراوغة وإعطاء اليهود والمواثيق على تقسيم بيت المال على حساب الوجاهات والمراتب القبلية الزائفة بعد ذلك وردت الأنباء بخبر احتشاد الجيش الأموي وابتدائه بالمسير الى الكوفة ، وكان على الإمام (ع) ان يتصدى لمقابلته ، ولكن طريقة تعبئة الجند عند الإمام كانت تختلف كثيراً عن طريقة معاوية في ذلك . فمعاوية كان ينتقي ذوي الضمان الميته ، والقلوب السود ، فيشتريها باموال المسلمين ، وكان يستدعي بعض النصاري فيغريهم بالاموال الطائلة لمحاربة الإمام ، وهم انداك لا يرون فصيلاً من ذلك لأنهم كانوا يرون في شخص الإمام (ع) المثال الكامل للإسلام، ذلك الدين الذي يبغضونه ويعادونه .

اما الإمام (ع) ، فإنه كان يلاحظ في الجند اشياء كثيرة . فلم يكن يطعم اصحاب الوجاهة ويترك السواد يتضورون جوعاً . ولم يكن يعد الناس بالوعود الفارغة ثم يخلفها بعد ان يستتب له الأمر . ولم يكن يهب ولاية البلاد المختلفة بغير حساب لهذا لو ذاك ، ولا كان يحمل الناس على الحرب حملاً قاسياً وهم لها منكرون .. ولم يكن يبني للجند الفتك ، وهتك الحرمات وابتغى الاسرى ، وهو (ع) يعتبر عدوه فئة باغية من المسلمين يجب ان تردع بالحسن طريقة ممكنة ، ولكن معاوية وحزبه كانوا يرون مقابلتهم عدواً سياسياً يجب ان يُمزق بأي اسلوب .

ولذلك فقد كان جمع الجيش ميسراً عند معاوية ، وعلى عكس الأمر عند الإمام (ع) حيث كان ذلك من

الصعوبة بمكان .

ولطالما أشار عليه بعض أصحابه بأن يتبع منهج معاوية في ذلك فأبى وانكر عليهم الميل إلى الباطل والانحراف عن الحق .

وقد كتب إليه عبيد الله بن العباس واليه على البصرة يقول :

أما بعد ، فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد علي (ع) فشمّر للحرب وجاهد عدوك ، وقارب أصحابك واشتر من الظنين دينه بما لا يلثم لك دنياه ، وولّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائهم ، حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس مالم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل وعزّ الدين ، خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ، وذل المؤمنين وعزّ الفاجرين ، واقتدر بما جاء عن ثمة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً مالم تبطل حقاً .

وإعلم إن علياً أباك ، إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه أسى بينهم في الفية ، وسوّى بينهم في العطاء فتقل عليهم . وإعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام ، حتى ظهر أمر الله . فلما وحدّ الرب ومحقّ الشرك وعزّ الدين ، اظهروا الإيمان وقرأوا القرآن ، مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وآتوا الفرائض وهم لها كارهون " .

ثم راح ابن العباس يستعرض الوضع الاجتماعي والمساوئ التي فيه ، ويبين طبيعة البيت الأموي وماضيه وحاضره هذا .. ولكن الإمام (ع) أبى إلا أن يلزم الحقّ شرعاً ومنهاجاً ، ويتبع السبيل القويم ، أبداً ودائماً .

ومع ذلك فقد حشدّ من أهل الكوفة عدداً كبيراً ، ولم يهمنّا تحديده وضبطه ، ولكن الذي يهمنّا تحليل نفوس المنتسبين إليه ، ومن كانوا ، ولمْ جاؤوا وماذا كانت النتيجة ؟

لقد قسمّ المؤرخون جيشه إلى أقسام :

١- الشيعة المخلصون الذين اتبعوه لأداء واجبهم الديني ، وإنجاز مهمتهم الإنسانية ، وهم قلة .

٢- الخوارج الذين كانوا يريدون محاربة معاوية والحسن ، فالآن وقد سنحت الظروف فليحاربوا معاوية حتى يأتي دور الحسن (ع) .

٣- أصحاب الفتن والمطامع الذين يبتغون من الحرب مغنماً لدنياهم .

٤- شكّاكون لم يعرفوا حقيقة الأمر من هذه الحرب ، فجاءوا يلتمسون الحجة لأيّ تكون ، يكونون معه .

٥- أصحاب العصبية الذين اتبعوا رؤساء القبائل على استقزالهم لهم على حساب القبيلة والنوازع الشخصية .

هذه هي العناصر الأصلية للجيش ، وهي طبعاً لا تفي لإنجاز المهمة التي تكون من أجلها ، حيث إن الحرب تريد الإيمان ، والوحدة ، والطاعة .

ثم بعث بلول سريةً لتتشكل مقدمة الجيش تحت إمرة عبيد الله بن العباس ، الذي فضل لهذه المهمة من جهات شتى ،

أولاً ، لأنه كان الداعية الأول للحرب .

وثانياً ، لأنه كان ذا سمعة طيبة في الأوساط .

وثالثاً ، لأنه كان موطوراً بولديه العزيزين الذين قتلتهما جنود معاوية . ثم إنه كان يشده إلى الإمام القرابة . وزحف ابن العباس بالجيش إلى (مسكن^{١٤} على نهر دجلة) التقى بمعسكر معاوية ، ينتظر تلاحق السريّات الأخرى من الكوفة .

وفي الكوفة ، خليط من الناس مختلفون ، فهناك من أنصار معاوية الذين أفسدتهم هدايا الحزب الأموي ومواعيده ، وهناك بعض الخوارج القشريين ، وهناك من يثبط الناس عن الجهاد ، وهناك أهل البصائر يلهبون حماس الشعب ، ويحرضونهم لقتال أهل البغي بشتى أساليب الاستنهاض . والإمام الحسن (ع) لا يزال يبعث الخطباء المفوّهين ، والوجهاء البارزين إلى الأطراف ، يدعوهم إلى نصرته ، ولا يزال أيضاً يلهب أفئدة الكوفيين بالخطبة إثر الأخرى .

ولكن أهل الكوفة كانوا باردئين كالطلع أمام هذه الدعوة ، لأن الحروب الطاحنة التي سبقت عهد الإمام (من الجمل إلى صفين والنهروان) قد أنهكتهم ، وقد أعرب الإمام الحسن نفسه في مناسبة عن هذه العلة التي تثبط عزيمة أهل الكوفة عن الخروج معه فقال ،

" وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودينكم أمام دينكم . وأنتم بين قتيلين ، قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره . فأما الباقي فخاذل ، وأما الباكي فثائر " .

وبالرغم من معاكسة كل الظروف ، فإن أصحاب الحق قرروا اقتحام غمار الجهاد المقدس ، عليهم يكونون الفاتحين .

ولكنها فعلت مكاند معاوية فعلها ، حيث كان قد سخر طائفة غير قليلة من ذوي الأطماع ، يدبرون له مؤامراته ، فيبشون الشائعات عن قوة جيش الشام ، وقلة جند الكوفة ، وضعفه ، وعدم القدرة على مقاومته ، وعملت الدنانير والدراهم عملها الخبيث الأرعن ، فإذا بالعدة المعتمد عليها من قواد جيش الإمام الحسن (ع) ينهارون أمام قوة إعلام معاوية ، أو قوة إغرائه .

ورغم أن قيادة السرية من جيش الإمام ، كانت حكيمة ، تحت لواء عبد الله بن العباس فقد ذهبت ضحية مكر معاوية ، وتغدير القائد ، وإليك القصة ،

أرسل الإمام ابن عمه لملاقة معاوية وكتب إليه هذه الوصية ،

(١٤) موصع قريب من (أوانا) على نهر دجلة .

" يا ابن العم ، اني باعث إليك اثني عشر ألفاً ، من فرسان العرب ، وقرأ مصر ، الرجل منهم يريد الكتيبة . وسير بهم وألن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأذنهم من مجالسك ، فإنهم بقية ثقة أمير المؤمنين . وسير بهم على شط الفرات ، ثم امض حتى تستقبل معاوية . فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى أتيك ، فاني على اترك وشيكاً . وليكن خبرك عندي كل يوم ، وشاور هذين - يعني قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس - فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله ، حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، فإن أصيب فسعيد بن قيس على الناس " ^{١٥} .

ثم سار بنفسه - بعد ليام - في عدد هائل من الجيش ، لعله كان ثلاثين ألفاً أو يزيدون ، حتى بلغ مظام ساباط ، التي كانت قريبة من المدائن ، فعملت دسائس معاوية في مقدمة جيش الإمام ، فلادع بين الناس نبأ كان له لثر عميق في صفوف الجيش . وكان النبا يقول : (إن الحسن يقاتل معاوية على الصلح فلم تقتلون أنفسكم ؟) ثم أخذ يستميل قادة الجيش بالمال والوعود ، فإذا هم يتسللون إليه في خفاء ، ويكتب عبيد الله نبأ ذلك إلى الإمام . ولكن مؤامرتة تلك لم تكن بذات أهمية ، حتى اشترى ضمير القائد الأعلى فكتب إليه يقول :

إن الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إليّ ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن لجبتني الآن اعطيك ألف ألف درهم عاجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

إن معاوية مكر بعبيد الله بثلاثة أساليب ، فإنه قال له ، أولاً : إن الحسن يرأسه في الصلح ، وهذه أول ما هدت أركان عبيد الله فقال في نفسه ، إذن فلم أسيء سمعتي في التاريخ ، وأحمل خطيئة الدماء التي تهراق تحت لوائي . ثم قال له ، ثانياً : كن متبوعاً ، فخره بالرياسة . وأخيراً وعده بمليون درهم وهذا الأخير كان أهم الثلاثة ، في شخص الزمه إمامه بالعدل ، والمساواة مع أقل الناس .

فانسَلَّ عبيد الله القائد العام دون أن يخبر أحداً ، فاصبح الجيش يبحث عن القائد ليقيم بهم صلاة الصبح فلا يجده ، فقام قيس الثاني للجيش يصلي بالناس الصبح ، ثم لما انتهى خطب فيه يهدئ روع الناس ، ويطمئن قلوبهم ويقول :

إن هذا وإباه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عم رسول الله ، خرج يقاتله ببدر ، فأسره كعب بن عمرو الأنصاري ، فأتي به رسول الله (ص) فاخذ فداءه ، فقسّمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولّاه عليّ على البصرة فسرق ماله ، ومال المسلمين ، فاشترى به الجوّاري ، وزعم أن ذلك له حلال . وإن هذا ولّاه عليّ على اليمن ، فهرب من بسر بن أرطاة وترك ولده ، حتى قتلوا وصنع الآن هذا الذي صنع .

(١٥) بحار الأنوار : (ج ٤٤ ، ص ٥١) .

فإذا بالجيش يصبح مؤيداً .

الحمد لله الذي أخرجه من بيننا . إلا أن هذا الجيش الذي هرب قائده إلى معسكر العدو ، لم يكن في وضع يقاوم جيش معاوية لذلك تفرق أكثره ولم يبقَ منه إلا ربع عدده أربعة آلاف فقط .

وإن هذا العدد الهائل الذي انتقص من اثني عشر بعث الخبية في نفوس الجند في المقدمة ، كما بعث الخبية في نفوس سائر الجيش الثاوي في مظلم ساباط ، حيث كان الإمام وحيث كان الجيش الذي انتشرت فيه دعايات معاوية ، التي لازالت تبث فيه عبر جواسيسه . وبدأ بعضهم يتسللون إلى معاوية وكتب بعضهم إليه أن لو شئت جئنا بالحسن إليك أسيراً ، ولو شئت قتلناه . وجاءت عطايا معاوية التي زادت على مئة ألف غالباً ، ووعوده بتزويج بناته لهذا القائد أو ذاك .

وهكذا نستطيع أن نعرف مدى ضغط الظروف التي أجبرت الإمام (ع) على الصلح ، من هذه الخطبة اللاهية ، التي ألقاها على مسامع المساومين بالضمائر ، الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من جيشه (ع) . ويظهر من هذه الخطبة أنهم كانوا متاثرين بدعايات معاوية إلى حد بعيد ، حيث كانوا يلهون على الإمام بالتنازل عن حقه ومبايعة معاوية والإمام يابى عليهم ذلك ، كما يظهر أنه كان من الوجهاء من فكر في اغتيال الإمام ، كما اغتال صاحبه أباه (ع) .

وبعد كل ذلك كانت الظروف تكرر الإمام على الصلح مع معاوية إلى لجل هم بالغوه ، فكتب إلى معاوية لو كتب إليه معاوية ، على اختلاف بين المؤرخين في شأن الصلح ، ورضي الطرفان بذلك بعد أن اتفقا على بنوده التي لم تكن ترجع إلى الإمام إلا بالخير ، وعلى الأمة إلا بالصلاح . ومن راجع كلمات الإمام الحسن (ع) التي قالها بعد الصلح لأصحابه بعد أن انكروا عليه ذلك يعرف مدى ثلث قضيته بالظروف المعاكسة التي لم تزل ترفع إليهم بالفتنة إثر الفتنة .

١٦

لقد قال لأحدهم إذ ذاك ،

" لست مثلاً للمؤمنين ، ولكني معزهم ، ما أردت بمصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل ، عندما رايت تهاطل أصحابي ونكولهم عن القتال " .

وقال للآخر في هذا الشأن - وقد كان من الخوارج الذين لم يكن بغضهم للحسن (ع) وشيعته باقل عن بغضهم لمعاوية وأصحابه - قال له ،

" ويحك ليها الخارجي !! لا تقض ، فإن الذي أحوجني إلى ما فعلت قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي . وأنكم لما سرتم إلى صوفين ، كان دينكم أمام دنياكم ، وقد اصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ويحك ليها الخارجي ! إنني رايت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم ، وما اغتر بهم إلا من ذل ، وليس أحد منهم يوافق رأي الآخر . ولقد لقي أبي منهم اموراً صعبة ، وشدائد مرّة ، وهي اسرع البلاد خراباً

(١٦) قال ذلك .

وأهلها هم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً" ١٧ .

ولذلك ولغيره من الأسباب صالح الإمام معاوية وكتب إليه هذه الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب ، معاوية بن أبي سفيان ، صالحه على أن يسلم إليه ولاية الأمر على :

١- أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢- وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً ، بل يكون الأمر بعده للحسن ثم لأخيه الحسين .

٣- وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم .

٤- وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وولادهم . وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء وبما أعطى الله من نفسه .

٥- وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ، غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الأفاق .

تعهد عليه فلان بن فلان ، بذلك وكفى بالله تعهداً" ١٨

والموثوق أن محل الصلح كان مسكن ساباط ، قريباً من موقع مدينة بغداد اليوم ، حيث كان محسكراً الإمام الحسن (ع) . فلما أن تم ذلك رجع الإمام بمن معه إلى الكوفة .

إستراتيجية الصلح عند الإمام الحسن (ع) :

ما أكرم أباً محمد الحسن المجتبي (ع) ، وأسخى تضحيته حين أقدم على " الصلح " الذي اعتبره بعض حواريه ذلاً وزعماً لعداؤه جبناً واستسلاماً ، ولم يكن إلا أروع صور النصر على الذات ، ومقاومة نزوة الهوى والمحافظة على دماء المسلمين ، وتحقيقاً لكلمة الرسول الصادق المصدق (ص) حين قال :

" إن ابني هذا سيد ، ولعل الله عز وجل يصلح به بين فئتين من المسلمين " ١٩ .

فلولا أن الحسن كان قدوة الصلاح ، وأسوة التضحيات ، وجماع المكرمات ، وكان بالتالي الإمام المؤيد بالغيب . لتمزقت نفسه الشريفة بصعود معاوية أريكة الحكم ، وهو الذي قال فيه الرسول (ص) ،

" إذا رايت معاوية هذا على منبري فاقتلوه ، ولن تفعلوا " .

(١٧) تذكرة الخواص : (ص ٢٠٧) .

(١٨) ذكر هذه الوثيقة العلامة باقر شريف القرشي عن الفصول المهمة : (ص ١٤٥) وكشف الغمسة : (ص ١٧٠) والبحار : (ج ١٠ ، ص ١١٥) . وغيرها ثم علق عليها هذه الصورة أفضل صورة وردت مبينة لكيفية الصلح .

(١٩) بحار الأنوار : (ج ٤٣ ، ص ٢٩٨) .

ولولا اتصال قلبه الكبير بروح الرب إذاً لمات كمدأ . حيث كان يرى تقهقر المسلمين وصعود نجم
الجاهلية الجديدة .

ولولا حلمه العظيم النابع من قوة إيمانه بالله وتسليمه لقضائه ، إذاً ما صبر على معاوية . وهو يرقى
منبر جده ، ويمزق منشور الرسالة ، ويسب لعظم الناس بعد الرسول .

بلى ، ولكن الحسن (ع) اثر الآخرة على الدنيا . وقبل الصلح للأسباب التالية ،
١- إن نظرة اهل البيت (ع) إلى الحكم كانت تنبع من انه وسيلة لتحقيق قيم الرسالة . فإذا مال الناس
عن الدين الحق ، وغلبت المجتمع الطبقات الفاسدة ، ولزادت تحويل الدين إلى مطية لمصالحهم
اللامشروعة .

فلماذا ذهب الحكم إلى الجحيم .. لتبقى شعلة الرسالة متقدة ، ولتصب كل الجهود في سبيل إصلاح
المجتمع أولاً ، وبشتى الوسائل المتاحة .

لقد قال الإمام علي (ع) عن أسلوب الحكم ،
" والله ما معاوية بادى مني ، ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس . ولكن
كل غدره فجرة وكل فجرة كفرة ، وكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة . والله ما أستغفل بالمكيدة ولا
أستغمر بالشديدة " .

اما عن نظرته إلى الحكم ذاته فقد روي عن عبد الله بن العباس انه قال ،
" دخلت على أمير المؤمنين (ع) وهو يخصف نعله . فقال لي ، ما قيمة هذا النعل ؟ .
فقلت ، لا قيمة لها .

فقال (ع) ، والله ليهي أحب إلي من امرتكم ، إلا أن أقيم حقاً أو ادفع باطلاً " ٢١ .
٢- ولقد عاش الإمام الحسن (ع) مرحلة هبوط الروح الإيمانية عند الناس ، وبالأذات في القبائل العربية
التي خرجت من جو الحجاز . وانتشرت في أراضي الخير والبركات ، فنسيت رسالتها أو كادت .
فهذه كوفة الجند التي تأسست في عهد الخليفة الثاني لتكون حامية الجيش ، ومنطلقاً لفتوحات
المسلمين الشرقية ، أصبحت اليوم مركزاً لصراع القبائل ، وتسييس العسكر . واخذ يتبع من يعطي أكثر .
فبالرغم من وجود قبائل عربية حافظت على ولائها للإسلام والحق ، ولخط اهل البيت الرسالي . إلا أن
معظم القبائل التي استوطنت ارض السواد حيث الخصب والرفاه بدأت تبحث عن العطاء ، حتى انهم
تفرقوا عن القيادة الشرعية ، وبدأوا يرسلون المتمردين في الشام حينما عرفوا أن معاوية يبذل اموال
المسلمين بلا حساب ، بل إنك تجد ابن عم الإمام الحسن وقائد قوات الطليعة في جيشه . عبيد الله بن
العباس . يلتحق بمعاوية طمعاً في دراهمه البالغة مليون درهم .

(٢٠) نهج البلاعة : (ص ٣١٨) . كلمة (٢٠٠) اعداد صحي الصالح - .

(٢١) المصدر : (ص ٧٦)

ونجد الكوفة تخون مرة أخرى إمام الحق الحسين (ع) ، حينما يبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل . فيأتيهم ابن زياد ويمنيهم بأن يزيد في عطائهم عشرة . فإذا بهم يميلون إليه ويُقاتلون سبط رسول الله وأهل بيته بأبشع صورة ، ودون أن يسألوا ابن زياد عما يعنيه بكلمة عشرة . فإذا به يزيد في عطائهم عشرة تمرات فقط .. ولعلهم كانوا يمنون أنفسهم بعشرة دنائير !!

لقد تعبت الكوفة من الحروب ، وبيدات تفكر في العيش الرغيد . وغاب عنهم أهل البصائر الذين كانوا يحومون حول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ويذكرون الناس باليوم الآخر . ويبينون للناس فضائل إمامهم الحق . لقد غاب عنهم اليوم عمار بن ياسر الذي كان ينادي بين الصفيين في معركة صفين ، الرواح إلى الجنة^١ . ومالك الأشتر الذي كان لعل (ع) مثلما كان علي لرسول الله (ص) بطلاً مقدماً . وقائداً ميدانياً محنكاً .

وغاب ابن التيهان الذي يعتبره الإمام علي (ع) لخاً له ، ويتاوه لغيابه ، بل لقد غاب أهل البصائر من أصحاب الرسول وانصار علي (ع) الذين كان أمير المؤمنين (ع) يعتمد عليهم في إدارته للحروب .. وغاب القائد المقدم ، البطل الهمام ، الإمام علي (ع) أيضاً ، بعد أن أنهى سيف الغدر حياته الحافلة بالأسى ، فإنه كان قد صعد المنبر قبيل استشهاده ، وقد نشر المصحف فوق رأسه وهو يدعو ربه ويقول :
 " ما يحبس اشقاكم أن يجيء فيقتلني ، اللهم إني قد سئمتهم وسئمونني ، فأرحهم مني وأرحني منهم " ^{٢٢} .

وبالرغم من أن الإمام علياً كان قد جهز جيشاً لمقارعة معاوية قبيل استشهاده ، وهو ذلك الجيش الذي قاده من بعده الإمام الحسن (ع) إلا أن خور عزائم الجيش . واختلاف مذاهبه وخيانة قواده ، كان كفيلاً بهزيمته حتى ولو كان الإمام علي (ع) هو الذي يقوده بنفسه ..

إلا أن التقدير كان في استشهاد البطل ، وأن يتم الصلح على يد نجله العظيم الذي أخبر الرسول (ص) أن الله سوف يصلح به بين طائفتين من أمته .

ويشهد على ذلك ما جاء في حديث ماثور عن الحارث الهمداني قال ،
 لما مات علي (ع) جاء الناس إلى الحسن وقالوا ، انت خليفة أبيك ووصيه ، ونحن السامعون المطيعون لك ، فمرنا بأمرك فقال ،

" كذبتم ، والله ما وفيتم لمن كان خيراً مني ، فكيف تفون لي ؟ . وكيف أطمئن إليكم ولا أثق بكم ؟ .
 إن كنتم صادقين فموعد ما بيني وبينكم معسكر المدائن فوافوا هناك " ^{٢٣} .

وماذا كان يمكن للإمام الحسن أن يصنعه في مثل هذه الظروف المعاكسة ؟ . هل يسير في جيشه بسيرة معاوية ، ويوزع عليهم أموال المسلمين ، فمن رغب عنه عالج به بالعسل المسموم ؟ . أم يسير

(٢٢) بحار الأنوار : (ح ٤٢ ، ص ١٩٦) .

(٢٣) بحار الأنوار : (ح ٤٤ ، ص ٤٣) .

بسيرة أبيه حتى ولو كلفه ذلك سلطته .

لقد ترك السلطة حين علم بانها لم تعد الوسيلة النظيفة لأداء الرسالة ، وان هناك وسيلة أفضل وهي الإنسحاب إلى صفوف المعارضة وبث الروح الرسالية في الأمة من جديد ، عبر تربية القيادات ، ونشر الأفكار ، وقيادة المؤمنين الصادقين المعارضين للسلطة وتوسيع نطاق المعارضة . وهكذا فعل (ع) .

٣- وشروط الصلح التي املاها الإمام على معاوية . وجعلها بذلك مقياساً لسلامة الحكم ، تشهد على انه (ع) كان يخطط لمقاومة الوضع الفاسد ، ولكن عبر وسائل أخرى . لقد جاء في بعض بنود الصلح ما يلي :

١- ان يعمل (معاوية) بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢- وليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد إلى احد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين .

٣- وعلى ان الناس امنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم ، وعراقهم ، وحجازهم ، ويمنهم .

٤- وعلى ان اصحاب علي وشيعته امنون على انفسهم واموالهم ونسائهم ولولادهم ..

٥- وعلى ان لا يبغي للحسن بن علي ولا لآخيه الحسين ولا لاحد من اهل بيت رسول الله غائلة سرّاً ولا جهراً ، ولا يخيف احداً منهم في افق من الافاق ^{٢٤} .

إن نظرة خاطفة لهذه الشروط تهدينا إلى انها اشتملت على اهم قواعد النظام الإسلامي من دستورية الحكم (على هدى الكتاب والسنة) وشورية الحكم . وإنه مسؤول عن توفير الأمن للجميع وبالذات لقيادة المعارضة ، وهم اهل بيت الرسول . وقد قبل معاوية بهذه الشروط ، مما جعلها اساساً للنظام عند الناس . وقد وجد الإمام بذلك أفضل طريقة لتبصير الناس بحقيقته ، وتاليف اصحاب الضمان والدين عليه ، حين كان يخالف بعض تلك الشروط .

قد تحمل الإمام الحسن عناءً كبيراً في إقناع المسلمين بالصلح مع معاوية ، حيث إن النفوس التي كانت تلهب حماساً ، والتي كانت معبأة نفسياً ضد معاوية ، كانت تلبى البيعة معه . على ان القشريين من طائفة الخوارج كانت ترى كفر من اسلم الأمر إلى معاوية ، وقد قالوا للإمام الحسن (ع) ، (كفر والله الرجل) ^{٢٥} .

وقد خطب الإمام بعد صلحه مع معاوية في الناس وقال ،
" ايها الناس انكم لو طلبتم ما بين جبالق وحارسا رجلاً جدّه رسول الله (ص) ما وجدتم غيري وغير اخي . وإن معاوية نازعني حقاً هو لي فتركت له صلاح الأمة ، وحقن دمانها . وقد بايعتموني على ان تسالموا من . سالمتم ، وقد رايت ارا ، اسالتمه ، وإن يكون ما صنعت حجة على من كان يتمنى هذا الأمر ،

(٢٤) المصدر . (ص ٦٥)

(٢٥) المصدر . (ص ٤٧)

وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّ فَتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ " ٢٦ .

ومع ذلك فقد عارضه بعض أفضل أصحابه في ذلك . فقال حجر بن عدي رضوان الله عليه له ، " أما والله لو ددت أنك مت في ذلك اليوم ، ومتنا معك ولم نر هذا اليوم ، فإننا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبوا " .

ويبدو أن الإمام كره أن يجيبه في المبدأ إلا أنه حينما خلا به قال ،
" يا حجر قد سمعتُ كلامك في مجلس معاوية . وليس كلُّ إنسان يُحب ما تُحب ، ولا رايه كرايك ، وإنِّي لم أفعل ما فعلت إلا إبقاءً عليكم ، والله تعالى كلُّ يوم هو في شأن " ٢٧ .
وكان سفيان من شيعة أمير المؤمنين والحسن (ع) ، ولكنه دخل على الإمام وعنده رهط من الناس فقال له ، السلام عليك يا مُزِلَّ المؤمنين .
فقال له ، وعليك السلام يا سفيان .

يقول سفيان ، فنزلت فعقلت راحلتي ثم اتيت فجلست إليه فقال ، كيف قلت يا سفيان ؟
قال ، قلت ، السلام عليك يا مُزِلَّ المؤمنين . والله بابي أنت وأمِّي اذللت رقابنا حين اعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن أكلة الأكباد ، ومعك مئة ألف كلهم يموت دونك ، وقد جمع الله عليك أمر الناس .

فقال ،
" يا سفيان إنا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإنِّي سمعت علياً (ع) يقول ، سمعت رسول الله (ص) يقول ، لا تنهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم ، ضخم البلعوم ، ياكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر ، وإنه لمعاوية . وإنِّي عرفت أن الله بالغ أمره " .
ثم أدن المؤذن فقمنا إلى حالب يطلب ناقته فتناول الإناء فشرب قائماً ثم سقاني وخرجنا نمشي إلى المسجد فقال لي ،
" ما جاء بك يا سفيان ؟

قلت ، حبكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق .
قال ، فأبشّر يا سفيان فإنِّي سمعت علياً (ع) يقول ، سمعت رسول الله (ص) يقول ، يرد عليّ الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمّتي كهاتين - يعني السبابتين - أو كهاتين - يعني السبابة والوسطى - أحدهما تفضل على الأخرى ، أبشّر يا سفيان ، فإن الدنيا تسع البرّ والغاجر ، حتى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمّد (ص) " .

(٢٦) المصدر : (ص ٥٦) .

(٢٧) المصدر : (ص ٥٧) .

وفي بعض الأحيان كان الإمام الحسن (ع) يصد على أصحابه ببغية معاوية . فحين دخل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري صاحب شرطة الخميس الذي أسسه الإمام علي (ع) ، دخل على معاوية فقال له معاوية ، بايع . فنظر قيس إلى الحسن (ع) ، فقال ، يا أبا محمد بايعت ؟ . فقال له معاوية أما تنتهي ؟ . أما والله إنِّي ...^{٢٨} .

فقال له قيس ، ما شئت . أما والله لئن شئت لتناقضت به^{٢٩} .

قال ، فقام إليه الحسن وقال له ، بايع يا قيس ، فبايع^{٣٠} .

(٢٨) يبدو أنَّ معاوية أراد أن يُهدِّد قيساً . ولكنه سكت .

(٢٩) يبدو أنَّ قيساً ردَّ تهديدات معاوية ، وقال : إن شئت لم يبق قادر على نقض العهد .

(٣٠) المصدر : (ص ٦٢) .

الفصل الثالث

مواقف مشرقة

الإمام الحسن (ع) يجني ثمار الصلح :

وكان هدف الإمام الحسن (ع) من الصلح فضح معاوية ، وهدم أسس سلطته القائمة على القيم الجاهلية ، وتنظيم صفوف المعارضة من جديد ، واستغلال كل فرصة لبث روح الإيمان والتقوى في ضمائر الناس .

وفيما يلي نذكر بعضاً من مواقف الإمام مع سلطة معاوية التي كانت تهز عرشه ، وتلهم معارضيه أسلوب مقاومته ،

١ - بُعِدَ المصالحة سعد معاوية المنير ، وجمع الناس فخطبهم وقال ، إن الحسن بن علي رأيي للخلافة اهلاً ، ولم ير نفسه لها اهلاً ، وكان الحسن (ع) أسفل منه بمرقاة .

فلماً فرغ من كلامه قام الحسن (ع) فحمد الله تعالى بما هو أهله ، ثم ذكر المباينة ، فقال ، " فجاء رسول الله (ص) من الأنفس بآبي ، ومن الأبناء بي وبأخي ، ومن النساء بأمي . وكنا أهله ونحن آله ، وهو منا ونحن منه .

ولما نزلت آية التطهير جمعنا رسول الله (ص) في كساء لأم سلمة رضي الله عنها خيبري ثم قال ، اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . فلم يكن أحد في الكساء غيري وأخي وأمي وأمي ولم يكن أحد تصيبه جنابة في المسجد ويولد فيه إلا النبي (ص) وأبي تكرمة من الله لنا وتفضيلاً منه لنا ، وقد رايتم مكان منزلتنا من رسول الله (ص) .

وامر بسد الأبواب فسدّها وترك بابها ، فقليل له في ذلك فقال ، أما إنني لم أسدّها وافتح بابي ، ولكن الله عز وجل أمرني أن أسدّها وافتح بابي .

وإن معاوية زعم لكم أنني رايت للخلافة اهلاً ، ولم أر نفسي لها اهلاً فكذب معاوية ، نحن أولى بالناس في كتاب الله عز وجل وعلى لسان نبيه (ص) ، ولم نزل أهل البيت مظلومين ، منذ قبض الله نبيه (ص) ، قاله بيننا وبين من ظلمنا حقنا ، وتوثب على رقابنا ، وحمل الناس علينا ، ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع أمنا ما جعل لها رسول الله (ص) .

وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقه رسول الله (ص) لأعلت لهم السماء قطرها ، والأرض بركتها ، وما طمعت فيها يا معاوية . فلماً خرجت من معدنها تنازعته قريش بينها ، فطمعت فيها

الطلقاء ، وابناء الطلقاء - انت واصحابك - وقد قال رسول الله (ص) ، ما ولت أمة امرها رجلاً وفيهم من هو اعلم منه إلا لم يزل امرهم يذهب سفلاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا ، فقد تركت بنو إسرائيل هارون وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم واتبعوا السامري ، وقد تركت هذه الأمة أبي وبابيعوا غيره ، وقد سمعوا رسول الله (ص) يقول ، " انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة " ، وقد رأوا رسول الله (ص) نصب أبي يوم غدير خم وامرهم ان يبلغ الشاهد منهم الغائب .

وقد هرب رسول الله (ص) من قومه ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى حتى دخل الغار ، ولو وجد اعواناً ما هرب ، وقد كفّ أبي يده حين ناشدهم ، واستغاث فلم يُغثُ فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه ، وجعل الله النبي (ص) في سعة حين دخل الغار ولم يجد اعواناً . وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة ، وبابيعوك يا معاوية . وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً .

أيها الناس ، إنكم لو التمسستم فيما بين المشرق والمغرب ، ان تجدوا رجلاً ولده نبي غيري ولخي لم تجدوا ، وإنني قد بايعت هذا وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين " ^{٣١} .

ب - ومرة أخرى صعد معاوية المنبر ونال من أمير المؤمنين فتحداه الإمام الحسن (ع) بما فضحه امام الملا . تقول الرواية ،

" بعد ان تمت المصالحة سار معاوية حتى دخل الكوفة فاقام بها ليأماً فلما استتمت البيعة له من اهلها صعد المنبر ، فخطب الناس وذكر امير المؤمنين (ع) ونال منه ، ونال من الحسن (ع) ما نال ، وكان الحسن والحسين (ع) حاضرين ، فقام الحسين (ع) ليردّ عليه ، فلخذ بيده الحسن (ع) فلجلسه ، ثم قام فقال ،

أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي ، وانت معاوية وابوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدّي رسول الله (ص) وجدك حرب ، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة ، فلعن الله لخمنا ذكراً والأمنّا حسباً ، وشربنا قدماً ، واقدمنّا كفراً ونفاقاً . فقالت طوائف من اهل المسجد : آمين آمين " ^{٣٢} .

ج - وفي الشام حيث ركّز معاوية سلطته خلال عشرات السنين . ولحق أكاذيب على الإسلام حتى كاد يخلق للناس ديناً جديداً . وقف الإمام الحسن المجتبي (ع) يعارض نظامه الفاسد ، ويبين انه وخطه الأولى بالقيادة . يقصّ علينا التاريخ الحادثة التالية ،

رُوي أنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية ، إنّ الحسن بن علي رجل غيّ ، وإنه إذا صعد المنبر ورمقوه ببصارهم خجل وانقطع ، لو اذنت له . فقال معاوية ، يا ابا محمد لو صعدت المنبر ووعظتنا ! . فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ،

(٣١) المصدر : (ص ٦٢ - ٦٤) .

(٣٢) المصدر : (ص ٤٩) .

" مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَنِي فَلَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَابْنُ سَيِّدَةِ النَّسَاءِ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ (ص) . اَنَا ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ، اَنَا ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ، اَنَا ابْنُ السَّرَاجِ الْمُنِيرِ ، اَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ ، اَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، اَنَا ابْنُ مَنْ بُعِثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، اَنَا ابْنُ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، اَنَا ابْنُ صَاحِبِ الْفَضَائِلِ ، اَنَا ابْنُ صَاحِبِ الْمَعْجَزَاتِ وَالْمُدَلَّلِ ، اَنَا ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، اَنَا الْمَدْفُوعُ عَنْ حَقِّي ، اَنَا وَاحِدُ سَيِّدِي شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، اَنَا ابْنُ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، اَنَا ابْنُ مَكَّةَ وَمَنَى ، اَنَا ابْنُ الْمَشْعَرِ وَعَرَفَاتٍ " .

فَاغْتَاظَ مُعَاوِيَةَ وَقَالَ : خُذْ فِي نَعْتِ الرُّطْبِ وَدَعْ ذَا ، فَقَالَ : الرِّيحُ تَنْفُخُهُ وَالْحَرُّ يَنْضِجُهُ ، وَبَرْدُ اللَّيْلِ يَطْبِئُهُ ، ثُمَّ عَادَ فَقَالَ :

" اَنَا ابْنُ الشَّفِيعِ الْمَطَاعِ ، اَنَا ابْنُ مَنْ قَاتَلَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ ، اَنَا ابْنُ مَنْ خَضَعَتْ لَهُ قَرِيشٌ ، اَنَا ابْنُ إِمَامِ الْخَلْقِ وَابْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (ص) " .

فَخَشِيَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَفْتَتِنَ بِهِ النَّاسَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ انْزِلْ فَقَدْ كَفَى مَا جَرَى . فَانْزَلَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ :

ظَنَنْتَ أَنْ سَتَكُونَ خَلِيفَةً ، وَمَا أَنْتَ وَذَلِكَ ، فَقَالَ الْحَسَنُ (ع) :

" إِنَّمَا الْخَلِيفَةُ مِمَّنْ سَارَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَسَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، لَيْسَ الْخَلِيفَةُ مَنْ سَارَ بِالْجَوْرِ وَعَطَلَ السَّنَةَ ، وَاتَّخَذَ الدُّنْيَا أَبَاً وَلِئَاماً ، مَلِكاً مُتَّعَ بِهِ قَلِيلاً ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ ، وَتَبْقَى تَبِيعَتُهُ " .

وَحَضَرَ الْمُحْفَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ شَاباً فَاتَّغَلَّظَ لِلْحَسَنِ كَلَامَهُ ، وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي السَّبِّ وَالشَّتْمِ لَهُ وَلِأَيِّهِ . فَقَالَ الْحَسَنُ (ع) : اللَّهُمَّ غَيِّرْ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاجْعَلْهُ لُنْثَى لِيُحْتَبَرَ بِهِ ، فَنَظَرَ الْأُمَوِيُّ فِي نَفْسِهِ وَقَدْ صَارَ امْرَأَةً قَدْ بَدَّلَ اللَّهُ لَهُ فَرْجَهُ بِفَرْجِ النَّسَاءِ وَسَقَطَتْ لِحْيَتُهُ ، فَقَالَ الْحَسَنُ (ع) : أُعْزِبِي ! مَا لَكَ وَمُحْفَلِ الرِّجَالِ ؟ فَإِنَّكَ امْرَأَةٌ .

ثُمَّ إِنَّ الْحَسَنَ (ع) سَكَتَ سَاعَةً ، ثُمَّ تَفَضَّ ثَوْبَهُ وَنَهَضَ لِيُخْرِجَ ، فَقَالَ ابْنُ الْعَاصِ : اجْلِسْ فَأَنِّي أَسْأَلُكَ مَسَائِلَ . قَالَ (ع) : سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ ، قَالَ عَمْرُو : أَخْبِرْنِي عَنِ الْكِرَمِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمَرْوَةِ ، فَقَالَ (ع) :

" أَمَّا الْكِرَمُ فَالْتَّبَرُّ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِعْطَاءُ قَبْلَ السُّؤَالِ . وَأَمَّا النَّجْدَةُ فَالذَّبُّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَالصَّبْرُ فِي الْمَوَاطِنِ عِنْدَ الْمَكَارِهِ . وَأَمَّا الْمَرْوَةُ فَحِفْظُ الرَّجُلِ دِينَهُ ، وَإِحْرَازُهُ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ ، وَقِيَامُهُ بِإِدَاءِ الْحَقِّ وَالْإِفْشَاءِ السَّلَامِ " .

فَخَرَجَ (الإمام الحسن عليه السلام) فعَظَلَ مُعَاوِيَةَ عَمراً . فَقَالَ : أَفْسَدْتَ أَهْلَ الشَّامِ . فَقَالَ عَمْرُو : إِلَيْكَ عَنِّي . إِنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَمْ يَحْبُوكَ مَحَبَّةَ إِيْمَانٍ وَدِينٍ . إِنَّمَا أَحْبُوكَ لِلدُّنْيَا يَنَالُونَهَا مِنْكَ ، وَالسَّيْفَ وَالْمَالَ بِيَدِكَ ، فَمَا يَغْنِي عَنِ الْحَسَنِ كَلَامَهُ .

ثُمَّ شَاعَ أَمْرُ الشَّابِّ الْأُمَوِيِّ ، وَاتَتْ زَوْجَتُهُ إِلَى الْحَسَنِ فَجَعَلَتْ تَبْكِي . وَتَتَضَرَّعُ فَرَقُّ لَهَا وَدَعَا فَجَعَلَ اللَّهُ

كَمَا كَانَ .

إلى المدينة :

وهكذا ظل الإمام في الكوفة شهوراً ، ثم ارتحل عنها وارتحل معه كل الخير . ففي نفس الأيام التي خرج الإمام عنها ، حلّ بها طاعون فمات الكثير من أهلها ، حتى أن واليها (المغيرة بن شعبة) أصيب به فمات .

فلما بلغ المدينة ، خف أهلها يستقبلونه أحرّ الاستقبال . وظل هناك يقود حرباً باردة ضد معاوية بمؤامراته على المسلمين ، حتى كانت السنة حيث وفد إلى الشام عاصمة الخلافة الإسلامية ، فراح يبلغ من دعوته التي خلق لها وخرج بها ، وعاش معها ، تلك دعوة الحق ، ومحق الباطل . ولقد أظهر الإمام في تلك الرحلة الرسالية ، لأهل الشام ، أن معاوية ليس بالذي يصلح للقيادة ، على ما موّه عليهم بدعاياته المضلّة ، فهو يرجع بهم إلى الجاهلية حيث كان أبوه يستعبد الناس ويستنزف جهودهم وطاقاتهم ، ولا يهمه بعد ذلك أسعدوا أم شقوا .

وليس من العجب أن نرى كل من التفّ حول معاوية ودافع عن أفكاره ونصب نفسه لدعوته ، كان من قبل قد التف هو أو أسرته حول أبي سفيان ودافع عن أفكاره . فلا زال معاوية يقود الحزب الأموي الذي قاده من قبل والده أبو سفيان ، بذات المفاهيم والعادات والسلوكيات . كما أنه لا يثير العجب إذا رأينا في صف الإمام الحسن (ع) ثلة صالحة ممن كان قبل أيام يناضل أبا سفيان وحزبه دفاعاً عن قيم الرسالة . والواقع أن حركة معاوية كانت ردّ فعل جاهلي ضد انتشار رسالة الإسلام وكانت على صلة تامة بالروم . وكان يعتمد معاوية على أشخاص مثل عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، ونظائهم ممن لا تزال صورهم أو صور أسرهم تتراءى لنا ، في ميادين بدر والخندق ، كما كان يعتمد على النصاري الذين أصبحت لهم قوة لا يُستهان بها داخل الدولة الأموية . وإن معاوية كان يجتمع كل مساء بمن يقرأ عليه أخبار الحروب السابقة وخصوصاً تجارب الروم في الحروب السياسية فيستفيد منها .

من هنا نعرف أن الحرب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، أو نجله الإمام الحسن (ع) وبين معاوية ، لم تكن صراعاً مجرداً على السلطة ولا صراعاً بين حزبين داخل الإطار الإسلامي ، بل كان صراعاً بين الكفر المبطن والإسلام الحق . ولذلك اتبع الإمام الحسن (ع) نهجاً خاصاً في مواجهة الصراع ، وهو نهج الدعوة الصريحة ، حيث سافر إلى الشام ، عاصمة الخلافة ، كي يقر حقاً نذر له نفسه ، ومن الطبيعي أن أهل الشام سوف يلتفتون إليه بعد أن كان رئيس الحركة المناوئة لدولتهم ، وقائد الحرب المعارض لسياستهم . ولابد أن يفد منهم خلق كثير ، فهناك يستطيع أن يبلغ دعوته وينشر من علومه ما يدكّ صرح معاوية السياسي وينسف أحلامه الجاهلية .

وإن صفحات التاريخ تطالعنا بكثير من خطبه التي القاها على أهل الشام ، فإثر في نفوسهم أبلغ تأثير ، ولم يزل كذلك حتى اشتكاه أنصار معاوية قائلين له إن الحسن قد أحيا أباه وذكّره ، وقال فصّدق ، وأمر

فأطبع ، وخفقت له النحال ، وإن ذلك لرافعة إلى ما هو أعظم منه ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا .

سياسته في عهد معاوية :

وهكذا قاد الإمام الحسن المجتبي (ع) معارضة سياسية قوية ، ولكن من دون الحرب . وكان يوجه شيعته هنا وهناك ، وينظم صفوفهم ، وينمي كفاءاتهم ، ويدافع عنهم أمام بطش معاوية وكيدته . وفي ذات الوقت كان (ع) يقوم بنشر الثقافة الإسلامية في كافة البلاد ، إما عن طريق الرسائل والموفودين من تلامذته البارعين الذين كان يتكفل أمورهم المادية والمعنوية ثم يبعثهم إلى الأفاق ، أو عبر الخطب التي كان يلقيها في مواسم الحج وغيرها ، فيملك ناحية الأمة ويستأثر بقيادتها الثقافية . ومن ذلك أيضاً ، نستطيع أن ندرك سر اختياره المدينة المنورة كوطن دائم له ، حيث كان فيها من الأنصار وغيرهم ممن يقدر على إرشادهم وتوجيههم ، وبذلك يستطيع أن يشق طريقه إلى إرشاد الأمة وتوجيهها ، حيث كان الأنصار ولولادهم هم القدوة الفكرية للأمة ، فمن ملك قيادة الأنصار ملك قيادة الأمة فعلاً .

الشهادة : العاقبة الحسنى

لقد دعت سياسة الإمام الرشيدة ومكانته المتنامية في الأمة معاوية إلى أن يشك في قدرته على منالوته، واستنثاره — من ثم — بقيادة الأمة ، حيث إنه ما خطى خطوة تألف قِيَمَ الحق أو مصالح الأمة ، إلا وعارضه الإمام وأتبعته الأمة في ذلك ، ففشلت مساعي معاوية وخابت آماله ، فدبر حيلة كانت ناجحة إلى بعد الحدود ، تلك هي الفتك بحياة الإمام (ع) عن طريق سمّ بعثه إلى زوجته . وقد سبق القول ، في أن منطق معاوية كان يبرّر له كلّ جريمة ، وكان له جنود من عسل على حدّ تعبيره ، فإذا كره من فرد شيئاً بعث إليه عسلاً ممزوجاً بالسمّ فيقطه بذلك .

وقد جعل مثل ذلك بالإمام الحسن (ع) مرات عديدة ، فلم يؤثر فيه ، وباعت مساعيه بالفشل . إلا أنه ذات مرة بعث إلى عاهل الروم يطلب منه سمّاً فتأكّاً ، فقال ملك الروم ، إنه لا يصلح لنا في ديننا أن نعين على قتال من لا يقاتلنا ، فرأسله معاوية يقول : إن هذا الرجل هو ابن الذي خرج بارض تهامة — يعني رسول الله (ص) — خرج يطلب ملك أبيك ، وأنا أريد أن أؤدس إليه السمّ ، فأريح منه العباد والبلاد . فبعث ملك الروم إلى معاوية بالسمّ الفتاك الذي دسه إلى الإمام (ع) عن طريق جعدة الزوجة الخائنة التي كانت تنتمي إلى أسرة فاجرة ، حيث اشترك أبوها في قتل أمير المؤمنين وأخوها في قتل الإمام الحسين (عليهما السلام) فيما بعد .

وفي ذلك النهار حيث كان قد مضى أربعون يوماً أو ستون على سقبة السمّ ، وقد أتمّ وصاياه التي أوصى بها إلى أخيه الإمام الحسين (ع) ، وعلم باقتراب أجله ، فكان يبتهل إلى الله تعالى قائلاً ، " اللهم إني احتسب عندك نفسي ، فإنها اعز الأنفس عليّ لم أصب بمنثلها . اللهم انس صرعتي ، وأنس في القبر وحدتي ، ولقد حاقت شربتي (أي معاوية) . والله ما وفي بما وعد ، ولا صدق فيما قال " . وكان يتلو آيات من الذكر الحكيم حين التحق بالرفيق الأعلى سلام الله عليه .

التشييع :

وقامت المدينة المنورة لتشييع جثمان ابن بنت رسول الله (ص) الذي لم يزل ساهراً على مصالحهم قائماً بها ابداً . وجاء موكب التشييع يحمل جثمانه الطاهر إلى الحرم النبوي ليُدفنوه عند الرسول ، أو ليجددوا الجهد معه على ما كان قد وصّى به الإمام ، فركبت عائشة بغلة شهباء واستتفرت بني أمية وجاؤوا إلى الموكب الحافل بالمهاجرين والأنصار وبني هاشم وسائر الجماهير المؤمنة الثاوية في المدينة ، فقالت عائشة تصيح ، يا ربّ هيجاء هي خير من دعة !. يُدفن عثمان بأقصى المدينة ويدفن الحسن عند جدّه .

ثم صرخت في الهاشميين ، نحوا ابنكم واذهبوا به فإنكم قوم خصمون ..

ولولا وصية من الحسن (ع) بالغة على الحسين (ع) ، ألا يُراق في تشييعه ملء محجمة دم ، لمّا ترك بنو هاشم لبني أمية في ذلك اليوم كيّاناً . ولولا أن الحسين نادى فيهم ، الله الله يا بني هاشم ، لا تضيعوا وصية أخي ، واعدلوا به إلى البقيع ، فإنه أقسم عليّ أن انا مُنعت من دفنه عند جدّه إذا لا أخاصم فيه أحداً ، وإن أدفنه في البقيع مع أمّه . هذا ، وقبل أن يعدلوا بالجثمان ، كانت سهام بني أمية قد تواترت على جثمان السبط وأخذت سبعين سهماً مأخذها منه .

فراحوا إلى البقيع وقد اكتظ بالناس فدفنوه حيث الآن يُزار مرقد الشريف .

وهكذا عاش السبط الأكبر لرسول الله (ص) ، نقياً طاهراً مقهوراً مهتضمّاً ، ومضى شهيداً مظلوماً محتسباً ، فسلام الله عليه ما بقي الليل والنهار .

الفصل الرابع

مكارم الأخلاق

أ - العابد الزاهد :

١- حج الإمام الحسن (ع) خمساً وعشرين مرة ماشياً ، والنجائب تقاد من بين يديه . وكلما مرّت به طائفة صعقت وخفت بالنزول إجلالاً لسموه وكبير مكانته . فلم يزل حتى يعدل بطريقه عن الشارع العام ، ليبلغ في تذلل للخالق كلّ مبلغ .

٢- وكان إذا ذكر الله عزّ وجلّ بكى ، وإذا سُمّي لديه القبر بكى ، وإذا قيل في البعث شيء بكى ، وإذا دُكر بالصراف في المعاد بكى . وأما إذا دُكر لديه العرض الأكبر إذ الخلاق بين يديّ الله القدير ، كلّ ينظر في شأنه ، ولهم شؤون تغنيهم عن الآخرين ، فهناك شهق شهقة وغشي عليه خوفاً ودعراً .
أما إذا حدّث بالجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ، وسال الله الجنة واستعان به من النار .
وإذا توضأ فإنه كان يصفرّ لونه وترتعد فرائضه ، فإذا قام إلى الصلاة اشتدّ اصفرار لونه وارتعاد فرائضه .

٣- وأما أمواله فقد قاسم الله فيها ثلاث مرات ، نصفاً بذل ونصفاً أبقى . وقد خرج من ماله كله مرتين في سبيل الله ، فلم يبقَ له شيء إلا أعطاه في سبيل الله .
٤- ولا تمر عليه حال من الأحوال إلا ذكر الله عزّ وجلّ رغباً ورهباً .
٥- لما ما قال فيه معاصروه ، فقد قالوا ، وكان اعبد الناس في زمانه وازدهم بالدنيا .
ولقد أفرد بعض الكتاب الأولين ، موضوع زهد الإمام الحسن (ع) في مجلد خاص ، مثل محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المتوفي سنة ٢٨١ في كتابه (كتاب زهد الحسن عليه السلام) .

ب - المهيب الحبيب :

١- قال واصفوه ، ما راه أحد إلا هابه ، وما خالطه إنسان إلا أحبه ، ولا سمعه عدوٌّ له أو صديقٌ خاطباً فاجترأ عليه بالتكلم واللغو . وقالوا في شمانله أيضاً ، لم يكن أحد أشبه برسول الله (ص) من الحسن بن علي (ع) ، خلقاً وخلقاً وهينة وهدياً وسودداً .
وقالوا كذلك ، كان أبيض اللون مُشرباً بحمرة ، ادعج العينين ^{٣٤} سهل الخدين ^{٣٥} كَثَّ

(٣٤) أدعج العينين : أسود العينين مع سعتها .

(٣٥) سهل الخدين : قليل لحمه .

اللحية ^{٣٦} جَعَدَ الشعر ^{٣٧} كَانَ عَنْقَهُ إِبْرِيقَ فِضَّةٍ ، حَسَنَ الْبَدَنِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمُنْكَبَيْنِ ، عَظِيمَ الْكَرَادِيسِ ^{٣٨} رَقِيقَ الْمَرِيَّةِ ^{٣٩} رُبْعَةً لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ، مُلِحِحاً مِّنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً .
 ٢- كَانَ الْإِمَامُ (ع) ، مُحِبُّوياً لَدَى الْجَمِيعِ ، يَكْرُمُهُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ سَوَاءً ، وَمِنْ مَظَاهِرِ مُحِبِّيَّتِهِ الْعَامَّةِ ، أَنَّهُ كَانَ يَفْرُشُ لَهُ بَبَابُ دَارِهِ فِي الْمَدِينَةِ ، يَجْلِسُ يَقْضِي حَوَائِجَ النَّاسِ وَيُحِلُّ مُشَاكَلَهُمْ ، فَكُلُّ مَنْ يَمُرُّ بِهِ يَقِفُ هَنِيئَةً يَسْمَعُ حَدِيثَهُ ، وَيَرَى شِمَائِلَهُ وَيَتَزَوَّدُ بِهَا مِنْ شِمَائِلِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ وَمَلَاحِهِ (ص) ، فَلَا يَزَالُ حَتَّى يَنْسُدَ الطَّرِيقَ دُونَ الْمَآرَةِ . فَإِذَا عَرَفَ الْإِمَامُ ذَلِكَ قَامَ وَدَخَلَ لِكَيْ لَا يَسْبِغَ قَطْعَ الطَّرِيقِ .
 ٣- وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : مَا بَلَغَ أَحَدٌ مِنَ الشُّرَفَاءِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) ، مَا بَلَغَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ .

٤- وَقَالَ فِيهِ الزُّبَيْرُ : وَاللَّهِ مَا قَامَتِ النِّسَاءُ عَنْ مِثْلِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ .

٥- وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْخُذُ بِرُكَّابِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَى عَادَةٍ مِّنْ يَّرِيدُ أَنْ يَبَالِغَ فِي تَوَاضُعِهِ إِلَى أَحَدٍ ، وَيَعْرِفُ النَّاسَ مَدَى خُضُوعِهِ لِسَمَوِّهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُودُ لَهُ الرَّاحِلَةَ كَالَّذِي يُسْتَجِيرُ لَذَلِكَ بِالْمَالِ . فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ لِلْحُسَيْنِ ، فَزَاهِةً مَرَّةً مَدْرَكَ بْنِ زِيَادٍ ، فَانْدَهَشَ إِذْ رَأَى شَيْخَ الْمَفْسِرِينَ يَصْنَعُ هَذَا الْإِكْرَامَ بِالْحُسَيْنِ ، فَقَالَ أَنْتَ أَسَنُّ مِنْهُمَا تُمْسِكُ لَهُمَا بِالرُّكَّابِ . فَصَاحَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي وَجْهِهِ : يَا لَكُمُ !! وَمَا تَدْرِي مِنْ هَذَا ؟ هَذَا ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ . أَوَلَيْسَ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِهِ أَنْ أُمْسِكَ لَهُمَا وَأُسَوِّيَ عَلَيْهِمَا ؟
 ٦- وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ إِذَا امْتَلَأَ الصَّحْرَاءُ إِلَى مَكَّةَ مَاشِئاً ، وَرَأَاهُ مَلَأَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَزَلُوا يَمْشُونَ إِلَى جَنْبِهِ وَلَا يَرْكَبُونَ حَتَّى يَحْدِلَ عَنْهُمْ .

ج- الجواد الكريم :

١- أَتَاهُ رَجُلٌ يَطْلُبُ حَاجَةً وَهُوَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَاضِرِينَ أَنْ يَفْصَحَ عَنْهَا ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ : اكْتُبْ حَاجَتَكَ فِي رَقْعَةٍ وَارْفَعْهَا إِلَيْنَا . فَكَتَبَ الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَرَفَعَهَا . فَضَاعَفَهَا لَهُ الْإِمَامُ مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْطَاهُ فِي تَوَاضُعٍ كَبِيرٍ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الشَّاهِدِينَ مَا كَانَ اعْظَمَ بَرَكَةَ الرَّقْعَةِ عَلَيْهِ ، يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ! ، فَقَالَ : بَرَكَتُهَا إِلَيْنَا اعْظَمَ حِينَ جَعَلْنَا لِلْمَعْرُوفِ أَهْلاً ، أَمَا عَلِمْتَ : إِنْ الْمَعْرُوفُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ . فَأَمَّا مَنْ أَعْطِيَتْهُ بَعْدَ مَسْأَلَةٍ فَإِنَّمَا أَعْطِيَتْهُ بِمَا بَدَلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ . وَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَاتَ لَيْلَتَهُ مَتَمَلِّماً أَرْقَا ، يَمِيلُ بَيْنَ الْيَاسِ وَالرَّجَاءِ لِيَعْلَمَ بِمَا يَرْجِعُ مِنْ حَاجَتِهِ ابْتِكَابَةً رَدّاً ، أَمْ بِسُرُورِ النِّجَاحِ ، فَيَأْتِيكَ وَفَرَاتِنِصَهُ تَرَعْدُ ، وَقَلْبُهُ خَائِفٌ يَخْفِقُ ، فَإِنَّ قُضِيَّتْ لَهُ حَاجَتُهُ فَيَمَّا يَنْدُلُ مِنْ وَجْهِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ اعْظَمَ مِمَّا نَالَهُ مِنْ مَعْرُوفِكَ .
 ٢- وَجَاءَهُ رَجُلٌ يَسْأَلُ مَعْرُوفاً ، فَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَخَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهُ : إِنِّي بِحِمَالِكَ ،

(٣٦) كَثَّ النَّحْيَةُ . كَثِيفَةُ النَّحْيَةِ .

(٣٧) جَعَدَ الشَّعْرَ : جَعَدَ الشَّيْءَ : نَقَصَ ، وَجَعَدَ الشَّعْرَ : صَبَرَهُ جَعْدًا ، وَهُوَ صَدَّ سَطُ وَاسْتَرْسَلَ .

(٣٨) عَظِيمٌ نَكَرَادِيسٍ : كَرَادِيسٍ : كُلُّ عَظِيمٍ تَكَرَّدَسَ اللَّحْمَ عَلَيْهِ .

(٣٩) رَقِيقُ الْمَرِيَّةِ : لِمَرِيَّةٍ الْهَدَلِ .

فاتى بحمال فاعطاه طيلسانه وقال هذا كرى الحمال .

٣- وجاءه اعرابي يريد ان يساله حاجة ، فقال الإمام لمن حوله ، اعطوه ما في الخزينة . فوجد فيها عشرون الف درهم ، فدفعته اليه قبل ان يسال . فاندھش الاعرابي وقال : يا مولاي الا تركتني ابوح بحاجتي وأنشر مدحتي ، فانشا الإمام يقول :

نحنُ اناسٌ نوالنا خضُلٌ يرتعُ فيه الرجاءُ والأملُ
تجودُ قبلَ السَّؤالِ انفسُنَا خوفاً على ماء وجو من يسكُ

٤- وحج ذات سنة هو واخوه الإمام الحسين (ع) ، وعبد الله بن جعفر ، ففاتتهم انقالهم فجاءوا وعطشوا ، فرلوا عجوزاً في خباء فاستسقوها فقالت هذه الشوية ، احلبوها واستطعموها ، فندبحت لهم شاتها وشوتها ، فلما طعموا قالوا لها : نحن نفر من قريش ، نريد هذا الوجه ، فإذا عدنا فمُرِّي بنا ، فإذا صانعون بك خيراً . ثم مضت بها الايام واضرت بها الحال ، فرحلت حتى وصلت المدينة المدورة . فراها الحسن (ع) ، فعرفها فقال لها : اتعرفيني ؟ . قالت : لا . قال : انا ضيفك يوم كذا وكذا . فامر لها بالف شاة والى دينار ، وبعث بها إلى الحسين (ع) ، فاعطاها مثل ذلك ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر ، فاعطاها مثل ذلك .

٥- وتنازع رجلان ، هذا أموي يقول : قومي اسمح ، وهذا هاشمي يقول : بل قومي اسمح . فقال لاهما ، فاسأل أنت عشرة من قومك ، وأنا أسال عشرة من قومي ، يريد ان يسال كل عطاء عشرة من قومه ، فينظروا أي القومين أسخى واسمح يداً . ثم إذا عرفوا ذلك أرجع كل منهما الاموال إلى اهلها ، كل ذلك شريطة ان لا يخبرا من يساله بالامر .

فانطلق صاحب بني امية فسال عشرة من قومه فاعطاه كل واحد منهم الف درهم . وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن علي فامر له بمائة وخمسين الف درهم ، ثم أتى الحسين فقال : هل بدأت بأحد قبلي ؟ قال : بدأت بالحسن ، قال : ما كنت أستطيع ان ازيد على سيدي شيئاً ، فاعطاه مائة وخمسين الفا من الدراهم ، فجاء صاحب بني امية يحمل عشرة الاف درهم من عشرة انفس وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة الف درهم من نفسين ، فغضب صاحب بني امية ، حيث رأى فشله في مبادراته القبلية .

فرد الأول حسب الشرط ما كان قد اخذه من بني امية فقبلوه فرحين ، وجاء صاحب بني هاشم الحسن والحسين يرد عليهما اموالهما فابيا ان يقبلاهما قائلين : ما نبالي اخذتها ام القيتها في الطريق .

د - المتواضع الحليم :

١- مر بطائفة من الفقراء جلوساً على كسيرات من الرغيف ياكلونها ، فلما راوا موكب الإمام قاموا إليه ، ودعوه إلى طعامهم قائلين هلم يأبن رسول الله إلى الخداء ، فنزل وهو يقول : " إن الله لا يحب المتكبرين " وجعل ياكل معهم ثم دعاهم إلى ضيافته فاطعمهم وكساهم .

٢- وعصفت به ظروف عسيرة ان لو مرت على الجبال لتكدكت ، ولزدهمت فوق كتفيه مسؤوليات عظيمة فاضطلع بها وتغلب على صعابها في حلم واثابة ، مما دفع اشد الناس عداوة له - وهو مروان - الى ان يقول ، كان من حلمه ما يوازن به الجبال . وكانت صفة الطم ابرز سماته (ع) ، حيث كان يشبه فيها بالنبي (ص) .

الفصل الخامس

من بلاغة الإمام

١- لا جبر ولا تفويض :

من لا يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، من حمل ذنبه على ربه فقد فجر . إن الله لأيطاع استكراهاً ، ولا يعطي لغلبيه ، لأنه المليك لما ملّكهم ، والقادر على ما أقدرهم . فإن عملوا بالطاعة لم يحلّ بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي يجبرهم على ذلك . فلو لجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب . ولو أنه أهملهم لكان عجزاً في القدرة . ولكن له فيهم المشيئة التي غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنّة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم .

٢- الموت يطلبك :

يا جنادة ، استعدّ لسفرك ، وحصل زادك قبل حلول ليلك ، واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك . ولا تحمل همّ يومك الذي لم يات على يومك الذي أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغريك . واعلم إن الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، وفي الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك ، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيه ، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر ، فأخذت منه كما أخذت من الميتة ، وإن كان العقاب فالعقاب يسير . واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فأخرج من ذل معصية الله ، إلى عز طاعة الله عز وجل . وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت منه معونة أعانك ، وإن قلت صدقك ، وإن صلت شدّ صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن بدت منك ظمة سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألته إعطاك ن وإن سكّته عنه ابتدأك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات وإسأك ، من لا تاتيئك منه البوائق ، ولا تختطف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن تنازعتما منكسماً أترك .

من حكمته البالغة :

- ١- المزاح ياكل الهيبة . وقد أكثر من الهيبة الصامت .
- ٢- المسؤول حرّ حتى يحدّ ومستترق بالوعد حتى ينجز .
- ٣- اليقين معاد السلامة .

٤- راس العقل معاشرة الناس بالجميل .

٥- القريب من قرْبته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه . فلا شيء

لقرب من يد إلى جسد ، وإن اليد ثقُل فتقطع وتحسم .

٦- الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

٧- لئن سامني الدنيا عزمْتُ تصبُّراً

وإن سرَّني لم ابتهج بسـروره

٨- يا اهل لذاتٍ دنياً لا بقاء لها

٩- لكسرة من خسيس الخبز تشبعني

وطرة من دقيق الثوب تسترني

١٠- إذا ما لتاني سائل قلت مرحباً

ومن فضله فضلٌ على كلِّ فاضلٍ

و كلُّ بلاءٍ لا يدوم يسيرُ

و كلُّ سرورٍ لا يدوم حقيـرُ

إنَّ المقلَمَ بظُلِّ زائلٍ حمقُ

وشربة من قراح الماء تكفيني

حيّاً وإن مت تكفيني لتكفيني

بمَن فضله فرضٌ عليّ معجلُ

وأفضلُ ليامٍ الفتى حين يُسالُ

تاريخ الانتهاء من التأليف ٢ / ١٠ / ١٣٨٦ هـ

وأنا أشكر الله الكريم على ذلك ..

الامام الحسين (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

انبعث من ضمير الإنسانية رجال ، كانوا المعجزة في اقرب مفاهيمها ، واصدق معاييرها ، وفي أسنى تالقتها ، وابهى تجليها .

لا شك في انها كانت آية ظاهرة ، تهدي إلى قوة قاهرة وراء الغيب لتدير الكون ، وتدفعه إلى سبله المستقيمة ، تدعو إلى التصديق الواعي ، بحقيقة اخرى غير هذه المادة ، وغير ملابساتها الظاهرية ، تلك هي حقيقة الخالق العليم .
" بنا عرف الله " .

وليس من شك في ان للمسلمين احظى نصيب من هذا النمط البالغ في سنائه وبهائه حد المعجزة الخارقة ، من الأبطال البارعين .

فالنبي محمد (ص) وأهل بيته (ع) ، قمم لاشك في مجدها وسموقها - لسلسلة شاهقة من جبال لا يرقى إليها الطير ، وسامقات متاصلات كانت تحمل هم وشرف الحقيقة ولوتاد صعيد الفكر . ولولاهم لتزلزل وماد ، إذ انهم سفن محيط الشك الذي لولاهم لغمر كل حي ونزل القعر البعيد ..
ومن قمم هذه السلسلة المباركة الإمام علي (ع) الذي هو - بلا ريب - ثاني الرسول العظيم .
ومنها الإمام الحسن (ع) الذي حفظ الله به الدين حين اصلح الله به بين فئتين متنازعتين من المسلمين ..

ومنها الإمام الحسين (ع) ، الذي استقر في اشمخ واروع قمة بعد النبي (ص) ، وبعد الوصي (ع) .
ولا أحب ان افاتحك الحديث قبل لوانه فهذا الكتاب بين يديك سوف نفتح فيه اسرار المعجزة في هذه القمة المجيدة ، وسوف يعالج كل موضوع ، ولو كانت معالجة بتراء ، إلا اني أملها معالجة واعية إن شاء الله .
غير اني اريد ان اقدم شيئاً مما يجب ان اصبر عليه إلى لوانه القريب . لتدخل فصول الكتاب في تفتح ذكري بالغ .. وما هو بين يديك ،

(١) حديث عن الأئمة مأنور .

اصبح المسلمون اليوم احوج الى النور من اي يوم آخر ، لأنهم اصبحوا وسط زوايح هادرة تلفهم من كل جانب ، في ليل مظلم ، وفي قفر لا يملكون هادياً أو رائداً . قد ظلت بهم السبل ، واختلفت في وجههم التيارات ، وهم لا يدرون ما يعملون ؟

اقول ، إنهم اليوم احوج ما يكونون الى النور ، في حين انهم أبعد ما كانوا عنه ، لأنهم - كما نراهم - مجردون عن الوعي الكافي الذي يجب ان يكفل غداهم الفكري المستمر - في خضم هذه الأفكار الواردة - فلا يعرفون تعاليم دينهم ، ولا يميزون معالمه الوضيئة التي دلت تجارب السنين العديدة على انها الوحيدة من نوعها التي تستطيع ان تنتشل الأمة من قعرها العميق إلى قممها المأمولة .

وان هذا نموذج حي اريد ان أقدمه إليك - ليها القارئ - هنا ومن خلال السطور التي نمر عليها . وسوف لا أوقفك طويلاً لأمهّد لك ، فلنقطع الحديث للنظر في سطور الكتاب ، لنرى احفل حياة بالمكرّمات الرائعة .

الفصل الأول

الوليد السعيد

= ١ =

كان ذلك الفجر الف وأبهى فجر ، من السنة الثالثة للهجرة ، حيث استقبل بأصابع من نور ، وليداً ما أسعده ، وما أعظمه .

في الثالث من شعبان غمر بيت الرسالة نور ، سنيّ متألّق ، إذ جاء ذلك الوليد المبارك واصطفاه الله ليكون امتداداً للرسالة ، وقدوة للأمة ، ومنقذاً للإنسان من أغلال الجهل والعبودية . ولا ريب أننا سوف ننبهر إذا لاحظنا بيت الرسالة وهو يستقبل الوليد الجديد ، فهذا البيت البسيط الذي يستقر على مرفوعته الأولى الرسول ، الجد الرؤوم ، والوالد الحنون .

= ٢ =

واتاه الخبر ، انه وُلِدَ لفاطمة (ع) وليد ، فإذا به (ص) يخمره مزيج من السرور والحزن ، ويطلب الوليد بكل رغبة ولهفة !

فماذا دهاك يا رسول الله ! . بابي انت وامي ، هل تخشى على الوليد نقصاً أو عيباً ؟! كلا .. إن تفكير صاحب الرسالة يبلغ به مسافات أوسع وأبعد مما يفكر فيه أي رجل آخر ، ومسؤوليته أعظم من مسؤولية أب أو واجبات جد ، لو وظائف قائد .. إنه مكوّن أمة ، وصانع تاريخ ، ونذير الخالق تعالى إلى العالمين .

إنه يذهب بعيداً في تفكيره الصائب فيقول ، لا بد للمنية ان توفيه في يوم من الأيام ، ولا بد لجهوده ان تفسح امامها مجالات أوسع مما بلغتها اليوم ، فسوف تكون هناك أمة تدعى (بالأمة الإسلامية) تتخذ من شخص الرسول أسوة وقدوة صالحتين .

ولا بد لهذه الأمة من هداة طاهرين ، وقادة معصومين يهدون الأمة إلى الصراط المستقيم .. إلى الله العزيز الحكيم ..

وسوف لا يكونون — كما أخبرته الرسالة مراراً — إلا نريته هؤلاء ، علي ابن عمه ، وولده (ع) ، ثم دُرِّبَتهم الطيبة من بعدهم !

ولكن هل تجري الأمور كما يريدّها الرسول في المستقبل ؟. إن وجود العناصر المنحرفة بين المسلمين نذير لا يرتاح له الرسول (ص) على مستقبل الأمة .

وإن الوحي قد نزل عليه غير مرة يخبره بأن المصير الذي رآه الحق المتمثل في شخص الرسول (ص) هو نفس المصير الذي يترقبه الحق المتمثل في آله (ع) ، وأن العناصر التي قاومت الرسالة في عهده سوف تكون نفس العناصر التي تقاوم - بنفس العنف والإصرار - امتداد الرسالة في عهد أبنائه الطيبين صلوات الله عليه وعليهم .

فقد علم أنه سوف تبلغ الموجة مركزها الجانش ، وسوف يقف أنصار الحق والباطل موقفهم الفاصل في عهد الإمام الحسين (ع) ، هذا الوليد الرضيع الذي يُقَلَّب وجهه فيظهر مستقبله على ملامح الرسول وهو يضطرب على ساعديه المباركتين .

والنبي (ص) يلقى نظرة على المستقبل البعيد ، ويعرج فيه فيلقي نظرة أخرى على هذا الرضيع الميمون فيهزه البشر حيناً ، ويهيج به الحزن أحياناً ، ولا يزال كذلك حتى تنهمر من عينيه الوضيتين دموع ، ودموع ...

يبكي رسول الله (ص) .. وما أشجعه ، وهو الذي يلوذ بعريشه أشجع قريش وإبسلها ، علي بن أبي طالب (ع) حينما يشهد به الروح ، فيكون لقرب المحاربين إلى العدو ، ثم لا يفل ذلك من عزمه ومضائه قدر أنملة ، لكنه الآن يبكي وحوله نسوة في حفلة ميلاد .. فما أعجبه من حادث ..!

تقول لسماء فقلت : فذاك أبي وأمي مم بكأوك ؟ قال : على أبي هذا ؟

فقلت : إنه ولد الساعة يا رسول الله ؟

فقال : " تقتله الأمة الباغية من بعدي . لا أنا لهم الله شفاعتي " ^٢ .

إن القضية التي تخطج في صدر رسول الله (ص) ليست عاطفة إنسانية أو شهوة بشرية حتى تغريه عاطفة إعلاء ذكره وبقاء أثره في آله .

كلا .. بل هي قضية رسول . اصطفاه الله واختاره على علم منه ، بعزمه ومضائه ، وصدقه وإيمانه . قضية مَنْ تحمّل مسؤولية أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال الرواسي .. إنها مسؤولية الرسالة العامة إلى العالمين جميعاً .

والحسين (ع) ليس ابنه فقط ، بل هو قدوة وأسوة لمن ينذر من بعده ، فنبأ مصرعه - هو بالذات - نبأ مصرع الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، والعدالة بالظلم ... وهكذا .

فبيكي النبي (ص) لذلك ، ويحق له البكاء ..

٢٠٦

أنها ظاهرة ميلاد غريبة نجدها الساعة في بيت الرسالة تمتزج المسرة بالدموع ، والإبتسامة بالكآبة .. فهي حفلة الصالحين تدوم في رحلة مستمرة بين الخوف والرجاء ، والضحك والبكاء .

لنصغ قليلاً لنسمع السماء هل تشارك المحتقلين في هذا البيت الهادئ البسيط .
نعم . نسمع حفيفاً يقترب ، ونظنه حفيف الملائك ، فإذا بهم ملأوا رحاب البيت .
يتقدم جبرئيل (ع) فيقول ،
" يا محمد ! العلي الأعلى يقروك السلام ويقول ، علي منك بمنزلة هارون من موسى ، ولا نبي بعدك .
سم ابنك هذا باسم ابن هارون ؟
فيقول النبي (ص) ، وما اسم ابن هارون ؟
فيجيب ، شُبَّير .
فيقول النبي (ص) ، لسانى عربي ؟
فيجيب جبرائيل ، سَمُّه الحسين . فيسميه الحسين .
= ٤ =

ويتقدم فطرس .
ومن هو هذا الملك المهيضة جناحاه يحمله رفاقه ؟ . إنه مطرود من باب الله ، لم يزل في السجن
يعذب ، حتى واتته افواج من الملائكة ، فقال لهم ، مالي اراكم تعرجون وتهبطون ، اقامت الساعة ؟ .
فقال جبرائيل ، كلا ، وانما ولد للنبي الخاتم وليد ، فنحن ذاهبون إلى تهنته الساعة . فقال ، أفلا يمكن
ان تحملوني إليه عله يشفع لي فيشفع ؟ . فجاء به جبرائيل (ع) .
فها هو ذا يتقدم إلى الرسول (ص) يتوسل به إلى الله .. فلوما (ص) إلى مهد الحسين وهو يهتز في
وداعة ، فراح الملك يلمس جوانب المهد بجناحيه المكسورتين ، فإذا هو وقد رُدَّهما الله عليه إكراماً منه
لوجه الحسين (ع) عنده .
وتنتهي الحلقة ، ويأخذ النبي (ص) الرضيع الميمون بيديه ، ويحضنه ويؤذن في إحدى أذنيه ، ويُقيم
في الأخرى . ثم يجعل لسانه في فم الوليد فيغذيه من رضابه الشريف ما شاء .
ثم يعقُّ عنه بعد اسبوع بكبشين أملحين ، ويتصدق بزنة شعر رأسه بعد ان حلقه دراهم ، ثم يعطره
ويؤمى إلى أسماء فيقول ، " الدم من الجاهلية " .
وهكذا ينقلب الجد الحنون إلى اسوة حسنة للمسلمين ، فلا يكتفي بإجراء الآداب الإسلامية ، وهي في
روعتها ونضارتها - عملاً - وإنما ينسخ بالقول أيضاً لعنة الجاهلية ، حيث كانوا يضمنون رؤوس
ولدانهم بالدم إعلاناً لتوحشهم ، وإيداناً لطلب تراثهم .
= ٥ =

ولم يزل ذلك الوليد المبارك يتزعزع في احضان الرسالة ، ويعتني به صاحبها محمد (ص) وربيبها

(٣) انظر كتاب قاموس اللغة - مي مادة شر - وكتاب بحار الأنوار : (ح ١٠٤ ، ص ١١١) .

علي (ع) حتى بلغ من العمر زهاء سنتين ، ولكن لم يفتح لسانه عن أداء الكلام أبداً .
عجباً . إن ملامح الوليد تدل على ذكاء مفرط ، ومضاء جديد ، ومع ذلك فلم لم يتكلم بعد ، أيمن أن يكون ذلك لنقل في لسانه ؟

وذاث يوم إن اصطف المسلمون لإقامة صلاة الجماعة ، يؤمهم الرسول الأعظم ، وإلى جانبه حفيده الحبيب الحسين (ع) ولماً تها القوم للتحريم ، كان الخشوع مستولياً على القلوب . والهدوء سائداً على الجو ، والكل ينتظرون أن يكبر الرسول فيكبروا معه ، فإذا هم بصوته الخاشع الوديع يكسر سلطان السكوت ويقول : الله اكبر ...

وإذا بصوت ناعم خافت يشبه تماماً صوت النبي (ص) بكل نغماته ونبراته وما فيه من خشوع ووداعة يقول : الله اكبر ...

إنه صوت الحسين (ع) .

فكرر الرسول : الله اكبر ... فأرجع الحسين الله اكبر ، والمسلمون يستمعون ويكبرون ، ويتعجبون !!
فردد الرسول (ص) ذلك سبعاً ، ورجعه الحسين (ع) سبعاً ، ثم استمر النبي (ص) في صلاته والحسين (ع) يسترجع منه .

فقد كانت أول كلمة لفظها فم الحسين (ع) كلمة التوحيد ، الله اكبر .

وفيما نخطوا مع التاريخ بعض الخطوات الفاصلة ننظر إلى هذا الوليد بالذات - ذلك الذي لم يفتح فمه إلا على كلمة الله اكبر - ننظر إليه بعد خمس وخمسين سنة وهو يمارس آخر خطوات الجهاد المقدس ، ويعالج آخر لحظات الألم وقد طرح على الرضاء ، تلفحه حرارة الشمس ، ويمزق كبده الشريف حر العطش ، ويلفه حر السلاح المصلصل .

فنستمع إليه وهو يحرك شفتين طالما لمستهما شفتا رسول الله (ص) يتضرع إلى بارئه ، يقول ، " إلهي ... رضا برضاك ، لا معبود سواك " .

ولايزال يتمتع حتى يعرج بروحه الطاهرة المقدسة إلى السماء ، عليه افضل الصلاة والسلام .

❦

وإذا ثبت بالتجارب الحديثة أن للوراثة آثارها البالغة ، وأن للتربية حظها الكبير في إنماء خلق الطفل وتكييف صفاته ، فلا نشك في أن أبوي الحسين (عليه وعليهما السلام) كانا من أرفع الآباء خلقاً ، وأكرمهم نسباً . وإن تربيتهما كانت لحسن تربية وأشرفها وأقدرها على إنماء الأخلاق الفاضلة ، والسجيا الحميدة في نفس الإنسان .

وهل نشك في ربيب الرسول ذاته ، وربيب من رباهما الرسول فاطمة وعلي عليهم جميعاً صلوات الله وتحياته ؟

أفلا نرضى من الله العزيز كلمته العظيمة في القرآن حيث يقول ،

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ* يَتَّخِذُ لَآيِبِيَّانٍ* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرَّحْمَنُ/١٩-٢٢)

فالبهران هما بحر النبوة ومنبعه فاطمة (ع) عن الرسول (ص) ، وبحر الوصاية من قبيل علي (ع) .
فلا بد لهذين البحرين - إذا التقيا - ان يخرج منهما اللؤلؤ الحسن ، والمرجان الحسين (ع) .
= ♡ =

هذه هي الورثة .. إنها أقدس وأرفع مما يتصور .. ولا تسال عن التربية ، فلقد كانت انصع وأروع من كل تربية ، كان شخص الرسول (ص) يهتم بالحسين (ع) وتربيته بصورة مباشرة .
وبين يديك حديثان تحرف منهما مدى رعاية الرسول (ص) لشان الحسين (ع) ، مما يؤكد لك ان الحسين لم يكن ربيب علي وفاطمة (ع) فقط ، بل تربى على يد جدّه النبي (ص) ذاته .
عن يعلى العامري انه خرج من عند رسول الله (ص) إلى طعام دعي له . فإذا هو بالحسين (ع) يلعب مع الصبيان فاستقبل النبي (ص) امام القوم ...
ثم بسط يديه فطفر الصبي ههنا مرة وههنا مرة ، وجعل رسول الله يضحكه حتى اخذه فجعل احدى يديه تحت ذقنه والاخرى تحت قفاه ، ووضع فاه إلى فيه وقبله .
واستسقى الحسن (ع) فقام رسول الله (ص) فجذع له في غمر كان لهم^٥ ثم اتاه به .
فقام الحسين (ع) فقال ، " اسقني يا لبي " فاعطاه الحسن ثم جرّع للحسين (ع) فسقاه .
فقال فاطمة (ع) ، " كان الحسن أحبهما إليك " ؟ .
قال ، " إنه استسقى قبله ، وإني وإياك وهما وهذا الراقد - وأوما إلى علي أمير المؤمنين (ع) - في مكان من الجنة " ^٦ .

= ♡ =

وظل الوليد النبي يشبّ في كنف الرسول ، وظلّ الوالدين الطاهرين ، والرسول يوليه من العناية والرعاية ما يبهر الباب الصحابة ويحييهم . ولطالما بعث الرسول بكلماته النيرة على سمع المنات المحتشدة من المسلمين يقول ، " الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة " . و " الحسن والحسين إمامان قاما لو قعدا " ويقول ، " حسين مني وأنا من حسين " .
ويرفقه بين الناس - وهم ينظرون - فينادي ، " ايها الناس هذا الحسين بن علي فاعرفوه " .
ثم يردف قائلاً ، " والذي نفسي بيده إنه في الجنة ومعه أحبّؤه " .
وقد يتبوا له مقعداً في حضنه المبارك ويشير إليه فيقول ، " اللهم إني أحبه فأحبه " .

(٤) مستدرک : (ج ٢ ، ص ٦٢٦) .

(٥) أي غرف لهم من قدح ماء .

(٦) معالم الزلفى : (ص ٢٥٩) .

ولطالما يحمله هو وأخاه على كاهله الكريم وينقلهما من هنا إلى هناك ، والملا من المسلمين
يشهدون .
وهكذا ترعرع الوليد الحبيب في ظل الرسالة وفي كنف الرسول ، وأخذ منهما حظاً وافراً من المجد
والثناء .

الفصل الثاني

بعد الرسول

= ١ =

وبعد الرسول - حيث ازدحمت الحوادث واختلطت النعرات - نراه يقف جنباً إلى جنب مع والده العظيم في قضية الحق ويعلنها في أوضح برهان .
والمسلمون هناك ، يهتدون على من يهتدون .

= ٢ =

ومرة أخرى نلتقي بالحسين (ع) وهو شاب يمثل شمائل أبيه المهيبة ، ويقود الجيوش المزمجرة ضد طاغية الشام معاوية بن أبي سفيان .
وتتم على مضاء عزمه ، ومضاه سيفه ، وسداد فكره ، وسداد خطه انتصارات باهرة ضد الطغيان الأموي الذي أراد أن يرجع بالامة الإسلامية إلى جاهليتها الأولى ، وقد فعل .
.. ثم تدبر مؤامرة لنيمة لاغتيال الإمام علي (ع) وينتهي الأمر بمصرعه الفاجع ، وتلقي الأمة بابيض مسؤولياتها وأخطرها على كاهل الإمام الحسن (ع) فيمارس الإمام الحسين جهاده المقدس في أداء أمانة الحق ، ومسؤولية الأمة ، ويحرض الشعب الإسلامي ضد الباطل المحتشدة كل قواه في عرصات الشام، ويحذره من كل ما يرتقب من مآسي وويلات على يد الطاغية إن تم له الأمر .

= ٣ =

وينتهي دور الإمام الحسن فيقتل بسم يده إليه طاغية الشام .
فتقع دفة الخلافة الإلهية بيد الحسين (ع) ويتابعه المسلمون الواقعيون الذين لم يشاهدوا في بني امية إلا ملكاً عضوضاً كل همّه القضاء على مقدسات الأمة ومشاعرها في أن واحد .
نعم ، انتقلت الإمامة إلى رحاب الحسين (ع) في أوائل السنة الخمسين من الهجرة النبوية، ولتلقي نظرة خاطفة على الوضع السائد في البلاد الإسلامية آنذاك .

= ٤ =

في السنة الواحد والخمسين ، حج معاوية إلى بيت الله الحرام ليرى من قريب الوضع السياسي في مركز الحركة المناوئة لخلافته ، حيث إن الحرمين كانا مقرا الصحابة والمهاجرين ، وهم أبغض خلق الله لمعاوية لأنهم أشدهم خلافاً عليه .

فلما طاف بالبلاد المقدسة عرف ان الانصار - بصورة خاصة - يبغضونه ويكرهون خلافته على اشد ما تكون الكراهية والبغض .

وذات يوم سأل الملاحوله ، ما بال الانصار لم يستقبلوني ؟

فلجابه طائفة من زبانيته ، انهم لا يملكون من الابل ما يستطيعون استقبالك عليها .

وكان معاوية يعرف الحقيقة من برودة تلقي الانصار مجيئه ، فحينما سمع هذا الجواب الروتيني لمر وغمز وقال ، ما فعلت النواضح - اراد الاستهزاء بساحة الانصار ، بانهم كانوا ذات يوم من عمال اليهود في المدينة ، اصحاب ابل تنضح الماء لبساتين اليهود ، وكان في الحاضرين بعض زعماء الانصار فلجابه - وهو قيس بن سعد بن عباد - قائلاً :

افنوها يوم بدر وأحد وما بعدهما من مشاهد رسول الله حيث ضربوك واباك على الإسلام حتى ظهر امر الله وانتم كارهون . اما ان رسول الله عهد إلينا اننا سئلني بعده اثرة .

ثم جاش صدر قيس فاندلعت منه شرارة فيها ذكريات الماضي الزاهر ، وعواصف هذا اليوم الأسود ، فقال وامعن في ايضاح سوابق بني أمية ولولحقتهم ، وشرح ما كان من وقوفهم ضد الدعوة النبوية - أول يوم - وما كان من إنكارهم حق علي (ع) بعد ذلك ، وما كان من امر معاوية - بالذات - مع إمام زمانه ، وما جاء عن لسان النبي (ص) من الأحاديث بشأن علي ، الذي افترضه معاوية مناوئه الوحيد على كرسي الحكم .

ولم يدر قيس ذلك اليوم ما الذي كان يحمله معاوية من بغض وكره - سوف يحدوان به إلى مالا تحمد عواقبه - .

= @ =

ورجع معاوية يفكر في إجراء التدابير اللازمة ضد مناوآت الانصار والمهاجرين . وأول خطة اتخذها هي التي سوف يُتلى عليك تفصيلها .

وعرف معاوية ان في البلاد الإسلامية كثرة واعية من المفكرين الذين محضوا عن تجارب الماضي القريب ، ولمسوا حقيقة امر الحزب الأموي الحاكم ، كما آمنوا بقداسة الحق ، وبوجوب متابعتة ، والدفاع عن نواميسه السامية مهما كلفهم الأمر .

وعرف كذلك انه يستقر في مركز حركة هؤلاء الذين ناولوه ، علياً أولاً والحسن ثانياً ، وهذا الإمام ثالثاً . ثم عرف أيضاً ما لهذا البيت العلوي من دعائم وطيدة ، ومؤهلات كافية تنذر عرش الأمويين بالفناء العاجل .

فمن هنا بدأت خطته اللئيمة ، ففكر في ان من يحب علياً وآل علي لا شك في انه يستاء من ملك بني أمية . إذاً فلنقلع حب الإمام أولاً من صدور الشعب المسلم ، ولنستاصل مقاييس المسلمين التي يميزون بها الحق عن الباطل - الا وهي تمثل الإسلام الحق في بيت الرسالة - .

فاخذ يكتب إلى كل والٍ له في اطراف البلاد برسالة إليك نصها بالحرف ،
 أما بعد ، انظروا إلى من قامت عليه البيعة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان ، واسقطوا
 عطامه ورزقه . ولا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة .
 وهذه أول محنة واجهها انصار علي الذين كانوا يشكلون الجبهة المناوئة للحزب الأموي الحاكم . وقد
 كانت جبهة شديدة عنيفة جداً .
 ثم راح معاوية في ظلمه يخطو خطوة أخرى - أقسى من الأولى وأعنف كثيراً - فكتب إلى ولاته يقول ،
 أما بعد ، خذوهم على الظنة ، واقتلوهم على التهمة .
 ففكروا في هذه الكلمة ، (اقتلوهم على التهمة) فهل تعرفون أقسى منها في قاموس المجرمين وأعنف
 حكماً ؟

== ٦ ==

في مثل هذا الجو الرهيب كان يعيش الإمام الحسين (ع) وهو يتقلد منصب الخلافة الإلهية . ولا شك
 في أنه كان يؤلمه الشوك في طريق اصحاب الحق على الظنة ، وإبادتهم بالتهمة .
 ولكن الظروف التي كان يعيشها لم تكن بالتّي تجيز له المقاومة المسلحة ضد العدوان الأموي الأرعن ،
 لأن معاوية كان يعالج الأمر بالمكر والخدعة ، ويخدر أعصاب الأمة بالأموال الطائلة من ثروة الدولة التي إن
 لم تُعط الفائدة فهناك شيء كان يسميه بجنود العسل ، ويقصد به الغدر بحياة الشخصيات عن طريق
 السم يديفه في مطعمه لو مشربه ، كما فعل ذلك بالإمام الحسن (ع) بواسطة زوجته الغادرة ، وكان
 يستعمله دائماً ضد أولئك العظماء الذين لا يخضعون لسلطان المال والمنصب .
 إما إذا استعصى عليه الإغراء بالمال أو القضاء بالسم ، فيأتي دور القوة التي كان يستعملها بدون رحمة
 في مناسبة وغير مناسبة .

وبهذه الوسيلة الأخيرة قضى على الصحابي الكبير والزعيم الشيعي القدير ، حجر بن عدي ، حيث
 استدعاه هو وأصحابه إلى الشام ، وقبل أن يصلوا إلى العاصمة أرسل سرية من شرطته فقتلت بعضهم
 ودفنت بعضهم أحياء بغير جرم إلا أنهم كانوا اصحاب علي (ع) وقواد جيشه .

== ٧ ==

وكان مقتل حجر هذا منبهاً فعلاً ، للشعب الإسلامي الذي دعا إلى إعلان التمرد ، حتى من بعض
 اصحاب الأمويين كوالي خراسان ربيع بن زياد الحارثي ، حيث جاء المسجد ونادى بالناس ليجتمعوا ،
 فلما اكتمل اجتماعهم قام خطيباً وذكر المأساة بالتفصيل وقال : إن كان في المسلمين من حمية شيء
 لوجب عليهم أن يطالبوا بدم حجر الشهيد .

وحتى من مثل عائشة التي كانت بالأمس في الصف المخالف لعلي (ع) فإنها لما سمعت الفاجعة
 قالت ، أما والله لقد كان لجمجمة العرب عز ومنعة ، ثم انشئت ،

ذهب الذين يعيش في أكنافهم و بقيت في خلف كجلد الأجرس
ومشت في الأوساط السياسية رجة تبعثها اضطرابات جعلت معاوية يتدم من سوء فعله لأول مرة .
ولكن لم يكن مقتل حجر بالوحيد من نوعه ، فقد رافقه مقتل الصحابي الكبير المعترف به لدى سائر
المسلمين عمرو بن الحمق ، الذي حُمل رأسه على الرمح لأول مرة في تاريخ الإسلام ، حيث لم يُحمل
فيه قبل ذلك اليوم رأس مسلم قط .

وتبع حادثة حجر وأصحابه الستة عشر حوادث مرعبة نشرت على دنيا المسلمين التوتر والإضطراب .

== ﴿ ﴾ ==

ويمكننا ان نكشف عن بعض مظاهر هذا التوتر بما يلي ،
لقد سيطر زياد ابن ابيه على الكوفة والبصرة ، ولقد كان متشيعاً قبل ان يُلقه معاوية بنسبه ، فكان
يعرف أسرار الشيعة وخباياهم وزعماءهم وقادتهم . فلما استتب له الأمر راح يلاحقهم تحت كل حجر ومدر
ويمعن فيهم القتل والتكيد حتى ليَقول الرجل : انا كافر لا أؤمن بنبي خير له من أن يقول : إني شيعي
أؤمن بقداصة الحق وكفر بالجيت والطاغوت .

فلما ضبط العراقيين لإهاب بني أمية رفع زياد كتاباً إلى البلاد الملكي هذا نصه بالحرف ،
إني ضبكت العراق بشمالي ، ويميني فارغة . فولني الحجاز لشغل يميني به ..
ولما أدبني نبا هذه الرسالة في المدينة المنورة اجتمع المسلمون في المسجد النبوي وابتهلوا إلى الله
ضارعين ، اللهم اكفنا يمين زياد .

ولسنا بصدد بيان أنه كف الله عنهم يمين زياد فعلاً ، حيث أصابه الطاعون فمات ذليلاً ، إلا أننا
بصدد ان نعرف مدى الإرهاب المخيم على الأوساط السياسية حتى ان الناس يجتمعون للدعاء ضد والٍ
واحد ، رهيب الجانب ، مرعب السلطة .

== ﴿ ﴾ ==

وإذا سالت عن موقف السبط ، فنحن لا يهمنا من هذا الاستعراض الخاطف للأوضاع السياسية في
عهد معاوية إلا لنعرف موقف الإمام الحسين (ع) منها .

وستطبع ان نلمس موقفه بصورة إجمالية ، إذا مضينا نفكر في هذه القضايا الثلاث ، التي سنطوئها تباعاً .
١- كانت الأنباء تتوالى على المدينة بنكبات فجعية ، نزلت على رؤوس المسلمين بسبب مدحهم
للإمام علي (ع) وبسبب تشييعهم لأهل البيت (ع) تماماً بعد إعلان معاوية حكمه الصارم ،
كل من نقل فضيلة عن علي فقدَّ الأمان على نفسه وماله ؛ . وكان ذلك في مستهل السنة الواحدة
والخمسين بعد الهجرة النبوية . فدبر الإمام خطة جريئة نفذها بنفسه ، فجمع الناس في محفل ضم من
بني هاشم رجالاً ونساءً ومن أصحاب رسول الله ، ومن شيعته أكثر من سبعمئة رجل ، ومن التابعين
أكثر من مائتين ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال ،

"أما بعد ، فإن هذا الطاغية (يعني معاوية بن أبي سفيان) قد فعل بنا وبشييعتنا ما قد علمتم وشهدتم ، وإنني أريد أن أسالكم عن شيء ، فإن صدقت فصدقوني ، وإن كذبت فكذبوني ، وأسالكم بحق الله عليكم وبحق رسول الله وقرابتي من نبيكم لما سترتم مقامي هذا ، ووصفتم مقالتي ، ودعوتم أجمعين في أمصاركم من قبائلكم من أمتكم من الناس .

إسمعوا مقالتي ، واكتبوا قولي ، ثم أرجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم ، فمن أمتكم من الناس ووثقتكم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا فإنني أتخوف أن يدرس هذا الأمر ، ويذهب الحق ويغلب ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصَّف/٨)

ثم مضى الإمام في الخطبة القوية الهادرة ، يذكر الجمع بعلي (ع) ، وفي كل مقطوعة يصير هنيئة فيستشهد الأصحاب والتابعين على ذلك ، وهم لا يزيدون على اعترافهم قائلين ، اللهم نعم .. اللهم نعم . حتى ما ترك شيئاً مما أنزل الله فيهم من القرآن إلا تلاه وفسره ، ولا شيئاً مما قاله الرسول (ص) في أبيه وأخيه وأمه ونفسه وأهل بيته ، إلا رواه ، وفي كل ذلك يقول أصحابه ، اللهم نعم . لقد سمعنا وشهدنا ، ويقول التابعي ، اللهم قد حدثني به من أصدقائه وانتمينه من الصحابة .

أما وقد أشهدوا الله على ذلك قال ، " أنشدكم الله ألا حدثتم به من تتقون به وبدينه ... " . وكانت هذه خطة مناسبة للحد من طغيان معاوية في سب علي (ع) ، بل كانت خطة معاوية لسياسة بني أمية قاطبة الذين ارتلوا محو سطور في التاريخ هي اسطح ما فيه واروع ما يحتويه ، ألا وهي مآثر أهل بيت الرسالة .

ولم يكتف بنو أمية في محوها بالقوة فقط بل لعبت خزينة الدولة دوراً بعيداً في ذلك أيضاً . فقد كان الحديث يُشترى ويُبَاع كأي متاع آخر ، وكان المحدثون أوسع الناس ثروة أو أنكاهم نقمة . إن رضوا فلهم كل شيء ، وإن أبوا فعليهم كل شيء .

== ٩٥ ==

ربما كان معاوية وهو الداهية المعروف ينتظر من الإمام الحسين ذلك الاستنكار البالغ ، بيد أنه لم يكن يفكر في أن الأمر سوف يدبر على هذا الشكل المرعب ، وعلى أي حال فقد كان الأمر مرتقباً .

ولكن حدث بعد هذا التظاهر الصارخ أمر لم يكن معاوية يحلم به أبداً ،

٢- إن عيراً لوالي اليمن كانت محملة بأنواع الامتعة إلى البلاط الملكي لتوزع على أصحاب الضمانر المستأجرة .

ومرّت هذه العير بالمدينة فاستولى عليها الإمام (ع) وامتلكها حقاً شرعياً له ، ليصرفه في مواقفه اللازمة .

(٧) يمحي ويضمحل .

(٨) هذه المقطوعة من قول الراوي للحديث .

وكتب إلى معاوية رسالة أرغمت أنفه وأطارت لبه وهذا نص الرسالة :

" من الحسين بن علي ..

إلى معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد فإن عيراً مرّت بنا من اليمن تحمل مالا وحُللاً إليك لتودعها خزائن دمشق ، وتعلّ بها بعد نهل ببني أبيك ، واني احتجت إليها ولخدتها والسلام .. " .

ولول ما لفت نظر معاوية من هذه الرسالة تقديم الإمام الحسين (ع) اسمه واسم أبيه على ذكر معاوية ، ثم دعاؤه له باسمه الشخصي دون أن يشفعه بـلقب " أمير المؤمنين " ويعتبر ذلك - في منطق القرون الأولى - تحدياً بليغاً لسلطة معاوية ، بل يؤكد هذا في أن الكاتب قد خلع عن نفسه الرضوخ لسلطان الدولة الباطلة .

ثم جلب انتباهه موضوع لخذ اليد ، وفيه لبغ دليل على التمرد على السلطة الحاكمة . بيد أن معاوية بدهائه عرف أن الظروف لا تقتضي إلا الإغماض عن أمثال هذه الأعمال ، ولم يكن الإمام (ع) يريد أن يبتدئ بإعلان التمرد المسلح لأنه كان حريصاً على حفظ دماء المسلمين كحرصه على نشر الحقيقة .

فكتب إليه معاوية : في منطق مستعجب وبين أنه عارف بمكانته ، وجيل شانته ، وأنه لا يريد أن يمس ساحته بسوء . بيد أن خلفه من بعده سوف يكون له بالمرصاد .

= ٩٩ =

ومضى الحسين (ع) في توطيد دعائم الحقيقة ، ببث الوعي ، وجمع الأنصار ، ولا زالت الأنباء تتوارد على البلاط الملكي بشأن الإمام ، وأنه يعد العدة لثورة فاصلة .

بيد أن معاوية كاد يتم الأمر بالخدعة قبل أن يدبر النقمة لعدم مؤاتاة الظروف للساعة المرتقبة ، فكتب رسالة أخرى إلى الإمام يستعجب ويؤنب ، ويذكر بالصلات الودية بينه وبين الإمام (ع) . ولكن الإمام الحسين (ع) كان يعلم بالفجائع التي كانت تنقض على رؤوس الشيعة من محبي آل الرسول في كل بلد .

٣- فكتب إليه برسالة أخرى يسرد فيها أعماله واحداً تلو الآخر .

" .. أما بعد فقد بلغني كتاب تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب ، وأنا بغيرها عنك جدير ، وإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى .

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني ، فإنه إنما رقاها إليك الملائقون المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الجمع ، وكذب المعادون ، ما أردت حرياً ولا عليك خلافاً .

وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الإعداء فيه إليك ، وإلى أوليائك القاسطين الملحدين - حزب الظلمة - وأولياء الشياطين .

السبت القاتل حجر بن عدي لخوا كندة واصحابه المصلين العابدين ، كانوا ينكرون ويستضعفون البدع ، ويأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ثم قتلهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الايمان والمخلطة والمواثيق المؤكدة جرة على الله واستخفافاً بعهده .

لولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه ، فقتلته بعد ما امنته واعطيته من العهود ما لو فهمه الموصم لزلت قدمه من رؤوس الجبال ؟

لولست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت انه ابن ابيك وقد قال رسول الله (ص) ، الولد للفراش وللعاهر الحجر ، فتركت سنة رسول الله (ص) تعمداً ، وتبعته هواك بغير هدى من الله . ثم سلطته على اهل الإسلام يقتلهم ، ويقطع ايديهم وارجلهم ، ويسمل اعينهم ويصلبهم في جذوع النخل ، كذلك لست من هذه الأمة ، وليسو منك ؟ .

لولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد انه على دين علي صلوات الله عليه ، فكتبت إليه ، ان اقتل كل من كان على دين علي ، فقطعهم ومثل بهم ؟ .. " .

إلى آخر الكتاب الذي كان سوط عذاب يلهب متن معاوية ومن دار في فلكه من المنحرفين .

== ٧٢ ==

وهكذا عاش الإمام (ع) الصوت الوحيد الذي غدا يردد امام كل بدعة ، والسوط الفارع الذي بات يسوي كل تخلف او تطرف في المجتمع ، فلطالما حرض ذوي الفكر والجاه ، واثارهم على حكومة الضالين ، بيد انهم فضلوا مصالح انفسهم على مصالح الدين ، ولم يحفظوا ذمهم ، في حين راحت دمة الإسلام ضحية كل فاجر .

ولطالما خاطر الإمام الحسين (ع) بوقوفه امام اعتداغات بني امية على مصلحة الأمة الإسلامية ، وعلى مقدسات الدين ونواميسه .

والواقع اننا لو اردنا ان نتصور الوضع الديني في عصر الإمام خالياً عنه وعن جهاده ، لكننا نراه احلك عصر مر به المسلمون ، واقساؤه واعنفه . ولو كنا نتصور الإسلام وقد مر به ذلك العصر بدون ابي عبد الله (ع) لكننا نراه اضعف دين واقربه إلى الإنحراف .

فلم يكن هناك من قوة تستطيع الوقوف امام المد الأموي الأسود ، إلا شخص ابي عبد الله (ع) ومن دار في افقه من الانتصار والمهاجرين ، لأن الحروب التي سبقت عصر الإمام اعلنت عن تجارب سيئة جداً ، واختبارات فظيعة لقوى الخير في المسلمين ، وما كان من شتياتها موجوداً لفته زوابع الترهيب ، واعاصير الترغيب ، فراحت مع التي راحت أولاً .

وبقي المحامي والنصير الأول والآخر للإسلام ، وهو الإمام الحسين (ع) الذي استطاع بسداد رايه ، ومضاء عزمه ، وسبق قدمه ، وسمو حسبه ونسبه ، وما كان له من مؤهلات ورثها من جده رسول الله

وأبيه علي أمير المؤمنين صلوات الله عليهما استطاع بكل ذلك أن يشكل جبهة قوية نسبياً أمام الطغيان الأموي الواسع .

وكان ذلك شأنه في عصري معاوية ويزيد .
وها نحن قد استعرضنا جانباً موجزاً من عصر معاوية ، وسوف أستعرض شيئاً قليلاً عن عصر يزيد ،
في الفصل الأخير ، وسوف لا نذهب في سرد القضايا تفصيلاً ، بل نجعلها موجزةً لسببين :
أولاً : اشتهار نهضته العظيمة في عهد يزيد حتى كاد يعيها كل شيعي مؤمن .
وثانياً : لأن ذلك يحتاج إلى موسوعة علمية كبيرة تحلل القضايا السياسية والدينية التي رافقت نهضة
الحسين (ع) ليظفر من ذلك باروع أمثلة الجهاد وارفعتها .
وهكذا يحق لنا أن ندع البحث ابتراً ، لندخل بحوثاً أخرى ، نتكلم فيها حول السمات الشخصية لسيد
الشهداء الحسين (ع) ، تاركين جانب الدين والسياسة لمجال أفسح ، وفي بحث أوسع .

الفصل الثالث

الخلق العظيم

= ٩ =

الكريم السخي :

١- جاء إلى الإمام الحسين (ع) أعرابي فقال : يا بن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن ادائها ، فقلت في نفسي : أسأل أكرم الناس . وما رايت أكرم من أهل بيت رسول الله (ص) . فقال له الحسين (ع) : " يا أبا العرب ، أسألك عن ثلاث مسائل ، فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال ، وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي المال ، وإن أجبت عن الكل أعطيتك الكل " . فقال الأعرابي : أمثلك يسأل مثلي ، وأنت من أهل العلم والشرف ؟ فقال الحسين (ع) : " بلى ، سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : المعروف بقدر المعرفة " . فقال الأعرابي : سل عما بدا لك ، فإن أجبت ولا تعلمت منك ، ولا قوة إلا بالله . فقال الحسين (ع) : " أي الأعمال أفضل ؟ " . فقال الأعرابي : الإيمان بالله . فقال الحسين (ع) : " فما النجاة من الهلكة ؟ " . فقال الأعرابي : الثقة بالله . فقال الحسين (ع) : " فما يزين الرجل ؟ " . فقال الأعرابي : علم معه حلم . فقال (ع) : " فإن أخطاه ذلك ؟ " . فقال : مالٌ معه مروءة . قال : " فإن أخطاه ذلك ؟ " . فقال : فقرٌ معه صبر . فقال الحسين (ع) : " فإن أخطاه ذلك ؟ " . فقال الأعرابي : فصاعة تنزل من السماء فتحرقه فإنه أهل لذلك . فضحك الحسين (ع) وأعطاه صرة فيها ألف دينار ، وأعطاه خاتمه ، وفيه فص قيمته مئتا درهم ، وقال : " يا أعرابي ! أعط الذهب إلى غرمانك ، وأصرف الخاتم في نفقتك " .

فلأخذ الأعرابي ذلك وقال ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ^٩ .
٢- قال أنس بن مالك ،

كنت عند الحسين (ع) ، فدخلت عليه جارية فحيتته بطاقة ريحان فقال لها ، " أنت حرة لوجه الله " .
فقلت تحبيك بطاقة ريحان لا خطر لها فتعتقها ؟
قال ، " كذا أدبنا الله ، قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء/ ٨٦) وكان
لحسن منها عتقها " ^{١٠} .

٣- وجاء إليه عرابي - فأنشده مقطوعة شعرية بين بها حاجته فقال ،
لم يَخْبِ الآنَ مَنْ رَجَاكَ وَمَنْ حُرِّكَ مِنْ دُونِ بَابِكَ الْحَلْقَه
أنت جوادٌ ، وأنت معتمدٌ لبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم كانت علينا الجحيم منطبقه
وكان الحسين يصلي آنذاك فلما فرغ من صلاته ، لف على طرف رداء له أربعة آلاف دينار ذهب ،
وناوله قاتلاً ،

خذهما فإني إليك معتذرٌ و أعلمُ بأنني عليك ذو شفقه
لو كان في سرُّنا الغداة عصاً كانت سمانا عليك ممدقه
لكنَّ ريب الزمان ذو غيرٍ والكفُّ منِّي قليلةُ النفقه
فلأخذ الأعرابي بيكي شوقاً ، ثم تصعدت من أعماقه أهات حارة ، وقال : كيف تبلى هذه الأيدي
الكريمة ؟ .. ^{١١} .

= ٢ =

عن الضعفاء :

وهذه صفة تأتي كالفرع الذي سبقها من سجية الكرم ، فإن النفس إذا بلغت رفعتها المأمولة حنت على
الآخرين حنان السحابة على الأرض والشمس على الكواكب .
١- وُجد على كاهله الشريف بعد وقعة الطف أثراً بليغاً كأنه من جرح عدة صوارم متقاربة ، وحيث
عرف الشاهدون أنه ليس من أثر جرح عاديٍّ ، سألوا علي بن الحسين (ع) عن ذلك ؟ فقال ، " هذا مما
كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرملة واليتامى والمساكين " ^{١٢} .

(٩) أعيان الشيعة : (٤ - ٢٩) للسيد محسن الأمين .

(١٠) أبو الشهداء - عباس محمود العقاد .

(١١) المعصوم الخامس - جواد فاضل . وفي المناقب : (ج ٤ ، ص ٦٦) .

(١٢) أعيان الشيعة : (٤ - ١٣٢) السيد محسن الأمين .

٢- ويذكر بهذه المناسبة أيضاً أن مالا وزَّعه معاوية بين الزعماء والوجهاء ، فلما فصلت الحمالون تناكر الجالسون بحضرة معاوية أمر هؤلاء المرسل إليهم الأموال حتى انتهى الحديث إلى الحسين (ع) .
فقال معاوية ، وأما الحسين فبيدا بليتام مَنْ قُتل مع أبيه بصفيٍّ ، فإن بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن^{١٣} .

ومعاوية كان من الدُّ لعداء الحسين (ع) ولكنه يضطر الآن إلى أن يعترف بكرمه وسخائه ، حيث لا يجد دون ذلك مهرباً .

والى هذا المدى البعيد يبلغ الحسين (ع) في الكرم ، حتى ليقف عدوه الكتاب الذي لم يترك أحداً من الزعماء الأبرياء ، إلا وكاد له بتهمة ، ووصمه بها وصمة .. حتى أن علياً سيد الصالحين ، والحسن الزكي الأمين ، فإن معاوية هذا يقف على منبر يشيد بهما وبسجايهما المباركة .

٣- وقال (ع) يرغب الناس في الجود ،

إذا جادات الدنيا عليك فجُدْ بها

فما الجود يفنيه إذا هي أقبلت

و ما البخل يبقيهما إذا هي ولت

وفعلاً كان الحسين (ع) العامل قبل أن يكون القاتل ، وسألو عليكم هذه القصة .

٤- دخل (ع) على أسامة بن زيد وهو على فراش المرض يقول ، واغمأه ، فقال ، " وما غمأك يا نخي ؟ " قال ، ديني وهو ستون ألف درهم . فقال ، " هو عليّ " قال ، إني أخشى أن أموت قبل أن يُقضى ، قال ، " لن تموت حتى أقضيها عنك ، فقضاها قبل موته " ^{١٤} .

= ٣ =

الشجاع والبطل :

نعتقد نحن الشيعة أن الأئمة الأثنى عشر قد بلغوا القمة من كل كمال ، ولم يدعو مجالاً للسمو إلا ولجوه فكانوا السابقين . بيد أن الظروف التي مرّوا بها كانت تختلف في إنجاز مؤهلاتهم بقدرها ، وطبقاً لهذه الفلسفة فإن كل واحد منهم اختص بصفة مميزة بين الآخرين . وإن ميزة الإمام الحسين (ع) هي الشجاعة والبطولة بين سائر الأئمة (ع) .

وكلما تصور الإنسان واقعة كربلاء ذات المشاهد الرهيبة ، التي امتزج فيها الدمع بالدم ، وابتغى بها الصبر بالمروعة ، والمواساة بالغداء ، لاحت بسالة أبرز أبطالها الإمام الحسين (ع) ، في أروع وإبهى ما تكون بطولة في التاريخ . ولولا ما نعرفه في ذات الإمام من كفااته البطولية التي ورثها ساعداً عن ساعد ، وفؤاداً عن فؤاد ، ولولا الونائق التاريخية التي لا يخالجهما الشك ، ولولا ما نعتقد من أن القدوة الروحية لا بد أن تكون آية الخلق ومعجزة الإله فلربما شككنا في كثير من الحقائق الثابتة التي يذهل دونها العقل ،

(١٣) أبو الشهداء - عباس محمود العقاد .

(١٤) أعيان الشيعة : (٤ - ١٢٦) السيد محسن الأمين .

والفكر ، والضمير .

كان الإمام الحسين (ع) يوم الطف ينزل إلى المعركة في كل مناسبة فيكشف اسراف الخيل ، لتفصح عن جثمان صحابي أو هاشمي يريد بلوغ مصرعه .
ولربما احتدم النزاع عنيداً شديداً بينه وبينهم وهو يحاول بلوغ مصرع من بريده . فكانت تعد كل محاولة له من هذا النوع هجمة فريدة ، ومع ذلك كان يكرر ذلك كل ساعة حتى قُتل أصحابه ، وأبنائه ، وإخوانه جميعاً .
والمصيبة ذاتها كانت مما يُنيل من قوة الإنسان ، كما تُفلّ من عزمته ، والعطش والجوع يضعفان المرء ، ويذهبان بكل طاقاته ، والحر سبب آخر يأخذ جهداً من المرء كثيراً .
ويجتمع كل ذلك في شخص الحسين (ع) يوم عاشوراء ، ومع ذلك فإنه يلبس درعاً منصفاً ، ذو واجهة امامية فقط ، ويهجم على الجيش الضاري ، فإذا به كالصاعقة تنقض فيتساقط على جانبيه الأبطال كما تتساقط أوراق الشجر في فصل الخريف .

فيقول بعض من حضر المشهد : إنه ما رايت أشجع منه ، إذ يكر على الجيش ، فيفر أمامه فرار المعزى عن الأسد ، وذلك في حين أنه لم يكن آنذاك أفصح منه إنساناً .
وحينما نرجع بالتاريخ إلى الوراء نجد من الإمام الحسين (ع) بطولات نادرة في الفتوحات الإسلامية .
ثم في حروب الإمام (عليه السلام) . إلا أنها مهما بلغت من القوة والاصالة فإنها لاتبلغ شجاعته يوم عاشوراء ، تلك التي كانت لية رائعة في تاريخ الإنسانية بلا شك .
يقول العقاد : وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم عاشوراء^{١٥} .

... ..

الزاهد العابد :

كان الحسين (ع) يحج كل سنة ، إلا إذا حالت دون ذلك الظروف . وكان يمشي على قدميه إذا حج ، وتقاد بجانبه عشرات الإبل بغير راكب ، فيتفقد كل مسكين فقير ، صغرت بداه عن بهيمة راحلة للحج ، فيسوق إليه الراحلة من الإبل التي معه .
وكان يصلي كل ليلة ألف ركعة ، حتى سنل نجله الإمام زين العابدين (ع) ، ما بال أبينا قلنا الأولاد ؟ .
فاجاب : " إنه كان يصلي في كل ليلة ألف ركعة ، فمتى يحدث " .

... ..

الصابر الحكيم :

١- الصبر هو استطاعة الفرد على ضبط اعصابه في احرج موقف . ولا ريب ان الإمام الحسين (ع)

(١٥) أبو الشهداء - عباس محمود العقاد - : (ص ٤٦) .

كان يوم عاشوراء في اخرج موقف وقفه إنسان امام اعنف قوة ، واقسى حالة .
ومع ذلك فقد صبر صبراً تعجبت ملائكة السماء من طول استقامته ، وقوة إرادته ، ومضاء عزيمته ..
٢- جنى عليه غلام جناية توجب العقاب ، فامر به ان يضرب ، فقال ، يا مولاي ﴿ وَالْكَافِرِينَ
الْفَيْضُ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، " خلوا عنه " فقال ، يا مولاي ﴿ وَالْعَالَمِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (آل عمران/١٣٤)
قال ، " قد عفوت عنك " قال ، يا مولاي ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، " انت حر
لوجه الله ، ولك ضعف ما كنت اعطيك " ١٦ .

= ٦ =

الفصح البديه :

لقد زحرت الكتب التاريخية بنوادره الرائعة من كلمات فصيحة يحسدها الدر في المع نضارته ، وألق
روعته . وقد جُمع ذلك في كتب براسها ، إلا اني ذاكر لك الآن شيئاً قليلاً منها .

١- ابجد عثمان الصحابي الكبير ابا ذر (رض) ، فشيعه علي وابناه (ع) ، فقال الإمام الحسين
بالمناسبة ،

" يا عمّاه ، إن الله قادر ان يغير ما قد ترى . والله كل يوم في شأن . وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم
دينك ، وما اغناك عمّا منعوك ، واحوجهم إلى ما منعتهم . فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعن به من
الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يقدم رزقاً ، والجزع لا يؤخر اجلاً " ١٧ .

٢- جاء إليه اعرابي فقال ، اني جئتك من الهرقل والجعلل والأنيم والمهمم . فتبسم الحسين (ع) وقال ،
" يا اعرابي لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلا العالمون " .

فقال الأعرابي ، واقول اكثر من هذا ، فهل انت مجيبي على قدر كلامي ؟ فآثر له الحسين (ع) في ذلك
فانشد يقول ،

هفا قلبي إلى اللهو وقد ودع شرخي
إلى تسعة أبيات على هذا الوزن .

فاجابه الحسين (ع) مثلها متشابهات منها ،

فما رسم شيطاني قد تحببت اببات رسميه
سفور درجبت ذيلين فسي بوغاء فاعيه
هتوف حرجف تترى على تلبيد توبيه
ثم اخذ يفسر ما غمض من كلامه فقال ،

" اما هرقل ، فهو ملك الروم ، والجعلل ، فهو قصار النخل ، والأنيم ، بعوض النبات ، والمهمم ،

(١٦) الفصول المهمة : (ص ١٥٩) .

(١٧) روضة الكافي : (ص ٢٠٧) .

القليب الغزير الماء " .

وهذه كانت أوصاف الأرض التي جاء منها .

فقال الأعرابي : ما رايت كالأيوم لحسن من هذا الغلام كلاماً ، وأذرب لساناً ، ولا افصح منه منطقاً^{١٨} .
ومن روائعه المأثور قوله : " شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة على الضعفاء ، والبخل
عن الإعطاء " ^{١٩} .

ومن حكمه البديعة : " لا تتكلف ما لا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تعتد بما لا تقدر عليه ، ولا
تتفق إلا بقدر ما تستفيد ، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ، ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ،
ولا تتناول إلا ما رايت نفسك له أهلاً " ^{٢٠} .

ومن بديع كلامه لما سئل : ما الفضل ؟ قال : " ملك اللسان ، وبذل الإحسان " . قيل : فما
النقص ؟ قال : " التكلف لما لا يعينك " .

(١٨) أبو الشهداء - عباس محمود العقاد ، نقلاً عن كتاب مطالب المسؤل لمحمد بن طلحة الشافعي :
(ص ٧٣) .

(١٩) بلاغة الإمام الحسين : (ص ١٢٨) .

(٢٠) بلاغة الإمام الحسين : (ص ١٥٤) .

الفصل الرابع

نهضته

= ٩ =

على الطريق :

أولاً ، لم تكن الخلافة في المفهوم الإسلامي حقاً يورث . ولكن السلطة التي استبدت بالحكم في عصر عثمان أرادت أن تجعلها كذلك . ففي المحفل الحاشد الذي ضم كثيراً من المسلمين بينهم عثمان والإمام علي (ع) ، جاء أبو سفيان شيخ بني أمية والوجيه لديهم ، وهم الحزب الحاكم على الأوساط السياسية في البلاد الإسلامية — ذلك اليوم — جاء يتفقد طريقه بعصاً يحملها وقد كُف بصره . وكان آنذاك قد شعر بانتهاء دوره في الحياة واقترب منيته ، فسأل أحد الجالسين هل في الحفل مَنْ يُخشى منه من غير بني أمية .

قال له رجل ، ليس ههنا رجل غريب .

فقال ، تَلَقَّوْهُمَا — أي السلطة — تَلَقَّفَ الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار ! .

فأصاخ إليه كل سمع كان في بني أمية ، ووعى نصيحته بكل التفات ، ولم يعترض عليه يومئذ سوى أمير المؤمنين علي (ع) ، إذ وبَّخه على إعلان الكفر ، وأنَّبه فاعتذر قائلاً ، لقد كنت مغروراً بهذا الرجل الذي نفى وجود أي غريب في المجلس ، وألاً لم يكن من الحزم أن اصارع مثلك بهذا . وانتهى الحفل ، وتفرق الجمع ، إلا أنه كان ذا تأثير كبير في تسيير الأوضاع السياسية لمستقبل المسلمين .

أجل قد افصح قول أبي سفيان عن خطة له مدروسة ساعده على تنفيذها الحزب الأموي ، أولاً ، ومن ابتغى السلطة ، بل ومن ابتغى تقويض الأسس الإسلامية لأضغان قديمة ، وإحقاق متراكمة .

ثانياً ، تلك هي رغبة السيطرة على الحكم ، ثم يسهل عليهم كل ما يشاؤون . وأبو سفيان — وهم معه — كانوا يستسهلون كل صعب ، ويستحسنون كل قبيح في سبيل ذلك ، ماداموا لا يعتقدون بجنة أو نار ، ولا يؤمنون بنبي أو وصي ، ولا يبالون لأي مقدس يُدحض ، وأي شرف يُدنس ، ولية سمعة تُساء ، فإن امامهم غاية يبررون في سبيل الوصول إليها كل واسطة ، بل يعتبرون كل واسطة تؤدي إليها أمراً مقدساً ومحرمًا . تماماً كالفكرة الحاهلية التي تمكنت من ادمغتهم البالية .

وحيثما تجري مع الأحداث التي مرت بالعالم الإسلامي من أواخر عهد عثمان حتى قيام الدولة العباسية نجد أوفق التفاسير لها هذا الذي قدمناه لك الآن من كلام أبي سفيان ، واعتقاده ومن تابعه .

فالحروب التي رافقت عصر الإمام علي (ع) ، والحرمان التي هتكت في عصر معاوية ، والغارات التي شنت في عهد يزيد ، والمعارك التي شبت وأضرمت في عهد سائر الخلفاء الأمويين ... كانت جميعاً جارية على هذا المبدأ ، ومنفذة لهذه الخطة المدروسة .

فالحزب الأموي لم يفكر إلا في ابتزاز الأموال ، وتشكيل السلطان ، واستعباد الخلق بكل وسيلة . ومن أراد تفكيك الأحداث السياسية في هذه الحقبة الطويلة عن هذه الحقيقة الصريحة فقد أراد تفكيك المعلول عن علته ، والمسبب عن سببه .

= ٢ =

الحق الموروث :

وهكذا فإن الحزب الأموي شاء أن يجعل الخلافة حقاً شخصياً وموروثاً منذ استبد بالحكم في عهد عثمان . إلا أن المسلمين أدركوا ذلك بوعيههم . وبتنبه كبار صحابة رسول الله (ص) ، أمثال أبي ذر الغفاري ، وعمر بن الحمق الخزاعي فلشعلوها ثورة اطاحت بأمال بني أمية ، ونسفت أحلامهم وما بنوا عليها من صروح خيالية .

بيد أنهم دبروا الأمر بشكل آخر كما يعرفه الجميع ، حيث طالبوا بدم عثمان . وهذه أول أية تدل على أنهم اعتبروا أنفسهم وارثين الخلافة بعد عثمان . وإلا فما كان يمكنهم أن يطالبوا بذلك بعد أن يضمنوا صوته إلى سائر أصوات المسلمين ، ويباعوا علياً (ع) ، لا بل إنهم يريدونها كسروية وقيصرية يرثها الحفيد ، وتبرم باسم الوليد وهو رضيع .

فما أغنى معاوية عن هذا الذي لج فيه وتهالك عليه . لقد رفع في الشام قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضعي لحاهم بدموع أعينهم ، ورافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يغمدوا سيوفهم حتى يقتلوا قتلة عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله .

هل كان نهج معاوية هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بولئك القطة ؟
أكان طريق القصاص أن يمتنع من البيعة للخليفة الجديد الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة ، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجا من كل الأمصار والأقطار .
أكان طريق الثار لعثمان أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئا كما تتطلب راب الصدع وجمع الكلمة .
أكانت أية ولانته وحبه لعثمان أن يجعل من " قميصه " المضمن بدمه رايةً يبعث تحتها كل غرائز

الجاهلية ، ويدير تحتها انعس حرب أهلية تزلزل الإسلام وتفتني المسلمين .
لم يكن الهدف الثار لعثمان . وإلا فما حذاه إلى أن يكتب إلى كل من طلحة والزبير يدعو كلا منهما
بإمرة المؤمنين ، ويدعي انهما احق بها من علي (ع) وانه من ورائهما ظهير ، قد اتخذ لهما البيعة من
اهل الشام سلفاً .

وانما كان هدفه أن يثير استغزازاً في العالم الإسلامي المتوتر ، ويخرج من وراء ذلك بما يريد من الظفر
بالسلطة المأمولة ، والحزب الأموي من وراء القصد .

ولنترك هذا المشهد إلى مشهد آخر . فحينما نجحت مؤامرة معاوية وساعدته الأقدار على ابتزاز السلطة
من يد أهلها ، وهيات له كل أهدافه وحققت له جميع شهواته ، فما الذي حذاه إذاً إلى استخلاف يزيد هذا
السكر المقاتر من بعده .

لا نستطيع تفسيراً لذلك إلا ما قد سبق من أن القضية كانت لعمق مما نخاله . فإنها ليست قضية
استخلاف والد ولده فقط ، بل هي تحويل الخلافة إلى ملك أموي عوض . صرح به مروان بن الحكم في
عهد عثمان إذ قال للناس المحتشدين حول البلاط يطالبون بحقوقهم الشرعية ، ما تريدون من ملكنا .
إذاً هو ملك لكم تريدون الإبقاء عليه بما أوتيتهم من قوة وسلطان .. وراحت الأحداث تباعاً كلها تؤكد هذا
التفسير حتى جاء أحد الموالين لبني أمية فصعد المنبر في حشد يضم زعماء المسلمين ذلك اليوم ،
ومعاوية متصدر وإلى جنبه يزيد .

فنظر إلى معاوية ، ثم إلى يزيد ثم هز سيفه قائلاً ،

أمير المؤمنين هذا (معاوية) .

فإن مات فهذا (يزيد) .

والأ .. فهذا .. وهز السيف !!! فتقبل الناس خوفاً من آخر الثلاثة .

ومات معاوية ، وكتب يزيد إلى الولاة بلخذ البيعة له . وجاء كتابه إلى المدينة . وطلب حاكم المدينة من
الحسين (ع) البيعة ليزيد ، فأبى . وكان من الطبيعي أن يابى .

ثم حشد الحسين (ع) أهله ، وأصحابه ، وسار إلى مكة لإعلان ثورته ، لا على يزيد فقط بل على
الحزب الأموي ، وعلى التوتر الذي يسود العالم الإسلامي أيضاً . ولا شك انه سوف يربح القضية .
وبقي (ع) في مكة المكرمة أياماً ، يعرف الناس مكانته السامية من الرسول (ص) وسابقتها الناصحة
للرسالة ، وقدمه الأصيل في قضايا المسلمين .

وارسل يزيد إلى اعتباله مئة مسلح .. فعرف الحسين (ع) ذلك ، فتكبد الطريق ، وقصد الخروج إلى
الكوفة .

لماذا ؟ لأسباب نوجزها فيما يلي ،

١- لأنه إما أن يعلن الحرب على بني أمية وانصارهم في مكة ، وهو لا يريد ذلك لأنه يخالف قداسة البيت وحرمة لولاً ، ولأنه إن ربحها لم يفد شيئاً ، لأن من ورائه دولة مسلحة منتشرة قوامها في كل مكان ، في حين أن مكة تكفيها سرية تتجه من المدينة ، حيث لاتزال حكومة الأمويين متمكنة هناك . فتلحقها طحناً ، بينما الكوفة هي الآن أعظم قوة إسلامية على الإطلاق .

اضف إلى ذلك أن هناك من أجراء بني أمية كثيرون يلققون عليه من الروايات ماهو بريء منها ، كما فعلوا بالنسبة إلى أمير المؤمنين علي (ع) .

والحسين (ع) لا يهمه شيء كما يهمه معرفة الناس أنه على حق ، وأن مناوئيه على باطل ، حتى يتبع نهج الحق الذي يمثله ، ويترك نهج الباطل الذي يمثله .

ولو أعلنها حرباً عليهم لكانت النتيجة أن يقتل بسيف هؤلاء الوافدين من قبل السلطة وتحت البستهم أسلحة الإجرام .

٢- وفي مكة ابن الزبير وهو يزعم بأنه لحق بالأمر من الحسين (ع) ولا يهمه أن يتحد مع يزيد الذي يدعي الآن أنه من مناوئيه في سبيل القضاء على الحسين ، كما صنع ذلك أبوه في معركة البصرة ، حيث اصطف بجانب مناوئي علي (ع) ليحظى بالخلافة دون الإمام .

٣- والإمام الحسين (ع) لم يكن يريد أن يشتغل به ، وهناك القضية الكبرى حيث تحولت الخلافة في الشام إلى ملك عضوض . وهذا انحراف يجري الخلافة من حق إلى باطل ، والأولى أشد وأمر من الثانية قطعاً .

٤- إن مجرد سفره إلى العراق في حين يتقاطر الناس إلى مكة من كل حذب وصوب - يوم الدامن من ذي الحجة الحرام - إعلان كافٍ لهم عن هدفه ، بل هو وحده كافٍ لتنبية أهل الأمصار والأقطار الثانية بما يحدث في العاصمة من حقيقة لمر الخلافة .

ثم سار بموكبه الحافل يقصد الكوفة ، وقد أعلنت متابعة الإمام (ع) وأعطت البيعة له ، وتواعدت على الحرب معه ، كما كانت تحارب مع أبيه أهل الشام .

ومسلم بن عقيل ابن عمه وإل عليهم ، نافذ الكلمة ، مطاع أمين .

ثم اختلفت الرياح السود على الأوساط ، وكما يبين الإمام (ع) نفسه ، خذلته شيعته وانصاره ، ونقضوا بيعته ، وتلاشت قواه تحت ترهيب قوة الشام وترغيبها .

وهناك سبب آخر غير مجرى التاريخ ، وهو التزام انصار الحسين بالحق حتى في أشد الظروف واعتائها . فهذا في جانب ، وفي جانب آخر عدم ارتداع أهل الشام عن أي جريمة ، وأي اغتيال وخذعة .

وهنا انقل لكم قصتين فقط ، ثم أتني بنظرتين لهما ، حتى نعرف بالمجموع اختلاف السير والاتجاه بين الحسين (ع) وبين يزيد وانصارهما .

كان مسلم بن عقيل الحاكم على الكوفة مطلق اليد . وكان عبيد الله بن زياد قد جاء إليها ليرجعها لبني أمية ، ويرضي رجل من زعماء الشيعة يدعى هاني بن عروة . فعاده ابن زياد علىه يستطيع أن يريجه .

وكان مسلم حاضراً فامر هاني أن يختفي في مخدع ، فإذا جاء ابن زياد ، والي يزيد وزعيم المعارضة الأموية في الكوفة ، ضرب عنقه وتخلص من شره وشر يزيد من بعده .

وجاء ابن زياد ، وانتظر هاني خروج مسلم ساعة بعد ساعة تستطيل دقائقها أن لا يفوته الوقت . ومع ذلك فلم يوافقه مسلم على الوعد ، فاخذ ينشد اشعاراً يحرضه بتلميح على قتل ابن زياد ، فاحس ابن زياد بالسر وخرج هارباً .

فلما جاء مسلم ، ويخه هاني على استمهاله فقال ،
قال رسول الله (ص) ، " المسلم لا يخدر " .

فقول رسول الله هو الميزان ، وهو المقياس الأول والأخير للحركة في منطق انصار الحسين (ع) ، لأنهم لا يهدفون إلى غاية سوى بلوغ مرضاة الله تعالى ، ولن تبلغ مرضاته بمعصيته ، ولا يطاع الله من حيث يعصى .

== ٣٣ ==

وانقلبت الأمور .. وقتل مسلم .. وحيء بخير شهادته إلى الحسين (ع) وهو في طريقه إلى الكوفة ، في منزل يدعى بـ " زبالة " .

وهو إن ذلك لحوج ما يكون إلى انصار يؤيدونه وينصرونه ، لأن امامه الكوفة المخلوعة المغلوبة على أمرها ، ووراءه مكة المحتشدة فيها قوى مناوئية من انصار بني أمية وغيرهم .
ومعه الآن زهاء ألف من الأنصار ، أشد ما يكون احتياجاً إلى الإبقاء عليهم بكل وسيلة .
لكنه لبي إلا أن يصارحهم بالموضوع ، ويبين لهم سقوط حكومته في الكوفة ، وحرص موقفه ، ويجيز لهم التخلي عنه إن شاؤوا .

استمعوا إلى خطبته حينما سمع بسقوط الكوفة في أيدي بني أمية ،
" ليها الناس ، إنما جمعتكم على أن العراق لي ، وقد اتاني خبر فظيع عن ابن عمي مسلم يدل على أن شيعتنا قد خذلتنا . فمن منكم يصير على حر السيوف ، وطعن الأسنة فليات معنا ، وإلا فليُنصرف عنا " ٢٢ .

إنه لا يبتغي من وراء نهضته سوى الله . وإذا فليعمل كما يريد الله صريحاً واضحاً فلا يخدع ولا يمكر .
وهنا ندع التاريخ يقص علينا عن انصار يزيد قصتين أيضاً :

(٢٢) بلاغة الإمام الحسين - عليه السلام - : (ص ٦٩) .

١- طلب ابنُ زياد الزعيمَ الشيعيَّ الأنفَ المذكورَ - هاني بن عروة - ليتفاوض معه في بعض الشؤون .
واغتر الرجل وذهب إلى قصر الإمارة ، فلما دخله أخذه وعذبه ثم قتلوه ، في حين أنهم أعطوه الأيمان
والمواثيق قبل قدومه القصر بأنه لا يمسهُ سوء منهم .

٢- وحشدت شيعة علي (ع) أمرها وجاءت تحاصر قصر الإمارة تريد إنقاذ هانيء الذي خدعوه ومكروا
به ، ولم يكن - إذ ذاك - على قيد الحياة .

فإذا بانصار بني أمية من فوق القصر ، يطمنون الناس ويهدنونهم بحياة هانيء ، وأنه سوف يخرج
إليهم بعد إجراء بعض المفاوضات .

ثم راحوا يهددونهم بجيش الشام ، وأنه قد اقترب من حدود الكوفة ما لهم به قبل ابداً ، ورغبوهم
بالأموال الطائلة التي سوف تهطل عليهم من الخزينة .. فإذا بالناس يفرقون قليلاً قليلاً حتى سقطت
الكوفة في أيدي هؤلاء .. وأول ما صنعه قتل مسلم بعد ما قتلوا هانيء بن عروة غدرًا ومكرًا .

إن الاستفادة من تاريخ النهضة الحسينية أن سبب سقوطها إنما كان هذه القصة بالذات ، التي
استقامت على وعود فارغة ، وتهديد مكرر .

ثم حشد ابن زياد بعد استيلائه التام على الكوفة جيشاً باسم محاربة الترك والدليم ، فلما اقتربت قافلة
الإمام (ع) من الكوفة وجَّه إليه ليقبَّده إليه لو إلى الموت . ولول سرية لقيت الحسين (ع) من الجيش ،
كانت مكونة من ألف مقاتل ، وعلى رأسها الحر بن يزيد الرياحي . الذي طلب من الإمام (ع) أما البيعة
وأما قدوم الكوفة اسيراً .. فأبى الإمام (ع) وأخذ طريقاً وسطاً بين طريق الكوفة والمدينة . وأرسل الحر
كتاباً إلى ابن زياد ، فاجابه بلزوم محاربتة ، وحشد إلى الإمام جيوشاً بلغ عددها أكثر من ثلاثين ألف
رجل ، فالتقوا على صعيد كربلاء التي تبعد عن بغداد اليوم مئة وخمسة كيلو مترات وعن الكوفة خمسة
وسبعين كيلو متراً .

وكان ذلك اليوم عصر التاسع من شهر محرم الحرام ، حيث جاءت رسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد
قائد جيش بني أمية يأمره بالحرب بعد منع الماء عن حرم الرسول (ص) .

واستمهلهم الإمام الحسين (ع) سواد الليل ، حتى إذا أفصحت ليلة العاشر من المحرم عن دسبح
كثير ، زحف الجيش على مخيم أبي عبد الله (ع) وقاوم انتصاره - وهم اثنان وسبعون بطلاً من أشد
أبطال العالم الإسلامي - وصُرِّعوا واحداً بعد الآخر بعد ما أبلوا بلاءً حسناً .

وقُتل أيضاً إخوة الإمام (ع) وعلى رأسهم بطل العلفمي أبو الفضل العباس (ع) واستشهد استأذنه ، حتى
الرضيع في حضن والده ، ولم يبق إلا الإمام (ع) فزحف إلى القوم وحاهد جهاداً عذليماً ، وقتل من أهل
الكوفة عدداً هائلاً ، ولم تمض إلا ساعات حتى أصابه القدر سهمه الخدَّار على يد حرمة الخاهلي لعنه
الله ، وأصابه الكفر يرمحه على يد سنان بن انس لعنه الله وسيفه على يد شمر بن ذي الجوشن لعنه
الله وأعد له جحيماً وعذاباً أليماً ، فصرع شهيداً رشيداً ظالماً مظلوماً ، فعاده وعابه إدساره الفاحشة

وسلام .

ولما وقعت الواقعة الرهيبة ، وانتهت بمصرع السبط واصحابه الأطهار على ارض كربلاء بابشع إجرام عرفه التاريخ ، دوى صداها في العالم الإسلامي ، وزلزل عرش بني امية زلزالاً .
ولم تمض مدة طويلة حتى اندلعت ثورات في كل مكان واستمرت حلقات متصلة ، حتى انتهت بسقوط الدولة الأموية .

وان كان الأمر لم ينته بسقوط بني امية تماماً ، حيث انخرفت القيادة الإسلامية أيضاً عن مجراها الصحيح ، إلا أن ثورة ابي عبد الله (ع) ونهضته الجبارة كوّنت جبهة قوية متماسكة تقف دون أي انحراف يريده المجرمون للحق ومفاهيمه .

والواقع أننا إذا تابعنا لحدّث التاريخ بدقة ، نرى أن كل دعوة صادعة ثارت على الطغيان في قرون متطاولة ، إنما كانت نابعة عن حركة الإمام الحسين (ع) .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن نهضة الحسين (ع) ظلت قاعدة أصيلة للحركات الإصلاحية في التاريخ الإسلامي على طول الخط ، وستظل هكذا إلى الأبد .

الامام السجاد (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

وانا اقرا حياة الإمام السجاد (ع) ، حاولت ان ارسم في ذهني صورة متكاملة عن شخصيته وما كدت انتهي من ذلك حتى تذكرت آيات الذكر التي ترسم صورة عباد الله الصالحين .
عندما نتدبر في تلك الآيات ، يوسوس الشيطان في انفسنا . هل إنها تحدثنا عن بشر امثالنا ام عن ملائكة خلقوا من نور قدرة الله ؟ . ام انها روائع ادبية ؟ . حاشا لله تعالى ان تكون في كلمات الله ذرة من المبالغة . لولiest المبالغة كذباً ؟ . والكذب من الباطل الذي لا يأتي كتاب الله الكريم . ونحن نعرف الحقيقة تماماً حينما نطو قصص الأنبياء والأئمة وندرك ان تمثيل تلك الصورة المشرفة التي تعكسها الآيات عن حياة عباد الله الأبرار انه حقيقة واقعة ، ونفهم اننا مدعوون لاتباعهم فيها ..
وبهذا بالذات تكمن حكمة الولاية حيث امرنا الله ان نبتغي الوسيلة إليه سبحانه عبر ولاية اوليائه . وأن نطلب منه الهدى كما هدى الذين انعم عليهم ، وأن نركع مع الراكعين . ونكون مع الصادقين ، ونرجو الإلتحاق بركب الصالحين .

إن ولاية اولياء الله تجعلنا ننظمس سيرة حياتهم النيرة ، وحين نتعرف عن كتب عليهم نتحصن ضد وساوس الشيطان الذي يوحى إلى اوليائه ان تمثيل صفات القرآن هذه مستحيل ، او انها إنما ذكرت تشجيعاً ، لو هي روائع ادبية بليغة .

إن هذا الوسواس اعظم مكائد الشيطان في إغواء البشر عن معارج الكمال الإلهي .. ولا يقضي عليه شيء مثل دراسة حياة الأنبياء والأئمة والصديقين باعتبارهم بشراً امثالنا انعم الله تعالى عليهم ورفعهم إليه مقاماً محموداً .

ومدد ثلاث وعشرين عاماً انعم الله عليّ بالتأليف عن حياة الأئمة الهداة ، عبر مناسبات نادرة . لذلك لم أوفق لإكمال سلسلة قدوة واسوة .. حول النبي واهل بيته الكرام صلوات الله عليهم اجمعين .
واليوم حيث وفقني الله سبحانه لكتابة تدبراتي في القرآن ، والتي سميتها (من هدى القرآن) اعود إلى هذه السلسلة عسى الله تعالى ان يوفقني هذه المرة لإتمامها . ولكن كنت اتساءل : ماذا اسمي هذه السلسلة التي بقي منها اربعة اجزاء من اصل اربعة عشر جزءاً . واخيراً وقعت على اسم مناسب وهو : (النبي واهل بيته قدوة واسوة) . وحيث إن القرآن هدى للمتقين ، وحياة الأئمة تمثيل للقرآن فقد جاء الاسم مناسباً لذلك ، كما انه تناغم مع اسم كتابي (من هدى القرآن) ولكن ازدادت حيرتي عندما وففت

على شاطئ بحر زخار ماذا اغترف منه وأقدمه للأخوة القراء ، وقد كتبت من المذكرات حول حياة الإمام (ع) ما تكفي لكتابة مجلد كبير . بيد أنني حكمت على نفسي بالكتابة المختصرة ، وهنا يكمن سبب حيرتي ماذا اختار من حياته التي لا يتسع قلم مطي لاستيعابها . وهكذا استمحيكم عذراً لو وجدتم قصوراً أو تقصيراً وأسعين في الحديث عن حياته الكريمة ، واعتبروا هذه الدفاتر مدخلاً إلى الكتب المفصلة عن حياته .

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لذلك ، وأن يحفظ عملي من شوائب الرياء والسمعة والأشر والبطر ، ويتقبله ويحصنه من الإحباط بالعُجب والذنب ، إنه ولي التوفيق .

الفصل الأول

تتملكنا الدهشة عندما نستمع إلى الوحي يأمركم بالولاية ، ونسأل : ما هذا التأكيد المتواصل ، وما هذه التعابير البالغة أمراً وتحريضاً وترغيباً ؟

يقول الله سبحانه ، ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء/٥٩) .

وتتكرر أوامر القرآن بالطاعة لأولي الأمر الشرعيين والتسليم لأمرهم ، والنهي عن طاعة الطغاة والجبابرة وضرورة الكفر بهم أكثر من مئة مرة ، بصيغ مختلفة ، وضمن سياقات شتى ، كلها تهدف إلى ترويض النفس البشرية على الطاعة والانضباط ..

ويقول سبحانه وتعالى ، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء/٦٥)

وتتواصل آيات الذكر لتؤكد على الرجوع إلى الله ورسوله عشرات المرات ويتعابير شتى ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصْحَكُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (النساء/٦٠) .

وهكذا العديد من الآيات تنهى ويشددة بالغة من التحاكم إلى الطاغوت وتامر باجتنابه . ويقول ربنا سبحانه وهو ينهي مئات المرات عن الشرك ويعتبره ظلماً عظيماً لا يغفره الله تعالى أبداً ، يقول ، ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر/٦٥) . فما هو الشرك ؟ ليس هو عبادة الأصنام ؟ ليس اتخاذ الأرباب من دون الله شركاً ، كما اتخذ اليهود والنصارى الأحيار والرهبان أرباباً ؟ ..

وهكذا نجد أن الولاية الإلهية محور آيات الذكر وروح توحيد الله تعالى ، والسبيل إلى رضوانه ، والطريق إلى جناته .

فلماذا كل ذلك ؟ إن شرح حكمة ذلك يقتضي كتاباً مفصلاً . ولكننا نختصرها في كلمات نرجو أن يسعفنا فيها تدبر القارئ الكريم ، وأفاق ثقافته الإسلامية .

أولاً ، أمام الإنسان سبيلان ، سبيل الله الذي يهديه إلى الجنة والرضوان ، وسبيل الشيطان الذي يحمله إلى سواء الجحيم . ويتجه كل سبيل إلى جهة ، ولكل جهة إمام ، ولكل إمام صفات وأسماء ، ولكل أمة تابعة صبغة وشرعة ومنهاج !

والصراع الأبدي الذي لا هدنة فيه ولا مهادنة ولا حلول وسط ، انه الصراع بين سبيل الله وسبيل

الشیطان .

وقد قال سبحانه ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة/ ١٥-١٦) .

وولاية الله سبحانه ، وتولي لوليائه ، واتباع الإمام المختار من عنده ، والإنخراط في حزب الصالحين ، كلها بلا ريب الولاية الإلهية . فكيف لا تتواصى بها رسالات الله ورُسُله ولوصياؤهم .

ثانياً ، حكمة وجود الإنسان فوق هذا الكوكب ابتلاؤه ليعلم هل يصدق لم هو من الكاذبين ؟ . هل يخلص أم يكون من المنافقين ؟ . ولا يُبتلى البشر بشيء كما يبتلى باتباع القيادة الإلهية ورفض جبايرة المال وطغاة السلطة ، أو تدري لماذا ؟

إن في ضمير الإنسان كبراً لابد أن يتغلب عليه حتى يصبح من أهل الجنة . وإن لم يتخلص منه باجتهاده وجهاده في الدنيا ، فإنه سوف يخلص منه بنار الجحيم في الآخرة ، لأنه لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر . ومحتوى الكبر النزعة السخيفة نحو ادعاء الربوبية . ولو تسنى لأي إنسان ما تسنى لفرعون لما امتنع عما قاله ، ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات/ ٢٤) .

وإنما يظهر القلب عن الكبر إذا أمر بطاعة مَنْ ليس باكثر منه مالاً وولداً . إطااعته بسبب امر الله . وهكذا كانت الفتنة الكبرى للناس عند ابتعاث الرسل ، إذ كيف يطيعون بشراً من أمثالهم ؟ . وقد حكى الله تعالى عنهم بقوله ، ﴿ أَبَشْرًا مِمَّا وُجِدُوا تَبِعَهُ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُورٍ ﴾ (القم/ ٢٤) .

ويتساءل البسطاء ، لماذا امتحن الله تعالى خلقه بطاعة الأنبياء وطاعة لوصيائهم ، وقد اختارهم من لوسط الناس ؟ . ويمضي المتسائل قانلاً ، أولم يكن من الأفضل أن يزودهم الله سبحانه بقوى خارقة ويأموال وينين حتى تسهل طاعة الناس لهم ؟

كلا .. لأنه عندئذ كانت تبطل حكمة الابتلاء ، ولم تكن تصبح طاعتهم تطهيراً للنفوس من الكبر ، وبالتالي لم يكن المطيعون لهم يزكون بذلك إعداداً لدخول الجنة التي هي مآوى عباد الله الخالصين من دنس الشرك والكبر .

وهكذا يبين هذه الحكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إذ يقول ، " ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ، ويبهز العقول رداؤه ، وطيبير ياخذ الأنفاس عرقه لفعل . ولو فعل لخللت له الأعناق خاضعة ، ولخفت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يحهلون أصله ، تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفياً للإستكبار عنهم ، وإبعاداً للخلاء منهم " .

(١) نهج البلاغة (المعجم الممهرس ص ٦٨) .

ويضيف الإمام (ع) في ذات السياق قائلاً :

"ولو أراد الله سبحانه لأتباعه - حيث بعثهم - أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العُقيان ، ومغارس الجنان ، وأن يحشر معهم طيور السماء ، ووحوش الأرض لفعل . ولو فعل لَسَقَطَ البلاء ، وبطل الجزاء ، واضمحلت الأنبياء ، ولما وجب للقابليين لجور المبطلين ، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لُزِمَت الأسماء معانيها . ولكن الله سبحانه جعل رُسُلَه لولي قوة في عزائهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع اذى" ^٢ .

وبعد بيان مفصل حول حكمة الاختبار في فصل زخارف الدنيا عن أولياء الله يقول سلام الله عليه ، "ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبدُهم بأنواع المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكار ، إخراجاً للتكبر من قلوبهم ، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم .

فالله في عاجل البغي ، وأجل وخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيبة إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التي شاور وقلوب الرجال مشاورة السَّمُومِ القاتلة" ^٣ .

وهكذا حُرِّضَ الوحي على التسليم للأنبياء وأولي الأمر من خاصتهم ، وجعل فيه ثواباً عظيماً . وجاء في حديث مأثور عن النبي (ص) ، أنه قال :

"إنَّ لَوَثِقَ عُرَى الإِيْمَانِ : الحب في الله ، والبغض في الله ، وتوَلَّى لولِيَاءِ الله ، وتَعَادَى عَدُوَّ الله" ^٤ .
وروي عن الإمام زين العابدين (ع) قوله :

"مَنْ أَحْبَبَنَا لَا لِدُنْيَا يَصِيْبُهَا مَنْأً ، وَعَادَى عَدُوَّنَا لَا لَشَحْنَاءَ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، أَتَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مع محمد وإبراهيم وعلي" ^٥ .

وكما يتحدى الإنسان بالولاية نزعة الكبر وأدعاء الربوبية في ذاته ، يتحدى بها نزعة الطمع وشهوات الدنيا ، لأن من يطيع أولياء الله يحاربه طغاة الأرض والمترفون في الدنيا بشتى وسائل الحرب ، بالدعاية المضادة وبالتضييق الإقتصادي ، وبالأذى الجسدي ، وحتى بالتشريد والقتل .

ولأن الولاية كانت امتحاناً عظيماً للإنسان ، جعلت شرطاً بقبول الأعمال ، حيث إن هدف سائر الطاعات تذليل النفس البشرية المتفرعة والمتجبرة . وتذليلها لطاعة ربها ، وتطهيرها من عبودية الله عن دنس الكبر والشرك والشك . وهذا الهدف يبلغ قمته بالولاية ، حيث يخضع البشر لبشر مثله لا يتميز عنه بجاء عريض ، ولا بثروة واسعة وإنما يأمره الله تعالى بذلك ، وهذا ما تباهاه النفس اشد الإباء . وقد

(٢) المصدر : (ص ٧٠) .

(٣) المصدر : (ص ٧٠) .

(٤) بحار الأنوار : (ج ٢٧ ، ص ٥٧) .

(٥) المصدر : (ص ٥٦) .

سال بعضهم أن ينزل عذابُ الله الواقع لكي لا يؤمن بالولاية .
وها نحن نقرأ معاً لحديث في فضل الولاية ، لنعرف مدى فضلها وكيف أنها قطب الرchy في تعاليم
الوحي .

جاء في حديث مفصلٍ عن أمير المؤمنين (ع) في إجابته لأسئلة زنديق ،
" إن الإيمان قد يكون على وجهين ، إيمان بالقلب ، وإيمان باللسان كما كان إيمان المنافقين على عهد
رسول الله (ص) لمّا قهرهم السيف وشملهم الخوف ، فإنهم آمنوا بالسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ،
فالإيمان بالقلب هو التسليم للرب ، ومن سلّم الأمور لمالكها لم يستكبر عن أمره — كما استكبر إبليس
عن السجود لأدم ، واستكبر أكثر الأمم عن طاعة أنبيائهم ، فلم ينفعهم التوحيد ، كما لم ينفع إبليس ذلك
السجود الطويل ، فإنه سجد سجدة واحدة أربعة آلاف عام ، لم يرد بها غير زخرف الدنيا ، والتمكين من
النظرة ، فلذلك لا تنفع الصلاة والصدقة إلّا مع الاهتمام إلى سبيل النجاة وطريق الحق " .

ولذلك لم يقبل الله سبحانه طاعة عبد لم يقبل الولاية مهما اجتهد في العبادة والطاعة . هكذا جاء في
الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) عن أبيه (ع) ، إذ قال ،

" مرّ موسى بن عمران برجل رافع يده إلى السماء يدعو فانطلق موسى في حاجته فغاب عنه سبعة
أيام ، ثم رجع إليه وهو رافع يديه يدعو ويتضرع ويسأل حاجته ، فلوحي الله عزّ وجلّ إليه ، يا موسى لو
دعاني حتى يسقط لسانه ما استجبتُ له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته به " .

فولاية الإنسان صبغة أعماله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . لذلك جاء في الحديث المأثور عن رسول
الله (ص) ، فيما رواه أبو سعيد الخدري ،

" لو أن عبداً عبد الله ألف عام ما بين الركن والمقام ، ثم دُبح كما يدبح الكبش مظلوماً ، لبعثه الله
مع النفر الذين يقتدي بهم ، ويهتدي بهداهم ، ويسير بسيرتهم إن جنة فجنة ، وإن ناراً فنار " .

وهكذا الولاية تكون وجهة المجتمع ، وعليها يكون الحساب والجزاء . فقد روي عن الإمام علي (ع) عن
النبي (ص) عن جبرئيل (ع) عن الله عزّ وجلّ ، قال ،

" وعزتي وجلالي لأعذبنّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية إمام جائر ليس من الله عزّ وجلّ ، وإن كانت
الرعية في أعمالها برّة تقيّة ، ولأعفونّ عن كل رعية دانت بولاية إمام عادل من الله تعالى وإن كانت الرعية
في أعمالها طالحة مسيئة " .

(٦) المصدر : (ص ٥٧) .

(٧) أي باب الطاعة للنبي وأوصيائه المصدر : (ص ١٨٠)

(٨) المصدر : (ص ١٨٠) .

(٩) المصدر : (ص ٢٠١) .

فَضْمَنَ إطار الولاية الإلهية لأبد أن نعرف شخصية الإمام السجاد (ع) وأبعاد حياته . إنه لم يكن كسائر الأنبياء والأئمة . ولا يكون خلفاؤهم من الصديقين والعلماء الريانيين طلاب حكم وسيطرة ، أو قادة حركات سياسية كالتى نفهمها . لا ، ولكنهم سعوا جاهدين من أجل تطهير قلوب الناس من الجبت ، ومجتمعاتهم من الطاغوت . ولكن ذلك لم يكن حكمة حياتهم الأولى حتى نقول : إنهم قد فشلوا في تحقيق ذلك ، وإنما كانت الحكمة الأولى ابتلاء الناس ، حيث قاموا بتلاوة وحى الله وتعليم الناس وتزكيتهم . وقد قال ربنا سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الحجرات/ ٢) .

بلى ، كان من الأهداف السامية لبعثة الرسل ، ونهضة أوصيائهم ، وقيام أوليائهم ، إعداد الناس للقيام بالقسط . ولا أقول قيامهم بالقسط بين الناس ، لأن ذلك يوحي بالوكالة في ذلك ، وهذا ما يتغنيه الوحي ببلاغة نافذة . فاستمع إلى قول ربك العزيز :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَبَعْلَمٌ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد/ ٢٥) .

الإمام السجاد وريث الأنبياء :

ولأن الإمام زين العابدين (ع) ورث عن جده النبي المصطفى (عليه وآله الصلاة والسلام) دور الأنبياء ، فإن الحكمة الأولى لإمامته هي ذات الحكمة الأولى في رسالة الأنبياء ، ابتلاء الناس بعد دعوتهم إلى الله ، وكانت سائر الأهداف السامية - كإقامة القسط ونصرة المظلومين - في امتداد تلك الحكمة ، أي أنها تتفرع منها وتأتي بعدها .

ولقد تستنت لسائر أئمة الهدى (ع) الظروف للقيام بتلك الأهداف المتدرجة ، وبالذات الهدف السياسي ، كما فعل الإمام علي (ع) عندما نهض بأعباء الحرب ضد قريش مرتين ، مرة في عهد النبي وتحت لوائه ، ومرة بعد النبي وتحت لواء الرسالة الحنفية وبرفقة أصحاب النبي (ص) . وهكذا نجله الإمام الحسن (ع) . حيث نهض هو الآخر بأعباء الحرب ضد معاوية ، ثم أوقف الحرب لمصلحة المسلمين . وكذلك الإمام الحسين (ع) حيث قاوم معاوية بالسبل السلمية ، وقام ضد ابنه يزيد بالسيف حتى استشهد مظلوماً .

وهكذا قام سائر الأئمة بأدوار سياسية ، وبوسائل غير مباشرة ، وبدرجات مخفية . بينما الظروف العامة كانت تناسب تمخض الإمام السجاد (ع) تقريباً في الدعوة الربانية ، حسبما نبين ذلك في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى .

وبذلك كانت حياة الإمام السجاد قطعة مشرقة بنور ربّه .. وكانت تجلياً باهراً للإيمان الخالص بالله ، وللإيمان الشديد بالله ، وللعبادة والتبذل .

وحينما نقرا معاً صفات الإمام على لسان نجله الإمام الباقر (ع) ، نعرف ماذا تعني ولاية الله ، وولاية أوليائه ، ولماذا التأكيد عليها ، وكيف كانت حياة السجاد شلال نور إلهي . يقول نجله الإمام الباقر (ع) ، " كان علي بن الحسين (ع) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، كما كان يفعل أمير المؤمنين (ع) . كانت له خمسمائة نخلة . فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين ، وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر ، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله عز وجل ، وكان يصلي صلاة مودع يرى أنه لا يصلي بعدها أبداً ، ولقد صلى ذات يوم فسقط الرداء عن أحد منكبيه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته ، فسأله بعض أصحابه عن ذلك ، فقال : ويحك لتدري بين يدي من كنت ؟ إن العبد لا يقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه . فقال الرجل ، هلكتنا ، فقال : كلا .. إن الله عز وجل متمم ذلك بالنوافل وكان (ع) ليخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره ، وفيه الصرر من الدنانير والدراهم وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب ، حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ، ثم يناول من يخرج إليه . وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه . فلما توفي (ع) فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان علي بن الحسين (ع) . ولما وُضع (ع) على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل ركب الإبل . مما كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين . ولقد خرج ذات يوم وعليه مطرف خز فتعرض له سائل فتعلق بالمطرف فمضى وتركه ، وكان يشتري الخبز في الشتاء ، إذا جاء الصيف باعه فتصدق بمنه ، ولقد نظر (ع) يوم عرفة إلى قوم يسألون الناس ، فقال : ويحكم لغير الله تسألون في مثل هذا اليوم ، إنه ليُرجى في هذا اليوم لِمَا في بطون الحبالى أن يكون سعيداً ؟ . ولقد كان (ع) يابى أن يواكل أمه ، فقيل له ، يابن رسول الله أنت أبر الناس ووصلهم للرحم ، فكيف لا تَواكل أمك ؟ فقال : إني لكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه . ولقد قال له رجل : يابن رسول الله إني لأحبك في الله حباً شديداً ، فقال : اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك وانت لي مبغض . ولقد حج على ناقه له عشرين حجة فما قرعها بسوط ، فلما نفقت^{١٠} أمر بدفنها لئلا ياكلها السباع . ولقد سئلت عنه مولاة له فقالت : أطلب لو اختصر ؟ فقيل لها ، بل اختصري ، فقالت : ما ليته بطعام نهاراً قط ، وما فرشت له فراشاً بليل قط . ولقد انتهى ذات يوم إلى قوم يختابونه فوقف عليهم ، فقال لهم : إن كنتم صادقين فغفر الله لي ، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم . وكان (ع) إذا جاءه طالب علم فقال : مرحباً بوصي رسول الله (ص) . ثم يقول : إن طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجليه على رطب ولا يابس من الأرض ، إلا سبحت له إلى الأرضين السابعة ، ولقد كان يعول مئة أهل بيت من فقراء المدينة . وكان يعجبه أن يحضر طعامه اليتامى والأضرار والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم . وكان يناولهم بيده ، ومن كان له منهم عيال حمل له إلى عياله من طعامه ، وكان لا ياكل طعاماً حتى يبداً فيتصدق بمثله . ولقد كان

(١٠) نفقت الدابة ماتت (القاموس) .

تسقط منه كل سنة سبع ثغرات من مواضع سجوده لكثرة صلاته ، وكان يجمعها ، فلما مات دُفنت معه . ولقد بكى على أبيه الحسين (ع) عشرين سنة ، وما وضِع بين يديه طعام إلا بكى ، حتى قال له مولى له : يا بن رسول الله لَمَّا أَنْ لِحَزْنِكَ أَنْ يَنْقُضِي ؟. فقال له : ويحك ، إن يعقوب النبي (ع) كان له اثني عشر ابنًا فغَيَّبَ الله عنه واحداً منهم ، فابيضَّت عيناه من كثرة بكائه عليه ، وشاب رأسه من الحزن ، واحدودب ظهره من الغم ، وكان ابنه حياً في الدنيا وأنا نظرت إلى أبي ولخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني ؟. ^{١١}

وقد زخرت كتب التاريخ بكرامات الإمام ^{١٢} ولا عجب فإن إماماً هذه صفاته ، يكرمه الله بفضله ، ولم يكرم الله عباده الصالحين باستجابة دعواتهم ؟

وقد قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر/٦٠) .

فكيف لا يستجيب لمن ذاب في حب ربه حتى خشي عليه الهلاك من شدة العبادة . ولننظر معاً في الرواية التالية ثم نقيسها بما نعرفه من قصص القرآن حول الصالحين من عباد الله ، نرى أنهما نبعان من عين واحدة .

عن إبراهيم بن أدهم وفتح الموصلي ، قال كل واحد منهما : كنت أسيح في البادية مع القافلة ، فعرضت لي حاجة فتتحتيت عن القافلة ، فإذا أنا بصبي يمشي ، فقلت : سبحان الله بادية بيداء وصبي يمشي ؟. فدنوت منه وسلمت عليه ، فردَّ عليَّ السلام . فقلت له : إلى أين ؟. قال : أريد بيت ربِّي . فقلت : حبيبي ، إنك صغير ليس عليك فرض ولا سنة . فقال : يا شيخ ما رايت من هو أصغر سنّاً مني مات ؟ فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ فقال : زادي تقواي ، وراحلتي رجلاي ، وقصدي مولاي . فقلت : ما أرى شيئاً من الطعام معك ؟ فقال : يا شيخ هل يستحسن أن يدعوك إنساناً إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام ؟. قلت : لا ، قال : الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني . فقلت : أرفع رجلك حتى تترك ^{١٣} فقال : عليَّ الجهاد ، وعليه الإبلاغ . أما سمعت قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنكوت/٦٩) .

قال : فبينما نحن كذلك إذ أقبل شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض حسنة ، فعانق الصبي وسلم عليه . فاقبلت على الشاب وقلت له : أسالك بالذي حسن خلقك من هذا الصبي ؟ فقال : أما تعرفه ؟ هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . فتركت الشاب واقبلت على الصبي ، وقلت : أسالك بأبائك من هذا الشاب ؟ فقال : أما تعرفه ؟ هذا أخي الخضر ، ، ياتينا كلَّ يوم فيسلم علينا . فقلت : أسالك

(١١) بحار الأنوار : (ص ٦١ - ٦٣) .

(١٢) سوف نذكر بعضاً منها في حاتمة الكتاب ..

(١٣) يعني أرفع رجلك - أو رحلك - عن المركوب ، واركب مطيتي حتى تترك الحج ..

بحق أبائك لما أخبرتني بما تجوز المغاوز بلا زاد ؟ قال ، بل اجوز بزاد ، وزادي فيها أربعة أشياء . قلت ، وماهي ؟ قال ، لرى الدنيا كلها بحذافيرها مملكة الله ، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وأماؤه وعياله ، ولرى الأسباب والأزاق بيد الله ، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض الله . فقلت ، نعم الزاد زادك يا زين العابدين ، وأنت تجوز بها مغاوز الآخرة ، فكيف مغاوز الدنيا ؟^{١٤}

وقصة مشابهة يرويها حماد بن حبيب الكوفي القطان فيقول ،

انقطعت عن القافلة عند زبالة^{١٥} فلما اجنني الليل لويت إلى شجرة عالية . فلما اخطط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل عليه لظمار بيض تفوح منه رائحة المسك . فاخفيت نفسي ما استطعت . فتهيا للصلاة ، ثم وثب قائماً وهو يقول ، يا من حاز كل شيء ملكوتاً ، وقهر كل شيء جبروتاً ، لولج قلبي فرح الإقبال عليك ، والحقني بميدان المطيعين لك ، ثم دخل في الصلاة . فلما رايته وقد هدأت أعضاؤه ، وسكنت حركاته ، قمت إلى الموضع الذي تهيا فيه إلى الصلاة ، فإذا أنا بعين تنبع . فتهيات للصلاة ، ثم قمت خلفه ، فإذا بمحراب كأنه مثل في ذلك الوقت فرايته كلما مر بالآية التي فيها الوعد والوعيد يرددها بانتحاب وحنين . فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً وهو يقول ، يا من قصده الضالون فاصابوه مرشداً ، وأمه الخائفون فوجدوه معقلاً ، ولجا إليه العابدون فوجدوه مؤناً . متى راحة من نصب لغيرك بدنه ، ومتى فرح من قصد سواك بنيت ؟ إلهي قد تقشع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً ، ولا من حياض مناجاتك صدراً ، صل على محمد وآله وافعل بي أولى الأمرين بك يا رحم الراحمين . فخفت أن يفوتني شخصه وإن يخفي علي أمره ، فتعلقت به فقلت ، بالذي اسقط عنك هلاك التعب ، ومنحك شدة لذيق الرهب ، إلا ما لحقتني منك جناح رحمة وكنف رقة ، فإني ضال . فقال ، لو صدق توكك ما كنت ضالاً ، ولكن اتبعني واقف لثري . فلما إن صار تحت الشجرة أخذ بيدي وتخيّل لي أن الأرض تمتد من تحت قدمي ، فلما انفجر عمود الصبح قال لي ، ابشر فهذه مكة ، فسمعت الضجة ورأيت الحجة ، فقلت له ، بالذي ترجوه يوم الأفة يوم الفاقة ، من أنت ؟ فقال ، إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب^{١٦} .

الم أقل لك إنه كان ومضة نور وشلال إيمان ، وقبساً من وهج الرسالة ؟ ..

كان الظلام يخيم على طرقات المدينة وقد لوى الناس إلى بيوتهم ، والسماء تمطر ورياح الشتاء الباردة تعصف .. فيقول ، الزهري ، رايته (ع) يمشي وعلى ظهره دقيق . فقلت يابن رسول الله ، ما هذا ؟ قال (ع) ، أريد سفرأ أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز .

(١٤) قصة إبراهيم - بحار الأنوار : (٣ / ج ٣٦) .

(١٥) زبالة : اسم موضع بطريق مكة .

(١٦) المصدر : (ص ٤٠ - ٤١) .

فقال الزهري ، فهذا غلامي يحملُه عنك ، فإني (ع) .

فقال الزهري ، أنا أحمله عنك فإني أرفعك (وأجلك) عن حملة .

فقال علي بن الحسين (ع) ، لكنني لا أرفع نفسي (ولا لأجل نفسي) عما ينبغي في سفري ، ويحسن ورودي علي ما أرد عليه . وأضاف الإمام قائلًا ، أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني . فانصرف عنه . فلما كان بعد أيام قال له يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أذراً .

قال ، بلى يا زهري ! ليس ما ظننت ، ولكنه الموت ، وله استعداد ، وأضاف الإمام لبيان هدف حملة تلك البضاعة في الليل إلى بيوت الفقراء ، إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام ، وبذل النفوس في الخير^{١٧} .

إن جدور شخصية الإمام زين العابدين تمتد في أفق معرفته بالله تعالى ، وبقِيته باليوم الآخر ، ووعيه للسرعة الخاطفة التي تتبّع ساعات الليل والنهار من عمر البشر ، وتزاحم الواجبات عليه !

حينما يسأله رجل كيف أصبحت يابن رسول الله ؟ يقول ، أصبحت مطلوباً بنّمان ، الله يطلبني بالفرائض ، والنبي (ص) بالسنة ، والعيال بالقوت ، والنفس بالشهوة ، والشيطان بالتبّاعه ، والحافظان بصدق العمل ، وملك الموت بالروح ، والقبر بالجسد . فإنا بين هذه الخصال مطلوب^{١٨} .

إنه كان مثلاً رائعاً للآية الكرّيمة ، ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُسُورِهِمْ وَسَفْكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قَبْلًا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/١٩١) .

لقد أحبّ الله حتى فاضت على شفاهه روافد الحب في صورة ابتهالات ومناجاة سجّل التاريخ جزءاً بسيطاً جداً منها في صحيفته المعروفة بـ (السجادية) .. فلنستمع معاً إلى هذه الرائعة التي تبهر الأبصار ،

" فقد انقطعت إليك همّتي ، وانصرفت نحوك رغبتني . فإنت لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسُهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك منّي نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بُغيّتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلّبي ، وقربك غاية سُؤلي ، وفي مناجاتك رُوحِي وراحتي ، وعندك دواء غلتي ، وشفاء غلتي ، وبردُ لوعتي ، وكشفُ كربتي ، فكُن أنيسي في وحشتي ، ومُقِيل عثرتي ، وغافر زلّتي ، وقابل توبّتي ، ومجيب دعوتي ، ووليّ عصمتي ، ومغني فاقّتي ، ولا تقطعني عنك ، ولا تبعدني منك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي ، يا أرحم الراحمين " ^{١٩} .

فإني قلبي مفعم بالإيمان هذا الذي يفيض بهذه الكلمات المضيئة ١٩ .. وإي فؤاد ملتهب بالشوق إلى

(١٧) المصدر : (ص ٤٩) .

(١٨) في رحاب أئمة أهل البيت : (ج ٣ ، ص ٢٣٤) .

(١٩) مفاتيح الجنان : (ص ١٢٤) .

الله ، متيم بحب الله ، يشع بهذه المناجاة ؟. إنه قلب ذلك الإمام الذي كانت الصلاة أحب الأمور إليه .
وكان الذكر شغله الشاغل والعبادة صبغة حياته ؛

فقد دخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فاستعظم عبد الملك ما رأى من اثر السجود بين عيني علي بن الحسين (ع) ، فقال : يا ابا محمد لقد بين عليك الاجتهاد ، ولقد سبق لك من الله الحسنى ، وانت بضعة من رسول الله (ص) قريب النسب وكيد السبب . وانك ل ذو فضل عظيم على اهل بيتك وذوي عسرك ، ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤته احد مثلك ولا قبلك ، إلا من مضى من سلفك .. واقبل يُثني عليه ويطريه .. قال : فقال علي بن الحسين (ع) :

" كلما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه . فابن شكره على ما انعم يا امير المؤمنين ؟. كان رسول الله (ص) يقف في الصلاة حتى تورمت قدماه ، ويظلم في الصيام حتى يُعصب فوه ، فقبل له : يا رسول الله الم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ؟ فيقول (ص) افلا اكون عبداً شكوراً ؟. الحمد لله على ما لولى وابلى ، وله الحمد في الآخرة والأولى . والله لو تقطعت اعضائي ، وسالت مقلتاي على صدري ، لن اقوم لله جل جلاله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون ، ولا يبلغ حد نعمة منها على جميع حمد الحامدين ، لا والله لو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره ، في ليل ولا نهار ، ولا سر ولا علانية . ولولا ان لاهلي عليّ حقاً ، ولسائر الناس من خاصهم وعامهم عليّ حقاً لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم ، لرُميت بطرفي إلى السماء ، وبقلبي إلى الله ، ثم لم ارددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين "

وبكى (ع) وبكى عبد الملك وقال : شتان بين عبد طلب الآخرة وسعى لها سعيها ، وبين من طلب الدنيا من أين جاءت ، ماله في الآخرة من خلاق . ثم اقبل يسأله عن حاجاته وعما قصد له فشفعه فيمن شفع ، ووصله بمال " ٢٠ .

وعندما يراه طاوس في اخريات الليل يطوف بالبيت الحرام يرى منه عجباً حتى يشفق عليه فلنستمع إليه ، يروي قصته :

رايته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد ، فلما لم يرَ لحداً رمق السماء بطرفة ، وقال ،
" إلهي غارت نجوم سماواتك ، وهجعت عيون انامك ، وابوابك مفتحات للسانلين ، جنتك لتغفر لي وترحمني ، وتريني وجه جدّي محمد (ص) في عرصات القيامة " . ثم بكى وقال ، " وعزتك وجلالك ما اردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شكاً ، ولا بنكالك جاهلاً ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولكن سؤلت لي نفسي ، ولعانني على ذلك سترك المرخى به عليّ . فالآن من عذابك من

(٢٠) بح : (ص ٥٧) .

يستغفني؟ وبجبل مَنْ اعتصمَ إنْ قطعتَ حبلك عني؟ فواسواتاه غداً من الوقوف بين يديك ، إذا قيل للمخفّين جوزوا ، وللمثقلين حطوا . امع المخفّين لجوز ؟ ام مع المثقلين أخط ؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم اُتِب ، اما أن لي أن استحي من ربّي؟ ١٩ .

ثم بكى وأنشأ يقول :

اتحرقني بالنار يا غاية المنى فإين رجائي ثم اين محبتي
اتيتُ بأعمالٍ قبّاحٍ زبيّة وما في الوري خلق جنى كجنايتي
ثم بكى وقال ، " سبحانك تُعصّي كائنك لا ترى ، وتحلم كائنك لم تعص تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع كان بك الحاجة إليهم ، وأنت يا سيدي الغني عنهم " .

ثم خر إلى الأرض ساجداً . قال : فدنوتُ منه وشلتُ براسه ووضعتُ على ركبتي وبكيتُ حتى جرت دموعي على خده ، فاستوى جالساً وقال ، " مَنْ الذي اشغلني عن ذكر ربّي ؟ " فقلتُ ، انا طاووس يابن رسول الله ، ما هذا الجزع والفرع ؟

ونحن يلزمنا أن نفعل هذا ونحن عاصون جانون ، ابوك الحسين بن علي وأُمك فاطمة الزهراء ، و جدك رسول الله (ص) ؟ قال : فالتفت إليّ وقال :

" هيهات هيهات يا طاووس ، دع عني حديث أبي وأمي وجدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه ولحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً . اما سمعتَ قوله تعالى ، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون/ ١٠١) ؟ . والله لا ينفعك غداً إلاّ تقدمة تقدمها من عمل صالح " ٢١ .

ولأنه أحب الله فوُض إليه أمره وسلّم له أشد التسليم ، وهو (ع) يروي عن نفسه القصة التالية فيقول :
" مرضتُ مرضاً شديداً ، فقال لي أبي : ما تشتهي ؟ فقلتُ ، أشتهي أن أكون ممّن لا اقترح على الله ربّي ما يديره لي . فقال لي ، احسنت ، ضاهيت إبراهيم الخليل صلوات الله عليه حيث قال جبرئيل : هل من حاجة ؟ . فقال : لا اقترح علي ربّي ، بل حسبي الله ونعم الوكيل " ٢٢ .

وهكذا احبه الله تعالى وكرمه ورفع شأنه ، ولجى علي يديه تقديره ، والزّم الناس ولايته .

والقصة التالية تعكس مدى حب الله سبحانه للإمام زين العابدين (ع) ،
والقصة يرويها طائفة من عبّاد البصرة وفقهاها وهم ثابت البناني ، وإيوب السجستاني ، وصالح المري ، وعتبة الغلام ، وحبيب الفارسي ، ومالك بن دينار .

(٢١) قصته في المسجد الحرام مع طاووس .

(٢٢) قال له ذلك عندما همّ الطغاة رميه في النار عبر المنحيق .

(٢٣) المصدر : (ص ٦٧) .

وننقل فيما يلي نص ما جاء في هامش كتاب بحار الأنوار (ج ٤٦ ، ص ٥٠) عن هؤلاء العباد بالترتيب :

ولاً ، ثابت البدائي ، من التابعين وقد ترجمه أبو نعيم في حلية الأولياء (ج ٢ ، ص ٣١٨ إلى ص ٣٣٣) فقال : ومنهم المتعبد الناحل ، المتعهد الذابل ، أبو محمد ثابت بن مسلم البدائي ، وذكر أنه أسند عن غير واحد من الصحابة منهم : ابن عمر ، وابن الزبير ، وشداد وأنس وأكثر الرواية عنه . وروى عنه جماعة من التابعين منهم : عطاء بن أبي رباح ، وداود بن أبي هند ، وعلي بن زيد بن جدعان ، والأعمش ، وغيرهم .

ثانياً ، أيوب السجستاني ، من التابعين . قال أبو نعيم في حلية الأولياء ، وقد ترجمه في (ج ٣ من ص ٣ إلى ص ١٣) : ومنهم فتى الفتان ، سيد العباد والرهبان ، المنور باليقين والإيمان . السجستاني أيوب بن كيسان . كان فقيهاً محججاً ، وناسكاً حجاجاً ، عن الخلق أيساً ، وبالحق أنساً .

أسند أيوب عن أنس بن مالك ، وعمرو بن سلمة الجرمي . ومن قدماء التابعين ، عن أبي عثمان الهندي ، وأبي رجاء العطاردي ، وأبي العالية ، والحسن ، وابن سيرين وأبي قلابة .

وذكره الأذنبيلي في جامع الرواة (ج ١ ، ص ١١١) فقال : أيوب بن أبي تميمة ، كيسان السجستاني العنزي البصري ، كنيته أبو بكر مولى عمار بن ياسر ، وكان عمار مولى ، فهو مولى مولى . وكان يلقب شعره في كل سنة مرة ، فإذا طال فَرَّق . مات بالطاعون بالبصرة سنة ١٣١ .

ثالثاً ، صالح المري ، هو ابن بشير ، وصفه أبو نعيم في الحلية (ج ٦ ، ص ١٦٥) بقوله : القارئ الدري ، والواعظ التقى ، أبو بشير صالح بن بشير المري ، صاحب قراءة وشجن ومخافة وحزن . يحرك الأخيار ، ويفرك الأشرار .

أسند عن الحسن ، وثابت ، وقتادة ، وبكر بن عبد الله المزني ، ومنصور بن زاذان وجعفر بن زيد ، ويزيد الرقاشي ، وميمون بن سياه ، وأبان بن أبي عياش ، ومحمد بن زياد ، وهشام بن حسان ، والجري ، وقيس بن سعد ، وخليد بن حسان في آخرين .

رابعاً ، عتبة الغلام ، هو الحر الهمام ، المجلو من الظلام ، المكوء بالشهادة والكلام ، قال عبيد الله بن محمد : عتبة الغلام هو عتبة بن أبان بن صمعة ، مات قبل أبيه . وسئل رباح القيسي عن سبب تسمية عتبة بالغلام فقال : كان نصفاً من الرجال ، ولكننا كنا نسميه الغلام لأنه كان في العيادة غلاماً رهان ، استشهد وقتل في قرية الحباب في غزو الروم ، ترجمه مفصلاً أبو نعيم في الحلية (ج ٦ ، ص ٢٢٦ إلى ٢٣٨) .

خامساً ، حبيب الفارسي ، قال أبو نعيم في الحلية (ج ٦ ، ص ١٤٩) : أبو محمد الفارسي من ساكني البصرة ، كان صاحب المكرمات ، مُجاب الدعوات ، وكان سبب إقباله على الأجلة وانتقاله عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن بن أبي الحسن ، فوقع موعظته من قلبه . . . وتصدق بأربعين ألفاً في

أربع دفعات .

سادساً ، مالك بن دينار أبو يحيى ، وصفه أبو نعيم في الحلية بقوله : العارف النظار ، الخائف الجبار .. كان لشهوات الدنيا تاركاً ، ولتنفس عند غلبتها مالكا ، وقد اطلال في ذكره (ج ٢ ، من ص ٢٥٧ إلى ص ٢٨٩) .

استجابة دعائه (ع)

عن ثابت البناني قال ، كنت حاجاً وجماعة عبّاد البصرة مثل ليوب السجستاني وصالح المري وعتبة الغلام وحبيب الفارسي ومالك بن دينار . فلما ان دخلنا مكة رأينا الماء ضيقا ، وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث . ففرع إلينا أهل مكة والحجاج يسألونا ان نستسقي لهم ، فأتينا الكعبة وطفنا بها ، ثم سالنا الله خاضعين متضرعين بها ، فمَنعنا الإجابة ، فبينما نحن كذلك إذا نحن بفتى قد اقبل ، قد اكريته لحزنه ، وأقلقته لشجانه ، فطاف بالكعبة لشواطأ ، ثم اقبل علينا فقال : يا مالك بن دينار ، ويا ثابت البناني ، ويا ايوب السجستاني ، ويا صالح المري ، ويا عتبة الغلام ، ويا حبيب الفارسي ، ويا سعد ، ويا عمر ، ويا صالح الأعمى ، ويا رابعة ، ويا سعدانة ، ويا جعفر بن سليمان ، فقلنا : لبيك وسعديك يا فتى . فقال : اما فيكم أحد يحبه الرحمان ؟ . فقلنا : يا فتى علينا الدعاء وعليه الإجابة . فقال : ابعدوا من الكعبة ، فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمان لأحابه . ثم أتى الكعبة فخر ساجدا فسمعته يقول في سجوده : سيدي ، بحبك لي إلا سقيتهم الغيث ، قال : فما اسنتم الكلام حتى اتاهم الغيث كافواهُ القُرب ، فقلت يا فتى : من اين علمت أنه يحبك ؟ قال : لو لم يحبني لم يستترني ، فلما استتراني علمت أنه يحبني ، فسألته بحبه لي فاحبني ، ثم ولى عنا وانشا يقول .

من عرف الرب فلم يُغنه	معرفة الرب فنذاك الشقي
ما ضرَّ في الطاعة ما ناله	في طاعة الله وماذا لقي
ما صنع العبد بغير التقى	والعرُّ كلُّ العزِّ للمتقى

فقلت : يا أهل مكة من هذا الفتى ؟ . قالوا : علي بن الحسين (ع) بن علي بن ابي طالب .

وعن المنهال بن عمرو في خبر قال ، حجت فلبيت علي بن الحسين (ع) ، فقال : ما فعل حرمة بن كاهل ؟ . قلت : تركته حبا بالكوفة ، فرفع يديه ثم قال (ع) : اللهم أدقِّه حرَّ الحديد ، اللهم أدقِّه حرَّ النار . فتوجَّهت نحو المختار ، فإذا يقوم يركضون ويقولون السارِه نَها الأمر ، قد أخذ حرمله ، وقد كان توارى عنه ، فلما نقطع بدبه ورحله وحرقه بالنار .

وكان زين العابدين (ع) يدعو في كلِّ يوم ان يربه الله فابل اسه مهنولا ، فلما قتل المخاض فقه الحسب صلوات الله وسلامه عليه بعث برأس عبد الله بن زناد ورأس عمر بن سعد مع رسول من قباه إلى ربي العابدين ، وقال لرسوله : إنه يصلِّي من الليل ، وإذا أصبح وصَلَّى صلاة الغداة هجم ، ثم يقوم فسباك

ويؤتي بغدانه ، فإذا أتيت بابه فاسأل عنه ، فإذا قيل لك : إن المائدة وضعت بين يديه فاستاذن عليه وضع الراسين على مائدته ، وقل له : المختار يقرأ عليك السلام ويقول لك : يا بن رسول الله ، قد بلغك الله تارك . ففعل الرسول ذلك ، فلما رأى زين العابدين (ع) الراسين على مائدته خر ساجداً وقال : " الحمد لله الذي أجاب دعوتي ، وبلغني ثاري من قطة أبي ، ودعا للمختار وجزاه خيراً " ٢٤ .

وحيثما نعرف جانباً من شخصية الإمام زين العابدين (ع) ومدى تقانيه في ذات الله عز وجل وذوبانه في تيار حبه سبحانه ، وخلوصه من شوائب المصلحة المادية ، نعرف - حينئذ - جانباً من حكمة الولاية ، وذلك التأكيد الشديد عليها في نصوص الإسلام . فمثل ولاية الإمام السجاد تصلح نفس الإنسان وتتسامى في معارج الكمال ، وإن ولاية الأنبياء والأوصياء تصبغ شخصية المجتمع المؤمن بصبغة الإيمان ، وتيسر له العمل بتعاليم أولياء الله تعالى ، والسعي وراء تمثيل شخصياتهم الإلهية ، كما أن تلك الولاية تسقي روضة حب الله في أفئدتهم ، وتصونها من الذبول ، لأن حب أولياء الله يفيض من حب الله كما تفيض الروافد من نبع زخار ، بل إن حب أولياء الله هو انبساط لحب الله ، وامثلة له وشواهد عليه ١ . وكيف يمكن أن يدعي أحد أنه يحب الله ثم لا يحب من هام في حب الله حتى بلغ ما بلغه الإمام زين العابدين (ع) من العبادة والتهدد ؟!

ولم يقل ربنا العزيز : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران/ ٣١) . فلنخترف من نبع حب الله فيضاً ، وذلك بحب أوليائه أكثر مما مضى ، حتى نطهر أفئدتنا من أهواء الدنيا ومن أدران حب أهلها اللثام .

(٢٤) بحار الأنوار . (ج ٤٦ ، ص ٥١ - ٥٣) .

الفصل الثاني

ميلاده وعصره (ع)

كان الإمام زين العابدين (ع) في قلب الأحداث السباسبية التي ساهمت في تكوين الأمة الإسلامية ، ورسم ملامحها التاريخية ..

لقد ولد (سلام الله عليه) في بيت جده علي أمير المؤمنين (ع) ، من نجله الكريم الإمام الحسين (ع) ، عندما كان الإمام يخوض صراعاً مريعاً مع أعداء الإسلام المتستترين في الجمل وصيفين والنهروان ، وكان والده الحسين (ع) قائداً في جيش الإسلام - يومئذ - كما كان مضطرباً مع والده بإدارة أمور المسلمين ..

ولا ريب أن تلك الأحداث الرهيبة التي لازالت اصدائها تدوي في واقعنا حتى اليوم ، ساهمت في صنع شخصية الوليد الكريم الذي استقبله بيت الإمامة في عام (٢٥) للهجرة الكريمة ، عندما كانت الأمة الإسلامية تعيش غليظاً انتهى بمقتل الخليفة الثالث ، وما أعقبه من فتنة بني أمية في المطالبة بدمه .

أمر السجاد (ع) :

جاء في كتب التاريخ أن والده الإمام السجاد (ع) هي (شهر بانو) بنت آخر ملوك الفرس ، من سلسلة الساسانية (يزدجرد) .

وكانت الأمبراطورية الفارسية كأي نظام جاهلي آخر قائم على الطبقية والظلم والعدوان ، فلما اشرق نور الإسلام تهاوت كما تتهاوى شجرة منخورة أمام إعصار عنيف ، وانهزم الأمباطور من بلد إلى آخر حتى قُتل غيلةً في خراسان ، وبقيت عائلته في تلك البلاد حتى فتحت على عهد عثمان في عام (٢٢) ووجه بهم إلى المدينة المنورة ، فلما مثلوا أمام الخليفة الثالث وحضر كبار الأصحاب ، أشار الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى الخليفة بإكرامهم ورغبه في ذلك بذكر حديث الرسول (ص) ، " اكرموا عزيز قوم ذل " . ولعل الحكمة في ذلك كانت استمالة الشعوب التي لم تزال تحترم قيادتها وكرمائها ، لكي لا تبقى بينهم وبين قبول الإسلام حواجز الحقد والضغينة .

فلما تريت الخليفة في ذلك قال الإمام أمير المؤمنين (ع) ، " اعتقتُ منهم لوجه الله حقي وحق بني هاشم " .

وتبعه في ذلك الأنصار والمهاجرون ، فلم ير الخليفة بدأً من قبول الأمر ، فأشار الإمام أمير المؤمنين (ع) بأن تترك كل واحدٍ لاختيار الزوج المناسب ، فاختارت إحدى بنات بردجرد الحسبي (ع) ، سنما

اختارت الثانية الحسن ، وقيل محمد بن أبي بكر . فحملت شهر بانو في تلك السنة . وفي منتصف شهر جمادي الأولى لعام ثلاث وثلاثين من الهجرة ولدت ابنها البكر ، وماتت وهي في نفاسها ، فتكفلته واحدة من أمهات الأولاد عند الإمام الحسين (ع) ، فنشأ زين العابدين في كنفها ، وكان يزعم الناس أنها أمه بينما كانت مولاته ^{٢٥} .

وفي السابعة من عمره استشهد جده الإمام أمير المؤمنين (ع) في محراب مسجد الكوفة . وبعد أشهر عاد أهل البيت إلى المدينة حيث ترعرع علي بن الحسين (ع) في ربوعها المضووعة بخطر الرسول (ص)، فلما بلغ السابعة عشر اغتيل باسم عمه الإمام الحسن المجتبى (ع) . وعاش الإمام السجاد (ع) يمارس في ظلال والده الإمام الحسين (ع) دور الريادة في مواجهة الردة الجاهلية الأموية .

وبالرغم من قلة المعلومات التي تفصل طبيعة هذه المواجهة المتسمة بالهدوء وربما السرية ، فإن ما بقي لنا من خطب الإمام الحسين (ع) ضد معاوية ، وكتبه النارية الموجهة إليه ، وما رافق عهد معاوية من انتفاضات بقيادة أصحاب الرسول الموالين لأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، أقول ، إن ما بقي لنا من ذلك يُعطينا صورة كافية للحالة السياسية التي عاشها الإمام السجاد أيام والده (ع) ، حينما كان في مقتبل العمر .

بعد عاشوراء :

ومهما كانت قوة الحركة السياسية في عهد معاوية ، فإنها كانت نارا تحت رماد الهدوء السياسي الذي فرضه معاوية على الساحة بدهائه المعروف وبوسائله المختلفة من توزيع الأموال والمناصب ثمناً لسكوت الطامعين ، وتوزيع العسل المسموم على الأحرار . وقد اشتهر عنه القول : إن لله جنوداً من عسل .. وهكذا كانت التيارات السياسية تنتظر بفارغ الصبر هلاك معاوية . ومن هنا أصبحت واقعة كربلاء صاعقاً فجر الثورات في أفاق العالم الإسلامي ، لأنها جاءت في الوقت المناسب بعد هلاك وريث أبي سفيان ، داهية العرب ، فافتتحت عصر الثورات المناهضة للجاهلية المقنعة .

فبعد شهادة السبط الشهيد (ع) انتفضت مدينة الرسول ، وخلفت يزيد بن معاوية ، وقام عبد الله بن الزبير بمكة يطالب بالخلافة ، وثار الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، ثم بقيادة المختار . وهكذا أصبحت الثورات والانتفاضات صبغة الحياة السياسية في البلاد الإسلامية ، واسلوباً شاخصاً لمواجهة

(٢٥) اعتمدنا في بعض ما ذكرنا على رواية مأثورة عن الإمام الرضا (ع) في بحار الأنوار (ج ٤٦ ، ص ٨) حيث ذكر أن حادثة أسر بنات يزيدجرد كانت في عهد عثمان خلافاً لبعض الروايات التي ترى أنها وقعت في عهد عمر ، وهي بعيدة عن السياق التاريخي لمجمل الأحداث كفتح خراسان وتاريخ ولادة الإمام زين العابدين وما أشبه ..

الطغيان والفساد . ولذلك فإننا نستطيع أن نسمي عهد الإمام السجاد (ع) ، خصوصاً في بداياته - منذ واقعة عاشوراء - عهد الثورات والإنفاضات .

بيد أن الثورة بذاتها ليست هدفاً مقدساً ، وإنما الهدف المقدس هو تلك القيم المتسامية التي تحركها ، وإلا فإن ضررها يكون أكبر من نفعها . لولiest الثورة بذاتها حالة تمرد على النظام وتعكر جو الأمن ، وتثير الإضطراب ، وتريق الدماء ؟ وبلى ، فهي - إذا - حالة استثنائية لا يحمدها العقلاء ، ولكنها إنما تكتسب شرعيتها وقديسيتها من الغايات النبيلة التي تهدف إليها .

فلأنها تخرج الناس من ظلمات الركود والجهل والظلم إلى نور النشاط والعقل والعدالة ، أصبحت الثورة - بمعناها الشامل - صيغة حياة الأنبياء والأوصياء وعباد الله الأبرار .

ولأنها تزيل عن قلوب الناس رين الغفلة واللامبالاة ، وعن تجمعاتهم سحابة الظلم والإعتداء ، وعن مجتمعهم كابوس الطغيان والفساد ، فقد أصبحت مسؤولية كل حر لبي ، ووسام حق لكل ذي كرامة وشرف ..

ومن هنا ركزت نصوص الوحي على هدف الثورات ضمن تعبير " القيام لله " وحيث قال ربنا سبحانه ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ (س/٤٦) .

وقال عز وجل : ﴿ قَوْمِينَ بِالْأَيْمَنِ شَهِدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (النساء/١٣٥) .

وهكذا كانت الحالة الثورية التي عمّت أفاق البلاد الإسلامية ببركة استشهاد الإمام الحسين (ع) ، بحاجة إلى هوية وصبغة ، وروح ، وقيم ، لكي تتكرس في ضمير الأمة ، ولا تصبح كشعلة السعف أو زوينة الفنجان لا تلبث أن تتلاشى .. ولكي تتخذ مساراً رسالياً مستقيماً ، ولا تصبح أداة بيد كل طامع لو متهور كأمثال عبد الله بن الزبير وكغيره من الذين طفقوا يستفيدون منها بابشع صورة .

فهذا ابن الزبير يصعد المنبر بعد مقتل الإمام الحسين (ع) فينثي عليه ويلعن قاتله ويخلع يزيد . ولكن عندما أحس باستتباب الأمر له أظهر عداً شديداً لآل البيت (ع) ، حتى أنه ترك الصلاة على جدهم النبي (ص) ، لكي لا يشمخوا بانوفهم عند ذكره حسب قوله !

فمن أجل ألا تصبح الحالة الثورية مطية لكل من يهوى السلطة أو يبحث عن مجد مثل ابن الزبير ، جاء الإمام السجاد (ع) يعطي لتلك الحالة هويتها الرسالية ، وصبغتها الإلهية ، وروعها التي تمثلت في قيم الوحي ، وسبيلها القويم الذي رسمته شريعة الله تعالى .

ولعل هذا أعظم دور قيادي قام به الإمام السجاد (ع) . ولم يكن هذا الدور نابعاً من حالة مزاجية عند الإمام (ع) أو لأنه شاهد مثلاً وقائع الطف الفظيعة ، فاصطبغت شخصيته بها . ولم يملك إلا البكاء والتفجع والتبئ والضراعة .

أجل ، إن تلك الحادثة كان لها اثرها البالغ في شخصيته الكريمة ، ولكن الإمام المعصوم (ع) يقوم بواجبه الإلهي ، وليس بما تمليه حالته النفسية . والشاهد على ذلك أن الإمام زين العابدين (ع) ، الذي

اصطبغت شخصيته الكريمة بالتهجد والبكاء ، حمل رسالة عاشوراء بعد شهادة والده ، هو وعمته عقيلة الهاشميين زينب (ع) . وما ادراك ما رسالة عاشوراء ١. إنها رسالة الجرح الثائر ، والدم المنتصر ، والألم المتمرد ، والإنفاضة التي لا تهدأ . أوما سمعت خطبته اللاهبة في اهل الكوفة بعد ثلاثة ليام من فاجعة الطف كيف انارت فيهم دفائن العطف ، ونفضت عن أفئدتهم غبار الرهبة والتردد ، فقالوا له ، مرنا بامرك فإننا مطيعون لامرك ، لناخذن يزيد ونبترا ممن ظلمك وظلمنا .

ولكنه قال لهم ، " مسالتي الا تكونوا لنا ولا علينا " .

وها نحن نستمع معاً إلى فقرات من تلك الخطبة الثائرة ،

لوما إلى الناس فسكتوا ، فحمد الله وصلى على النبي ، ثم قال ،

" ليها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني أعرفه بنفسي . انا علي بن الحسين بن علي ، انا ابن المذبوح بشط الفرات ، انا ابن من هُتِك حريمه ، وانتُهَب ماله ، وسُلب نعيمه . فباية عين تنظرون بها رسول الله (ص) إذا قال لكم ، قتلتم عترتي ، وهتكتم حرمي ، فلستم من امتي " ثم بكى (ع) ٢٦ .

وعندما أدخل أسيراً على ابن زياد الطاغية الذي زعم انه انتصر على الخط الرسالي وإلى الأبد ، تحداه

الإمام (ع) وقال له ،

" سوف نقف ونقفون ، ونسال ونسالون ، فاي جواب تردون ، وبخصام جدنا إلى النار تُقادون " ٢٧ .

فلما هم ابن زياد بقتله قال له الإمام (ع) ،

" أنت تهددني بالقتل ؟. لما علمت أن القتل لنا عادة ، وكرامتنا من الله الشهادة " ؟ .

وكان موقفه من الطاغية يزيد ، ذلك المجرم الذي لم يدع جريمة شنيعة إلا وارتكبها في سني حكمه القصيرة ، كان موقفه قمة في التحدي ومثلاً أعلى في الجهاد بالكلمة الرافضة .

ومرة أخرى حينما نال خطيب يزيد في الجامع الأموي من آل بيت الرسول تصدَّى له الإمام السجاد

(ع) قائلاً ، " ويالك يا هذ الخاطب ، اشتريت مَرَضَةَ المخلوق بسخط الخالق ، فتبواً مقعدك من النار " .

ثم التفت إلى يزيد واستأذنه بصعود المنبر ، فلم يجد يزيد بداً من ذلك فلما تشرف به المنبر القي تلك

الخطبة البليغة التي لايزال صداها يدوي في الأفاق إلى اليوم .. وإلى أبد الأبد .

وحيثما هدم طاغية العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة تصدَّى له الإمام (ع) وقال ،

" يا حجاج ، عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيل فالقبتة في الطريق وانتهيت ، كذاك ترى أنه تراث لك .

اصعد المنبر وانشد الناس أن لايبقى احد منهم اخذ منه شيئاً إلا رده " ٢٨ .

(٢٦) ناسخ التواريخ : (ج ٢ ، ص ١٤٠) .

(٢٧) المصدر : (ص ١٤١) .

(٢٨) عوالم العلوم : (ج ١٨ ، ص ١٧٩) .

وهكذا كانت سجية الإمام الشجاعة ، ولكن الظروف التي عاشها لم تكن تنقصها الثورة والشجاعة ، لأن واقعة الطف قد شحنت ضمير الأمة بالشجاعة بما يكفيها لقرون متمادية ، وربما إلى الأبد . إنما كانت بحاجة إلى صبغة إيمانية تسمو بالثورة إلى أهدافها القيّمة ، وهكذا اتجه الإمام (ع) إليها .

فزعم السذج من الناس أن ذلك كان مزاجاً شخصياً . كما زعموا في مثل ذلك في الأنبياء . فمنهم من قال : إن تضحية إبراهيم وصبر نوح ، ووحدّة موسى وزهد عيسى وخلق محمد عليهم جميعاً صلوات الله ، وسائر الصفات المتميزة لكل نبي من رُسل الله (ع) إنما كانت سمات شخصياتهم ، وحالاتهم المزاجية ، ناسين أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وأنه لا يجعل رسالته إلا حيث تقتضي حكمته . وإن تلك الصفات التي تجلّت بهم كانت ضرورية للظروف التي عاشوها والبشر الذين تعاملوا معهم . حتى ولو افترضنا جدلاً أن نبياً وُضِعَ في مقام نبي آخر لتبني سلوكه وعمل بمنهاجه ، بلا اختلاف قليل أو كثير .

وكالأنبياء يكون الأئمة ، فلكل واحد منهم صحيفة يعمل بها ، وقد كانت مرسومة ضمن السياق التاريخي الذي عاشه . وحسب تلك الصحيفة الإلهية عمل الإمام السجاد (ع) . الذي كانت حياته قمة في العبادة والضراعة ، وبث روح الإيمان في المجتمع ، وتربية رجال متميزين في الزهد والتهجد ، من أمثال : الزهري ، وسعيد بن جبير ، وعمر بن عبد الله السبيعي ، وآخرين ..

وهكذا رسمت صحيفة السجاد (ع) منهاج إمامته فيما يبدو في التركيز على الجانب الروحي ، على أنه كان في طليعة مهام سائر الأئمة (ع) ، إلا أن الحاجة إليه كان في عهد الإمام زين العابدين (ع) أشد ، ولذلك كان التركيز عليه أعظم . ولكن السؤال : كيف اضطلع الإمام بهذه المهمة ؟ . وأي منهاج اتبعه لبلوغ هذا الهدف العظيم ؟

منهاج الإمام (ع) في التربية الروحية :

مماً لاشك فيه أن أئمة الهدى هم مشاغل الحق للأجيال في كل عصر ومصر ، ولكن لأن الظروف مختلفة من جيل لآخر ، ومن مصر لمصر ثان ، ولأن الله قد ختم بالمصطفى رسالاته ، وبأوصيائه خلفاء المعصومين ، فإن حكمته اقتضت أن تكون سيرة كل واحد منهم متميزة بهدى ومنهاج ، ليكون مجمل سيرهم المتنوعة ذخيرة غنية يرجع الناس إليها لياخذوا منها ما يتناسب وظروفهم الخاصة ..

وكانت سيرة الإمام علي بن الحسين (ع) الإيمانية هي منهاج المتناسب كلياً وظروف مشابهة لظروفنا في بعض البلاد حيث حباننا الله سبحانه بحالة ثورية تحتاج إلى المزيد من الروح الإيمانية حتى لاتخرج الحركة عن مسارها الديني ، ولا تفسد السياسة ومصالحها وحتمياتها النقاء الإيماني الذي يحتاجه العاملون في سبيل الله .

فماذا كانت سيرته ، وما هو برنامجه ؟

ولاً ، كان عباد الله المخلصون دعاة إلى الله بسلوكهم قبل ان يكونوا دعاة بالسنتهم ، فما امروا الناس بشيء إلا وسبقوهم إليه .

وكانت حياة الإمام السجاد (ع) لوحة إيمانية نقية ، وقد تحدثنا عنها في فصل آخر . وقال عنه جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الشهير ، ما رايت في اولاد الأنبياء شخصاً كعلي بن الحسين (ع) .
ثانياً ، تربية جيل من العلماء الريانيين الذين ربوا بدورهم علماء وثائرين وعباداً صالحين . وهكذا تماوجت تعاليم الإمام عبر النفوس الزكية في حلقات مترامية كالصخرة العظيمة تلقى في بحر واسع ..
وكان في هؤلاء الرجال العرب والموالي ، ولكل قصة وتاريخ . فدعنا نتزود من عبق سيرة حوارى الإمام (ع) الذين كان اكثرهم من التابعين ،

الف ، كان سعيد بن جبير من اولئك التابعين الذين اقتبس من الإمام زين العابدين (ع) روح الإيمان .. كان مثلاً في العبادة والاجتهاد كان يسمى بـ (بصير العلماء) ويقرا القرآن في ركعتين ، وبلغ من علمه انه اشتهر بين العلماء انه ما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه^{٢٩} .
واستشهد سعيد على يد طاغية العراق الحجاج . ويقول الإمام الصادق (ع) ،
" إن سعيد بن جبير كان ياتم بعلي بن الحسين ، فكان علي يثني عليه . وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر ، وكان مستقيماً " .^{٣٠}

ومن خلال حوار ساخن جرى بينه وبين جزار بني أمية الزنيم تعرف مدى استقامة هذا العالم الرباني .
ذكر انه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال له : انت شقي بن كسير .
قال : أُمي كانت تعرف بي ، سمتني سعيد بن جبير .
وقيل إنه سألته كيف يفضل أن يقتله ؟ قال : اختر لنفسك ، قال وكيف ذلك ؟ قال : لأنه لا تقتلني بقتل إلا وأقطك بها يوم القيامة .

باء ، وكان عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الذي يكنى بـ (أبي إسحاق) من ثقة الإمام السجاد (ع) وبلغ من عبادته ان قيل عنه لم يكن في زمانه اعبد منه ، حيث كان يختم الفراش في كل ليلة . وقد صلى أربعين سنة صلاة الفجر بوضوء صلاة العتمة ، وكان محدثاً لا لوثق منه في الرواية عند الخاص والعام^{٣١} .

جيم ، وكان الزهري عاملاً في بلاط الأمويين ، فعاقب رجلاً قات في العقوبة ، وارتد ذلك فخرج على وجهه هائماً ، واعتكف في غار تسع سنين ، فراه الإمام السجاد (ع) وهو في طريقه إلى الحج ، فقال له :

(٢٩) المصدر : (ص ٢٨٠) .

(٣٠) المصدر : (ص ١٨٢) .

(٣١) عوالم العلوم : (ج ١٨ ، ص ٢٨١) .

"إني أخاف عليك من قنوطك مالا أخاف عليك من ذنبك . فابعث بديعة مسلّمة إلى أهله ، وأخرج إلى أهلك ومعالم دينك " .

فقال له : فرّجتَ عني يا سيدي ، الله أعلم حيث يجعل رسالته . ورجع إلى بيته ، ولزم علي بن الحسين (ع) . وكان يعد من أصحابه . ولذلك قال له بعض بني مروان : يا زهري . ما فعل نبيك ، يعني علي بن الحسين .^{٣٢}

ومن هذه الرواية نعرف كيف كان الله يهدي الناس بالإمام حتى يصبح عامل بني أمية من كبار العلماء المعروفين عند كل الفرق الإسلامية كالزهري .

دال : وكان سعيد بن المسيب بن حزن من كبار التابعين الذين رآهم أمير المؤمنين (ع) ، والتزم خط آل البيت (ع) حتى كان من صفوة أصحاب الإمام السجّاد (ع) . وعنه قال : " سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار " .^{٣٣}

وقد قال رجل لسعيد يوماً : ما رايت رجلاً أروع من فلان (وذكر اسم رجل من الناس) فقال له سعيد : فهل رايت علي بن الحسين ؟ قال : لا ، قال سعيد : ما رايت رجلاً أروع منه .^{٣٤}

ومثل هؤلاء طائفة كبيرة من كبار علماء الإسلام الذين أخذوا عن الإمام الزهد والتقوى ، والتفسير والحكمة والفقه ، حتى قال الشيخ المفيد : إنه روى عنه الفقهاء من العلوم مالا يحصى كثرة ، وحفظ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ما هو مشهور بين العلماء .. وقال ابن شهر آشوب : قلماً يوجد كتاب زهد وموعظة لم يذكر فيه : قال علي بن الحسين ، لو قال زين العابدين (ع) .^{٣٥}

وكان شديد الإحترام لطلبة العلوم الذين كانوا يتوافدون عليه في المدينة من أقطار العالم الإسلامي ، ويرى أنهم وصية رسول الله (ص) .. وكان العلماء يستلهمون من سلوكه الهدى والورع قبل أن يلقوا من منطق العلم والمعرفة ، ومن لا يستلهم نور الله من تلك الطلعة الربانية ، من العين التي تفيض من خشية الله ، والجبهة التي عليها تفنات من اثر السجود ، من ذلك اللسان الذي لا يني يذكر الله عز وجل .. وبالتالي من تلك السيرة التي يشع منها نور الله تبارك وتعالى .

يذكر عبد الله بن الحسن فيقول : كانت أمي فاطمة بنت الحسين تامرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين (ع) . فما جلست إليه قط إلّا قمت بخير قد افدته ، إما خشية لله تحدث في قلبي لما أرى من

(٣٢) المصدر : (ص ٢٨٢) .

(٣٣) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ١٣٣) .

(٣٤) عوالم العلوم (ج ١٨ ، ص ٢٨٣) .

(٣٥) في رحاب أئمة أهل البيت : (ح ٣ ، ص ١٩٦) .

خشيتته لله ، لو علم قد استغفرت منه .
 وكانت الفتوحات الإسلامية تطوي كل يوم بلداً جديداً ، وتضم إلى الجسد الإسلامي عضواً جديداً ، ولكنها كانت بحاجة إلى زخم إيماني يصهر مختلف الثقافات والتقاليد والمصالح في بوتقة الأمة الواحدة .
 وقد تصدى الإمام زين العابدين (ع) وأصحابه وانصاره لهذه المسؤولية وبسبل شتى . فقد كان شديد الاحترام للموالي ، وهم المنتمون إلى سائر الشعوب التي دخلت في الإسلام ، بعد فتح البلاد لها ، ولما تبلغ من المعارف الإلهية نصيباً كافياً .

وكان كثير من الموالي من خيرة أصحاب الإمام (ع) . كما كان الإمام يتبع منهجاً فريداً في زرع القيم الإلهية في أفئدة ثلة مختارة منهم .. حيث كان يشتري العبيد ويتعامل معهم بأفضل طريقة ثم يعتقهم ويؤدبهم بما يوفر لهم الحياة الكريمة ، فيكون كل واحد منهم ركيزة إعلامية بين بني قومه .. ولنقرأ مع أخلاق الإمام في تعامله مع مواليه قبل أن نعرف كيف كان يعتقهم ، فإن تلك الأخلاق الحسنة كانت مدرسة عملية لهم إلى جانب التوجيه المباشر .

روي عن عبد الرزاق (أحد الرواة) أنه قال ، جعلت جارية لعلي بن الحسين (ع) تسكب عليه الماء ليتيها للصلاة ، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجّه . فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية ، إن الله يقول ، ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، كظمت غيظي ، قالت ، ﴿ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال لها ، عفا الله عنك ، قالت ، ﴿ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران/١٣٤) قال ، انهبي فانتي حرّة لوجه الله عز وجل^{٣٧} .

هكذا كان يتعامل مع الرقيق الذين اعتبرهم بعض الناس ذلك اليوم ان لهم طبيعة غير طبيعة الإنسان ، فكيف لا يؤثر فيهم ذلك الخلق الرفيع ؟.

ويروي بعضهم القصة التالية التي تعكس مستوى رفيعاً من الصفح والسماحة والإيثار ، تقول الرواية ، كان عنده (ع) قوم اضياف ، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور ، فاقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس بني لعلي بن الحسين تحت الدرجة فاصاب رأسه فقتله ، فقال علي للغلام وقد تحير الغلام واضطرب ، " انت حر ، فإنك لم تعتمده " ، ولخذ في جهاز ابنه ودفنه^{٣٨} .

وكان له مولى يتولى عمارة ضيعة له ، فجاء فاصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً . فغاضه ما رأى من ذلك وغمه ، فقرع المولى بسوط كان في يده وتندم على ذلك ، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى فجاء فوجده عارياً والسوط بين يديه ، فظن أنه يريد عقوبته ، فاشتد خوفه ، فقال له علي بن الحسين ،

(٣٦) المصدر : (ص ١٩٦) .

(٣٧) المصدر : (ص ١٩٨) .

(٣٨) المصدر : (ص ١٩٩) .

" قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله ، وكانت هفوة وزلة ، خذ ذلك السوط واقتصص مني " .
فقال : يا مولاي والله إن ظننت إلا أنك تريد عقوبتي ، وأنا مستحق للعقوبة . فكيف اقتصص منك ؟
قال : " ويحك اقتصص " ؟ قال : معاذ الله أنت في حل وسعة ، فكرر عليه ذلك مراراً والمولى يتعاضم قوله
ويجمله ، فلما لم يره يقتص قال له ، " أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك " ٣٩ .

هذه نماذج من الخلق الكريم الذي اتسم به سلوك الإمام (ع) مع الموالى . وقد كان أسلوب عتق الإمام
لهم متميزاً برويه التاريخ بجلال وإعجاب . فقد روى ابن طاووس في كتاب شهر رمضان المعروف
بالإقبال ، بسنده عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : كان علي بن الحسين (ع) إذا دخل شهر رمضان لا
يضرب عبداً له ، ولا أمة . وكان إذا اذنب العبد والأمة يكتب عنده اذنب فلان ، اذنبت فلانة يوم كذا وكذا ،
ولم يعاقبه . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ، ثم أظهر الكتاب ثم قال : يا
فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤذك أتذكر ذلك ؟ فيقول بلى يا بن رسول الله . حتى يأتي على آخرهم ويقرهم
جميعاً ثم يقوم وسطهم ويقول : ارفعوا أصواتكم وقولوا ، يا علي بن الحسين إن ربك قد لحصى عليك كل
ما عملت كما لحصيت علينا ولديه كتاب ينطق عليك بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وتجد
كل ما عملت لديه حاضراً ، فاعف واصفح عك المليك ويصفح ، فإنه يقول : وليعفو وليصفحوا ،
الا تحبون أن يغفر الله لكم ، وهو ينادي بذلك على نفسه ويلقنهم وينادون معه وهو واقف بينهم يبكي
ويقول :

" ربنا إنك امرتنا أن نعفو عن ظلمنا ، وقد عفونا عن ظلمنا كما امرت ، فاعف عنا فإنك أولى بذلك
منا ومن المأمورين . إلهي كرمتم فلكرمني إذ كنت من سؤالك وجدت بالمعروف فأخلطني بأهل نوالك يا
كريم " .

ثم يقبل عليهم فيقول قد عفوت عنكم ، فهل عفوتم عني ما كان مني إليكم من سوء ملكة فإني ملك
سوء لثيم ظالم مملوك لمليك كريم جواد عادل محسن متفضل ؟ فيقولون : قد عفونا عنك يا سيدنا ،
وما أسأت . فيقول لهم قولوا ، اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا واعتقه من النار كما اعتق
رقابتنا من الرق . فيقولون ذلك ، فيقول : اللهم آمين رب العالمين ، اذهبوا فقد عفوت عنكم واعتقت
رقابتكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتني . فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي
الناس . وما من سنة إلا وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين نفساً إلى أقل أو
أكثر . وكان يقول : إن لله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف عتق من النار ،
كلما قد استوجب النار . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان اعتق فيها مثلما اعتق في جميعه . واني لأحب
أن يراني الله وقد اعتقت رقاباً في ملكي في دار الدنيا ، رجاء أن يعتق رقبتني من النار . وما استخدم

(٣٩) المصدر .

خادماً فوق حول . وكان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة ، إذا كان ليلة الفطر اعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني ثم اعتقوا كذلك . ولقد كان يشتري السودان وما به إليهم من حاجة ، يأتي بهم عرفات فيسد بهم تلك الفرج فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال .

الفصل الثالث

دور الإمام (ع) في الاعلام الرسالي

الاعلام الرسالي هو الجهر بالقيم التي يدعو إليها الوحي . ولعل الكلمة المرادفة له في المنطق الإسلامي " الأذان " . وإذا كانت الدعوة إلى الله هي الركيزة الأولى لرسالات الله ، فإن الإعلام جانب أساسي منها .

ولقد كانت واقعة الطف الرهيبة الفجيعة واحدة من أعظم الإنارات الإعلامية . أولم يقل السبط الشهيد أنا قتيل العبرة ؟ . أولم يتواتر عن أنمة أهل البيت (ع) فضلُ البكاء على الحسين (ع) وزيارة قبره ، والدعاء تحت قبه ؟ .

وهذا الدور الإعلامي الذي كان الهدف من استشهاد الإمام الحسين (ع) اضطلع به الإمام زين العابدين (ع) ، ومعه البقية العائدة من كربلاء ، وبالذات عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) . وبقي الإمام (ع) خمساً وثلاثين سنة قائماً بهذا الدور حتى رسخ في ضمير الأمة قواعد الإعلام الحسيني المبارك على النحو التالي :

الف ، كان أول واعظم هدف لوسائل الإعلام الحسيني ، إظهار الجانب المأساوي لواقعة الطف ، لتبقى راسخة في ضمير الأجيال المتصاعدة ، ولتكون شعلة متقدة في أفئدة المؤمنين ، تستثير فيهم حوافز الخير والفضيلة ، وتدعوهم إلى الإجتهد والإثثار ، وليقولوا على مدى العصور : يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيماً ، وليكونوا أبدأً جنود الحق المتفانين في سبيل الله لكي لا تتكرر فاجعة الطف مرة أخرى ، لو ليكونوا . إذا وقعت مشاركين فيها بسهم واق ، ومدافعين عن الحق بكل قواهم . ومن هنا نجد الإمام زين العابدين (ع) واحداً من البكائين الخمسة في عداد آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

لقد بقي باكياً بعد واقعة الطف ثلاثاً وثلاثين عاماً ، ما وُضع امامه طعام إلا وخنقته العبرة وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله جانحاً ، فإذا جيء إليه بشراب انهالت دموعه فيه وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله عطشاً ، وإذا مرَّ على جزار استوقفه وساله : هل سقى الشاة ماءً ، ثم طفق يبكي ويقول : لقد قتلوا سبط رسول الله ظامناً على شط الفرات .

وقد ضج لبكائه مواليه وأهل بيته . قال له أحد مواليه مرة : جعلت فداك يابن رسول الله ، إنني أخاف أن تكون من الهالكين ، قال : إنما أشكو حزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون . إنني لم أذكر مصرع

بني فاطمة إلا خنقتني العبرة^{٤٠} .

باء ، ولم يكن البكاء الرسالة الوحيدة التي حملها الإمام زين العابدين (ع) إلى التاريخ ، فقد كانت رسالة الكلمة الخائرة هي المشكاة الصافية التي تشع من خلالها رسالة الكلمة . فمنذ الأيام الأولى لملمحة كربلاء عملت كلمات آل البيت (ع) وفي طليعتهم الإمام السجاد والصديقة زينب الكبرى (ع) في هدم جدار الصمت والتردد والخوف ، في الكوفة ، وفي الشام ، ثم في المدينة المنورة .

وحينما فرّق عامل يزيد " الأشدق " أهل البيت في البلاد الإسلامية خشية انتفاضة أهل المدينة حسب بعض الروايات التاريخية ، رُفِعَ لظلمة الحسين (ع) في كل حاضرة منبر وجهاز إعلامي مقتدر .

ومن أشهر خطب الإمام (ع) تلك الرائعة التي لوردها في مسجد الشام ، والتي تحتوي على منهاج المنبر الحسيني الذي لو اتبعناه ، لكان أبلغ أثراً وأنفذ في افئدة الناس . وما نحن نتدبر في مفردات هذا المنهج قبل أن نستوحي معاً نص الخطاب :

الف ، حدد الإمام أهداف المنبر إذ قال للخطاب الذي سبقه إلى المنبر ، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبواً مقعدك من النار .. وتوجه إلى يزيد وقال له ، اتانن ان اصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله رضا وللهؤلاء الجلساء نفع وثواب .

إذا لابد أن تكون توجهيات الخطيب خالصة لوجه الله ، وأن يبحث عما يرضي الله ، حتى ولو أسخط الطغاة ، وأن ينطق بما ينفع الناس لا بما يضرهم .

باء ، ثم بدأ الحديث بذكر الله سبحانه ، وحذر الناس عقابه ، وذكرهم بالموت والفناء ، ولا أبلغ من الموت موعظة ولا من الفناء رادعاً .

وجاء في بعض الروايات أن الناس قد أجهشوا بالبكاء عندما اكمل الإمام (ع) حديثه عن الآخرة ، مما جعل قلوبهم خاشعة تستقبل ما بيئه بعدئذ من البصائر السياسية .

جيم ، وبيّن الإمام (ع) خطه السياسي الأبلج الذي ينتهي إلى سيد المرسلين محمد وأهل بيته المعصومين (صلى الله عليه وعليهم اجمعين) ، وأسهب في بيان صفاتهم التي هي المثل الأعلى في اليقين والإستقامة والجهاد .

دال ، وأشهر الإمام (ع) ظلمة السبب الشهيد ، وحملها راية حمراء تدعو الضمائر الحرة إلى الجهاد من أجل الله وفي سبيل نصرة المظلومين .. وهذه هي أشد محاور المنبر الحسيني ، إثارة للعواطف وتهيجاً لكوامن الحزن والأسى .

هاء ، وبعد أن امر يزيد بأن يقطع عليه المؤذن حديثه لم يترك الإمام (ع) المنبر كما كان معهوداً ، وإنما استوقفه عند الشهادة الثانية وحمل يزيد مسؤولية قتل والده ، مما يعني - في لغة العصر - وضع

(٤٠) المصدر : (ص ٢٠٩) .

النقاط على الحروف . فلا يكفي للخطيب الحسيني أن يشير من بعيد إلى الحقائق السياسية ، بل لابد أن يصرح بها بوضوح حتى يتبصر الناس وتتم الحجة عليهم .

وهكذا استطاع الإمام السجاد (ع) عبر هذا المنهاج الرائع أن يزلزل عرش يزيد زلزالاً حتى تتصل من جريمته الذكراء ، وتوجه إلى الجماهير الغاضبة التي كادت تبطله قاتلاً ، ليها الناس ، اتظنون أنني قتل الحسين ، فلعن الله من قتل عبيد الله بن زياد عاملي بالبصرة^{٤١} .

أما خطاب الإمام (ع) الذي ينبغي أن يتخذ مثلاً للخطب الحسينية ، فهو التالي ،
" ليها الناس أحنركم الدنيا وما فيها ، فإنها دار زوال ، قد افنت القرون الماضية ، وهم كانوا أكثر منكم مالاً ، وأطول أعماراً . وقد أكل التراب جسومهم ، وغير لحوالهم . افتطمعون بعدهم ، هيهات هيهات ، فلا بد من اللحق والملتقى . فتدبروا ما مضى من عمركم وما بقي ، فافعلوا فيه ما سوف يلتقي عليكم بالأعمال الصالحة قبل انقضاء الأجل وفروغ الأمل ، فعن قريب تؤخذون من القصور إلى القبور ، وبأفعالكم تحاسبون . فكم - والله - من فاجر قد استكمل عليه الحشرات ، وكم من عزيز قد وقع في مهالك الهلكات ، حيث لا ينفع الندم ، ولا يُفَات من ظلم .. ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً^{٤٢} .

قالوا : فضج الناس بالبكاء لبالغ اثر مواعظه في أنفسهم ثم قال :
" ليها الناس ، أعطينا ستاً وفضلنا بسبع ،
أعطينا العلم ، والحلم ، والسماحة ، والفصاحة ، والشجاعة ، والمحبة في قلوب المؤمنين .
وفضلنا بأن منّا النبي المختار محمداً ، ومنّا الصديق ، ومنّا الطيار ، ومنّا أسد الله وأسود رسوله ،
ومنّا سبطا هذه الأمة .

من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني لنباته بحسبي ونسبي .
ليها الناس ! أنا ابن مكة ومنى ، أنا ابن زمزم والصفاء ، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء ، أنا ابن خير من انتزعت وارثتي ، أنا ابن خير من انتعل واحتفى ، أنا ابن خير من طاف وسعى ، أنا ابن خير من حج ولبي ، أنا ابن من حمل على البراق في الهواء ، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى ، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن من صلى بملائكة السماء ، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن علي المرتضى ، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا : لا إله إلا الله .
أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين ، وطعن برمحين ، وهاجر الهجرتين ، وباع البيعتين وقاتل ببدر وحنين ، ولم يكفر بالله طرفة عين .

(٤١) المصدر : (ص ٢٠٩) .

(٤٢) المصدر .

أنا ابن صالح المؤمنين ، ووارث النبيين ، وقامع الملحدين ، ويعسوب المسلمين ، ونور المجاهدين وزين العابدين ، وتاج البكائين ، وأصبر الصابرين ، وأفضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين .
أنا ابن المؤيد بجبرئيل ، المنصور بميكائيل ، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين ، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين ، المجاهد أعداء الناصبين ، وأفخر من مشى من قریش لجمعين ، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين ، وأول السابقين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد المشركين ، وسهم من مرامي الله على المنافقين ، ولسان حكمة العابدين ، وناصر دين الله ، وولي أمر الله ، وبستان حكمة الله ، وعيبة علمه .

سمخٌ ، سخيٌّ ، بهيٌّ ، بهلولٌ ، زكيٌّ ، لبطحيٌّ ، رضيٌّ ، مقدامٌ ، همامٌ ، صابرٌ ، صوامٌ ، مهذبٌ ، قوامٌ ، قاطعُ الأصلاب ، ومفرقُ الأحزاب ، أربطهم عناناً ، وأثبتهم جناناً ، وأمضاهم عزيمة ، واشدهم شكيمة ، أسد باسل ، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة طحن الرجا ، ويذروهم فيها درو الريح الهشيم ، ليث الحجاز ، وكبش العراق ، مكّي مدنيٌّ خيفيٌّ عقبيٌّ بدريٌّ أحديٌّ شجريٌّ مهاجريٌّ . من العرب سيدها ، ومن الوغى ليثها ، وارث المشعرين وأبو السبطين ، الحسن والحسين ، ذاك جدي علي بن أبي طالب .

ثم قال ، أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيدة النساء ...

فلم يزل يقول ، أنا أنا ، حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب ، وخشي يزيد (لعنه الله) أن يكون فتنة ، فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام . فلما قال المؤذن ، الله أكبر قال علي ، لا شيء أكبر من الله ، فلما قال ، أشهد أن لا إله إلا الله ، قال علي بن الحسين ، شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ، فلما قال المؤذن ، أشهد أن محمداً رسول الله ، التفت من فوق المنبر إلى يزيد فقال ، محمد هذا جدي أم جدك يا يزيد ؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت ، وإن زعمت أنه جدي فلمَ قُلتَ عترته ؟ قال ، وفرغ المؤذن من الأذان والإقامة وتقدم يزيد فصلى صلاة الظهر " ٤٣ " .

الدعاء مدرسة ومنبر :

لقد بعث الله تعالى إلينا رسالته ، ترى كيف نستجيب له . ونرد إلى ربنا الرحمن التحية ؟
نردّها بالدعاء . فإنه منهج حديث العبد مع ربه عزّ وجلّ ، كما أن الوحي ذروة حديث الرب مع عباده .
والدعاء مخ العبادة ، ولباب التواصل ، وجوهر الصلاة . وكل دعاء حميد إلا أن الله تعالى أنعم علينا بأن هدانا لتعلم أدعية أوليائه ، وبما لورثنا من أدعية النبي وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام . ويبدو أنها جميعاً أدعية توارثها عباد الله من الأنبياء ، ومن ثم من الوحي الإلهي ، لولا أقل هي تجليات الوحي على أفئدة الهداة من عباد الله المقربين ، وانعكاسٌ لمعارف الوحي على قلوبهم الزكية والسننهم الصادقة .

(٤٣) ناسخ التواريخ : (ج ٢ في حياة الإمام زين العابدين ص ٢٤١) .

فالأدعية الماثورة - إذا - هي الوجه الآخر للوحي ، وهي ظلاله الوارفة ، وأشعته المنيرة ، وتفسيراته وتطبيقاته .

وهكذا كانت الأدعية كنوز المعارف الربانية ، وتلاد الحكم التي لا تنتفد ، وفي طليعتها ادعية الصحيفة السجادية التي جمعت من كلمات الإمام زين العابدين (ع) .
فإلى ماذا كان يهدف الإمام من تلك الأدعية ؟ لا ريب انها كانت شعاعاً من قلبه المنير بالإيمان ، وفيضاً من فؤاده المتقد بحب الله ، وكانت كلماتها تتزاحم على شفاه رجل كاد ينوب في هيام ربه ، ولم تكن تكلفاً منه .

بلى ، قد حققت أهدافاً عديدة أبرزها تعليم عباد الله كيف يدعون ربهم العظيم ، وكيف يتضرعون إليه ، ويتحivون إليه ، ويلتمسون رضاه . ويتوافون على أسمائه الحسنى .. وكيف يطلبون منه حوائجهم ، وماذا يطلبون ؟ .

وهذا الهدف الرباني تفرّع بدوره إلى عدة أمور حياتية يذكرها المؤرخون عادة عند بيان حكمة الصحيفة السجادية ، ونحن نشير إليها باختصار شديد .

أ ، ان الضغوط كانت بالغة الشدة في عهد الإمام السجاد (ع) إلى درجة ان عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) أصبحت لفترة ، وسيطة في شؤون الإمامة بين الإمام والمؤمنين . وفي مثل تلك الظروف العصيبة كان من الطبيعي ان يبيث الإمام بصائر الوحي وقيم الرسالة عبر الأدعية التي مشت في الأمة ولا تزال كما يمشي الشذى عند نسيم عليل !!

ب - والإمام كتائر رباني لم يدع معارضة الطواغيت والوقوف بوجه الفساد الذي لوجوده بسبب الظروف الصعبة ، بل عارضهم بالأدعية التي لم تستطع أجهزة النظام برغم قوتها صد الإمام عنها .
وهكذا اتم الله سبحانه الحجة علينا ، كي لاندع الوقوف بوجه الطغاة بآلة وسيلة ممكنة ، حتى في أشد العصور إرهاباً وقمعاً .

ج ، وكانت الأدعية - إلى ذلك - وسيلة تربية الناس على التقوى والفضيلة والإيثار والجهاد وذلك بما تضمنت من مفاهيم متسامية ، ومواعظ ربانية ، فكان النخبة من أبناء الأمة يتخذون عليها كما يتفدى الثبات الزاكي من أشعة الشمس . فإن حركات المعارضة تحتاج إلى زخم ثوري يدفع أبنائها قُدماً في طريق المعارضة كالنشرات السرية والجلسات الخاصة ، والشعارات والبيانات ، فإن تلك الصحف المطهرة كانت غذاءً رسالياً لتلك النخبة المؤمنة في مواجهة النظام الأموي .

ولا تزال ادعية الإمام (ع) التي جمعت في الصحيفة السجادية ، لا تزال هذه الادعية ذلك الزخم الإيماني الذي يوفر لنا الروح الإيمانية في الأيام العصيبة . ولا اظن - بعد القرآن - أن كتاباً يكون تسلياً لفؤاد المحرومين ، وثورة في دماء المستضعفين ، ونوراً في افئدة المحاهدين وهدى على طريق الثائرين كالصحيفة السجادية ، فسلام الله على تلك النفس الزكية التي فاضت بها ، وسلام الله على من تبتّل

بها مع كل صباح ومساء .

الشعر منبر سيار :

تناغم الحياة يعكس في ضمير الإنسان بحبك لوزان الشعر ومعانيه البديعة . وكانت العرب في الجاهلية وفي العصور الإسلامية الأولى ، بالغة الإهتمام بالشعر . وقد مدح ربُّنا سبحانه في سورة الشعراء أولئك المؤمنين منهم الذين ينتصرون للمظلوم . وقد اهتم أئمة الهدى (ع) بالشعر كمنبر سيار يمشي بين الناس بانسياب . كما أن الطغاة بدورهم استخدموا الشعراء مطية لإعلامهم المضلل . وقد قيل إن الإمام زين العابدين (ع) نظم الشعر . وأشهر ما يتقل عنه تلك الرائعة التي يقول فيها ،

نحن بنو المصطفى ذوو غصص	يجرعها في الأنعام كاظمنا
عظيمة في الأنعام محتنتنا	أولنا مبتلى وأخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم	ونحن أعيادنا ماأتمنا
والناس في الأمن والسرور ، و ما	يلمن طول الزمان خائفنا
و ما خصصنا به من الشرف الطا	ئل يبين الأنعام أفتنا
يُحكّم فينا ، و الحكم فيه لنا	جأحدنا حقنا و غاضبنا

ونسب إليه ابن شهر اشوب في المناقب قوله ،

لكم ما تدعون بغير حق	إذا ميز الصحاح من الأمراض
عرفتم حقنا فجدتمونا	كما عرف السواد من البياض
كتابُ الله شاهدنا عليكم	وقاضينا الإله ، فنعم قاض

أما تأليده للشعراء المدافعين عن الحق ، فنعرفه من خلال قصة مع الفرزدق الذي كان محسوباً على بلاط الأمويين ، إلا أنه كان ينتمي تاريخياً إلى البيت العلوي . فلما وجد فرصة فاضت قريحته بالرائعة المعروفة . فلما غضب عليه هشام بن عبد الملك والسلطة الأموية واعتقل ، بادر الإمام بجائزته . وبقي إلى آخر حياته يعيش في ظل الإمامة الإسلامية حسبما يذكر بعض المؤرخين .

أما رائعته وقصتها . فهي التالية ،

رواها السبكي في طبقات الشافعية بسند متصل إلى ابن عائشة عبد الله بن محمد عن أبيه ، قال ، حج هشام بن عبد الملك فطاف بالبيت فجهد أن يصل إلى الحجر فيستلمه فلم يقدر عليه ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه أهل الشام ، إذ أقبل علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيهم أرجاً ، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحى له الناس حتى

(٤٤) بحار الأنوار : (ج ٤٥ ، ص ١٣٨ - ١٣٩) .

(٤٥) في رحاب أهل البيت : (ج ٣ ، ص ٢٤٩) .

يستلمه ، فقال رجل من اهل الشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ . فقال : هشام لا اعرفه ، مخافة ان يرغب فيه اهل الشام . وكان الفرزدق حاضراً فقال الفرزدق : ولكني اعرفه . قال الشامي : من هو يا ابا فراس ؟ . فقال الفرزدق (وقد توافقت روايتا سبط ابن الجوزي والسبكي إلا في أبيات يسيرة ، وهذا ما ذكرناه) :

هذا الذي تعرف البطحاء وطائفة
هذا ابن خير عباد الله كلهم
يكاد يمسكه عرفان راحته
إذا رآه قريش قال قائلها
إن عدل أهل التقى كانوا ذوي عدل
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلاً له
وليس قولك من هذا بضائره
يغضي حياء ويغضي من مهابته
يُنمى إلى ذروة العز التي قصرت
من جده دان فضل الأنبياء له
يشق نور الهدى عن صبح غرته
مشقة من رسول الله تبعته
الله شرفه قدماء وفضلاء
كلنا يديه غياث عم نفعهما
سهل الخليفة لا تخشى بوادره
حمال انقال اقوام إذا فوجوا
ما قال ، لا ، قط إلا في تشهده
عم البرية بالإحسان فانقشعت
من معشر حبهم دي ، ويغضهم
لا يستطيع جوار بعد غايتهم
هم الغيوث إذا ما لزمة لزمت
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم
يستدفع السوء والبلى بحبهم
مقدم بعد ذكرهم الله ذكرهم
يلبى لهم أن يحل الدم ساحتهم

و البيت يعرفه و الجمل و الحرم
هذا التقى النقي الطاهر العلم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
لو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
بجده أنبياء الله قد ختموا
العرب تعرف من انكرت والعجم
فما يكلم إلا حين يتسسم
عنها الأكف وعن إدراكها القدم
وفضل أمته دانت له الأمم
كالشمس تتجأب عن إشرافها الظلم
طابت عناصره والخيم والشيم
جری بذلك له في لوج القلم
يستوفيان ولا يعرفهما العدم
يزينه اثنان حسن الخلق والكرم
رحب الفناء ، لرب حين يعتزم
لولا التشهد كانت لأوه نعم
عنه الغياة لا هلق ولا كههم
كفر ، وقربهم ملجأ ومعتصم
ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
والأشد لشد الشرى والراي محتدم
سيان ذلك إن أنشروا وإن غرموا
ويسترب به الإحسان والسعم
في كل بدء ، ومحتوم به الكلم
خبم كرم ، واند بالندى هضم

أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ لَأُولَئِيَّةٌ هَذَا أَوْلُهُ نَعَمْ
مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ يَعْرِفُ أَوْلَئِيَّةَ دَا الَّذِينَ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأُمَمُ

هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ، فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة ، فبعث إليه علي بالف دينار فردها وقال ، إنما قلت ما قلت غضباً لله ولرسوله ، فما اخذ عليه أجراً . فقال علي ، نحن أهل بيت لا يعود إلينا ما أعطينا ، فقبلها الفرزدق وهجا هشاماً فقال ،
أَحْسَبُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالتِّي إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُنْيُهَا
يَقْلُبُ رَأْساً لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيْدٍ وَعَيْنَا لَهُ حَوْلَاءُ بَارِعِيوها
فأخبر هشام بذلك فاطلقه . ولكنه قطع راتبه من الديوان ، وكان ألف دينار سنوياً ، فاشتكى إلى الإمام فاعطاه اربعين ألف دينار وقال له ، لو كنت تحتاج إلى أكثر لاعطيتك . فعاش الفرزدق اربعين عاماً ثم مات رحمه الله تعالى .

رسالة الحقوق :

يبحث بعض الناس عن الدرجات العلى في الإيمان ويتساءلون ، كيف نجتهد حتى نصبح مؤمنين حق الإيمان ؟. لمثل هؤلاء كتب الإمام زين العابدين (ع) رسالة الحقوق التي تشرح واجبات المؤمن ومسؤولياته تجاه الخالق والناس ، وتحدد - بالتالي - طبيعة العلاقة القائمة على أسس متوازنة وعادلة ، وقد استهلّت الرسالة بما يلي ،

" أعلم - رحمك الله - أن لله عليك حقوقاً محبطة بك في كل حركة تحرّكتها ، أو سكتة سكنتها ، أو منزلة نزلتها ، أو جراحة قلبتها ، أو آلة تصرفت بها ، بعضها أكبر من بعض . واكبر حقوق الله عليك ما أوجب عليك نفسك من قرنك إلى قدمك ، على اختلاف جوارحك ، فجعل لبصرك عليك حقاً ، ولسمعك عليك حقاً ، ولللسانك عليك حقاً ، ولبيدك عليك حقاً ، ولرجلك عليك حقاً ، ولجلتك عليك حقاً ، ولفرجك عليك حقاً ، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال . ثم جعل لأفعالك عليك حقوقاً ، لصلاتك عليك حقاً ، ولصومك عليك حقاً ، ولصدقتك عليك حقاً ، ولهدئك عليك حقاً ، ولأفعالك عليك حقاً . ثم تُخرج الحقوق منك إلى غيرك من نوي الحقوق الواجبة عليك ، وأوجبها عليك حقاً انمك ، ثم حقوق رعيك ، ثم حقوق رجمك " ٤٦ .

ويستمر الإمام (ع) في بيان هذه الحقوق وفروعها ، ويبين مراراً خلالها العلاقة المثلوية بين الإنسان وبين الخلق والخالق . وسوف نستوحي من دراسة رسالة الحقوق البصائر التالية ،
أولاً ، أن حديث الإمام (ع) كان موحهاً للصفوة من أهل الإيمان ، الذين شروا الكمال وسعوا إليه سعيه ، لذلك تجد الحقوق المذكورة في هذه الرسالة ناعم بين الحقوق الواجبة والأخرى المندوبة . بل

(٤٦) في رحاب أئمة أهل البيت : (ح ٣ ، ص ٢١٦) .

إن أكثرهما من النوع الثاني .

ثانياً ، إن هذه الرسالة وأمثالها مما نجده عند أئمة أهل البيت (ع) في صيغة رسائل أو وصايا مفصلة ، والتي جمعها العالم الكبير الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في كتابه الفذ (تحف العقول) كانت بمثابة دروس مركزة في التربية الرسالية توارثها الصالحون من أولياء أهل البيت (عليهم السلام) بهدف بناء القدوات المظلى والطليعة المتميزة من أبنائهم ليكونوا شهداء على الناس .

وما لحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى العودة إليها في مناهج التربية ، وبالذات في الحوزات العلمية التي هي الامتداد الرسالي لخط أهل البيت النبوي (ع) .

ثالثاً ، إن هذه الرسالة تحافظ على توازن الشخصية الإيمانية وتصونها من التطرف نحو جانب من الشريعة وإهمال سائر الجوانب ، فلا بد أن تتسع صدورنا لكافة أبعاد الشريعة ، وضمن برامج محددة نجدها في مثل رسالة الحقوق .

وكلمة أخيرة ، إن هذه الرسالة تعكس البصيرة القرآنية ذات الشمول والعمق والدقة التي تتناسب ومقام الإمامة لسيد الساجدين (ع) ، والتي يعجز عن مثلها أي فقيه أو عالم إن لم يكن متصلاً برافد الرسالة الذي لا ينضب . فسلام الله على من أرسلها ، وبارك الله لمن استجاب لها .

كراماته وشهادته :

استفاضت كتب الأثر بالحديث القدسي الذي ينطق عن رب العزة بالقول ، " عبدي اطعني تكن مظلّي (أو مظلّي) أقول للنبي كن فيكون وتقول للنبي كن فيكون " .

وكتاب الله العزيز حافل بأمثلة واقعية من تاريخ الأنبياء والصالحين الذين استجاب الله دعائهم بما أعجز الناس . اليس طوفان نوح وسفينته ، ونيران إبراهيم التي جعلها الله تعالى برداً وسلاماً ، وعصا موسى التي القاهما فجعلها الله ثعباناً مبيئاً ، وحديث عيسى في المهد صبيّاً ، واستجابة دعاء إبراهيم ثم زكريا حينما رزقهما الله أولاداً وقد بلغا من الكبر عتياً . اليس كل ذلك من كرامة الله لأوليائه المخلصين ؟ . فلماذا يصعب على البعض تصديق كرامات أولياء الله الآخرين ، كما يصدقون بكرامات أولياء الله السابقين ؟ . وليس الحديث النبوي الشريف يقول ، " علماء أمّي كانبيا بني إسرائيل " ؟ . فكيف تصدق المعجزة على عهد بني إسرائيل بنص القرآن ، ولا تأتي الكرامة على يد أهل بيت الرسول ؟ .

وهذا علي بن الحسين (ع) ، الذي قرأنا معاً بعض صفاته ، أعزُّ على الله سبحانه أن يجري على يديه الكرامات ؟ ومن أولى بها ممن كان على مثل تلك الصفات ، قوَّام الليل ، صوَّام النهار ، بكاءً ، سجداً ، إلخ

ونحن إذ نفتطف من تاريخه (ع) نزرأ بيسيراً من كراماته ، فلكي نزداد يقيناً بأن ربنا سبحانه يستحب دعوة المخلصين من عباده الذين جأروا إليه بكل كياناتهم وأبعاد وجودهم .. ثم نزداد للأئمة من أهل

البيت (ع) حباً ، فإن حُبُّهم نَجاةٌ من النار ووسيلةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ .
١- من كراماته (ع) ، أن الله ألهمه من علمه عبر رؤيا شاهد فيها رسول الله (ص) ، ما اظهر كرامته وفضله . والقصة كما يلي :

روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال :
" لَمَّا وُلِّيَ عبد الملك بن مروان الخلافة كتب إلى الحجاج بن يوسف ،
بسم الله الرحمن الرحيم
من عبد الملك بن مروان امير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف .
اما بعد ، فانظر دماء بني عبد المطلب فاحقنها واجتنبها ، فإنني رايت آل ابي سفيان لما ولعوا فيها لم يلبثوا إلا قليلاً ، والسلام . قال ، وبعث بالكتاب سرّاً .
وورد الخبر على علي بن الحسين (ع) ساعة كتب الكتاب وبعث به إلى الحجاج ، فقيل له ، إنَّ عبد الملك قد كتب إلى الحجاج كذا وكذا ، وإن الله قد شكر له ذلك ، وثبَّت ملكه وزاده برهة .
قال ، فكتب علي بن الحسين (ع) :

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى عبد الملك بن مروان امير المؤمنين من علي بن الحسين بن علي .
أما بعد ، فإنك كتبت يوم كذا وكذا ، من ساعة كذا وكذا من شهر كذا وكذا بكذا وكذا . وإن رسول الله (ص) أنبأني وخبرني . وإن الله قد شكر لك ذلك وثبَّت ملكك وزادك فيه برهة .
وطوى الكتاب وختمه وارسل به مع غلام له على بعيره ، وأمره أن يوصله إلى عبد الملك ساعة يقدم عليه . فلما قدم الغلام أوصل الكتاب إلى عبد الملك ، فلما نظر في تاريخ الكتاب وجدده موافقاً لتلك الساعة التي كتب فيها إلى الحجاج ، فلم يشك في صدق علي بن الحسين (ع) وفرح فرحاً شديداً ، وبعث إلى علي بن الحسين (ع) بوقر راحلته دراهم ثواباً لما سرَّه من الكتاب " ٤٧ .

٢- وكذلك قصته مع ابي خالد الكابلي ، ويرويها الإمام الباقر (ع) كالتالي ،
" كان أبو خالد الكابلي يخدم محمد بن الحنفية دهرًا (وهو ابن الإمام علي ، وعم الإمام السجاد عليهما السلام) . وما كان يشك في انه إمام حتى أتاه ذات يوم ، فقال له ، جعلت فداك إن لي حرمة ومودة وانقطاعاً ، فإسالك بحرمة رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) إلا أخبرتني أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه ؟ قال ، فقال ، يا ابا خالد حلفتني بالعظيم . الإمام علي بن الحسين (ع) عَليَّ وعليَّ وعلى كلِّ مسلم . فاقبل أبو خالد لَمَّا أن سمع محمد ابن الحنفية ، وجاء إلى علي بن الحسين (ع) فلما استأذن عليه أخبر أن ابا خالد بالباب ، فاذن له .

(٤٧) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٤٤) .

فلما دخل عليه ودنا منه ، قال ، مرحباً يا كنكر . ما كنت لنا بزائر ما بد لك فينا ؟ .
فخر أبو خالد ساجداً شاكراً لله تعالى مما سمع من علي بن الحسين (ع) ، فقال ، الحمد لله الذي لم
يمتني حتى عرفت إمامي .

فقال له علي (ع) ، وكيف عرفت إمامك يا أبا خالد ؟ .
قال ، إنك دعوتني باسمي الذي سمّيتني به أمي التي ولدتني . وقد كنت في عمياء من أمري ، ولقد
خدمت محمد ابن الحنفية عمراً من عمري ولا أشك أنه إمام ، حتى إذا كان قريباً سألته بحرمة الله تعالى
وحرمة رسوله (ص) وبحرمة أمير المؤمنين (ع) فارشدني إليك ، وقال ، هو الإمام عليّ وعليك وعلى
جميع خلق الله كلهم . ثم أذنت لي فجئت فدنوت منك وسمّيتني باسمي الذي سمّيتني أمي ، فعلمت أنك
الإمام الذي فرض الله طاعته عليّ وعلى كل مسلم " ٤٨ .
٣- ويذكر الشيخ الطوسي القصة التالية أيضاً ،

خرج علي بن الحسين (ع) إلى مكة حاجاً حتى انتهى إلى والربيع بين مكة والمدينة ، فإذا هو برجل يقطع
الطريق ، قال ،

فقال لعلي إنزل .

قال ، تريد ماذا ؟ .

قال ، أريد أن اقتطع وأخذ ما معك .

قال ، فأننا أقاسمك ما معي وأجرك .

قال ، فقال اللص ، لا .

قال ، فدع معي ما أتبلغ به .

فلبى .

قال ، فلبين ربك ؟ .

قال ، نائم .

قال ، فإذا أسدّان مُقبِلان بين يديه فأخذ هذا براسه وهذا برجليه .

قال ، زعمت أن ربك عنك نائم " ٤٩ .

٤- ومن كراماته صلوات الله وسلامه عليه ، ما ظهر عند وفاته . فلقد توفي الإمام بعد أن دس إليه
الأمويون السم في عام (٩٤) في شهر محرم في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في اليوم الثامن
عشر . وفي تلك السنة توفي طائفة من الفقهاء حتى سميت سنة الفقهاء . ولست استبعد أن يكون النظام

(٤٨) المصدر : (ص ٤٦) .

(٤٩) المصدر : (ص ٤١) .

الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك قد دس السم إلى المعارضين وفيهم كبار الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير . وجاء في التواريخ أنه توفي في تلك السنة عامة فقهاء المدينة^{٥٠} .

وهل يعقل أن يموت كل الفقهاء في سنة واحدة صدفةً ، علماً بأن المعروف أن الإمام السجاد (ع) استشهد متأثراً بالسم الذي دسه إليه عبد الملك بن مروان في ظروف غامضة . وكيفما كان الأمر فقد ظهرت عند وفاته كرامات منه (ع) ، فقد لُغمي عليه فبقي ساعة ثم رفع عنه الثوب ثم قال ، " الحمد لله الذي أورثنا الجنة نخباً منها حيث نشاء فنعم أجر العاملين " ثم قال ، " احفروا لي (قبراً) وأبلغوا إلى الرسخ (الثابت من الأرض) ثم مد الثوب عليه فمات " ^{٥١} .

وظهرت بعد وفاته الكرامة التي ينقلها سعيد بن المسيب ، وبها نختتم هذه الصفحات المشرقة بحياة الإمام زين العابدين (ع) .

فقد روي عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، وعبد الرزاق ، عن معمر ، عن علي بن زيد قال :

قلت لسعيد بن المسيب إنك أخبرتني أن علي بن الحسين النفس الزكية وإنك لا تعرف له نظيراً ؟ .

قال : كذلك ، وما هو مجهول ما أقول فيه . والله ما رأي مثله .

قال علي بن زيد ، فقلت ، والله إن هذه الحجة الوكيدة عليك يا سعيد فلم لم تصل على جنازته ؟ .

فقال : إن القراء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين (ع) . فخرج وخرجنا معه الف راكب ، فلما صرنا بالسقيا نزل فصلّى وسجد سجدة الشكر ..

وفي رواية الزهري ، عن سعيد بن المسيب قال :

كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين . فخرج (ع) فخرجت معه فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين فسبح في سجوده ، فلم يبق شجر ولا مدر إلا سبّحوا معه ، ففزعنا .

فرفع رأسه وقال : يا سعيد افزعت ؟

قلت : نعم يا بن رسول الله .

فقال : هذا التسبيح الأعظم . حدثني أبي عن جدي عن رسول الله (ص) أنه قال ، لا تبقى الذنوب مع

هذا التسبيح ، فقلت : علمنا .

(٥٠) المصدر : (ص ١٥٤) نقلاً عن تذكرة الخواص : (ص ١٨٧) (طبعة إيران) وعن تاريخ ابن عسّاك .

(٥١) المصدر : (ص ١٥٣) .

وفي رواية علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب أنه ، سبج في سجوده فلم يبق حوله شجرة ولا مدرة إلا سبجت بتسبيحه ، ففزعت من ذلك وأصحابي .

ثم قال ، " يا سعيد إن الله جل جلاله لما خلق جبرئيل ألهمه هذا التسبيح فسبجت السماوات ومن فيهن لتسبيحه الأعظم . وهو إسم الله جل وعز الأكبر .
يا سعيد أخبرني أبي الحسين ، عن أبيه ، عن رسول الله (ص) عن جبرئيل ، عن الله جل جلاله أنه قال ،

ما من عبد من عبادي آمن بي وصدق بك وصلى في مسجدك ركعتين على خلاء من الناس إلا غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " .

فلم أر شاهداً أفضل من علي بن الحسين (ع) حيث حدثني بهذا الحديث . فلما أن مات شهد جنازته البر والفاجر ، وألقى عليه الصالح والطالح ، وانها لو يتبعونه حتى وضعت الجنازة فقلت ، إن أدركت الركعتين يوماً من الدهر فاليوم هو . ولم يبق إلا رجل وامرأة ، ثم خرجا إلى الجنازة ، وثبت لأصلي فجاء تكبير من السماء فاجابه تكبير من الأرض ، واجابه تكبير من السماء فاجابه تكبير من الأرض ، ففزعت وسقطت على وجهي ، فكبر من في السماء سبعا ومن في الأرض سبعا وصلي علي بن الحسين صلوات الله عليهما ودخل الناس المسجد فلم أدرك الركعتين ولا الصلاة علي بن الحسين صلوات الله عليهما ، فقلت ، يا سعيد لو كنت أنا لم اختر إلا الصلاة علي بن الحسين ، إن هذا لهو الخسران المبين ، فبكى سعيد ، ثم قال ، ما أردت إلا الخير ليتني كنت صليت عليه ، فإنه ما روي^{٥٢} مطه .

(٥٢) المصدر : (ص ١٤٩ - ١٥٠) .

الامام الباقر (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين - وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين - .
في فاتحة الحديث عن الإمام الباقر (ع) ينبغي أن نشير إلى نهجين متنافرين في تقييم حياة الأئمة والنهج القديم بينهما .
فهذا فريق يقيّمون حياة المعصومين عليهم السلام بمقياس السياسة . ومدى دورهم فيها . ويكاد تفسيرهم لعبادات الأئمة ، وعلومهم ، وأخلاقهم يكون أيضاً بمنظار سياسي .
بينما تجد أغلب المؤرخين لحياتهم عليهم السلام يختصرون حياتهم في حدود فردية ضيقة ، حتى يفصلونها من السياق الزمني لها .
وبين المنهجين حالة وسطى تجعل حياتهم ذات إشعاع فردي يتجاوز حدود الزمان والمكان .. وذات افق سياسي يتفاعل مع الظروف التاريخي الخاص به ..
بلى . الأئمة هم قدوات البشر ، ونسبة رجال السياسة إلى سائر الناس نسبة ضئيلة ، فلم يكن من المناسب أن يكون كل قدوات البشر في قمة السلطة حتى يكون سلوكهم مناراً لأمثالهم من أصحاب السلطة فقط ، بل كان من المعقول أن يكونوا في مختلف المستويات الإجتماعية حتى تتم حجة الله على خلقه بانفد ما يكون بلاغاً وقوة !
ولو كانوا كلهم في قمة السلطة لقال الناس إن مسيرتهم تخص أولي السلطة فحسب فما لنا للدخول في شأن السلاطين .
على أن بعضهم لا يزال يحاول التنصل من اتباع الأنبياء والأوصياء والصالحين ، بزعم أنهم ليسوا ببشر .. وبالتالي فهو لا يمكنه أن يتبع هداهم ، أو يقدر لحدنا أن يتمثل شخصية الملائكة ..
إلا أن ما نزل بانبيااء الله ولوصياهم من الضنك والأذى . وما تعرضوا له من السجن والتعذيب والتهجير والخوف وحتى القتل والأسر والتشهير .. كل ذلك دليل كونهم بشراً أمثالنا ميّزوا بالوحي والعزم والإعتصام بحبل الله ، وقال ربنا سبحانه :
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ ﴾ (الكهف/ ١١٠)
وقال :
﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ (ابراهيم/١١)

ولعل هذه الحكمة كانت أيضاً وراء إذن الله سبحانه بتعرض أوليائه لبعض الأذى ، لكي لا يرفعهم الناس إلى مستوى الألوهية فيهلكوا ، ولكي يرفع الله به درجاتهم عنده . ولكي لا يترك الدين البسطاء من الناس فراراً من الأذى .

ونحن إذ نشترع في الاستضاءة بسيرة الإمام الخامس من ثمة أهل البيت عليهم السلام ، والعلم السايح من قدوات الأئمة المعصومين عليهم السلام بجوار مقام السيدة زينب في الشام . نسال الله أن يتم نورنا به ويجعلنا من أشد تابعيه تمسكاً وأحسنهم عاقبة .. إنه ولي التوفيق .

الفصل الأول

الميلاد الميمون

ولد الإمام الباقر (ع) من والدين علويين هما الإمام السجاد (ع) ، وأم عبد الله بنت الإمام الحسن المجتبي (ع) ، وكانت ولادته قبل أربع سنوات من واقعة الطف الرهيبة . أي في عام ٥٧ من الهجرة . وكان ذلك الثالث من صفر أو العاشر في رجب ، (في ذلك اختلاف بين الرواة) . ولم يكن أكبر أبناء أبيه سنّاً ، إلاّ أنه كان لولاهم بالإمامة فنصبه والده لها اتباعاً لأمر رسول الله (ص) .

وقد سأل الزهري والده الإمام السجاد عن ذلك وقال : يا ابن رسول الله هلا لوصيت إلى أكبر أولادك ؟ قال : يا أبا عبد الله ليست الإمامة بالصغر والكبر ، هكذا عهد إلينا رسول الله ، وهكذا وجدنا مكتوباً في اللوح والصحيفة^١ .

وكانت أمّه — حسبما قال ، الإمام الصادق (ع) — صديقة لم يدرك في آل الحسن مثلها^٢ .

النشأة الطيبة :

عاش في ظل جده السبط الشهيد عليه السلام أربع سنوات ، وصيغت شخصيته الفذة بتلك الصبغة الإلهية التي تجلت في حياة السبط الشهيد ، ولا ريب أن مأساة كربلاء الفجيعة تركت طابعها على نفسية الإمام الباقر (ع) الذي رافق صورها وشاهدها لحظة بلحظة .. لأنه — حسب بعض الرواة — كان ممن حضرها مع سائر أبناء الأسرة الهاشمية .

ويعد تلك الفاجعة عاش الإمام (١٩) سنة و (٦٠) يوماً في ظل والده سيد الساجدين^٣ ، حيث كانت حياته الكريمة مثلاً أعلى للصبغة الربانية ، وظل شعاع تلك الحياة يضيء درب السالكين إلى الله .. حتى اليوم .

ومنذ باكورة حياته المباركة تجلت فيه ملامح الإمامة . وقد جاء في الحديث المأثور عن أبي الزبير محمد بن مسلم المكي قال : كنا عند جابر بن عبد الله فأتاه علي بن الحسين ومعه ابنه محمد وهو صبي ، فضمه جابر إليه فقال علي لابنه : قبّل رأس عمك فدنا محمد من جابر فقبل رأسه ، فقال جابر : من هذا ؟ وكان قد كفّ بصره — فقال له علي : هذا ابني محمد فضمه جابر إليه وقال : يا محمد ! محمد

(١) المصدر : (ص ٣٣٢) .

(٢) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٢١٥) .

(٣) المصدر : (ص ٢١٧) .

رسول الله (ص) يقرأ عليك السلام ، فقالوا لجابر ، كيف ذلك يا أبا عبد الله ؟
فقال ، كنت مع رسول الله (ص) والحسين في حجره وهو يلاعبه ، فقال ،
يا جابر يولد لابني الحسين ابن يقال له علي إذا كان - يوم القيامة - نادى مناد ليقيم سيد العابدین ،
فيقوم علي بن الحسين ، ويولد لعلي ابن يقال له محمد ، يا جابر إن رليت فاقراه مني السلام واعلم أن
بقائك بعد رؤيته يسير . فلم يعيش (جابر) بعد ذلك إلا قليلاً ومات . وبعد والده اضطلع بمقام الإمامة
العامة .

الإمامة وعلم الأنبياء :

عندما آلت شمس بني أمية إلى المغيب وضعفت سلطتهم بفعل الثورات الرسالية المتلاحقة .. وجد
الإمام الباقر (ع) فرصة لنشر معارف القرآن التي كانت مستوعبة في الصحيفة التي توارثها أهل البيت .
(ع) من رسول الله ..

في ذلك اليوم كان المجتمع الإسلامي بحاجة إلى معارف القرآن ، إنه قد اتسع في كل أفق وأصبح
خيمة تشمل شعوباً مختلفة وبقايا حضارات ، فعلى أي أساس نقيم هذا المجتمع الجديد .. وماهي قيمه
التوحيدية واطر الثقافة العامة وروح قوانينه في مختلف الحقول ..

بالأمس نشر الإمام السجاد (ع) راية التوحيد عبر ادعيته وابتهالاته . وصنع بها حياة المجتمع المسلم
وبالذات المجتمع الرسالي التابع لخط أهل البيت عليهم السلام .

أما اليوم فإن تلك القاعدة التوحيدية الرصينة قد رست ، ويأتي الإمام الباقر (ع) ليبني عليها صرح
المعارف . ويكمل الإمام الصادق (ع) ببيان المزيد من التفاصيل في الحكمة الإلهية والتفسير والفقه ..
ماهي المعارف التي نشرها الإمام الباقر (ع) وكيف استطاع إليها سبيلاً ؟

قد يسلك في طريق العلم من التجارب الجزئية صعوداً إلى القواعد العامة . وقد ننطلق من تلك القواعد
إلى المفردات الجزئية . وبينما السبيل الأول هو منهج عموم الناس في بلوغ العلم ، فإن المنهج الثاني هو
سبيل علم الأنبياء وأوصيائهم المتصلين بالوحي ، ومن هنا جاء في الحكمة الماثورة ، العلم نقطة كثرها
الجاهلون .

والأساس الظاهر لعلم الرسول وخلفائه المعصومين عليهم السلام ، هو القرآن المفسر بالحديث النبوي ،
ولكن الأساس الحقيقي هو نور العقل الذي يتوهج بالإيمان والإلهام في أفئدة العارفين بالله .. ذلك العقل
الذي أوتي الناس منه قدر ضئيل وأكمل الله لنبيه وأوصيائه نبيه . وإن توهج نور العقل عند أبناء البشر .
وتجليه في تلك المعارف الأولية التي يعرفها كل شخص ، وفي تلك القيم التي يتحاكم الناس إليها فيما
بينهم . وفي تلك الإضاعات التي نجدها عند طائفة من الناس دون غيرهم تجعلهم نوابغ وعظماء كبار ..

(٤) المصدر : (ص ٢٢٧) .

كل ذلك يهدينا إلى معنى العلم الكوني الذي يليق به ربنا في روع الصفوة من أوليائه .. وجاء في الحديث الشريف ، " العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء " .

وترى بعض الناس يتشكك في مثل هذا العلم عند الأنبياء والأئمة ، والمحدثين من فقهاء الأمة .. يستشهد بقول الله سبحانه ، ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام/ ٥٩) وقوله ، ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (النمل/ ٦٥)

حقاً إذا كان مراد هؤلاء أن الإنسان لا يعلم الغيب بصفة ذاتية ، فإنه حق لاربيب فيه ، ولكن ، إذا أرادوا أن الله لا يقدر على تعليم الغيب لبعضهم ، نقول ، بلى هو قادر ، اليس كلنا يعرف قدراً من العلم بالمستقبل ، فمثلاً أولسنا نعرف أننا نموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها . وإن الله يبعث من في القبور . وإن الشمس تشرق غداً وهي لا بد غاربة اليوم ؟ وعشرات من المعارف المستقبلية التي تشكل أكثر من نصف معلوماتنا وهي أساس العلم ، والهدف الأساسي منه ؟

والله سبحانه علم الإنسان ما لا يعلم ، والوحي جزء من علم الغيب الذي علمه ربنا لمن ارتضاه من عباده .. وقد قال ربنا سبحانه ، ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدٌ * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْصَرُّ إِلَىٰ ظَهْرِ رَحْمَتِهِ ﴾ (الحج/ ٢٦-٢٧)

وقال ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران/ ١٧٩)

وقال ، ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ آيَاتُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران/ ٤٤)

وأخيراً ، إن هؤلاء شككوا في " مدى " علم الأنبياء والأوصياء ، إنهم لم يستوعبوا كيف يمكن لبشر محدود أن يبلغ علم الحقائق من لدن رب العزة ، فهم ينطلقون في تكذيب هذا " المدى " من العلم من ذات المنطلق الذي كذب الأولون بالنبوة ، وهو الجهل بالمقام الذي جعل للإنسان الذي يتوجه إلى الله ويخلص له وجهه ، بيد أن هؤلاء " اضطروا " إلى الإعتراف بالنبوة ، ولما عرفوا إبعادها فقلصوها إلى أقل قدر ممكن ، وحاولوا الكفر بمعاجز الأنبياء وبمقاماتهم الرفيعة لأنى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وإذ لعجزتهم الحيلة في ذلك عمدوا إلى الأوصياء فنفوا كرامتهم على الله ، وإمكانية تلقيهم العلم من مصدر الغيب إلهاماً ، وإذا انصفوا أنفسهم وانصفوا للحق لما وجدوا مانعاً عقلياً من الإعتراف بذلك ، بعد أن توافرت أدلة بالغة القوة تهديهم إليه من خلال دراستهم لكلماتهم من دون تعصب لعمى أو لحكام مسبقة .

وقد ابطل الإمام الباقر (ع) ، شأنه شأن سائر الأئمة عليهم السلام بنمطين متنافرين من الناس ، فبيدما زعم بعضهم أنه ليس من البشر وبذلك مرق من الدين بسبب غلوه ، نجد كثيراً من الناس لم يعترفوا بمقامه الكريم .

من النمط الأول كان المغيرة بن سعيد الذي غلا في الدين وكذب على الإمام الباقر (ع) ، حتى قال عنه الإمام لبعض أصحابه (سليمان اللبان) ، اتدري ما مثل المغيرة بن سعيد ، قال قلت ، لا .

قال ، مثله مثل بلعم الذي لوتي الاسم الأعظم الذي قال الله ﴿ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخْ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ ﴾ . (الاعراف/١٧٥)

لما النمط الثاني فهم لغلب الدين لم يحتملوا علم الإمام ومعرفته بما لا يعرفون ، وكرامته على الله ، واستجابة الله دعائه في الأمور ١١

فهؤلاء لا ينكرون فضائل أهل البيت عليهم السلام فقط ، بل ويرون أنها من المستحيلات ، لماذا ؟ لأنهم لما يبلغوا معرفة أنبياء الله ولوليائه عليهم صلوات الله ومعرفته كرامتهم على الله . ولو كانوا يتفكرون في خلق الإنسان وكيف استخلفه الله في الأرض ، وسخر له ما فيها بما آتاه من علم وقدره ، لعرفوا أن من حكمة الله سبحانه أن يفضل بعض الناس على بعض في العلم ، وليهب لمن لطاعه واخلص له المزيد من المعرفة سواء عبر الوحي كالرسل أو عبر الإلهام ، كما فعل بلوصياء الرسل .

ثم إن ما أوحى به الله من الكتاب فيه أفاق من العلم لا يبلغها إلا من امتحن الله قلبه بالإيمان ، لأنه نور الله الذي يشع من مشكاة النبوة . إنه ذكر الله الذي يرتفع من بيوت الأوصياء كما قال سبحانه ،

﴿ ٱللَّهُ نُوْرُ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِىهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلْزُجَاجَةُ كَأَنَّ ٱلْكَوْكَبَ ٱلذِّى هُوَ ٱلْقَوْسُ ٱلَّذِى فِى ثُبُوتٍ أَذِينَ ٱللَّهُ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِىهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِىهَا ٱلْأَلْفُ ٱلْأَحْمَالُ * رِجَالٌ لَا تُلَهِىهِمْ بِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللهِ ﴾ (النور/٣٦-٣٧) .

ثم قال ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور/٤٠) .
هكذا نور الله الذي منح جزءاً بسيطاً منه للإنسان ، فإذا به يعرف علماً يسخر به كل شيء من حوله ، إنه لو سلب منه ترى ماذا يبقى له ؟ هل يستطيع أنذر أن يعرف شيئاً . فلو اجتمعت البشرية وحاولوا إعادة مجنون إلى رشده . أو شيخ مخرف إلى سابق علم ، أو تعليم هرة دروس الرياضيات ، هل استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؟ كلا .. فلماذا ينكرون على الله الذي منح البشر هذا النور أن يكون قادراً على مضاعفته لخيرة عبادته ؟

هكذا نعرف أن الوحي والإلهام هما في إطار سنن الله في خلقه ، يقبلهما العقل ويطنن إلهما القلب . وعلم أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يخرج من دائرة هذه السنن أيضاً ، فإما أنه مستوحى من الوحي أو بالإلهام .

ويتصل علم الأئمة بالوحي عبر السبل التالية ،

(٥) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٣٣٢) .

أولاً ، العلم من كتاب الله . بالتدبر فيه وتلويل آياته على الحقائق والوقائع . ليس في القرآن علم ما كان وما يكون ، وفصل ما هو كائن ، ومن أولى بكتاب الله ممن أنزل في بيوتهم وزقوا علمه مع اللبث زقاً .

وقد كان الأئمة عليهم السلام شديدي الوله بالقرآن ، عظيمي الإحترام له ، وكانوا يختصونه في كل ثلاثة أيام مرة ، وربما في كل يوم ، وكانوا يقولون انهم يستفيدون منه علماً جديداً كلما لعادوا قرأته حتى انهم استفادوا علم الأفاق من آياته الكريمة ، فقد قال الإمام الصادق (ع) - فيما روي عنه - ،

والله اني - اعلم ما في السماوات واعلم ما في الأرض واعلم ما في الدنيا واعلم ما في الآخرة - .

فراى تغيير جماعة - فقال وهو يخاطب بكير بن أعين ،

يا بكير اني لأعلم ذلك من كتاب الله تعالى إذ يقول ، ﴿ وَزَلَّنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَّاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^٦

ثانياً ، أحاديث الرسول (ص) والتي توارثوها من آبائهم عبر جدهم الأعلى الإمام أمير المؤمنين ، وجدتهم الطاهرة فاطمة الزهراء عليهم السلام جميعاً .

فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر (ع) انه قال لجابر بن عبد الله ،

يا جابر إنا لو كنا نحدثكم برليناً وهواناً لكنا من الهالكين ، ولكننا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وورقهم .

ومعروف ان خزان علم النبوة كانت قد انتقلت إلى رسول الله . وورثها اهل بيته (ع) . ويبدو انها كانت مكنونة في جفر عظيم .

حيث جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق (ع) انه قال ، ان عندي الجفر الأبيض .

فلما ساله الرواي واي شيء فيه ؟ قال ،

زيور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم والحلال والحرام ومصحف فاطمة ، ما أزعج أن فيه قرآناً ، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ، ولا نحتاج إلى احد ، حتى ان فيه الجُلدة ونصف الجُلدة وثُلث الجُلدة وربع الجُلدة وأرْشُ الخدش ، الحديث^٨ .

وكان في هذا الجفر مجموعة تراث اهل البيت من أحاديث النبي .

منها مصحف فاطمة وهو مجموعة أحاديثها التي كتبتها الإمام أمير المؤمنين (ع) في صحيفة ، وحسب ما جاء في رواية ان فيه ما يكون من حوادث واسماء من يملك إلى ان تقوم الساعة .

كما ان من تراثهم كتاب يسمى بالجامعة ، وهو من إملاء رسول الله (ص) وكتابة أمير المؤمنين (ع)

(٦) بحار الأنوار : (ج ٢٦ ، ص ٢٨) .

(٧) المصدر . (ص ٢٨) .

(٨) المصدر : (ص ٣٧) .

(٩) المصدر : (ص ٣٧) .

طوله سبعون ذراعاً وفيه لحكام الشريعة كلها .

هكذا جاء في حديث مروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال : سمعته يقول وذكر ابن بسطمة في مسألة أفتم بها : أين هو من الجامعة إمام رسول الله بخط علي فيها جميع الحلال والحرام حتى أرش الخدش .

وهذا التراث العلمي كان ينتقل من أئمة أهل البيت عليهم السلام من كابر لكابر ، ووجوده عند واحد من أبناء الإمام الراحل كان شاهداً على أنه وصيه . لذلك نقرا في تاريخ الإمام الباقر (ع) أن والده الإمام السجاد (ع) التفت إلى ولده وهو في مرض الموت وهم يجتمعون عنده ، ثم التفت إلى محمد بن علي ابنه . فقال ،

يا محمد هذا الصندوق فإذهب به إلى بيتك ثم قال .. أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم ولكنه كان مملوفاً علماً .

ونشأ ، كيف تجتمع أحكام الشريعة كلها في كتاب محدود طوله سبعون ذراعاً؟ لعل ذلك الكتاب كان محتوياً على أصول العلم ومعاقله وضيائه ، حيث كان الأئمة عليهم السلام يستلهمون منها سائر أبواب العلم . كما علم النبي (ص) الإمام علياً (ع) أبواب العلم جميعاً بهذه الطريقة ، حيث جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) : أوصى رسول الله إلى علي بالف كلمة يفتح كل كلمة ألف كلمة^{١١} .

وفي تعبير آخر جاء على لسان الإمام الباقر (ع) عن جده أمير المؤمنين أنه قال : لقد علمني رسول الله ألف باب يفتح كل باب ألف باب^{١٢} .

وهكذا بين الأئمة أن عندهم أصول العلم ومعاقله مما يظهر أنها هي التي في تراثهم من الرسول (ص) ، فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر (ع) أنه قال : " إن رسول الله أنال في الناس وأنال وأنال ، وأنا أهل بيت عندنا معاقل العلم ، وأبواب الحكم ، وضياء الأمر .. " .

وفي حديث مأثور عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : " إن رسول الله قد أنال في الناس وأنال وأنال ، - يشير كذا وكذا - وعندنا أهل البيت أصول العلم وعراة وضيأوه وأولخيه " ^{١٣} .

علم الإلهام :

إذا كان العلم نور الله يقذفه في قلب من يشاء فما الذي يمنع عن قذف نور العلم في قلب أوليائه ،

(١٠) المصدر : (ص ١٨) .

(١١) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٢٢٩) .

(١٢) بحار الأنوار : (ج ٢٦ ، ص ٢٩) .

(١٣) المصدر : (ص ٣١) والأراخي جمع أوعية وهي ما يشد به الدابة أي ما يحفظ به العلم .

هكذا كان من مصادر علم الأئمة عليهم السلام الإلهام ، والذي ترافقه سكونية تجعلهم يتقنون بأنه من عند الله .

كذلك روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال ، إن علمنا غابر ومزيور ونكت في القلب ونقر في الأسماع ، قال ، أما الغابر فما تقدم من علمنا ، ولما المزيور فما يأتينا ، ولما النكت في القلوب فاللهام ، وأما النقر في الأسماع فإنه من الملك .

وروي زرارة مثل هذا الحديث وأضاف ، قلت كيف يعلم أنه كان الملك ولا يخاف من الشيطان إذا كان لا يرى الشخص قال ..

إنه يلقي عليه السكونية فيعلم أنه من الملك ، ولو كان من الشيطان اعتراه الفزع . وإن كان الشيطان — يائره — لا يتعرض لصد هذا الأمر^{١٤} .

وعلم الإمام الباقر (ع) — كما سائر أئمة الهدى انبعث من هذه الروايات ، فلم يكن غريباً ، ما أظهر الله على لسانه من معارف الدين حتى قال الشيخ المفيد (قدس سره) . لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن وسيرة وفنون الآداب ما ظهر عنه^{١٥} .

من هنا ترى عظماء الفقه والحديث يعترفون بالمصدر الإلهي لعلمه الغزير ، فقد جاء في كشف الغمة عن الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنايدي في كتابه معالم العترة الطاهرة عن الحكم بن عتيبة (وكان من كبار فقهاء عصره) انه قال في تفسير قوله تعالى ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر/٧٥) . قال ، كان والله محمد بن علي منهم^{١٦} .

وحكي عن أبي نعيم في كتابه الحلية انه سال رجل ابن عمر عن مسألة فلم يدر ما يجيبه ، فقال اذهب إلى ذلك الغلام فسله وأعلمني بما يجيبك ، وأشار إلى الباقر (ع) فسأله فاجابه فانجد ابن عمر فقال ، إنهم أهل بيت مفهومون^{١٧} .

والتعبير بكلمة مفهومون كان شائعاً في ذلك العصر ، وكان يعني أنهم مؤيدون من عند الله يلقي عليهم الرب علماً بالإلهام .

ولذلك ترى من العلماء من يقصدونه من كل افق بحثاً عن علمه الإلهي حتى روي عن عبد الله بن عطاء انه قال ، ما رأيت العلماء عند أحد قط اصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (ع) ، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه كأنه صبي بين يدي معلمه^{١٨} .

(١٤) المصدر : (ص ٦٠)

(١٥) في رحاب أئمة أهل البيت في سيرة الباقر : (ص ٧) .

(١٦) المصدر : (ص ٦) .

(١٧) المصدر .

(١٨) المصدر .

وقد روى عنه محمد بن سلم ذلك الفقيه المتبحر ثلاثين ألف حديث ، أما جابر الجعفي فقد قال ، حدثني أبو جعفر سبعين ألف حديث لم يحدث أحداً أبداً^{١٩} .
ولأن الظروف السياسية كانت تتسم ببعض الانفراج فلقد تسنى للإمام أن يحاجج الكثير من المخالفين له ويعيدهم إلى جادة الصواب ، والتاريخ يسجل لنا بعض تلك الاحتجاجات ، وننقل شيئاً منها لتكون شاهدة على ما وراءها من الحجج البالغة .

١- لقد كان عبد الله بن نافع بن الأزرق واحداً من قادة الخوارج الذين كانوا أشد الفرق عداءً للإمام علي (ع) وأهل بيته ، وكان يقول ، لو أني علمت أن بين قطريها لحداً تبليغي إلى المطايا يخصمني أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحلت إليه ، فليل له ولا ولده ، فقال أفي ولده عالم فقيل له هذا أول جهلك أو هم يخلون من عالم ؟ قال فمن عالمهم اليوم ؟ قيل محمد بن علي بن الحسين بن علي ، فرحل إليه في صناديد أصحابه حتى أتى المدينة ، فاستأذن على أبي جعفر فقيل له هذا عبد الله بن نافع ، قال ، وما يصنع بي وهو يبرأ مني ومن أبي طرفي النهار ، فقال له أبو بصير الكوفي ، جعلت فداك ، إن هذا يزعم أنه لو علم أن بين قطريها لحداً تبليغي إلى المطايا إليه يخصمه أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه ، فقال له أبو جعفر ، أترأه جاعني مناظراً ؟ قال ، نعم ، قال ، يا غلام ، أخرج فحط رحله ، وقل له إذا كان الغد فانتنا ، فلما أصبح عبد الله بن نافع غداً في صناديد أصحابه وبعث أبو جعفر إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار فجمعهم ، ثم خرج إلى الناس وأقبل عليهم كأنه قلعة قمر فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (ص) ثم قال ، الحمد لله الذي أكرمنا بنبوته واختصنا بولايته ، يا معشر أبناء المهاجرين والأنصار من كانت عنده منقبة لعلي بن أبي طالب فليقم وليتحدث ، فقام الناس فسرودوا تلك المناقب فقال عبد الله أنا أروي لهذه المناقب من هؤلاء ، وإنما أحدث علي الكفر بعد تحكيمه الحكمين " حتى انتهوا إلى حديث خيبر لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، كرراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله علي يديه " فقال أبو جعفر (ع) ما تقول في هذا الحديث ؟ قال ، هو حق لا شك فيه ولكن أحدث الكفر بعد ، فقال له أبو جعفر ، ثكلتك أمك ، أخبرني عن الله عز وجل أحب علي بن أبي طالب يوم أحبه وهو يعلم أنه يقتل أهل النهروان أم لم يعلم ، فإن قلت لا كفرت ، فقال ، قد علم ، قال ، فالحبه الله على أن يعمل بطاعته أو على أن يعمل بمعصيته ، فقال ، على أن يعمل بطاعته ، فقال له أبو جعفر ، فقم مخصوماً ، فقام وهو يقول حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

٢- وكان قتادة من أبرز فقهاء البصرة ولكنه كان يتشوق إلى رؤية الإمام الباقر (ع) ومناظرته ، حيث كانت المدينة المنورة حاضرة الفقه والتفسير وسائر المعارف الإلهية ، ولذلك فقد انتشر علم الإمام إلى

(١٩) المصدر .

(٢٠) المصدر : (ص ٩) .

كل الأفاق ..

من هنا جاء قتادة إلى المدينة يسأل عن الإمام فلما رآه قال له الإمام ، أنت فقيه أهل البصرة ؟ قال ، نعم ، فقال ، ويحك يا قتادة إن الله عز وجل خلق خلقاً فجعلهم حججاً على خلقه فهم أوتاد في أرضه ، قوام بامرهم ، نجباء في علمه ، اصطفاهم قبل خلقه ، أظلة عن يمين عرشه . فسكت قتادة طويلاً ثم قال ، اصلحك الله ، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام أحد منهم ما اضطرب قدامك ، فقال له أبو جعفر ، أتدري أين أنت ؟ أنت بين يدي بيوت إبن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فانت ثم ونحن أولئك . فقال له قتادة ، صدقت والله جعلني الله فداك ما هي بيوت حجارة ولا طين ، قال ، فأخبرني عن الجبن ، فتبسم أبو جعفر وقال ، رجعت مسألك إلى هذا ، قال ، ضلت عني ، فقال ، لا بأس به ، فقال ، إنه ربما جعلت فيه أنفحة الميت ، قال ، ليس بها بأس إن الأنفحة ليس لها عروق ولا فيها دم ولا لها عظم ، إنما تخرج من بين فرث ودم ، ثم قال ، وإنما الأنفحة بمنزلة دجاجة ميتة أخرجت منها بيضة فهل تاكل تلك البيضة ؟ قال قتادة ، لا ولا أمر بأكملها فقال له أبو جعفر ، ولِمَ ؟ قال ، لأنها من الميتة ، قال له ، فإن حضنت تلك البيضة فخرجت منها دجاجة أكلتها ؟ قال ، نعم قال ، فما حرم عليك البيضة ولحل لك الدجاجة ، ثم قال ، فذلك الأنفحة مثل البيضة فاشتر الجبن من أسواق المسلمين من أيدي المصلين ولا تسال عنه إلا أن ياتيك من يخبرك عنه ^{٢١} .

٣- وقد بث الإمام من علمه بين الناس حتى سمي بأقراً ، فقد جاء في لسان العرب أنه لقب به (أي بالباقر) لأنه بقر العلم ، وعرف أهله واستبسط فرعه وتوسع فيه . والتبقر التوسع ^{٢٢} .

وقال ابن حجر في صواعقه المحرقة ، سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها وأثار مخبأها ومكامنها ، فذلك هو أظهر من مخبأة الكنوز والمعارف ، وحقائق الأحكام والحكم ، ولطائف ما لا يخفى إلا على متطعمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة ، ومن ثم قيل فيه هو باقر العلم وجامعه وشاھر علمه ^{٢٣} ورافعه .

وقد أفاض الإمام على المسلمين من علمه عبر تربيته لطائفة عظيمة من الفقهاء والمفسرين وحكماء المعارف الإلهية ، من أمثال جابر بن يزيد الجعفي ، ومحمد بن مسلم ، وأبان بن تغلب ، ومحمد بن إسماعيل بن زريع ، وأبو بصير الأسدي ، والفضيل بن يسار وآخرين .

كما أنه نشر العلم عبر من روى عنه من علماء عصره من أمثال ، ابن المبارك ، والزهري ، والأوزاعي . وأبي حنيفة ومالك والشافعي وزيد بن المنذر الهندي والبطري والبلاذري والاسلامي

(٢١) المصدر : (ص ١٠ / ١١) .

(٢٢) المصدر : (ص ٤٠) .

(٢٣) المصدر .

وكان الولاة يجارون إلى اهل بيت الرحمة كلما دهمتهم داهمة ، وبالرغم من الصراع الحاد القائم بين الطرفين لم يدخر الأئمة عليهم السلام وسعاً في خدمة الإسلام وإنقاذ الأمة من الأخطار المحيطة بهم . من ذلك ما يتقل لنا التاريخ من ورطة وقع فيها الخليفة الأموي عبد الملك حسبما ذكره إبراهيم بن محمد البيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ حيث نقل عن الكسائي انه قال ،

دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في (إيوانه وبين يديه مال كثير قد تشق عنه البدر شقاً ، وأمر بتغريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً ما يحدثني فقال ، هل علمت لول من سن هذه الكتبة في الذهب والفضة ؟ قلت يا سيدي هو عبد الملك بن مروان ، قال ، فما كان السبب في ذلك ؟ قلت ، لا علم لي غير انه أول من أحدث هذه الكتبة ، فقال ، ساخرك ، كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانيا على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية ، وكان طرازها أباً وأبناً وروحاً قدسياً فلم يزل ذلك كذلك وصدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى ان ملك عبد الملك فتنبه له وكان فطناً ، فبينما هو ذات يوم إذ مر به قرطاس فنظر إلى طرازه فامر ان يترجم إلى العربية ففعل ذلك ، فانكره وقال ، ما اغلظ هذا في الدين والإسلام ، ان يكون طراز القراطيس بمصر وهي تحمل في ألوانها والثياب ، فتدور في الأفاق والبلاد وقد طرزت بشرك مثبت عليها ، فامر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، وأن يأمر صنّاع القراطيس بأن يطرزوها بسورة التوحيد ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آل عمران/ ١٨) ، وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير ، وكتب إلى عمال الأفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب والجوع والحبس الطويل ، فلما اثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحملت إلى بلاد الروم ، انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم ، فترجم له ذلك الطراز فانكره وغلظ عليه واستشطا غضباً فكتب إلى عبد الملك ، إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ، ولم يزل يطرز بطراز الروم إلى ان أبطلته ، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت ، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا ، فأختر من هاتين الحالتين لهما شنت وأحببت ، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك وأحببت ان تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الأعلاق ، حاجة أشكرك عليها وتامر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر ، فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه ان لا جواب له ولم يقبل الهدية ، فأنصرف بها إلى صاحبه فلما وافاه أضعف الهدية ورد الرسول إلى عبد الملك وقال ، إني ظننتك استقلت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي ، فاضعفت لك الهدية وإذا أرغب

إليك في مثل ما رغبت فيه من رد هذا الطراز إلى ما كان عليه أولاً ، فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية ، فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كتبه ويقول ، إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقلت الهدية فاضعفتها فجريت على سبيلك الأول وقد اضعفتها ثالثة ، وأنا لطف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه أو لأمرن بنقش الدنانير والدرهم ، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلا ما ينقش في بلادي ، ولم تكن الدرهم والدنانير نقشت في الإسلام فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته لرفض جبينك له عرقاً ، فاحب أن تقبل هديتي ، وترد الطراز إلى ما كان عليه ، وتجعل ذلك هدية بررتني بها وتبقى على الحال بيني وبينك ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاعت به الأرض وقال ، احسبني اشام مولود ولد في الإسلام لأنني جنيت على رسول الله (ص) من شتم هذا الكافر ما يبقى غابراً ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب ، إن كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودرهمهم ، فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به ، فقال له روح بن زنياع ، إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكك تتعمد تركه ، قال ويحك من ؟ قال ، الباقر من أهل بيت النبي (ص) قال ، صدقت ولكن أرتج علي الرأي فيه فكتب إلى عامله بالمدينة أن أشخص إلي محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعاً بمائتي ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف درهم لتفكته ، وأزح علته في جهازه من يخرج معه من أصحابه ، واحتبس الرسول قبله إلى موافاته عليه ، فلما وافى أخبره الخبر فقال له الباقر (ع) ،

لا يعظمن هذا عليك فإنه ليس بشيء من جهتين ،

(احدهما) ان الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهددك به صاحب الروم في رسول الله (ص) .

(والأخرى) وجود الحيلة فيه ، قال ، وماهي ؟ قال ، تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون بين يديك سككاً للدرهم والدنانير ، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) ، احدهما في وجه الدرهم والدينار والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيه تلك الدرهم والدنانير ، وتعتمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل ، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل ، وكانت الدرهم في ذلك الوقت إنما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لأن راس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية في الإسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوش خر) أي كل هنيئاً ، وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً والدرهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السمريرية الخفاف والنقال ونقشها نقش فارس .

ففعل عبد الملك ذلك وأمره محمد بن علي بن الحسين أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام ، وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها وأن يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها ، وأن تبطل وترد إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكك الإسلامية ، ففعل عبد الملك ذلك ورد رسول ملك الروم إليه يعلمه بذلك ، ويقول : إن الله عز وجل مانعك مما قدرت أن تفعله وقد أقدمت إلى عمالي في إقطار البلاد بكنا وكنا وبإبطال السكك والطرارز الرومية ، فقبل لملك الروم إفعل ما كنت تهددت به ملك العرب فقال : إنما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه لأنني كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الآن فلا أفعل لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام وممتنع من الذي قال . وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم ثم رمى يعني الرشيد بالدرهم إلى بعض الخدم .

إن العلم الإلهي الذي حباه به الرب بما أخلص له في الطاعة ، واجتهد في سبيله بالدعاء والعمل ، إنه كان وراء إرشاده إلى السبيل الأفضل لمواجهة تهديد ملك الروم . وهذا العلم كان يميز الإمام الحق عمن ادعوا هذا المقام بغير حق ، سواء الولاة الظالمون أو العلويون الذين نازعوا الأئمة حقهم .

وهكذا نجد في تاريخ أهل البيت عليهم السلام كيف كان يقول شيعتهم عليهم بما لديهم من علم الدين والعلم بالحقائق الخفية بإذن الله ، وبالتوسم بنور الله وبتأييد ملائكة الله . وفيما يلي ننقل بعض الأحاديث التي تزيدنا معرفة بمقام الإمامة عموماً ودرجات الإمام الباقر (ع) بالذات .

فقد روى الحلبي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : دخل الناس على أبي (الإمام الباقر) وقالوا : ما حد الإمام ؟ قال : حده عظيم ، إذا دخلتم عليه فوقروه وعظموه وأمنوا بما جاء به من شيء ، وعليه أن يهديكم ، وفيه خصلة إذا دخلتم عليه لم يقدر أحد أن يملأ عينه منه إجلالاً وهيباً ، لأن رسول الله (ص) كذلك كان ، وكذلك يكون الإمام ، قالوا : فيعرف شيعته ؟ قال : نعم ساعة يراهم ، قالوا : فنحن لك شيعة ؟ قال : نعم كلكم قالوا : أخبرنا بعلامة ذلك قال : أخبركم باسماعكم وأسماء آبائكم وقبائلكم ؟ قالوا : أخبرنا ، فأخبرهم ، قالوا : صدقت ، (قال :) وأخبركم عما أردتم أن تسالوا عنه في قوله تعالى : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم/ ٢٤) نحن نعطي شيعتنا من نشاء من علمنا ، ثم قال : ينعكم ؟ قالوا : في دون هذا نقنع .

وينقل عبد الله بن معاوية الجعفري قصته مع والي المدينة ، الذي بعث عبره برسالة تهديد إلى الإمام الباقر (ع) ، فلم يابه بها الإمام لأن الله أطلعه على أنه معزول قريباً ، يقول ساعدنكم بما سمعته أذنائي وراته عيناى من أبي جعفر (ع) أنه كان على المدينة رجل من آل مروان وأنه أرسل إليّ يوماً فأتيته وماعنده

(٢٥) المصدر : (١٣ - ١٦) .

(٢٦) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٢٤٤) .

أحد من الناس ، فقال : يا معاوية إنما دعوتك لثقتي بك ، وإني قد علمت أنه لا يبلغ عني غيرك ، فالحببت أن تلقى عمي محمد بن علي وزيد بن الحسين (ع) وتقول لهما ، يقول لهما الأمير لتكفان عما يبلغني عنكما ، أو لتكران ، فخرجت متوجهاً إلى أبي جعفر فاستقبلته متوجهاً إلى المسجد فلما دنوت منه تبسم ضاحكاً فقال : بعث إليك هذا الطاغية ودعاك وقال : القَ عمي فقل لهما كذا ؟ قال : أخبرني أبو جعفر بمقالته كأنه كان حاضراً ، ثم قال : يا ابن عم قد كفينا امره بعد غد ، فإنه معزول ومنفي إلى بلاد مصر والله ما أنا بساحر ولا كاهن ، ولكني أتيت وحدثت ، قال : فوالله ما أتى عليه اليوم الثاني حتى ورد عليه عزله ونفيه إلى مصر وولي المدينة غيره ^{٢٧} .

أما أبو بصير الذي كان من خواص الإمام فإنه يروي قصته مع الإمام وكيف كان (ع) يراقبه ويؤدبه يقول ،

كنت أقرئ امرأة القرآن بالكوفة فمازحتها بشيء ، فلما دخلت على أبي جعفر عاتبني وقال : من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبا الله به ، أي شيء قلت للمرأة ؟ فغطيت وجهي حياءً وتبت فقال أبو جعفر ، لا تعد ^{٢٨} .

ويروي أبو بصير أيضاً كيف أخبر الإمام عن ملك بني العباس قبل سنين من توليهم السلطة فيقول ، كنت مع الباقر في مسجد رسول الله (ص) قاعداً حدثان ما مات علي بن الحسين (ع) إذ دخل الدوانيقي وداود بن سليمان قبل أن أفضي الملك إلى ولد العباس ، وما قعد إلى الباقر إلا داود فقال الباقر (ع) ، ما منع الدوانيقي أن يأتي ؟ قال : فيه جفاء ، قال الباقر (ع) ، تنهب الأيام حتى يلي أمر هذا الخلق ويطا اعتناق الرجال ، ويملك شرقها وغربها بطول عمره فيها حتى يجمع من كنوز الأموال ما لم يجتمع لأحد قبله ، فقام داود وأخبر الدوانيقي بذلك فاقبل إليه الدوانيقي وقال : ما منعني من الجلوس إليك إجلالك فما الذي خبرني به داود ؟ فقال : هو كائن ، قال : وملكتنا قيل ملككم ؟ قال : نعم ، قال : يملك بعدي أحد من ولدي ؟ قال : نعم ، قال : فمدة بني أمية أكثر أم مدة بني علي ؟ قال : مدتهم أطول ولتلقن هذا الملك سبائكم ويلعبون كما يلعبون بالكرة ، هذا ما عهدته إليّ أبي ، فلما ملك الدوانيقي ^{٢٩} تعجب من قول الباقر (ع) .

خصال الإمام :

لا يختار الله عبداً لمقام الإمامة . ويجعله حجة بالغة على خلقه إلا إذا اكتملت فيه الخصال الجيدة . وكان مثلاً لما أقر به سبحانه في كتابه من خشية الله وتوقيره . وتعظيمه وتجليه . وإخلاص العبودية له والتي تتجلى في جملة أقواله وأفعاله . فلا يقول إلا صواباً ولا يعمل إلا رشداً .

(٢٧) المصدر : (ص ٢٤٦) .

(٢٨) المصدر : (ص ٢٤٧) .

(٢٩) المصدر : (ص ٢٤٩) .

وإذا كنا ننقل بعض خصال الإمام الباقر (ع) الحميدة ، أو خصال أحد المعصومين عليهم السلام ، فلنكتفي بالشواهد الواضحة التي تدلنا على أمثالها ، وليس لأننا نريد أن تختصر كل حياة الإمام فيها . لو نحصى فضائله وخصاله الحميدة ، كلا .. لأننا نعرف سلفاً أن حياتهم كانت صورة واقعية عن القرآن الكريم ، بيد أن ما بلغنا منها لم يكن مستوعباً لجوانب حياتهم ، لأن جانباً منها انبهر به المؤرخون فآكثروا فيه الحديث واكتفوا بقياس سائر الجوانب عليه ، فمثلاً ذكروا من حياة الإمام السجاد جانب العبادة ، ولم يتحدثوا كثيراً عن جانب العلم ، بينما عكسوا الأمر فيما يتصل بحياة الإمام الباقر (ع) . وهكذا نكتفي ببعض الإشرافات التي وصلت إلينا من حياة الإمام ونترك للقارئ أن يقيس سائر أبعاد حياته عليها .

" قال : ابن شهر آشوب في المناقب " : كان اصدق الناس لهجة واحسنهم بهجة وإبدلهم مهجة ، وكان أقل أهل بيته مالاً وأعظمهم مؤونة ، وكان يتصدق كل جمعة بدينار ، وكان يقول الصدقة يوم الجمعة تضاعف لأفضل يوم الجمعة على غيره من الأيام ، وكان إذا حزنه أمر جمع النساء والصبيان ثم دعا فأمّنوا ، وكان كثير الذكر ، كان يمشي وإنه ليذكر الله ويأكل الطعام وإنه ليذكر الله ، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله عن ذكر الله ، وكان يجمع ولده فيأمرهم بالذكر حتى تطلع الشمس ، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منهم ومن كان لا يقرأ منهم أمره بالذكر ، ويأتي قول المفيد ، وكان فطاهر الجود في الخاصة والعامة مشهور الكرم في الكافة ، معروفاً بالفضل والإحسان مع كثرة عياله وتوسط حاله ، ويأتي عن سليمان بن دهم أنه عليه السلام كان يجيز بالخمسمائة درهم إلى الستمئة إلى الألف ، وكان لا يعمل من صلة إخوانه وقاصديه ومؤمليه وراجيه ، وكان إذا ضحك قال : اللهم لا تمقتني . وقال الأبى في كتاب نثر الدرر : كان إذا رأى مبطل أخفى الاستعاذة ، وكان لا يسمع من داره يا سائل بورك فيك ولا يا سائل خذ هذا وكان يقول : سموهم بلحسن أسمائهم .^{٣٠}

وحيثما يذكر أبو نعيم في كتابه الحلية الإمام يصفه بهذا النعت : الحاضر الذّاكر الخاشع الصّابر أبو جعفر محمد بن علي الباقر .^{٣١}

وكان من شدة خشوعه ما يذكره (أفلق) مولى أبي جعفر أنه قال : خرجت مع محمد بن علي حاجاً فلما دخل المسجد نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته ، فقلت : بابي أنت وأمي إن الناس ينتظرون إليك فلو رفعت بصوتك قليلاً^{٣٢} فقال لي : ويحك يا أفلق ولم لا أبكي لعل الله تعالى أن ينظر إليّ منه برحمة فافسوز بها عنده غداً ، قال (أفلق) ثم طاف بالبيت ثم جاء حتى ركع عند المقام فرفع رأسه من سجوده فإذا موضع سجوده مبتل من كثرة دموع عينه ويضيف أفلق قائلاً : كان إذا ضحك قال : اللهم

(٣٠) في رحاب أئمة أهل البيت سيرة الباقر : (ص ٦) .

(٣١) بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ٢٨٩) نقلاً عن حلية الأولياء : (ح ٣ ص ١٨٠) .

(٣٢) الظاهر خفضت والله العالم .

ويقول نجله الإمام الصادق (ع) وهو يصف تبيل والده إلى الله ، كان أبي كثير الذكر ، لقد كنت أمشي معه وأنه يذكر الله ، وأكل معه الطعام وأنه ليذكر الله ، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله . وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول ، لا إله إلا الله ، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ، ويأمر بالقرآن من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر ^{٣٤} .

ويقول الإمام الصادق (ع) :

إنني كنت أمهد لأبي فراشه فانتظره حتى يأتي ، فإذا لوى إلى فراشه ونام قمت إلى فراشي . وأنه أبطأ عليّ ذات ليلة فاتيت المسجد في طلبه وذلك بعدما هذا الناس ، فإذا هو في المسجد ساجد ، وليس في المسجد غيره وسمعت حنينه وهو يقول : سبحانك اللهم أنت ربي حقاً حقاً ، سجدت لك تعسداً ورقاً ، اللهم إن عملي ضعيف فضاعفه لي ، اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك ، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ^{٣٥} .

وكان (ع) شديد الحب لكتاب ربه ، عظيم الاهتمام به والتأثر بآياته ، حتى أن ليان بن ميمون القداح قال : قال لي أبو جعفر (ع) : اقرأ . قلت : من أي شيء أقرأ ؟ قال : من السورة التاسعة ؟ قال : فجمعت ارتمسها فقال : اقرأ من سورة يونس فقال .. قرأت ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ (يونس/٢٦) قال : حسبك ، قال : قال رسول الله (ص) : إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن ^{٣٦} .

وكان يستلهم من كتاب ربه معارف الدين حتى أنه يدعو الرواة أن يسألوه عن مصدر أقوالهم من القرآن ، هكذا يروي أبو الجارود قال : قال أبو جعفر (ع) : إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله . ثم قال : حتى حديثه أن الله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال ، فقالوا يا بن رسول الله وأين هذا من كتاب الله ؟ فقال : إن الله عز وجل يقول في كتابه ، ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ (النساء/١١٤) وقال ، ﴿ وَلَا تَوَثُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (النساء/٥) وقال ، ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ (المائدة/١٠١) ^{٣٧} .

وإذا سأل عن حاله استغل السؤال لتذكير نفسه والسائل بالله ، فقد روي أنه قيل لمحمد بن علي الباقر (ع) كيف أصبحت ، قال : " أصبحنا غرقى في النعمة ، موتورين بالذنوب ، يتحبب إلينا إلهنا

(٣٣) المصدر : (ص ٢٩٠) .

(٣٤) المصدر : (ص ٢٩٧) .

(٣٥) المصدر : (ص ٣٠١) .

(٣٦) المصدر : (ص ٣٠٣) .

(٣٧) المصدر : (ص ٣٠٣) .

بالنعم ، وندمقت إليه بالمعاصي ، ونحن نفتقر إليه وهو غني عنا " ٣٨ .

وكان (ع) شديد التسليم لأمر الله فقد روى بعض أصحابه أنه قال ، كان قوم أتوا أبا جعفر (ع) ، فوافوا صبياً له مريضاً ، فرأوا منه اهتماماً وغمماً ، وجعل لا يقر (قال) فقالوا ، والله لأن أصابه بشيء إننا نتخوف أن نرى منه ما نكره ، قال فما لبثوا أن سمعوا الصياح عليه ، فإذا هو قد خرج عليهم منبسطة الوجه في غير الحال التي كان عليها ، فقالوا له ، جعلنا الله فداك لقد كنا نخاف مما نرى منك أن لو وقع أن نرى منك ما يغمنا ، فقال لهم ، إنا لنحب أن نحافى في من نحب ، فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما يحب ٣٩ .

وكان (ع) لا يلويه عن العمل الصالح شيء . وفي ذلك رواية طريفة ينقلها بعض أصحابه حيث يقول ، - حضر أبو جعفر (ع) جنازة رجل من قريش وأنا معه ، وكان فيها عطاء فصرخت صارخة فقال عطاء ، لتسكنن أو لنرجعن ، قال ، فلم تسكت فرجع عطاء قال ، فقلت لأبي جعفر (ع) إن عطاء قد يرجع ، قال ، ولم ؟ قلت ، صرخت هذه الصارخة فقال لها ، لتسكنن أو لنرجعن ؟ فلم تسكت فرجع ، " فقال ، امضي بنا فلو أنا إذا رأينا من الباطل مع الحق تركنا له الحق لم نقض حق مسلم ، قال ، فلما صلى على الجنازة قال وليها لأبي جعفر ، أرجع ماجوراً رحمك الله فإنك لا تقوى على المشي ، فلبى أن يرجع ، قال فقلت له ، قد أدن لك في الرجوع ولي حاجة أريد أن أسالك عنها ، فقال ، امضي فليس بإنه مشينا ولا بإنه نرجع ، إنما هو فضل وأجر طلبناه فبقدر ما يتبع الجنازة الرجل يؤجر على ذلك .

أما معاشرته لإخوانه فقد كانت غاية في الأدب ، فمثلاً يحكي أبو عبيدة عن آداب عشرته في السفر فيقول ، كنت زميل أبي جعفر (ع) وكنت أبدا بالركوب ثم يركب هو " فإذا استويتا سلم وسال مسألة رجل لا عهد له بصاحبه ، وصافح ، قال ، وكان إذا أنزل نزل قبلي ، فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وسال مسألة من لا عهد له بصاحبه ، فقلت يابن رسول الله إنك تفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا ، وإن فعل مرة لكثير ، فقال ،

أما علمت ما في المصافحة ، إن المؤمنين يلتفتيان فيصافح أحدهما صاحبه فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر إليهما حتى يفترقان ٤١ .

وكان في تعامله مع الناس برّاً عفيفاً ، وكان يعفو عن السيئة أنى استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان لذلك أطيب الأثر في نفوس الناس ، فقد قال له نصراني يوماً ، أنت بقر قال ، لا أنا باقر قال ، أنت ابن الطباخة (يريد تعبيره بها) قال ، تلك حرفتها ، قال ، أنت ابن السوداء الزنجية الذئبة ؟ قال ، إن كنت صدقت

(٣٨) المصدر : (ص ٣٠٤) .

(٣٩) المصدر : (ص ٣٠١) .

(٤٠) المصدر : (ص ٣٠١) .

(٤١) المصدر : (ص ٣٠٢) .

غفر الله لها ، وإن كنت كذبت غفر الله لك ، فانهي النصراني باخلاقه ، ودعاه ذلك إلى الإسلام على يديه ^{٤٢} .

وقد كان تعامله مع المستضعفين يتميز بالشفقة والرفق ، وقد روي عن نجله الإمام الصادق (ع) انه قال ،

إذا استكملتم ما ملكت إيمانكم في شيء فيشق عليهم فاعملوا معهم فيه ، قال ، وإن كان أبي (الإمام الباقر عليه السلام) ليأمرهم فيقول كما أنتم ، فيأتي فينظر ، فإن كان ثقیلاً قال باسم الله ثم عمل معهم ، وإن كان خفيفاً تنحى عنهم ^{٤٣} .

وربما كان عمله في إصلاح حقله ومزرعته لهذه الجهة ، حيث كان الأئمة (ع) يرون الكدح والكد امرأً محبوباً يقرهم إلى الله .

في ذلك يروي أبو عبد الله الصادق أن محمد بن المكرر كان يقول ، ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً لفضل علي بن الحسين حتى رايت ابنه محمد بن علي ، فاردت أن اعظه فوعظني ، فقال له أصحابه ، بأي شيء يعظك ؟ قال ، خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيت محمد بن علي وكان رجلاً بديناً وهو متكئ على غلامين له أسودين أو موليين ، فقلت في نفسي ، شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا ، أشهد لأعظنه ، فدنوت منه فسلمت عليه ، فسلم عليٌّ بيهر وقد تصبب عرقاً ، فقلت أصلحك الله يا شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا ، لو جارك الموت وانت على هذه الحال ؟ قال ، فخلت عن الغلامين من يده ، ثم تساند وقال ، لو جاعني والله الموت وأنا في هذه الحال جاعني وأنا في طاعة من طاعات الله تعالى أكف بها نفسي عنك وعن الناس ، وإنما كنت أخاف الموت لو جاعني وأنا على معصية من معاصي الله ، فقلت ، يرحمك الله اردت أن اعظك فوعظتني ^{٤٤} .

وكان يمكن الإمام أن يستخدم عبيده في امر إصلاح أرضه ، إلا أنه أحب أن يراه الله كاداً في سبيل إعاشة عياله .

ونختتم حديثنا عن عشرة الإمام بحديث يروي الإمام الصادق (ع) يقول ، اعتق أبو جعفر من غلامانه عند موته شرارهم وامسك خيارهم . فقلت ، يا أبتة تعتق هؤلاء وتمسك هؤلاء ؟ فقال ، إنهم قد أصابوا مني حَزْماً فيكون هذا بهذا ^{٤٥} .

(٤٢) المصدر . (ص ٢٨٩)

(٤٣) المصدر : (ص ٣٠٣)

(٤٤) المصدر . (ص ٢٨٧)

(٤٥) المصدر . (ص ٣٠٠)

هكذا ضرب الإمام أروع الأمثلة في الخصال الحميدة والآداب الرفيعة ، ولا ريب أن الرواة لم ينقلوا لنا إلا
نزرًا يسيرًا من جوانب حياته التي تفيض بالحكمة والرشاد .. فسلام الله عليه أبدأً وصلاته عليه دائماً
سرمداً .

الفصل الثاني

الامام وعصره

من خلال مراجعة سريعة لعصر الإمام الباقر (ع) نعرف أن هدوءاً غاضباً كان يسوده قبل أن تهدر العاصفة الثائرة ، التي اطلحت بالحكم الأموي بعد وفاة الإمام الباقر (ع) ، وحملت إلى الساحة النظام العباسي في عهد الإمام الصادق (ع) .

ومن خلال الشواهد التي نستوحيها من قصص حياته (ع) نتلمس ملامح ذلك العصر .. وكيف أن إرهابات العاصفة كانت ظاهرة هنا وهناك .

أولاً ، الشاهد الأول ظاهرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي قاد ثورة إصلاحية من قمة هرم فمع النجاح الجزئي الذي كسبه هذا الخليفة . إلا أنه لم ينجح لسببين :

الأول ، لأنه جاء متأخراً جداً إذ أن الفرق الإسلامية التي تبنت معارضة الحكم الأموي كانت راسخة الجذور في الأمة .. ولم تكن تتخضع بهذه اللعبة السياسية . وفي طليعتها شيعة أهل البيت عليهم السلام ، الذين كان وعيهم بالسياسة إلى درجة لم يكن بإمكان ابن عبد العزيز أو عبد الله المأمون أن يؤثر فيهم ، وذلك بفضل ثقافتهم القرآنية . وتوعية الأئمة بحقائق الإسلام . ومن أبرزها أن الحكم ليس بالوراثة أو القوة ، وإنما هو بامر الدين ، فهذا هو الإمام الباقر (ع) يقول لأصحابه أن أهل السماء يلعنون عمر بن عبد العزيز - وذلك حتى قبل توليه السلطة - لنستمع إلى الحديث التالي :

روى أبو بصير قال : كنت مع الباقر في المسجد إذ دخل عمر بن عبد العزيز ، وعليه ثوبان ممصران متكتناً على مولى له ، فقال :

لَيْكِنَّ هَذَا الْغُلَامُ فِيظْهَرُ الْعَدْلَ ، وَيُعِيشُ أَرْبَعَ سَنِينَ ثُمَّ يَمُوتُ فَيُكْبَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ وَيَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ : يَجْلِسُ فِي مَجْلَسٍ لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ مَلَكَ وَظَهَرَ الْعَدْلَ جَهْدَهُ .^{٤٦}

هكذا يعتبره الإمام ملحوناً لأنه قد جلس في مقام الخلافة الذي لا يحق له الجلوس فيه أبداً .

صحيح أن ابن عبد العزيز أعاد فدكاً إلى البيت العلوي ، وكانت فدك رمزاً لظلامه أهل البيت ، وكان ردها دليلاً عند الناس على صدق مذهبهم .

إلا أن الأئمة لم يعاوبوا بذلك ولم يعتبروه كافياً لحسن سلوك النظام ، لأن النظام كان أساسه باطلاً ،

(٤٦) المصدر : (ص ٢٥١) .

وكانت حركة الأئمة تستهدف إصلاح المجتمع من جذوره كما يفعل الأنبياء (ع) .
والحديث التالي يكشف عن طريقة تفكير طليعة الأمة فيما يتعلق بنظام عمر بن عبد العزيز ، دعنا
نستمع إليه .

فقد روي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بخراسان أن لوفد إليّ من علماء بلادك مائة رجل
أسألكم عن سيرتكم ، فجمعهم عامله وقال لهم ذلك ، فاعتذروا وقالوا إن لنا عيالاً وأشغالاً لا يمكننا
مفارقتهم ، وعدله لا يقتضي إجبارنا ، ولكن قد أجمعنا على رجل منا يكون عوضاً عنده ، ولساننا لديه ،
فقله قولنا ، ورايه راينا فأوفد به العامل إليه ، فلما دخل عليه سلم وجلس ، فقال له : أخل لي
المجلس ، فقال له : ولم ذلك ؟ وأنت لا تخلو أن تقول حقاً فيصدقك ، لو تقول باطلاً فيكذبوك فقال له :
ليس من لجلي أريد خلو المجلس ، ولكن من لجلك ، فإني أخاف أن يدور بيننا كلام تكره سماعه .
فامر بإخراج أهل المجلس ثم قال له : قل ! فقال : أخبرني عن هذا الأمر من أين صار إليك ؟ فسكت
طويلاً فقال له : ألا تقول ؟ فقال : لا ، فقال : ولم ؟ فقال له : إن قلت بنص من الله ورسوله كنت
كاذباً ، وإن قلت بإجماع المسلمين ، قلت فنحن أهل بلاد المشرق ولم نعلم بذلك ، ولم نجتمع عليه ،
وإن قلت بالميراث من آبائي ، قلت بنو أبيك كثير فلم تغردت به دونهم ؟ فقال له : الحمد لله على اعترافك
على نفسك بالحق لغيرك ، أفرجع إلى بلادي ؟ فقال : لا فوالله إنك لواعظ قط فقل ما عندك بعد ذلك
فقال له : رأيت أن من تقدمني ظلم وغشم وجار واستأثر بغيري المسلمين ، وعلمت من نفسي أنني لا
استحل ذلك ، وأن المؤمنين لا شيء يكون أنقص وأخف عليهم فوليت ، فقال له : أخبرني لولم تل هذا
الأمر ووليه غيرك ، وفعل ما فعل من كان قبله ، أكان يلزمك من إثمه شيء ؟ فقال : لا ، فقال له : فإراك
قد شريت راحة غيرك بتعبك ، وسلامته بخطرك فقال له : إنك لواعظ قط ، فقام ليخرج ثم قال له : والله
لقد هلك لولنا بالولكم وأوسطنا بلوسطكم ، وسيهلك آخرنا بأخركم ، والله المستعان عليكم ، وهو حسبنا
ونعم الوكيل .

وموقف الإمام من عمر بن عبد العزيز كان انتهاز الفرصة المؤاتية لتبليغ الرسالة ونصيحة الولاة ،
ويصح ما يمكن تصحيحه من لوضاع الأمة دون الإعتراف بشرعية النظام بالجملة ، وفيما يلي نقرا حديثاً
يصف دخول الإمام عليه ونصيحته له ،

" يروي هشام بن معاذ ويقول : كنت جليساً لعمر بن عبد العزيز حيث دخل المدينة ، فامر مناديه
فنادى من كانت له مظلمة لو ظلامة فليات الباب ، فأتى محمد بن علي يعني الباقر (ع) فدخل إليه موله
مزاحم فقال : إن محمد بن علي بالباب ، فقال له : أدخله يا مزاحم ، قال : فدخل وعمر يمسح عينيه من
الدموع فقال له محمد بن علي ،

ما أبكاك يا عمر ؟ فقال هشام : أبكاني كذا وكذا يا ابن رسول الله ، فقال محمد بن علي (ع) : يا عمر
إنما الدنيا سوق من الأسواق منها خرج قوم بما ينفعهم ، ومنها خرجوا بما يضرهم ، وكم من قوم قد

غرثهم بمثل الذي أصبحنا فيه ، حتى اتاهم الموت فاستوعبوا ، فخرجوا من الدنيا ملومين لما لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولا مما كرهوا جنة ، قسم ما جمعوا من لا يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فنحن والله محقوقون ، إن ننظر إلى تلك الأعمال التي كنا نغبطهم بها ، فنوافقهم فيها ، وننظر إلى تلك الأعمال التي كنا نتخوف عليهم منها ، فنكف عنها .

فاتق الله واجعل في قلبك اثنتين ، تنتظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك ، وتنتظر الذي تكرهه أن يكون معك إذا قدمت على ربك فابتغ به البذل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ، ترجو أن تجوز عنك ، واتق الله يا عمر وافتح الأبواب وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ورد المظالم . ثم قال ، ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، فجثا عمر على ركبتيه وقال ، إيه يا أهل النبوة فقال ، نعم يا عمر من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل ، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له ، فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب ، بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما رد عمر بن عبد العزيز ظلامة محمد بن علي (ع) فذك .

ثانياً ، يبدو أن بني أمية كانوا يتجنبون قتل أبناء علي (ع) بصورة ظاهرة ، للأثار السلبيّة التي خلفتها عليهم واقعة الطف ، وكان الأئمة بدورهم لا يجدون الظروف مؤاتية للقيام بنهضة دموية . والقصة التالية التي يذكرها الرواة تشهد بذلك ، فبعد أن نازع زيد بن الحسن الإمام الباقر في ميراث رسول الله استجد بالخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) ودخل عليه وقال له ، اتيتك من عند ساحر كذاب لا يحل لك تركه . فكتب عبد الملك كتاباً إلى واليه على المدينة أن يبعث إليه محمد بن علي مقيداً ، وقال لزيد ، أرايتك إن وليتك قطه قطه ؟ قال ، نعم .

ولكن عامله على المدينة استدرك الأمر وكتب إلى الخليفة ، إن الرجل الذي أردته لا يوجد اليوم على وجه الأرض أعف منه ولا أزهّد ولا أروع منه ، وإنه ليقرا في محرابه فيجتمع الطير والسباع تعجباً لصوته ، وإن قراضته وكتبه مزامير داود ، وإنه من أعلم الناس ، وأرق الناس ، وأشد الناس اجتهاداً وعبادةً ، وأضاف في كتابه ، وكهرت لأمير المؤمنين التعرض له ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ..

وهكذا تراجع عبد الملك مما بدر منه . وبعد أن اكتشف كذب زيد بن الحسن أخذه وقيدته وهبّاه ، وقال له ، لولا أنني أريد ، أن لا ابتلى بدم أحد منكم لقتلك . ثم كتب إلى الإمام الباقر (ع) بعثت إليك بآبن عمك^{٤٧} فأحسن أدبه .

من هذه القصة نعرف أن ملوك بني أمية كانوا يتجنبون ما أمكنهم قتل أولاد علي (ع) بصورة ظاهرة . ثالثاً ، كانت المعارضة العلنية لحكم بني أمية أصبحت معروفة ، ويروي التاريخ بعض النماذج منها

(٤٧) المصدر ماحصر : (ص ٣٢٩ - ٣٣١)

ونذكر فيما يلي اثنين منها ،

١- يحكي الديلمي قصة طريقة في كتابه إعلام الدين يقول ،

قال رجل لعبد الملك بن مروان أنظرك وأنا آمن ، قال ، نعم ، فقال ، أخبرني عن هذا الأمر الذي صار إليك لبص من الله ورسوله ؟ قال ، لا ، قال ، اجتمعت الأمة فترضوا بك ؟ قال ، لا ، فقال ، فكانت لك بيعة في أعناقهم فرضوا بها ؟ قال ، لا ، قال ، فاختار أهل الشورى ؟ قال ، لا ، قال ، أفليس قد قهرتهم على أمرهم ، واستأثرت بغيثهم ، دونهم ؟ قال ، بلى ، قال ، فباي شيء سميت أمير المؤمنين ؟ ولم يؤمرك الله ورسوله ولا المسلمون ، قال له أخرج عن بلادتي وألا قتلتك ، قال ، ليس هذا جواب أهل العدل والإنصاف ، ثم خرج عنه ^{٤٨} .

٢- وقصة أخرى ينقلها الشيخ الطوسي في أماليه عن الشيخ المفيد عن الثمالي قال ،

حدثني من حضر عبد الملك بن مروان وهو يخطب الناس بمكة ، فلما صار إلى موضع العظة من خطبته ، قام إليه رجل فقال له ، مهلاً مهلاً ، إنكم تأمرون ولا تاتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفأقتداء بسيرتكم أم طاعة لأمركم ؟ فإن قلتم اقتداءً بسيرتنا فكيف يقتدى بسيرة الظالمين ، وما الحجة في اتباع المجرمين الذين اتخذوا مال الله دولا ، وجعلوا عباد الله خولا ، وإن قلتم أطيعوا أمرنا ، واقبلوا نصحن ، فكيف ينصح غيره من لم ينصح نفسه ؟ أم كيف تجب طاعة من لم تثبت له عدالة ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فلعل فينا من هو أفصح بصنوف العظاات وأعرف بوجوه اللغات منكم ، فتزحزحوا عنها واطلقوا أفعالها وخلوا سبيلها ، ينتدب لها الذين شردتهم في البلاد ، ونقلتموهم عن مستقرهم إلى كل واد ، فوالله ما قلديناكم لزمة أمورنا ، وحكمناكم في أموالنا وأبداننا وأدياننا ، لتسيروا فينا بسيرة الجبارين ، غير أنا بصراء بانفسنا لاستيفاء المدة وبلوغ الغاية وتمام المحنة ، ولكل قائم منكم يوم لا يعدوه ، وكتاب لابد أن يتلوه ، لا يخادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، قال ، فقام إليه بعض أصحابه المسالحي ، فقبض عليه ، وكان آخر عهدنا به ، ولا ندري ما كانت حاله ^{٤٩} .

رابعا ، خروج الإمام إلى الشام .

إن حادثة استدعاء هشام بن عبد الملك الإمام الباقر (ع) من المدينة إلى الشام ، تكشف عن طبيعة علاقة الإمام بالسلطة السياسية ، وما كان يعانيه منها ، وكيف كان يتحداها ، ونحن إذ نثبت نصاً تاريخياً فيها ندع للقارئ فرصة التأمل فيها ، على أن النصوص مختلفة في تفاصيل هذه الواقعة وإنما نذكر أكثرها تفصيلاً بإذن الله .

وقد حج هشام بن عبد الملك بن مروان سنة من السنين ، وكان قد حج في تلك السنة محمد بن علي

(٤٨) المصدر : (ص ٣٣٥) .

(٤٩) المصدر : (ص ٣٣٧) .

الباقر وابنه جعفر بن محمد عليهما السلام . وقال الإمام الصادق (ع) : الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً وكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه وخيرته من عباده وخلفاؤه ، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا .

ثم قال :

فلخبر مسلمة اخاه بما سمع ، فلم يعرض لنا حتى انصرف إلى دمشق وانصرفنا إلى المدينة ، فانفد بربداً إلى عامل المدينة بإشخاص أبي وإشخاصي معه ، فلأشخصنا ، فلما وردنا مدينة دمشق حجبنا ثلاثاً ، ثم أذن لنا في اليوم الرابع فدخلنا ، وإذا قد قعد على سرير الملك ، وجنده وخاصته وقوف على أرجلهم سباطان متسلحان ، وقد نصب البرجاس حذاه وأشيائهم قومه يرمون ، فلما دخلنا وأبي أمامي وأنا خلفه ، فنادى أبي وقال : يا محمد إرم مع أشيائهم قومك الغرض .

فقال له : إني قد كبرت عن الرمي فهل رأيت أن تعفيني .

فقال : وحق من أعزنا بدينه ونبيه محمد (ص) لا أعفيك ، ثم لوما إلى شيخ من بني أمية أن اعطه قوسك ، فتناول أبي عند ذلك قوس الشيخ ثم تناول منه سهماً ، فوضعه في كبد القوس ، ثم انتزع ورمى وسط الغرض فنصبه فيه ، ثم رمى فيه الثانية فشق فواق سهمه إلى نصله ثم تابع الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضها في جوف بعض ، وهشام يضطرب في مجلسه فلم يتمالك إلا أن قال : أجدت يا أبا جعفر وأنت أرمى العرب والعجم ، هلاً زعمت أنك كبرت عن الرمي ، ثم أدركته ندامة على ما قال .

وكان هشام لم يكن كنى أحداً قبل أبي ولا بعده في خلافته ، فهم به واطرق إلى الأرض إطراقة يتروى فيها . وأنا وأبي واقفان حذاه مواجهين له ، فلما طال وقوفنا غضب أبي فهم به ، وكان أبي (ع) إذا غضب نظر إلى السماء نظر غضبان يرى الناظر الغضب في وجهه ، فلما نظر هشام إلى ذلك من أبي .

قال له : إني يا محمد !

فصعد أبي إلى السرير ، وأنا اتبعه ، فلما دنا من هشام ، قام إليه واعتنقه واقعده عن يمينه ، ثم اعتنقني واقعدني عن يمين أبي ، ثم أقبل على أبي بوجهه .

فقال له : يا محمد لا تزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك ، لله درك ، من علمك هذا الرمي ؟ وفي كم تعلمته ؟

فقال أبي : قد علمت أن أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيام حدائتي ثم تركته ، فلما أراد أمير المؤمنين مني ذلك عدت فيه .

فقال له : ما رأيت مثل هذا الرمي قط من عقلت ، وما ظننت أن في الأرض أحداً يرمي مثل هذا الرمي

ليرمي جعفر مثل رميك ؟ فقال :

إنا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه (ص) في قوله ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة/3) والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي

يقصر غيرنا عنها .

قال : فلما سمع ذلك من أبي انقلب عينه اليمنى فاحولت واحمر وجهه ، وكان ذلك علامة غضبه إذا غضب ، ثم أطرق هنيئة ثم رفع رأسه .

فقال لأبي ، السنن بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد ؟

فقال أبي ، نحن كذلك ولكن الله جل ثناؤه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص أحداً به غيرنا .

فقال ، اليس الله جل ثناؤه بعث محمداً (ص) من شجرة عبد مناف إلى الناس كافة ، أبيضها وأسودها واحمرها من أين ورثتم ما ليس لغيركم ؟ ورسول الله (ص) مبعوث إلى الناس كافة وذلك قول الله تبارك وتعالى ، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (آل عمران/ ١٨٠) إلى آخر الآية فمن أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبي ولا أنتم أنبياء ؟ فقال ، من قوله تبارك وتعالى لنبيه (ص) ، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحْضِلَ فِيهِ ﴾ (التيمية/ ١٦) الذي لم يحرك به لسانه لغيرنا أمره الله أن يخصنا به من دون غيرنا ، فلذلك كان ناجي أخاه علياً من دون أصحابه فانزل الله بذلك قرآناً في قوله ، ﴿ وَبِعِثْنَا آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَنَحْنُ نَخْبَرُكَ بِالْمُحْضَلِينَ مِنْهُمْ وَمَنْ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ تَوَلَّيْنَا لَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْقَالًا مِمَّا كَانُوا كَارِهِينَ ﴾ (الحاقة/ ١٢) فقال رسول الله (ص) لأصحابه ، سألت الله أن يجعلها أدنك يا علي ، فلذلك قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بالكوفة ، علمني رسول الله (ص) الف باب من العلم ففتح لكل باب ألف باب ، خصه رسول الله (ص) من مكنون سره بما يخص أمير المؤمنين أكرم الخلق عليه ، فكما خص الله نبيه (ص) خص نبيه (ص) أخاه علياً من مكنون سره بما لم يخص به أحداً من قومه ، حتى صار إلينا فتوارثنا من دون أهلنا .

فقال هشام بن عبد الملك ، إن علياً كان يدعي علم الغيب والله لم يطلع على غيبه أحداً ، فمن أين ادعى ذلك ؟

فقال لي ، إن الله جل ذكره أنزل على نبيه (ص) كتاباً بين فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في قوله تعالى ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل/ ٨٩) وفي قوله ، ﴿ مَا فَرَقْنَا بَيْنَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام/ ٣٨) وأوحى الله إلى نبيه (ص) أن لا يقي في غيبه وسره ومكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً ، فأمره أن يؤلف القرآن من بعده ، ويتولى غسله وتكفينه وتحنيطه من دون قومه ، وقال لأصحابه ، حرام على أصحابي وأهلي أن ينظروا إلى عورتني غير أخي علي ، فإنه مني وأنا منه ، له مالي وعليه ما علي ، وهو قاضي ديني ومنجز وعدي . ثم قال لأصحابه ، علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وتمامه إلا عند علي (ع) ، ولذلك قال رسول الله (ص) لأصحابه ، أقضاكم علي أي هو قاضيكم وقال عمر بن الخطاب ، لولا علي لهلك عمر ، يشهد له عمر ويجحد غيره .

فأطرق هشام طويلاً ثم رفع رأسه فقال ، سل حاجتك .

فقال ، خلفت عيالي وأهلي مستوحشين لخروجي .
فقال ، قد أنس الله وحشتهم برجعوك إليهم ولا تقم ، سر من يومك .
فاعتنقه أبي ودعا له وفعلت أنا كفعل أبي ، ثم نهض ونهضت معه وخرجنا إلى بابه ، وإذا بميدان ببابه
وفي آخر الميدان أناس قعود عددهم كثير ، قال أبي ، من هؤلاء ؟
فقال الحجاب هؤلاء القسيسون والرهبان وهذا عالم لهم يقعد إليهم في كل سنة يوماً واحداً يستفتونه
فيفتيهم .

فلف أبي عند ذلك رأسه بفاضل رداءه وفعلت أنا مثل فعل أبي ، فأقبل نحوهم حتى قعد نحوهم وقعدت
وراء أبي ، ورفع ذلك الخبر إلى هشام ، فأمر بعض غلمانه أن يحضر الموضع فينظر ما يصنع أبي ،
فأقبل وأقبل عداد من المسلمين فلاحطوا بنا ، وأقبل عالم النصراني وقد شد حاجبيه بحريرة صفراء حتى
توسطنا ، فقام إليه جميع القسيسين والرهبان مسلمين عليه ، فجاؤوا به إلى صدر المجلس فقعد فيه ،
ولحاط به أصحابه وأبي وأنا بينهم ، فادار نظره ثم قال لأبي ،
أمناً أم من هذه الأمة المرحومة ؟

فقال أبي ، بل من هذه الأمة المرحومة .
فقال ، من ليهم أنت من علمائها لم من جهالها ؟
فقال له أبي ، لست من جهالها ، فاضطرب اضطراباً شديداً ثم قال له ، أسالك ؟ فقال له أبي ، سل ،
فقال ، من أين ادعيتم أن أهل الجنة يطعمون ويشربون ولا يُحترثون ولا يبولون ؟
وما الدليل فيما تدعونه من شاهد لا يجهل ؟

فقال له أبي ، دليل ما ندعي من شاهد لا يجهل ، الجنين في بطن أمه يطعم ولا يحدث .
قال ، فاضطرب النصراني اضطراباً شديداً ، ثم قال ، هلاً زعمت أنك لست من علمائها ؟
فقال له أبي ، ولا من جهالها ، وأصحاب هشام يسمعون ذلك .
فقال لأبي ، أسالك عن مسألة أخرى فقال له أبي ، سل .
فقال ، من أين ادعيتم أن فاكهة الجنة أبداً غضة طرية موجودة غير معدومة عند جميع أهل الجنة ؟
وما الدليل عليه من شاهد لا يجهل ؟

فقال له أبي ، دليل ما ندعي أن ترابنا أبداً يكون غصاً طرياً موجوداً غير معدوم عند جميع أهل الدنيا لا
ينقطع ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، ثم قال ، هلاً زعمت أنك لست من علمائها ؟ فقال له أبي ، ولا من
جهالها .

فقال له ، أسالك عن مسألة ؟ فقال ، سل ، فقال ، أخبرني عن ساعة لا من ساعات الليل ولا من
ساعات النهار ؟

فقال له أبي ، هي الساعة التي بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يهدأ فيها المبتي ، ويرقد فيها

الساهر ، ويفيق المغشى عليه ، جعلها الله في الدنيا رغبة للراغبين وفي الآخرة للعاملين لها دليلاً واضحاً وحجة بالغة على الجاحدين المتكبرين التاركين لها .

قال : فصاح النصراني صيحة ثم قال : بقيت مسألة واحدة والله لأسالك عن مسألة لا تهدي إلى الجواب عنها أبداً .

قال له لبي : سل فإنك حائن في يمينك .

فقال : أخبرني عن مولودين ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد عمر أحدهما خمسون سنة وعمر الآخر مائة وخمسون سنة في دار الدنيا ؟

فقال له لبي : ذلك عزيز وعزيرة ولدا في يوم واحد ، فلما بلغا مبلغ الرجال خمسة وعشرين عاماً ، مرَّ عزيز على حمارة راكباً على قرية بانطاكية وهي خاوية على عروشها ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (البقرة/٢٥٩) وقد كان اصطفاه وهذاه فلما قال ذلك القول غضب الله عليه فأماته الله مائة عام سخطاً عليه بما قال ، ثم بعثه على حمارة بعينه وطعامه وشرابه وعاد إلى داره ، وعزيرة أخوه لا يعرفه فاستضافه فاضافه وبعث إليه ولد عزيرة وولد ولده وقد شاخوا وعزير شاب في سن خمس وعشرين سنة ، فلم يزل يذكر أخاه وولده وقد شاخوا وهم يذكرون ما يذكرهم ويقولون : ما أعلمك بأمر قد مضت عيه السنون والشهور ، ويقول له عزيرة وهو شيخ كبير ابن مائة وخمسة وعشرين سنة ، ما رايت شاباً في سن خمسة وعشرين سنة أعلم بما كان بيني وبين أخي عزيز أيام شبابي منك ! فمن أهل السماء أنت ؟ أم من أهل الأرض ؟ فقال : يا عزيرة أنا عزيز سخط الله عليّ يقول قلته بعد أن اصطفاني وهذاني فأماتني مائة سنة ثم بعثني لتزداد بذلك يقيناً ، إن الله على كل شيء قدير ، وها هو هذا حماري وطعامي وشرابي الذي خرجت به من عندكم لعاده الله تعالى كما كان ، فعندها أيقنوا فاعاشه الله بينهم خمسة وعشرين سنة ، ثم قبضه الله وأخاه في يوم واحد .

فنهض عالم النصارى عند ذلك قائماً وقاموا - النصارى - على أرجلهم فقال لهم عالمهم ، جئتموني بأعلم مني واقعدتموه معكم حتى هتكنتي وفضحتني وأعلم المسلمين بأن لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا ، لا والله لا كلمتكم من راسي كلمة واحدة ، ولا قعدت لكم إن عشت سنة .

فتفرقوا وأبى قاعد مكانه وأنا معه ، ورفع ذلك الخبر إلى هشام .

فلما تفرق الناس نهض أبي وانصرف إلى المنزل الذي كنا فيه ، فوافانا رسول هشام بالجائزة وأمرنا أن ننصرف إلى المدينة من ساعتنا ولا نجلس ، لأن الناس ملجوا وخاضوا فيما دار بين أبي وبين عالم النصارى ، فركبنا دوابنا منصرفين وقد سبقنا بريد من عند هشام إلى عامل مدين على طريقنا إلى المدينة أن ابني لبي تراب الساحرين : محمد بن علي وجعفر بن محمد الكتابيين - بل هو الكذاب لعنه الله - فيما يظهران من الإسلام ورداً عليّ ، ولما صرفتهما إلى المدينة مالا إلى القسيسين والرهبان من كفار النصارى وأظهرا لهما دينهما ومرفقا من الإسلام إلى الكفر دين النصارى وتقربا إليهم بالنصرانية ،

فكرهت أن انكل بهما لقرباهما ، فإذا قرأت كتابي هذا فناد في الناس ، برئت الذمة ممن يشاريهما أو يبايعهما أو يصافحهما أو يسلم عليهما فإنهما قد ارتدا عن الإسلام ، ورأى امير المؤمنين أن يقتلهم ودوابهما وغلماهما ومن معهما شر قطة ، قال ، فورّد البريد إلى مدينة مدين .

فلما شارفنا مدينة مدين قدم أبي غلمانة ليرتادوا لنا منزلاً ، ويشرحوا لدوابنا علفاً ، ولنا طعاماً ، فلما قرب غلماننا من باب المدينة اغلقوا الباب في وجوهنا وشتموننا وذكروا علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فقالوا ، لا نزول لكم عندنا ولا شراء ولا بيع يا كفار يا مشركين يا مرتدين يا كذابين يا شر الخلائق لجمعين ، فوقف غلماننا على الباب حتى انتهينا إليهم فكلّمهم أبي ولين لهم القول وقال لهم ،

اتقوا الله ولا تغفلوا فلسنا كما بلغكم ولا نحن كما تقولون فاسمعونا ، فقال لهم ، فهبنا كما تقولون افتحوا لنا الباب وشارونا كما تشارون وتبايعون اليهود والنصارى والمجوس ، فقالوا ، انتم شر من اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء يؤدون الجزية وانتم ما تؤدون ، فقال لهم أبي ، فافتحوا لنا الباب وانزلونا وخذوا منا الجزية كما تخذون منهم ، فقالوا ، لا نفتح ولا كرامة لكم حتى تموتوا على ظهور دوابكم جيعاً نياعاً أو تموت دوابكم تحتكم ، فوعظهم أبي فازدادوا عتواً ونشوزاً ، قال ، فقتل أبي رجله عن سرجه ثم قال لي ، مكانك يا جعفر لا تبرح ، ثم صعد الجبل المطل على مدينة مدين وأهل مدين ينظرون إليه ما يصنع ، فلما صار في أعلاه استقبل بوجهه المدينة وجسده ، ثم وضع إصبعيه في أذنيه ثم نادى بأعلى صوته ﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَقْسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝٥٠ ﴾ (هود/٨٤-٨٦) نحن والله بقية الله في أرضه ، فامر الله ربحاً سوداء مظلمة فهبت واحتملت صوت أبي فطرحته في اسماع الرجال والصبيان والنساء ، فما بقي لحد من الرجال والنساء والصبيان إلا صعد السطوح ، وأبى مشرف عليهم ، وصعد فيمن صعد شيخ من أهل مدين كبير السن ، فنظر إلى أبي الجبل ، فنادى بأعلى صوته ، اتقوا الله يا أهل مدين فإنه قد وقف الذي وقف فيه شعيب (ع) حين دعا على قومه ، فإن انتم لم تفتحوا له الباب ولم تنزلوه جاعكم من الله العذاب . فإني أخاف عليكم وقد لعنر من اندر ، ففزعوا وفتحوا الباب وانزلونا ، وكتب بجميع ذلك إلى هشام فارتحلنا في اليوم الثاني ، فكتب هشام إلى عامل مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته ، وكتب إلى عامل مدينة الرسول أن يحتال في سم أبي في طعام أو شراب ، فمضى هشام ولم يتهيا له في أبي من ذلك شيء .

(٥٠) موسوعة بحار الأنوار : (ص ٣٠٦ - ٣١٣) نقلاً عن دلائل الإمامة تصيف محمد بن حرير الطبري الإمامي .

الفصل الثالث

وفاته

بعد ثمانية عشر عاماً تصدى خلالها للإمامة الإسلامية ، استجاب لنداء ربه الحق ، قلباً راضياً مرضياً ، وقد قضى من عمره المبارك سبعاً وخمسين ربيعاً .

في غرة رجب من عام ١١٤ للهجرة كان أهل بيته يحقون به وكان السم الذي دس عليه من خلال سرج امتطاه قد انتشر في جسده فالتفت إلى نجله ووصيه الإمام الصادق (ع) وقال :

سمعت علي بن الحسين ناداني من وراء الجدران يا محمد تعال عجل ، وقال : يا بني هذا الليلة التي وعدتها وقد كان وضوءه قريباً ، قال : أريقوه أريقوه فظن بعضهم انه يقول : من الخمس فقال يا بني أرقه فأرقناه فإذا فيه فارة .

ولوصى ابنه الإمام جعفر بن محمد بأن يكفنه في ثلاثة أثواب ، أحدها رداء له جدة كان يصلي فيه يوم الجمعة ، وثوب آخر وقميص ، ولوصى أن يشق له القبر شقاً ، وأضاف فإن قيل لكم ان رسول الله لحد له فقد صدقوا .

ولوصى أن يرفع أربع أصابع ، وأن يرش بالماء ، وأن يوقف من أمواله قدرأ لكي تندبه النوادب بمنى عشر سنين أيام المنى .

ولما توفي ضجت المدينة المنورة . ويروى عن الإمام الصادق (ع) :
ان رجلاً كان على بعد أميال من المدينة فرأى في منامه انه قيل له ، انطلق فصل على أبي جعفر ، فإن الملائكة تغسله ، فجاء الرجل فوجد أبا جعفر قد توفي .

وبعد تجهيزه دفن في البقيع عند قبر والده الإمام زين العابدين وعم ابيه الإمام الحسن المجتبى ^{٥١} .
فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات مسموماً ويوم بيعث حياً .

كلماته المضيئة :

لقد فاضت بكلماته المضيئة كتب المعارف ، ولم يكن باقر العلم في أهل بيت الرسالة ؟ ولكننا نقتبس منها قبسات لعل الله ينور بها قلوبنا ويبصرنا حقائق أنفسنا ويهدينا إلى الصراط القويم .
تعال نستمع معاً إلى وصيته الرشيدة التي القاها إلى جابر بن يزيد الجعفي ،

(٥١) هناك بعض الاختلافات في تفاصيل وفاته وسني عمره وما نقلناه استعرنا من جملة روايات تجدها في بحار الأنوار : (ج ٤٦ ، ص ١١٢ - ٢٢٠) .

"لوصيك بخمس ، إن ظلمت فلا تظلم ، وإن خانوك فلا تخن ، وإن كذبت فلا تغضب ، وإن مدحت فلا تفرح ، وإن ذممت فلا تجزع ، وفكر فيما قيل فيك فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله جل وعز عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من عين الناس ، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك فثواب اكتسبته من غير أن تتعب بدنك ، وأعلم أنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك اهل مصرك وقالوا أنك رجل سوء لم يحزنك ذلك ، ولو قالوا أنك رجل صالح لم يسرك ذلك ، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغييه ، خائفاً من تخويفه ، فائت به وبشر فإنه لا يضرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبالغاً للقرآن فما الذي يخرك من نفسك ، إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها ، فمرة يقيم لودها ويخالف هواها في محبة الله ، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها ، فينعشه الله فينتعش ويقلل الله عثرته فيتذكر ، ويفزع إلى التوبة والخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف وذلك بأن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (الاعراف/ ٢٠١) ، يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر واستقلال من نفسك كثير الطاعة لله ازراء على النفس وتعرضاً للعفو ، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم ، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل ، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ ، واستجب شدة التيقظ بصدق الخوف وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل ، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم ، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء ، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة ، واستجب حلاوة الزهادة بقصر الأمل ، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس ، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس ، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض ، وتعرض لرقعة القبح بكثرة الذكر في الخلوات ، واستجب نور القلب بدوام الحزن ، وتحرز من إبليس بالخوف الصادق ، وإياك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق ، وإياك والتسويق فإنه بحر يغرق فيه الهلكى ، وإياك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب ، وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه فإليه يلجأ النادمون ، واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار ، وتعرض للرحمة وعفو الله بخالص الدعاء والمنجاة في الظلم ، واستجب زيادة النعم بعظيم الشكر واطلب بقاء العز بإماتة الطمع ، وارفع ذلك الطمع بعز اليأس ، واستجب عز اليأس ببعد الهمة ، وتزود من الدنيا بقصر الأمل وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة ، وإياك والثقة بغير المأمون ، وأعلم أنه لا علم كطلب السلامة ، ولا عقل كمخالفة الهوى ، ولا فقر كفقار القلب ، ولا غنى كغنى النفس ، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك ، ولا نعمة كالعافية ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا شرف كبعد الهمة ، ولا زهد كقصر الأمل ، ولا عدل كالإنصاف ، ولا جور كموافقة الهوى ، ولا طاعة كداء الفرائض ، ولا مصيبة كعدم العقل ، ولا معصية كاستهانتك بالذنوب ، ورضاك بالحالة التي أنت عليها ، ولا فضيلة كالجهاد ، ولا جهاد كمجاهدة الهوى ، ولا قوة كرد الغضب ، ولا ذل كذل الطمع ، وإياك والتفريط عند إمكان الفرصة ، فإنه ميدان يجري لأهله بالخسران .

وقال (ع) ، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها وإن لم يعمل بها ، فإن الله يقول ، ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ (الزمر/ ١٨) ، ويحك يا مغرور ألا تحمد من تعطيه فانياً ويعطيك باقياً ، درهم يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف مضاعفة ، إنما أنت لص من لصوص الذنوب كلما عرضت لك شهوة أو ارتكاب ذنب سارعت إليه وأقدمت بجهلك عليه فارتكبته كذلك لست بعين الله أو كان الله ليس لك بالمرصاد ، يا طالب الجنة ما أطول نومك وأكل مطيتك وأوهى هممتك فقلله أنت من طالب ومطلوب ، ويا هارياً من النار ما لحت مطيتك إليها ، وما اكسبك لما يوقعك فيها .^{٥٢}

(٥٢) في رحاب أهل البيت سيرة الإمام الباقر (ع) : (ص ٢١ - ٢٢) .

الامام الصادق (عليه السلام)

قلوة وأسوة

تمهيد

توافق هذه الليلة - التي اشرع فيها بسرد قضية تاريخية جلييلة عن حياة الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) - الخامس والعشرين من شهر شوال لسنة ١٢٨٦ هجرية ، حيث يحتفي العالم الجعفري بتجديد ذكرى وفاة سادس ائمته ويفتخر بشرف الانتماء اليه مبدعاً ومذهباً .

واني ان اقدم لسجى التعازي إلى المسلمين عامة ، والجعفرين خاصة ، ارجو من الله العلي القدير ان يسددهم في اتخاذ مبادئ صاحب هذه الذكرى المفجعة ويهديهم للعمل الجاد بتعاليمه ومناهجه .

وبالتالي فاني اشرف قلبي بالكتابة عنه ، مشاطرة مني في تجديد الذكرى مع الامة الإسلامية ، ولدعم المجتمع الإسلامي بالثقافة الحقّة التي شرعها لنا ربّ السماء ورسوله ، ومن ثم تأدية لمسؤوليتي تجاه مبدئي والحق الذي يمثلّه ، وليس سداً لنفوس في التاريخ ، فهناك عدد من الكتب الحديثة عالجت قضية الإمام الصادق (عليه السلام) ومذهبه ومذهب تابعيه بشتى الأساليب والصور .

الفصل الاول

الاصل الكريم

ميلاده :

كانت الأمة الإسلامية تحتفل بالذكرى الثمانين^١ من مولد الرسول الاعظم (ص) ، في السابع عشر من شهر ربيع الأول ، وكانت تسير في بيت الرسالة موجة كريمة من السرور والابتهاج ، ترتقب مجدا يهبط عليها فيزيدها رفعة وشموخاً .

في تلك الليلة ، وفي ذلك الجو الميمون ولد الإمام الصادق (ع) شعلة نور بازغة سخت بها إرادة السماء لتضيء لاهل الأرض ، وتثير سبلها إلى الخير والسلام .

أبواه :

ولد من أبوين كريمين عظيمين مباركين هما :

١ - الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي ، الباقر (ع) ، الذي انحدر من سلالة علي أباً وأماً ، حيث كان حفيد الحسين بن علي ، وكانت أمه حفيدة الحسن (ع) . وهكذا بُني أول بيت فاطمي اصيل ، فكان اشم واروع قمة إنسانية ارتفعت على بيت الرسالة .

٢ - فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، التي كانت هي الأخرى أول نقيية من سلالة أبي بكر أمّاً وأباً . وجدها محمد بن أبي بكر كان له سابقة الجهاد بين يدي الإمام امير المؤمنين (ع) ، وكان ربيباً له حيث تزوج الإمام بعد موت أبي بكر زوجته أسماء بنت عميس ، فربى ولدها محمد في حجره ، وغذاه من علومه ، حتى أصبح فداًئياً مخلصاً للإسلام ، وولاه مصرأ فقتل فيها بامر من معاوية . وهكذا يأتي الإمام عصارة جهاد مقدس ، من اب وام منحدرين من سلالة مباركة .

نشأته :

لقد كانت ولادته في عصر جده الإمام زين العابدين الذي ملأ الافاق فضله ومجده ، ولم يزل في كنفه الوديع الذي كان يوحى إليه كل معاني السمو والعظمة ، ويغذيه بكل معاني الفضل والكمال ، ولم يزل يرى من جده العبادة والزهادة والرفادة والاجتهاد في طاعة الله فتتطبع في نفسه اثارها ، حتى بلغ سن الثانية عشر .

(١) يقول بعض المحققين أن أقرب الروايات إلى الحقيقة في تاريخ ميلاد الصادق (ع) هي التي تحدده بسنة (٨٠) هجرية وهناك روايتان أخرتا ٨٣ و ٧٧ غير معتمد عليهما .

وعندما انتقلت إلى أبيه مقاليد الإمامة العامة ، وقام (ع) باداء واجباتها ومسؤولياتها خير قيام ، كان الإمام الصادق (ع) يتربع ليصبح فتاً نموذجياً يرمق إليه الشيعة بأبصارهم ويرون فيه القدوة السادسة لهم .

سفرته إلى الشام :

لقد كان الأمويون في الفترة الأخيرة من تسلطهم — حيث اختلفت على الامة الإسلامية التيارات الفكرية المتناقضة — يمارسون آخر محاولاتهم لتمويه الحقائق وإثبات المتناقضات ، ويعالجون الأحداث السياسية على ضوء سياسة اسلافهم المنحرفين ، والعجيب من أمرهم أنهم في تلك الحقبة كانوا يبذلون أزياء الخلافة كما تتبدل السنين ، فلا تكاد تقبل سنة جديدة على الناس إلا بخليفة جديد ، لأن الأمة تلفظهم وتلجى الخضوع لسيادتهم الباطلة .

في هذا العصر — بالذات — قاسى الإمام الباقر (ع) من ظلم الأمويين الشيء الكثير ، لأنه كان ملوئاً الحق وأهله ومركز المضطهدين ، الذين عارضوا سياسة الأمويين كما يتبين ذلك من سيرته المقدسة .
أما الشيعة فقد إبتلوا بلاءً عظيماً من جراء الظلم الأموي ، كما بين الإمام الباقر (ع) حين قال ، " ثم جاء الحجاج فقتلهم — يعني الشيعة — شر قتله ولخذهم بكل ظنة وتهمة " .

حتى أن الرجل ليقال له زنديق لو كافر أحب إليه من أن يقال له شيعة ينتمي لعلي (ع) .
ولأن الخليفة الأموي أراد إثبات سلطته على الإمام الباقر (ع) واستعراض قوته أمامه — مثلما يصنعه الحاكم السياسي الظالم اليوم بمن يعارضه في الأمر — قام باستدعائه إلى الشام ، فسافر الإمام (ع) إليها مصطحباً ولده العزيز .

الفصل الثاني

عهد امامته

في سنة (١١٧ هـ) - حيث انتقل الإمام الباقر (ع) إلى جوار ربه ضحية غالية لسياسة بني أمية الجائرة - أوصى إلى ولده الصادق (ع) وهو في سن الرابعة والثلاثين بمدرسته التي اجتمعت عليها المئات من ذوي الفكر والبصيرة ، حتى كانت نواة المدرسة الكبرى التي أسسها الإمام الصادق (ع) من بعد أبيه ، كما أوصى له بالإمامة . وبهذا انتقلت إلى الإمام الصادق (ع) قيادة الأمة الدينية ومسؤولياتها السياسية الكبيرة .

المدرسة الكبرى :

لعلنا لن نجد في التاريخ الإنساني مدرسة فكرية استطاعت أن توجه الأجيال المتطاولة ، وتفرض عليها مبادئها وأفكارها ، ثم تبني أمة حضارية متوحدة لها كيائها وذاتيتها ، مثلما صنعتها مدرسة الإمام الصادق (ع) .

إن من الخطأ أن نحدد إنجازات هذه المدرسة في من درس فيها وأخذ منها من معاصريها وإن كانوا كثيرين جداً ، وإنما بما خلفته من أفكار ، وبما صنعتها من رجال غيروا وجه التاريخ ووجهوا أمته ، بل وكونوا حضارته التي ظلت قروناً مستطيلة .

لقد أثبت التاريخ أن الذين استقوا من أفكار هذه المدرسة مباشرة كانوا أربعة آلاف طالب^٢ . ولكن ذلك لا يهمننا بمقدار ما يهمننا معرفة ما كان لهذه المدرسة من تأثير في تثقيف الأمة الإسلامية التي عاصرتها والتي تلتها إلى اليوم ، وإن الثقافة الإسلامية الأصيلة كانت جارية عندها فقط ، حيث اثبتت البحوث أن غيرها من الثقافات المنتشرة بين المسلمين إنما انحدرت عن الأفكار المسيحية واليهودية بسبب الدخيلين منهم ، لو ملونة بصبغة الفلاسفة اليونان والهنود الذين ترجمت كتبهم إلى العربية ، فبنى المسلمون عليها أفكارهم وكونوا بها مبادئهم .

ولم تبق مدرسة فكرية إسلامية حافظت على ذاتيتها ووحدتها وأصالتها في جميع شؤون الحياة كما بقيت مدرسة الإمام الصادق (ع) ، ذلك لثقة التابعين بها وبأفكارها ، مما دفعهم إلى التحفظ بها وبملاحمها الخاصة عبر قرون طويلة ، حتى أنهم كانوا ينقلون عنها الروايات فما بقم ، وإذا كتبوا شيئاً لا ينشروه إلا

(٢) لقد جمع الحافظ ابن عقدة الزيدي أسماء الرواة عن أبي عبد الله (ع) فكانوا أربعة آلاف ، وجاء ابن القضايري فاستدل على ابن عقدة فزاد عليهم .

بعد الإجازة الخاصة ممن رَووا الأفكار عنه .

وإذا عرفنا بأن الثقافة الإسلامية - الشيعية منها أو السنية - كانت ولا زالت تعتمد على الأئمة من معاصري الإمام الصادق (ع) كالأئمة الأربعة ممن توقف المسلمون على مذاهبهم فقط ، وبالتالي عرفنا بأن معظم هؤلاء الأئمة أخذوا من هذه المدرسة أفكارهم الدينية ، حتى أن ابن أبي الحديد أثبت أن علم المذاهب الأربعة راجع إلى الإمام الصادق في الفقه . وقد قال المؤرخ الشهير أبو نعيم الأصفهاني ، (روى عن جعفر عدة من التابعين منهم ، يحيى بن سعيد الأنصاري ، وأيوب السخيتاني ، وأبان بن تغلب ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويزيد بن عبد الله بن هاد ، وحدث عنه الأئمة الأعلام ، مالك بن أنس ، وشعبة الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريح ، وعبد الله بن عمر ، وروح بن القاسم ، وسفيان بن عيينه ، وسليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر ، وحاتم بن إسماعيل ، وعبد العزيز بن المختار ، ووهب بن خالد ، وإبراهيم بن طهمان ، في آخرين ، وأخرج عنه مسلم بن الحجاج في صحيحه محتجاً بحديثه^٣ .

إذا عرفنا ذلك صح لنا القول بأن الثقافة الإسلامية الأصلية ترجع إلى الإمام الصادق (ع) وإلى مدرسته فقط .

ومن جانب آخر إذا عرفنا بأن تلميذاً واحداً من الملتحقين بهذه المدرسة ألف زهاء خمسمائة رسالة في الرياضيات كلها من إملاء الإمام الصادق (ع) ، وهو جابر بن حيان المعلم الرياضي الشهير الذي لا يزال العالم يعرف له فضلاً كبيراً على هذه العلوم وليادي طويلة على أهلها .

وروى عنه محمد بن مسلم ستة عشر ألف حديث في مختلف العلوم ، وآخرون من هؤلاء الأفاضل ، حتى قال قائلهم رأيت في هذا المسجد - أي مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول ، (قال ، جعفر بن محمد) . حتى أن أبا حنيفة كان يقول ، (لولا السُّنَّتَانِ لهلك النُّعمان) .

وأخيراً عرفنا بأنه لم يرو عن أحد من الأئمة الإثني عشر - بل عن المعصومين الأربعة عشر وفيهم رسول الله (ص) - بقدر ما روي عن الإمام الصادق (ع) . ولقد جمع المتأخرون من الشيعة ما روي عنهم في مجلدات ضخمة ، فكان البحار للمجلسي يحوي مائة وعشرة مجلدات ، وكان جامع الأخبار للنراقي مثيلاً له ، وكان مستدرك البحار نظيراً له ، وقد احتوت غالبية هذه الكتب ونظائرها على أحاديث الإمام الصادق (ع) وأكثرها في الفقه والحكمة والتفسير وما إلى ذلك .

أما في سائر العلوم فلم يصل إلى أيدينا إلا الشيء القليل ، حيث ذهب معظمها ضحية الخلاف السياسي الذي أعقب عصر الإمام ، فكم من كتب مخطوطة للشيعة أحرقتها نيران المنحرفين ، وكان نصيب مكاتب الفاطميين بمصر أكثر من ثلاثة ملايين كتاباً مخطوطاً ، وكم من كتب لفتها أمواج دجلة

(٣) حلية الأولياء : (٣ / ١٩٩) .

والفرات واحرقتها مطامع العباسيين ببغداد والكوفة ، وكم من محدث واسع المعرفة جمّ الثقافة ظلت العلوم هانجة في فؤاده لا يستطيع لها نشرأ خوفاً من إرهاب العباسيين وإجرامهم ، فهذا ابن أبي عمير ظلّ في سجون بني العباس مدة طويلة - ومن المؤسف - أن ما كتبها هجرت في هذه المدة حتى عفنت واكلها التراب ، وراحت احاديث كثيرة منها صحيحة الأعمال . وهذا محمد بن مسلم حفظ ثلاثين الف حديثاً عن الإمام الصادق ولم يرو منها شيئاً .

إذا عرفنا كل ذلك امكننا معرفة مدى شمول ثقافة هذه المدرسة العالم الإسلامي ومدى سعة افقها الرحيب .

والمشهور أن منهاج الإمام الصادق كان يوافق أحدث مناهج التربية والتعليم في العالم ، حيث ضمت حوزته اختصاصيين كهشام بن الحكم الذي تخصص في المباحث النظرية ، وتخصص زرارة ومحمد بن مسلم ولشباهم في المسائل الدينية ، كما تخصص جابر بن حيان في الرياضيات ، وعلى هذا الترتيب . حتى انه كان يأتيه الرجل فيسأله عما يريد من نوع الثقافة ، فيقول الفقه فيدله على إخصائيه ، أو التفسير فيؤمى إلى صاحبه ، أو الحديث والسيرة ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو الكيمياء ، فيشير إلى تلامذته الاخصائيين ، فيذهب الرجل بملازمة من اراد حتى يخرج رجلاً قديراً بارعاً في ذلك الفن .

ولم يكن الوافدون إليه من اهل قطر خاص ، فلقد كانت طبيعة العالم الإسلامي في عصره تقضي على الأمة بتوسيع الثقافة والعلم والمعرفة في كل بيت .. حيث أن الفتوحات المتلاحقة التي فتحت على المسلمين أبواباً جديدة من طرق العيش وعادات الخلق ، وأفكار الأمم ، كانت تسبب احتكاكاً جديداً للأفكار الإسلامية بالنظريات الأخرى ، ولسبيل الحياة عند المسلمين بعادات الفرس والروم وغيرهما من جارات الدولة الإسلامية ، كما خلقت مجتمعاً حديثاً امتزج فيه المتأثر العميق بالوضع ، والمنحرف الكامل عن الإسلام ، مما سبب حدوث تناقضات في الحياة ، قد ترديه وتحدث لديه انعكاسات سيئة جداً لذلك الامتزاج الطبيعي المفاجيء .

لذلك هرعت الأمة يومئذ إلى العلم والثقافة والتصقت بابي عبد الله الصادق (ع) مؤملة الخضب الموفور ، ووفدت عليه من اطراف العالم الإسلامي طوائف مختلفة ، وساعدهم على المثول عنده مركزه الحساس ، حيث اختار - في الأعم الأغلب - مدينة الرسول (ص) التي كانت تمثل العصب الحساس في العالم الإسلامي ، ففي كل سنة كانت وفود المسلمين تتقاطر على الحرمين لتأدية مناسك الحج المفروضة ولحل مسائلهم الفقهية والفكرية . فيلتقون بصادق اهل البيت (ع) وبمدرسته الكبرى حيث يجدون عنده كل ما يريدون .

ويجدون بنا المقام هنا ان نشر إجمالاً إلى موجة الإلحاد التي زحفت على العالم الإسلامي في عهد الإمام الصادق (ع) ، وقد اصطدمت بمدرسته ، فإذا بها الصّد المتين ، والصد الرصين ، الذي حطم فواها وجعلها رذائاً ، وباعتبار أننا نحاول ان نلخص حياة إمامنا العظيم ونحدد ملامح مدرسته الكبرى ، يلزم ان

تلم موجزًا بهذه الموجة الشاملة .

لقد اشرنا قريباً إلى أن الفتوحات الإسلامية سببت احتكاكاً عنيفاً بين المسلمين وبين الداخلين ، ولأن أغلب المسلمين لم يكونوا قد تفهموا الإسلام تفهماً قوياً ، ولا وعوه وعياً مستوعباً ، فإن نتيجة هذا الاصطدام كانت سيئة ، إذ أدى إلى تشعب المسلمين إلى فرقتين :

الأولى ، المحافظون المتمزتون الذين اتخذوا ظاهر الدين ولم يتفهموا جوهره وحقيقته ، فإذا بهم يفقدون عقولهم ويفقدون معها مقاييس الأشياء ، وكانت الخوارج من فرسان هذا الاتجاه ، كما كانت الأشاعرة مع ملاحظة ما بين طوائفهم من اختلاف في الكمية والكيفية .

والثانية ، المتطورون المفرطون الذين بالغوا في التأثر بالوضع والغوا المقاييس ، واكتفوا بما لوحث إليهم عقولهم الناقصة ، حسب اختلاف النزعات وتطور الظروف ، وكان في مقدمتهم الملحدون ثم — مع اختلاف كثير — كانت المعتزلة ومن إليهم من الفرق الأخرى .

وبطبيعة الحال كان الملحدون متسترين بسبب الوضع الاجتماعي القاسي الذي يعتبر فيه المرتد أسوأ حالاً من الكافر الأصلي ، وكانوا أقلاء في نفس الوقت ، بيد أنهم كانوا يستقون افكارهم من فلسفة اليونان التي كان العرب لا يعرفها حتى ذلك اليوم ، وحيث تمت صلتهم بها عن طريق حركة الترجمة المنتشرة من عهد الإمام فصاعداً .

ولذلك كان القليل من المسلمين الذين تفهموا فلسفة الإسلام النظرية من جميع أبعادها ، وعرفوا الاختلاف بينها وبين سائر النظريات ، واستطاعوا أن يقيموا الحجة البالغة على صحة مبادئ الإسلام الفكرية ودحض ما سواها .

وقد اصطدم هؤلاء بمن اقتصر معلوماتهم على مجموعة من الأحاديث التي يروونها عن أبي هريرة أو غيره ، غير مباليين بما فيها من تناقضات جمة ، وكانوا يحسبون أنهم على حق ، وأن لهم مقدرة كافية لإثبات مزاعمهم الباطلة ، فترى أحدهم يشكل حزباً ويدعو إليه الناس سراً .

لذلك تحتم على الإمام الوقوف في وجههم وتبديد مزاعمهم . فرسم ثلاثة خطط حكيمة لذلك ،

الأولى ، لقد خصّ فرعاً من مدرسته بالذين يعرفون فلسفة اليونان بصورة خاصة وغيرها بصورة عامة ، ويعرفون وجهة نظر الإسلام إليها والحجج التي تنقضيها ، وكان من هؤلاء هشام بن الحكم المفوه الشهير ، وعمران بن أعين ، ومحمد بن النعمان الأحول ، وهشام بن سالم ، وغيرهم من مشاهير علم الحكمة والكلام ، العارفين بمقاييس الإسلام النظرية أيضاً .

الثانية ، وكتب رسائل في ذلك ، مثل رسالته المدعاة بـ (توحيد المفضل) ، ورسالته المسماة بـ (الإلهيلجة) وما إليها .

الثالثة ، المواجهة الشخصية لرعاة فكرة الإلحاد . وباعتبار أن هذه العملية الأخيرة كانت أبلغ في مقابلة الموجة من اللتين سبقتا ، لذلك يجدر بنا الوقوف عندها قليلاً لقراءة بعض القصص والأحداث المهمة ،

١ - كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى وابن المقفع مجتمعين بنظر من الزنادقة في الموسم بالمسجد الحرام ، وكان الإمام الصادق (ع) متواجداً آنذاك يفتي الناس ويفسر لهم القرآن ويجيب عن المسائل بالحجج والبيّنات . فطلب القوم من ابن أبي العوجاء تغليظ الإمام وسؤاله عما يفضحه بين المحيطين به .

فاجابهم بالإيجاب واتجه - بعد ان فرّق الناس - صوب الإمام ، وقال : يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات ولا بدّ لكل من به سؤال أن يسأل ، افتنانن لي في السؤال ؟ فقال له أبو عبد الله : سل إن شئت .

فقال ابن أبي العوجاء : إلى كم تدوسون هذا البيدر ، وتلذذون بهذا الحجر ، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر ، وتهزلون حوله هزولة البعير ، فهناك من فكر في هذا وقدر بأنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر . فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه ؟ فقال الصادق (ع) :

" إن من اضله الله وأعمى قلبه استوهم الحق فلم يستحث به ، وصار الشيطان وليّه وريّه يورده مناهل الهلكة ولا يصدره ، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه ، فحتهم على تعظيمه وزيارته ، وجعله قبلة للمصلين له ، فهو شعبة لرضوانه ، وطريق يؤدي إلى غفرانه ، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال ، خلقه الله قبل دحو الأرض بالفي عام ، فالحق من اطيع فيما أمر وانتهى عما زجر ، هو الله المنتشى للأرواح والصور " . فقال له ابن أبي العوجاء : فأطلت على غائب .

فقال الصادق (ع) : " كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد ، واليهم أقرب من حبل الوريد ، يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم ، لا يخلو منه مكان ، ولا يشغل به مكان ، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان ، تشهد له بذلك آثاره ، وتدل عليه أفعاله ، والذي بعنه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد رسول الله (ص) الذي جاعنا بهذه العبادة ، فإن شككت في شيء في أمره فاسأل عنه " . فابلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول ثم انصرف من بين يديه ، وقال لأصحابه : سالتكم أن نلتمسوا لي خمرة^٤ فآلقيتموني على جمرة .

فقالوا له : أسكت فو الله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك وما راينا أحقر منك اليوم في مجلسه . فقال :

إليّ تقولون هذا ، إنه ابن من خلق رؤوس من ترون - ولوما بيده إلى أهل الموسم - . ومرة أخرى جاء إليه يسأله عن حدوث العالم ؟ فقال (ع) : " ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه صار أكبر ، وفي ذلك انتقال عن الحالة الأولى ،

(٤) إن هذه الكلمة اعتادت العرب استعمالها عندما يريدون أن يقولوا شيئاً مكتوماً يسترونه عن الناس .

(٥) أي فراش يستريح عليه .

ولو كان قديماً ما زال ولا حال ، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ، ويبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الأزل دخول في القدم ، ولن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد " .

فقال ابن أبي العوجاء ، هب علمك في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدلت على حدوثها ، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثها ؟

فقال (ع) ، " إنا نتكلم عن هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ، ولكن لجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا فتقول ، إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه شيء إلى منه كان أكبر ، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم ، إن في تغيره دخوله في الحدث ، وليس لك وراءه بشيء يا عبد الكريم " .
ومرة جاء وقد جمع كيدته وحشد أدلته وحدّ أظفاره ، فما أن تباحث مع الإمام حتى أفحم إفحاماً ، فقام ولم يرجع حتى هلك ^٧ ، وطوي بموته على هذه الشاكلة صفحة الحاد كان لها انصار واعوان ، ومضى زعيم إلحاد كان له صولة وجولة وحزب كبير .

٢ - يروى عن هشام بن الحكم أنه قال ، كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله علم ، فخرج إلى المدينة لينظره فلم يصادفه بها ، وقيل هو بمكة فخرج إلى مكة - ونحن مع أبي عبد الله (ع) آنذاك - فأنتهى إليه وهو في الطواف ، فدنا منه وسلم .
فقال له أبو عبد الله (ع) ، ما اسمك ؟

قال ، عبد الملك .

قال ، فما كنيتك ؟

قال ، أبو عبد الله .

قال ، فمن ذا الملك الذي أنت عبده ، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء . وأخبرني عن ابنك لعبد إله السماء أم عبد إله الأرض ؟ فسكت . فقال ، أبو عبد الله قل . فسكت .

فقال له (ع) ، إذا فرغت من الطواف فاتنا . فلما فرغ أبو عبد الله (عليه السلام) من الطواف أتاه الزنديق ، فقعد بين يديه - ونحن مجتمعون عنده - فقال أبو عبد الله (ع) ، اتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً ؟

فقال ، نعم .

(٦) الاحتجاج : (ص ٧٦) .

(٧) ذكر العلامة المظهر في كتابه (الإمام الصادق) أن سليمان عامل الكوفة من قبل المنصور قتل ابن أبي العوجاء لالحاده وزندقته .

قال ، دخلت تحتها ؟

فقال ، لا .

قال ، فهل تدري ما تحتها ؟

قال ، لا أدري إلا أنني أظن أن ليس تحتها شيء .

فقال ، فالظن عجز ما لم تستيقن .

ثم قال له ، صعدت إلى السماء ؟

قال ، لا .

قال ، أفتردي ما فيها ؟

قال ، لا .

قال ، فاتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما ؟

قال ، لا .

قال ، فالعجب لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ولم تنزل تحت الأرض ولم تصعد إلى السماء ولم تجد ما هناك فتعرف ما خلفن وأنت جاحد ما فيهن ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف .

فقال الزنديق ، ما كلمني بهذا غيرك .

فقال أبو عبد الله (ع) ، فانت من ذلك في شك ، فلعل هو ولعل ليس هو .

قال ، ولعل ذلك .

فقال أبو عبد الله (ع) ، " أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، ولا حجة للجاهل على العالم ، يا أخا أهل مصر تفهم عني ، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان يذهبان ويرجعان ، - قد اضطررنا ، ليس لهما مكان إلا مكانهما ، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعا ، وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً . والله يا أخا أهل مصر إن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر ، فإن كان هو يذهبهم فلم يردهم ، وإن كان يردهم فلم يذهب بهم ، أما ترى السماء مرفوعة والأرض موضوعة لا تسقطها على الأرض ولا تتحدر الأرض فوق ما تحتها ، أمسكها والله خالقها ومديرها " .

قال ، فأمّن الزنديق على يدي أبي عبد الله (ع) ، فقال لهشام ، خذه الليلة وعلمه .

٣ - وجاء إليه زنديق آخر وسأله عن أمور نظرية ، فكان بينهما الحوار التالي ،

قال كيف يعبد الله الخلق ولم يروه ؟

قال أبو عبد الله (ع) ، " رآته القلوب بنور الإيمان ، وأثبتته العقول بيقظتها إنبات العيان ، وأبصرته الأبصار بما رآته من حسن التركيب وإحكام التأليف ، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها ، وافتصرت العلماء على إماراته من عظمته دون رؤيته " .

قال : اليس هو قادر على أن يظهر لهم حتى يروه فيعرفونه فيعبد على يقين ؟
قال (ع) : " ليس لمحال جواب " .^٨

قال : فمن أين أثبت أنبياء ورسلاً ؟

قال (ع) : " إنما لما اثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً لم يجز أن يشاهده خلقه ، ولا أن يلامسوه ، ولا أن يباشرهم ويباشروه ، ويحتاجهم ويحتاجوه ، ثبت أن له سفراء عباداً يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم ، وما به بقاؤهم ، وفي تركه فناءهم ، فثبت الأمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه ، وثبت عند ذلك أن لهم معبرين - هم الأنبياء وصفوته من خلقه - حكماء مؤبدين بالحكمة ، مبعوثين عنه ، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم له في الخلق والتدبير ، مؤبدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص " .

قال : من أي شيء خلق الأشياء ؟

قال (ع) : من لا شيء !

فقال : كيف يجيء بشيء من لا شيء ؟

قال (ع) : " إن الأشياء لا تخلو ، إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء ، فإن كانت خلقت من شيء فإن ذلك الشيء قديم ، والقديم لا يكون حديثاً ولا يتغير ، ولا يخلو ذلك الشيء جوهرًا واحدًا ولونًا واحدًا ، فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى ، ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الأشياء حيًا ، أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتًا ، ولا يجوز أن يكون من حي وميت ، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حيًا ، ولا يجوز أيضًا أن يكون الميت قديمًا ، لم يزل لما هو به من الموت لأن الميت لا قدرة به ولا بقاء " .

ثم قال : من أين قالوا أن الأشياء أزلية ؟

قال (ع) : " هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء ، فكذبوا الرسل ومقاتلهم والأنبياء وما انبأوا عنه ، وسموا كتبهم أساطير ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم ، وإن الأشياء تدل على حدوثها من دوران الفلك بما فيه .. إلى آخر حديثه الطويل " .

وعندما ننهي الحديث عن هذه المحادثات الغزيرة بالنظريات الفلسفية من جانب ، والنظريات الدينية من جانب آخر ، ثم بالتوفيق بينهما ورد الأفكار الباطلة - عند ذلك - يجب أن نعرف أن الفلسفة الإسلامية لم تستطع أن تقوم لها قائمة إلا بعد قرن كامل من انقضاء مدرسة الإمام الصادق (ع) ، فهناك

(٨) إشارة إلى أن رؤية الله محالة ، حيث أن الله ليس بحجم حتى يدركه البصر ، ولا بمحاط حتى يحيط به الفكر ، ولا بحدود حتى يحدده الرصف ، وإسا هو فوق ذلك كله ، وقدرة الله وإن كانت شاملة إلا أن الشيء حيث لا يقل إلا مكان فكيف يوحد .

استطاع المسلمون أن ينشئوا مدرسة ذات أصالة وملامح خاصة من بين مدارس العالم الفلسفية ، ومع ذلك فإننا نرى أن هذه النظريات التي استفاضت بها أحاديث الإمام الصادق تتمتع بأصالة وذاتية كاملة ، في حين أن غيرها بدى مثل غناء البحر الذي يجتمع إليه من كل جانب شيء دون أن يكون فيها أي تجاوب أو تناسب — هذا في صورتها — أما في واقعها فإنها فشلت في التوفيق بين المبادئ الدينية والدراسات الفلسفية فشلاً ذريعاً ، حتى التجأت إلى التلويل في النصوص الإسلامية الصريحة ، أو الطرح لها رأساً ، لدرجة لم تعد هي فلسفة الإسلام أبداً .

بيئما نرى نظريات الإمام الصادق (ع) في دراساته لا زالت من صميم الفكرة الإسلامية وإيات الذكر وأثار النبي ، ومن قوانين الإسلام ونظمه حتى لكانه جزء لا يتجزأ من كيان موحد أصيل ، في نفس الوقت الذي نرى توفيقه الشامل لفطرة الإنسان ووجي ضميره سواء في المعنى أو في الدليل .

الفصل الثالث

مواقف مشرقة

عرض موجز للأحداث :

بنو أمية عشيرة تنتسب إلى قريش عن طريق أمية بن حرب ، وكانت تناوئ بني هاشم في الجاهلية ، حتى جاء الرسول محمد (ص) وجاءت معه الدعوة الإسلامية فعارضتها هذه العشيرة اشد معارضة حتى فشلت أمام قوتها واستسلمت إلى حين .

ومات النبي (ص) وجرت أحداث التاريخ هائجة طائشة ، ولم يكن عند بني أمية لمل العودة إلى المسرح السياسي حتى حلت الخلافة في بيت عثمان ، فوجدت بصيصاً من الأمل فراحت تتبعه .
وشاء القدر أن يقتل عثمان ، كما شاء التاريخ أن يقوم بنو عمه بطلب ثاره . من هنا بدأ تاريخ بني أمية ظاهراً في الحكومة الإسلامية .

حارب معاوية علياً (ع) الخليفة الشرعي للامة بحجة طلب الثار لعثمان ، فلما وجد أنصاراً كثيرين نصب نفسه على الناس ، ثم تطور وقال : إني وبنو الملوك ، والناس عبيد صاغرون لنا .
وانحدرت سلسلة بني أمية تحكم الناس على أنها المالكة لأمرهم وهم المطيعون ، والآ فالسيف وكل أنواع الفتك والتعذيب مآلهم .

وانفجرت من الناس ثورات تعارض الوضع بكل صراحة ومع أنها فشلت آخر الأمر ، لكنها لبقت ضمائرنا لتحيا ذات مرة وتقود المسير .

وكانت الثورات قد اتخذت طامعاً واحداً - تقريباً - هو الأخذ بثار الإمام الحسين (ع) ابن بنت رسول الامة الذي جاهد الباطل للحق فقتل افظع ما تكون قتلة في التاريخ .

اما بنو العباس فهي فرقة تنتمي إلى عم الرسول ، كانت لها سوابق لا بأس بها في تاريخ المعارضة السياسية لدولة بني أمية ، اكتسبتها مزيداً من الكرامة والاعتبار بين الشعب الساخط على سياسة الأمويين .

وجاءت سنة الثورة وارسلت الثورات مبعوثها إلى خراسان - آخر نقطة تقريباً من البلاد الإسلامية - حيث يتواجد انصار الدعوة ، لتعلن الثورة في الوقت المعلوم .

وكان أبو مسلم الخراساني فرداً مؤمناً بضرورة قلب الأوضاع مهما يكن من أمر ، ولم يكن يؤمن بغير ذلك ابداً . وهذا الإيمان في الواقع أصمّه وأعماه ، وعدم إيمانه بغيرها هو الذي سبب نجاح بني العباس في

ثورتهم دون غيرهم ممن خرجوا على الدولة ، حيث أن الشافعين على الأغلب كانوا يتورعون من ارتكاب المحرمات ولو ضمنت نجاحهم الدائم ، في نفس الوقت الذي لم يكن أنصار بني أمية محججون عن أي عمل يدعم سلطانهم أو يفني عدوهم ، فإذا حاربهم من كان مثلهم في هذه التبعية تساوى احتمال نجاح الطرفين .

لم يكن أبو مسلم فريداً بين المنتمين إلى الدعوة العباسية الجديدة ، بل إن الأكتورية الغالية من قادتها كانوا من هذا الطراز ، فلم يروا عائقاً يمنعهم عن السيادة والاستئثار بالحكم إلا اعتبروا العمل لإزالته ، عملاً حسناً بأي صورة كانت .

لقد استلم أبو مسلم من مركز القيادة - الكوفة - وأصدر أوامر كانت هذه بعض فقراتها :
" إنك رجل منا - أهل البيت - لحفظ وصيتي ، أنظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن من أظهرهم ، وأتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وإيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ سليمان بن كيد ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك الأمر فاكتف به مني والسلام " .

وهو بالذات لا يحتاج إلى مثل هذه الأوامر لأنه - كما سبق - كان رجلاً سفاكاً إلى أبعد الحدود ، فكم غدر بالقيادة المعارضين له بعدما استضافهم في بيته ، وكم أعطى الأمان لرجال صالحين ثم نكل بهم وقتلهم تقتيلاً ، وكم قتل الأبرياء بغير جريمة ، وكم هتك الحرمات بغير مبرر ، وكم وكم ..
أما القادة في الكوفة فلم يكونوا بأقل إجراماً منه ، فقد بايعوا رجلاً من بني هاشم هو محمد بن عبد الله^٩ ، وحينما وجدوا فرصة سرقوا الثروة واستاثروا بخيراتها وأنزلوا العذاب بمن ناصرهم في الأمس بل بالمؤسس للفكرة وبالأذي بايعوه عن قريب فقد اخذوه وقتلوه غدرًا .

وهذا أبو مسلم الذي كان المؤسس للدولة قد غدر به المنصور فقتله شر قتله ، وغدر بعيسى بن موسى وعزله عن ولاية العهد بعدما جعلها له إكراماً لما قدمه إليه من خدمات جليلة .

كما غدر بنو العباس بكل من أباي سلمة الخلال ، ويعقوب بن داود ، وفضل بن سهل ، وجعفر البرمكي ، ويحيى الحسني ، وغيرهم ... ممن أسدوا إليهم خدمات كانت جديرة بأن تشكر وتحزى خير جزاء .

موقف الإمام :

يعتقد البعض أن عصر الإمام الصادق (ع) كان يمكن أن يكون من أنسب العصور وأخصبها لو كان الإمام يشغل للثورة الحقبة التي ترجع الخلافة إلى المؤهل لها من عند الله عز وجل ومن أدرك رسول الله

(٩) لقد بايع الهاشميون على الأعلى وفيهم السفاح والمنصور هذا الرجل الذي رشحته نساء الكعبة للقيادة فنصب نفسه لها وأعانه عليه أقرباؤه جميعاً . كل ذلك في محل بين المدينة ومكة يسمى بـ (الأواء) .

(ص) ، لكونه عصر تطور - بالغ الخطورة - في التاريخ الإسلامي ، حيث أزال الستار عما كان الزمن قد ستره من الحقائق الدينية ، ولكن الواقع يندبى بغير هذا الزعم وهو أن الإمام الصادق (ع) لم يكن يستطيع النهوض بإظهار الدعوة على المسرح السياسي في يوم من الأيام ، فلما في عصر الأمويين فلما سبق من أنهم لم يكونوا يتورعون من أي جريمة يرتكبونها في سبيل إخماد ثورة ضدهم ، مع أن الإمام (ع) لم يلجأ إلى الباطل في طريق الحق ولم يستعن بالظلم لتطبيق العدل ، ولما بنو العباس فلم يكونوا بالحسن أعمالاً من إخوانهم بني أمية ولا بلورع عن الفتك والمكر في سبيل توطيد ملكهم ، ولذلك استطاعوا أن ينسفوا عرش بني أمية نسفاً - وهكذا ضرب الباطل بالباطل وكان بينهما تديلاً - .

كما استغل العباسيون كل نشاط لدعوة بني هاشم ، واستفادوا من الاستياء العام الذي صنعه الطالبيون - ولا زال الناس يلقون بأهلهم الكبيرة عليهم - لذلك لم يمكن النهوض بعبا الثورة الشيعية لاسيما تلك التي يتورع فيها عن أي سفك للدماء البرينة وأي هتك للحرقات المقدسة .

وبدلنا على عدم وجود مؤامرات النهوض في عصر العباسيين أن طائفة من بني عمومة الإمام ثاروا - سواء في عصر الإمام (ع) أو بعده - فلم يقلحوا وكان مصيرهم نفس المصير الذي لقيه لبأؤهم في عصر الأمويين أبداً .

ومع ذلك كله فإن الإمام (ع) كان يدعم أسس الثورة الفكرية الجامعة التي تؤدي إلى الثورة السياسية أيضاً ، وذلك بنشر الحقائق الدينية والتاريخية بصراحة وبدون غموض ، مما أدى إلى تهينة جو صالح لغرس نواة الانقلاب الفكري السياسي ، حتى أنه قرر أن يكون الإمام موسى بن جعفر الكاظم - نجل الصادق (ع) - قائم آل محمد (ص) الذي كان تعبيراً عن رجوع الدولة المغتصبة والحق المضيع إليهم ، حيث أن الشيعة لمسوا فيه رعايات واسعة لها تأثيرها في تحويل الوضع السياسي ، ولكن أتباع الدعوة الشيعية خانوها بإفشاء سر النهج والطريق المرسوم ، وكانت النتيجة أن بقي القبض على الإمام الكاظم (ع) وسجن سنوات طويلة وأنزل على الشيعة الويل والعذاب بشتى الصور .

ولكن روح الثورة التي خلقها الإمام الصادق (ع) ظلت متوقفة - حتى - بعد موت هارون الرشيد في زمان الإمام الرضا (ع) حفيد الإمام ، وانتهت بإعلان ولاية العهد الذي كان سبباً مباشراً لرجوع الخلافة إلى أبناء علي (ع) ولكن شاء القدر باستشهاد الإمام الرضا (ع) قبل موت المأمون . وعلى أي حال فإن الإمام الصادق (ع) خلق جواً صالحاً للثورة في هذه السنوات التي تولى فيها إمامة المسلمين بعد أبيه (ع) .

ومن الطبيعي أن لا تترك السلطات هادناً يمشي في طريقه المرسوم وإن كان لا يعارضهم معارضة مباشرة ، لأن مقاطعته للعباسيين كانت لهم نذير سوء ، ومثيرة لسخطهم البالغ عليه وعنفهم الشديد له . فقد دعا المنصور ليسير في ركابه كما سار غيره من أئمة الجور . حيث أرسل إليه يقول : ألا تغشانا كما يغشانا الناس ؟

فإجابه الإمام (ع) ، " ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنيك ولا ذراك في نقمة فنعزيك بها . فما تصنع عندك ؟ "

فكتب إليه المنصور ، تصحبنا لتتصحبنا .

فأجابه (ع) ، " من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك "

فقال المنصور والله لقد ميز عندي منازل الناس من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة .

والآن حيث انتهيت من وضع الخطوط العريضة لسياسة الإمام الصادق (ع) مع السلطات المعاصرة ينبغي لي أن أشير إلى بعض الأحداث التي جرت على الإمام (ع) أو على بعض مواليه من المحن التي لا قوفا من السلطة لا لشيء إلا لأنهم أرادوا الحق ودعوا إليه ، تاركاً البحث حولها إلى مجال آخر .

أشخص السفاح الإمام الصادق (ع) من المدينة إلى الحيرة ليفتك به ، ولكن كفاه الله من ذلك .

وجاء دور المنصور فتعاهد الإمام بالأذى اثنتي عشرة سنة ، وأشخصه سبع مرات في المدينة والربذة والكوفة وبغداد ، وفي كل مرة يستدعيه المنصور ، فإذا جاء إليه أندر وأعذر وذهب بالذل ، ورجع الإمام بالخير والمعروف .

واني إذ أنقل إليك أخي القارئ تفصيل هذا الاستحضار في أوائل خلافة المنصور وأواخرها ابتغاءً لبيان حدة الخلاف ونوعيته بين المنصور وبينه (ع) .

١ - روى السيد ابن طائوس نقلاً عن الربيع حاجب المنصور أنه قال ، لما حج المنصور - ربما يكون في سنة ١٤٠ أو ١٤٤ هجرية - وصار بالمدينة سهر ليلة فدعاني فقال ، يا ربيع انطلق في وقتك هذا على أخفض جناح والين مسير ، وإن استطعت أن تكون وحدك فافعل حتى تأتي أبا عبد الله جعفر بن محمد (ع) فقل له هذا ابن عمك يقرأ عليك السلام ويقول لك ،

" إن الدار وإن نأت ، والحال وإن اختلقت ، فإننا نرجع إلى رحم أمس من يمين بشمال ونعل بقبال ، وهو يسالك المصير إليه في وقتك هذا ، فإن سمح بالمصير معك فلوطنه خدك ، وإن امتنع بعدر أو غيره فاردد الأمر إليه في ذلك ، وإن امرك بالمصير إليه في تان فيسر ولا تعسر ، واقبل العفو ولا تحنف في قول ولا فعل " .

قال الربيع ، فصرت إلى بابه فوجدته في دار خلوته ، فدخلت عليه من غير استئذان فوجدته مغفراً خديه مبتهلاً بظهر كفيه قد لثر التراب في وجهه وخديه .

فأكبرت أن أقول شيئاً حتى فرغ من صلاته ودعائه ثم انصرف بوجهه . فقلت ، السلام عليك يا أبا عبد الله .

فقال ، وعليك السلام يا أخي ، ما جاء بك ؟

فقلت ، ابن عمك يقرأ عليك السلام .. حتى بلغت آخر الكلام .

فقال ، ويحك يا ربيع ! ﴿ اَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّٰهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ (الحديد/ ١٦)
﴿ أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ * وَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ *
﴿ أَقَامِنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الاعراف/ ٩٧-٩٩)

قرأت على أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم أقبل على الصلاة وانصرف إلى توجهه ، فقلت هل بعد السلام من مستعجب أو إجابة ؟

فقال ، نعم قل له ،

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْذَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى * أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *
وَأَنزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ تَوَلَّيْ * أَلا تَذَرُ * وَإِذْ يُلْقِي الْأَكْمَامَ وَيُلْجِئُ السُّلَيْمَانَ الْأَنْعَامَ * وَالْجَبَّارِينَ يَسُخِّرُونَ * وَالْجِبَّارِينَ يَسُخِّرُونَ * وَالْجِبَّارِينَ يَسُخِّرُونَ * وَالْجِبَّارِينَ يَسُخِّرُونَ *
(النجم/ ٣٣-٤٠)

وإنا والله يا أمير المؤمنين قد خفناك وخافت بخوفنا النسوة اللاتي أنت أعلم بهن ، لا بد لنا من الايضاح به ، فإن كفتف وإلا لجرينا اسمك على الله عز وجل في كل يوم خمس مرات (أي دعونا عليك مع كل صلاة دعاء لا يرد لأنه مع إخلاص) .

وانت حدثتنا عن أبيك عن جدك أن رسول الله (ص) قال أربع دعوات لا يحجب عن الله تعالى ، دعاء الوالد لولده والأخ لأخيه بظهر الغيب والمخلص .

قال الربيع ، فما استتم الكلام حتى اتت رسل المنصور تفقوا اثرى وتعلم خبري ، فرجعت فاخبرته بما كان فيكي ، ثم قال ، أرجع إليه وقل له الأمر في لقائك إليك والجلوس عنا ، وأما النسوة اللاتي ذكرتهن فعليه السلام فقد آمن الله روعتهن وجلا همهن .

قال ، فرجعت إليه فاخبرته بما قال المنصور ، فقال ، قل له وصلت رحماً وجزيت خيراً ثم اغرورقت عيناه حتى قطر من الدموع في حجره قطرات .

٢ - وعن محمد بن عبد الله الاسكندراني كان من ندماء المنصور وخواصه ، انه قال ، دخلت على المنصور يوماً فرأيت مغتماً وهو يتنفس نفساً بارداً فقلت ما هذه الفكرة يا أمير المؤمنين ! فقال لي ، يا محمد لقد هلك من اولاد فاطمة مائة لو يزيدون وقد بقي سيدهم وامامهم . فقلت له ، من ذلك ؟

قال ، جعفر بن محمد الصادق .

فقلت يا أمير المؤمنين ، إنه رجل قد انحلت العبادة واشتغل بالله عن طلب الملك والخلافة .

فقال ، يا محمد لقد علمت أنك تقول به وبإمامته ولكن الملك عقيم وقد أليت على نفسي الأُمسي عشيتي هذه أو أفرغ منه .

قال محمد ، والله لقد ضاقت علي الأرض برحبها ، ثم دعا سيافاً وقال له ، إذا أنا حضرت أبا عبد الله الصادق وشغلته بالحديث ووضعت قلنسوتي عن رأسي فهي العلامة بيني وبينك فاضرب عنقه .

ثم لحضر ابا عبد الله (ع) في تلك الساعة ولحقته في الدار وهو يحرك شفثيه فلم ادر ما الذي قرا ، فزليت القصر يموج كأنه سفينة في لجج البحار ورأيت ابا جعفر المنصور وهو يمشي بين يديه حافي القدمين مكشوف الرأس قد اصطكت أسنانه وارتعدت فرائصه يحمر ساعة ويصفر أخرى ، واخذ بعضد ابي عبد الله واجلسه على سرير ملكه وجنا بين يديه كما يجثوا العبد بين يدي مولاه ، ثم قال : يا ابن رسول الله (ص) ما الذي جاء بك في هذه الساعة ؟

قال : جنك طاعة لله ولرسوله ولأمير المؤمنين ادام الله عزه .

قال : ما دعوتك والغلط من الرسول . ثم قال : سل حاجتك ؟

فقال : اسالك الا تدعوني لغير شغل .

قال : لك ذلك وغير ذلك . ثم انصرف ابو عبد الله (ع) سريعا وحمد الله عز وجل كثيرا .

ودعا ابو جعفر المنصور بالدواويج - اي الألفه والأغطية - ونام ولم ينتبه إلا في نصف الليل ، فلما انتبه كنت عند راسه فترة ذلك ، وقال : لا تخرج حتى اقضي ما فاتني من صلاتي فاحدثك بحديث ، فلما قضى صلاته اقبل على محمد وحديثه بما شاهده من الأموال التي افزعتة عند مجيء الصادق (ع) ، وكان ذلك سببا لانصرافه عن قتله وداعيا لاحترامه والإحسان إليه .

يقول محمد قلت له : ليس هذا بعجيب - يا امير المؤمنين - فإن ابا عبد الله وارث علم النبي (ص) وجده امير المؤمنين (ع) ، وعنده من الأسماء وسائر الدعوات التي لو قراها على الليل لأثار ولو قراها على النهار لأظلم ولو قراها على الأمواج في البحور لسكنت .

وهكذا استمر المنصور يدعو الإمام مرة بعد أخرى حتى دس إليه السم فقطه .

ولم تقتصر مواقف الإمام المشرقة في التي وقفها مع المنصور فقط ، بل ، إن له مواقف مشابهة مع ولادة المنصور من ذلك ما يلي ،

١ - ذات مرة كان الصادق (ع) عند زياد بن عبد الله فقال الرجل : يا بني فاطمة ما فضلكم على الناس ؟ (فسكت كل من كان في المجلس من الفاطميين خوفاً على انفسهم من قتل الرجل) . فقال الإمام : " إن من فضلنا على الناس انا لا نحب ان نكون من احد سوانا ، وليس احد من الناس لا يحب ان يكون منا " .

٢ - وكان داود بن علي والياً على المدينة فامر مدير الشرطة بإعدام (معلى بن خنيس) وهو من زعماء الشيعة البارزين ومن اصحاب الإمام الصادق (ع) المفوهين ، فنفذ مدير الشرطة امر الرئيس . فلما قتل (معلى) جاء الإمام وقد اشتد غضبه على الحكم إلى الوالي يقول له : قتلت مولاي واخذت مالي !! اما علمت ان الرجل ينام على النكل ولا ينام على الحرب .

فاعتذر الوالي بأنه لم يكن القاتل المباشر .

فذهب إلى مدير الشرطة فاعترف بالجرم فامر بضرب عنقه فقطه حزاً على قتله وقهوراً .

الفصل الرابع

مكارم الاخلاق

ثقافته الواسعة :

لا نستطيع ان نحدد من ثقافة الإمام - أي إمام - إذا اعتقدنا بأن ثقافته صورة واضحة عن اتصاله بالله تعالى ، حيث انه يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الله يوحى إليه إلهاماً . وكذلك لا نستطيع أن نجد وصفاً شاملاً لثقافته إذا عرفنا بأن المفاهيم العادية التي نعيشها في حياة الإنسان لا تضبط كل ثقافته وكل معرفته ، لأن للإمام وللنبي وللبعض الملهمين من الصالحين قوة يهبهم إياها الله القدير ، تلتقط المعلومات عن الكون والحياة كما تلتقط آلة التصوير أو أفلام السينما صور الموجات ، وكما تلتقط العين وأعصاب الأذن جمال الحياة وصوت الأحياء ، فيعرف شيئاً جميلاً وفرداً متكماً .

وإعود فاقول ، ليست ثقافة الإمام الصادق (ع) محدودة بما قال أو بما حفظ عنه من آثار في مختلف العلوم ، بل أكبر من هذا سعة وأكثر رحابة وأبعد أفقاً ، لأن ثقافته اتصلت بالموجودات رأساً كما تتصل السحابة بالبحر ، والضياء بالشمس والعطر بالورد وحيث كان يستوحى أفكاره واتجاهاته ومعارفه من الله خالق البحر والشمس ، ومفتح الورد . فالوحي من الله فالنبي فالإمام ، وكذلك الإلهام من الله فالإمام . إن الحقيقة التي عبر عنها فم الإمام هي الحقيقة التي عرفها قلبه ، وحواسها فكره ، وأدركتها روحه ، والتي نفخها باري الحقيقة في روح الإمام (ع) .

وبعد كل هذا فإن هناك جانباً واحداً يهمنا من ثقافة إمامنا الصادق (ع) وهو أنها كانت معجزته كما كان معجزة النبي (ص) قرآنه ، وأنه يعلم كل شيء يحتاج إليه الإنسان ، وهذا الجانب وحده هو الذي حدا بالجعفرية أن يتبعوا مدرسته الفكرية في كل عصر .

وهنا يجدر بنا أن ننقل اعترافات بعض الزعماء والمفكرين بمدى سعة آفاق الإمام العلمية ، ومدى رحابة مكانته الثقافية ، التي جعلت من أعدائه منابر المدح ومنصات الثناء .

قال فيه أبو حنيفة ، " ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد " و " جعفر بن محمد أفقه من رأيت " .

وقال فيه الشهرستاني ، " وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة " .

وقال فيه ابن حجر الهيتمي ، " جعفر بن محمد الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الكبار " .

وقال فيه السيد أمير علي صاحب كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ،

" لا يفوتنا ان نشير إلى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى بالإمام جعفر والملقب بـ (الصادق) ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد لغوار العقل ، ملم كل الإمام بعلم عصره ، ويعتبر في الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام . ولم يكن يحضر حلقة العلمية لأولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة المتفلسفون من الأنحاء القاصية .

وقال العلامة هولميادار الكاتب الإنكليزي :

" إن جابر هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه ، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغني عنه ، وقد سعى جابر إلى أن يحرر الكيمياء بإرشاد استاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الإسكندرية ، فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد ، من أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطير هذا الفن في العالم أمثال (بويله) و (فوازيه) وغيرهما من الأعلام " ^{١٠} .

وهناك مئات بل الوف من الإعترافات التي أبدتها كل من الكتاب المسلمين وغيرهم من المحدثين والعلماء ، وبصورة خاصة من معاصري الإمام (ع) حتى ملأ العالم فضله وعلمه الغزير وثقافته الوسيلة البالغة .

جوده وكرمه :

١ - قال سعيد بن بيان : مر بنا المفضل بن عمر - أنا واخنت لي - ونحن نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال لنا : تعالوا إلى المنزل ، فأتيناه فاصلح بيننا بأربعمائة درهم دفعها إلينا من عنده حتى إذا استوفى كل واحد منا صاحبه قال المفضل : أما إنها ليست من مالي ولكن لأبي عبد الله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن نصلح وأفتد بها من ماله - فهذا مال أبي عبد الله - .

٢ - وجاء إليه رجل وقال : لقد سمعت أنك تفعل في عين زياد - وكان ذلك اسم قرية له - شيئاً أحب أن أسمعه منك .

فقال (ع) : " نعم كنت أمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم (أي يشق ويهدم) في حيطانها الظم ليدخل الناس ويأكلوا . وكنت أمر أن يوضع بنيات يقعد على كل بنية عشرة ، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى يلقي لكل منهم مد من رطب ، وكنت أمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة ومن لا يقدر أن يجيء فيكال لكل إنسان مداً فإذا أوفيت القوام والوكلاء أجرتهم وحمل الباقي إلى المدينة ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم ، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار وكان غلتها أربعة آلاف دينار " ^{١١} .

(١٠) نجد هذه الإعترافات وعشرات أمثالها في كتاب الإمام الصادق للأستاذ الدخيل فصل (الإمام في نظر

المعظم والعلماء) : (ص ٨٦ - ١١١)

(١١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة : (ج ٢ ، ص ٥٣) .

يعني ذلك أنه كان يصرف تسعة أعشار تلك الضيعة في الوجوه الخيرية بينما يجعل لنفسه عشراً واحداً منها فقط .

٣ - وينقل هشام بن سالم أحد أصحاب الإمام البارزين فيقول : كان أبو عبد الله إذا اعتم - أي اظلم - وذهب من الليل شطره أخذ خناً فيه لحم وخبز ودراهم فحملة على عنقه ثم ذهب إلى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمة فيهم ولا يعرفونه .

فلما مضى " وتوفي " أبو عبد الله فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان أبا عبد الله ^{١٢} .

٤ - يحدث الهياج البسطامي عن كرم الإمام فيقول : كان أبو عبد الله ينفق حتى لا يبقى شيء لعياله ^{١٣} .

٥ - وقال يوابه المصادف : كنت مع أبي عبد الله بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة وقد القى بنفسه فقال (ع) مل بنا إلى هذا الرجل (أي إعدل الطريق إلى جانبه) فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش ، فلمنا إليه فإذا هو رجل من النصاري طويل الشعر ، فسأله الإمام : عطشان أنت ؟ فقال : نعم فقال الإمام : أنزل يا مصادف فاسقه ، فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا ، فقلت له : هذا نصراني أفترض على نصراني ؟

فقال : نعم إذا كانوا يمثل هذه الحالة ^{١٤} .

٦ - كان مريضاً ذلك النهار الذي دخل عليه الشاعر الملهم اشجع السلمي فجلس إليه يسأل عن أحواله فقال له الإمام (ع) تعدّ عن العلة واذكر ما جنت له . فقال الشاعر :

البسك الله منه عافية	فسي نومك المعترى وفي أرقك
يخرج من جسمك السقام كما	أخرج ذل السؤال من عنقك
فقال الإمام : يا غلام أي شيء عندك ؟	
قال : أربعمائة . قال : أعطها لأشجع .	

٧ - وبعث إلى ابن عم له من بني هاشم صرة بيد أبي جعفر الخشعمي - وكان من ورائه الموثوقين - فأمره بأن يكتمه عنه . فلما جاء إلى الهاشمي وأعطاه ، قال : جزاه الله خيراً ، ما يزال كل حين يبعث بها فتعيش به إلى عام قابل ، ولكني لا يصلني جعفر بدرهم مع كثرة ماله .
وحينما حضرته الوفاة أمر بسبعين ديناراً لابن عمه الحسن بن علي الأفطس ، فقيل له : اتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة ليقتلك ؟

(١٢) الإمام الصادق - محمد أنور رهرة : (ص ٨١) .

(١٣) المصدر : (ص ٨١)

(١٤) الإمام الصادق والمدهاب الأربعة : (ح ٤ ص ٢٨) .

فقال عليه السلام ، ويحكم لما تقرأون ،
﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلُفُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد / ٢٠)
" إن الله خلق الجنة فطيبها وطيب ريحها ليوجد من مسيرة ألف عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع
رحم " ١٥ .

حلمه وأفته :

١ - كان (عليه السلام) إذا بلغه من أحد نبلاً منه أو وقية فيه قام إلى مصلاه فاكتر من ركوعه
وسجوده وبالح في ابتهاله وضراعه وهو يسأل الله أن يغفر لمن ظلمه بالسب ونال منه .
وإن كان من أقربائه الأدين فكان يوصله بمال ويزيد في بره قائلاً ، إني لأحب أن يعلم الله أنني أنزلت
رقتي في رحمي ، وأني لأبادر أهل بيتي أصلهم قبل أن يستغنوا عني .
لله سيدي ما أعظمك واحلمك .. وما لكبرك نفساً وأرحبك صدرأ واحسبك خلقاً .
٢ - وبعث غلامه إلى حاجة فابطا ، فذهب على أثره يتفقده فوجده نائماً على بعض الأرضة ، فجاء حتى
جلس بجانبه يروح له فلما انتبه قال له ، يا فلان ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار .
إذا أضفنا هذه القصة الصغيرة إلى الوضع الاجتماعي ذلك اليوم الذي كان الرقيق يحاملون معاملة
البهائم فيشبعونهم ضرباً بمجرد أن تبدر منهم بادرة ، نعرف مدى نضوج الإنسانية الرفيعة في فؤاده
الكبير .

٢ - بعث غلاماً له أعجمياً في حاجة فلما رجع بالجواب لم يستطع أن يفصح به العبد لأنه لم يكن يجيد
العربية تماماً ، فبدلاً من أن ينهره ويطرده - شأن الناس ذلك اليوم - سكن قلبه وهذا اضطرابه وقلقه
حيث قال له ، لأن كنت عي اللسان فما أنت بعي القلب ثم أضاف ،
" إن الحياء والعفاف والعي - عي اللسان لا عي القلب - من الإيمان " ١٦ .

٣ - ونهى أهل بيته عن الرقي إلى السطح عبر سلم مشيراً لهم بأفضلية الدارج المألوف للحسود ،
فدخل ذات مرة الدار ورأى إحدى الجوارى التي كانت تربي ولداً له تتسلق السلم والحفل بيدها فلما
بصرت الجارية بالإمام خافت وارتعدت فرائصها وسقط الصبي من يدها ومات .

فخرج (ع) إلى مجلسه متغيراً لونه ، فلما سئل عن ذلك قال ، ما تغير لوني لموت الصبي ، وإنما تغير
لونني لما أدخلت على الجارية من الرعب ، في حين أن الإمام قال لها حينما شاهدها خائفة مدعورة ، أنت
حرة لوجه الله ، أنت حرة لوجه الله . ١٧ .

٤ - كانت الحجاج تتقاطر على مكة والمدينة وكان بعضهم يفضل المبيت في مسند النبي (ص) بدلاً

(١٥) تجد هذه الأحبار كلها في كتاب الإمام الصادق للعامة المطهر في (ص ٣٥٢ - ٢٥٥) .

(١٦) بحار الأنوار : (ج ٤٧ ، ص ٦١) .

(١٧) المناقب .

من أن يستأجروا مقابل بعض الدراهم ، فكان أحدهم نائماً بالمسجد والإمام يصلي بجانبه فلما انتبه لم ير هميانه الذي حفظ فيه نقوده ، فتعلق بالإمام - ولم يكن يعرفه - قائلاً له أنت سرقت همياني .

قال له الإمام ، كم كان عندك من النقود ؟

قال ، ألف دينار . فحمله إلى منزله وأعطاه ألف دينار فذهب الرجل ثم وجد هميانه وفيه ألف دينار فعاد بالمال إلى الإمام متعذراً ، فأبى قبوله قائلاً : شيء خرج من يدي لا يعود إليّ .

فخرج الرجل يسأل الناس عن الإمام فقبل هذا جعفر بن محمد فقال : لا جرم هذا فعال مثله ^{١٨} .

صبره وأمانته :

كان للإمام ولداً يدعى (إسماعيل) وكان أكبر أولاده ، فلما شبَّ كان جماع الفضائل والمكارم حتى حسب أنه خليفة أبيه والإمام من بعده ، ولما اكتمل نبوغه صرعه المنية ، فلم يخرج لوفاته بل دعا أصحابه إلى داره لمراسم الدفن وأتى إليهم بأفخر الأطعمة وحثهم على الأكل الهنيء ، فسأله عن حزنه على الفقيد الغتي الذي اختطفه الموت في ربيعه ولما يكمل من الحياة نصيبه ، قال لهم ، ومالي لا أكون كما ترون في خير أصدق الصادقين - أي الرسول (ص) - ، ﴿ إنك ميت وإلهم ميتون ﴾

٢ - وكان له ولد آخر كان في بعض طرقات المدينة يمشي امامه غضاً طرياً ، اعترضته غصة في حلقه فشرق بها ومات امامه ، فبكى (ع) ولم يجزع بل اكتفى بقوله مخاطباً لجثمان ولده الفقيد ،

" لنن أخذت لقد أبقيت ، ولنن ألبيت لقد عافيت " .

ثم حمله إلى النساء فصرخن فاقسم عليهن ألا يصرخن .

ثم أخرج به إلى المدفن وهو يقول ، " سبحان من يقتل أولادنا ولا يزداد له إلّا حياً " .

وقال بعد الدفن ، " إنا قوم نسال الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا ، فإذا أحب ما نكره فيمن نحب رضينا " .

نظرة الإنسانية :

إن نظرة الإمام الصادق (ع) الإنسانية تتبثق من نظرة الإسلام إليها في شتى صيغها ومفاهيمها ، وإنني لا أريد أن أورد بعض المثل في ذلك من سيرة الإمام ، بينما لجعل البحث والتعليق لفرص أخرى إن شاء الله تعالى ، ذلك لكي نكشف عن مدى تفاني الإمام في حب الإنسانية وصراعاتها وتقدير حقوقها حتى يجعل الصخر ينحني والنجم والشجر يسجدان إجلالاً وإكراماً لهذه النظرة العظيمة .

١ - أعطى بوابه ومولاه - مصادف - ألف دينار وقال له تجهز حتى نخرج إلى مصر (أي في رحلة تجارية) فإن عيالي قد كثروا ، فتجهز وخرج مع التجار إلى مصر فلما دنوا منها استقبلتهم قافلة خارجة منها فسألوه عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة ؟ فآخبرهم أن ليس بمصر منه شيء فتحالفوا

(١٨) الإمام الصادق (ع) للعلامة المظهر : (ح ١ ، ص ٢٥٨) .

وتحاقدوا على أن لا ينقصوا من أرباح دينار ديناراً - يعني يجعلون الربح مضاعفاً - فلما قبضوا أموالهم انصرفوا إلى المدينة .

فدخل مصادف على أبي عبد الله (ع) ومعه كيسان في كل واحد ألف دينار وقال ، جعلت فداك هذا رأس المال وهذا الآخر ربح فقال (ع) ، إن هذا الربح كثير ولكن ما صنعتُم في المتاع ؟ فحدثته مصادف بقصة تجارتهم .

فقال ،

" سبحان الله تطفون على قوم مسلمين ألا تبيعوهم إلا بربح الدينار ديناراً ؟ ثم اخذ أحد الكيسين فقال هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في الربح . ثم قال يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال " ^{١٩} .

٢ - كان للإمام صديق لا يكاد يفارقه ، فغضب يوماً على عبده وسبه قائلاً ، أين كنت يا ابن الفاعلة !! فلما سمع أبو عبد الله دفع يده فصك بها جبهة نفسه . ثم قال ، سبحان الله تقذف أمه ، قد كنت أرى لك ورعاً .

فقال الرجل ، جعلت فداك إن أمه أمة مشركة ، فقال (ع) ، أما علمت أن لكل أمة نكاحاً .

٣ - انقطع شسع نعله وهو يسير مع بعض أصحابه يشيعون جنازة ، فجاء رجل بشسعه ليناوله ، فقال ، امسك عليك شسعك فإن صاحب المصيبة أولى بالصبر عليها .

٤ - قال بعض أصحابه ، أصاب أهل المدينة غلاء وقحط حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله ، وكان عند أبي عبد الله طعام جيد - فيه كفاية - قد اشتراه أول السنة فقال لبعض مواليه ، ائشتر لنا شعيراً واخلط بهذا الطعام ، أو بعه فإننا نكره أن نأكل جيداً ويأكل الناس رديناً .

وقال الآخر دخلنا على أبي عبد الله في حائط - أي بستان - له وببده مسحة بفتح ، بها الداب وعليه قميص ، وكان يقول إني لأعمل في بعض ضياعي وإن لي من يكفيني ليعلم الله أنني أملك الرزق الحلال .

عبادته وطاعته :

كل من وصف جعفر بن محمد الصادق (ع) بالعمل شفعه بالزهد والطاعة وإليك بعض تكلماتهم في ذلك ، قال مالك - إمام المذهب - ، " كان جعفر لا يخلو من إحدى ثلاث خصال ، إما محسناً وإما دسائماً وإما يقرأ القرآن " ^{٢٠} .

وقال ، " ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق (ع) علماً وعبادة وورعاً " ^{٢١} .

وقال الوزير أبو الفتح الأرسلي ، " وقف نفسه الشريفة على العبادة وحدثها على الدعاة والزهاد واشتغل

(١٩) المصدر : (ص ٢٦٧) .

(٢٠) تهذيب التهذيب : (ج ٢ ، ص ١٠٥) .

(٢١) المصدر : (ص ١٠٥) .

بأوراده وتهجده وصلاته وتعبدته " .

ويروي بعض معاصريه : رأيت أبا عبد الله (ع) ساجداً في مسجد النبي (ص) فجلست حتى أطلت ، ثم قلت : لأسبحنَّ ما بدام ساجداً فقلت : سبحان ربي وبحمده استغفر ربي وأتوب إليه ثلاثمائة ونيفاً وستين مرة فرفع رأسه .

" إنه كان يلبس الجبة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده ، والحلة من الخز على ثيابه ويقول : نلبس الجبة لنا والخز لكم " ، ويرى عليه قميص غليظ خشن تحت ثيابه وفوقه جبة صوف وفوقها قميص غليظ " .

" ويطعم ضيوفه اللحم ينتقيه بيده وهو يأكل الخل والزيت ويقول : " إن هذا طعامنا طعام الأنبياء " ^{٢٤} .

من بلاغته :

لقد زحرت الكتب الدينية بالحديث بليغة عن الإمام الصادق (ع) ولك أيها القارئ بعض روائعه تاركين من يريد أكثر من ذلك يراجع كتاب " أشعة من بلاغة الإمام الصادق (ع) " للعلامة الفقيه الشيخ عبد الرسول الواعظي .

" لوصى إلى المنصور الخليفة المعاصر له فقال : عليك بالحلم فإنه ركن العلم ، وأملك نفسك عند أسباب القدرة ، فإن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفي غيظاً أو تناوى حقداً لو يجد ذكراً بالوصولة ، وأعلم بأنك إن عاقبت مستحقاً لم تكن غاية ما توصف به إلا العدل ، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر " .

فقال المنصور : " وعظمت فأحسنمت وقلت فلوجزت " .

ومن وصية له إلى ولده الإمام الكاظم (ع) ،

" يا بني أفعّل الخير إلى كل من طلبه منك . فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه ، وإن لم يكن له باهل كنت أهله ، وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره " .

قال سفيان الثوري لقيت الصادق ابن الصادق جعفر بن محمد (ع) فقلت : يا ابن رسول الله لو صني .

فقال : يا سفيان لا مروءة لكتوب ، ولا أخ لملوك ، ولا راحة لحسود ، ولا سؤدد لسئى الخلق .

فقال : يا ابن رسول الله زدني .

فقال لي : يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً ، وارض بما قسم الله لك تكن غنياً ، واحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، ولا تصحب الفاجر معك يحلمك من فجور ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل ^{٢٥} .

(٢٢) أعيان الشيعة : (ح ٤ ، ص ١٣٨) .

(٢٣) الإمام الصادق للعلامة المطهر : (ح ١ ، ص ٢٧٠) .

(٢٤) المصدر . (ص ٢٧٠) .

(٢٥) الإمام الصادق (ع) للأستاذ الدحل (ص ٣٢)

الامام الكاظم (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، محمد وآله الهداة .
في الوقت الذي يشهد العالم بعناً إسلامياً أصيلاً ، ليكون أملاً في أفئدة المحرومين ، وخطراً على
كيان الظالمين ، يحكف مستكبروا العالم ، والظالمون على دراسة الخطط الكفيلة بصدّ هذا الموج ،
أو لا أقل من احتوائه ، ويهمس شياطينهم في آذانهم أن لا يفسد أمر آخر هذه الأمة إلا بما أفسد أوله ،
أي بث النواة الطائفية ، وإقامة أنظمة التسلط والقهر باسم الدين ، وبعث الروح في العصبية
الجاهلية .

فإذا بالاقلام المرتزقة تضرب على وتر الطائفية ، وتهاجم مذهب آل البيت ، ولا تفتأ تكرر من نغمة ،
الإرهاب الشيعي ، عسى أن تثير أحقاداً أموية دفينّة في نفوس بعض المسلمين .
وهكذا كان على الأقلام الشريفة والضمائر النظيفّة أن تنهض بواجب المحافظة على مكاسب الأمة ،
وتحمي روافد البعث الإسلامي الجديد ، من رجس الشياطين ونفثهم ووسوستهم وإعلامهم
المضلل .

الا فلنبذ العصبية الجاهلية ، ولندافع عن رسالات الله ، وعن رسله العظام (عليهم السلام) وعن
رسول الله محمد بن عبد الله (ص) ، وعن أهل بيته المظلومين (ع) ، وعن الخط الرسالي الأصيل في
الأمة .

إن الشيطان قد عبّ قواه وجاعكم بخيله ورجاله واعدّ لإغوانكم وصدّكم عن السبيل كل مكائده ومصائده ،
فلنتسلّح بمزيد من الوعي ولنكن على أشد الحذر ، ولنتخذ أقلامنا دروعاً للدفاع عن مقدسات الأمة ، وعن
أهل بيت الرسول وعن سبيلهم القويم في مقاومة أنظمة النفاق التي تعود اليوم إلى الظهور .
وإنّي أرى بوضوح ، أن الإهتمام بتراث آل البيت (ع) المتمثل في نهجهم وسيرتهم وشرحهم لمعارف
القرآن ، وتفسيرهم لسُنّة جدهم الرسول (ص) يضمن استمرار الثورة الإسلامية واستقامتها وانتصارها
بإذن الله ، وإن التهاون بهذا الشأن غلطة كبيرة وخطأ مميت .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال لعام ١٤٠٥ هـ والذي يصادف ذكرى وفاة الإمام الصادق
(ع) ، ابتداء في تأليف حلقة جديدة من سلسلة (قدوة واسوة) تقص حياة نجل الإمام الصادق الإمام
موسى بن جعفر (ع) تلك الحياة الحافلة بالعبر والدروس الثورية .

واني اعتبر ذلك مساهمة بسيطة في صدّ مؤامرات المستكبرين ضد خط آل البيت ، ومكرهم في احتواء
البعث الإسلامي الأصيل .
أسأل الله أن يوفقني لإكمال هذه الحلقة وسائر الحلقات ، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من
أتى الله بقلب سليم .

الفصل الاول

الاصل الكريم والمولد المبارك

يبدو أن قرية (الأبواء) الواقعة بين المدينة ومكة ، كانت تستقطب قوافل الحجاج من آل البيت أكثر من غيرها ، لأنها كانت مثنوى أم الرسول آمنة بنت وهب .
وفي طريقهم إلى المدينة قافلين من حج بيت الله الحرام^١ حطت قافلة الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) في هذه القرية ، وذلك في اليوم السابع عشر من شهر صفر الخير ، عام ١٢٨ هـ - على أشهر الروايات - ، حيث قدم الإمام المائدة لضيوفه ، وجاءه الرسول من عند نسائه تبشيره بالوليد المبارك .
تقول الرواية التاريخية - الماثورة عن منهال القصّاب قال : (خرجت من مكة وأنا أريد المدينة) فمررت بالأبواء وقد ولد لأبي عبد الله (ع) فسبقتة إلى المدينة ، ودخل بعدي بيوم فاطعم الناس ثلاثاً ، فكنت أكل فيمن يكل ، فما أكل شيئاً إلى الغد حتى أعود فأكل ، فمكثت بذلك ثلاثاً أطمع حتى ارتفق ثم لا أطمع شيئاً إلى الغد) .

وجاء في حديث مروي عن أبي بصير قال : (كنت مع أبي عبد الله (ع) في السنة التي ولد فيها إبنه موسى (ع) ، نزلنا الأبواء وضع لنا أبو عبد الله (ع) الغذاء ولأصحابه وأكثره وأطابه ، فبينما نحن نتغذى إذ أتاه رسول حميدة أن الطلاق قد ضربني ، وقد أمرتني أن لا أسبقك بابتك هذا .
فقام أبو عبد الله فرحاً مسروراً ، فلم يابث أن عاد إلينا حاسراً عن ذراعيه ضاحكاً سنّه ، فقلنا ، أضحك الله سنك ، وأقر عينك ، ما صنعت حميدة ؟

فقال : وهب الله لي غلاماً وهو خير من برا الله ، ولقد خبرتني عنه بأمر كنت أعلم به منها ، قلت ، جعلت فداك وما خبرتك عنه حميدة ؟ قال : ذكرت أنه لما وقع من بطنها وقع واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء ، فلخبرتها أن تلك إمارة رسول الله (ص) وإمارة الإمام من بعده .

فقلت ، جعلت فداك وما تلك من علامة الإمام ؟ فقال : إنه لما كان في الليلة التي علق بجدي فيها ، أتى أترجدي أبي وهو راقد ، فأتاه بكأس فيها شربة لرقّ من الماء ، وأبيض من اللبن ، والبن من الزبد ، وأطلى من الشهد ، وأبرد من الثلج ، فسقاه إياه وأمره بالجماع ، فقام فرحاً ومسوراً فجامع فعلق فيها بجدي ، ولما كان في الليلة التي علق فيها بابي أتى أترجدي فسقاه كما سقى جدّ أبي وأمره بالجماع ، فقام فرحاً

(١) راجع موسوعة بحار الأنوار . (ح ٤٨ ، ص ٤) وأيضاً كتاب المحاسن للرقبي : (ج ٢ ، ص ٤١٨) .

مسروراً فجامع قعلق بابي ، ولما كان في الليلة التي علق بي فيها ، أتى أبي فسقاه وامره كما امرهم ، فقام فرحاً مسروراً فجامع قعلق بي ، ولما كان في الليلة التي علق فيها بابني هذا أتاني أت كما أتى جدّ أبي وجدّي فسقاني كما سقاهم ، وامرني كما امرهم ، فقامت فرحاً مسروراً بعلم الله بما وهب لي ، فجامعت فعلق بابني هذا المولود ، فدونكم فهو والله صاحبكم من بعدي) .

فلما إن عاد الإمام إلى المدينة أطعم الناس ثلاثاً وتباشر الناس بالوليد المبارك .

أبواه :

والده : إمام الهدى أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) .
والدته : حميدة البربرية التي ربما كانت من الأندلس أو من المغرب ، وكانت تلقب بـ (حميدة المصفاة) .

وقد كانت حميدة من فضليات النساء حيث اضطلعت بمهمة نشر الرسالة ، وقد روت بعض الأحاديث عن زوجها (ع) .

فعن ابن سنان ، عن سابق بن الوليد ، عن المعلّى بن خنيس أن أبا عبد الله (ع) قال : (حميدة مصفاة من الأدناس ، كسبيكة الذهب ، ما زالت الأملاك تحرسها حتى أدّيت إليّ كرامة من الله لي والحجة من بعدي) .

صفاته :

كانت ملامحه الشخصية (ع) تعبر عن تلك النفس الكبيرة ، وتلك المسؤولية العظمى التي كان عليه ادائها . ذلك الهاشمي الكريم أزهى الملامح ، مربع القامة ، تمام خضر ، حالك ، كث اللحية ، يفيض مطابة وجلالاً .

وتكشف القابه عن الصفات الرسالية التي تجلّت فيه فهو : الكاظم والصابر والصالح ، الأمين . وفعلاً كانت حياته حافلة بتجليات هذه الصفات الفضيلة .

نشأته :

خلال عشرين عاماً من عمره الشريف كان والده الإمام أبو عبد الله الصادق (ع) ، يتعهده بالرعاية ، ويشير إلى فضائله ويبين لخاصة أوليائه أنه سيد ولده ، وأنه الإمام من بعده .

إن الإمامة لا بد أن تكون بنص صريح ، وقد تواترت النصوص على الأئمة الإثني عشر من الرسول الأكرم (ص) ، وهكذا كان كل إمام يوصي بمن بعده ، فلهذا كان الموالون لآل البيت (ع) ، حريصين على التمسك من إمامهم يسألون السلف عن الخلف .

يروى عبد الرحمن بن الحجاج يقول : دخلت على جعفر بن محمد في منزله وهو في ... ، فزاره ،

(٢) موسوعة البحار : (ج ٤٨ ، ص ٢) .

(٣) المصدر : (ص ٦) نقلاً عن الكافي : (ح ١ ، ص ٤٧٧)

في مسجده له وهو يدعو ، وعلى يمينه موسى بن جعفر يؤمن على دعائه ، فقلت له ، جعلني الله فداك قد عرفت انقطاعي إليك ، وخدمتي لك ، فمن ولي الأمر بعدك ؟ قال : (يا عبد الرحمن إن موسى قد لبس الدرع فاستوت عليه ، فقلت له ، لا احتاج بعدها إلى شيء)^٤ .

وكان الإمام الصادق (ع) يوصي سائر أبنائه بحق ابنه موسى (ع) ، فهذا عبد الله بن جعفر أكبر سناً من الإمام موسى يتحدث إليه والده ويقول له ، ما يمنعك أن تكون مثل أخيك ، فوالله إنني لأعرف النور في وجهه ، فقال عبد الله ، وكيف ؟ ليس أبي وأبوه واحداً ؟ وأصلي وأصله واحداً ؟ فقال له أبو عبد الله ، (إنه من نفسي وأنت ابني)^٥ .

وكانت حياة الإمام موسى (ع) متميزة منذ الصبا ، ولذلك فقد كانت في ذلك أماره مقامه العظيم . جاء في حديث ماثور عن صفوان الجمال وهو من خواص الشيعة ، سألت أبا عبد الله عن صاحب هذا الأمر ، قال ، صاحب هذا الأمر لا يلهو ولا يلعب ، وأقبل أبو الحسن وهو صغير ومعه بهمة عنق مكية^٦ ويقول لها ، اسجدي لربك ، فآخذه أبو عبد الله وضمه إليه وقال بابي أنت وأمي من لا يلهو ولا يلعب^٧ .

وهكذا شبَّ موسى بن جعفر محبوباً بين إخوته بسبب وصفه المميز ، وعملاً بوصايا والده بحقه ، فكان بين إخوته المتمسكين بولاية علي بن جعفر ، جاء في الحديث الماثور عن محمد بن الوليد قال ،

(سمعت علي بن جعفر بن محمد الصادق (ع) يقول ، سمعت أبا جعفر بن محمد (ع) يقول لجماعة من خاصته وأصحابه ، استوصوا بموسى ابني خيراً فإنه أفضل ولدي ، ومن لظف من بعدي وهو القائم مقامي والحجة لله عز وجل على كافة خلقه من بعدي ، وكان علي بن جعفر شديد التمسك بأخيه موسى ، والإنقطاع إليه ، والتوفر على أخذ معالم الدين منه ، وله مسائل مشهورة عنه ، وجوابات رواها سماعاً منه ، والأخبار فيما ذكرناه أكثر من أن تحصي على ما بيّناه ووصفناه)^٨ .

ولأن عهد الإمام الصادق (ع) مميز ببعض الانفراج ، وقد انتشرت معارف أهل البيت وأصبح مذهبهم من بين المذاهب الأكثر شيوعاً واتباعاً في العالم الإسلامي ، فلقد كان الخوف على مستقبل الطائفة شديداً ، حيث كان يخشى من طمع بعض القيادات في الرئاسة على الطائفة ، وربما انجرف معهم بعض أولاد الإمام الصادق أو لحفاده ، لذلك فقد كان تأكيد الإمام على أن الوصي بعده ابنه موسى شديداً ومستمراً .

وهكذا كان فلقد انحرف البعض وزعم أن الولي بعد الإمام الصادق (عليه السلام) ابنه الأكبر إسماعيل ، وقالوا بأنه لم يمت على عهد أبيه إنما غاب عن الأنظار .

(٤) المصدر : (ص ١٨١ ج ٤٨) .

(٥) المصدر .

(٦) المهمة الواحدة من الضاد ، والعناق الأثنى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة .

(٧) المصدر .

(٨) المصدر . (ص ٢٠) .

وكانت الفرقة الإسماعيلية ذات الشوكة التي أسست أكبر حركة ثورية بعد الحركة الرسالية ، وبنت دولة عظيمة في شمال إفريقيا وكانت هذه الحركة وليدة هذا التصور الخاطيء .
من هنا أشهد الإمام الصادق (ع) كبار شيعته على وفاة ابنه واكد لهم ان الوصي الحق بعده إنما هو موسى (ع) .

فلقد روي عن زرارة بن اعين انه قال ،

(دخلت على ابي عبد الله (ع) وعن يمينه سيد ولده موسى (ع) وقدامه مرقد مغطى ، فقال لي ، يا زرارة جنني بداود الرقي ، وجرمان ، وابي بصير ، ودخل عليه المفضل بن عمر ، فخرجت فأحضرت من امرني بإحضاره ، ولم يزل الناس يدخلون واحداً إثر واحد ، حتى صرنا في البيت ثلاثين رجلاً .
فلما حشد المجلس قال ، يا داود اكشف لي عن وجه اسماعيل ، فكشف عن وجهه ، فقال ابو عبد الله (ع) ، يا داود احبّ هو أم ميت ؟ قال داود ، يا مولاي هو ميت ، فجعل يعرض ذلك على رجل رجل ، حتى اتى على آخر من في المجلس وكل يقول ، هو ميت يا مولاي ، فقال ، اللهم اشهد ثم امر بغسله وحنوطه ، وإدراجه في أثوابه .

فلما فرغ منه قال للمفضل ، يا مفضل احسر عن وجهه ، فحسر عن وجهه فقال ، احبّ هو أم ميت ؟ فقال ميت قال ، اللهم اشهد عليهم ، ثم حمل إلى قبره ، فلما وضع في لحدّه قال ، يا مفضل اكشف عن وجهه ، وقال للجماعة ، احبّ هو أم ميت ؟ قلنا له ، ميت فقال ، اللهم اشهد ، واشهدوا فإنه سيرتاب الميطلون ، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ثم اوما إلى موسى ، والله متم نوره ولو كره المشركون ، ثم حثوا عليه التراب ، ثم اعاد علينا القول فقال ، الميت المكفن المحنط المدفون في هذا اللحد من هو ؟ قلنا ، إسماعيل قال ، اللهم اشهد ، ثم أخذ بيد موسى (ع) وقال ، هو حق والحق معه ومنه ، إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها)^٩ .

(٩) المصدر : (ص ٢١) .

الفصل الثاني

الامام وعصره

عصر الإمام موسى بن جعفر (ع) :

لقد كانت مدة إمامة الكاظم (ع) خمسة وثلاثين عاماً حيث اضطلع بها منذ أن كان عمره عشرين ربيعاً عام ١٤٨ هـ إلى أن استشهد عام ١٨٢ هـ وعمره خمسة وخمسون عاماً .

وهكذا عاصر من ملوك بني العباس بقية ملك المنصور ، وملك المهدي لمدة (١٠) سنوات ، والهادي لمدة سنة واحدة ، وهارون الملقب بالرشيد لمدة (١٥) عاماً .

وكان ملك بني العباس من أقوى ما يكون خلال هذه الفترة حتى سمي عصر الرشيد بالعصر الذهبي ، ولا ريب أن قوة البلاد الإسلامية خلال هذا العصر لا يمكن قياسها بسائر العصور ، وفي ذات الوقت كانت الحركة الرسالية قد بلغت من القوة خلال عهد الإمام الكاظم (ع) ما أهله للقيام بثورة شاملة لولا بعض الأقدار التي منعت اندلاع الثورة ، ولخرت نجاحها .

وقد بلغ الصراع بين السلطة العباسية والحركة الرسالية الذروة في عهد الرشيد ، حيث نستوحي من مجموعة نصوص وحوادث تاريخية أن مخطط الثورة كان جاهزاً ، وأن السلطة العباسية قد فشلت في احتواء الثورة على أنها كانت في عصرها الذهبي ، ذلك لأن أنصار الحركة الرسالية قد ازدادوا ليس فقط بين الناس بل كان بعض كبار رجالات الدولة يميلون إلى حر ما إلى الحركة الرسالية ، ولعل ذلك يفسر لنا محاولة المأمون العباسي خليفة الرشيد ، للتقرب إلى البيت العلوي وبالذات إلى الإمام علي بن موسى الرضا (ع) الذي قتل الرشيد والده (ع) . والحوادث التي تهدينا إلى تلك الحقيقة هي التالية ،

هناك بعض الأحاديث التي تدل على أنه كان المقدر أن يقوم الإمام السابع بالأمر ، وقد اشتهر عند الشيعة أنه القائم من آل محمد (ص) وأنه لا يموت حتى يملأ الله على يديه الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

فعن أبي حمزة الثمالي قال ، قلت لأبي جعفر (ع) إن علياً (ع) كان يقول ، (إلى السبعين بلاء ، وكان يقول ، بعد البلاء رخاء) وقد مضت السبعون ولم ير رخاءً ، فقال أبو جعفر (ع) ، (يا ثابت إن الله تعالى قد وقّت هذا الأمر في السبعين ، فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على أهل الأرض فأخّره إلى أربعين ومائة سنة ، فحدثناكم فادعتم الحديث وكشعتم قناع السرّ ، فأخّره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتاً عندنا ، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) قال أبو حمزة ، وقلت ذلك لأبي عبد الله (ع) فقال ،

(قد كان ذلك) .

وهذا لك رواية عن داود الرقي قال ، قلت لأبي الحسن الرضا (ع) جعلت فداك انه والله ما يلج في صدري من امرك شيء إلا حديث سمعته من ذريح يرويه عن أبي جعفر (ع) قال لي ، (ما هو) قال سمعته يقول ، (سابعنا قائمنا إن شاء الله) .

قال : (صدقت وصدق ذريح وصدق أبو جعفر (ع) ، فازددت والله شكاً ، ثم قال لي ، (يا داود بن أبي كعدة ! أما والله لولا أن موسى قال للعالم ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ (الكهف/ ٦٩) ما ساله عن شيء ، وكذلك أبو جعفر (ع) لولا أن قال إن شاء الله لكان كما قال ، فقطعت عليه) .

لقد بدأ الرساليون في ذلك الظرف يتناقلون الكلام ، وبلغ الأمر إلى السلطات ، إلى درجة انه شاع وفشى ، فاعتقلت مجموعة من الرساليين وسجنت الإمام (ع) وقطته بعد ذلك .^{١٠}

ولقد شاعت فكرة قيام الإمام السابع إلى درجة ان السلطة استخدمتها كورقة إعلامية ضد الحركة الرسالية ، بعد ان دسّت السم إلى الإمام وقطته في غياهب سجون بغداد ، كيف ؟
إن من المعروف ان القائم لا يموت حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً ، وما هو الإمام السابع قد فارق الحياة ، إذاً هو ليس القائم المنتظر .

وهكذا حاولت السلطة إبراز التناقض في اقوال الحركة الرسالية ، حيث نادى ازلام السلطة على نعش الإمام الكاظم (ع) ما يلي :

هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت ، فانظروا إليه فنظروا^{١١} .
والواقع ان (فشل الثورة) لو تلخيرها ، واستشهاد الإمام المنتظر لقيادتها ، سبب صدمة عنيفة لبعض أبناء الحركة الرسالية ، وكان امتحاناً عسيراً لولا ما ظهر بعدئذ من حكمة ذلك حيث تحول الوضع السياسي لمصلحتهم بعد هارون من دون إراقة الدماء .

ولقد استغل بعض اصحاب المصالح الطامعين في الرئاسة او المال هذه الصدمة عند السدج من الناس ، وطفقوا يقولون ان موسى بن جعفر (ع) لم يموت ، وانه لا يموت حتى يقوم بالأمر .

ولقد قاوم الإمام علي بن موسى الرضا (ع) هذا المذهب الفاسد ، حتى اضمحل ولم يعد لهم وجود يذكر .
فمثلاً جاء في الحديث المأثور عن جعفر بن محمد النوفلي قال ، اتيت الرضا (ع) وهو بمنظرة اربق^{١٢} ، فسلمت عليه ثم جلست وقلت ، جعلت فداك ان انساناً يزعمون ان لباك حي ، فقال ، كذبوا لعنهم الله ، لو كان حياً ما قسم ميراثه ولا نكح نساه ، ولكنه والله ذاق الموت كما ذاقه علي بن ابي طالب^{١٣} . (ع) .

(١٠) بحار الأنوار : (ج ٤٨ ، ص ٢٩١) .

(١١) مقاتل الطالبين : (ص ٥٠٥) .

(١٢) من نواحي رامهرمز في حوزستان إيران .

(١٣) موسوعة البحار : (ج ٤٨ ، ص ٢٦٠) .

وهكذا كانت المواجهة بين السلطة العباسية والحركة الرسالية قد بلغت الذروة ، وكان مخطط الثورة الشاملة جاهزاً لولا إذاعة السرّ ومبادرة السلطة باعتقال الإمام موسى الكاظم . وقد سردنا نصوصاً وشواهد تاريخية على ذلك ، وهناك المزيد من الشواهد نبينها فيما يلي ،

عهد الرشيد : قمة الإرهاب العباسي :

بسبب تصاعد المد الرسالي ، وازدياد احتمالات سقوط النظام العباسي ، مارس هارون الرشيد إرهاباً لا مثيل له في تاريخ المواجهة بين السلطة العباسية وأئمة آل البيت (ع) .

لقد كانت التقية - والتي تعني العمل السري - على أشدها في عصر الإمام موسى (ع) ، ولعل لقب الإمام الكاظم يشير إلى أن منهج حياته كان التقية ، وكظم الغيظ عمّا يصيبه من آلام وضغوط . وسائر ألقابه أيضاً تدل على ميزة عصره ، فقد كان شيعته يكتون عنه بـ (العبد الصالح) و (النفس الزكية) و (الصابر) وتنوع كناه يدل أيضاً على السرية التي اتسمت بها الحركة في عصره ، فهو " أبو الحسن " و " أبو علي " و " أبو إبراهيم " وقيل أيضاً " أبو إسماعيل " .

ولقد بقي سيدنا الإمام موسى (ع) فترة طويلة في سجون آل عباس ، وكانت شهادته أيضاً بصورة مأساوية لا يساويها إلا شهادة جده أبي عبد الله الحسين (ع) ، وذلك يدل على أن خشيتهم كانت عظيمة من قيامه (ع) ضد ظلمهم وإرهابهم ، ذلك لأنه لا أحد من الطغاة كان يفكر في تكرار غلطة يزيد بن معاوية في قتله لسيد الشهداء (ع) بصورة علنية ، إنما كانوا يفضلوا اغتيال أئمة آل البيت للتخلص منهم ، وللبراءة من دمائهم عند الجماهير المسلمة الذين كانوا يكتون لآل بيت رسول الله كل ولاء واحترام .

حتى الرشيد الذي استشهد الكاظم (ع) في سجنه ، حاول التبرؤ من دمه ، والتمويه بأنه مات حتف أنفه ، أو أن السندي بن شاهك قائد شرطته هو الذي بادر بقتل الإمام دون أمره ^{١٤} .

ومن هنا نعلم أن السلطة لم تخاطر بقتل سيد أهل البيت ، لو لم تشعر بالخوف على مركزها . على أن السلطة قد قتلت - صبراً - الكثير من قيادات البيت العلوي .

محنة البيت العلوي :

وهكذا كانت محنة البيت العلوي عظيمة في تلك الحقبة ، حيث أنهم رفضوا التسليم لإرهاب النظام ، فزج بهم في السجون الرهيبة ، ومورس في حقهم كل ألوان التعذيب ، كما قتل النظام الكثير منهم صبراً . وإن ذلك لدليل على قوة شوكة المعارضة الرسالية وتهديدها للنظام ، كما هو دليل على مدى احتمال هذا البيت الطاهر للماسي والمصائب من أجل رسالات الله ، ولم يكن عبثاً تأكيد الرسول (ص) على الإهتمام بأهل بيته واعتبارهم ورثته ، وجعلهم محور أهل الحق ، وإن مثلهم مثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق وهلك .

(١٤) المصدر : (ص ٢٢٦ - ٢٢٧) .

وفي القصة التالية بعض تلك المحن العظيمة التي توالى على أهل بيت الرسول من لبناء فاطمة وعلي عليهم السلام .

عن عبيد الله البزاز النيسابوري - وكان مسناً - قال ، كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة ، فرحلت إليه في بعض الأيام ، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم يغيرها ، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر .

فلما دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء فسلمت عليه وجلست ، فأتي بطست وإبريق فغسل يديه ، ثم امرني فغسلت يدي واحضرت المائدة وذهب عني أني صائم واتي في شهر رمضان ، ثم ذكرت فامسكت يدي ، فقال لي حميد ، مالك لا تاكل ؟ فقلت ايها الأمير هذا شهر رمضان ، ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار ، ولعل الأمير له عذر في ذلك او علة توجب الإفطار ، فقال ، ما بي علة توجب الإفطار واتي لصحيح البدن ، ثم دمعت عيناه وبكى .

فقلت له بعدما فرغ من طعامه ، ما يبكيك ايها الأمير ؟ فقال ، انفذ إلي هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل ان اجب ، فلما دخلت عليه رايت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً أخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف ، فلما قمت بين يديه رفع راسه إلي فقال ، كيف طاعتك لأمر المؤمنين ؟ فقلت ، بالنفس والمال ، فاطرق ثم اذن لي في الانصراف .

فلم البث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال ، اجب أمير المؤمنين ، فقلت في نفسي ، انا والله اخاف ان يكون قد عزم على قتلي وأنه لما راني استحيى مني ، فعدت إلى بين يديه فرفع راسه إلي فقال ، كيف طاعتك لأمر المؤمنين ؟ فقلت ، بالنفس والمال والأهل والولد - فتبسم ضاحكاً ، ثم اذن لي في الانصراف .

فلما دخلت منزلي لم البث ان عاد الرسول إلي فقال ، اجب أمير المؤمنين فحضرت بين يديه وهو على حاله ، فرفع راسه إلي فقال ، كيف طاعتك لأمر المؤمنين ، فقلت ، بالنفس والمال والأهل والولد والدين فضحك ، ثم قال لي ، خذ هذا السيف وامثل ما يأمرك به هذا الخادم .

قال ، فتناول الخادم السيف وتاولنيه وجاء بي إلى بيت باب مخلق ففتحها فإذا به يتر في وسطه ، وثلاثة بيوت ابوابها مغلقة ، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والنوائذ ، شيوخ ونهول وشبان مقيدون ، فقال لي ، ان أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء ، وكانوا ظهيم علوية من واد علي وفاطمة (ع) فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فاضرب عنقه حتى اتيت على اخرهم ، ثم رمي ما سادهم ورؤوسهم في تلك البئر .

ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من واد علي وفاطمة (ع) مقيدون ، فقال لي ، ان أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء ، فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فاضرب عنقه حتى اتيت على اخرهم ، ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مائة عشرون نفساً من واد علي

وفاطمة (ع) ، مقيدون عليهم الشعور والدواب فقال لي : إن أمير المؤمنين يأمرك إن تقتل هؤلاء أيضاً فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فاضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر ، حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم ، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي : تباً لك يا مشؤوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله (ص) وقد قتلت من أولاده ستين نفساً ، قد ولدهم عليّ وفاطمة (ع) ، فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي فنظر إليّ الخادم مغضباً وزيرني ، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر ، فإذا كان فلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله (ص) فما ينفعني صومي وصلاتي وأنا لا أشك أني مخذل في النار ^{١٥} .

محنة العلماء الرساليين :

وكانت محنة العلماء الكبار من الموالين لآل البيت عظيمة أيضاً لو ليسوا شيعة آل محمد (ص) ؟ فلا بد أن يقتدوا بهم في بلائهم ، ومن أعظمهم بلاء محمد بن أبي عمير الأزدي البغدادي وهو في نفس الوقت من أعظمهم شأناً . وكان من لوثق الناس عند الخاصة والعامة ، وأنسكهم نسكاً ، وأورعهم وأعبدتهم ، وحكي عن الجاحظ أنه قال : كان لوحد أهل زمانه في الأشياء كلها ، وقال أيضاً ، وكان وجهاً من وجوه الرافضة ، حبس ليّام الرشيد ليلي القضاء . وقيل بل ليدلّ على الشيعة واصحاب موسى بن جعفر (ع) ، وضرب على ذلك ، وكاد يقر لعظيم الألم ، فسمع محمد بن يونس بن عبد الرحمن يقول له : إتق الله يا محمد بن أبي عمير فصبر ففرّج الله عنه ، وروى الكشي أنه ضرب مائة وعشرين خشبة ليّام هارون ، وتولى ضربه السندي بن شاهك ، وكان ذلك على التشيع ، وحبس فلم يفرج عنه ، حتى أدى من ماله واحداً وعشرين ألف درهم ، وروي أن المامون حبسه حتى ولاه قضاء بعض البلاد ، وروى الشيخ المفيد في الاختصاص أنه حبس سبع عشرة سنة ، وفي مدة حبسه دفنت اخته كتبه فبقيت مدة أربع سنين ، فهلكت الكتب ، وقيل أنه تركها في غرفة فسال عليها المطر ، لذلك حدث من حفظه ، ومما كان سلف له في أيدي الناس أدرك ليّام الكاظم (ع) ولم يحدث عنه ، وليّام الرضا والجواد (ع) وحدث عنهما ، ومات سنة ٢١٧ ^{١٦} .

التسلل إلى النظام :

ولعل أوضح شواهد القوة عند الحركة الرسالية في عصر الإمام الكاظم (عليه السلام) هو حجم تسلل عناصرها في أجهزة النظام ، والذي يدل على مدى نفوذهم في مجمل المؤسسات الرسمية ، ولعلّ رأس النظام كان على علم وإن بصورة إجمالية بولاء رجاله لآل البيت ، لكنه كان عاجزاً عن الانقلاب عليهم لسبب أو لآخر ، وقبل أن نورد بعض القصص التاريخية لهذا التسلل ، يجدر أن نعلم أن متانة الشبكة التنظيمية التي كانت تتمتع بها الحركة الرسالية التي أوجدت هذا المدى الواسع من العناصر في مختلف

(١٥) المصدر . (ص ١٧٦ ، ١٧٨) .

(١٦) المصدر : (ص ١٧٩) الهامش عن شرح مشيخة المعية : (ص ٥٦ - ٥٧) .

لجهازه النظام الحساسة ، لتعتبر نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه التنظيمات الرسالية في كل مكان .
١ - يبدو أن بعض رؤساء المحافظات أو حسب تعبيرهم يومئذ (الولاة) كانوا منتمين إلى الحركة ، فمثلاً مدينة (الري) وهي طهران الحالية ، كانت من الحواضر العامة في ذلك اليوم ، ومع ذلك كان واليها واحداً من موالى أهل البيت ، كما تذكر الرواية التالية من كتاب قضاء حقوق المؤمنين لأبي علي بن طاهر الصوري بإسناده عن رجل من أهل الري قال : ولّي علينا بعض كتاب يحيى بن خالد ، وكان عليّ بقايا يطالبني بها ، وخفت من إلزامي إياها خروجاً عن نعمتي ، وقيل لي ، أنه ينتحل هذا المذهب ، فخفت أن امضي إليه فلا يكون كذلك فاقع فيما لا أحب ، فاجتمع رأيي على أني هربت إلى الله تعالى ، وحججت ولقيت مولاي الصابر - يعني موسى بن جعفر (ع) - فشكوت حالي إليه فأنصحنني مكتوباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أن لله تحت عرشه ظلاً لا يسكنه إلا من أسدى إلى أخيه معروفاً لو نفّس عنه كربة ، لو أدخل على قلبه سروراً ، وهذا أخوك والسلام .

قال : فعدت من الحجّ إلى بلدي ، ومضيت إلى الرجل ليلاً ، واستأذنت عليه وقلت : رسول الصابر (ع) فخرج إليّ حافياً ماشياً ، ففتح لي بابه ، وقبّلني وضممني إليه ، وجعل يقبل بين عيني ، ويكرّر ذلك كلما سألني عن رويته (ع) ، وكما أخبرته بسلامته وصلاحي لحواله استبشر وشكر الله ، ثم أدخلني داره وصدرني في مجلسه وجلس بين يدي ، فلخرجت إليه كتابه (ع) فقبله قائماً وقراه ثم استدعى بماله وثيابه ، فقامني ديناراً ديناراً ، ودرهماً درهماً ، وثوباً ثوباً ، ولعطني قيمة ما لم يمكن قسمته ، وفي كل شيء من ذلك يقول : يا أخي هل سررتك ؟ فاقول : أي والله ، وزدت على السرور ، ثم استدعى العمل فأسقط ما كان باسمي ولعطني براءة مما يتوجّه عليّ منه ، وودّعته ، وانصرفت عنه .

فقلت : لا أقدر على مكافأة هذا الرجل إلا بأن أحج في قابل وأدعو له والقي الصابر (ع) وعرفه فعله ، ففعلت ولقيت مولاي الصابر (ع) وجعلت لحدّته وجهه يتهلّل فرحاً ، فقلت : يا مولاي هل سررتك ذلك ؟ فقال : أي والله لقد سررتني وسرّ أمير المؤمنين ، والله لقد سرّ جدي رسول الله (ص) ، ولقد سرّ الله تعالى ١٧ .

٢ - كان علي بن يقطين وزيراً للخليفة وكان يشرف على بلاد واسعة وكان من أقرب المستشارين لهارون الرشيد وفي الوقت ذاته كان من الموالين لأهل البيت (ع) ١٨ وسنذكر بإذن الله بعض الأحاديث

(١٧) المصدر : (ص ١٧٤) .

(١٨) علي بن يقطين بن موسى البغدادي مسكناً ، والكوفي أصلاً ، مولى بني أسد يكنى أبا الحسن ، من رجوه هذه الطائفة ، جليل القدر ، وقد ضمن له الإمام الكاظم (ع) الجنة وأن لا تمسه النار ، وفي الكشي أحاديث دلت على عظم شأنه وجلالة قدره ، وأنه كان يحمل إلى الإمام الكاظم (ع) أموالاً طائلة ، فربما حمل مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف ، وكان علي يبعث في كل سنة من يحج عنه حتى أحصى له في بعض السنين مائة وخمسين أو ثلاثمائة ملبى ، وكان يعطي بعضهم عشرة آلاف وبعضهم عشرين ألف ، مثل

التي تبين لنا مواقف علي بن يقطين والتي تكشف أن سياسة التقية أو العمل السري لم تكن سياسة مرحلية مؤقتة ، بل كانت بمثابة استراتيجية عمل بعيدة المدى ، فلعل أئمة الهدى رأوا أن تمكين رجالهم من مراكز الحكم بصورة أو بآخرى ، أفضل وسيلة لإصلاح أمر الأمة ، ولم يجدوا حاجة إلى التغيير السريع في قمة الهرم السلطوي ، وتحمل مسؤوليات الحكم بصورة مباشرة وحتى ولو لم يكن بناء الأمة الحضاري قد بلغ من النصح ما يحتمل نظاماً إلهياً ، كالذي كان أهل البيت (ع) يريدونه .

وبتعبير آخر ، إن استراتيجية (التقاطع) مع نظام الحكم وذلك بالسيطرة على مراكزه الهامة ، وشغل قدرته من الداخل عن المعارضة ربما كانت الاستراتيجية المثلى لتلك الظروف .

ألف : قصة الدراعة :

في الوقت الذي كان علي بن يقطين مقرباً إلى الرشيد ، كان جواسيسه لا يفتلون يحيطون به وبسائر الوزراء ، إذ كان هاجس مولاة وزراه للإمام الحق موسى بن جعفر (ع) يلاحق الرشيد ليل نهار ، إلا أن العلم الإلهي الذي كان لأئمة آل البيت (ع) منع الرشيد من إفبات أي شيء بحق علي بن يقطين ، كما أن انضباط علي بن يقطين وشدة التزامه بالأوامر القيادية فوّتت على الرشيد فرصاً كثيرة ، ومنها ما ذكرت قصة الدراعة التي نبينها فيما يلي ، -

روى إبراهيم بن الحسن بن راشد ، عن ابن يقطين قال ، (كنت واقفاً عند هارون الرشيد إذ جاءته هدايا ملك الروم ، وكان فيها درّاعة ديباج سوداء منسوجة بالذهب لم أر أحسن منها ، فرأني أنظر إليها فوهبها لي ، وبعنتها إلى أبي إبراهيم (ع) ومضت عليها برهة تسعة أشهر وانصرفت يوماً من عند هارون بعد أن تغديت بين يديه ، فلما دخلت داري قام إليّ خادمي الذي يأخذ ثيابي بمنديل على يده وكتاب لطيف ختمه رطب ، فقال ، اتاني بهذا رجل الساعة فقال ، أوصله إلى مولاك ساعة يدخل ، ففضضت الكتاب وإن به كتاب مولاي أبي إبراهيم (ع) وفيه ، يا علي هذا وقت حاجتك إلى الدراعة وقد بعنت بها إليك ، فكشفت طرف المنديل عنها ورأيتها وعرفتها ، ودخل عليّ خادم هارون بغير إذن فقال ، أجب أمير المؤمنين . قلت ، أي شيء حدث ؟ قال لا أدري .

فركبت ودخلت عليه ، وعنده عمر بن بزيع واقفاً بين يديه فقال ، ما فعلت بالدراعة التي وهبتك ، قلت ، خلع أمير المؤمنين عليّ كثير من دراريع وغيرها فعن أيها يسألني ؟ قال ، درّاعة الديباج السوداء الرومية المذهب ، فقلت ، ما عسى أن اصنع بها البسها في أوقات وأصليّ فيها ركعات ، وقد كنت دعوت بها عند منصرفي من دار أمير المؤمنين الساعة لالبسها ، فنظر إلى عمر بن بزيع فقال ، قل يحضرها ، فارسلت

الكاهلي وعبد الرحمن بن الحجاج وغيرهما ، ويعطي أداهم ألف درهم ، له كتب رواها عنه أنه الحسن وأحمد بن هلال مات سنة ١٨٢ في أيام حياة أبي الحسن الكاظم بعداد ، وأبو الحسن في سجن هارون وقد بقى فيه أربع سنين .

" باقتضاب عن شرح مشيخة الفقيه : (ص ٤٧) عنه هامش كتاب الحار : (ص ١٧٨ ، ح ٤٨) " .

خادمي جاء بها ، فلما رآها قال ، يا عمر ما ينبغي أن تنقل على عليّ بعد هذا شيئاً ، قال ، فامر لي بخمسين ألف درهم حملت مع الدراعة إلى داري ، قال عليّ بن يقطين ، وكان الساعي ابن عم لي فسوّد الله وجهه وكذّبه والحمد لله ^{١٩} .

باء : سرية الاتصالات :

كيف كان يتم الاتصال بين الإمام وبين شيعته المتخفين من امثال علي بن يقطين ؟ نحن لا نعرف مزيداً من التفاصيل حول طبيعة الاتصالات ، إلا أن الباحث باستطاعته أن يتعرف على القضايا من خلال بعض الأخبار المتناثرة ، فالخبير الزراعي يتعرف على طبيعة التربة والماء والهواء والبذر والسماد و . و . من خلال ثمرة واحدة من شجرة التفاح مثلاً ، وهكذا المؤرخ بإمكانه أن يتعرف على المزيد من التفاصيل من خلال التفكير في أبعاد حادثة تاريخية تروى .

وهكذا الحادثة الثانية تبين أبعاد الاتصالات السرية التي كانت تتم بين لئمة الهدى وشيعتهم . عن محمد بن مسعود ، عن الحسين بن شكيب ، عن بكر بن صالح ، عن إسماعيل بن عباد القصري ، عن إسماعيل بن سلام وفلان بن حميد ، قالوا ، (بعث إلينا علي بن يقطين فقال ، اشتريا راحلتين ، وتجنبا الطريق — ودفع إلينا أموالاً وكتباً — حتى توصلا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى (ع) ولا يعلم بكما أحد ، قال ، فأتينا الكوفة واشترينا راحلتين وتزوّدنا زاداً ، وخرجنا نتجنب الطريق ، حتى إذا صرنا ببطن الرمة شددنا راحلتنا ، ووضعنا لها الحلف ، وقعدنا نأكل ، فبينما نحن كذلك ، إذ راكب قد أقبل معه شاكري ، فلما قرب منا فإذا هو أبو الحسن موسى (ع) ، فقمنا وسألنا عليه ، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا ، فخرج من كمّه كتباً فناولنا إياها فقال ، هذه جوابات كتبكم . قال ، فقلنا ، إن زادنا قد فني فلو أدت لنا فدخلنا المدينة ، فزرتنا رسول الله وتزوّدنا زاداً فقال ، هاتما ما معكما من الزاد ، فخرجنا الزاد إليه فقلّبه بيده فقال ، هذا يبلّغكما إلى الكوفة ، وأما رسول الله (ص) فقد رأيتماه ، إني صليت معهم الفجر ، وإني أريد أن أصلي معهم الظهر ، انصرفا في حفظ الله) ^{٢٠} .

جيم : التقية حتى في كيفية الوضوء :

وفشلت محاولات الوشاة ورجال مباحث النظام في كشف حقيقة علي بن يقطين ، وإمام الرشيد بنفسه بعملية التجسس عليه ، فكانت عاقبته الغشل أيضاً كما في الخبر التالي ، .. روى محمد بن إسماعيل ، عن محمد بن الفضل قال ، (اختلطت الرواية بين إسماعيل بن إسماعيل وهو مدح الرحطين في الوضوء هو من الأصابع إلى الكعبين ؟ أم من الكعبين إلى الأصابع ؟ فقلت ، علي بن يقطين ، إلى أبي

(١٩) المصدر : (ص ٥٩ - ٦٠) .

(٢٠) المصدر : (ص ٣٥) .

ويبدو أن الإمام امرهم بالانصراف من زيارة النبي (ص) وإلا لكانت مارة جميعه ربه ورسوله ورسول الله (ص) .
قال : أما رسول الله فقد رأيتماه .

الحسن موسى (ع) ان اصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين ، فإن رايت ان تكتب إليّ بخطك ما يكون عملي عليه فعلت ان شاء الله ، فكتب إليه ابو الحسن (ع) ، فهتُم ما ذكرتُ من الاختلاف في الوضوء والذي أمرك به في ذلك فان تتمضمض ثلاثاً وتستتشق ثلاثاً ، وتغسل وجهك ثلاثاً ، وتخلل شعر لحيته وتمسح رأسك كله ، وتمسح ظاهر اذنك . وباطنها ، وتغسل رجلك إلى الكعبين ثلاثاً ولا تخالف ذلك إلى غيره .

فلما وصل الكتاب إلى عليّ بن يقطين تعجب بما رسم فيه ، ممّا اجمع العصابة على خلافه ، ثم قال ، مولاي اعلم بما قال وأنا ممتل امره ، وكان يعمل في وضوئه على هذا الحدّ ، ويخالف ما عليه جميع الشيعة امتثالاً لأمر ابي الحسن (ع) ، وسعي بعليّ بن يقطين إلى الرشيد ، وقيل له : إنه رافضي مخالف لك .

فقال الرشيد لبعض خاصّته : قد كثر عندي القول في عليّ بن يقطين والقذف له بخلافنا وميله إلى الرفض ولست أرى في خدمته لي تقصيراً ، وقد امتحنته مراراً فما ظهرتُ منه على ما يُقذف به ، واحبّ ان استبرئ امره من حيث لا يشعر بذلك فيتحرز مني .

فقال له : إنّ الرافضة يا امير المؤمنين تخالف الجماعة في الوضوء فتخففه ولا ترى غسل الرجلين فامتحنه يا امير المؤمنين من حيث لا يعلم ، بالوقوف على وضوئه ، فقال : لجل إنّ هذا الوجه يظهر به امره ، ثم تركه مدّة وناطه بشيء من الشغل في الدار ، حتّى دخل وقت الصلاة ، وكان علي بن يقطين يخلو في حجرة في الدار لوضوئه وصلاته ، فلما دخل وقت الصلاة وقف الرشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى عليّ بن يقطين ، ولا يراه هو ، فدعا بالماء للوضوء ، فتتمضمض ثلاثاً ، واستتشق ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، وخلل شعر لحيته ، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ومسح راسه واذنيه ، وغسل رجليه والرشيد ينظر إليه .

فلما راه وقد فعل ذلك ولم يملك نفسه حتّى اشرف عليه بحيث يراه ، ثمّ ناداه : كذب يا علي بن يقطين من زعم أنّك من الرافضة ، وصلحت حاله عنده ، وورد عليه كتاب ابي الحسن (ع) ، ابتداءً من الآن يا علي بن يقطين فتوضّأ كما امر الله ، واغسل وجهك مرة فريضة ، واخرى إسباغاً ، واغسل يديك من المرفقين كذلك وامسح مقدم رأسك وظاهر قدميك بنداوة وضوئك ، فقد زال ما كان يخاف عليك والسلام)^{٢١} .

٣ - كان المسيّب نائب رئيس شرطة النظام سندي بن شاهك ، وكان موكلاً بسجن الإمام (ع) ، وكان يوالي الإمام (ع) كما يظهر من بعض التواريخ ، وكان يتصل بالشيعة ويامرهم بما يوصيه الإمام ، والواقع ان كثير ممن سجن الإمام عندهم قالوا بولايته لما شاهدوا منه من المعاجز ، فهذا بشّار مولى السندي بن شاهك يقول ، (كنت من اشد الناس بغضاً لآل ابي طالب (ع) ، فدعاني السندي بن شاهك يوماً

فقال لي ، يا بشار إني أريد أن انتملك على ما انتمنني عليه هارون ، قلت ، إذن لا أبقِي فيه غاية ، فقال ، هذا موسى بن جعفر قد دفعه إليّ وقد وُكِّلَتْك بحفظه ، فجعله في دار دون حرمه ووُكِّلَني عليه ، فكنت أقفل عليه عدّة أقفال ، فإذا مضيت في حاجة وُكِّلَ امرأتي بالباب فلا تفارقه حتى أرجع .

قال بشار ، فحوّل الله ما كان في قلبي من البغض حباً ، قال ، فدعاني (ع) يوماً فقال ، يا بشار امضِ إلى سجن القنطرة فادع لي هند بن الحجاج وقل له ، أبو الحسن يأمرك بالمصير إليه ، فإنه سيذهبك ويصيح عليك ، فإذا فعل ذلك ، فقل له ، أنا قد قلت لك وأبلغت رسالته ، فإن شئت فافعل ما أمرني ، وإن شئت فلا تفعل ، واتركه وانصرف ، قال ، ففعلت ما أمرني وأقفلت الأبواب كما كنت أقفل واقعدت امرأتي على الباب وقلت لها ، لا تبرحي حتى آتيك .

وقصدت إلى سجن القنطرة فدخلت إلى هند بن الحجاج ، فقلت ، أبو الحسن يأمرك بالمصير إليه ، قال ، فصاح عليّ وانتهرني فقلت له ، أنا قد أبلغتك وقلت لك ، فإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل ، وانصرفت وتركته وجئت إلى أبي الحسن (ع) فوجدت امرأتي قاعدة على الباب والأبواب مغلقة ، فلم أزل أفتح واحداً منها حتى انتهيت إليه فوجدته واعلمته الخبر ، فقال ، نعم قد جئتني وانصرف ، فخرجت إلى امرأتي فقلت لها ، جاء أحد بعدي فدخل هذا الباب ؟ فقالت ، لا والله ما فارقت الباب ولا فتحت الأقفال حتى جئت (٢٢) .

الفصل الثالث

معاجز الإمام وعلمه

معاجز الإمام الكاظم :

هناك فرق كبير بين فكرة الغلو المرفوضة عند المسلمين بشدة ، وبين الاعتقاد بكرامة أولياء الله ، واستجابة الله دعائهم ، ونظرهم بنور الله إلى الحقائق .

ذلك أن فكرة الغلو تسمو بالشخص إلى درجة الألوهية وترى أن الرب سبحانه وتعالى يحل في عباده ، حتى يصبح العبد هو الرب بروحه ، وتكون قدراته أنثى ذاتية .

بينما الاعتقاد بالإعجاز لدى أولياء الله يعكس التوحيد الخالص حيث يرفض أي تحول ذاتي في شخص النبي أو الإمام أو الولي ، إنما يعني تفضيل الله لعباده المخلصين ، وإكرامهم بالعلم أو القدرة .

وفي الوقت الذي نجد الآيات القرآنية تقدر الله وتسبحه وتذكرنا باستحالة حلوله في شيء أو شخص وتندد بعقائد الشرك ، في ذات الوقت تذكر لنا معاجز الأنبياء (ع) التي دلّت على كرامتهم عند الله ،

حيث أجرى الله على أيديهم تلك المعاجز فيقول الله سبحانه في شأن عيسى ابن مريم (ع) : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ يَسِٰى إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآبَرَأُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران/ ٤٩)

إن تكرار كلمة (بإذن الله) يدل على أن تلك المعاجز لا تعني حلولاً إلهياً في شخص عيسى ليحمله ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقوله المشركون ، بل على أن الله يهب لعبده ما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء .

وهكذا كانت عقيدة المسلمين في الأنمة (ع) والأولياء بأن الله قد أكرمهم بالعلم والقدرة ، وهذا من صميم عقيدة التوحيد ، وليس الله بقادر على أن يكفي عبده وينصره ويطلعه على غيبه إذا ارتضاه ؟ ولم لا يفعل الرب بعبده المطيع له المخلص في العبادة مثل ذلك ؟ وليس الله يحب التواكبين ويحب المتطهرين ويحب المتوكلين ، ويحب من يطيعه ، ويجزي من يعبده ، ويجزي المتصدقين ، ويجزي المحسنين ، ويكرم المتقين ، ويسلم ويصلي على عباده الصابرين ؟ كما نقرأ في أكثر سور القرآن الكريم . إن من لا يعتقد بالتأييد الإلهي لعباده الصالحين وفي طليعتهم الأنمة المعصومين (ع) ، ويثير الشكوك حول معاجزهم ، يكاد يكفر بروح القرآن وباطنه ومحتواه وأعظم معانيه .

إن لبّ رسالات الله هو الاعتقاد بأن الله مهيمن على عرش القدرة ، ويفعل ما يشاء وأنه لا يفعل إلا بحكمة بالغة ، وخلاصة الحكمة جزء من أحسن وعقاب من أساء ، فإذا كان سواء عنده من أحسن ومن أساء وكان لا ينصر عباده المؤمنين ولا يخذل الكفار والمنافقين ، فما هي فائدة الإيمان بقدرته وحكمته و.

و .

وهكذا كان الإمام موسى بن جعفر حليف القرآن ، ولعبد الناس للرب في عصره ، وأعظم المطيعين للخالق ، كان له من المعاجز والكرامات ما اعترف بها المسلمون جميعاً ، ولا يسعنا أن نذكر فيما يلي إلا قليلاً منها ^{٢٣} .

١ - لقد أنقذ الله سبحانه عبده الصالح موسى بن جعفر (ع) من طغاة عصره بفضل توكله عليه وتبطله إليه ، وكذلك ينجي الله المؤمنين .

جاء في الحديث عن عبيد الله بن صالح قال ، حدثني حاجب الفضل بن الربيع عن الفضل بن ربيع قال ، كنت ذات ليلة في فراشي مع بعض جواري فلما كان في نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة فراعني ذلك فقالت الجارية ، لعل هذا من الريح ، فلم يمض إلا يسير حتى رأيت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح ، وإذا مسرور الكبير قد دخل عليّ فقال لي ، أجب الأمير ، ولم يسلم عليّ .

فنبست من نفسي وقلت ، هذا مسرور ، دخل إليّ بلا إذن ولم يسلم ، ما هو إلا القتل ، وكنت جنباً فلم أجسر أن أسأله إنظاري حتى اغتسل ، فقالت لي الجارية ، لما رأت تحيّرني وتبليدي ، ثق بالله عزّ وجلّ وانفض ، فنهضت ، ولبست ثيابي ، وخرجت معه حتى أتيت الدار ، فسلمت على أمير المؤمنين وهو في مرقدته فرد عليّ السلام فسقطت فقال ، تداخلك رعب ؟ قلت ، نعم يا أمير المؤمنين ، فتركتني ساعة حتى سكنت ثم قال لي ، صر إلى حبسنا فأخرج موسى بن جعفر بن محمد وادفع إليه ثلاثين ألف درهم ، وأخلع عليه خمس خلع ، وأحملة على ثلاث مراكب ، وخيره بين المقام معنا أو الرحيل عنا إلى أي بلد أراد وأحب .

فقلت ، يا أمير المؤمنين تأمر بإطلاق موسى بن جعفر ؟ قال ، نعم فكررت ذلك عليه ثلاث مرات ، فقال لي ، نعم ويحك أتريد أن أنكث العهد ؟ فقلت ، يا أمير المؤمنين وما العهد ؟ قال ، بينا أنا في مرقدتي هذا إذ ساورني أسود ما رأيت من السودان أعظم منه فقعد على صدري وقبض على حلقي وقال لي ، حبست موسى بن جعفر ظالماً له ؟ فقلت ، فأننا أطلقه وأحب له ، وأخلع عليه ، فأخذ عليّ عهد الله عزّ وجلّ وميثاقه ، وقام عن صدري ، وقد كادت نفسي تخرج .

فخرجت من عنده ووافيت موسى بن جعفر (ع) وهو في حبسه ، فرايته قائماً يصلي فجلست حتى سلم ، ثم أبلغته سلام أمير المؤمنين ، وأعلمته بالذي أمرني به في أمره ، واني قد احضرت ما وصله به ، قال ،

(٢٣) العلامة المجلسي خصص في موسوعته بحار الأنوار الجزء ٤٨ جزءاً مفصلاً (مس ص ٢٩ - ١٠٠) حول بعض معاجزه .

إن كنت أمرت بشيء غير هذا فافعله ؟ فقلت : لا وحق جدك رسول الله ما أمرت إلا بهذا ، فقال : لا حاجة لي في الخلع والحملان والمال إذ كانت فيه حقوق الأمة فقلت : ناشدك بالله أن لا ترده فيفتاظ ، فقال : يعمل به ما أحببت ، وأخذت بيده (ع) وأخرجته من السجن .

ثم قلت له : يا بن رسول الله أخبرني بالسبب الذي نلت به هذه الكرامة من هذا الرجل ، فقد وجب حقي عليك لبشارتي إياك ، ولما أجراه الله عز وجل علي يدي من هذا الأمر ، فقال (ع) : رأيت النبي (ص) ليلة الأربعاء في النوم فقال لي : يا موسى أنت محبوس مظلوم ؟ فقلت : نعم يا رسول الله محبوس مظلوم ، فكرر علي ذلك ثلاثاً ثم قال :

﴿ وَإِنْ أَذْرِي لَمْ أَهْلِكْ لَكُمْ وَمَنْعَ إِلَى حِينٍ ﴾ (الأنبياء/ ١١١) أصبح غداً صائماً وأتبعه بصيام الخميس والجمعة ، فإذا كان وقت الإفطار فصلّ اثنتي عشر ركعة تقرا في كل ركعة الحمد واثنتي عشرة مرة قل هو الله أحد ، فإذا صلّيت منها أربع ركعات فاسجد ثم قل : يا سابق الفوت يا سامع كل صوت يا محيي العظام وهي رميم بعد الموت ، أسالك باسمك العظيم الأعظم أن تصلي على محمد عبدك ورسولك وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وأن تعجل لي الفرج مما لنا فيه " ففعلت فكان الذي رأيت " ٢٤ .

٢ - وقد دعا سيدنا الكاظم (ع) لإنقاذ بعض المؤمنين من شيعته من ظلم الطاغية ن فاستجاب الله دعاءه حيث جاء في التاريخ عن صالح بن واقد الطبري قال : دخلت على موسى بن جعفر فقال : يا صالح إنه يدعوك الطاغية يعني هارون فيحبسك في محبسه ويسالك عني فقل إنني لا أعرفه ، فإذا صرت إلى محبسه فقل من أردت أن تخرجه فخرجه بلذن الله تعالى ، فدعاني هارون من طبرستان فقال : ما فعل موسى بن جعفر فقد بلغني أنه كان عندك ؟ فقلت : ما يدريني من موسى بن جعفر ؟ أنت يا أمير المؤمنين أعرف به وبمكانه ، فقال : اذهبوا به إلى الحبس ، فوالله إني لفي بعض الليالي قاعد وأهل الحبس نيام إذ أنا به يقول : يا صالح ، قلت : لبيك قال : صرت إلى ههنا ؟ فقلت : نعم يا سيدي ، قال : قم فأخرج وأتبعني ، فقممت وخرجت ، فلما صرنا إلى بعض الطريق قال : صالح يا رسول الله محبوس مظلوم فكرر علي ذلك ثلاثاً ، ثم قال :

السلطان سلطاننا كرامة من الله أعطاناها ، قلت : يا سيدي فلن لحتجز من هذا الطاغية ؟ قال : عليك ببلاك فارجع إليها فإنه لن يصل إليك ، قال صالح : فرجعت إلى طبرستان ، فوالله ما سال ولا أدري لحبسي أم لا ٢٥ .

٣ - وكان يؤدب شيعته على التقوى ، ويعطيه الرب نوراً يعلم به خباياهم ، فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن القاسم بن الحارث البطل ، عن مرزوم قال : (دخلت المدينة فرأيت جارية في الدار التي نزلتها فعجبتي فأردت أن أتمتع منها فابت أن تزوجني نفسها ، فجنّت بعد العتمة فقرعت الباب فكانت هي

(٢٤) المصدر : (ص ٢١٣ - ٢١٥) .

(٢٥) المصدر : (ص ٦٦) .

التي فتحت لي ، فوضعت يدي على صدرها فبادرتني حتى دخلت ، فلما أصبحت دخلت على أبي الحسن (ع) فقال : يا مرازم ليس من شيعتنا من خلا ثم لم يرع قلبه (٢٦) .

٤ - وينتفع بعلمه الإلهي في سبيل تربية شيعته على الانضباط ، باعتباره ضرورة قصوى في سائر حقول الحياة ، وبالذات حقل الجهاد ، جاء في الآثار ،

عن محمد بن الحسين بن علي عن حسان الواسطي ، عن موسى بن بكر قال ، (دفع إليّ أبو الحسن الأول (ع) رقعة فيها حوائج وقال لي ، إعمل بما فيها ، فوضعتها تحت المصلى ، وتوانيت عنها ، فمررت فإذا الرقعة في يده ، فسألني عن الرقعة فقلت : في البيت ، فقال ، يا موسى إذا امرتك بالشئ فاعمله ^{٢٧} وألا غضبت عليك .

٥ - وربما اقتضى الأمر الإعجاز بهدف تاديب الشيعة على التواضع للحق ، والإبتعاد عن الكبر والتعالي للارتفاع بهم إلى مستوى (حزب الله) الذين لا يتمايزون عن بعضهم بما يملكون من مال أو علم أو منصب ، دعنا نقرأ معاً قصة علي بن يقطين ، وهو وزير في سلطان الطغاة ، وبحكم منصبه ربما أخذه الغرور وتعالي على سائر المؤمنين ، لننظر كيف يؤدبه الإمام ، ويستخدم قدرته الإلهية لتربية روح التقوى فيه .

عن محمد بن علي الصوفي قال ، (استأذن إبراهيم الجمال رضي الله عنه على أبي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه ، فحج علي بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى بن جعفر فحجبه ، فراه ثاني يومه فقال علي بن يقطين ، سيدي ما دنبي ؟ فقال ، حجبتك لأنك حجبت لخالك إبراهيم الجمال ، وقد ألبى الله أن يشكر سعيك أو يغفر لك حجب إبراهيم الجمال ، فقال ، يا سيدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو بالكوفة ؟ فقال ، إذا كان الليل فامض إلى البقيع وحكك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلماذك واركب نجياً هناك مسرجاً ، قال ، فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن اناخه على باب إبراهيم الجمال بالكوفة ، ففرع الباب وقال ، أنا علي بن يقطين . فقال إبراهيم الجمال من داخل الدار ، وما يعمل علي بن يقطين الوزير ببابي ؟ فقال علي بن يقطين ، يا هذا إن أمري عظيم ، وألى عليه أن يأن له ، فلما دخل قال ، يا إبراهيم إن المولى (ع) ألبى أن يقبلني أو تغفر لي ، فقال ، يغفر الله لك فألى علي بن يقطين على إبراهيم الجمال أن يطأ خده فامتنع إبراهيم من ذلك ، فألى عليه ثانياً ففعل ، فلم يزل إبراهيم يطأ خده ، وعلي بن يقطين يقول ، اللهم اشهد ، ثم انصرف وركب النجيب واناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر (ع) بالمدينة ، فأنزله له ودخل عليه ^{٢٨} فقبله (٢٨) .

(٢٦) المصدر : (ص ٤٥) .

(٢٧) المصدر : (ص ٤٤) .

(٢٨) المصدر / (ص ٨٥) .

٦ - باعتباره قائد المسلمين ، وخليفة رسول الله (ص) الذي تطى بمكارم الخلق المحمدي ، فإنه كان رحيماً بالمؤمنين عزيزاً عليه ما عندتم .

وكثيراً ما كان ينظر بنور الله فيرى الضر الذي قد يلحق بهم فيبادر برفعه عنهم بطريقة أو بأخرى حتى ولو كان من النوع الفردي أو الجزئي ، دعنا نقرأ معاً القصة التالية ،

عن إبراهيم بن عبد الحميد قال ، (كتب إليّ أبو الحسن (ع) - قال عثمان بن عيسى وكنت حاضراً بالمدينة - ، تحوّل عن منزلك ، فاغتمّ بذلك ، وكان منزله منزلاً وسطاً بين المسجد والسوق ، فلم يتحوّل ، فعاد إليه الرسول ، تحوّل عن منزلك ، فبقي ، ثم عاد إليه الثالثة ، تحوّل عن منزلك ، فذهب وطلب منزلاً وكنت في المسجد ، ولم يجيء إلى المسجد إلا عتمة فقلت له ، ما خلفك ؟ فقال ، ما تدري ما أصابني اليوم ؟ قلت ، لا ، قال ، ذهبت استقي الماء من البر لأتوضأ فخرج الدلو مملوءاً خرواً وقد عجنّا خبزنا بذلك الماء ، فطرحنا خبزنا وغسلنا ثيابنا ، فشغلني عن المجيء ، ونقلت متعالي إلى البيت الذي اكتريته ، فليس بالمنزل إلا الجارية ، الساعة أنصرف وأخذ بيدها ، فقلت ، بارك الله لك ، ثم افترقنا ، فلمّا كان سحراً خرجنا إلى المسجد فقال ، ما ترون ما حدث في هذه الليلة ؟ قلت ، لا " قال ، سقط والله منزلي ، السفلى والعليا)^{٢٩} .

هكذا قدم الإمام نصيحته لشيعته في مسألة حياتية جزئية ولكنها هامة بالنسبة إلى الفرد المؤمن صاحب المسألة ، وفي واقعة أخرى نجد الإمام ينصح الفرد في مسألة تجارية تبدو هي الأخرى جزئية ولكنها تكشف عن حقيقة الإهتمام بأمور المسلمين ، والواقعة رويت هكذا ،

عن الحسن بن علي بن النعمان ، عن عثمان بن عيسى قال ، (أبو الحسن (ع) لإبراهيم بن عبد الحميد ، ولقيه سحراً وإبراهيم ذاهب إلى قبا ، وأبو الحسن (ع) دخل إلى المدينة فقال ، يا إبراهيم فقلت ، لبيك ، قال ، إلى أين ؟ قلت ، إلى قبا ، فقال ، في أي شيء ؟ فقلت ، إنّ كنا نشترى في كل سنة هذا التمر فاردت أن آتي رجلاً من الأنصار فاشتري منه من الثمار ، فقال ، وقد امتنم الجراد ، ثم دخل ومضيت أنا فلخبرت أبا العز ، فقال ، لا والله لا اشتري العام نخلة ، فما مرت بنا خامسة ، حتى بعث الله جراداً فاكل عامة ما في النخل)^{٣٠} .

علم الإمامة :

إن قاعدة الرسائل الإلهية قائمة على أساس الإيمان بالغيب ، وبرز مظاهر الغيب هو العلم به من قبل عباد الله المقربين ، لوليس ذات الكتاب الذي يوحى إلى النبي - أيّ نبي - ويؤمر الناس باتباعه من الغيب ؟

كيف علم الله رسوله النبي الأمي كل تلك الرسالة العظيمة وذلك الكتاب الكريم ، الذي تحدّى العالمين

(٢٩) المصدر : (ص ٤٥ - ٤٦) .

(٣٠) المصدر : (ص ٤٦ - الرقم ٣٠) .

أن يأتوا بمثل بعض سوره لو آياته .

إننا نقرأ في الكتاب حجة عيسى ابن مريم على قومه أن يثبتهم بما يدّخرون في بيوتهم .
وهكذا يكون علم الإمام الإلهي الذي تجاوز حدود علم الناس دليلاً على أنه مؤيد بالله ، وأنه الإمام ،
والحجة على الناس أجمعين .

كيف يكون هذا العلم ؟ هل يكون عبر توارث الحديث عن رسول الله عن جبرائيل عن الله ، أم عبر نكت
في القلوب ونقر في الأسماع ، أو عبر عمود من نور ينظر إليه الإمام متى شاء الله أن يعلم شيئاً فيعلم ، أم
بنزول الروح - وهو أعظم من الملائكة - عليه ليلة القدر ؟!

الصحيح أن كل ذلك وربما غير ذلك مما لا نعلم من سبل العلم الإلهي يكون طريق علم الإمام ، ولم
نكلف نحن بمعرفة تفاصيل ذلك ، إنما يكفي أن الإمام يعلم - بإذن الله - بما يجهله الناس ، وبذلك
يفضل عليهم ، ولا بد أن يكون مطاعاً فيهم بإذن الله .

جاء في حديث شريف عن أبي عبد الله الصادق (ع) ،

" قال قلت ، أخبرني عن علم عالمكم ؟ قال ، ورائة من رسول الله (ص) ومن علي بن أبي طالب (ع) ،
فقلت ، إننا نتحدث أنه يقذف في قلبه أو ينكت في إذنه ، فقال ، لو ذاك " ٣١ .

أي لعله يكون ذلك .

والإمام الكاظم نطق بعلم الرسالة في كافة الحقول ، ويكفيك وصيته لهشام التي تعتبر خلاصة حكم
الأنبياء ، وزبدة رؤى الرسالات ، وما نذكره فيما يلي رشح من بحر علمه الزاخر ،

١ - روي أن إسحاق بن عمار قال ، (لما حبس هارون أبا الحسن موسى (ع) دخل عليه أبو يوسف ،
ومحمد بن الحسن ، صاحباً أبي حنيفة فقال لهما للآخر ، نحن على أحد الأمرين ، إما أن نسأويه أو
نشكله ، فجلسا بين يديه ، فجاء رجل كان موثقاً من قبل السندي بن شاهك ، فقال ، إن نوبتي قد
انقضت وأنا على الإنصاف فإن كان لك حاجة أمرتني حتى أتيك بها في الوقت الذي تخلفني النوبة ؟
فقال ، مالي حاجة ، فلما أن خرج قال لأبي يوسف ،

(ما أعجب هذا يسألني أن أكلفه حاجة من حوائجي ليرجع وهو ميت في هذه الليلة) .

فقاما فقال لهما للآخر ، إننا جننا لنسأله عن الغرض والسنة وهو الآن جاء بشيء آخر كأنه من علم
الغيب .

ثم بعنا برجل مع الرجل فقالا ، إذهب حتى تلزمه وتنظر ما يكون من أمره في هذه الليلة وتأتينا بخبره
من الغد ، فمضى الرجل فنام في مسجد في باب داره ، فلما أصبح سمع الواقعة ورأى الناس يدخلون
داره فقال ، ما هذا ؟ قالوا قد مات فلان في هذه الليلة فحاة من غير عاة ، فانصرف إلى أبي يوسف

(٣١) بحار الأنوار : (ج ٢ ، ص ١٧٤) .

ومحمد واخبرهما الخير ، فاتيا لبا الحسن (ع) فقالا ، قد علمنا انك ادركت العلم في الحلال والحرام فمن اين ادركت امر هذا الرجل الموكل بك انه يموت في هذه الليلة ؟ قال ،
(من الباب الذي اخبر بعلمه رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (ع)) . فلما رَدَّ عليهما هذا بقيا لا يحيران جواباً (٣٢) .

هكذا لوتي الإمام موسى بن جعفر (ع) علم المنيا كما لوتي ذلك من قبل انبياء الله ولوليائه الكرام .
٢ - وكذلك لوتي علم منطق الناس بإذن الله تعالى ، فقد جاء في الحديث عن ابن ابي حمزة قال ،
(كنت عند ابي الحسن موسى (ع) إذ دخل عليه ثلاثون مملوكاً من الحبشة اشتروا له ، فتكلم غلام منهم فكان جميلاً بكلام فاجابه موسى (ع) بلغته ، فتعجب الغلام وتعجبوا جميعاً وظنوا انه لا يفهم كلامهم ، فقال له موسى ، اني لادفع إليك مالا فادفع إلى كل منهم ثلاثين درهماً ، فخرجوا وبعضهم يقول لبعض ، انه افصح منا بلغاتنا ، وهذه نعمة من الله علينا .

قال علي بن ابي حمزة ، فلما خرجوا قلت ، يا بن رسول الله رايتك تكلم هؤلاء الحبشيين بلغاتهم ؟ قال ، نعم ، قال ، وامرت ذلك الغلام من بينهم بشيء دونهم ؟ قال ، نعم امرته ان يستوصي باصحابه خيراً ، وان يعطي كل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهماً ، لانه لما تكلم كان لعلمهم فإنه من ابناء ملوكهم ، فجعلته عليهم ولوصيته بما يحتاجون إليه ، وهو مع هذا غلام صدق ، ثم قال ، لعلك عجبت من كلامي لياهم بالحبشة ؟ قلت ، إي والله قال ، (لا تعجب فما خفي عليك من امري لعجب واعجب ، وما الذي سمعته مني إلا كطائر أخذ بمنقاره من البحر قطرة ، افترى هذا الذي يأخذه بمنقاره ينقص من البحر ؟
والإمام بمنزلة البحر لا ينفد ما عنده وعجائبه اكثر من عجائب البحر) (٣٣) .

٣ - وجاء في حديث آخر يرويه علي بن حمزة قال ، (ارسلني ابو الحسن (ع) إلى رجل قدأمه طبق يبيع بفلس فلس وقال ، اعطه هذه الثمانية عشر درهماً وقل له ، يقول لك ابو الحسن ، انتفع بهذه الدراهم فإنها تكفيك حتى تموت ، فلما اعطيته بكى ، فقلت ، وما يبكيك ؟ قال ، ولم لا ابكي وقد نعتيت إلي نفسي ، فقلت ، وما عند الله خير مما انت فيه ، فسكت وقال ، من انت يا عبد الله ؟ فقلت علي بن ابي حمزة ، قال ، والله لهكذا قال لي سيدي ومولاي اني باعت إليك مع علي بن ابي حمزة برسالتني ، قال علي ، فلبث نحواً من عشرين ليلة ثم اتيت إليه وهو مريض فقلت ، لوصني بما احببت انفعده من مالي ، قال ، إذا انا مت فزوج ابنتي من رجل دين ، ثم بع داري وادفع ثمنها إلى ابي الحسن ، واشهد لي بالغسل والدفن والصلاة . قال ، فلما دفنته زوجت ابنته من رجل مؤمن وبعث داره واتيت بثمانها إلى ابي الحسن (ع) فزكاه وترحم عليه وقال ، رد هذه الدراهم فادفعها إلى ابنته) (٣٤) .

(٣٢) المصدر : (ص ٦٤ ، ٦٥) .

(٣٣) المصدر . (ص ٧٠) (٩٣ /) .

(٣٤) المصدر : (ص ٧٦) .

٤ - وإذا كان علم الأئمة من الله ، فإن الله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض ، وقد تقضي حكمته أن يجعل علمه عند صبي في المهد ، كما فعل بالمسيح عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا (ع) ، وهكذا أظهر قدرته في شخص الإمام الكاظم (ع) حيث جاء في حديث شريف ماثور عن عيسى شلقان قال ، (دخلت على أبي عبد الله (ع) وأنا أريد أن أسأله عن أبي الخطاب فقال لي مبتدئاً من قبل أن أجلس ، ما منعك أن تلقى ابني موسى فتسأله عن جميع ما تريد ؟ قال عيسى ، فذهبت إلى العبد الصالح (ع) وهو قاعد في الكتاب وعلى شفثيه أذر المداد فقال لي مبتدئاً ، يا عيسى إن الله أخذ ميثاق النبيين على النبوة فلم يتحولوا عنها ، وأخذ ميثاق الوصيين على الوصية فلم يتحولوا عنها أبداً ، وإن قوماً إيمانهم عارية ، وإن أبا الخطاب ممن أعير الإيمان فسلبه الله إياه ، فضممته إليّ وقبلت ما بين عينيه وقلت ، ذرية بعضها من بعض .

ثم رجعت إلى الصادق (ع) فقال ، ما صنعت ؟ قلت ، أتيت فألخبرني مبتدئاً من غير أن أسأله عن جميع ما أردت ، فعلمت عند ذلك أنه صاحب هذا الأمر ، فقال ، يا عيسى إن ابني هذا الذي رأيت لو سألت عماراً بين دفتي المصحف ، لأجابك فيه بعلم ثم أخرجه ذلك اليوم من الكتاب) (٣٥) .

٥ - حينما يسقط الحجاب بين الرب وعبده ، وحينما يبلغ الصفاء الروحي والمعرفة الإلهية القمة ، فإن الدنيا تأتي مطيعة للعبد الصالح ، كما قال الله في الحديث القدسي ،

"عبي ، اطعني تكن مثلي (أو مثلي) أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

هكذا يروي لنا شقيق البلخي جانباً من الكرامة التي خصها الله تعالى لإمامنا السابع موسى بن جعفر (ع) فيقول ، (خرجت حاجاً في سنة تسع وأربعين ومائة ، فنزلت القادسية فبينما أنا أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم ، فنظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة ضعيف ، فوق ثيابه ثوب من صوف مشتمل بشملة ، في رجليه نعلان وقد جلس منفرداً ، فقلت في نفسي ، هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس في طريقهم ، والله لأمضين إليه ولأوبخه ، فدنوت فلما رأيته مقبلاً قال ، يا شقيق ، ﴿ اجْتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات/١٢)

ثم تركني ومضى ، فقلت في نفسي إن هذا الأمر عظيم قد تكلم بما في نفسي ونطق بإسمي ، وما هذا إلا عبد صالح لألقنه ولأسأله أن يطلني ، فأسرعت في أثره فلم أحقه وغاب عن عيني ، فلما نزلنا واقصة وإذا به يصل وأعضاؤه تضطرب ، ودموعه تجري فقلت ، هذا صاحبي أمضي إليه واستحلّه .

فصبرت حتى جلس ، وأقبلت نحوه فلما رأيته مقبلاً قال ، يا شقيق اتل ، ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه/٨٢)

ثم تركني ومضى ، فقلت ، إن هذا الفتى لمن الأبدال ، لقد تكلم على سرّي مرتين ، فلما نزلنا زبالاً إذا

بألفتي قائم على البئر وببيده ركوة يريد أن يسقي ماءً ، فسقطت الركوة من يده في البئر وأنا انظر إليه ،
فرأيت أنه قد رمق السماء وسمعته يقول :

أنت ربي إذ ظننت إلى الماء
" اللهم سيدي مالي غيرها فلا تعدمنيها " .

قال شقيق : فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها فمد يده وأخذ الركوة وملأها ماءً ، فتوضأ وصلى أربع ركعات ، ثم مال إلى كتيب رمل فجعل يقبض بيده ويطرعه في الركوة ويحركه ويشرب ، فأقبلت إليه وسلمت عليه ، فرد عليّ السلام فقلت : أطعمني من فضل ما أنعم الله عليك ، فقال : يا شقيق لم تنل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بريك ، ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكر ، فوالله ما شربت الذّ منه ولا أطيب ريحاً فشبعته ورويت وأقمت أياماً لا أشتهي طعاماً ولا شرباً .

ثم لم أره حتى دخلنا مكة ، فرأيت ليلة إلى جنب قبة الشراب في نصف الليل قائماً يصلي بخشوع ولنين وبكاء ، فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل ، فلما رأى الفجر جلس في مصلاه يسبح ، ثم قام فصلى الغداة وطاف بالبيت أسبوعاً وخرج فتبعته ، وإذا له غاشية وموالم وهو على خلاف ما رأيته في الطريق ، ودار به الناس من حوله يسلمون عليه ، فقلت لبعض من رأيته بقرب منه : من هذا الفتى ؟ فقال : هذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) فقلت : قد عجبت أن تكون هذه العجائب إلا لمثل هذا السيد ، ولقد نظم بعض المتقدمين واقعة شقيق معه في أبيات طويلة اقتصرنا على ذكر بعضها فقال :

سئل شقيق البلخي عنه وما عا	ين منه وما الذي كان يبصر
قال لما حججت عاينت شخصاً	شاحب اللون ناحل الجسم أسمر
سائراً وحده وليس له زأ	د فما زالت دائماً تتفكر
وتوهمت أنه يسأل النا	س ولم أدرك أنه الحج الأكبر
ثم عاينته ونصن نزول	دون فيسر على الكتيب الأحمر
يضع الرمل في الإناء ويشرب	له فناديته وعقلي محير
أسقني شربة فناولني من	له فعأينته سويقاً وسكر
فسألت الحجيح من يك هذا ؟	قيل هذا الإمام موسى بن جعفر

الفصل الرابع

خلقه وفضائله

خلقه وفضائله :

إنما جعل الله أنبياءه وحملته رسالاته من البشر ، لكي تتم الحجة على الناس فيقتدوا بهم ، ولو كانوا ملائكة لكان الناس يقولون مالنا والملائكة ، اوليسوا من جنس آخر ؟
بلى وإن الإنسان مفلور على حب الفضيلة ، وإذا تجسدت في شخص ازداد لها حباً ، ودفعته دواعي الخير في ذاته إلى اتباعه ، والسعي لكي يكون مثله .
إنك لو القيت على شخص محاضرة مفصلة عن فضيلة الإحسان فإنه لا يندفع بقدر ما لو حكيت له قصة رجل محسن .

إن مكارم أخلاق الأئمة من أهل البيت (ع) أفضل منهاج تربوي ، وإنهم - بحق - لسمى قدوات الخير والفضيلة ، وإن سيرة حياتهم الحافلة بالمكرّمات أقوى حجة على سلامة نهجهم في التربية وسلامة خطتهم في الحياة ، وإن أفكارهم التي تناقلتها الرواة هي التفسير الصحيح للقرآن الحق ، اوليسوا من البشر ؟ إذا كيف بلغوا هذا الشأن من العظمة ، ألم يبلغوه بتطبيق هذه الأفكار التي رويت عنهم ؟ بلى ، اولسنا نحن أيضاً نريد العظمة ؟ إذا دعنا نقرأ تلك الأفكار ونتفاعل معها .
والواقع أن التاريخ لم يحفظ لنا من سيرة الأئمة إلا قليلاً ، لأنهم كانوا محاصرين إعلامياً من قبل سلطات الجور حتى أن رواية فضيلة لهم كانت تكلف في بعض العصور حياة الراوي ، وكان على الشاعر دعبل أن يحمل على كتفه خشبة إعدامه لمدة ربع قرن ، ويهيم على وجهه في القفار لأنه كان يمدح أهل البيت . ومع ذلك فإن ما تبقى من فضائلهم يعتبر دورة تربوية كاملة لمكارم الأخلاق .
ولأن عاش إمامنا الكاظم (ع) في أشد أيام الصراع وأصعب أوقات التقية وسرية العمل ، فإن اختراق قصصه لحصار السلطات يعتبر معجزة ، وعلينا أن نستدل بما وصلتنا من قصصه وهي قليلة على ما لم تصل إلينا وهي الأكثر .

أ - عبادته وزهده :

من أبرز سمات القيادات الرسالية الزهد ، والتشرف والاجتهاد في التبتل إلى الله تعالى ، وقد كان عصر الإمام الكاظم (ع) معروفاً بالعصر الذهبي ، وكانت بيوت السلطة العباسية تفيض بالثروات الطائلة، وتشهد حفلات المجون ، كالتّي نقرأ بعضها في قصص ألف ليلة وليلة ، وفي ذات الوقت ينقل إبراهيم بن

عبد الحميد ويقول ، (دخلت على أبي الحسن الأول (ع) في بيته الذي كان يصلي فيه فإذا ليس في البيت شيء إلا حُضْفَةٌ ^{٣٧} وسيف معلق ومصحف ^{٣٨}) .

وكان (ع) يسعى إلى بيت الله الحرام ماشياً لشدة تواضعه لله ، واجتهاده في العبادة ، وإذا عرفنا المسافة بين المدينة ومكة التي تقارب (٤٠٠) كيلو متر وطبيعة الصحراء في أرض الحجاز ، عرفنا مدى تحمل الإمام للصعاب في سبيل الله .

يقول علي بن جعفر (ع) ، (خرجنا مع أخي موسى بن جعفر (ع) في أربع عُمَرٍ يمشي فيها إلى مكة بعياله وأهله ، واحدة مهن مشى فيها ستة وعشرين يوماً ، وأخرى خمسة وعشرين يوماً ، وأخرى أربعة وعشرين يوماً ، وأخرى واحداً وعشرين يوماً ^{٣٩}) .

أما شدة اجتهاده في الصلاة وهي قرّة عين المؤمنين وملتقى الحبيب مع الحبيب فيقول عنها الحديث التالي ،

" روي أنه كان يصلي نوافل الليل ، ويصلها بصلاة الصبح ، ثم يعقب حتى تطلع الشمس ، ويخر لله ساجداً فلا يرفع رأسه من السجدة والتحميد حتى يقرب زوال الشمس ، وكان يدعو كثيراً فيقول ، اللهم إني أسالك الراحة عند الموت ، والعفو عند الحساب ، ويكرر ذلك ، وكان من دعائه (ع) عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك ، وكان يبكي من خشية الله حتى تخضلّ لحيته بالدموع ، وكان أوصل الناس لأهله ورحمه ، وكان يفتقد فقراء المدينة " ^{٤٠} .

والواقع أن اجتهاد الإمام في عبادة ربه والتبتل إليه بالصلوات والأدعية ، هو السبب الذي بعثه الله به مقاماً محموداً . وهو الذي أعطاه قدرة تحمل أعباء الرسالة التي نهض بها وضحّى بما لديه في سبيل تبليغها ، وكانت صلواته أعظم مؤنس له في ظلّ ظُلم الطغاة ، فهذا أحمد بن عبد الله ينقل عن أبيه فيقول ، (دخلت على الفضل بن الربيع وهو على سطح فقال لي ، إشراف على هذا البيت وانظر ما ترى ؟ فقلت ، ثوباً مطروحاً فقال ، انظر حسناً فتأملت فقلت ، رجل ساجد ، فقال لي ، تحرفه ؟ هو موسى بن جعفر اتفقده الليل والنهار فلم أجده في وقت من الأوقات إلا على هذه الحالة ، إنه يصلي الفجر فيعقب إلى أن تطلع الشمس ثم يسجد سجدة ، فلا يزال ساجداً حتى تزول الشمس ، وقد وكلّ من يترصد أوقات الصلاة ، فإذا أخبره وثب يصلي من غير تجديد وضوء ، وهو دأبه فإذا صلى العتمة أفطر ، ثم يجدد الوضوء ثم يسجد فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر ، وقال بعض عيونه ، كنت لسمعه كثيراً يقول في دعائه ،

(٣٧) الحُضْفَةُ : الحيكّة تعمل من الخوص للتمر ، وأيضاً يقال للترب الغليظ جداً .

(٣٨) المصدر : (ص ١٠٠) .

(٣٩) المصدر .

(٤٠) المصدر : (ص ١٠٢) .

" اللهم إني أعلم أنني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك ، اللهم وقد فعلت فلك الحمد " ^{٤١} .
 أما قراءته للقرآن ، فيحدثنا عنها حفص ويقول : (ما رأيت أحداً أشد خوفاً على نفسه من موسى بن جعفر (ع) ولا أرجى للناس منه ، وكانت قراءته حزناً ، فإذا قرأ فكانه يخاطب إنساناً ^{٤٢} .
 لقد علمه القرآن الكريم اسمى القيم ، ومن أبرزها الإشفاق على نفسه ، والسعي الدائب لتزكيتها وخلصها من غضب الرب ، وإصلاحها لتكون موضع محبة الخالق ورضوانه .
 بينما كان يرجو للناس كل خير ، ولم يكن رجاؤه مجرداً عن العمل ، بل كان (ع) يتقرب إلى الله بالإحسان إلى الناس ، فقد كان يتفقد فقراء أهل البيت فيحمل إليهم في الليل العين والورق وغير ذلك ، فيوصله إليهم وهم لا يعلمون من أي جهة هو) ^{٤٣} .

ب - جوده وكرمه :

بالتوكل على الله واليقين يعظم ثواب المحسنين عنده ، والثقة بأنه الرزاق ذو القوة المتين . يعطي المؤمن عطاءً لا يخشى الفقر ، وائمة الهدى هم المثل الأعلى في الكرم والجود ، فهذا الإمام موسى بن جعفر (ع) مع ما كان يعيشه من ظروف قاسية ، اشتهر بهذه الصفة في الأفاق .
 جاء في التاريخ رواية ماثورة عن محمد بن عبد الله البكري ، قال :
 (قدمت المدينة اطلب ديناً فاعيانني ، فقلت لو ذهبت إلى أبي الحسن (ع) فشكوت إليه ، فأتيته بنقمي في ضيعته ، فخرج إليّ ومعه غلام ومعه منسف فيه قديد مجزع ، ليس معه غيره ، فاكل فاكلت معه ، ثم سألني عن حاجتي فذكرت له قصتي ، فدخل ولم يقم إلا يسيراً حتى خرج إليّ فقال لغلامه : اذهب ثم مدّ يده إليّ فناولني صرة فيها ثلاثمائة دينار ، ثم قام فولى فقامت فركبت دابتي وانصرفت) ^{٤٤} .
 وروي عن أبي الفرج في مقاتل الطالبين عن يحيى بن الحسن قال : (كان موسى بن جعفر (ع) إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصورة دنانير ، وكانت صراره ما بين الثلاثمائة إلى المائتين دينار ، فكانت صرار موسى مثلاً ^{٤٥}) .
 وجاء في حكاية تاريخية طريفة أن المنصور العباسي تقدم إلى موسى بن جعفر (ع) بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز ، وقبض ما يحمل إليه فقال (ع) :
 " إني قد فتشت الأخبار عن جدي رسول الله (ص) فلم أجد لهذا العيد خبراً ، وإنه سنة للفرس ومحاها الإسلام ، ومعان الله أن نحيا ما محاه الإسلام " .

(٤١) المصدر : (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٤٢) المصدر : (ص ١١١) .

(٤٣) المصدر : (ص ١٠٨) .

(٤٤) المصدر : (ص ١٠٢) .

(٤٥) مقاتل الطالبين (ص ١٠٤) .

فقال المنصور : إنما تفعل هذا سياسة للجند ، فسألتك بالله العظيم ألا تجلس ، فجلس ودخلت عليه الملوك والأمراء والأجناد يهنئونه ، ويحملون إليه الهدايا والتحف ، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل ، فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السن فقال له : يا ابن بنت رسول الله إني رجل صعلوك لا مال لي اتحفك ولكن اتحفك بثلاثة أبيات قالها جدِّي في جدك الحسين بن علي (ع) :

عجبت لمصقول علاك فرنده يوم الهياج وقد علاك غبار
ولأسهم نفذتك دون حرائر يدعون جدك والدموع غزار
الا تغضضت السهام وعاقها عن جسمك الإجلال والإكبار

قال : قبلت هديتك ، إجلس بارك الله فيك ، ورفع رأسه إلى الخادم وقال : إمضي إلى أمير المؤمنين وعرفه بهذا المال وما يصنع به ، فمضى الخادم وعاد وهو يقول : كلها هبة مني له ، يفعل به ما أراد ، فقال موسى للشيخ : إقبض جميع هذا المال فهو هبة مني لك (ع) .

وكان يلقي بكرمه عدوه فإذا به يصبح ولياً حميماً ، فهذا شخص من ولاد الخليفة الثاني كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى (ع) ويسبه إذا رآه ، ويشتم علياً ، فقال له بعض حاشيته يوماً : دعنا نقتل هذا الفاجر ، فنهاهم عن ذلك أشد النهي وزجرهم ، وسأل عن العمري فذكر أنه يزرع ناحية من نواحي المدينة ، فركب إليه ، فوجده في مزرعة له ، فدخل المزرعة بحماره ، فصاح به العمري لا توطيء زرعنا ، فتوطاه (ع) بالحمار حتى وصل إليه ونزل وجلس عنده ، وبأسطه وضاحكه ، وقال له : كم غرمت على زرعك هذا ؟ قال : مائة دينار ، قال : فكم ترجو أن تصيب ؟ قال : لست أعلم الغيب ، قال له : إنما قلت كم ترجو أن يجيبك فيه ؟ قال : أرجو أن يجيء مائتا دينار .

قال : فأخرج له أبو الحسن (ع) صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال هذا زرعك على حاله ، والله يرزقك فيه ما ترجو ، قال : فقام العمري فقبل رأسه وسأله أن يصفح عن فارطه ، فتبسم إليه أبو الحسن وانصرف ، قال : وراح إلى المسجد فوجد العمري جالساً فلما نظر إليه قال : الله أعلم حيث يجعل رسالته قال : فوثب أصحابه إليه فقالوا له : ما قضيتك ؟ قد كنت تقول غير هذا ، قال : فقال لهم : قد سمعتم ما قلت الآن ، وجعل يدعو لأبي الحسن (ع) فخاصموه وخاصمهم ، فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري : إيمًا كان خيراً ما أردتم أم ما أردت ؟ إني اصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتكم وكفيت به شره ^{٤٧} .

ج - علمه (ع) :

سبق الحديث عن علم الإمام ونعود هنا لنثبت رواية طريفة في علمه ، حيث ينقل عن محمد بن النعمان المعروف بابي حنيفة إمام المذهب أنه قال :

(٤٦) المصدر : (ص ١٠٨) .

(٤٧) المصدر : (ج ٥٦ ، ص ١٠٢ - ١٠٣) .

(رأيت موسى بن جعفر وهو صغير السن في دهليز أبيه ، فقلت ، لين يحدث الغريب منكم إذا أراد ذلك ؟ فنظر إليّ ثم قال ، يتوارى خلف الجدار ويتوقى عن لعين الجار ، ويتجنب شطوط الأنهار ومساقط النمار ، وأفنية الدور والطرق النافذة ، والمساجد ، ولا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ويرفع ويضع ذلك حيث شاء .

قال ، فلما سمعت هذا القول منه ، نبذ في عيني ، وعظم في قلبي فقلت له ، جعلت فداك ممن المعصية ؟ فنظر إليّ ثم قال ، إجلس حتى أخبرك ، فجلست فقال ، إن المعصية لأبد أن تكون من العبد لو من ربه أو منهما جميعاً ، فإن كانت من الله تعالى فهو لعدل وإنصف من أن يظلم عبده ويأخذ به بما لم يفعله ، وإن كانت منهما فهو شريكه ، والقوي لولى بإنصاف عبده الضعيف ، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر ، وإليه توجه النهي ، وله حق الثواب والعقاب ، ووجب الجنة والنار فقلت ، ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ (آل عمران / ٣٤) .

وروي عنه الخطيب في تاريخ بغداد ، والسمعاني في الرسالة القومية ، وأبو صالح أحمد المؤذن في الأربعين ، وأبو عبد الله بن بطّة في الإبانة ، والخلعي في الكشف والبيان ، وكان أحمد بن حنبل مع انصرافه عن أهل البيت (ع) لما روي عنه قال ، حدثني موسى بن جعفر قال ، حدثني أبي جعفر بن محمد وهكذا إلى النبي (ص) ثم قال أحمد ، (وهذا إسناد لو قرأ على المجنون أفاق) .

شجاعته واستقامته :

لقد حمل الإمام لواء رسالات الأنبياء بذات العزيمة العظيمة التي كانت للنبيين (ع) . لقد تحدى كل طغيان الاستكبار ، وكل تراكمات الفساد بثقة مطلقة برب العالمين .
حينما يأتيه الفضل بن الربيع ويقول له ، استعد للعقوبة يا أبا إبراهيم رحمك الله فقال (ع) ، " اليس معي من يملك الدنيا والآخرة ولن يقدر اليوم على سوء بي إن شاء الله " ،
وحينما يدخل على هارون الرشيد ذلك الطاغية الذي كان يخاطب مرة السحاب ويفتخر بسعة سلطانه ، فيقول ، شرقي غربي فأنى ذهبت فخرألك إلي .
يقول له هارون ، ما هذه الدار ؟

فقال الإمام ، هذه دار الفاسقين ، قال الله تعالى ، ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ (الاعراف / ١٤٦)
فقال له هارون ، فدار من هي ؟ قال ، " هي لشيعتنا فترة ، ولغيرهم فتنة " .
قال ، فما بال صاحب الدار لا يأخذها ؟ فقال ، " أخذت منه عامرة ولا يأخذها إلا محموره " .
قال فلين شيعتك ، فقرا أبو الحسن (ع) ،
﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (النّساء / ١)

قال ، فقال له ، فنحن كفّار ؟ قال ، لا .. ولكن كما قال الله ،
﴿ الَّذِينَ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم/ ٢٨)
فغضب عند ذلك وغلظ عليه ^{٤٨} .

ومن المعتقل حيث تحيط به جلاوزة السلطات المجرمون ، كتب رسالة إلى الرّشيد جاء فيها ، " إنه لن
ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقض عنك معه يوم من الرضاء، حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له
إنقضاء يخسر فيه المبطلون " ^{٤٩} .

(٤٨) البحار : ج ٥٦ (ص ٢٢٣) .

(٤٩) المصدر : (ص ١٤٨)

الفصل الخامس

محنته وشهادته

بعد محنة أبي عبد الله الحسين (ع) ، وأكثر من سائر أئمة الهدى من أهل بيت الرسول ، كانت محنة أبي إبراهيم موسى بن جعفر (ع) شديدة واليمة .
لقد كان الرّشيد يترصده ولا يقدر عليه ، ولعله كان يخشى من بحث جيش إليه خوف انقلابه وتحوله إلى صفه ، وكانت السرية التي عمل بها الرّساليون تجعل السلطات لا تتق باقرب الناس إليهم ، فهذا علي بن يقطين وزير الرّشيد ، وذلك وزيره الآخر جعفر بن محمد بن الأشعث شيعة ، كما كان من بين قيادات جيشه ، وبرز ولاته على الأمصار من يخفي ولاته لال البيت (ع) ، فلذلك قرر الذهاب بنفسه إلى المدينة ، لإلقاء القبض عليه ، وأخذ معه قواته الخاصة ، بالإضافة إلى جيش من الشعراء ، وعلماء السلاطين ، والمستشارين ، و . كما أنه حمل معه الملايين مما سرقه من المحرومين ، فقسمها بين الناس لشراء سكوتهم .

وخص منهم رؤساء القبائل ووجوه واعيان المعارضة .
هكذا ذهب الرّشيد إلى المدينة ليأقي القبض على أعظم معارضي سلطانه الغاصب ، لننظر ما فعل ،
أولاً ، جلس عدة أيام يستقبل الناس ويأمر لهم بالصّلات السخية ، حتى أشبع بطون المعارضين ، ممن كانت معارضتهم للسلطة لأسباب شخصية ومصالح خاصة .
ثانياً ، بحث في البلد من يبيث الدعايات ضد اعداء السلطان ، وأغرى الشعراء وعملاء السلطة من أدعياء الدين بمدح السلطان وإصدار الفتاوى بحرمة محاربه .
ثالثاً ، استعرض قوّته لأهل المدينة لكي لا يفكر أحد بمقاومته في هذا الوقت بالذات .
رابعاً ، وحينما أكمل استعداداته قام شخصياً بتطبيق البند الأخير من خطته الإرهابية ، فدخل مسجد رسول الله ، ربما في وقت يجتمع الناس لأداء الفريضة ، ولا يتخلف عنهم - بالطبع - الإمام موسى بن جعفر (ع) .

ثم تقدم إلى قبر الرسول وسلم عليه ، وقال ، السلام عليك يا رسول الله ، يا ابن عم .
وكان هدفه إثبات شرعية خلافته لرسول الله ، لتكون سبباً وجيهاً لاعتقال الإمام (ع) ، ولكن الإمام قوّت عليه هذه الفرصة ، وشق الصفوف حتى تقدمها وتوجه إلى القبر الشريف وقال في ذهول الجميع ، السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا جدّه .

فلان كان رسول الله ابن عمك يا سلطان الجور ، وإنك تدعي شرعية سلطتك بانتماذك النسبي لرسول الله (ص) ، فإنه اقرب إليّ ، فهو جدي وأنا أحقّ بخلافته منك .

ولكن الرّشيد استدرك الموقف وقال وهو يبرّر عزمه على اعتقال الإمام بالقول ،
بابي انت وامي يا رسول الله ، إني اعتذر إليك من أمر عزمت عليه ، وإني أريد أن آخذ موسى بن جعفر فاحبسّه ، لأنّي قد خشيت أن يلقي بين امّتك حرباً تسفك فيها دماؤهم .
فلما كان اليوم التالي أرسل إليه الفضل بن الربيع وهو قائم يصلي في مقام رسول الله ، فامر بالقبض عليه وحبسّه .

ولخرج من داره بغلان عليهما قبتان مغطاتان هو في لحدّهما ، ووجّه مع كل واحدة منهما خيلاً فلخذ بواحدة على طريق البصرة ، والأخرى على طريق الكوفة ، ليعمي على الناس امره ، وكان الإمام في القبة التي مضت على البصرة ، وأمر الرسول أن يسلم إلى عيسى بن جعفر بن المنصور ، وكان والياً يومئذ على البصرة فمضى به فحبسه عنده سنة .

ثم كتب إلى الرّشيد أن خذه منّي ، وسلّمه إلى من شئت ، والأخيّت سبيله ، فقد اجتهدت بأن أجد عليه حجة ، فما أقدّر على ذلك ، حتى إني لأتسمّع عليه إذا دعا لعله يدعو عليّ أو عليك فما أسمعته يدعو إلا لنفسه ، يسأله الرحمة والمغفرة ، فوجّه من تسلمه منه ، وحبسّه عند الفضل بن الربيع ببغداد ، فبقي عنده مدة طويلة ، وأراده الرّشيد على شيء من أمره فابى ، فكتب بتسليمه إلى الفضل بن يحيى ، فتسلّمه منه وأراد ذلك منه فلم يفعل ، وبلغه أنه عنده في رفاهية وسعة ، وهو حينئذ بالرقّة .

فلنفذ مسروراً الخادم إلى بغداد على البريد ، وأمره أن يدخل من فوره إلى موسى بن جعفر (ع) فيعرف خبره ، فإن كان الأمر على ما بلغه أوصل كتاباً منه إلى العباس بن محمد وأمره بامتتاله ، ولوصل منه كتاباً آخر إلى السندي بن شاهك يأمره بطاعة العباس .

وتمضي الرواية التاريخية لتقول : وبلغ يحيى بن خالد فركب إلى الرّشيد ودخل من غير الباب الذي يدخل الناس منه ، حتى جاءه من خلفه وهو لا يشعر ، ثم قال : التفت إليّ يا أمير المؤمنين فاصغى إليه فزعا ، فقال له : إن الفضل حدث ولنا لكفيك ما تريد ، فانطلق وجهه وسرّ واقبل على الناس فقال : إن الفضل كان عصاني في شيء فلعنّته وقد تاب وانا ب إلى طاعتي فتولوه ، فقالوا له : نحن أولياء من واليت ولعداء من عاديت وقد توليناها . ثم خرج يحيى بن خالد بنفسه على البريد حتى أتى بغداد فماج الناس وأرجفوا بكل شيء ، فظهر أنه ورد لتعديل السواد ، والنظر في أمر العمّال وتشاغل ببعض ذلك ، ودعا السندي فامرّه فيه بامرّه ، فامتتله وسال موسى (ع) السندي عند وفاته أن يحضره مولى له ينزل عند دار العباس بن محمد في أصحاب القصب ليخسله ، ففعل ذلك ، قال ، وسألته أن يادن لي أن أكفّه فابسى

(٥٠) المصدر : (ص ٢١٣)

(٥١) المصدر : (ص ٢٣٣) .

وقال ،

(إنا أهل البيت مهوّر نساننا وحجّ ضرورتنا ، واكفان موتانا من طاهر أموالنا ، وعندي كفتي) .
فلما مات أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد وفيهم الهيثم بن عدي وغيره فنظروا إليه ولا أثر به ،
وشهدوا على ذلك وأخرج فوضع على الجسر ببغداد ، ونودي ، هذا موسى بن جعفر قد مات فانظروا إليه ،
فجعل الناس يتفرسون في وجهه وهو (ع) ميت .

قال ، وحدّثني رجل من بعض الطالبين أنه نودي عليه ، هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه
لا يموت ، فانظروا إليه ، فنظروا إليه .

قالوا ، وحمل فدفن في مقابر قريش ، فوق قبره ، إلى جانب رجل من النوفليين يقال له عيسى بن عبد
الله .^{٥٢}

وتنقل الروايات التاريخية ، أن الإمام (ع) كان يتصل بشيعته وأهل دعوته من السجون التي يتناقل فيها ،
ويأمرهم بأمره ، كما أنه كان يجيب عن مسائلهم السياسية ، والفقهية .

وقد نتسأل ، كيف كان (ع) يتصل بهم ، لعله بطرق غيبية ، ولكن أحاديث كثيرة تبين لنا أن أكثر من
سجن عندهم الإمام (ع) قالوا بإمامته ، بالرغم من أن السلطة كانت تختار سجنائه من بين أغلظ الناس
وأكثرهم ولائاً لها ، لما كانوا يرونه فيه من شدة الإجهاد في العبادة ، وغازاة العلم ومكارم الأخلاق ، ولما
كانوا يرونه منه من كرامات .

وفي كتاب الأنوار قال العامري ، إن هارون الرشيد أنفذ إلى موسى بن جعفر جارية خصيفة ، لها جمال
ووضاعة لتخدمه في السجن ، فقال قل له ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (الزل/٣٦)

لا حاجة لي في هذه ولا في أمثالها ، قال ، فاستطار هارون غضباً وقال ، أرجع إليه وقل له ، ليس
برضاك حبسناك ولا برضاك أخذناك ، واطرك الجارية عنده وانصرف ، قال ، فعضي ورجع ، ثم قام هارون
عن مجلسه وأنفذ الخادم إليه ليستفحص عن حالها فراها ساجدة لربها لا ترفع رأسها تقول ، قدوس
سبحانك سبحانك .

فقال هارون ، سحرها والله موسى بن جعفر بسحره ، عليّ بها ، فأتي بها وهي ترعد شاخصة بدو
السماء بصورها فقال ، ما شانك ؟ قالت ، شاني الشان البديع ، إني كنت عنده واقفة وهو قائم يحاسي لي به
ونهاره ، فلما انصرف عن صلاته بوجهه وهو يسبح الله ويقسسه قلت ، يا سيدي هل لك حاجة أعليكها ؟
قال ، وما حاجتي إليك ؟ قلت ، إني أدخلت عليك لحوائجك قال ، فما بال هؤلاء ؟ قالت ، ما كنت فزاد
روضة مزهرة لا أبلغ آخرها من أولها بنظري ، ولا أولها من آخرها ، فيها مداس ، مفروشة بالوشى ،
والديباج ، وعليها وصفاء ووصائف لم أر مثل وجوههم حسناً ، ولا مثل لباسهم لباساً ، عليهم الدرير

(٥٢) المصدر : (ص ٢٣٤) نقلاً عن كتاب العبة للطوسي : (ص ٢٢)

الأخضر ، والكالكيل والدرّ والياقوت ، وفي أيديهم الأباريق والمناديل ومن كل الطعام ، فخررت ساجدة حتى أقامني هذا الخادم فرأيت نفسي حيث كنت .

قال : فقال هارون : يا خبيثة لعلك سجدت فتمت فرأيت هذا في منامك ؟ قالت : لا والله يا سيدي إلا قبل سجودي رأيت فسجدت من أجل ذلك ، فقال الرّشيد : إقبض هذه الخبيثة إليك ، فلا يسمع هذا منها أحد ، فاقبلت في الصلاة ، فإذا قيل لها في ذلك قالت : هكذا رأيت العبد الصالح (ع) ، فسئلت عن قولها قالت : إنني لما عاينت من الأمر ناديتني الجوّاري يا فلانة ابعدني عن العبد الصالح ، حتى ندخل عليه فنحن له دونك ، فما زالت كذلك حتى ماتت ، وذلك قبل موت موسى بليام يسيرة .

هذه هي كرامة الإمام (ع) على الله ، وتلك هي عاقبة الرّشيد الظّالم الطّاعي .
نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا ممن يتولى أوليائه ، ويتبرا من أعدائه ، ويسير على نهجهم أنمة الهدى من آل محمد (صلى الله عليه وعليهم اجمعين) والحمد لله رب العالمين .

الامام الرضا (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين وسلام الله على الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين .
وصلّى الله على سيد الخلق لجمعين المهيمن على رسالات الله خاتم النبيين محمد وعلى آله الهداة
الميامين .

وبعد ..

إن حياة المعصومين الأربعة عشر كانت زاهرة بالحب والمعرفة والعبر والبصائر ، إلا أن ما بلغنا من
ضياء بعضهم كان أكثر من البعض الآخر ، والإمام الرضا (ع) من أولئك الذين تسنّت لنا فرصة الاهتداء
إلى المزيد من فضائلهم ، ولأنهم عند الله نور واحد ، فليس علينا إلا الاستضاءة بسيرته (ع) لمعرفة
سيرة سائر المعصومين من آبائهم (عليهم جميعاً سلام الله) .

وأظن أن حياة الإمام الرضا (ع) كانت فاتحة مرحلة جديدة من حياة الشيعة حيث خرجت بصائرهم
وأفكارهم من مرحلة الكتمان إلى الظهور والإعلان ، ولم يعد الشيعة من بعد ذلك العهد طائفة معارضة
في مناطق خاصة ، بل أصبحوا ظاهرين في كل البلاد ، ولقب الرضا الذي أطلق على الإمام علي بن
موسى (ع) يدل - فيما يدل - على أنه كان إماماً رضي به الموافق والمخالف .
وها نحن نتبرك بالحديث عنه سائلين الرب أن يرزقنا معرفته واتباعه وشفاعته وشفاعة جده المصطفى
(عليه وآله الصلاة والسلام) .

الفصل الأول

وجاء المولود الميمون

يذكر الرواة أن أم الإمام موسى بن جعفر (ع) حميدة المصفاة كانت من إشراف العجم ، فاشترت جارية قد ولدت في البلاد العربية وتربت فيها ، فلما اختبرتها ووجدتها من أفضل الناس في دينها وعقلها ، اختارتها لولدها الإمام موسى بن جعفر (ع) ، وقالت له ، يا بني إن تكتم (وهذا أحد أسمائها) جارية ما رأيت جارية قط أفضل منها ، ولست أشك أن الله تعالى سيظهر نسلها إن كان لها نسل ، وقد وهبتها لك فاستوصي بها خيراً .

وذكروا من فضلها ، أنها لما ولدت للإمام علي الرضا كان الرضا يرتضع كثيراً وكان تام الخلق ، فقالت ، اعينوني بمرضعة فقبل لها ، انقص الدر ؟ فقالت ، لا اكذب ، والله ما نقص ، ولكن علي ورد عن صلاتي وتسبيحي وقد نقص منذ ولدت .

وقد ذكر المؤرخون أسماء عديدة لوالدة الإمام ، أما الجارية فكانت تسمى عند كل مولاة باسم جديد . فكانت تسمى نجمة ، وأروى ، وسكن وسمان ، وتكتم وطاهرة . إلا أن أشهر الأسماء هي تكتم ، وبعد ولادتها سميت طاهرة ، وأم البنين .

وفي سنة مائة وثمان وأربعين من الهجرة في اليوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام ^٢ ولد الإمام (ع) ، وعم بيت الرسالة سرور وبهجة .

تقول أمه (تكتم الطاهرة) لما حملت بابني علي لم أشعر بنقل الحمل ، وكنت اسمع في منامي تسبيحاً وتهليلاً وتمجيداً في بطني فيفزعني ذلك ويهولني ، فإذا انتهت لم اسمع شيئاً ، فلما وضعت وقع على الأرض واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء يحرك شفثيه كأنه يتكلم ، فدخل إلي أبوه موسى بن جعفر (ع) فقال لي ، هنيئاً لك يا نجمة كرامة ربك ، فناولته إياه في خرقة بيضاء فلأن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ودعا بماء الفرات فحنكه به ثم رده إلي وقال ، خذيه فإنه بقية الله تعالى في أرضه ^٣ .

وكان الإمام موسى بن جعفر (ع) قد منحه لقب " الرضا " منذ نعومة أظفاره ، كما أنه أعملاه تسمية أبوه الحسن فكان كثير الحب له ، هكذا يروي المفضل بن عمر يقول ،

(١) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ٥) .

(٢) وقيل بل ولد في الحادي عشر من ذي الحجة ، أنظر المصدر . (ص ٢ ، ٣)

(٣) المصدر : (ص ٩) .

دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر (ع) وعلي ابنه في حجره وهو يقبله ويمص لسانه ، ويضعه على عاتقه ويضمه إليه ويقول ، بابي انت ما اطيب ريحك واطهر خالقك ، وابن فضلك ؟ قلت ، جعلت فداك لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلا لك ، فقال لي ، " يا مفضل هو مني بمنزلتني من أبي (ع) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم " .

قال ، قلت هو صاحب هذا الأمر من بعدك ؟ قال ، " نعم من أطاعه رشد ومن عصاه كفر " ^٤ .

وهكذا ترعرع الوليد في ظل والده يزكيه بأداب الإمامة ويعلمه أسرارها ويطلع على ودائع النبوة .

وكان الإمام موسى بن جعفر يقول - حسبما جاء في حديث - ،

" علي ابني أكبر ولدي واسمهم لقولي وأطوعهم لأمري ، ينظر معي في كتاب الجفر والجامعة ، وليس ينظر فيه إلا نبي أو وصي نبي " ^٥ .

وخلال سني حياته مع والده تولى - فيما يبدو لي - إدارة بعض شؤون الطائفة نيابة عن والده ، ولعل الحديث التالي يدل على ذلك . يقول زياد بن مروان القندي ، دخلت على أبي إبراهيم (الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) وعنده علي ابنه ، فقال لي ،

" يا زياد هذا كتابه كتابي ، وكلامه كلامي ، ورسوله رسولي ، وما قال فالقول قوله " ^٦ .

وقد أكثر الإمام موسى بن جعفر (ع) من بيان فضائل ابنه الرضا (ع) وأنه خليفته والإمام من بعده مما يثير السؤال عن حكمة ذلك ، ولعل من الأسباب التي تهدينا إلى تلك الحكمة ،

أن الظروف السياسية كانت قياسية جداً . حيث التقية في أشدها ، وأهل البيت مطاردون ، وهارون الرشيد كان يلاحق أصحاب وانصار أهل البيت من بلد إلى بلد ، ويقتلهم زرافاتٍ ووحداً . والإمام موسى بن جعفر ينتقل بأمره من سجن لآخر ، فكانت إمكانية تفرق كلمة الشيعة بعد وفاته تجعل من الحكمة التأكيد على ولاية الإمام الرضا .

والأصحاب بدورهم كانوا يتوجسون خيفة من اختفاء الإمام فجأة دون معرفة الإمام من بعده ، يظهر ذلك كله من بعض الأحاديث التالية ،

روي عن يزيد بن سليط الزندي قال ، لقيت موسى بن جعفر فقلت ، أخبرني عن الإمام بعدك بمثل ما أخبر به أبوك قال ، " كان أبي في زمن ليس مثل هذا " .

قال يزيد فقلت من يرضى منك بهذا فعليه لعنة الله ، قال فضحك ثم قال ، " أخبرك يا أبا عمارة إنني خرجت من منزلي فلوصيت في الظاهر إلى بني وأشركتهم مع علي ابني وأفردته بوصيتي في الباطن " ^٧ .

(٤) المصدر : (ص ٢١) .

(٥) المصدر : (ص ٢٠) .

(٦) المصدر : (ص ١٩) .

(٧) المصدر : (ص ١١) .

ويروي علي بن عبد الله الهاشمي ، قال ، كنا عند القبر (أي قبر رسول الله صلى الله عليه وآله) إذ أقبل أبو إبراهيم موسى بن جعفر ويد علي ابنه في يده فقال ، " لتدرون من أنا " ؟ قلنا ، أنت سيدنا وكبيرنا ، قال ، " سموني وانسبوني " .
 فقلنا أنت موسى بن جعفر ، فقال ، " من هذا معي " ؟
 قلنا ، هو علي بن موسى بن جعفر ، قال ، " فاشهدوا أنه وكيلي في حياتي ووصيي بعد موتي " ^٨ .
 وقد اتخذ الإمام موسى بن جعفر (ع) كافة وسائل الاحتياط لبيان إمامة الإمام الرضا . فمثلاً ، كتب كتاباً بذلك واشهد عليه ستين رجلاً من وجوه أهل المدينة ^٩ .
 وكان يرجع الأمور إليه في حياته كما فعل عندما اشخص به إلى البصرة ، حيث دفع إلى عبد الله بن وحوم كتاباً وأمره بإيصالها إلى نجله الرضا في المدينة ^{١٠} .
 وكتب في البصرة الواحاً وبعثها إلى شيعته هناك وقد كتب فيها ، عهدي إلى أكبر ولدي ^{١١} .
 وكان يأخذ بعض الحقوق التي تجبى إليه ويبقي بعضها ليعطيه إلى وصيه الذي يطالبه به ليكون علامة ظاهرة كما فعل داود بن زربي ^{١٢} .
 وذلك شبيه بعكس الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها الإمام في حياة والده والتي احتاط الإمام موسى بن جعفر (ع) فيها لتبقى الإمامة بعيدة عن الشكوك .
 ويظهر ذلك بوضوح من وصية لجله بأن يسكت مادام الرشيد حياً فإذا هلك نطق بالحق .
 ومن جهة أخرى في مثل هذه الظروف الصعبة التي كان الشيعة يعيشونها على عهد طاغية بغداد هارون الرشيد ، كان من الممكن أن تنتشر الخرافات التي لها سوق رائجة عند اشتداد الأزمات . ولعل بعض التيارات السياسية كانت وراء نشر مثل تلك الخرافات لأهداف معينة . فدرعاً لمثلها قام الإمام الكاظم ببيان إمامة ابنه الرضا بذلك الموضح .
 وبالرغم من أن فكرة غياب الإمام الكاظم انتشرت رداً من الزمان وغذتها أيد خائنة وأخرى حاهلة ، فقالوا بأن الإمام لم يموت وأنه مهدي هذه الأمة ، ووقفوا عند الإمام السابع فسموا (الواقفية) .
 إلا أنها لم تلبث أن زالت ، ويبدو أن أحد أهم أسباب ذلك ، تأكيد الإمام (ع) في تعريف الشيعة بأن وصيه الإمام الرضا (ع) .

(٨) المصدر : (ص ١٥) .

(٩) المصدر : (ص ١٧) .

(١٠) المصدر : (ص ١٦) .

(١١) المصدر : (ص ١٩) .

(١٢) يبدو من بعض الأحاديث أن هذا الرجل كان يعيش حالة التقية مما يجعل هذا الإجراء مأساً لحاله .

خلقه وفضائله :

كان الإمام الرضا (ع) بمثابة قرآن ناطق ، فخلقه من القرآن ، وعلمه ومكرماته من القرآن ، لوليس القرآن هو آية الله العظمى في خلقه ، أولم ييسره ربنا لمن شاء من عباده أن يستقيم عليه ؟ لو يكون ذلك غريباً أن يصبح من تمثل القرآن في حياته آية عظمى لرب العالمين .
والنبي (ص) كان أفضل وأعظم ميزاته ، أنه عبد يوحى إليه ، وحين سأل بعضهم عن خلقه العظيم قال ،

" كان القرآن خلقه .. " .

وأعظم ميزات الإمام علي (ع) أن الله قد جعل آذنه واعية للقرآن .
وقد ذكرنا الرسول بأنه يخلف بعده الثقلين ، كتاب الله وعترته أهل بيته ، ثم بين أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض . أولاً يعني ذلك أن أهل بيت الرسالة (ع) كانوا مشكاة نور القرآن ومعدن خيرات الوحي ومستقر علم الله ؟

وكان الإمام الرضا (ع) قد تمثل هذا النور - بكل وجوده حتى جاء في الحديث ، عن أبيه ذكوان قال ، سمعت إبراهيم بن العباس يقول ،

ما رايت الرضا (ع) سئل عن شيء قط إلا علمه ، ولا رايت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره ، وكان المأمون يمنحه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه ، وكان كلامه كله وجوابه وتمطه انتزاعات من القرآن ، وكان يختمه في كل ثلاث ليالٍ ، ويقول ،
" لو أردت أن اختمه في اقرب من ثلاثة لختمت ، ولكني ما مررت بآية قط إلا فكرت فيها وفي أي شيء انزلت وفي أي وقت ، فلذلك صرت لختم كل ثلاثة أيام " ١٣ .

ولكن دعنا نعرف كيف تمثل إمامنا الرضا (ع) القرآن بهذه الدرجة ، أو يمكننا أن نتبعه في ذلك ؟
القرآن كتاب الله ومن لا يتصل قلبه بنور الله لا يعرف كتابه ، أو لم يقل ربنا سبحانه ،
﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الاسراء / ٨٢) .
وبدرجة الإيمان ، وبمستوى اليقين ، وبقدر تجلي عظمة الرب في القلب يستضيء الإنسان بنور الله الذي تجلى به في كتابه ..

والإمام الرضا (ع) عظم الله ووقره وسلم له أمره واستصغر كل شيء سواه ، واستعد لكل بلاء في سبيله ، وكان كل ذلك وسيلته إلى ربه .

دعنا نلتمس بعض الشواهد على ما قلنا لا لنزداد بالإمام معرفة فقط ، بل لكي تخشع قلوبنا أيضاً بهذه السيرة التي تفيض روحاً إلهياً وضياءً .

(١٣) المصدر : (ص ٩٠) .

كان من عبادته (ع) انه إذا صَلَّى الفجر في أول وقتها يسجد لربه فلا يرفع رأسه الى أن ترتفع الشمس^{١٤} ..

وعندما كَلَّف المأمون العباسي وإليه على المدينة بمرافقة الإمام إلى خراسان ، سألته — بعد مقدمه إليها — عن أحواله في الطريق ففصل الحديث عن درجات عبادته وذكره وتبطله ، فلما قص عليه ذلك أمره بأن يكتف عن الناس ذلك وكان مما نقله ،

كان إذا أصبح صلى الغداة ، فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهله ، ويصلي على النبي وآله حتى تطلع الشمس ، ثم يسجد سجدة يبقى فيها حتى يتعالى النهار ، ثم أقبل على الناس يحدثهم ويعظهم إلى قرب الزوال ، ثم جدد وضوءه وعاد إلى مصلاه .. وبعد أن يذكر كيفية صلاته وسجدياته ونوافله إلى وقت العصر مما هو معروف في الفقه ، ثم يقول أقام وصلى العصر فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهله ما شاء الله ، ثم سجد سجدة يقول فيها مائة مرة " حمداً لله " .

ثم يذكر كيف كان يصلي بعد غروب الشمس ويسبح ربه حتى يمضي قريب من ثلث الليل ثم يلوئ إلى فراشه .. فإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه لنافلة الليل ، واستمر على ذلك حتى يطلع الفجر ، ثم يجلس للتعقيب حتى تطلع الشمس ، ويسجد حتى يتعالى النهار .

ويضيف ، وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مر بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوذ من النار^{١٥} .

وكان الإمام يرى أن ماله من فضل إنما هو بالتقوى وليس فقط بالانتساب إلى رسول الله (ص) بالولادة .

هكذا ينقل البيهقي عن الصولي عن محمد بن موسى بن نصر الرازي قال ، سمعت أبي يقول ، قال رجل للرضا والله ما على وجه الأرض أشرف منك أباً ، فقال ، " التقوى شرفتهم وطاعة الله أعظمهم " . فقال له آخر ، أنت والله خير الناس ، فقال له ،

" لا تحلف يا هذا ، خير مني من كان اتقى لله عز وجل وأطوع له والله ما نسخت هذه الآية ، ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^{١٦} .

وهذا الحديث يذكرنا بما يروى عن الإمام الصادق (ع) انه قال ، " لولايتي لمحمد صَلَّى الله عليه وآله أحب إلي من ولادتي منه " .

وهكذا اطاع الله بكل جوانب حياته ، فاحبه الله ونور قلبه بضياء المعرفة والهمة من العاوم ما الهمه .

(١٤) المصدر : (ص ٩٠) .

(١٥) المصدر باختصار : (ص ٩٢ - ٩٤) .

(١٦) المصدر : (ص ٩٥) .

وجعله حجة بالغة على خلقه ، لو لم نقرأ سورة (ص) كيف بيّن فيها ربنا مواهبه لعباده الصالحين ، وأنه إنما اتاهم كل تلك المواهب لعبادتهم وإخلاصهم فقال مثلاً ،

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص/ ١٧) ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَنۢبَأَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ (ص/ ٢٠) . إلى أن يقول : ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّأَبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص/ ٢٥-٢٦) .

وهكذا لادب الإمام الرضا (ع) إلى ربه فوهب الله له ما شاء من الكرامة والعلم ..

لقد زهد في الدنيا واستصغر شأنها ، ورفض مغرياتِها ، فرفع الله الحجاب بينه وبين الحقائق لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو حجاب سميك بين الإنسان وبين حقائق الخلق ..

يذكر البيهقي عن الصولي ، كان جلوس الرضا في الصيف على حصير وفي الشتاء على مسح ، ولبسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزين لهم ^{١٧} .

وكان ذلك عندما قبلت الدنيا عليه فلم يقبلها ، وتزينت له فلم يغتر بها . بل عندما كانت الخلافة العباسية في لوج عظمتها وبذخها وترفها وكان الإمام ولي عهد الخليفة في الظاهر يومئذ عاف الدنيا وشهواتها . هكذا تروي جارية اسمها عدر فتقول : اشتريت مع عدة جوارى من الكوفة ، وكنت من ولداتها (كانت مولودة في الكوفة) قالت ، فحملنا إلى المامون فكتا في داره في جنة من الأكل والشرب والطيب وكثرة الدنانير فوهبني المامون للرضا ، فلما صرت في داره فقدت جميع ما كنت فيه من النعيم ، وكانت علينا قيمة تنبهنا من الليل ، وتأخذنا بالصلاة ، وكان ذلك من أشد ما علينا فكتت أتمنى الخروج من داره ^{١٨} .

وأعظم الزهد زهده في الخلافة بالطريقة التي عرضها عليه المامون العباسي ، فإن من الناس من يزهد في الدنيا طلباً لما هو أعظم من متاعها . ولا أعظم من الرئاسة في عين الإنسان . يقول الفضل بن سهل الذي شهد حوار المامون مع الإمام الرضا في شأن الخلافة ما رايت الملك ذليلاً مثل ذلك اليوم .

يقول المامون العباسي فيما روي منه ، فجهدت الجهد كله وأطمعته في الخلافة وما سواها فما أطمعني في نفسه ^{١٩} .

السبيل إلى الله :

ومن يعظم الله يعظم أوليائه ، ومن يرفض توقير لولياء الله يفقد السبيل إلى الله . والإمام الرضا (ع)

(١٧) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ٨٩) .

(١٨) المصدر : (ص ٨٩)

(١٩) المصدر : (ص ٢٠) .

سلك هذا السبيل إلى ربه . ولعمري إن الشيطان يزين للإنسان مخالفة لولياء الله والتكبر عليهم حتى يضلّه عن سبيل الله القويم ، ويلقيه في تيه السبل المتفرقة .

وكلما ازداد الإنسان تسليماً لقيادته الشرعية ، وحباً لولي أمره ، ولولياء الله من الأنبياء والأوصياء والصالحين ، كلما يزداد من ربه قريباً .

والإمام الرضا (ع) كان كما سائر الأئمة (ع) لطوع الناس لولي أمره الإمام موسى بن جعفر (ع) فجعله الله حجة من بعده .

يقول الإمام الكاظم ،

" علي ابني اكبر ولدي واسمعهم لقولي ، واطوعهم لأمرني " ٢٠ .

وقال ،

" علي اكبر ولدي وابرههم عندي ولحبهم إلي " ٢١ .

إن بين الإنسان وبين لولياء الله حجاب من الغرور والكبر ، فمن خالف هواه وتحدى غروره وحارب كبر نفسه ، يخرق هذا الحجاب ، فيدخل في حزب الله وينتمي إلى أوليائه ويستقر في مقامه عند الله . لذلك أكد القرآن على الكافرين قولهم ،

﴿ أَبَشْرًا مِّنَا وَاحِدًا تَبِعُهُ إِذَا لَقِيَ ضَلَالًا وَسُغْرًا ﴾ (القمر / ٢٤) .

وقد جاء في حديث روي عن ابن أبي كثير قال : لما توفي موسى (ع) وقف الناس في أمره فحججت في تلك السنة فإذا أنا بالرضا (ع) فاضمرت في قلبي أمراً فقلت : أبشراً منا واحداً نتبعه فمر كالبرق الخاطف علي ، فقال ،

" أنا والله البشر الذي يجب عليك أن تتبعني . فقلت : معذرة إلى الله وإليك فقال : مغفور لك " ٢٢ .

الشجرة الطيبة :

كان الرضا من الشجرة الطيبة التي أكرمها الله ، وبارك لأمة محمد فيها وقال سبحانه ،

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران / ٣٤) .

ولقد اختار الله يحيى بن زكريا للنبوّة وأتاه الحكم صبيّاً ، بحكمته البالغة وإكراماً لوالده زكريا .

واختار مريم صديقة حينما نذرت امرأة عمران ما في بطنها مدرراً لله .

واختار عيسى ابن مريم (عليهما السلام) كرامة لوالدته الصديقة فكلم في المهد قائلاً ، ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ

ءَاتَانِي الْكِتَابَ ﴾ (مريم / ٣٠) .

(٢٠) المصدر : (ص ١٤٥) وسياقي الحديث إن شاء الله معصلاً حول ما جرى به (ع) وس المأمور .

(٢١) المصدر : (ص ٢٤) .

(٢٢) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ٣٨) .

فلماذا نستغرب حينما يختار من اهل بيت محمد (ص) اثنا عشر نقيباً ، انمة هداة ميامين بحكمته البالغة وكرامة لأقرب الناس إلى الله سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله .

الخلق الكريم :

وقد قاضت من هذه النفس الكريمة تلك الاخلاق الحسنة التي تحدثنا بها كتب التاريخ ، وليس الطيب دليل الزهرة ، والشعاع دليل الضياء ؟ وهل الإيمان إلا الحب ، وهل دليل الحب غير تلك الاخلاق الحسنة ؟

كان (ع) في قمة التواضع وحسن المعاشرة مع الناس هكذا ينقل إبراهيم بن العباس يقول : ما رأيت أبا الحسن الرضا جفاً أحداً بكلامه قط ، وما رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه ، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها ، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قط ، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط ، ولا رأيته تغل قط ، ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط ، بل كان ضحكه التيسم .

وكان إذا خلا ونصبت مائدته اجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسائس ، وكان (ع) قليل النوم بالليل ، كثير السهر يحيي أكثر ليلاليه من أولها إلى الصبح ، وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ، ويقول : ذلك صوم الدهر ، وكان (ع) كثير المعروف والصدقة في السر ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة ، فمن زعم انه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه .^{٢٣}

وكان من تواضعه (ع) انه دخل الحمام فقال له بعض الناس : دلكني فجعل يداك ، فإذا بالناس يدعون الرجل يعرفونه بالإمام ، وإذا الرجل جعل يستعذر منه ولكنه يطيب قلبه ويستمر في تدليكه .^{٢٤} ويروي رجل من اهل بلخ رافق الإمام في سفره إلى خراسان ويقول : دعا يوماً بمائدة له فجمع مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال : مه إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد ، والجزاء بالأعمال .^{٢٥}

وكان يكره لخدمته ان يقوموا له احتراماً عندما يكونون على الطعام ويقول : " إن قمت على رؤوسكم وأنتم تاكلون ، فلا تقوموا حتى تفرغوا " .^{٢٦}

وكان عظيم الحلم والعفو ، ويذكر من حلمه ان قائداً من اتباع بني العباس يسمى بـ (الجلودي) امره هارون الرشيد بان يذهب إلى المدينة ويسلب نساء آل أبي طالب ، ولا يدع على كل واحدة مئنة إلا ثوباً واحداً ، ففعل الرجل ، مما اثار سخطاً عظيماً عند الإمام الرضا (ع) ، ولكن بعد ان عهد إلى الإمام الرضا

(٢٣) المصدر : (ص ٩١) .

(٢٤) المصدر : (ص ٩٩) .

(٢٥) المصدر : (ص ١٠١) .

(٢٦) المصدر : (ص ١٠٢) .

بولاية العهد عارض ذلك الجلودي ونقم من بيعة الإمام فغضب عليه المامون ، وأخرجه يوماً ليقتله من بعد أن قتل اثنين قبله فلما تمثل امامه شفع له الإمام الرضا عند المامون وقال ،

" يا امير المؤمنين هب لي هذا الشيخ " .

فظن الجلودي انه يعين عليه ، فانقسم على المامون الا يقبل قوله . فقال المامون والله لا اقبل قوله فيك ، وأمر بضرب عنقه ^{٢٧} .

وكان سخياً كريماً . وكان من آدابه في الصدقات انه إذا جلس للاكل أتى بصفحة فتوضع قرب مائدته ، فيعمد إلى اطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيوضع في تلك الصفحة ، ثم يامر بها للمساكين ثم يطو هذه الآية ،

﴿ فَلَا اقْصَمَ الْعَقَبَةُ ﴾ (البلد / ١١) .

ثم يقول ،

" علم الله عز وجل ان ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل الجنة (عبر الإطعام) " ^{٢٨} .

وفرق بخراسان ماله كله في يوم عرفة ، فقال له الفضل بن سهل ، ان هذا لمغرم ، فقال (ع) ، " بل هو المغرم ، ولا تعدن مغرمأ ما اتبعت به اجراً وكرمأ " ^{٢٩} .

وكان إذا أعطى أحداً سعى الا يذهب بهاءه ولا يراق ماء وجهه ، والقصة التالية تعلمنا كيف نجعل صدقاتنا خالصة لوجه الله لا منة فيها ولا استعلاء .

يروى اليسع بن حمزة ويقول ، (كنت انا في مجلس ابي الحسن الرضا (ع) احدته وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام ، إن دخل عليه رجل طوالاً آدم ، فقال له ، السلام عليك يا ابن رسول الله ، رجل من محبيك ومحبي اباك واجدادك (ع) مصدري من الحج ، وقد افتقدت نفقتي وما معي ما ابلغ به مرحلة ، فان رايت ان تنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة ، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك ، فلست موضع صدقة فقال له ، اجلس رحمك الله ، وأقبل على الناس يجدنهم حتى تفرقوا ، وبقي هو وسليمان الجعفري وخيمة وأنا ، فقال ، تلادون لي في الدخول ؟ فقال له ، يا سليمان قدم الله امرك ، فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب ، وأخرج يده من اعلى الباب وقال ، ابن الخراساني ؟ فقال ، ها أنا ذا فقال ، خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عني ، وأخرج فلا اراك ولا تراني .

ثم خرج فقال سليمان ، جعلت فداك لقد اجزلت ورحمت ، فلماذا سترت وجهك عنه ؟ فقال ،

(٢٧) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ١٠٨) سيرة الرضا .

(٢٨) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ٩٧) .

(٢٩) المصدر : (ص ١٠٠) .

"مخافة ان ارى ذلك السؤال في وجهه لقضائي حاجته ، اما سمعت حديث رسول الله (ص) ،
"المستتر بالحسنة ، تعدل سبعين حجة ، والمذبح بالسينة مخذول والمستتر بها مغفور له " اما سمعت
قول الأول :

متى آتته يوماً لأطلب حاجة رجعت إلى أهلي ووجهي بمائه " ٣٠ .
وقد أعطى ابا نواس ثلاثمائة درهم لم يكن عنده سواها ، وقدم إليه بخلته التي كان يمتطيها ، وحينما
اعطى دعبل الخزاعي ستمائة دينار اعتذر إليه .

وكان كثير الصدقة في السر ، واكثرها كان في الليالي المظلمة ٣١ .
وكان (ع) مكتمل الجسم عظيم الهيبة . وكليّن من ذي حاجة دخل عليه ليطلبها منه فشغله جلاله
وهيبته عنها فبادره الإمام بقضائها ، وستذكر جانباً من ذلك عن بيان علمه .

هكذا أفاض الإمام علمه :

أربعة من ائمة الهدى تسنى لهم نشر معارف الإسلام في الآفاق . اولهم الإمام امير المؤمنين وآخرهم
الإمام الرضا والصادقان محمد بن علي وجعفر بن محمد (عليهم جميعاً صلوات الله) .
وبالرغم من ان جميع ائمة الهدى نشروا العلم ، إلا أن الظروف ساعدت هؤلاء الأربعة على ذلك أكثر من
الآخرين .

ولقد سبق الحديث - ببعض التفصيل - عن علم الأئمة ومصادره المتنوعة فيما سرده من حياة
الإمام الباقر (ع) فنكتفي بذلك ، وإنما نشير إلى آفاق العلم التي تناولتها احاديث الإمام الرضا (ع) ونقل
عن البيهقي انه قال ، لما اختلف الناس في امر ابي الحسن الرضا جمعت من مسائله مما سئل عنه
واجاب عنه خمس عشرة ألف مسألة " ٣٢ .

ولقد قال الإمام مرة ،

"كنت اجلس في الروضة والعلماء بالمدينة متوافرون ، فإذا أعيا الواحد منهم عن مسألة اشاروا إلي
باجمعهم ويعتوا إلي بالمسائل فاجيب عنها " ٣٣ .

وقد بدأ بالفتيا في مسجد الرسول ، وعمره الشريف نيف وعشرون عاماً .
ولنعرف دور الإمام الرضا في هذا الحقل لابد ان نعود قليلاً إلى الوراء ، لنعرف ان الحزب العباسي
الذي تسلط على رقاب المسلمين بعد الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب السلطة الأموية قد وجد نفسه
امام تيارات سياسية معارضة ، تعتمد على الفكر ، وتتسلح بالنظريات الثقافية ، وفي طليعتها التيار

(٣٠) المصدر : (ص ١٠١) .

(٣١) المصدر : (ص ١١٠) .

(٣٢) المصدر : (ص ٩٧) .

(٣٣) المصدر : (ص ١٠٠) .

العلوي الذي كان يقود المعارضة السياسية إلى جنب قيادة الساحة الفكرية ، والحزب العباسي الذي كان يعيش خواءً نظرياً قاتلاً لم يجد حيلة إلا البحث عن مصادر خارجية للثقافة ، فشجع حركة الترجمة وتوجه إلى الكتب الفلسفية قبل الكتب العلمية ، وينشاط هذه الحركة حدث في الأمة اضطراب فكري وتوتر ثقافي مما اضحى يهدد وحدة الأمة .

وكانت عوامل شتى تساهم في هذا الخطر ،

أولاً ، انشغال المفكرين بالقضايا السياسية .

ثانياً ، ازدياد الإضراب السياسي ، والحروب الداخلية التي تجر بطبيعتها الأمة إلى المزيد من التوتر الفكري .

ثالثاً ، وجود تيارات غريبة عن الأمة كان هدفها إفساد ثقافة المجتمع ومحاربة الإسلام باسم الإسلام ، والتي كانت تغذيها حركات سياسية متصلة بالكفار .

وفي عهد المأمون العباسي بلغ الإضطراب الفكري قمته مما دفع الإمام الرضا (ع) بالتصدي لها . وقد ساعده في ذلك انتقاله إلى حاضرة البلاد الإسلامية ، وقبوله لولاية العهد مما جعله في قلب الصراعات الفكرية .

وهكذا كثرت حواراته مع سائر الملل والمذاهب ، مما حدى بعلمائنا الكرام أفراد كتب حول ما روي عنه (ع) ، مثل ما فعل الصدوق (رحمه الله) في كتابه عيون أخبار الرضا .

وحيثما نتدبر في كلمات الإمام الرضا وحججه التي القاها على خصوم الإسلام أو مخالف في المذهب نراها تتسم بمنهجية علمية عميقة . مما يدل على مستوى الثقافة في عصره لأن الأئمة - كالأنبياء (عليهم جميعاً صلوات الله) - إنما يكلمون الناس على قدر عقولهم ، وبمستوى أفكارهم .

كذلك نستوحي من التأمل في كلماته أنها كانت تصد تشكيكات يبثها الأعداء حول الإسلام وبالذات حول عقلانية أحكامه ، من هنا كثر حديثه عن علل الشرائع ، والحكم التي وراء أحكام الدين . كما أن طائفة من كلماته المضيفة تعالج الشؤون الحياتية مثل رسالته الطبية المعروفة بطب الرضا (ع) .

ومما يميز حياة الإمام الرضا (ع) العلمية ان كلماته كانت تلقى قبولاً في كافة الأوساط الإسلامية ، ولعل ورود مدينة نيسابور التي كانت من الحواضر العلمية في العالم الإسلامي أظهرت مدى اهتمام علماء الإسلام بإحاديث الإمام ، دعنا نستمع إلى هذه القصة الطريفة ،

(لما دخل إلى نيسابور في السفرة التي فاض فيها بفضيلة الشهادة ، كان في مهد على بغلة شهباء عليها مركب من فضة خالصة ، فعرض له في السوق الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية أبو زرعة ومحمد بن أسلم الطوسي رحمهما الله فقالا ، أيها السيد ابن السادة ، أيها الإمام وابن الأئمة أيها السلالة الطاهرة الرضية ، أيها الخلاصة الزاكية النبوية بحق أبائك الأطهرين واسلافك الأكرمين ألا أريتنا وجهك المبارك الميمون ، ورويت لنا حديثاً عن أبائك عن جدك ، نذكرُك به .

فاستوقف البغلة ، ورفع المظلة ، وأقر عيون المسلمين بطلعه المباركة الميمونة ، فكانت ذوابتاه
كذوابتي رسول الله (ص) فقال (ع) ،

" حدثني أبي موسى بن جعفر الكاظم ، قال ، حدثني أبي جعفر بن محمد الصادق قال ، حدثني أبي
محمد بن علي الباقر ، قال ، حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين ، قال ، حدثني أبي الحسين بن
علي شهيد أرض كربلاء ، قال ، حدثني أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شهيد أرض الكوفة ، قال ،
حدثني أخي وابن عمي محمد رسول الله (ص) قال ، حدثني جبرائيل (ع) قال ، سمعت رب العزة
سبحانه وتعالى يقول ،

(كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي) .
صدق الله سبحانه وصدق جبرائيل (ع) وصدق رسول الله والأئمة عليهم السلام .^{٣٤}

(٣٤) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٧) .

الفصل الثاني

الإمام وعصره

عاش الإمام الرضا (ع) عصريين مختلفين وكان عهد هارون الرشيد من أقسى العهود على آل البيت ، حيث قرلنا عما في سيرة الإمام الكاظم (ع) كيف ضيق العباسيون على شيعة أهل البيت ، وكيف ادوا الإمام وهجره عن دار أمته عند قبر جده إلى البصرة ، ثم إلى بغداد حيث وضعوه إما تحت الإقامة الجبرية ، وإما في قعر السجون المظلمة حتى دسوا إليه السم ، فمات شهيداً مظلوماً .
وخلال السنين الأربع الأولى من عهد إمامته تجرع الإمام كوالده غصص الألم . وهناك قصتان تعكسان طبيعة هذه الغصص :

١ - يروي أبو الصلت الهروي ، كان الرضا ذات يوم جالساً في منزله إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد فقال : لجب أمير المؤمنين فقام ، فقال لي :
" يا أبا الصلت إنه لا يدعوني في هذا الوقت إلا لدامية ، فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه للكلمات وقعت إليّ من جدي رسول الله " .

قال فخرجت معه حتى دخلنا على هارون الرشيد فلما نظر إليه الرضا قرأ هذا الحرز (وذكره) فلما وقف بين يديه نظر إليه هارون الرشيد وقال : يا أبا الحسن قد أمرنا لك بمائة ألف درهم ، واكتب حوائج أهلك ، فلما ولي عنه علي بن موسى وهارون ينظر إليه في قفاه قال : (أردت وأراد الله وما أراد الله خير)^{٣٥} .

وقد أشار يحيى البرمكي على هارون بقتل الإمام الرضا كما أشار غيره بذلك فاستعظم الأمر ، وقال : ما ترى تريد أن أظلمهم كلهم .

٢ - والقصة الثانية تلك التي رواها سابقاً عن دخول الجلودي على الإمام وسلبه أهله . حتى هلك هارون ، وشب الخلاف بين ورثته بدأ الإمام نشاطه بقدر من الحرية النسبية .

لقد وصّى هارون لثلاثة من أبنائه بولاية العهد وهم الأمين والمأمون والمؤمن بالترتيب ، ولمعرفته بعميل العباسيين إلى الأمين الذي كانت والدته زبيدة ترعاه ، خشي على المأمون الذي كان يرى فيه كفاءة أكثر لإدارة البلاد فمحه بعض المناصب في الدولة ..

(٣٥) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ١١٦) .

وكان الفرس الذين كانوا لا يزالون متنفذين في الدولة العباسية بالرغم من نكبة البرامكة يميلون نحو المامون لأن أمه منهم ولأنه تربى في أحضانهم .

من هنا كانت سحب الفتنة تتجمع في سماء الأمة ، وكان هلاك هارون الرشيد في خراسان في وقت مبكر وقبل أن يرتب لوضع البلاد ، فعجل ذلك في اشتعال نار الفتنة ، كما أن مرافقة المامون لوالده التي جاءت - حسب بعض الروايات - بإشارة من فضل بن سهل ساهمت فيها .

لقد سارع الأمين وربما بإشارة من بعض قواده العباسيين في خلع أخيه ونصب ابنه ولياً للعهد ، وكان من الطبيعي أن يرفض المامون ذلك مما حدى بالأمين إلى بحث بعض قواده لياتون به مغلولاً .

وقد شجع المامون بعض قادة جيشه ولا سيما من هم من الفرس على التمرد ، ففعل وانتهى إلى الحرب بين الأخوين التي انتهت بخلع الأمين واستتب الأمر لأخيه .

وكانت هذه الحرب أول حرب بين العباسيين ، ومن أسوأ الحروب الداخلية بين المسلمين . مما زعزع الثقة بالنظام السياسي عند الجماهير وشجع المعارضة على الثورة ، فإذا بإطراف البلاد تنتفض وتخلع الحاكم وتبايع واحداً من العلويين .

وكانت لخطر ولعظم هذه الثورات حركة لبي السرايا في الكوفة التي قادها السري بن منصور ، وعقدت لواء الزعامة لولحد من أبناء الإمام الحسن المجتبى (ع) واسمه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل .

وانتشرت هذه حتى شملت الكوفة والواسط والبصرة والحجاز واليمن . ووقعت بينها وبين جيوش بني العباس معارك طاحنة لم يظفر العباسيون بها إلا بالحيل والمكر ^{٣٦} .

وفي مكة المكرمة ثار محمد ابن الإمام جعفر الصادق (ع) وبويع بالخلافة ولقب بـ (أمير المؤمنين) . وكانت هناك ثورات أخرى في بلاد الشام والمغرب وكلها تدل على اضطراب الوضع السياسي ، حتى أن الناس لم يبايعوا المامون إلا بعد أن استتب الأمر له وعاد إلى بغداد ، وبعد حروب أكلت مئات الألوف من المسلمين .

وكان عصر المامون يتميز - كما أشرنا سابقاً - بتنامي التيارات الفكرية الغربية التي كان من شأنها زعزعة النظام الثقافي للأمة ، وكانت نتيجة طبيعية لحركة الترجمة التي شجّعها العباسيون من دون رؤية .

كما أن الثقة عند قيادات الجيش الذي يمثل العماد الأصلي للنظام كادت تنهار ، حتى قال هرثمة بن حازم (لحد قيادات العسكر) للمامون :

يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ، ولن يغشك من صدقك ، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك ويبيعتك ^{٣٧} .

(٣٦) راجع التاريخ الإسلامي .. دروس وعبر (للمؤلف) : (ص ٢٩٠ - ٢٩٦) .

(٣٧) تاريخ المسعودي : (ج ٣ ، ص ٣٨٩) .

ولعلنا نضيف إلى كل ذلك حالة المجون والترف التي اشتهرت بين رجال الدولة وبطالانهم ، والتي كان يشجعها النظام لإلهائهم عن الحقائق المرة التي يعيشها المسلمون . وإذا كان آل (برمك) بالأمس أبطال هذا الميدان ، فإن آل (سهل) خلفوهم فيه ، وما يذكره بعض المؤرخين عن زواج الخليفة (ببوران) وما رافقه من مظاهر البذخ والترف شاهد على ذلك .

الإمام الرضا يتحدى الفساد :

حينما نتدبر في سورة هود أو سائر السور القرآنية التي تقص علينا رسالة الأنبياء السابقين (ع) نجد أنهم يتحدون الفساد بكل ألوانه . وبالأذات الفساد الذي كان مستشرياً في قومهم ، ويعتبرون كل فساد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو فكري ينتهي إلى الضلالة أو الشرك أو الكفر وكانوا (ع) يذكرّون الناس بالله ويحذرونهم عذابه في الدنيا وعقابه في الآخرة ، لأن هذا هو السبيل لإصلاح الإنسان وردعه عن الفساد بكل ألوانه .

وسار الأئمة (ع) على طريق الأنبياء ، حاربوا كل ألوان الفساد ، بذات الوسيلة ، والإمام الرضا (ع) كاجداده قاد المخلصين من أبناء الأمة في هذا السبيل وتحمل الأذى في سبيل الله . لقد رفض الاعتراف بالسلطة الجاهلية التي بناها العباسيون باسم الإسلام واعتبرها سلطة غاصبية ظالمة فاسدة جملة وتفصيلاً .

وناهض التيارات الفكرية المخالفة لأصول الشريعة ، وقاوم الفساد الخلقي في الأمة وذلك بنشر تعاليم الدين الحنيف .

ولم يكن الإمام وحده في مواجهة ذلك الفساد العريض ، بل كانت صفوة الأمة وخيرة العلماء والحكماء والقادة المخلصين وهم شيعة أهل البيت (ع) يتبعونه في ذلك . وقد قرأنا معاً كيف وبأي أسلوب كان الأئمة يقودون الأمة ، ولكن هنا ينبغي أن نتحدث قليلاً عما أثار التساؤل عند المؤرخين ، وهي نقطة مضيئة - في رأينا - تلمع في حياة الإمام الرضا ، ومنعطف أساسي في حركة الشيعة وهي قبول الإمام بولاية عهد المأمون . وقبل كل شيء نتساءل عن الأسباب التي دفعت الخليفة العباسي للإقدام على هذه الخطوة الجريئة .

المأمون يتقرب للإمام :

والمأمون الذي ولد من أم فارسية ، وتربى في حجر المؤيدين للبيت العلوي ، وعرف الكثير من تاريخ الإسلام وتبحر في علم الكلام ، هل كان شيعياً فعلاً ، وهل كان عهده إلى الإمام الرضا بدافع سليم ، ثم انقلب عن ذلك ودس السم إلى الإمام لأن الملك - كما قال والده هارون له يوماً - عقيم وأنه لو نازعه فيه لأخذ الذي فيه عيناه ؟

أم كانت خطة دبرها الفضل بن سهل وغيره من بطانته ووقع فيها من دون التفات ، ثم عاد عنها وقتل الفضل غيلة في الحمام وقضى على الإمام بالسم ؟

لم انها كانت خطته اشترك فيها هو وغيره من القادة ، وكانت مجرد لعبة سياسية ؟
كل ذلك ممكن ! ولم اجد فيما اطلعت عليه من التاريخ ما يدل على واحد من الاحتمالات بالتاكيد ، على
انني اميل الى الاعتراف بكل العوامل التاريخية ، وأخذها بعين الاعتبار عند تفسير ظاهرة معينة ، لأن مثل
هذه العوامل تتفاعل مع بعضها في حياتنا وتصنع من حيث المجموع حياتنا الحاضرة ، فلماذا لا نعتقد
ان الماضي كالحاضر تصنعه كل العوامل المؤثرة في حياة البشر ؟

من هنا اميل الى الرأي التالي .. ان كلا من خلفية المامون الثقافية ، والظروف السياسية ، ورأي
بطانته ، أقرت في الإقدام على هذه الخطوة الجريئة ، ولولا واحدة منها لم يقدم ..

وهذا يعني ان انقلاب المامون على الإمام الرضا (ع) جاء بعد تحول الظروف السياسية - وأن الرجل لم
يكن شيعياً بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وهو إتباع أهل البيت ، والتعبد لله في طاعته ، إنما كان متاثراً
ببعض الأفكار الشيعية كتفضيل امير المؤمنين (ع) على غيره من الخلفاء ، والإعتقاد بخيانة معاوية ،
وبأن القرآن كتاب محدث وما أشبه .

إلا أن ذلك لا يجعل الفرد شيعياً في نظر الأئمة (ع) وهو بالتالي كان صاحب سلطة يبحث عنها لكثر مما
يبحث عن المبادئ والقيم .

ولعل والده هارون كان يشير إلى ابنه وإلى خواص أهل بيته كما يشير الطغاة عادة إلى بطانتهم من
الإعتراف بحق معارضيه ، وذلك عندما تستيقظ ضمائرهم ولو لفترة محدودة . وهكذا يروي المامون أنه
إنما تشبّع على يد والده .

وقد أسر المامون إلى بعض خواصه بالسبب الذي دعاه إلى هذا الأمر ، فعن الريّان بن الصلت قال ،
أكثر الناس في بيعة الرضا (ع) من القواد والعامة ، ومن لا يحب ذلك ، وقالوا ، إن هذا من تدبير الفضل
بن سهل ذي الرئاستين ، فبلغ المامون ذلك ، فبعث إليّ في جوف الليل فصرّت إليه ، فقال ، يا ريّان
بلغني ان الناس يقولون ، ان بيعة الرضا (ع) كانت من تدبير الفضل بن سهل ؟ فقلت ، يا امير
المؤمنين يقولون هذا ، قال ، ويحك يا ريّان ليجسر أحد ان يجيء إلى خليفة قد استقامت له الرعاية
والقواد ، واستوت له الخلافة فيقول له إدفع الخلافة من يدك إلى غيرك ، أيجوز هذا في العقل ؟ قلت
له ، لا والله يا امير المؤمنين ما يجسر على هذا أحد ، قال ، لا والله ما كان كما يقولون ولكن ساخبرك
بسبب ذلك .

إنه لما كتب إليّ محمد أخي يامرني بالقدوم عليه فابيت عليه ، عقد لعلي بن عيسى بن ماهان وأمره ان
يقيدني بقيد ويجعل الجامعة في عنقي ، فورد علي بذلك الخبر ، وبعثتُ هرثمة بن أعين الى سجستان
وكرمان وما والاها فافسد علي امرى ، وانهزم هرثمة وخرج صاحب السرير ، وغلب على كور خراسان ،
من ناحيته ، فورد عليّ هذا كله في اسبوع .

فلما ورد ذلك عليّ لم يكن لي قوة بذلك ولا كان لي مال اتقوى به ، ورأيت من قوادي ورجالي الفشل

والجبن ، اردت ان الحق بملك كابل ، فقلت في نفسي : ملك كابل رجل كافر ويبدل محمد له الأموال فيدفعني إلى يده ، فلم اجد وجهاً أفضل من ان اتوب إلى الله عز وجل من ذنوبي واستعين به على هذه الأمور واستجير بالله عز وجل ، فامرت بهذا البيت وأشار إلى بيت تكتس ، وصببت علي الماء ، ولبست ثوبين أبيضين وصلبت أربع ركعات ، قرأت فيها من القرآن ما حضرني ودعوت الله عز وجل واستجرت به ، وعاهدته عهداً وثيقاً بنية صادقة ان افضى الله بهذا الأمر إلي وكفاني عاديته ، وهذه الأمور الغليظة ، ان اضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعه الله عز وجل فيه .

ثم قوي فيه قلبي فبعثت طاهراً إلى علي بن عيسى بن همام فكان من أمره ما كان ، ورددت هرثمة إلى رافع (بن أعين) فظفر به وقتله ، وبعثت إلى صاحب السري فهاذنته وبذلت له شيئاً حتى رجع ، فلم يزل أمري يقوى حتى كان من أمر محمد ما كان ، وافضى الله إلي بهذا الأمر ، واستوى لي .
فلما وافى الله عز وجل لي بما عاهدته عليه ، لحببت ان أفي الله تعالى بما عاهدته ، فلم أر أحداً أحق بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا (ع) ، فوضعتها فيه فلم يقبلها إلا ان علي ما قد عملت ، فهذا كان سببها (٢٨) .

ولعل هذا السبب كان أيضاً من الدواعي المساعدة إلا ان أبرز العوامل التي دفعته إلى ذلك كانت الظروف السياسية التي أشرنا إليها حيث كانت علاقته بالعباسيين سيئة لقتله لخوا أميناً ، كما ان القيادات العربية لم تكن راضية عنه بسبب تفضيله الصارخ للقيادات الفارسية ، أما انصار البيت العلوي فقد رأوا ووجدوا الفرصة مؤاتية للانتقام من السلطة العباسية الغاشمة ، وانتفضوا في كل مصر . فماذا بقي له من فرص الإستمرار في السلطة ؟

ولكن محصلة خطط المامون ، والأقدار التي أجرت الرياح في اتجاهه كانت التالية .

- ١ - اكتساب ود انصار البيت العلوي باستقدام الإمام الرضا لولاية عهده .
- ٢ - تصفية لكثير من الثورات بالأعمال العسكرية ويقدر من السماحة والعطاء .
- ٣ - الإلتفاف على العباسيين واكتساب ودهم والعودة إلى خطهم ، بعد تصفية الفضل بن سهل ، وشهادة الإمام الرضا (ع) .

وهكذا تسنى للمامون ان يستمر في الحكم وأن يحافظ على العرش العباسي من بعده .

الإمام يستجيب للتحدي :

لماذا قبل الإمام الرضا (ع) ولاية عهد المامون ، وإذا كان مضطراً إلى ذلك فكيف استجاب لتحديه ؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد ان نلقي نظرة إلى واقع الحركة الرسالية عندما تولى الرضا مركز الإمامة من بعد والده الإمام الكاظم (عليهما السلام) .

في حديث شريف ، كان من المقدر ان يكون الإمام موسى بن جعفر هو قائم آل محمد (ص) إلا ان الشيعة اذاعوا الأمر فبدأ الله فتاخز إلى أجل غير مسمى .

وهذا يعني ان الحركة الرسالية كادت تبلغ يومئذ إلى مستوى التصدي لشؤون الأمة . وبالرغم من ان الإمام الكاظم (ع) قضى نحبه في سجن هارون مسموماً ، إلا ان الحركة لم تصب بلأى كثير كما نستفيد ذلك من حديث شريف .

وهكذا كانت إمامة الإمام الرضا (ع) واحدة من فرصتين ،

الأولى ، القيام بحركة مسلحة قد تنتهي إلى دمار الحركة .

الثانية ، الإستجابة لتحدي المامون بقبول ولاية العهد للعمل من خلال السلطة دون إعطاء شرعية لها، كما فعل النبي يوسف حينما طلب من عزيز مصر بان يحمله على خزانن الأرض . ثم قام بما استطاع إليه سبيلا ، من الإصلاح من داخل النظام ..

وكما فعل الإمام امير المؤمنين (ع) مع الخلفاء الذين سبقوه عندما قبل بالدخول في الشورى كواحد من ستة أعضاء .

واقل ما في هذه الفرصة الثانية انها تشكل حماية للحركة الرسالية من التصفية ، والقبول بها كحركة معارضة رسمية .

وهكذا نعرف ان الإمام لم يترك قيادته للحركة الرسالية - بل استفاد من مركزه الجديد ، كما استفاد الشيعة لعدم مسيرة حركتهم الرسالية التي فرضت نفسها على النظام فرضاً .

ولتحقيق هذه الغايات اتبع الإمام النهج التالي ،

أولاً ، امتنع عن قبول الخلافة التي عرضها عليه المامون أولاً ، ولعل السبب في رفض الخلافة كان امرين ،

الف ، ان تلك الخلافة كانت ثوباً خاصاً بامثال المامون وانها لا تليق بحجة الله البالغة ، لأن بنائها كان قائماً على اساس فاسد ، حيثشها ونظامها وقوانينها وكل شيء فيها ، ولو قبل الإمام بها كان عليه ان يهدمها ويبنئها من جديد ولم يكن ذلك امراً ممكناً في تلك الظروف .

باء ، ان المامون لم يكن صادفاً في عرضه ، فهو كان يدبر حيلة مع حزبه الماكر للإيقاع بالإمام ان قبل ، بعد اخذ الشرعة منه ، كما فعل بالنسبة إلى ولاية العهد .

ثانياً ، اشترط في قبوله لولاية العهد ألا يتدخل في شؤون الدولة من قريب او بعيد ، مما افقدهم القدرة على تمشية الأمور باسم الإمام وكسب الشرعية له وأبان للعالمين ذلك اليوم وللتاريخ إلى الأبد انه لا يعترف بشرعية النظام بأي وجه . وقد حاول المامون مراراً ان يستدرج الإمام للتدخل في الشؤون فلم يقبل والحديث التالي يدل على ذلك ،

ان المامون لمّا أراد ان ياخذ البيعة لنفسه بإمرة المؤمنين ، وللرضا (ع) بولاية العهد ، وللفضل بن

سهل بالوزارة ، أمر بثلاثة كراسي فنصبت لهم ، فلما قعدوا عليها اذن للناس ، فدخلوا يباليعون فكانوا يصفقون بآيمانهم على إيمان الثلاثة من أعلى الإيهام إلى الخنصر ويخرجون حتى بايع في آخر الناس فتى من الأنصار فصفق بيمينه من الخنصر إلى الإيهام ، فتبسم أبو الحسن الرضا (ع) ثم قال ،

" كل من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فإنه بايعنا بعقدها " .

فقال المامون ، وما فسخ البيعة من عقدها ؟ قال أبو الحسن (ع) ،

" عقد البيعة هو من أعلى الخنصر إلى أعلى الإيهام وفسخها من أعلى الإيهام إلى أعلى الخنصر " .

قال ، فماج الناس في ذلك وأمر المامون بإعادة الناس إلى البيعة على ما وصفه أبو الحسن (ع) وقال الناس ، كيف يستحق الإمامة من لا يعرف عقد البيعة ، إن من علم لأولى بها ممن لا يعلم ، قال ، فحملة ذلك على ما فعله من سمة ^{٣٩} .

ثالثاً ، منذ الأيام الأولى لولايته للعهد انتهز الإمام كل فرصة ممكنة لنشر بصائر الوحي ، وأظهر أنه أحق بالخلافة من غيره ، فمثلاً نقرأ في وثيقة ولايته للعهد ما يدل على أن المامون إنما عمل بواجبه في الاحتفاء بأهل بيت الرسالة ، دعنا نقرأ ونتدبر معاً الوثيقة التالية ،

" بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الفاعل لما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين .

أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر أن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووقفه للرشاد ، عرف من حقنا ما جهله غيره ، فوصل أرحاماً قطعت ، وأمن نفوساً فزعت ، بل أحيانا وقد تلفت ، وأغناها إذ افتقرت ، مبتغياً رضى رب العالمين ، لا يريد جزاء من غيره ، وسيجزى الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين .

وإنه جعل إلي عهده ، والأمره الكبرى إن بقيت بعده ، فمن حل عقدة أمر الله بشدها ، وقصم عروة أحب الله إيثاقها ، فقد أباح حريمه ، وأحل محرمة ، إذ كان بذلك زارياً على الإمام ، منتهكاً حرمة الإسلام ، بذلك جرى السالف ، فصبر منه على الفلتات ، ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً على شتات الدين ، واضطراب حبل المسلمين ، ولقرب أمر الجاهلية ، ورصد فرصة تنتهز ، وبانقة تبتدر .

وقد جعل لله على نفسي أن استرعاني أمر المسلمين ، وقلدني خلافته ، والعمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله (ص) وإن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيع فرجاً ، ولا مالا إلا ما سفكته حدوده ، وأباحته فرائضه ، ولأن اتخير الكفاة جهدي وطاقتي ، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني الله عنه ، فإنه عز وجل يقول ،

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (الاسراء / ٣٤) .

وان احدثت لو غيّرت لو بدّلت كنت للغير مستحقاً ، وللنكال متعرضاً ، واعدو بالله من سخطه ، وإليه ارجب في التوفيق لطاعته ، والحول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين .
والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك ، وما ادري ما يفعل بي ، ولا بكم إن الحكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين .

لكنني امتثلت امر امير المؤمنين ، وآثرت رضاه ، والله يعصمني وإياه ، واشهدت الله على نفسي بذلك ، وكفى بالله شهيداً " ^{٤٠} .

وهناك بصائر نستوحىها من كلمات الرضا المضيئة ،
أولاً ، قوله (ع) : " عرف من حقنا ما جهله غيره إلخ " .

حيث عرّض بهارون والد المامون ، وبالنظام العباسي كله ، الذين لم يرعوا حرمة رسول الله (ص) .
ثانياً ، إنه قال ، فمن حل عقدة امر الله بشدها إلخ ، إشارة إلى خبث السرائر ، وحبك المؤامرات ضد الولاية .

ثالثاً ، قوله ، بذلك جرى السالف إلى آخره ، لعله إشارة إلى سكوت الإمام امير المؤمنين عن جهة لو صبر الأئمة على الأذى خوفاً على شتات الدين واضطراب حيل المسلمين .

رابعاً ، ثم بيان برنامجي للحكم الذي يخالف ما كان عليه عامة بني العباس ، ويضمنهم المامون ذاته .
خامساً ، وقال أخيراً ، والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك ، حيث بيّن بذلك أنهم اصحاب علم رسول الله وأنهم أحق بالأمر منهم .

وعندما تهيه الناس للبيعة لفت الإمام نظره إلى أن طريقتهم للبيعة خاطئة مما اثار زوبعة في الناس ،
دعنا نستمع إلى الحديث التالي الذي جرى بين المامون والإمام (ع) ،

" يا ابا الحسن انظر بعض من تثق به توليه هذه البلدان ، التي قد فسدت علينا ، فقلت له ، تعفي لي وافي لك ، فإنني إنما دخلت فيما دخلت على ان لا أمر فيه ولا أنهي ، ولا اعزل ولا اولي ولا اسير حتى يقدمني الله قبلك ، فوالله إن الخلافة لشيء ما حدثت به نفسي ، ولقد كنت بالمدينة اتردد في طرقها على دابتي ، وإن اهلها وغيرهم يسألوني الحوائج فاقضيها لهم ، فيصيرون كالاعمام لي ، وإن كتبي لنا فذة في الأمصار ، وما زدتنني في نعمة هي علي من ربي فقال ، افي لك " ^{٤١} .

وكانت من اعظم ما بيّن فضل الإمام ، مجالس المحاجة التي كان يعقدها بين فترة وأخرى ،
ولنستعرض معاً واحداً من هذه المجالس لنرى ماذا يدور فيها ،

(قال الحسن بن محمد النوفلي ، فبينما نحن في حديث لنا عند أبي الحسن الرضا (ع) إذ دخل علينا ياسر ، وكان يتولى امر ابي الحسن (ع) فقال ، يا سيدي إن اميري يقرؤك السلام ويقول ، فذاك اخوك إنه

(٤٠) المصدر : (ص ١٥٢ - ١٥٣) .

(٤١) المصدر : (ص ١٤٤) .

اجتمع إلي أصحاب المقالات ، وأهل الأديان ، والمتكلمون من جميع الملل ، فرأيك في اليكور علينا إن أحببت كلامهم ، وإن كرهت ذلك فلا تتجشم ، وإن أحببت أن نصير اليك خف ذلك علينا ، فقال أبو الحسن (ع) .

" بلغه السلام وقل له ، قد علمت ما أردت ، وأنا صائر إليك بكرة إن شاء الله تعالى " ^{٤٢} .
ثم بين الإمام ما يدل على أن هدف المامون من تشكيل مثل هذه المجالس ، النيل من قدر الإمام حيث يظن أنه قد يتوقف عن محاجة خصومه ولكن الإمام قال للدوفاي (الراوي) :
يا دوفاي أحب أن تعلم متى يندم المامون ؟ قلت : نعم ، قال : إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم ، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم وعلى أهل الزبور بزيورهم ، وعلى الصابئين بعبيرانياتهم ، وعلى أهل الهرايدة بفارسياتهم ، وعلى أهل الروم بروميتهم ، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم ، فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته ، وترك مقالته ورجع إلى قولي ، علم المامون أن الموضوع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له ، فعند ذلك تكون الندامة منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ^{٤٣} .

ثم بين الحديث - بعد هذا الكلام - وضع الجلسة وقال :
(فلما دخل الرضا (ع) قام المامون وقام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم ، فما زالوا وقوفاً والرضا (ع) جالس مع المامون حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا فلم يزل المامون مقبلاً عليه يحدثه ساعة ثم التفت إلى الجاطيق فقال : يا جاطيق هذا ابن عمي علي بن موسى بن جعفر ، وهو من ولد فاطمة بنت نبينا وابن علي بن أبي طالب (ع) فأحب أن تكلمه وتحاجه وتنصفه ، فقال الجاطيق : يا أمير المؤمنين كيف أحاج رجلاً يحتج علي بكتاب أنا منكره ، ونبي لا أؤمن به فقال الرضا (ع) : يا نصراني فإن احتجبت عليك بإنجيلك اتقر به ؟

فقال الجاطيق : وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل ، نعم والله أقر به على رغم انفي . ثم قرأ الرضا (ع) عليه الإنجيل ، وأثبت عليه أن نبينا (ص) مذكور فيه ثم أخبره بعدد حوار عيسى (ع) وأحوالهم ، واحتج بحجج كثيرة أقر بها ثم قرأ عليه كتاب شعيا وغيره إلى أن قال الجاطيق : ليسالك غيري فلا وحق المسيح ما ظننت أن في علماء المسلمين مثلك . فالتفت الرضا (ع) إلى رأس الجالوت واحتج عليه بالتوراة والزبور وكتاب شعيا وحيق حتى أقحم ولم يُجر جواباً .
ثم دعا (ع) بالهريد الأكبر واحتج عليه حتى انقطع هريد مكانه .

فقال الرضا (ع) : يا قوم إن كان فيكم أحد يخالف الإسلام وأراد أن يسأل فليسأل غير محتشم فقام إليه عمران الصابي وكان واحداً من المتكلمين فقال : يا عالم الناس لولا أنك دعوت إلى مسالكك لم أقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلت الكوفة والبصرة ، والشام والجزيرة ، ولقيت المتكلمين فلم أقع على

(٤٢) المصدر : (ص ١٧٤) .

(٤٣) المصدر : (ص ١٧٥) .

أحد يثبت لي واحداً ليس غيره قائماً بوحدهانيته افتادن ان أسالك ؟ قال الرضا (ع) ، إن كان في الجماعة عمران الصابي فانت هو ، قال ، أنا هو ، قال ، سل يا عمران ، وعليك بالنصفة وإياك والخل والجور ، فقال ، والله يا سيدي ما أريد إلا أن تثبت لي شيئاً اتعلّق به ، فلا أجوزه ، قال ، سل عما بدا لك .

فازدحم الناس ، وانضم بعضهم إلى بعض ، فاحتج الرضا (ع) عليه وطال الكلام بينهما إلى الزوال فالتفت الرضا (ع) إلى المامون ، فقال ، الصلاة قد حضرت فقال عمران ، يا سيدي لاتقطع عليّ مسالتي فقد رقي قلبي قال الرضا (ع) ، نصلي ونعود ، فنهض ونهض المامون ، فصلّى الرضا (ع) داخلاً وصلى الناس خارجاً خلف محمد بن جعفر ، ثم خرجا فعاد الرضا (ع) إلى مجلسه ودعا بعمران ، فقال ، سل يا عمران ، فسأله عن الصانع تعالى وصفاته وأجيب إلى أن قال ، أفهمت يا عمران ؟ قال ، نعم يا سيدي قد فهمت ، وأشهد أن الله على ما وصفت ، ووحدت وأنّ محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحق ، ثم خرّ ساجداً نحو القبلة وأسلم .

قال الحسن بن محمد النوفلي ، فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابي وكان جداً لم يقطعه عن حجة أحد قط لم يدين من الرضا (ع) أحد منهم ، ولم يسأله عن شيء ، وأمسينا ، فنهض المامون والرضا (ع) فدخلوا ، وانصرف الناس وكنت مع جماعة من أصحابنا إذ بعث إليّ محمد بن جعفر فأتيته فقال لي ، يا نوفلي أما رأيت ما جاء به صديقك ، لا والله ما ظننت أن علي بن موسى خاض في شيء من هذا قط ولا عرفناه به ، إنه كان يتكلم بالمدينة أو يجتمع إليه أصحاب الكلام ؟ قلت ، قد كان الحجاج يأتونه فيسألونه عن أشياء من حلالهم وحرامهم فيجيبهم ، وربما كلم من يأتيه بحاجة .

فقال محمد بن جعفر ، يا أبا محمد إنني أخاف عليه أن يحسده هذا الرجل فيسمه أو يفعل به بلية ، فأنشر عليه بالإمساك عن هذه الأشياء ، قلت ، إذا لا يقبل مني ، وما أراد الرجل إلا امتحانه ليعلم هل عنده شيء من علوم آبائه (ع) فقال لي ، قل له ، إن عمك قد كره هذا الباب ، وأحب أن تمسك عن هذه الأشياء لخصال شتى .

فلما انقلبت إلى منزل الرضا (ع) أخبرته بما كان من عمه محمد بن جعفر فتبسم (ع) ثم قال ، حفظ الله عمي ما أعرفني به لم كره ذلك ، يا غلام صر إلى عمران الصابي فأننتني به فقلت ، جعلت فداك أنا أعرف موضعه وهو عند بعض إخواننا من الشيعة ، قال ، فلا بأس فقرأوا إليه دابة ، فصرت إلى عمران فأتيته به ، فرحب به ودعا بكسوة فخلعها عليه ، وحمله ودعا بعشرة آلاف درهم ، فوصله بها .

فقلت ، جعلت فداك حكيت فعل جدك أمير المؤمنين (ع) قال ، هكذا يجب ، ثم دعا (ع) بالعشاء فاجلسني عن يمينه واجلس عمران عن يساره ، حتى إذا فرغنا قال لعمران ، انصرف مصاحباً وبكر علينا نطعمك طعام المدينة ، فكان عمران بعد ذلك يجتمع إليه المتكلمون من أصحاب المقالات ، فيبطل امرهم حتى اجتنبوه ووصله المامون بعشرة آلاف درهم ، وأعطاه الفضل مالا ، وحمله وولاه الرضا (ع)

صدقات بلغ فإصاب الرغائب (٤٤) .

وقصة استعداد الإمام لصلاة العيد التي أرهبت النظام دليل آخر على أن الإمام لم يترك فرصة إلا واستفاد منها لإعلان دعوته ، وبيان أنه الأحق بالخلافة من البيت العباسي .

(لما حضر العيد بحث المامون إلى الرضا (ع) يسأله أن يركب ويحضر العيد ويخطب لتطمئن قلوب الناس ، ويعرفوا فضله ، وتقرّ قلوبهم على هذه الدولة المباركة ، فبعث إليه الرضا (ع) وقال ، علمت ما كان بيني وبينك من الشروط في دخولي في هذا الأمر ، فقال المامون ، إنما أريد بهذا أن يرسخ في قلوب العامة والجند والشاكرية هذا الأمر ، فتطمئن قلوبهم ويقرّوا بما فضلك الله تعالى به ، فلم يزل يرادّه الكلام في ذلك . فلما ألح عليه قال ،

يا امير المؤمنين إن أعفيتني من ذلك فهو أحب إلي ، وإن لم تعفني خرجت كما كان يخرج رسول الله (ص) وكما خرج امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

قال المامون ، أخرج كما تحب . وأمر المامون القوّاد والناس أن يبكروا إلى باب أبي الحسن (ع) فقعد الناس لأبي الحسن (ع) في الطرقات والسطوح من الرجال والنساء والصبيان واجتمع القوّاد على باب الرضا (ع) .

فلما طلعت الشمس قام الرضا (ع) فاغتسل وتعمم بعمامة بيضاء من قطن وألقى طرفاً منها على صدره ، وطرفاً بين كتفيه وتشمر ثم قال لجميع مواليه ، افعلوا مثل ما فعلت ، ثم أخذ بيده عكازة وخرج ونحن بين يديه ، وهو حاف قد شمر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمّرة .

فلما قام ومشينا بين يديه رفع رأسه إلى السماء وكبر أربع تكبيرات ، فخيّل إلينا أن الهواء والحيطان تجاوبه ، والقوّاد والناس على الباب قد تزيّنوا ولبسوا السلاح وتهيّلوا بحسن هيئة ، فلما طلّعنا عليهم بهذه الصورة حفاة قد تشمّرنا ، وطلع الرضا وقف وقفة على الباب وقال ،

" الله اكبر الله اكبر الله اكبر على ما هدانا ، الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام ، والحمد لله على ما أبلانا " ورفع بذلك صوته ورفعنا أصواتنا .

فتزعزعت مرو من البكاء والصياح فقالها ، ثلاث مرات فسقط القوّاد عن دوابهم ، ورموا بخفافهم ، لما نظروا إلى أبي الحسن (ع) وصارت مرو ضجة واحدة ولم يتمالك الناس من البكاء والضجة .

فكان أبو الحسن (ع) يمشي ويقف في كل عشرة خطوات وقفة يكبر الله أربع مرات فيتخيّل إلينا أن السماء والأرض والحيطان تجاوبه ، وبلغ المامون ذلك ، فقال له الفضل بن سهل ذو الرناستين ، يا امير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس فالراي أن تسأله أن يرجع ، فبعث إليه المامون فسأله الرجوع فدعا أبو الحسن (ع) بخفه فلبسه ورجع (٤٥) .

(٤٤) المصدر : (ص ١٧٥) .

(٤٥) المصدر : (ص ١٤٣ - ١٣٥) .

الفصل الثالث

شهادته ومزاره

وأخيراً دسّ إليه السم فمضى شهيداً شأن سائر أئمة الهدى الذين جاء عنهم الحديث الشريف ، " ما منا إلا مسموم أو مقتول " .

ولكن من الذي فعل ذلك ؟ يرى طائفة كبيرة من العلماء أن المامون كان وراء ذلك ، بينما يستبعد ذلك البعض ويتساءل عما إذا كان المامون بهذا المستوى من الدنائة أن يلوث يده بهذه الجريمة الذكراء ؟ وقد رأيت بعضهم قد ساق عشر أدلة على براءة المامون عن دم سيدنا الإمام الرضا (ع) ولكنها عند التمحيص تنتهي إلى دليل واحد هو استبعاد وقوع تلك الجريمة من شخص نصب نفسه للدفاع عن أفكار المذهب الشيعي ، وتبني افضلية الإمام (ع) .

ولكن إذا عرفنا أن المامون العباسي كان واحداً من الخلفاء العباسيين الذين تميز نظامهم بالغدر بانصارهم ، أو بالذين يخشون منهم من تابعيهم ، ابتداء من ابو مسلم الخراساني وإلى برمك ، وانتهاءً بفضل بن سهل . وإن المامون كان متسماً قمة هرم ذلك النظام الذي قد بنيت مؤسساته على اساس البغي والمكر والغيلة ، فما الذي يمنعه عن اتباع سيرة اسلافه ، وممارسة جرائم اجداده ؟

على أن عقائده في خلق القرآن أو تفضيل الإمام علي على سائر الصحابة أو ما أشبه لم تجعله من شيعة علي وآل علي (ع) ، لأن استمراره في حكم المسلمين بذاته اكبر جريمة ، وأعظم ذنب ، وأعنى طغيان في منطق علي وشيعة علي . إذ أنه نوع من ادعاء الربوبية ومنازعة الله في الألوهية :

ثم إن سيرته — مع الناس من القتل والتكيد ونشر الفساد بمختلف ألوانه — ، تتنافى ولبسط مبادئ التشيع لال البيت (ع) . فماداً الذي يمنعه إذاً من ارتكاب جريمة القتل .. بحق آل بيت الرسالة ؟ .

وإننا لنقرأ في صفحات التاريخ ما يهديننا إلى أن شخص المامون قد أشرف على عملية اغتيال الإمام عبر جهازه السري ، الذي يشابه في أيامنا مخابرات قصر الإمارة أو الرئاسة في الدولة الأشد ديكتاتورية في العالم .

وقد جاءت هذه الخطوة بعد أن قمعت أو هذأت ثورات العلويين في أطراف الأرض ، وانتهت فلسفة استدعاء الإمام إلى خراسان . وبعد أن بدأت تتجمع الغيوم فوق بغداد ، وظهرت ارهاسات ثورة العباسيين ، وازمع المامون على العودة إلى بغداد لاسترضاء بني عمه .. والعودة إلى سيرة اجداده من لبس السواد وتوزيع المناصب على ذوي قرياه .

ولعل الحديث التالي يوضح هذه الحالة التي تنبئ لها الإمام الرضا (ع) وأشار إليها للمامون ربما ليعرف هذا الأخير أن الإمام واقف على نواياه ، وأنه إنما يسايره حسب المصلحة العامة .

قال الإمام الرضا للمامون يوماً في حديث مفصل ،

" اتق الله يا أمير المؤمنين في أمور المسلمين ، وارجع إلى بيت النبوة ، ومعدن المهاجرين والأنصار ، ثم قال ، أرى أن تخرج من هذه البلاد ، وتتحول إلى موضع أبائك وأجدادك ، وتنتظر في أمور المسلمين ، ولا تكلمهم إلى غيرك ، فإن الله عز وجل سائلك عما ولاك " ^{٤٦} .

ثم إن الفضل بن سهل تنبئ إلى ذلك أيضاً فتراه يمتنع عن الرحيل مع المامون ، ويعتذر في ذلك إليه بالقول ، إن ذنبي عظيم عند أهل بيتك وعند العامة ، والناس يلومونني بقتل أخيك المخلوع ، وبيعة الرضا ولأه من السعادة والحساد ، ولعل البغي أن يسعوا بي ، فدعني أخلفك بخراسان ^{٤٧} .

ولكن المامون يصد عليه بذلك وقد دبر له أمراً ، إنه لا يريد اغتياله في معقل قوته وبين أنصاره وأعوانه بل في الطريق . - فعلاً تقول الرواية - فلما كان بعد ذلك (والحوار بين المامون والفضل) - بإيام ونحن في بعض المنازل - دخل الفضل الحمام فدخل عليه قوم بالسيوف فقتلوه ، واجتمع القواد والجند ومن كان من رجال دي الرئاستين على باب المامون ، فقالوا ، اغتاله وقتله فلنطلبين بدمه ^{٤٨} .

وهكذا تخلص المامون من أبرز مراكز القوى داخل سلطته ، ولم يبق امامه إلا الإمام الرضا (ع) الذي تم اغتياله بعد ذلك بإيام قلائل .. لولا يدل قرب وفاته (ع) وقتل الفضل على وجود مؤامرة قدرية ضده .

هكذا يتأكد لنا ما يذهب إليه المشهور من العلماء الشيعة بأن الإمام استشهد باسم المامون حسبما يقول العلامة المجلسي بقوله ، الأشهر بيننا أنه مضى شهيداً باسم المامون ، ونضيف .. وينسب إلى السيد علي بن طاووس أنه أنكر ذلك ^{٤٩} .

دعنا نستمتع إلى نبا شهادته من لسان المعاصرين ،

الف ، كان أبو الصلت الهروي من المعاصرين للإمام ومن صانعي الأحداث أو المراقبين لها عن كتب لصلته الوثيقة بالإمام ، فيسأله أحمد بن علي الأنصاري عن سبب اغتيال المامون للإمام الرضا (ع) فيقول له ، (كيف طابت نفس المامون بقتل الرضا (ع) مع إكرامه ومحبته له ، وما جعل له من ولاية العهد بعده ؟ فقال ، إن المامون إنما كان يكرمه ويحبه لمعرفته بفضل ، وجعل له ولاية العهد من بعده ليري الناس أنه راغب في الدنيا فيسقط محله من نفوسهم ، فلما لم يظهر منه في ذلك للناس إلا ما ازداد به فضلاً عندهم ومحلاً في نفوسهم ، جلب عليه المتكلمين من البلدان طمعاً في أن يقطعه واحد

(٤٦) بحار الأنوار : (ج ٤٩ ، ص ١٦٥) .

(٤٧) المصدر .

(٤٨) المصدر : (ص ١٦٩) .

(٤٩) المصدر : (ص ٣١١) .

منهم فيسقط محله عند العلماء ، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة .
فكان لا يكلمه خصم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهرية ولا
خصم من فرق المسلمين المخالفين له إلا قطعه والزمه الحجة ، وكان الناس يقولون : والله إنه أولى
بالخلافة من المامون فكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيختاظ من ذلك ويشهد حسده ، وكان
الرضا (ع) لا يحابي المامون من حق ، وكان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله فيغيظه ذلك ، ويحقده عليه ،
ولا يظهره له ، فلما أعيته الحيلة في أمره اغتاله فقتله بالسم (٥٠) .

باء : وينقل الشيخ المفيد - رضوان الله عليه - مجمل قصة شهادته ، مع بعض التفسير لأسباب
غضب المامون منه - فيقول :
(دخل الرضا (ع) يوماً عليه فراه يتوضا للصلاة يصب الماء على يديه ، فقال : لا تشرك يا أمير
المؤمنين بعبادة ربك أحداً .

فصرف المامون الغلام وتولى تمام وضوء نفسه وزاد ذلك في غيظه ووجده) .
وكان (ع) يزري على الفضل والحسن ابني سهل عند المامون ، إذا ذكرهما ويصف له مساوئهما وينهاه
عن الإصغاء إلى قولهما ، وعرفا ذلك منه ، فجعلوا يخطئان عليه عند المامون ، وينكران له عنده ما
يبعده منه ، ويخوفانه من حمل الناس عليه فلم يزالا كذلك حتى قلبا رايه فيه ، وعمل على قتله (ع) .
فاتفق أنه أكل هو والمامون يوماً طعاماً فاعتل منه الرضا (ع) وأظهر المامون تمارضاً ، فذكر محمد بن
علي بن حمزة ، عن منصور بن بشر ، عن أخيه عبد الله بن بشر ، قال : أمرني المامون أن أطول
أظفاري على العادة ، ولا أظهر ذلك لأحد ففعلت ، ثم استدعاني فلخرج إلي شيئاً يشبه التمر الهندي فقال
لي : أعجن هذا ببديك جميعاً ، ففعلت ، ثم قام وتركني ودخل على الرضا (ع) وقال له : ما خبرك ؟
قال : أرجو أن أكون صالحاً .

قال له : أنا اليوم بحمد الله أيضاً صالح ، فهل جاءك أحد من المترفين في هذا اليوم ؟ قال : لا ،
فغضب المامون وصاح على غلمانه ثم قال : فخذ ماء الرمان الساعة فإنه مما لا يستغنى عنه ، ثم دعاني
فقال : انتنا برمان فأتيت به ، فقال لي : اعصر ببديك ، ففعلت وسقاه المامون الرضا (ع) بيده وكان ذلك
سبب وفاته ، فلم يلبث إلا يومين حتى مات (ع) .

وذكر عن أبي الصلت الهروي أنه قال : دخلت على الرضا (ع) وقد خرج المامون من عنده .

فقال لي : يا أبا الصلت قد فعلوها ، وجعل يوحد الله ويمجده .

وروي عن محمد بن الجهم أنه قال : كان الرضا (ع) يعجبه العنب ، فاخذ له منه شيئاً فجعل في
موضع اقماعه الأبر إياماً ، ثم نزع وجيء به إليه ، فاكل منه وهو في علته التي ذكرنا فقتله ، وذكر أن ذلك

من لطيف السموم .

ولما توفي الرضا (ع) كتم المامون موته يوماً وليلة ، ثم انفذ إلى محمد بن جعفر الصادق (ع) وجماعة آل أبي طالب الذين كانوا عنده ، فلما حضروه نعاه إليهم وبكى ، وأظهر حزناً شديداً وتوجع وأراهم إياه صحيح الجسد ، وقال : يعز علي يا أخي أن أراك في هذه الحال . قد كنت أؤمل أن أقدم قبلك ، فابى الله إلا ما أراد .

ثم أمر بغسله وتكفينه وتحنيطه ، وخرج مع جنازته فحملها حتى أتى إلى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه ، والموضع دار حميد بن قحطبة في قرية يقال لها سناباد على دعوة من نوقان من أرض طوس ، وفيها قبر هارون الرشيد وقبر أبي الحسن (ع) بين يديه في قبلته ، ومضى الرضا (ع) ولم يترك ولداً نعلمه إلا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي (ع) وكان سنه يوم وفاة أبيه سبع سنين .^{٥١}
جيم ، ويصف ياسر الخادم اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الرضا (ع) حيث تجلت فيها روحه الربانية وخالقه المحمدي فيقول :

(لما كان بيننا وبين طوس سبعة منازل اعتل أبو الحسن (ع) فدخلنا طوس وقد اشتدت به العلة ، فبقينا بطوس أياماً ، فكان المامون ياتيه في كل يوم مرتين فلما كان في آخر يومه الذي قبض فيه كان ضعيفاً في ذلك اليوم فقال لي بعدما صلى الظهر : يا ياسر أكل الناس شيئاً ؟ قلت : يا سيدي من يأكل ههنا مع ما أنت فيه .

فانتصب (ع) ثم قال : هاتوا المائدة .

ولم يدع من حشمه أحداً إلا أقعده معه على المائدة ، يتفقدهم واحداً واحداً ، فلما أكلوا قال : ابعثوا إلى النساء بالطعام .

فحمل الطعام إلى النساء فلما فرغوا من الأكل اغمى عليه وضعف ، فوقعت الصيحة وحاجت جوارى المامون ونساؤه حافيات حاسرات ، ووقعت الوجبة بطوس وجاء المامون حاسراً يضرب على رأسه ، ويقبض على لحيته ، ويتأسف ويبكي وتسيل الدموع على خديه فوقف على الرضا (ع) وقد أفاق ، فقال : يا سيدي والله ما أدري أي المصيبتين أعظم على فقدي لك وفراقي إياك أو تهمة الناس لي أنني اغتلتك وقتلتك ، قال : فرفع طرفه إليه ثم قال :

" أحسن يا أمير المؤمنين معاشره أبي جعفر ، فإن عمرك وعمره هكذا وجمع بين سبابتيه " ^{٥٢} .

كما أنه يصف الحوادث التي وقعت بعد وفاته مباشرة ، فيقول :

(فلما كان من تلك الليلة ، قضى عليه بعد ما ذهب من الليل بعضه ، فلما أصبح اجتمع الخلق وقالوا : هذا قتله واغتاله يعني المامون ، وقالوا : قتل ابن رسول الله واكثروا القول والحلمة ، وكان محمد بن

(٥١) المصدر : (ص ٣٠٨) .

(٥٢) المصدر : (ص ٢٩٩) .

جعفر بن محمد (ع) استامن إلى المامون وجاء إلى خراسان وكان عم أبي الحسن ، فقال له المامون ، يا أبا جعفر اخرج إلى الناس وأعلمهم أن أبا الحسن لا يخرج اليوم وكره أن يخرج فتقع الفتنة ، فخرج محمد بن جعفر إلى الناس فقال ، أيها الناس تفرقوا فإن أبا الحسن لا يخرج اليوم ، فتفرق الناس وغسل أبو الحسن في الليل ، ودفن ^{٥٣} .

وبقي ضريح الإمام الرضا (ع) مزاراً يؤمه شيعة أهل البيت (ع) ومحبوهم لما أُنشئ عن النبي (ص) وأهل بيته من الترغيب في ذلك ، فقد روي عن النبي (ص) أنه قال ، " ستدفن بضعة مني بارض خراسان لا يزورها مؤمن إلا أوجب الله عز وجل له الجنة ، وحرّم جسده على النار " ^{٥٤} .

وروي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال ، " يخرج ولد من ابني موسى اسمه اسم أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) إلى ارض طوس ، وهي خراسان يقتل فيها بالسم ، فيدفن فيها غريباً ، من زاره عارفاً بحقه اعطاه الله تعالى اجر من أنفق من قبل الفتح وقاتل " ^{٥٥} .

وطفق الشعراء يرثونه بما يفنت كبد الحجر المأ . كما أخذوا بفضح أولئك الغدرة الذين اغتالوه بالسم ، فقال دعبل ضمن قصيدة :

أرعتهم دناباً من أمية وانتصت	عليهم دراكساً أزمة وسنبون
وعادت بنوا العبّاس في الدين عيثة	تحكم به ظالم وظنين
وسموا رشيداً ليس فيهم لرشده	وما ذاك مامون وذاك اميين
فما قبلت بالرشد منهم رعاية	ولا لوالي بالأمانة دين
رئيسهم غاد وطفلاً بعده	لهذا دنا باد وذاك مجون ^{٥٦}
الا أيها القبر الغريب مطه	بطوس عليك الساريات هتون .
وقال ابو فراس الحمداني يرثي الرضا (ع) :	
باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته	وأبصروا بعضه من رشدهم وعموا
عصابة شقيت من بعد ما سعدت	ومعشر هلكوا من بعدما سلموا ^{٥٧}
لا بيعة ردعتهم على دمائهم	ولا يمين ولا قريى ولا رجم

(٥٣) المصدر : (ص ٢٩٩) .

(٥٤) المصدر : (ص ٢٨٤) .

(٥٥) المصدر : (ص ٢٨٦) .

(٥٦) المصدر : (ص ٣١٥) نقلاً عن مقاتل الطالبيين : (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) المصدر : (ص ٣١٤) .

كلماته المضيئة :

هل يكفي الإلتزام الاسمي إلى الإمام الرضا (ع) من دون معرفته ، والاستضاءة بنور علمه ومعارفه ؟ وكيف يرجو شفاعته النبي وأهل بيته يوم الجزاء من لم يتبع سننهم ، ويهتدي بنورهم ؟ إن علينا ان نبحث عن وصاياهم التي خلفوها لنا كنوز لا تنفد ، وتلاد نعم لا نضاهي . والإمام الرضا (ع) خلف ميراثاً عظيماً من المعارف والعلوم ، خصوصاً في الحكمة الإلهية وبيان فلسفة الأحكام والرد على المذاهب الباطلة .

ونحن في خاتمة كتابنا الذي تشرف باسمه نثبت وصايا الرشيدة وأشعاره الحكيمة ، لعلنا ننتفع بها ،
☆ قال علي بن شعيب ،

(دخلت على أبي الحسن الرضا (ع) فقال لي ، يا علي من أحسن الناس معاشاً ؟ قلت ، يا سيدي أنت أعلم مني ، فقال ، يا علي من حسن معاش غيره في معاشه ، يا علي من أسوأ الناس معاشاً ؟ قلت ، أنت أعلم ، قال ، من لم يعش غيره في معاشه ، يا علي لحسنوا جوار النعم فإنها وحشية ما نأت عن قوم فعادت إليهم ، يا علي إن شر الناس من منع رفده وأكل وحده وجلد عبده ، أحسن الظن بالله فإن من حسن ظنه بالله كان الله عند ظنه ، ومن رضي بالقليل من الرزق قبل منه اليسير من العمل ، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤنته ونعم أهله ، وبصره الله داء الدنيا ودواعيها وأخرجها منها سالماً إلى دار السلام ، ليس لبخيل راحة ، ولا لحسود لذة ، ولا لملول وفاء ، ولا لكذوب مروعة)^{٥٨} .
☆ وقال (ع) ،

(لوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن ، يوم ولد فيرى الدنيا ويوم يموت فيعابن الآخرة وأهلها ، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا ، وقد سلم الله على يحيى وعيسى (ع) في هذه الثلاثة المواطن ، فقال في يحيى ، ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم / ١٥) ، وفي عيسى ، ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم / ٣٣) .
☆ لا يتم عقل امرئ مسلم حتى تكون فيه عشر خصال ،

(الخير منه ماملول والشر منه ماملون ، يستكثر قليل الخير من غيره ، ويستقل كثير الخير من نفسه ، لا يسام من طلب الحوائج إليه ، ولا يمل من طلب العلم طول دهره ، الفقر في الله أحب إليه من الغنى ، والذل في الله أحب إليه من العز في عدوه والخمول أشهى إليه من الشهرة ، ثم قال ، العاشرة وما العاشرة ، قيل له ما هي ؟ قال ، لا يرى أحداً إلا قال هو خير مني واتقى ، إنما الناس رجلان رجل خير منه واتقى ورجل شر منه وادنى ، فإذا لقي الذي هو شر منه وادنى قال ، أعل خير هذا بادلن وهو خير له وخيري ظاهر وهو شر لي ، وإذا رأى الذي هو خير منه واتقى تواضع له ليلحق به ، وإذا فعل ذلك فقد

(٥٨) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ١٤٨) .

علا مجده وطاب خيره وحسن ذكره وساد أهل زمانه) ٥٩ .

☆ وكان ينشد أشعاراً يقول فيها (ولعلها من إنشائه) ،

إذا كان دوني من بليت بجهله	أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من النهي	أخذت بحملي كي لجلّ عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجى	عرفت له حق التقدم والفضل
☆ وقال :	

إنك في دنيا لها مدة	يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطاً بها	يصلب فيها أمل الأمل
تعجل الذنب بما تنتهي	وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي أهله بختة	مأذاك فعل الحازم العاقل

والى هنا نختم حديثنا المختصر عن حياة سيدنا الإمام الرضا (ع) نسال الله أن ينفعنا به يوم القيامة
ويجعل ذلك وسيلةً لاتباعنا له في الدنيا وشفاعته عند الله في الآخرة .

(٥٩) المصدر : (ص ١٤٧) .

(٦٠) المصدر : (ص ١٥٠) .

(٦١) المصدر .

الامام الجواد (عليه السلام)
قدوة وأسوة

تمهيد

أحمد ربي الموفق عباده لطاعته ، المقدّر لهم الخير في عبادته ، وأصليّ على النبيّ محمد سيد المرسلين وعلى آله المعصومين .

وبعد :

يسرني أن أجد فرصة متاحة لأغمر يراعي الصغير في بحر البطولة والعبقريّة من حياة الإمام الجواد - تاسع الأئمة الطاهرين - حيث تمتزج فيه البطولة بالاستقامة والطهارة بالمجد والشرف .
والإمام الجواد الذي ألتشرف بسرد موجز من حياته المباركة ، كان أقصر الأئمة عمراً حينما أدركته المنية ، فلقد ولد في سنة (١٩٥) هجرية وتوفي في سنة (٢٢٠) ، وكل عمره (٢٥) سنة فقط .
ومن هذه الناحية تكون حياة إمامنا ذات أهمية تدعو إلى البحث أكثر ، حيث أن بعض البسطاء من الناس قد يستغريون إمامة فتي لم يبلغ من العمر أكثر من سبع سنوات .
ومن جهة أخرى إن عصر الإمام الجواد (ع) كان من العصور الزاخرة بالأحداث المختلفة والتيارات المتفاوتة التي تدعو إلى دراسته بصورة خاصة .
ونحن إذ نقدم حياة الإمام (ع) ، نستعرض أيضاً بعض الأحداث التاريخية التي رافقت حياته بين سنة (١٩٥ - ٢٢٠) هجرية .
فإليك الحديث مفصلاً ..

الفصل الأول

الأصل الكريم والميلاد المبارك

١- والده :

والده الإمام علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) .
ولقد كان عبقرياً ملا فضله وعلمه آفاق العالم الإسلامي ، فلهج بمدحه مخالفوه ، كما هلل به شيعته
وموالوه سواءً بسواء ، فكان الرضا الذي ارتضى به الخالق إماماً وحججه ، وللخلق سيّداً وقُدوةً .

٢- أمّه :

السيدة سبيكة الذوبية التي وفدت إلى المدينة مع من وفد من أهل إفريقيا ، فالتحقت بآل الرسول
وانجبت سيدهم الإمام الجواد (ع) ، وتذهب بعض الروايات إلى أنها كانت من قوم مارية القبطية زوجة
النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن ذلك مستبعد .

٣- ميلاده :

في عقيدتنا ، أن الإمام الذي يختاره الله لكي يكون قدوة صالحة للخير والصلاح يلزم أن يكون كاملاً
من جميع الوجوه ، وأما نقص أو عيب في الفكر أو في الجسم عند الإنسان يبين أنه ليس إماماً . ولقد
كان الإمام الرضا (ع) قد بلغ الخامسة والخمسين ولم يرزق ولداً ، فذهبت بعض الإشاعات تنشر من قبل
دعاة الواقفية الذين قالوا بغيبية الإمام موسى الكاظم (ع) ، وأنه لم يوص إلى أي إمام من بعده ، قائلين
بأن الإمام الرضا عقيم ليس له ولد وهو عيب واضح في القدوة الدينية . فإذا لا يكون هو الإمام الحق
حسب زعمهم ، حتى كتب بعضهم إليه (ع) رسالة قال فيها ،

كيف تكون إماماً وليس لك ولد ؟ فلجابه الرضا (ع) ، وما علمك أنه لا يكون لي ولد والله لا تمضي
الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرق بين الحق والباطل .

وجاء إليه رجل من أصحابه يقول ، من الإمام بعدك ؟ فقال ، ابني ، ثم قال ، هل يجترئ أحد أن يقول
ابني وليس له ولد ؟ ، فيحدث الراوي أنه لم تمض الأيام حتى ولد أبو جعفر الجواد .

وذخل عليه ابن قتيب الواسطي وكان من الواقفية الذين لم يكونوا يعترفون بالإمام الرضا (ع) ، فأراد أن
يعيب عليه فقال ، أليكون إمامان ؟ ، قال ، لا ، إلا أن يكون أحدهما صامتاً ، فقال الرجل ، هو ذا أنت

(١) بحار الانوار : (ج ٥٠ ، ص ٢٢) .

(٢) المصدر .

ليس لك صامت ، فقال : بلى والله ليجعلن الله لي من يثبت به الحق وأهله ويمحق به الباطل وأهله ، ولم يكن له في ذلك الوقت ولد ، فولد له أبو جعفر بعد سنة ٣ .

الميلاد المبارك :

وكانت سنة (١٩٥) هجرية ، وكان شهر رمضان وكان الشيعة المخلصون يعيشون أشد الانتظار لمقدم ولد الإمام الرضا (ع) ، ذلك الذي زخرت أحاديثهم تنبئ عن مقدمه المبارك ، وهم الرايون عن الرسول (ص) انه قال : يأتي خيرة الإمام النبوية ، وهو يشير إلى الإمام (ع) ، ليدحضوا حجة الواقفية الذين قد أكثروا من الدعايات ضده .

وكانت تلك الليلة توافق ليلة التاسع عشر من شهر الله المبارك ، حينما بزغ من أفق الحق بدر اضحى شمساً للهدى ، وسماءً في جلاله ، الا وهو الإمام الجواد (ع) .
وتناقل الرواة الحديث على لسان والده العظيم يقول : هذا هو المولود الذي لم يولد في الإسلام أعظم بركة منه .

أجل ، لقد ولد الإمام في الوقت الذي اختلفت فيه الشيعة فيما اختلاف ، وكانت دعايات بعض المخالفين لهم تشق طريقها إلى أفئدة بعض السنن منهم ، كانت آية صدق الإمام الرضا وإبطال زعم الواقفية تثبت بميلاد ابنه الموعود .

فلما ولد الجواد (ع) ذهبت دعايات الواقفية إدراج الرياح ، وذابت كما ينوب الملح في الموج الهادر ، وأصبح ميلاد الإمام سبباً لانتصار الحق واتحاد الشيعة ، اتباع الحق ، بعد الإختلاف والتفرقة ، أضف إلى ذلك ان الإمام الرضا (ع) كان يقول دائماً أن ابني خليفتي عليكم ، وهم يرون أن لا ابن له ، وحتى إذا بلغ مرحلة الكهولة ، ومضت الشكوك تراود أفئدة البسطاء من الموالين جاء الإمام الجواد (ع) ، فكان ميلاداً مباركاً ميموناً ، فهلت الشيعة وسبحت لله لمآرات في أحاديثها الصديق والحق .

عهد الصبا :

وترعرع الطفل الشريف في رعاية والده العظيم (ع) كما يترعرع الورد على كف النسيم ، يضيف عليه والده المعارف والأدب ، فتجتمع أصول الحسب بشرف المحتد ، فإذا بالمواهب تتفتح كما يتفتح الفجر عن صبح بهيج .

وإذا بمشينة الله تتعلق على أن يكون الطفل وهو في صباه سيداً وإماماً .

سبق الدهر كله في صباه و مشى الدهر خادماً من ورائه
وعندما كان الإمام الجواد (ع) في الخامسة من عمره جاءت رسل المأمون العباسي تحت والده الإمام الرضا (ع) ليهاجر إلى العاصمة الجديدة للبلاد الإسلامية وهي خراسان ، ويكون ولي العهد وذلك بعدما

(٣) المصدر .

(٤) المصدر : (ص ٢٠) .

قتل المامون اخاه الأمين ، وكانت الظروف تُكره الإمام علي بن موسى (ع) على أن يغادر المدينة إلى خراسان عاصمة المسلمين الجديدة ، حيث إن الحرب التي قامت بين الأخوين العباسيين ، الأمين والمامون ، كانت قد صرفت كثيراً من طاقات المسلمين وجعلتها وقوداً مشتعلًا لها ، بل قامت ثورة خراسان على كتف الشيعة هناك الذين استخدموا في ثورة العباسيين الأولى ضد الحكم الأموي ، ثم سرقت ثورتهم بانحراف القادة وذهبت مساعيهم لدراج الرياح ، وهذه الثورة الثانية قامت كرد فعل قوي لانحراف دفة الحكم عن آل بيت الرسول ، أصحابه الشرعيين ، والمامون كان ممن تشييع ظاهراً ونادى بمبادئ الشيعة صريحاً في باكورة امره ، ولكره الإمام الرضا (ع) على الرحيل إلى خراسان ليثبت فكرة تشييعه في قلوب التابعين ثم يصنع ما يشاء .

استعد الإمام الرضا للرحيل ولكنه كان يعلم يقيناً بما سوف يحدث له بعد سفره ، إنها رحلة واضحة المعالم ، ولكنها خطة يجب أن يسير عليها الإمام حسب الظروف وحسب التعاليم الظاهرية للدين الإسلامي ، يجب عليه أن يبلغ فيعذر ، ويعمل حسب قدرته على بث الوعي الصحيح للمسلمين وإن كان ذلك سوف يؤدي بحياته الكريمة ، ثم ودع أهله وجعل الخليفة عليهم ابنه الجواد ، وهو ابن الخامسة فقط ، إما كان يعرف منه من الكفاءة الموهوبة ، وراح الرضا يخترق السهل والجبل إلى خراسان حيث تستقبله الجماهير المؤمنة ويجعلونه ولياً لعهدهم ، تنتقل إليه الخلافة الإسلامية بعد المامون ، وكانت الرسائل تربط بين الوالد والولد ، فتد تدافع بشأن الأمور الخاصة أو العامة .

أما الإمام الرضا (ع) فقد كان معجباً بنجته فيما إعجاب ، فإذا جاءت رسالة عن الجواد (ع) وإراد أن يخبر شيعته بها قال : كتب لي أبو جعفر أو كتبت إلى أبي جعفر ، فلا يقول ابني ولا يرضى باسمه الخاص ، بل يكتفي بإجلالاً واحتراماً .

وأما ولده الثاني في المدينة فقد كان يختلف إليه الشيعة لاختلافهم إلى والده الرضا (ع) ، لأنهم كانوا يعرفون أنه إمامهم في المستقبل ، وعلى حد تعبيرهم (إمامهم الصامت) .
وذات يوم والشيعة في حضرة الجواد (ع) وفي مشهده إذ تغير حاله وأخذ يبكي ، وعندما جاء الخادم ، امره بإقامة الماتم ..

— عزاء من ؟ وماتم لمن ؟ جعلت فداك .

— ماتم أبي الحسن الرضا (ع) ، فقد استشهد الساعة في خراسان .

— بابي انت ولمي ، خراسان قطر يبتعد عن المدينة آلاف الأميال ، وتفصل بينهما سهول وجبال .

— نعم ، دخلني ذل من الله عز وجل لم أكن أعرفه ، فعرفت أن أبي قد توفي .

وكان الإمام الجواد يكتي بابي جعفر ليكون تذكراً لجده أبي جعفر بن علي الباقر (ع) ، ولأنه لم يكن له

ولد يسمى بجعفر .

وكان يلقب بالقاب شتى ، منها الجواد ، والتقّي ، والمرضى ، والمنتجب ، والقانع ، بيد أن لقباً واحداً اشتهر به أكثر من غيره وهو " ابن الرضا " ذلك أن أباه الإمام الرضا (ع) طار صيته في الأفاق لما اشتهر به من الفضل والجد فعرف الناس ثلاثة من أبنائه باسم ابن الرضا ولذلك كان كل من الإمام التاسع والعاشر والحادي عشر يعرفون به (ابن الرضا) لِمَا كان للرضا من الصيت الواسع الحسن بين المسلمين .

الفصل الثاني

حياته وإمامته

إماموهو (صبي) :

الإمامة في عقيدة الشيعة القائلين بها تختلف عنها في منطق الآخرين كثيراً . فإن الكلمة تعني عند الشيعة الخلافة المطلقة لشخص الرسول ولعلومه ومعارفه ومؤهلاته وصلاحياته ومسؤولياته ، ويتعبير آخر " صورة كاملة للنبوة " ، بفارق واحد فقط هو أن الإمام لا يوحى إليه ، بينما النبي يوحى إليه ، فلا نبي بغير وحي ، ولكن الإمام بدونه .

والنبوة - في منطق الإسلام - صلاحية فريدة في نوعها ومتميزة عن صلاحيات سائر البشر ، يهبها الله تعالى إلى فرد يختاره ويجعله وسيطاً يتلقى الوحي منه وينشره بين قومه ، وإذا تمت هذه الفكرة عن النبي تتم عن الإمام بنفس الملاك ونفس الحجة ، وكما أنه إذا صح القول بأنه من الممكن أن يغتدي الصبي نبياً وهو في المهد رضيع ، صح ذلك في الإمام (ع) .

والعمر وإن كان مقياساً للناس في الأغلب ولكنه ليس بمقياس عند الله ، فليس الأكبر سناً أعظم عند الله دائماً ، وربُّ شيخ يغيض عند ربه ولربُّ شاب أو طفل محبوب عند بارئه . العمل الصالح والنية الطيبة والإمكانات الموهوبة وما إلى ذلك مما يهب الفرد قيمة وتقديراً هو المقياس الأول عند الإسلام وفي منطق القرآن ، أضف إلى ذلك أن القول بالنبوة والإمامة لا يمكن إلا بعد الإيمان الكامل بقدرة الله تعالى على أن يجعل من فرد واحد مجعلاً للفضائل ، ومرجعاً للمعارف ، وقُدوة للناس واسوة للخلق ، فالإعتقاد بالنبوة يفرض على الإنسان الإيمان بالمعجزة (والتي هي ما يتعدى طاقة الإنسان) وله ميزة على سائر البشر حتى يمكنه أن يقودهم ويقول لهم إنني نذير من الله .

وإذا كانت المعجزة تعني شيئاً خارجاً عن الطبيعة الجارية في سائر الخلق ، فلا فرق بين أن يكون الفرد الذي تتجلى فيه المعجزة كبيراً أو صغيراً ، غنياً أو فقيراً .

وطالما زعمت الأمم السالفة ، أن النبي يجب أن يكون له مال و ثراء عريض ، ويكون سيداً في قومه ورئيساً مهيباً ، فافهمهم أنبياءهم (ع) بأن الله إذا أراد أن ينزل رحمته في فرد لا تتوفر فيه هذه الشروط ويجعله نبياً ، فهل في ذلك من بأس ؟ قال تعالى ،

﴿ أَهُمْ يَتَّخِذُونَ رَحْمَتَكَ نَحْنُ قَسَمًا يَتَّبِعُهُمْ مَِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَكْعَةً يَتَّبِعُهُمْ فَوْقَ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآ وَرَحِمْتَ رَكَّبَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف/ ٣٢)

ولطالما أعجبت الأمم ودهشت حينما رأت أن الله قد بعث إليها صبياً نبياً ، ولكن ربنا ابرز لهم أن فعله ذلك إنما كان تعمداً ليعرفهم معنى النبوة ، وأنها ليست موهبة عادية تبرز في فرد دون فرد ، تبعاً للبيئة والتربية ، وإنما هو نبوءة عن عادة الخلق ، وخرق لسنة الكون ، ونداء جديد ليس يشابهه نداء المخلوقات ، بأن الله هو القادر وأنه إليه المصير ، يقول علي بن اسباط في حديث له عن الإمامة ، رأيت أبا جعفر الجواد (ع) قد خرج إليّ فلحددت النظر إليه ، وإلى رأسه وإلى رجله لأصف قامته لأصحابنا بمصر فخر ساجداً وقال : إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج في النبوة ، قال تعالى ،

﴿وَأَيُّهَا الْحُكَمَاءُ﴾ (مريم/١٢)

وقال الله سبحانه وتعالى ،

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ (يوسف/٢٢)

وقال ،

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (الاحقاف/١٥)

فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز أن يؤتى وهو ابن أربعين سنة .^٦

أجل إذا كانت النبوة معجزة الله تعالى ، لو كانت آية الابتداء فسواء — إذا — ان تظهر في كبير أو صغير . وعن بعض الرواة أنه قال ، كنت واقفاً عند أبي الحسن الرضا (ع) بخراسان فقال قائل : يا سيدي .. إن كان كون فإلى من ؟ (يريد : إذا مت فمن الإمام بعدك ؟) .

قال : إلى أبي جعفر ابني .. وكان القائل استصغر سن أبي جعفر .

فقال أبو الحسن (ع) : إن الله سبحانه بعث عيسى رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدئة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر (ع) .^٧

نعم ، ليس هناك أي استبعاد لما يشاؤه الله ويفعله ، فقد يجعل عيسى نبياً في أول صباه .. ويهب محمد بن علي الإمامة صبياً أيضاً .

كان للإمام أبي عبد الله الصادق (ع) ولد كان يدعى علي بن جعفر وكان وجيهاً محترماً لدى الشيعة الإمامية ، وكان يفد إليه الناس ، وينهلون من علومه التي تلقاها مباشرة عن أبيه الصادق (ع) .. وأخيه موسى بن جعفر (ع) .. فيروي بعض المحدثين : أنه كنت عند علي بن جعفر بن محمد (ع) جالسا بالمدينة ، وكنت اقمته عنده سنتين أكتب عنه ما سمعه من أخيه يعني موسى بن جعفر (ع) إن دخل عليه أبو جعفر محمد بن علي بن موسى (ع) المسجد — مسجد رسول الله (ص) فوثب علي بن جعفر بلا رداء ولا حذاء ، فقبل يده وعظمه ، فقال له أبو جعفر (ع) : يا عم اجلس رحمك الله .

قال : يا سيدي كيف اجلس وانت قائم .

(٦) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٢٤ - ٣٧)

(٧) نفس المصدر .

فلما رجع علي بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يويخونه ويقولون أنت عم أبيه وأنت تفعل هذا الفعل؟ فقال : اسكتوا ، إذا كان الله عز وجل - وقبض على لحيته - لم يؤهل هذه الشبهة وأهل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه ، أنكر فضله ! نعوذ بالله مما تقولون بل أنا له عبد ^٨ .

بعد وفاة والده :

توفي الإمام الرضا في خراسان مسموماً ، ودفن في طوس ، واختلفت - بسبب موته - الأمة الإسلامية ، وفقدت الأمة ملامحها التي كانت قد تميزت بها في عهد الرضا (ع) .. فرجعت الخلافة إلى بغداد .. وقرب المأمون العباسي من يزيد وغدر بمن كان قد نصره على أخيه الأمين في نزاع الملك عنه ، وغير شعاره الذي اتخذته للثورة التي كانت نصف علوية ، ورجع إلى لبس السواد ، فاصبحت الدولة دولة عباسية مرة أخرى .

ومرة كان الإمام يسير في طرقات بغداد العاصمة المزدهمة وقد اصطف الناس لابن الرضا (ع) ، رافعين لعناقهم كي يفوزوا بنظرة منه .. وكان من الواقفين رجل زيدي المذهب ، يحدثنا فيقول :

خرجت إلى بغداد فبينما أنا بها ، إذ رايت الناس يتدافعون ويتشرفون ويقفون ، فقلت :

ما هذا ؟ .. فقالوا : ابن الرضا (ع) ، فقلت : والله لانتظرن إليه ، فطلع على بغل لو بغلة ، فقلت لعن الله أصحاب الإمامة حيث يقولون أن الله افترض طاعة هذا ، فعدل إلي وقال : يا قاسم بن عبد الرحمن ، ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنْ وَاحِدٍ تَبِعُهُ إِذَا إِذَا لَقِيَ ضَلَالٌ وَسُعْرٌ ﴾ (النمر/ ٢٤)

فقلت في نفسي : " ساحر والله " .

فعمد إلي فقال :

﴿ أَتُلْقِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ يَمِينٍ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴾ (النمر/ ٢٥)

(٥)

قال : فانصرفت وقلت بالإمامة وشهدت أنه حجة الله على خلقه واعتقدت به ، أجل ... إن الاستغراب الذي غمر قلب هذا الرجل من جهة صغر السن كان جوابه في هاتين الآيتين المباركتين واضحاً مستبيناً . وكان الإمام الجواد (ع) رايضاً بالمدينة وهو الفتى الحديث في السن ، المقدر عند الله والخلق ، قد أعطت الشيعة - وهي يومذاك كثرة لا يستهان بها - أزمته بيده فنهض بتدبيرها خير نهوض ، حتى التفت حوله طائفة من أصحاب أبيه وجده .

في المدينة :

وبقي في المدينة المنورة بعد عهد إمامته زهاء ثمانية أعوام ، يحترمه الخاص والعام ويولوي إليه البعيد والقريب ، يسألونه عما لغمض وأشكل عليهم فيحل ذلك لهم في أسرع وقت .

(٨) الكافي : (ج ١ ، ص ٣٢٢) .

(٥) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٦٤) .

يقول بعض الرواة ، لما مات أبو الحسن الرضا (ع) حججنا فدخلنا على أبي جعفر وقد حضر من الشيعة من كل بلد لينظروا إلى أبي جعفر (ع) فدخل عمه عبد الله بن موسى وكان شيخاً كبيراً نبيلاً ، عليه ثياب خشنه وبين عينيهِ سجادة .

فجلس وخرج أبو جعفر (ع) من الحجرة وعليه قميص قصب ورداء قصب ونعل خوص بيضاء ، فقام عبد الله - عمه - واستقبله وقبّل بين عينيهِ وقامت الشيعة ، وقعد أبو جعفر (ع) على كرسي ونظر الناس بعضهم إلى بعض تحيراً لصغر سنه .

فانتدب رجل من القوم فقال لعمه ، اصلحك الله ما تقول في رجل أتى بهيمة^٩ . فقال تقطع يمينه ويقام عليه الحد .

فغضب أبو جعفر (ع) وقال : يا عم إتق الله - إتق الله - إنه لعظيم أن أفتيت يوم القيامة بين يدي الله عز وجل لما أفتيت الناس بما لا تعلم ، فقال له عمه : يا سيدي اليس قال هذا ليوك (ع) ؟ فقال أبو جعفر (ع) : إنما سئِلَ أبي عن رجل نبش قبر امرأة فنكحها ، فقال أبي : تقطع يمينه للنبش ويضرب حد الزنا ، فإن حرمة الميِّتة كحرمة الحية فقال : صدقت يا سيدي أنا استغفر الله ، فتعجب الناس فقالوا له : يا سيدنا لاتدن أن نسالك ؟

فقال : " نعم ، فسأله في مجلس عن ثلاثين ألف مسألة فاجابهم فيها وله تسع سنين"^{١٠} . وهذه القصة تبين مدى أهمية الإمام في عين الشيعة ثم غزارة علمه وطول باعه وسعة ثقافته التي نبعث عن قلب نفخ فيه الله علمه ومعرفته وأكثر فيه تقواه وخشيته .

إلى بغداد :

وحينما انتقل المامون العباسي إلى بغداد ، وكان يعيش في صراع دائم مع العباسيين الذين استنكروا عليه إعطائه ولاية العهد للرضا (ع) ، منذرين له أن هؤلاء بني فاطمة هم المناوئون الذين يخشى جانبهم أكثر من أي مناوئ آخر لأن لهم انصاراً وموالين في شرق البلاد وغربها . وكان المامون يبرر موقفه من علي بن موسى بنقل فضائله التي عجزت شفاه المامون وغيره عن أن تحصيلها عدلاً قائلاً : بأن أهل هذا البيت قد ورثوا العلم من آبائهم كما ورثوا المكارم والخلق الرفيع .

(٩) أي باشر ووطئ بهيمة .

(١٠) المصدر : ص ٨٥ ومن المحتمل أن يكون عمره ثمان سنوات فقط كما هو مذكور في بعض الأحاديث ، حيث أن الذي يبدو من هذا الحديث : أن الشيعة كانت قد اجتمعت بالمدينة في الموسم بعد وفاة الإمام الرضا مباشرة .. وكان للإمام الجواد (ع) ، (٧) سنين حين موته في آخر شهر صفر ، فلما انقضت سبعة أشهر جاء شهر رمضان ودخل الجواد في الثامنة ، وفي موسم الحج من تلك السنة كانت هذه المحاوره كما وإن من الممكن كون الأسئلة وجهت إلى الإمام في أيام متعددة مع وحدة المجلس فيكون مجلسه أشبه بالمؤتمرات التي تطول أياماً تباعاً يقصونها بالبحث باستثناء أوقات الراحة والطعام .

وكانت الشيعة يومئذ قد قويت شوكتهم بالإمام الرضا وأصبح لهم دعاة مخلصون في كل زاوية من البلاد الإسلامية ومالت إليهم العامة لما ظهر من الإمام الرضا (ع) في المسرح السياسي من آيات الفضل والكمال .

ثم إنه ذهبت دعوتهم إلى إمامة بني فاطمة تنتشر أكثر من أي يوم آخر ، لأن كثيراً منهم نالوا المناصب الرفيعة في الدولة وقاموا بحركات إيجابية دائمة بسبب الاختلاف الذي وقع بين العباسيين .. وعرفت السلطة طوائف كثيرة من العباسيين أنفسهم كانوا يكيّدون للدولة ويريدون لأنفسهم السلطان فاضطرت إلى استخدام مناوئ هؤلاء ، من الشيعة .

هذا من جانب ومن جانب آخر كانت موجة من الاستياء العام تمثل العامة بسبب قتل المأمون للرضا (ع) . وتغطية لغدره بالرضا (ع) واحتجاجاً على الخاصة من العباسيين .. واستمالة لفؤاد العامة من غيرهم ، أرسل المأمون إلى المدينة يطلب الإمام الجواد (ع) في دعوة رسمية ..

كان ذلك في السنة (٢١١) هجرية حيث كان لأبي جعفر الجواد من العمر زهاء (١٦) سنة فقط . ومما يبدو من التاريخ ، أن وفود الإمام (ع) كان حافلاً بالاحتفاء الملوكي ... الذي هياه الخليفة لمقدم موفوده المبارك .

وكان الناس يبشرون أنفسهم بابن الرضا (ع) الذي طالما تشوقوا إلى رؤيته والمثول عنده . واستقبله المأمون استقبالاً حافلاً ، ونوى أن يزوجه ابنته أم الفضل ، كما زوج أباه الرضا (ع) ابنته أم حبيب .

فاعترضه العباسيون اعتراضاً شديداً ، خوفاً من انتقال الخلافة إلى بني فاطمة . فاجتمع من أهل بيته الأدنون وقالوا له ، نناشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تقدم على هذا الأمر الذي عزمتم من تزويج ابن الرضا (ع) ، فإننا نخاف أن يخرج به عنا أمر قد ملكنا الله عز وجل ، وينزع منا عزاً قد ألهنا الله ، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً ، وقد كنا في خشية من عملك مع الرضا (ع) ، فكفانا الله المهم في ذلك ، فالله أن تردنا إلى غم قد انحصر عنا .

فقال لهم المأمون : أما ما بينكم وبين آل أبي طالب فانتتم السبب فيه ولو انصفتهم القوم لكان لولى بكم ، وأما ما كان يفعله من قبلي بهم فقد كان قاطعاً للرحم ، ولعود بالله من ذلك ، والله ما ندمت على ما كان مني من استخلاف الرضا (ع) .. ولقد سألته أن يقوم بالأمر وانزعه من نفسي فابى وكان أمر الله قدراً مقدوراً !!

وأما أبو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتفوقه على أهل الفضل كافة في العلم والثقافة مع صغر سنه . وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفت منه فتعلمون أن الراي ما رايت فيه .

فقالوا : إن هذا الفتى وإن راقك منه هديه فإنه صبي لا معرفة له ولا فقه ، فامهله ليتأدّب ثم اصنع ما تراه بعد ذلك .

فقال لهم ، ويحكم إني اعرف بهذا الفتى منكم ، وإن أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى لم يزل أبأوه لغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة ، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يثبت لكم به ذلك . قالوا ، قد رضينا بذلك فخلّ بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء ، من فقه الشريعة فإن أصاب لم يكن لنا اعتراض ، وظهر للخاصة والعامة سديد رأي أمير المؤمنين فيه ، فإن عجز عن ذلك فقد كفيينا الخطب منه ، فرضي المأمون بذلك ، فاجتمع رأيهم على يحيى بن أكنم قاضي قضاة الديار الإسلامية في ذلك العهد أن يسأل الإمام الجواد (ع) عن المسائل الغامضة في الفقه الإسلامي ، وحن الموعد واجتمع الناس ، وجاء الإمام الجواد (ع) وحضر ابن أكنم ، وجلس يحيى بين يديه والمأمون بجانب الإمام يهيمن على المجلس ، فالتفت ابن أكنم إلى الخليفة وقال :

يأذن لي أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عن مسألة ؟ فقال المأمون استأذنه في ذلك ، فاقبل عليه يحيى قائلاً : جعلت فداك ، تاذن لي في مسألة ؟ قال أبو جعفر (ع) : سل ما شئت . قال يحيى : ما تقول - جعلت فداك - في محرم قتل صيداً ؟

فقال أبو جعفر ،

- قتله في حل أو حرم ؟
- عالماً كان المحرم أو جاهلاً ؟
- قتله عمداً أو خطأ ؟
- حرّاً كان المحرم أو عبداً ؟
- صغيراً كان أو كبيراً ؟
- مبتدئاً بالقتل أو معيداً ؟
- من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها ؟
- من صغار الصيد أم من كبارها ؟
- مصرّاً على ما فعل أو نادماً ؟
- في الليل كان قتله للصيد أم في النهار ؟
- محرماً كان بالعمره إذ قتله ، أم بالحج كان محرماً ؟ ^{١١} .

(١١) في هذه الفقرات التالية تدور بطولته العلمية التي تظهر في مدى استطاعته على التحقيق . وقديماً قالوا : تشقيق السؤال نصف الحوار ، بالإضافة إلى بديهية الحاطر ، والدكاء السادر الذي يحيط بجميع جوانب المسألة ، وكل سؤال ثنائي للإمام (ع) يضرب في السؤال السابق عليه ويضرب فيه السؤال اللاحق به ، لأن السؤال يكون على هذا الوجه ، لو كان القتل في الحل فهو على قسمين ، إما أن يكون المحرم عالماً أو جاهلاً ، كما أن القتل في الحرم ينقسم بدوره إلى قسمين " إما أن يكس المحرم عالماً أو جاهلاً ، وهكذا دواليك .

فتحير يحيى بن لكتم وبان في وجهه العجز والإنقطاع ولجلج حتى عرف الحاضرون امره ، فقال المأمون ، الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي ، ثم توجه إلى اهل بيته ، فقال لهم : أعرفتم الآن ما كنتم تتكرونها ؟ ثم لقبل على أبي جعفر (ع) فقال له ، لخطب يا أبا جعفر ؟ فقال ، نعم يا أمير المؤمنين ، فقال له المأمون ، لخطب لنفسك جعلت فذاك ، قد رضيتك لنفسي وأنا مزوجك أم الفضل ابنتي ، وإن رغم قوم لذلك .

فقال أبو جعفر ، الحمد لله إقراراً بنعمته ولا إله إلا الله إخلاصاً لوحديته وصلى الله على محمد سيد برئته والأصفياء من عترته ... لما بعد ، فقد كان من فضل الله على الأنام أن لغناهم بالحلال عن الحرام ، فقال سبحانه ، ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُفْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور/ ٣٢)

ثم إن محمد بن علي بن موسى يخطب أم الفضل بنت عبد الله المأمون ، وقد بذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة بنت محمد (ص) ، وهو خمسمائة درهم جياداً ، فهل زوجته يا أمير المؤمنين بها على هذا الصداق المذكور ؟

فقال المأمون ، نعم قد زوجتك يا أبا جعفر أم الفضل ابنتي على الصداق المذكور ، فهل قبلت النكاح ، قال أبو جعفر (ع) ، قد قبلت ذلك ورضيت به .

حفلة الزواج :

قال المحدث ، ولم نلبث أن سمعنا أصواتاً تشبه أصوات الملاحين في محاوراتهم ، فإذا الخدم يجرون سفينة مصنوعة من فضلة مشدودة بالحبال من الإبريسم على عجلة مملوءة من الغالية (قسم من العطر) ، فامر المأمون أن تخضب لحاء الخاصة من تلك الغالية ، ثم مدت إلى الدار العامة فتطيبوا منها ووضعت الموائد فكل الناس وخرجت الجوانز إلى كل قوم على قدرهم ، فلما تفرق الناس وبقي بعض الخاصة ، قال المأمون لأبي جعفر (ع) ، إن رأيت جعلت فذاك إن نذكر الفقه الذي فصلته من وجوه من قتل الصيد ، فقال أبو جعفر (ع) ،

نعم ، إن المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير ، وكان من كبارها فعليه شاة ، فإن أصابه في الحرم فعليه جزاء الضعف ، وإذا قتل فرخاً في الحل فعليه حمل قد فطم من اللبن ، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ ، فإذا كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة ، وإن كان نعلماً فعليه بدنة ، وإن كان ظبياً فعليه شاة ، وإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه جزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكبدة ، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدى فيه وكان إحرامه بالحج نحره بمنى ، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة ، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء وفي العمد عليه المائتم ، وهو موضوع عنه في الخطأ والكفارة على الحر في نفسه ، وعلى السيد في عبده ، والصغير لا كفارة عليه ، وهي على الكبير واجبة ، والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة ، والمصر يجب عليه العقاب في الآخرة .

فقال المامون ، احسنت يا ابا جعفر ، احسن الله إليك ، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك ، فقال أبو جعفر (ع) ليحيى ، أسألك ؟ قال : ذلك إليك - جعلت فداك - فإن عرفت جواب ما تسألني عنه ، وآلاً استفدته منك ، فقال له أبو جعفر (ع) : أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أول النهار ، فكان نظره إليها حراماً عليه ، فلما ارتفع النهار حلت له ، فلما زالت الشمس حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما غربت الشمس حرمت عليه ، فلما دخل وقت العشاء الآخرة حلت له ، فلما كان وقت انتصاف الليل حرمت عليه ، فلما طلع الفجر حلت له ، فما حال هذه المرأة ، وبماذا حلت له وحرمت عليه ؟

فقال له يحيى ، لا والله لا اهتدي إلى جواب هذا السؤال ، ولا أعرف الوجه فيه ، فإن رأيك أن تنفدنا . فقال أبو جعفر ، هذه لمة لرجل من الناس نظر إليها اجنبي في أول النهار فكان نظره إليها حراماً عليه ، فلما ارتفع النهار ابتاعها من مولاهما فحلت له ، فلما كان عند الظهر اعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر تزوجها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء الآخرة كفر عن الظهار فحلت له ، فلما كان نصف الليل طلقها واحدة فحرمت عليه ، فلما كان عند الفجر راجعها فحلت له .

فاقبل المامون على من حضره من أهل بيته فقال لهم : هل فيكم من يجيب هذه المسألة بمثل هذا الجواب أو يعرف القول فيما تقدم من السؤال ؟ قالوا : لا والله ، إن أمير المؤمنين أعلم ، وما رأى .

فقال ، ويحكم ، إن أهل هذا البيت خصوصاً من الخلق بما ترون من الفضل ، وإن صغر السن فيهم ، لا يمنعهم من الكمال ، أما علمتم أن رسول الله (ص) افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وهو ابن عشر سنين ، وقبل منه الإسلام ، وحكم له به ، ولم يدع أحداً في سنه غيره ، ويأبى الحسن والحسين (ع) وهما ابنا دون الست سنين ، ولم يبايع صبيّاً غيرهما ، أولاً تعلمون ما اختص الله به هؤلاء القوم ؟ وإنهم ذرية بعضها من بعض يجري لأخبرهم ما يجري لأولهم . فقالوا ، صدقت يا أمير المؤمنين ، ثم نهض القوم .

الجوائز :

فلما كان من الغد أحضر الناس ، وحضر أبو جعفر (ع) ، وسار القواد والحجاب والخاصة والعمال لتهنئة المامون وأبي جعفر (ع) ، فلخرجت ثلاثة أطباق من الفضة فيها بنادق^{١٢} مسك زعفران معجون ، في لجواف تلك البنادق رقاع مكتوبة بالموال جزيلة وعطايا سنية وإقطاعات^{١٣} فأمر المامون بنثرها على القوم من خاصته ، فكان كل من وقعت في يده بندقية أخرج الرقعة التي فيها ، والتسمه فاطلق يده له .

(١٢) جمع بندقية ، وهي شيء مدور يشبه الحوز .

(١٣) كان الملوك يهبون لبعض الأفراد قطعاً كبيرة من الأراضي الأميرية ، فكانت تسمى إقطاعاً .

ووضعت البدر ، فنثرت ما فيها على القواد وغيرهم (من كبار الموظفين) وانصرف الناس وهم لغنياء بالجوائز والعطايا ، وتقدم المامون بالصدقة على المساكين كافة ، ولم يزل مكرماً لأبي جعفر (ع) ، معظماً لقدره مدة حياته ، يؤثره على ولده وجماعة أهل بيته .

وحينما تم زواج الإمام بابنة المامون ، وبقي في بغداد مدة غير قليلة ناعماً مرفهاً يأتيه المسلمون ، فينهلون من فيضه ، ويستقون غمانمه ، ما تغنيهم وترويههم ، بيد أنه لم يكن يرضيه التمتع في قصور العباسيين تاركاً أمور الشيعة والمسلمين الدينية وراعه ظهرياً ، وكما يبدو أنه إن لم يكن قد أكرهته الظروف بالمقام في بغداد ، لما أقام فيها إلا قليلاً .

يروى بعض أصحابه فيقول : دخلت عليه في بغداد ففكرت فيما به من نعم ، وقلت في نفسي إن هذا الرجل لا يرجع إلى موطنه أبداً ، فاطرق رأسه ثم رفعه وقد اصفر لونه ، فقال : يا حسين خبز شعير وملح جريش في حرم رسول الله أحب إلي مما تراني فيه .

إلى المدينة من جديد :

وسار إلى المدينة عن طريق الكوفة ، فلما أن ورد الكوفة اجتمع إليه الشيعة ، فاستقبلوه استقبالاً حافلاً ، ثم ودعهم إلى مدينة جده ، حيث بقي فيها سائر أيام حياته يواصل أداء مسؤولياته الخطيرة التي منها إنشاء مدرسة فكرية جامعة حتى وفاة المامون العباسي .

بعد المامون :

ولوصى المامون إلى أخيه المعتصم العباسي ولبي دعوة ربه فمات في قرية من نواحي طرسوس ، التي كانت من الحدود الفاصلة بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم وكانت قد اشتعلت فيها مناوشات وقد سار إليها الخليفة بنفسه حتى ظفر المسلمون .

وأوصى إليه بشأن العلويين بصورة خاصة فقال مخاطباً أخاه المعتصم : هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي (ع) فلحسن صحبتهم وتجاوز عن منسبتهم وأقبل عليهم ولا تترك صلاتهم في كل سنة عن محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى .

في أواخر الصيف ، ليلة الثاني عشر من رجب سنة ٢١٨ هـ توفي المامون العباسي ودفن في ضاحية طرسوس ، فالتزم المعتصم أزمة الحكم ، وراح يثبت حكمه بكل قدر مستطاع ففكر في أن الإمام الجواد وهو صهر الخليفة الراحل وسيد الشيعة وهم قوة جبارة في الأمة ، قد يشكل خطراً ما على الدولة فأنشأه من المدينة إلى بغداد ، لا شيء إلا لكي يكون الإمام تحت مراقبته الشخصية ، ونزع الإمام للمرة الثانية إلى بغداد ، وبقي فيها مبتعداً عن البلاط الملكي مشتغلاً بالشؤون العامة وذلك في الفترة ما بين (٢٨ محرم الحرام سنة ٢٢٠ هـ و ٢٩ ذي القعدة الحرام من نفس السنة) حيث وافقه المنية بسم

(١٤) الاحتجاج : (ص ٢٢٧ - ٢٢٩) وبحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٧٣ - ٧٧)

(١٥) مختار الخرائج والجرائج (ص ٢٠٨) .

دس إليه من قبل السلطة بإشارة من الخليفة المعتصم بالله ، وقصة ذلك حسب ما رواها المؤلف القدير العياشي عن خادم ابن أبي داود وصاحب سره الذي كان يسمى (ونان) ، وابن أبي داود هذا كان قاضياً شهيراً في بغداد قال : رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغموم فقلت له فيما ذاك ، قال : لما كان اليوم من هذا الأسود " أي أبي جعفر الجواد (ع) " بين يدي أمير المؤمنين ، قال قلت وكيف ذاك ؟ قال : إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره فجمع في ذلك الفقهاء وقد أحضر محمد بن علي (ع) فسالنا عن القطع في أي موضع ؟ فقلت من الكرسوع (أي المفصل بين الكف والذراع) ، قال : وما الحجة في ذلك ؟ قلت : لأن اليد من الأصابع إلى الكرسوع لقوله تعالى في التيمم ﴿ فَيَمُمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ (المائدة/٦)

واتفق معي على ذلك جماعة ، وقال آخرون بل يجب القطع من المرفق لأن الله تعالى يقول في الوضوء ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ فدل على أن اليد من المرفق ، فالتفت المعتصم إلى محمد بن علي (ع) وقال : ما تقول أنت يا أبا جعفر (ع) فقال (ع) : قد تكلم فيه القوم يا أمير المؤمنين ، قال : دعني عما تكلموا به ، أي شيء عندك ؟ قال : اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين ، قال : أقسمت عليك بالله تعالى لما أخبرت بما عندك فيه ؟ فقال : أما إذا أقسمت علي بالله فأني أقول أنهم أخطأوا فيه السنة ، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف ، فقال : فما الحجة في ذلك ؟

قال : قول رسول الله (ص) السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين ، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ يعني بهذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها وما كان لله لم يقطع .

قال : فاعجب المعتصم بذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف .
(قال ابن أبي داود) فقامت قيامتي وتمنيت اني لم أكن حياً ، (قال) : ثم صرت إلى المعتصم بعد ثلاث وقلت : إن نصيحة أمير المؤمنين واجبة وأنا أكلمه بما أعلمني أدخل النار به ، قال وما هو ؟ قلت إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيته وعلماءهم لأمر وقع من أمور الدين وسألهم عن الحكم فيه فآخبروه بما عندهم ، وقد حضر مجلسه قواده ووزراؤه وكتابه ، وقد تسامع الناس ذلك من وراء بابه ، ثم يترك أقاويلهم كلهم ، لقول رجل يقول شطر هذه الأمة بإمامته ، ويدعون أنه أولى منه بمقامه ، ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء !! (قال) فتغير لونه وتنبه لما نبهته له ، قال : جزاك الله عن نصيحتك خيراً .
قال : فامر في اليوم الرابع فلاناً - بالطبع ، ذكر اسماً حذفه بعض المؤلفين أو الرواة - من كتاب وزرائه ، أن يدعو الجواد (ع) إلى منزله فدعاه فلبى أن يجيبه وقال : لقد علمت اني لا احضر مجالسكم ، فقال : إنما ادعوك الى الطعام ولحب ان تطا ثيابي وتدخل منزلي فاتبرك بذلك ، فقد أحب فلان ابن فلان من وزراء الخليفة لقاءك ، فصار إليه (ودس إليه السم في الطعام) فلما طعم (ع) لحس بالسم ، فدعى بدابته فساله رب المنزل ان يقيم ، فقال : خروجي من منزلك خير لك فلم يزل يومه ذاك وليته يوجد بنفسه

والسم يسري في بدنه حتى قبض (ع) .

أه ، إمام الحق ، هذا جزاؤك بعد كل هذا أنك لم ترم لهم إلا الخير ، ولم يبغوا لك إلا الشر فسقياً لك ورعياً ، وتعساً لهم وويلاً ، غدر والله ومكر والله إن يطعموك السم وأنت في ربيع أيامك ، ولكن لك في الأولين من أبائك لسوة حسنة ، ولهم في الأولين من أبنائهم لسوة سيئة فعليك السلام وعليهم اللعنة والعذاب .

نعم ، انطلقا ذلك المشعل الوهاج وخلف وراءه الأمة الإسلامية تجر حصراتها تنديه كالأرض تنديب بعد مغيب الشمس .

لقد كان الإمام الجواد (ع) أحدث الأئمة الإثني عشر سناً باستثناء الإمام الحجة (ع) حين انتقلت إليه الخلافة الروحية في آخر صفر من سنة ٢٠٢ - وهو ابن سبع وكان أحدثهم سناً على الإطلاق ، فحينما استشهد في آخر (ذي القعدة سنة ٢٢٠ من الهجرة) وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين ربيعاً كما كانت مدة إمامته ثمانين عشرة سنة .

وضجت بغداد بوفاة ابن الرضا (ع) وذهبت الشكوك تحوم حول البلاط وكادت تنفجر ثورة عارمة على الحكم الجائر ، وصلى عليه ابن المعتصم وولي عهده الواثق بالله كما صلى عليه نجله الكريم الإمام علي بن محمد النقي (ع) ودفن في مرقده في الكاظمية حيث لا يزال يقصد ويزار ، فعلى محمد بن علي الجواد (ع) التحية والسلام .

وجاء في بعض الأحاديث عن وفاته (ع) أن المعتصم دعى بعض وزرائه وأمرهم بأن يشهدوا على محمد بن علي الجواد (ع) بأنه قد أراد أن يخرج عليه بثورة يفجرها مع تابعيه من الشيعة الإمامية ذلك لكي يسهل عليه أن يلقي به في السجن أو يقتله قتلاً .

فلما حضر الإمام التفت المعتصم إليه قائلاً ، أنك أردت أن تخرج علي ، فقال الإمام ، والله ما فعلت شيئاً من ذلك ، قال ، إن فلاناً وفلاناً شهدوا عليك ، فاحضروا فقالوا ، نعم هذه الكتب أخذناها من بعض غلمانك قال ، وكان جالساً في بهو (قاعة في مقدم الدار) فرفع أبو جعفر يده وقال ، اللهم إن كانوا كذبوا علي فخذهم .

قال الراوي ، فنظرنا إلى ذلك البهو كيف يرجف ويذهب ويجي وكما قام واحد وقم .

فقال المعتصم ، يا ابن رسول الله إني تائب مما فعلت فادع ربك إن يسكنه ، فقال ، اللهم سكنه إنك تعلم إنهم أعداؤك وأعدائي ، فسكن .

(١٦) مختار الحرائج والجرائح : (ص ٢٣٧) .

الفصل الثالث

الإمام وعصره^{١٧}

عاصر الإمام محمد بن علي الجواد (ع) ، خليفتي عباسيين . والخليفة الذي عاش الإمام في عهده ظروفاً هادئة ، هو المأمون العباسي .

ومعروف أن المأمون قام بالتقرب إلى العلويين وإلى سيدهم الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ، بسبب الضغط الجماهيري الذي تعرض له النظام العباسي حيث تميز عهده بسلسلة من الثورات والانتفاضات في كافة أرجاء الدولة الإسلامية .

ويقول بعض المؤرخين : أن المأمون العباسي كان شيعياً ، وكان يذهب إلى إحقية أولاد الإمام علي (ع) بالخلافة ، وإلى إمامة الإمام علي (ع) ، ولكننا لا نرى ذلك في المأمون العباسي لأن ذلك شرف لا يستحقه خليفة غاصب .

يبقى أن نعرف أنه بعد استشهاد الإمام الرضا (ع) على يد المأمون ، أصبح محمد بن علي الجواد (ع) الإمام الشرعي للرساليين ، ومعروف أن الإمام الجواد (ع) صاهر المأمون العباسي .

لماذا صاهر الإمام الخليفة ؟

ونتساءل لماذا أقدم الإمام الجواد (ع) على الزواج من بنت المأمون العباسي ؟ ولكي نعرف الإجابة عن مثل هذا السؤال لابد أن نلقي نظرة على الحركة الرسالية التي كان الأئمة (ع) يقودونها ويوسعونها ، في عصر الإمام الرضا ونجله الإمام الجواد (ع) . في عهد المأمون تحولت الحركة الرسالية إلى حركة تستطيع أن تتداخل مع النظام وتستفيد من مظلته أو حتى تكون ما يسمى اليوم بحكومة انتلافية ، مع أي دولة من الدول ، والأئمة (ع) كانوا يقبلون بالحماية من قبل الدولة بدون أن يفقدوا رسالتهم .

والأئمة المعصومون (ع) لم يخلوا حركتهم ، أي أنهم لم يقبلوا بالخلافة ولم يشتركوا فيها ، والدليل على ذلك موقف الإمام الرضا من ولاية العهد حيث قبلها بشرط عدم التدخل في شؤون النظام . اما الإمام الجواد (ع) فحينما خطب ابنة المأمون وتزوجها ، أصبح صهر الخليفة واستفاد من ذلك لأجل رسالته فماذا يعني أن يصبح شخص صهراً للخليفة ؟

(١٧) اقتبسنا هذا الفصل من كتاب التاريخ الإسلامي للمؤلف : (ص ٣٤٣ وص ٣٤٨ - ٣٥٥) .

إن من يدخل البلاط يمكن أن يصير والياً على منطقة ، أو حاكماً على بلد ، أو قاضي القضاة لا أقل ، ولكن الإمام الجواد لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل أخذ بيد زوجته وذهب إلى المدينة وبقي هناك حتى مات المامون العباسي .

فماذا كسب الإمام (ع) من هذه المصاهرة ؟

كسب الإمام الجواد (ع) بهذا العمل امرين ،
أولاً ،

منع المامون من أن يقوم بعملية اغتياله ، وذلك بقبوله الزواج من ابنته .
ثانياً ،

جعل مخالف السلطة وإنيابها في قفص الحركة الرسالية ، وذلك إن المامون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على أن يقوم بالفتك برجال الحركة ومجموعاتها .

ولقد كان هذا الأسلوب متبعاً في كثير من عصور الأئمة (ع) ، وخير شاهد على ذلك قصة علي بن يقطين بن موسى البغدادي الذي كان بمثابة مستشار للخليفة المهدي العباسي ، ثم صار في رتبة الوزير لهارون الرشيد ، وعندما حصل على هذا المنصب وكان اتجاهه رسالياً ، جاء إلى الإمام الصادق (ع) وقال ، " يا ابن رسول الله أنا صرت عوناً لهذا الطاغية " وأراد أن يستقيل ، ومعروف أن الذي يحصل على هذا المركز ذلك اليوم يسيطر على مرافق أكبر دولة في العالم .

فطلب منه الإمام أن يظل في عمله ، ويستمر في أداء مهامه الرسالية ويبقى في بلاط هارون ، وعاود الطلب من الإمام بأن يلائن له بترك السلطة إلا أن الإمام لم يلائن له ، ولقد كانت أعماله كبيرة بالنسبة للحركة ، حتى أن الإمام أبا الحسن (ع) قال فيه عندما دخل عليه داود الرقي ، في يوم النحر ، " ما عرض في قلبي أحد وأنا على الموقف إلا علي بن يقطين ، فإنه ما زال معي وما فارقني حتى أفضت " ١٨ .

عصر المعتصم العباسي :

والإمام الجواد (ع) عاصر خليفة من الخلفاء الذين أثروا تأثيراً مباشراً على زوال الدولة العباسية ، وهو المعتصم العباسي .

المعتصم العباسي كان ابن أمة تركية ، فمال إلى أخواله فكان يحب جمع الأتراك وشرايعهم من ليدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، والبسهم أنواع الدباج والمناطق المذهبة والحي المذهبة ولبانهم عن سائر الجنود ١٩ .

ثم وسعهم رتباً قيادية في الجيش حتى أنه ثارت ثائرة العسكريين العرب في الجيش ، فلقد حاول "عجيف" أن يقلب الحكم على المعتصم ليولي العباس بن المامون ، ولكن هذه المحاولة أخفقت وقطعه

(١٨) جامع الرواة / العلامة الأردبيلي : (ج ١ ، ص ٦٠٩)

(١٩) المسعودي : (ج ٣ ، ص ٤٦٥) .

المعتصم .

والأترار حينما جاؤوا إلى البلاد الإسلامية أخذوا شيئاً فشيئاً يسيطرون على الحكم ويجردون الخلفاء من سلطتهم الحقيقية ، وأخذوا يحدثون الانقلابات العسكرية (كما نسميها الآن) .

حتى وصل بهم الأمر إلى أنه إذا مال عنهم خليفة عباسي ، فإنهم كانوا يقتلونه غيلة ، ثم ينصبون رجلاً آخر من البيت العباسي مكانه ، فابتداءً من المتوكل إلى المستعين إلى المهدي وانتهاءً بالمقتدر ، كل هؤلاء قتلوا بواسطة القادة العسكريين الأترار .

وهكذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم تتجاوب أهواه مع أهوائهم ، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي ، وإنما نتيجة للحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل .

والإمام الجواد (ع) لاستفاد من هذا الوضع في تغذية الحركات الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل ، وفي هذا الوقت كانت الثورة التي قام بها محمد بن القاسم بن علي الطالبلي تخلق السلطة ولا تدعها تعيش في هدوء وسكينة .

نموذج من الثورة العلوية :

لقد كانت ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) أبرز ثورة في عهد الإمام الجواد (ع) .

كان محمد بن القاسم جليل القدر إذا ما قرأنا يوميات جهاده . كانت العامة تلقبه بالصوفي ، لأنه كان يدمن لبس الصوف الأبيض الخشن ، وكان من أهل العلم والفقه والدين والزهد .

كان قد ذهب إلى (مرو) في مقاطعة خراسان ، وكان معه من الكوفيين بضعة رجال ، وذلك بعد أن رحل من الكوفة ، وكان قبل ذلك قد خرج إلى ناحية الرقة ، ومعه جماعة من وجوه الزيدية ، منهم يحيى بن الحسن بن الفرات ، وعبد بن يعقوب الرواجني ، والزيدية كانت تشكل القاعدة للكثير من الثورات .

روى إبراهيم بن عبد العطار ، " كنا معه ، ففترقنا في الناس ندعوهم إليه ، فلم نلبث إلا يسيراً حتى استجاب له أربعون ألفاً ، ولخذنا عليهم البيعة ، وكنا لنزلناه في رستاق من رساتيق مرو ، وأهله شيعة كلهم ، فالحلوه في قلعة لا يبلغها الطير في جبل حريز " ٢٠ .

ومرة سمع بكاء في (مرو) فندب لحد أصحابه ليرى ما هذا البكاء ، فجاءه بخبر أن أحد الدين بايعوه قد كان غصب شيئاً من أحد الرجال ، فاصلح بينهما ، فقال محمد لصاحبه إبراهيم ، " يا إبراهيم ، أبعثل هذا ينصر دين الله ؟ ثم قال ، فرقوا الناس عني حتى أرى رأيي " .

فانتخب الصالحين من الدين بايعوه ثم سار بهم ، وهذا نموذج من طبيعة الثورات الرسالية إذ أنها لم

تكن تبيح لية وسيلة في سبيل الوصول إلى الهدف ، بل مثلما يكون الهدف هو إقامة حكم الله عز وجل ، يجب أن تكون الوسيلة أيضاً مرضية من قبل الله تعالى . وهذا كان يربي المجتمع على عشق المثل العليا ، والمبادئ السامية ، ويعدنا نقي أصحابه ، ساروا إلى الطالقان .

ويروي إبراهيم صاحبه :

"ورحل محمد بن القاسم من وقته إلى الطالقان ، وبينها وبين مرو أربعين فرسخاً ، فنزلها وتفرقنا ندعو الناس فاجتمع عليه عالم ، وجئنا إليه ، فقلنا له : إن اتممت أمرك ، وخرجت فنادت القوم ، رجونا أن يخلصك الله ، فإذا ظفرت اخترت حينئذ من ترضاه من جندك ، وإن فعلت كما فعلت بمرو — يقصد اختيار الصالحين فقط — ، أخذ عبد الله بن طاهر يعقبك ، وهكذا أراد صاحبه "إبراهيم" أن يثنيه عن إبعاد الذين ليسوا بملتزمين جيداً عن جيش الثورة" . ولكن محمد بن القاسم أبى ذلك ، ودخل محمد بن القاسم مع عبد الله بن طاهر في حروب كثيرة وكان يلحق به شر الهزائم .

ومرة هدأت صولات الحرب بينهما ، فسارع عبد الله بن طاهر بإرسال كل جيوشه مقسمة في فرق ضمن خطة ملاكرة جداً ، وقال ابن طاهر لقائد جيوشه وهو إبراهيم بن غسان بن فرج العودي :

"قد جردت لك ألف فارس من نخبة عسكري ، وأمرت أن يحمل معك مائة ألف درهم تصرفها فيما تحتاج إلى صرفها من لمورك ، وخذ من خيلي ثلاثة أفراس نجبية معك تنتقل عليها ، وخذ بين يديك دليلاً قد رسمته لصحبك فادفع إليه من المال ألف درهم ، واحمله على فرس من الثلاثة فليركض بين يديك ، فإذا صرت على فرسخ واحد من "نسا" ، (وهي المدينة التي يتواجد فيها محمد بن القاسم) فافضض الكتاب ، وأقره وأعمل بما فيه ولا تغادر منه حرفاً ، ولا تخالف مما رسمته شيئاً وأعلم أن لي عيناً في جملة من صحبتك يخبرني بأنفاسك ، فاحذر ثم احذر وأنت أعلم" .

وهذا يبين مدى خوف ابن طاهر من أن يكون هذا القائد يميل إلى صف محمد بن القاسم ، فلقد كان ذلك شيئاً طبيعياً لأن نفوس الناس كانت مع الحركة الثورية ، ولكن السلطات كانت تجلب وتسخر الناس في ضرب الحركة الرسالية مرة بالتهديد ومرة بالإغراء ومرة بالإفساد ومرات بأساليبها المختلفة حتى أن ابن طاهر يقول : جعلت عيوناً عليك يرقبون أنفاسك .

فسار قانده إلى "نسا" وقبل أن يصل بفرسخ فتح كتاب ابن طاهر وإذا فيه الخطة كاملة ، والبيت الذي يسكن فيه محمد بن القاسم ، وصاحبه أبو تراب ، ويأمره فيه أن يستوثقهما بالحديد ، استيثاقاً شديداً ، وأن ينفذ خاتمه مع خاتم محمد بن القاسم أول ما يظفر به ، وقبل أن يعود خطوة واحدة لكي يطمئن ، وعلى الذي يرسلهما معه أن يركض بهما ركضاً ، ثم يكتب إليه شرح ما حدث . "وكن على غاية التحرز والتحفظ والתיقظ من امره حتى تصير به وصاحبه إلى حضرتي" .

نجحت الخطة وحمل محمد بن القاسم مع صاحبه أبو تراب إلى ابن طاهر في نيسابور ، فجاء ابن طاهر

ليراهما فقال لقائده :

" ويحك يا إبراهيم " أما خفت الله في فعلك - يقصد القيود الثقيلة جداً التي وضعها على محمد وصاحبه - أنتقيد هذا الرجل الصالح بمثل هذا القيد الثقيل ؟
فقال إبراهيم العودي (قائده) :

" ليها الأمير خوفك انساني خوف الله ووعدك الذي قدمته إليّ اذهل عقلي عما سواه " .
وكانا يتكلمان من فوق سطح يطل على الغرفة المسجون بها محمد بن القاسم في نيسابور .
فقال ابن طاهر : خفف هذا الحديد كله عنه ، وقيدّه بقيد خفيف في حلقته رطل وليكن عموده طويلاً ، وحلقته واسعتين ليخطو فيه ، وفي فترة سجن محمد بن القاسم طلب قرأناً يتدارس فيه .
وكان عبد الله بن طاهر يخرج من اصطبله بغالاً عليها القباب ليؤم الناس انه قد أخرجه ، ثم يردّها حتى استتر بنيسابور ، سلّه في جوف الليل ، وخرج به مع إبراهيم العودي ووافى به الري ، وقد امره عبد الله بن طاهر أن يفعل به كما فعل هو ، يخرج في كل ثلاث ليال ومعه بغل عليه قبة ، ومعه جيش حتى يجوز الري بفرسخ ، ثم يعود إلى أن يمكنه سلّه ، ففعل ذلك خوفاً من أن يغلب عليه لكثرة من أجاب محمد بن القاسم بالبيعة له ، حتى أخرجه من الري ولم يعلم به أحد ، ثم اتبعه حتى لورده بغداد على المعتصم .

وقد سمع المعتصم بمسير محمد إلى بغداد ، فارسل إلى طاهر العودي أن انزع العمامة من عليه واجعله حاسراً وانزع رداء قبة البغل ليكون على البغل حاسراً ، ثم أدخله بغداد .
وكان يريد بذلك تعذيب محمد نفسياً والحط من كرامته ، وقد ازدحم الناس ازدحاماً شديداً على الطرقات حين إدخال محمد بن القاسم إلى بغداد ، ثم أدخل على المعتصم في مجلس اللهو والشراب .
وقيل : وجعلت الفراغنة يحملون على العامة ويرمونهم بالقدر والمعتصم يضحك ، ومحمد بن القاسم يسبح ويستغفر الله ويحرك شفّته يدعو عليهم ، والمعتصم جالس يشرب ، ومحمد واقف إلى أن انتهى من لعبه فامر بسجنه .

وسرعان ما دبّر محمد بن القاسم حيلة ذكية للهروب ، ثم توارى عن الأنظار في بغداد ثم إلى واسط ، وقد شدّ وسطه للوهن الذي أصاب فقار ظهره عند عملية هروبه . وظل محمد مختفياً بعد ذلك إلى نهاية عهد بني المعتصم ومحمد الواثق ، ثم بعض أيام المتوكل ، وقيل انه أخذ إليه فحمل إلى السجن حتى مات فيه .

ولكن ماذا فعل خلال فترة تواريه عن الأنظار وهي ليست بالفترة القصيرة ؟ هذا ما أجابت عليه الثورات العديدة التي قامت بعد ذلك في عهد المتوكل ، والمستعنين وما بعده من الخلفاء ، التي لم تدع الخليفة يلعب ويلهو براحة .

وفي واسط سكن محمد بيتاً يعود إلى أم ابن عمه علي بن الحسن بن علي بن عمر ابن الإمام زين

العابدين (ع) وكانت عجوزاً مقعدة ، فلما نظرت إليه وثبتت فرحاً وقالت ، " محمد والله ، فدتك نفسي وأهلي ، الحمد لله على سلامتك " فقامت على رجلها وما قامت قبل ذلك بسنين .

وقال إبراهيم العودي ، قائد جيوش ابن طاهر يصف محمداً ،

ما رأيت قط أشدّ اجتهاداً منه ، ولا أعف ، ولا أكثر ذكراً لله عزّ وجلّ مع شدة نفس ، واجتماع وما أظهر من جزع ولا انكسار ولا خضوع في الشدائد التي مرت به ، وإنهم ما راوه قط مازحاً ولا هازلاً ولا ضاحكاً إلا مرة واحدة ، فإنهم لما انحدروا من عقبة حلوان أراد الركوب ، فجاء بعض اصحاب إبراهيم بن غسان العودي ، فطأوا له ظهره ، حتى ركب في المحمل على البغل ، فلما استوى على المحمل قال للذي على ظهره مازحاً ، " اتأخذ لِرزاق بني العباس وتخدم بني علي بن ابي طالب ؟ وتبسم " .

وقال ، عرضوا على محمد بن القاسم كل شيء نفيس من مال وجواهر وغير ذلك ، فلم يقبل إلا مصحفاً جامعاً كان لابن طاهر فلماً قبله ، سرّ عبد الله بن طاهر بذلك ، وإنما قبله لأنه كان يدرس فيه .

ووجود شخصية ثورية مثل محمد وثورة مثل ثورته تدلان على أن الحركة الرسالية لم تتوقف يوماً ما عن مسيرتها ، وإنها لا يمكن أن تميل عن استقامتها التي كانت معهودة بها ، وهاتان ميزتان موجودتان في طول الثورات التي قامت بها الحركة الرسالية .

بجانب وضع السلطة المتنازع ومن عهد الإمام الجواد (ع) بدأت مسيرة ذات كيفية خاصة للثورات وطبيعتها ، ووضع الحركة الرسالية في أيام الإمام الجواد كان جيداً ، وإذا كان اخرج وقت مرّ على الحركة الرسالية هو في أيام الإمام موسى بن جعفر (ع) ، فإن احسن الأوقات كانت في عهد الإمام الجواد (ع) ، وربما لذلك جاء في الحديث المأثور عن ابن اسباط وعبيد بن اسماعيل ،

" أنا لعند الرضا (ع) بمنى إذ جيء بابي جعفر (ع) قلنا ، هذا المولود المبارك ؟ قال ، نعم هذا المولود الذي لم يولد في الإسلام أعظم بركة منه " .

وروي أبو يحيى الصنعاني قال ، كنت عند أبي الحسن (ع) فجيء بابنه أبي جعفر (ع) وهو صغير فقال ، " هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم على شيعتنا بركة منه " .

والبركة التي حصلت للحركة الرسالية بولادة الإمام الجواد (ع) ليست في ارتفاع الإرهاب والاختناق السياسي عنهم فقط بل وأهم من ذلك في تجنر الرسالة عقيدة وفكراً وسياسةً وفقهاً .

الفصل الرابع

خلقه وفضائله

أ - الجواد الكريم :

كان يلقب إمامنا التاسع بالجواد لما كان يشتهر به من الجود الذي فاض فغمر السهل والجبل كما يغمر الضوء السهول .
واليك قصصاً من جوده :
- لقد كان برنامج العمل ، كتاب وفد إليه من والده من خراسان وله زهاء ست سنوات من العمر ومضمون الكتاب ما يلي :

فلسالك بحقي عليك لا يكن مدحك ومخرجك إلا من الباب الكبير وإذا ركبت فليكن معك ذهب وفضة ثم لا يسالك أحد إلا وأعطيته . من سالك من عمومك أن تبره فلا تعطه أقل من خمسين ديناراً والكثير إليك ، ومن سالك من عماتك فلا تعطها أقل من خمسة وعشرين ديناراً والكثير إليك ، إنني أريد أن يرفعك الله فانفق ولا تخشى من ذي العرش افتقاراً .

- وروي أنه حمل له حمل بزله قيمة كثيرة ، فسل في الطريق ، فكتب إليه الذي حمله يعرفه الخبر ، فوقع بخله أن أنفدنا وأموالنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة يمنع بما منع منها في سرور وغبطة ويأخذ ما أخذ منها في أجر وحسبة فمن غلب جزعه على صبره حبط أجره ونعوذ بالله من ذلك .^{٢٢}

- ودخل عليه بعض أصحابه الذي كان للإمام عليه دين يقول له : جعلت فداك اجعلني من عشرة آلاف درهم في حل فإني انفقته ، فقال له أبو جعفر (ع) : أنت في حل ، الحديث .^{٢٣}

ب - زهده وتقواه :

- يتقل بعض الرواة أنه حجبت أيام أبي جعفر (ع) وجنت إليه في المدينة فدخلت الدار فإذا أبو جعفر (ع) قائم على دكان لم يكن فرش له ما يقعد عليه ، فجاء غلام بمصلى فآلقاه له فجلس فلما نظرت إليه تهيبته ودهشت فذهبت لأصعد الدكان من غير درجه فأشار إلى موضع الدرجة فصعدت وسلمت فرد السلام ومد إلي يده فاخذتها وقبّلتها ووضعها على وجهي واقعدني بيده فامسكت بيده مما دخلني من الدهشة فتركها في يدي فلما سكنت خليتها .

(٢٢) تحف العقول : (ص ٣٣٩) .

(٢٣) بحار الانوار : (ج ٥٠ ، ص ١٠٥) .

- واستقبل الناس في حفلة أقيمت تكريماً له أيام الحج ، وقد حضرها من فقهاء العراق ومصر والحجاز جمع غفير استقبلهم بقميصين وعمامة بذوابتين ونعلين .

- وينقل عن أبي هاشم قوله : ان أبا جعفر أعطاني ثلاثمائة دينار في مرة وأمرني أن أحملها إلى بعض بني عمه ، وقال : أما أنه سيقول لك دلي على من اشتري بها منه متاعاً ، فدلّه ، قال : فأتيته بالدنانير ، فقال لي يا أبا هاشم ، دلي على عريف يشتري بها متاعاً ففعلت^{٢٤} .

- وعن أحد أصحابه الذي كان يدعى (ابن حديد) قال : خرجت مع جماعة حجاجاً ، فقطع علينا الطريق ، فلما دخلت المدينة لقيت أبا جعفر (ع) في بعض الطريق ، فأتيته إلى المنزل فأخبرته بالذي أصابنا ، فأمر لي بكسوة وأعطاني دنانير وقال : فرّقها على أصحابك على قدر ما ذهب ، فقسمتها بينهم فإذا هي على قدر ما ذهب منهم لا أقل ولا أكثر .

- وقال بعضهم ، جئت إلى أبي جعفر (ع) يوم عيد فشكوت إليه ضيق المعاش ، فرفع المصلى وأخذ من التراب سبيكة من ذهب فأعطانيها فخرجت بها إلى السوق فكانت ستة عشر مثقالاً^{٢٥} .

- وقال عمر بن الرّيان ، احتال المامون على أبي جعفر (ع) - لكي يهوي به مزاللق الفساد فينقص من كرامته وهيبته لدى الناس جميعاً - فاحتال بكل حيلة فلم يمكنه في شيء ، فلما أراد أن يثني عليه ابتته جاء بمائة وصيفة من أجل ما يكون ، ودفع إلى كل واحدة منهن جاماً فيه جوهر يستقبلان أبا جعفر (ع) إذا قعد في موضع الاختان ، فلم يلتفت الإمام (ع) إليهن ، وكان رجل يقال له مخارق صاحب صوت وعود وضرب ، طويل اللحية فدعاه المامون فقال : إن كان في شيء من أمر الدنيا فانا أكفيك أمره ، فقعد بين يدي أبي جعفر فشبهق شهقة اجتمع إليه أهل الدار ، وجعل يضرب بعوده ويغني ، فلما فعل ساعة وإذا أبو جعفر لا يلتفت لا يميناً ولا شمالاً ، ثم رفع رأسه إليه وقال : اتق الله يا ذا العثنون (أي اللحية) فسقط المضرب من يده والعود ، فلم ينتفع بيده إلى أن مات^{٢٦} .

- وجاء بعض أصحاب أبيه ، وقد كان حديثاً في السن ، وحمل معه شيئاً مما يلعب به الأطفال ، فيقول لما جنته ووقفت أمامه مسكماً لم يلدن لي بالجلوس ، فرميت بما كان معي بين يديه فغضب علي وقال : ما لهذا خلقنا .

ج - علمه وثقافته :

لقد سبق الحديث عن علم الأوصياء (ع) في كتابي الخاص بحياة الإمام جعفر الصادق ناشر علوم آل البيت ومبلغها الشرق والغرب ، وسبق بيان معنى علم الأوصياء بالمغيبات ، ومع ذلك فلا أحد بدأ من أن يبحث ها هنا عن علم الإمام الجواد الغزير ، وثقافته التي نبعت عن قلب ملهم ، وهواد مؤخم أقول : لقد ،

(٢٤) بحار الانوار : (ج ٥٠ ، ص ٤١ ، ط ٢) .

(٢٥) بحار الأروار : (ج ٥٠ ، ص ٤٩)

(٢٦) مناقب آل أبي طالب : (ج ٤ ، ص ٣٩٦) .

كثر في الأحاديث إنباؤه (ع) الناس بما يجول في خاطرهم وبما يأتي عليهم مستقبلاً ، ولا يعني ذلك أن الأئمة (ع) يعلمون الغيب ، وإنما يعني أنهم (ع) متصلون بالله سبحانه وتعالى عن طريق الإلهام أو عن طريق النبي (ص) ، فيستقون معارفهم بشكل مباشر بينما يستقي سائر البشر معارفهم عبر الحواس والتجارب مثلاً .

وإذا اثبتت التجارب الحديثة وجود الحس السادس عند بعض الأفراد ، سهل علينا أن نعتقد بأن شيئاً ما يوجد في بعض الأشخاص الذين يشاء الله لهم ذلك ، أضف إلى ذلك أن الإيمان بقدرة الله واستطاعته على أن يفعل كل شيء دون أي استثناء ، يحدو بالفرد إلى تقبل كل ممكن إذا ثبت أن الله قد إرادته .

وروي أن والي مكة والمدينة (فرج الرغبي) ، الذي كان من المعارضين لآل البيت قال مرة لابي جعفر (ع) : إن شيعتك تدعي أنك تعلم كل ماء درجة ووزنه ، وكنا في ذلك الوقت واقفين على شاطئ درجة ، فقال (ع) : ليقدر الله تعالى أن يفوض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه لم لا ؟ يقول الراوي : فقال فرج ، نعم يقدر ، فقال (ع) : أنا أكرم على الله تعالى من بعوضة ومن أكثر خلقه .

نعم ، إن الغرابة الناشئة عن الشك في قدرة الله لهي أوهى من الشك في ضياء الشمس ، بل يبقى الريب في محله إذا كان في الرجل الذي يدعي هذا المنصب الرفيع ، فلا يستطيع المرء أن يتقبله إلا بعد الفحص والتدقيق ، أما إذا كان في أهل بيت الرسول فسوف لا يبقى للشك مجال ، بعد استفاضة حديث متواتر عن النبي (ص) في أنهم قدوة الخلق وائمتهم ، وبعد أن عرفنا أن كل إمام كان أعلم أهل زمانه في كل شيء منذ أن تنتقل إليه الخلافة الروحية ، وكذلك كان النبي (ص) ولوصياؤه (ع) جميعاً .

ويكفيك في الإمام الجواد ما سبق من أنه سئل في مجلس واحد ثلاثين ألف مسألة ، فاجاب عنها وهو ابن ثمان أو تسع ، وأنه كان في زهاء السادسة عشرة من عمره إذ حضر مجلس المامون وباحث مع قاضي القضاة ، فافحمه إفحاماً ، وإذا علمنا بأن المامون كان كما يحدثنا التاريخ لعلم الخلفاء العباسيين ولعرفهم بعلوم أهل زمانه ، ثم رايناه كيف يخضع لجلال ابن الرضا (ع) في المشاهد التي مضت علينا ، نعرف معنى العلم الإلهي ونوعيته .

واليك بعض الأحاديث التي تنبئنا عن جانب من علم الإمام الجواد (ع) :

١ - عن أمية بن علي قال : كنت مع أبي الحسن بمكة في السنة التي حج فيها ، ثم صار إلى خراسان ومعه أبو جعفر وأبو الحسن يودع البيت ، فلما قضى طوافه عدل إلى المقام فصلى عنده فصار أبو جعفر على عنق موفق يطوف به ، فصار أبو جعفر إلى الحجر ، فجلس فيه فاطال ، فقال له موفق : قم جعلت فداك ، فقال : ما أريد أن أبرح من مكاني هذا إلا أن يشاء الله ، واستبان في وجهه الغم ، فأتى موفق أبا الحسن (ع) ، فقال له : جعلت فداك قد جلس أبو جعفر في الحجر وهو يبكي أن يقوم ، فقام أبو الحسن (ع) فأتى أبا جعفر فقال له : قم يا حبيبي ، فقال : ما أريد أن أبرح من مكاني هذا ، فقال : بلى يا حبيبي ،

ثم قال : كيف أقوم وقد ودّعت البيت وداعاً لا ترجع إليه ، فقال : قم يا حبيبي ، فقام معه .
 ٢ - كان يحيى بن ائكم قاضي القضاة في عهد المامون ، ويذهب بعض المؤرخين إلى انه تشيع أخيراً لو كان شيعياً ، ويقل عنه انه قال : فبينما أطوف بقبر رسول الله (ص) ، رايت محمد بن علي الرضا (ع) يطوف به ، فناظرته في مسائل عندي ، فاخرجها إلي ، فقلت له والله إني أريد أن أسألك مسألة واحدة ، وإني والله لأستحي من ذلك ، فقال لي ، أنا أخبرك قبل أن تسألني ، تسألني عن الإمام ، فقلت هو والله هذا ، فقال : إذا هو ، فقلت : علامة ، فكان في يده عصا فنطقت وقالت : إنه مولاي إمام هذا الزمان وهو الحجة ٢٧ .

٣ - نقل بعض الرواة انه اجتاز المامون بابن الرضا (ع) وهو ما بين صبيان ، فهربوا سواه فقال : عليّ به ، ثم قال له : مالك لم تهرب في جملة الصبيان ؟ قال : مالي ذنب فأفتر منه ، ولا الطريق ضيق فلوسعه عليك ، سر حيث شئت ، فقال : من تكون انت ؟ قال : أنا محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ، فقال : ما تعرف من العلوم ؟ قال : سلني عن اخبار السماوات ، فقال : ما عندك من اخبار السماوات ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين حدثني أبي عن أبائه عن النبي (ص) عن جبرائيل عن رب العالمين انه قال : بين السماء والهواء بحر عجاج ، تتلاطم به الأمواج ، فيه حيات خضر البطون ، رقط الظهور ، يصيدها الملوك بالبراة الشهب يمتحن به العلماء .
 فقال : صدقت وصدق أبوك وصدق جدك وصدق ربك ، فاركبه ، ثم روجه أم الفضل ٢٨ .

٤ - ويروي عن فاصد طلبه الإمام ابو جعفر الثاني في عهد المامون ، فقال له : اقصدي في العرق الزامر ، فقال له : ما اعرف هذا العرق يا سيدي ، ولا سمعت به ، فإراه إياه ، فلما فصده خرج منه ماء اصفر فجرى حتى امتلا الطلشت ، ثم قال له أمسكه ، وأمر بتفريغ الطلشت ثم قال خل عنه ، فخرج دون ذلك ، فقال شدة الآن ، فلما شد يده ، أمر له بمائة دينار فأخذها وجاء إلى يوحنا بن بختيشوع ، فحكى له ذلك ، فقال والله ما سمعت بهذا العرق من نظرتي في الطب ، ولكن هاهنا فلان الأسقف ، قد مضت عليه السنون ، فامض بنا إليه ، فإن كان عنده علمه ، وآلاً لم نقدر على من يعلمه ، فمضينا ودخلنا عليه ، وقصّ القصص ، فاطرق ملياً ثم قال : يوشك أن يكون هذا الرجل نبياً أو من ذرية نبي .
 وهكذا تمضي الأحاديث تنقل عن الأئمة عجباً ، ولكن لا عجب من أمر الله ، إذ ينشاء أن يجعل علمه ومعرفته وقوته وقدرته في إنسان امتحن قلبه ، فزكاه وطهره تطهيراً .

د - من كلمات الإمام :

الروايات المفتعلة - يروي أن المامون لما زوّج ابنته أم الفضل أبا جعفر (ع) ، كان ذات يوم في المجلس وعنده الإمام ويحيى بن ائكم ، وجماعة كثيرة ، فقال له يحيى بن ائكم : ما تقول يا ابن رسول

(٢٧) الكافي : (ج ١ ، ص ٣٥٣) .

(٢٨) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٥٦) .

الله في الخبر الذي روي أنه نزل جبرائيل على رسول الله (ص) وقال : يا محمد إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك : سل أبا بكر هل هو عني راضي ، فأني عنه راضي فقال أبو جعفر : لست بمنكر فضل أبي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله (ص) في حجة الوداع ،

(قد كثرت علي الكذابة ، وستكثر ، فمن كذب علي متعمداً فليتبوا مقعده من النار ، فإذا اتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به) .

ولا يوافق هذا الخبر كتاب الله ، قال تعالى ،

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَّا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق/١٦)

فأله عز وجل خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سال من مكنون سره ، هذا مستحيل في المعقول .

ثم قال يحيى بن أكتم ، وقد روي أن مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرائيل وميكائيل في السماء . فقال (ع) ، وهذا أيضاً يجب أن ينظر فيه لأن جبرائيل وميكائيل ملكان لله مقرران لم يعصيا قط ، ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة ، وهما قد اشركا بالله عز وجل وإن أسلما بعد الشرك ، وكان أكثر ليامهما في الشرك بالله فمحال أن يشبههما بهما .

قال يحيى ، وقد روي أيضاً أنهما سيذا كهول أهل الجنة فما تقول فيه ؟

فقال (ع) ، وهذا الخبر محال أيضاً لأن أهل الجنة كلهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهول ، وهذا الخبر وضعه بنو أمية لمضادة الخبر الذي قاله رسول الله في الحسن والحسين بأنهما سيذا شباب أهل الجنة .

فقال يحيى بن أكتم ، إن عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة ؟

فقال (ع) ، هذا أيضاً محال ، لأن في الجنة ملائكة الله المقربين ، وآدم ومحمداً وجميع الأنبياء والمرسلين ، لا تضیی بانوارهم حتى تضیی بنور عمر .

فقال يحيى ، وقد روي أن السكينة تنطق على لسان عمر .

فقال (ع) ، إن أبا بكر كان أفضل من عمر فقال على رأس المنبر ، إن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا ملت فقوموني .

فقال يحيى ، قد روي أن النبي (ص) قال ، لو لم أبعث لبعث عمر ؟

فقال (ع) ، كتاب الله اصدق من هذا الحديث ، يقول الله في كتابه ،

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ ﴾ (الاحزاب/٧)

فقد اخذ الله ميثاق النبيين فكيف يمكن أن يبذل ميثاقه ، وكان الأنبياء لم يشركوا طرفة فكيف يبعث

بالنبوة من اشرك ، وكان اكثر ليامه مع الشرك بالله وقال رسول الله (ص) ، نبئت وادم بين الروح والجسد .

فقال يحيى بن لكتم ، وقد روي ان النبي (ص) قال ،
ما احتبس الوحي عني قط الا ظننته قد نزل على آل الخطاب ، فقال (ع) ، وهذا محال ايضا لانه لا يجوز ان يشك النبي في نبوته . قال الله تعالى ،

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج/٧٥)

فكيف يمكن ان تنقل النبوة ممن اصطفاه الله الى من اشرك به .

قال يحيى بن لكتم ، ان النبي (ص) قال ، لو نزل العذاب لما نجي منه الا عمر .

فقال (ع) ، وهذا محال ايضا ، ان الله يقول ،

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الانفال/٣٣)

فلخير سبحانه الا يعذب احدا مادام فيهم رسول الله (ص) وماداموا يستغفرون .^{٢٩}

هـ - أنا محمد :

- وروي انه جيء بابي جعفر (ع) الى مسجد رسول الله (ص) بعد موت ابيه وهو طفل ، وجاء المنبر ورقى منه درجة ثم نطق فقال ،

(أنا محمد بن الرضا ، أنا الجواد ، أنا العالم بانساب الناس في الأصلاب ، أنا اعلم بسرائركم وظواهركم ، وما انتم صائرون اليه ، علم منحنا به من قبل خالق الخلق لجمعين ، وبعد فناء السماوات والأرضين ، ولولا تظاهر اهل الباطل ودولة اهل الضلال ، ووثوب اهل المشك لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرين) .

ثم وضع يده الشريفة على فيه وقال ، يا محمد اصمت كما صمت اباؤك من قبل .
وفيما ناتي على هذا القدر المقدور نحمد الله تعالى ونصلي على نبيه والمعصومين من اله ونسلم لهم تسليماً .

(٢٩) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٨٣ ، ط ٢) .

الامام الهادي (عليه السلام)
قدوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين . والسلام على النبيين والصديقين ، وصلوات الله وبركاته على خاتم المرسلين محمد وآله الهداة الميامين .

أفكر في نفسي أحياناً ، هل تكفي لحدنا صلة بالأنمة هذه المعرفة البسيطة باسمائهم وتواريخ ميلادهم وشهادتهم ؟

وهل بمجرد ذلك يصبح الواحد منا تابعاً للأنمة بحيث يكون ماموماً لهم ، وما علامة الانتماء إذا ؟ وإذا مثل الواحد منا أمام رب العزة فسأله ، من إمامك لو من هم أئمتك ؟ فعرفهم باسمائهم دون صفاتهم وأفعالهم فلم يعرفوه بل أنكروه وأنكروا أن يكون من شيعتهم فهل له عذر مقبول عند الله يومئذ ؟ أشك في ذلك ، واحتمل أن يكون على موالى أهل البيت الذي يدعي الانتماء إليهم ، والتشيع لهم واتباع منهجهم أن يعرفهم معرفة تنشئ بينه وبينهم صلة الانتماء ، وهي معرفة تتجاوز كثيراً حدود الأسماء والألقاب ، حتى تبلغ - على الأقل - إلى معرفة نهجهم العام في الحياة ، وبعض ما أمروا به شيعتهم . وإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً يجب أن يجعل الشيعي في برنامج دراسته معرفة تاريخ الأنمة ولو بصورة موجزة .

على أن الإستزادة من معرفتهم (ع) ، ودراسة أقوالهم ترفع درجات الإنسان عند ربه ، كما ترفع قيمة أعماله الصالحة .

وما نقدمه خلال الصفحات التالية بضاعة مزجاة إلى أنمة الهدى ، أرجو أن يقبلها الله قبولاً حسناً ومنته ..

وإذا وفقنا الله لإكمال هذا الكتاب الذي يتشرف بتاريخ حياة الإمام العاشر (ع) ، فإن مشروع التأليف عن تاريخ المعصومين الأربعة عشر يكون قد أنجز بفضل الله بالرغم من أنه قد تكون الفاصلة الزمنية بين الكتاب والآخر تبلغ ثلاثاً وعشرين عاماً من سني المحن والفتن ، وإذا وجد القارئ اختلافاً بين أساليب التأليف ، فهو الاختلاف بين شاب عمره ٢٣ عاماً ومن بلغ الخامسة والأربعين من حياته التي أسأل الله تعالى أن يختمها بالشهادة في سبيله وحسن العاقبة بحق أوليائه المعصومين محمد وآله الطاهرين .

الفصل الاول

منعطفات الحركة الرسالية

منذ ان هبط آدم ابو البشر (ع) ارض الفتن والإبتلاء ، ومن قيام الساعة تجري سنة الصراع بين الأبرار الذين ابتغوا رضوان الله ، والضالين الذين اتبعوا خطوات الشيطان .

ولم تخل الأرض - في لية حقبة - عن اولي بقية من سلالة النبيين واتباعهم يهتدون عن الفساد في الأرض ، ويقيمون حجة الله على العباد .

وقد قال ربنا سبحانه ، ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود/١١٦)

وكان يقود أولئك البقية الصالحة نبي مرسل ، او وصي نبي ، او عالم رباني ، يتوارثون الدعوة إلى الله ، والقيام بامرهم . وورث الإمام الهادي (ع) هذه القيادة الرشيدة من والده الجواد (ع) الذي انتهى إليه ميراث رسول الله خاتم الأنبياء والمهيمين على رسالات الله جميعاً ، فالإمامة الربانية ورثها المصطفون من عباد الله ، وان نهج الحق توارثه العلماء الربانيون ، واهل الزهد والصلاح من شيعه الحق واتباع نهج الأنبياء .

وكان هدف هذا الخط الميمون تحقيق ذات التطلعات التي سعى إليها الأنبياء والصالحون عبر التاريخ والتي يوجزها ربنا سبحانه في كتابه حين يقول ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد/٢٥)

ان ما تهدينا اليه سائر الآيات القرآنية ومنها هذه الآية المباركة هي الغايات السامية لابتعاث الرسل وهي التالية ،

الف ، الدعوة إلى الله بالبينات ، التي تتمثل في كلمة الإمام امير المؤمنين (ع) ، " ليستادوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ، ويقدموا لهم بالبينات ، وليدبروا لهم دفلان العقول ... " .

هكذا بإيقاظ العقل من سباته ، وإثارة الوجدان من تحت ركام الغفلة ، وتنقية الفطرة من الشوائب ، والحجب ، بذلك كله تتم حجة الله على عباد الله عبر رسله الكرام !

باء ، تلاوة كتاب الله الذي فيه تبيان كل شيء مما يحتاجه الخلق ، وعبر تلاوة الكتاب وآياته الكريمة

كان الأنبياء (ع) يقومون بتزكية الناس وتعليمهم وقد قال ربنا سبحانه ،
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة/٢)

جيم ، توفير الميزان ، والذي يعني ولي الأمر الذي يقضي بين الناس بالعدل ، وقد قال ربنا سبحانه ،
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء/٦٥)

وهكذا كل من يستلم منصب الخلافة الإلهية يكون ميزاناً للحق وفرقاناً ونوراً ، ليعلم الناس إذا تشابهت المذاهب ، واختلعت الآراء ، أي سبيل يهديهم إلى ربهم ، وأي نهج يرضاه خالقهم .

دال ، والهدف الأسمى لكل تلك التطلعات السامية تحقيق أقصى درجات العدالة بين الناس وهي القسط ، والتي لا تتم إلا بإيمان الناس بالرسول واتباعهم للكتاب وتسليمهم للميزان - لذلك قال ربنا سبحانه ، ﴿ لِيَقْرَأَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

ومعلوم ، أن هذا القسط لا يتحقق بالتمام إلا بقوة مادية رادعة تتمثل بالحديد الذي أنزله الله .. وجعل فيه بأساً شديداً .

والحديد بدوره لا يعني شيئاً لو لم تحمله ليادي شجاعة متفانية في سبيل الله ونصر دينه ورسله .
فإذا حملوا الحديد دفاعاً عن وحي الله ونهج رسل الله ، نزل عليهم نصر الله إن الله قوي عزيز ، كما قال سبحانه ،

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج/٤٠)

تلك كانت تطلعات الخط الرسالي الذي قاده في عصره الإمام النقي علي بن محمد الهادي (ع) ، فمادام كانت منعطفات هذا الخط منذ تبلوره في عصر الإمام أمير المؤمنين (ع) حتى ذلك اليوم .
بعد رحيل النبي إلى الرفيق الأعلى كانت الأمة الناشئة بحاجة إلى إمام يحافظ على تراث الرسول ، ويدافع عن خطه الأصيل أن يزعج الناس عنه يمناً ويساراً ، ويكرس تلك القيم السامية التي نزل بها الوحي في واقع الأمة .

وقد قام الإمام أمير المؤمنين (ع) بذلك خير قيام والتف حوله الأصفاء من الأمة الذين أصبحوا تلك البقية الصالحة الذين حافظوا على الخط الأصيل للرسالة الإلهية ؛
وعندما وقعت معركة صفين ازداد الفرق بين هذا الخط وبين سائر الخطوط وضوحاً ، وانحاز الأبرار كلياً إلى الإمام (ع) وبينهم بقية السلف الصالح من أصحاب النبي (ص) ، وبقي هذا الخط في تصاعد رغم إرهاب الحزب الأموي الحاكم ، ولكنه لم يشتهر في أرجاء الأرض إلا بعد أن اصطبغ بلون الدم ، واكتسب حرارة المأساة بعد واقعة الطف ، فإذا كانت بلورة الخط في صفين ، فإن رشدته وتكامله كان في يوم عاشوراء .

وعلى عهد الإمام زين العابدين تضاعفت صبغته الإلهية . وفي عهد الإمام الباقر تبلور فيه المنهج التوحيدي حيث يلتقي في دروته العقل النذير بالوحي المنزل . أما في عهد الإمام الصادق (ع) فإن تفاصيل هذا المنهج في الأحكام والأخلاق والآداب والمواظع كانت قد رسمت بصورة تامة .

أما في عهد الإمام الكاظم (ع) فإن الخط قد اتخذ الصبغة السياسية في صورتها حيث التخطيط لثورة جماهيرية ، أما على عهد الأئمة من بعده - الإمام الرضا وأبنائه الثلاثة - فإن الخط الرسالي قد أصبح قوة سياسية واجتماعية متداخلة مع السلطة الحاكمة مؤثرة في قراراتها مهيمنة على الحياة الدينية . وهكذا كان عهد الإمام الهادي (ع) يتميز بقدرة الخط الرسالي على جميع الأصعدة بالرغم من الإرهاب الذي كان يتميز به النظام العباسي ، وبالذات على عهد المتوكل العباسي .

ولعلنا نجد في الشواهد التاريخية التالية بعض الملامح لوضع الطائفة في عصر الإمام (ع) .

١ - في حديث مفصل رواه الشيخ الكليني رضوان الله عليه عما جرى بعد وفاة الإمام الجواد (ع) جاء

فيه :

" فلما مضى أبو جعفر (الإمام الجواد (ع)) لم يخرج من منزلي حتى علمت أن رؤوس العصابة قد اجتمعوا عند محمد بن الفرج (الرخجي) وكان ثقة من أصحاب الرضا والجواد ووكيلاً عن الإمام الهادي عليه السلام) يتفاوضون في الأمر " .

وهكذا كان للشيعة يومئذ مجالس للتفاوض في الأمور المهمة ، ومن أبرزها معرفة الإمام والبيعة له والقبول لأوامره ، وقد اجتمعوا بعد الإمام الجواد على الإمام الهادي ، بما تناهت إليهم من الأخبار الصحيحة بذلك حيث جاء في نهاية هذه الرواية ، فلم يبرح القوم حتى سلموا لأبي الحسن (ع) ، وأضاف الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد ، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً إن عملنا على إثباتها طال الكتاب ، وفي إجماع العصابة على إمامة أبي الحسن وعدم من يدعيها سواه في وقته ممن يلتزم الأمر فيه ، غني عن إيراد الأخبار بالنصوص على التفصيل " ٢ .

وهكذا ترى الشيخ المفيد يقول بإمامة الهادي (ع) بإجماع العصابة ، بلى وهو صفوة الأمة وكبار فقهاءها ، فمعرفتهم بالإمام الذي عاصروه وعاصروا والده وجدّه ، سبيل عقلائي إلى معرفة الإمام بعدهم . والأمر الذي نستفيد من كلام الشيخ المفيد ومن الحديث الذي يرويه هو وضع الطائفة في ذلك اليوم .

٢ - وكان فتح بن خاقان وزيراً عند المتوكل ، ولكنه كان يتحجب إلى الإمام الهادي ، إما لميله النفسي إليه أو لأنه كان من رجاله في البلاط ، ولكن ورد من الإمام بحقه الذم حفاظاً عليه ، دعنا نستمع معاً إلى الحديث التالي الذي يحكي مكرمة من مكارم الإمام ، وفي ذات الوقت يعكس جانباً من وضع الطائفة في

(١) الحديث مفصل أحذنا منه مريض الحاجة عن بحار الأنوار . (ح ٥٠ ، ص ١٢٠) .

(٢) المصدر . (ص ١٢١) نقلاً عن إرشاد المفيد : (ص ٣٠٨) .

تلك الأيام ١

قصدت الإمام (ع) يوماً فقلت ، يا سيدي إن هذا الرجل قد أطرحني ، وقطع رزقي ، ومللني ، وما أتهم في ذلك إلا علمه بملازمتي لك ، وإذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك فينبغي أن تتفضل عليّ بمسالة ، فقال ، تكفي إن شاء الله .

فلما كان في الليل طرقتني رسل المتوكل رسول يظو رسولاً فجئت والفتح على الباب قائم فقال ، يا رجل ما تلوي في منزلك بالليل كئني هذا الرجل مما يطلبك ، فدخلت وإذا المتوكل جالس على فراشه فقال ، يا أبا موسى تشغل عنك وتنسينا نفسك أي شيء لك عندي ؟ فقلت ، الصلة الفلانية والرزق الفلاني وذكرت لشيء فامر لي بها ويضعها .

فقلت للفتح ، وافي علي بن محمد إلى ههنا ؟ فقال ، لا ، فقلت ، كتب رقعة ؟ فقال ، لا فوليت منصرفاً فتبعني فقال لي ، لست أشك أنك سألته دعاء لك فالتمس لي منه دعاء .

فلما دخلت إليه (ع) فقال لي ، يا أبا موسى ، هذا وجه الرضا ، فقلت ، ببركتك يا سيدي ، ولكن قالوا لي ، إنك ما مضيت إليه ولا سألته ، فقال ، إن الله تعالى علم منا أنا لا نلجأ في المهمات إلا إليه ولا نتوكل في الملمات إلا عليه وعودنا إذا سألناه الإجابة ، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا .

قلت ، إن الفتح قال لي كيت وكيت ، قال ، إنه يوالينا بظاهره ، ويجانبنا بباطنه ، الدعاء لمن يدعو به ، إذا خلصت في طاعة الله ، واعترفت برسول الله (ص) وبحقنا أهل البيت وسألت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يحرمك^٣ .

٣ - وكان الإمام الهادي يسكن سامراء في عاصمة الخلافة وكان يدخل على المتوكل وينقل الرواة في صفة دخوله عليه أنه كان لا يملك من يحضر باب الخليفة أن يترجل إذا طلع عليه الإمام ، يقول محمد بن الحسن بن الأشتر العلوي .. قال ، كنت مع أبي بباب المتوكل ، ولنا صبي في جمع الناس ما بين طالبي إلى عباسي إلى جندي إلى غير ذلك ، وكان إذا جاء أبو الحسن (ع) ترجل الناس كلهم حتى يدخل . فقال بعضهم لبعض ، لم نترجل لهذا الغلام ؟ وما هو بأشرفنا ولا بكبرنا ولا بأسنا ولا بأعلمنا ؟ فقالوا ، والله لا ترجلنا له فقال لهم أبو هاشم ، والله لترجلن له صغاراً وذلة إذا رأيتموه ، فما هو إلا أن أقبل وبصروا به فترجل له الناس كلهم فقال لهم أبو هاشم ، اليس زعمتم أنكم لا ترجلون له ؟ فقالوا ، والله ما ملكنا أنفسنا حتى ترجلنا^٤ .

وكان الإمام إذا دخل على المتوكل رفعوا له الستر واحترموه بكل وقار ، تقول الرواية ، إن أحد الأشرار قال للمتوكل العباسي يوماً ما يعمل أحد بك أكثر مما تعمله بنفسك في علي بن محمد ، فلا يبقى في الدار إلا من يخدمه ولا يتعبونه بشيل ستر ولا فتح باب ولا شيء ، ولهذا كان الناس يقولون ، لو لم يعلم

(٣) المصدر : (ص ١٢٧) .

(٤) المصدر : (ص ١٣٧) .

ويظهر من هذا الحديث المفصل الذي أخذنا منه موضع الحاجة انه (ع) كان مهيباً مبعجلاً حتى في بلاط اشد الخلفاء العباسيين إرهاباً في عصره وهو المتوكل العباسي .
 وكان (ع) إذا دخل على الخليفة جابهه بالحق ، فقد دخل يوماً عليه فقال ا لمتوكل ، يا ابا الحسن من إشعر الناس ، قال الإمام فلان ابن فلان العلوي حيث يقول ،

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط خدود وامتداد أصابع
 فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليه بما فاهوا نداء الصوامع
 قال وما نداء الصوامع يا ابا الحسن ؟

قال ، أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً .. جدي ام جدكم ، فضحك المتوكل كثيراً ثم قال ، هو جدك لا تدفعك عنه .

ومرة أخرى ادخل المتوكل الإمام (ع) إلى مجلس لهوه وطلب منه المشاركة فيما كان فيه ، فوعظه الإمام عظة بليغة تحالوا نستمع إلى قصة ذلك حسبما ينقلها المسعودي ، قال ، سعي إلى المتوكل بعلي بن محمد الجواد (ع) ان في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من اهل قم ، وانه عازم على الوثوب بالدولة ، فبعث إليه جماعة من الأتراك ، فهجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجدوه في بيت مخلق عليه ، وعليه مدرعة من صوف ، وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن ، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له ، لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة ، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب فدخل عليه والكاس في يد المتوكل . فلما رآه هابه وعظمه واجلسه إلى جانبه ، وناوله الكاس التي كانت في يده فقال ، والله ما يخامر لحمي ودمي قط ، فاعفني فاعفاه ، فقال ، أنشدني شعراً فقال (ع) ، إني قليل الرواية للشعر فقال ، لا بد ، فأنشده (ع) وهو جالس عنده ،

باتوا على قليل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القل
 واستنزلوا بعد عز من معاقلمهم واسكنوا حفراً يا بنسما نزلوا
 ناداهم صارخ من بعد دفنهم لين الأساور والتيجان والحلل
 اين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار والكلل
 فافصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها السدود تقتتل
 قد طال ما اكلوا دماً وقد شربوا واصبحوا اليوم بعد الأكل قد اكلوا
 قال ، فبكى المتوكل حتى بل لحيته دموع عينيه ، وبكى الحاضرون ، ودفع إلى علي (ع) اربعة الاف

(٥) المصدر : (ص ١٢٨) .

(٦) المصدر : (ص ١٢٩) .

دينار ، ثم رده إلى منزله مكرماً^٧ .

وحسبما نقرا في المصادر التاريخية ، كان الكثير من بطانة الخليفة يتشيع للإمام ، أما واقعاً أو لما يجد عدد الشيعة من ثقل سياسي ، مثل الفتح بن خاقان الذي كان من اعظم وزراء المتوكل ، والذي قتل معه عندما انقلب عليه عسكره من الأتراك ، كان يحاول التقرب إلى الإمام ، ويظهر من بعض الروايات أن المتوكل كان يهتمهم بذلك مما يدل على أنه قد أحس بامرهم^٨ .

وجاء فيه فقال المتوكل : يا فتح هذا صاحبك وضحك في وجه الفتح وضحك الفتح في وجهه . كما يظهر من القصة التالية أن بعض قادة النظام العسكريين كانوا يكونون للإمام الحب وربما الولاء ، كما أن القصة تعكس جانباً من انتشار حب الإمام واحترامه بين عامة الناس لا سيما في الحرمين الشريفين .

ينقل عن القائد العباسي يحيى بن هرثمة قال : ارجعني المتوكل إلى المدينة لإشخاص علي بن محمد (ع) لشيء بلغه عنه ، فلما صرت إليها ضج أهلها وعجوا ضجيجاً وعجيجاً ما سمعت مثله ، فجعلت اسكنهم ولحلف أنني لم أومر فيه بمكروه ، وفتشت منزله ، فلم أصب فيه إلا مصاحف ودعاء وما أشبه ذلك ، فلشخصته وتوليت خدمته ، وأحسنست عشرته .

فبينما أنا في يوم من الأيام والسماء صاحبة والشمس طالعة ، إذ ركب وعليه مطر عقد ذنب دابته فتعجبت من فعله ، فلم يكن من ذلك إلا هنيئة حتى جاءت سحابة فارخت عزاليها ، ونالنا من المطر امر عظيم جداً فالتفت إليّ فقال : أنا أعلم أنك انكرت ما رأيت ، وتوهمت أنني أعلم من الأمر ما لم تعلم ، وليس ذلك كما ظننت ولكنني نشأت بالبادية ، فانا أعرف الرياح التي تكون في عقيبها المطر فتاهبت لذلك .

فلما قدمت إلى مدينة السلام بدات بإسحاق بن إبراهيم الطاهري وكان على بغداد ، فقال : يا يحيى إن هذا الرجل قد ولده رسول الله (ص) والمتوكل من تعلم ، وإن حرصته عليه قتله ، وكان رسول الله (ص) خصمك ، فقلت : والله ما وقفت منه إلا على أمر جميل .

فصرت إلى سامراء فبدات بوصيف التركي وكنت من أصحابه ، فقال لي : والله لئن سقط من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون الطالب بها غيري ، فتعجبت من قولهما ، وعرفت المتوكل ما وقفت عليه من أمره ، وسمعت من الثناء فاحسن جائزته ، وأظهر بره وتكرمه^٩ .

وكان عصر الإمام (ع) قد تميز بالتحولات السياسية حيث تنامي بعودة الأتراك في بلاط العباسيين ، وكان كل قائد منهم يميل إلى واحد من المرشحين للخلافة ، فيتحين الفرص لدفعه إلى واجهة السلطة وتسميته باسم الخليفة ليلعب ما يشاء في أمور البلاد باسمه . فبعدما مضى المعتصم ملك الواثق ابنه

(٧) المصدر : (ص ٢١١ - ٢١٢) .

(٨) راجع المصدر : (ص ١٩٦) الحديث الثامن .

(٩) المصدر : (ص ٢٠٧ - ٢٠٨) .

واستوزر ابن الزيات ، وغضب على جعفر بن المعتصم اخيه ، وما لبث ان مات واستخلف المتوكل وقتل ابن الزيات ، وشهد عصره قدراً من الإستقرار ، وقبل ان يموت الوائق سئل عن الخليفة بعده فقال ، لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً ، " ويبدو من هذه الكلمة ، انه كان يعرف ماذا تعني الخلافة في عصره لو ليست تعني القمع والدجل والمؤامرات والإنغماس في الشهوات ، ثم اليس انه نفسه قد سجن اخاه المتوكل بعد ان ولّاه إمارة الحج لما عرف ان ينافسهم الأمر ولم يقبل فيه شفاعته احد ؟ " . وبعد الوائق وُلّي المتوكل الذي شهد عصره قدراً من الإستقرار ولكنه كان استقراً قائماً على العنف والتضليل .

وأبرز مظاهر عنفه سياسته الإرهابية تجاه البيت العلوي وأمره بهدم قبر سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين (ع) حيث أمر سنة ٢٣٦ بهدم قبر الإمام وما حوله من الدور ، وأن يحرق ويبيد ويسقى موضعه ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر ان عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عنده بعد ثلاثة ايام بعثنا به إلى المطبخ (السجن) ، فهرب الناس واشنعوا من المصيد إليه ، وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التي الحقها بالعلويين بسببه في المساجد والطرقا^{١٠} .

ووقعت في عهده مجاعة رهيبية في العراق وهلك كثير من الناس ، وقد طمع الروم في بلاد الإسلام بسبب ضعف الدولة العباسية فاستنفذوا غاراتهم على اراضي قاليقلا جنوبي آسيا الصغرى وهزموا أهلها هزيمة منكرة^{١١} .

وتظهر من القصة التالية صورة عن طبيعة حكم المتوكل ، وما بلغ من إرهابه ضد العلويين ومن ثورة هؤلاء ضده .

قال البخاري ، كنت بمبج بحضرة المتوكل ، إذ دخل عليه رجل من اولاد محمد بن الحنفية حلو العينين ، حسن الثياب ، قد قرف عنده بشيء فوقف بين يديه والمتوكل مقبل على الفتح يحدثه . فلما طال وقوف الفتى بين يديه وهو لا ينظر إليه قال له ، " يا امير المؤمنين ان كنت احضرتني لتأديبي فقد اسأت الأدب ، وإن كنت احضرتني ليعرف من بحضرتك من اوباش الناس استهانتك باهلي فقد عرفوا " .

فقال له المتوكل ، والله يا حنفي لولا ما يثني عليك من اوصال الرحم ويعطفني عليك من مواقع الحلم لانتزعت لسانك ، ولفرقت بين رأسك وجسدك ، ولو كان بمكانك محمد أبوك ، قال ، ثم التفت إلى الفتى فقال ، أما ترى ما نلقاه من آل ابي طالب ؟ إما حسني يجذب إلى نفسه تاج عز نقله الله إلينا قبله ، أو حسيني يسعى في نقض ما أنزل الله إلينا قبله ، لو حنفي يدل بجهله اسيفأنا على سفك دمه .

(١٠) تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن : (ج ٣ ، ص ٥) .

(١١) المصدر .

فقال له الفتى : " وإي حلم تركته لك الخمر وإدامانها ؟ أم العيدان وقتيانها ومتى عطفك الرحم على اهلي وقد ابتزتهم فديكاً إرثهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فورثها أبو حرملة : وأما ذكرك محمداً أبي فقد طفقت تضع عن عز رفعه الله ورسوله ، وتطول شرفاً تقصر عنه ولا تطوله ، فانت كما قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
ثم ها أنت تشكو لي علك هذا ما تلقاه من الحسني والحسيني والحنفي فلبئس المولى ولبئس العشير .

ثم مد رجله ثم قال : هاتان رجلاي لقيدك ، وهذه عنقي لسيفك ، فيؤ يائمي وتحمل ظلمي فليس هذا أول مكروه أوقعته أنت وسلفك بهم ، يقول الله تعالى ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُشَسِّرُ اللَّهُ عِبَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (الشورى/ ٢٣) فوالله ما لجبت رسول الله (ص) عن مسالته ولقد عطفك بالمودة على غير قرابته فعماً قليل ترد الحوض ، فينودك أبي ويمنعك جدي صلوات الله عليهما .
قال : فبكى المتوكل ثم قام فدخل إلى قصر جواريه ، فلما كان من الغد أحضره ولحسن جائزته وخلي سبيله .

وكانت قبضة المتوكل الحديدية وإرهابه الشديد سبباً لسطخ الناس عليه ، والذي تنامي حتى بلغ الجيش الذي ثار عليه بقيادة بغا الصغير وباغر ، وقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وخلفه ابنه المنتصر في شوال عام ٢٤٧ الذي أخذ يخالف أباه في كل شيء ، وبالذات فيما يتعلق بالبيت العلوي وحتى أنشد يزيد المعلي يقول :

ولقد برزت الطالبيّة بعدما ذموا زماماً بعدها وزماناً
ورددت ألفة هاشم فرليتهم بعد العداوة بينهم إخواناً^{١٣}
ولم يدم عهد المنتصر الذي وصفه بعض المؤرخين بالحسن ، وقالوا : كان عظيم الطم ، راجح العقل ، غزير المعروف راغباً في الخير جواداً كثير الإنصاف حسن العشرة^{١٤} .

فقد مات بعد ستة أشهر وذلك سنة (٢٤٨) وبابح الناس أحمد بن محمد المعتصم (٢٤٨ / ٢٥٢) واعطوه لقب المستعين بالله ، ويبدو أن المستعين أراد أن يحد من نفوذ الأتراك الذين تحولت قوتهم العسكرية إلى قوة سياسية متنامية في البلاد ، فواجه تحدياً من قبل بعضهم وبالذات من بغا وباغر الذين تمردوا عليه وبايعا المعتز بن المتوكل وقامت حرب ضارية بين أنصار الخيفتين حيث استقر الأول

(١٢) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٢١٣ - ٢١٤) .

(١٣) تاريخ الإسلام السياسي : (ج ٣ ، ص ٧) .

(١٤) المصدر عن ابن الأثير : (ج ٧ ، ص ٢٩) .

بيغداد والذاني بسامراء ، وأثرت الحرب على الحالة الاقتصادية للبلاد وبعد أن تم الأمر للمعتز تم إبعاد المستعين إلى واسط ولكنه قتل بالتالي على يد عصابة سيرها بقيادة سعيد الخادم ^{١٥} .

ولكن المعتز بقي يخشى جانب الأتراك الذين قتلوا أباه وخلعوا ابن عمه ، وهكذا لم تصفو له الخلافة بل قتل بصورة شنيعة يصفها المؤرخون بما يلي .. قد حل إليه جماعة من الأتراك فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم اشهدوا على خلعه بعض علماء البلاط وادخلوه سرداباً وحصوا حصواً عليه وسدوا عليه الباب حتى مات ^{١٦} .

وبعده استخلفوا المعتدي بن واثق عام ٢٥٥ واضطربت البلاد في عهده فمن ثورة ببغداد إلى تمرد في الجيش ، إلى انتفاضات للعوليين هنا وهناك .

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية شعاراً لكل الطامعين في السلطة ، وأصبحت المؤامرة والدجل سمة بارزة للسياسة .. وكل ذلك كان نهاية طبيعية للإرهاب والدجل الذي مارسه الرواد الأوائل لهؤلاء الخلفاء .. حيث أن المعتصم مثلاً حينما استقدم الأتراك وجعل منهم قوة عسكرية ضاربة ، وارهب بهم الناس ولخمد الإنتفاضات والثورات ، كان من الطبيعي أن تتحول هذه القوة ضد أسرته وأن تستبد بالأمر دونهم . حتى حكى بعض المؤرخين أنه لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصهم وأحضروا المنجمين وقالوا لهم انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال ، أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا ، فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟ قال ، مهما أراد الأتراك ، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك ^{١٧} .

وهكذا كان الإنحراف يبدأ في الظاهر قليلاً وسرعان ما يجرف كل خير وصلاح ، وإنما كان الأئمة (ع) وأنصارهم يدافعون عن قيم الحق والعدل والحرية ، لكي لا تنتهي أمور الدين وشؤون الملة إلى مثل هذه المآسي الفظيعة .

(١٥) المصدر : (ص ٨) عن ابن الأثير : (ج ٧ ص ٦٠ - ٦١) .

(١٦) المصدر : (ص ١٠) .

(١٧) المصدر : (ص ٩) .

الفصل الثاني

سيرة الإمام الهادي (ع)

في الثاني من رجب من عام ٢١٢ هـ ، استقبلت المدينة المنورة ميلاد أول أبناء الإمام الجواد (ع) ، و عمُّ البيت الهاشمي فرح عظيم ، فسمّاه والده علياً باسم جده الرضا وجده الأكبر أمير المؤمنين ، وكنّاه بابي الحسن ومشت القابه الكريمة تعبر عن محياه الكريم وسيرته الزكية ، فكان النجيب والمرضى والهادي والنقي والعالم والفقيه والأمين والمؤتمن والطيب والمتوكل .

وعندما انتقل إلى مدينة سامراء وسكن مطلة كانت تسمى عسكر سمي أيضاً العسكري أو الفقيه العسكري .

وقيل بل كان اسم سامراء العسكر لأنها كانت حاشية الجيش ولذلك سمي الإمام بـ (العسكري) .
أما أمّه فكانت سماته الغربية ، وترعرع الوليد في ظل أبيه يربيه بعلم الإمامة ، ويرفع له من معارف الدين كل يوم علماً ويأمره بالاعتداء به ، وفي الثامن والعشرين من محرم عام ٢٢٠ هـ حيث استقدم المعتصم والده الإمام الجواد (ع) إلى العراق ، أجلسه في حجره وقال له : ما الذي تحب أن أهدي إليك من طرائق العراق ؟ فقال سيفاً كأنه شعلة نار^{١٨} .

ولكنه لم ير ذلك السيف ولم يعد يرى والده الكريم لأنه لم يعد من تلك الرحلة أبداً . فلعله كان في يوم ٢٩ / ذي القعدة من عام ٢٢٠ حيث رأت عائلة الإمام أنه قد رعب ، وكان عمره يومئذ ثمانية أعوام فسالوه ما به فقال : مات أبي والله الساعة ، فقالوا له : لا تقل هذا قال : هو والله كما أقول فكتبوا ذلك اليوم فكان كما قال^{١٩} .

وكان قد سبقت وصية أبيه إلى زعماء الطائفة فاجتمعوا وسلموا إليه الأمر .. كما سبق الحديث عن ذلك بتفصيل .

وبقي في مدينة جده بقية خلافة المعتصم وأيام خلافة الواثق ، حيث اشتهرت مكارمه في الأفاق ، فلما ملك المتوكل ، خشي منه القيام ضده فاستقدمه ، ليكون قريباً منه يراقبه ويسهل الضغط عليه .
ويبدو أنه لم يستقدمه إلا بعد أن توالى عليه الرسائل من الحجاز تخبره بأن الناس في الحرمين يميلون

(١٨) المصدر : (ص ١٢٣)

(١٩) المصدر : (ص ١٧٦) .

إليه ، وكانت زوجة المتوكل التي يبدو انه أرسلها لاستخبار الأمر ممن بعثوا الرسائل .
ويبدو من طريقة استقدام الإمام أن المتوكل كان شديد الحذر في الأمر ، حيث بعث بسرية كاملة من
سامراء إلى المدينة لتحقيق هذا الأمر .. كما سبق . وقد كتب المتوكل إلى الإمام رسالة رقيقة جاء فيها ،
فقد رأى أمير المؤمنين صرف عبد الله بن محمد عما كان يتولى من الحرب والصلاة بمدينة الرسول
إن كان على ما ذكرت من جهالته بحقك ، واستخفافه بقدرك ، وعندما قرنتك به ونسبك إليه من الأمر الذي
قد علم أمير المؤمنين براءتك منه وصدق نيئك وبرك وقولك وإنك لم تؤهل نفسك لما قرنت بطلبه^{٢٠} .
وكان هذا الرجل قد كتب رسالة إلى المتوكل يتهم الإمام فيها بأنه ينوي القيام ضده ، وكتب الإمام
رسالة إلى المتوكل ينفي تلك التهمة ، ثم أضاف ،
وقد ولي أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل وأمره بإكرامك وبتجليك والانتهاه إلى امرك .
ورأيك والتقرب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك .

وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحب إحداث العهد بك والنظر إلى وجهك^{٢١} .
وعندما نزل الإمام مدينة سامراء أراد المتوكل النيل من شخصيته عند الناس فأمر أن يسكن دار
الصعاليك لمدة أيام ثلاث ، قبل أن يدخل عليه وهو لا يعلم أن قدر الإمام عند الله ، لو عند عباد الله
الصالحين ليس بما يسكنه من دار لو يحوزه من ثروة ، وإنما بزهده في درجات الدنيا ورغبته فيما عند
الله ، فلا يزداد بتواضعه وصبره على الأذى في جنب الله إلا زلفى من الله .
وهكذا دخل عليه بعض شيعته (صالح بن سعد) في ذلك المكان المتواضع وقال له ، جعلت فداك
في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتشهير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك ، ولكن الإمام
أراه بعض مكرماته ثم قال له ، " حيث كنا فهذا لنا عتيد ولسنا في خان الصعاليك "^{٢٢} .
وقد فتنش الموالون لأهل البيت عن موضع ذلك الخان فاشتروا مكاناً معيناً قريباً من مرقد الإمام الهادي
(ع) وحولوه إلى مركز ديني لئلا يكون موضع ذلك الخان الذي تشرف بمقام الإمام فيه برهة من
الوقت .

ويبدو أن الإمام كان يقود في تلك الفترة من مقامه في سامراء الخط الرسالي وبطرقه الخاصة ، وقد
استطاب السكن فيها حتى قال (ع) ،
" أخرجت إلى سر من رأى كرهاً ولو أخرجت عنها ، أخرجت كرهاً ، قال الراوي ، ولم يا سيدي ؟ قال ،
لطيب هوائها وعذوبة مائها وقلة دائها "^{٢٣} .

(٢٠) المصدر : (ص ٣٠١) .

(٢١) المصدر .

(٢٢) المصدر : (ص ١٣٣) .

(٢٣) المصدر : (ص ١٣٠) .

والمتوكل العباسي المعروف بشدة بطشه ويغضه لأهل البيت ، وإرهابه ضد الشيعة ، أراد أن يبقى أعظم وأقوى معارضيه قريباً منه حتى يسهل عليه القضاء عليه أنى شاء . إلا أن الإمام قد كاد بإذن الله كيداً ، حيث أخذ ينفذ إلى عمق سلطته ، ويمد نفوذه إلى أقرب أنصاره ، وهكذا فعل .
في هذا الوقت كانت أم المتوكل تنذر للإمام ، ولعل القصص التالية تعكس جانباً من تأثير الإمام في بلاطه .

(مرض المتوكل من خراج خرج به ، فأنشرف منه على الطف ، فلم يجسر أحد أن يمسه بحديدة ، فنذرت أمه إن عوفي أن يحمل إلى أبي الحسن علي بن محمد (ع) مالا جليلاً من مالها) .
وقال له الفتح بن خاقان ، لو بعثت إلى هذا الرجل يعني أبا الحسن فسألته فإنه ربما كان عنده صفة شيء يفرج الله به عك ، قال ، ابعثوا إليه فمضى الرسول ورجع ، فقال ، خذوا كسب الغنم فديفوه بماء ورد ، وضعوه على الخراج فإنه نافع بإذن الله .

فجعل من بحضرة المتوكل بهزاً من قوله ، فقال لهم الفتح ، وما يضر من تجربة ما قال فوالله إنني لأرجو الصلاح به ، فاحضر الكسب ، وديف بماء الورد ووضعه على الخراج ، فانفتح وخرج ما كان فيه ، وبشرت أم المتوكل بعافيته فحملت إلى أبي الحسن (ع) عشرة آلاف دينار تحت ختمها فاستقل المتوكل في علة .

٢ - روي عن الصقر بن أبي دلف الكرخي ، قال ، لما حمل المتوكل سيدنا أبا الحسن العسكري (ع) جنت أسال عن خبره ، قال ، فنظر إلى الزرافني وكان حاجباً للمتوكل ، فأمر أن أدخل إليه فادخلت إليه ، فقال ، يا صقر ما شأنك ؟ فقلت ، خير ليها الأستان ، فقال ، أقعد فالخذني ما تقدم وما تأخر ، وقلت ، اخطئت في المجيء .

قال ، فوجى الناس عنه ثم قال لي ، ما شأنك وفيهم جنت ؟ قلت ، لخبر ما فقال ، لعك تسال عن خبر مولاك ؟ فقلت له ، ومن مولاي ؟ مولاي أمير المؤمنين ، فقال ، أسكت ! مولاك هو الحق ، فلا تحتشمني فإني على مذهبك ، فقلت ، الحمد لله .

قال ، اتحب أن تراه ؟ قلت ، نعم ، قال ، اجلس حتى يخرج صاحب البريد من عنده .
قال ، فجلست فلما خرج قال الغلام له ، خذ بيد الصقر وأدخله إلى الحجرة التي فيها العلوي المحبوس ، وخل بينه وبينه ، قال ، فادخلني إلى الحجرة وأوما إلى بيت فدخلت فإذا هو جالس على صدر حصير وبعداه قبر محفور ، قال ، فسلمت عليه فرد عليّ ثم أمرني بالجلوس ثم قال لي ، يا صقر ما أتى بك ؟ قلت ، سيدي جنت أتعرف خبرك ؟ قال ، ثم نظرت إلى القبر فبكيت فنظر إليّ فقال ، يا صقر لا عليك لن يصلوا إلينا بسوء الآن ، فقلت ، الحمد لله .

(٢٤) المصدر : (ص ١٦٨) .

(٢٥) المصدر : (ص ١٩٤) .

٣ - قال أبو عبد الله الزياتي ،

لما سمَّ المتوكل ، نذر لله إن رزقه الله العافية أن يتصدق بمال كثير ، فلما عوفي اخطف الفقهاء في المال الكثير فقال له الحسن حاجبه ، إن اتيتك يا أمير المؤمنين بالصواب فما لي عندك ؟ قال ، عشرة آلاف درهم والأضربك مائة مقرعة قال ، قد رضيت فأتى أبا الحسن (ع) فسأله عن ذلك فقال ، قل له ، يتصدق بثمانين درهماً فأخبر المتوكل فسأله ، ما العلة ؟ فاتاه فسأله قال ، إن الله تعالى قال لنبيه (ص) ، ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ (التوبة/٢٥) فعددنا مواطن رسول الله (ص) فبلغت ثمانين مواطناً ، فرجع إليه فأخبره ففرح وأعطاه عشرة آلاف درهم .

٤ - وهكذا كان الإمام (ع) يحل المعضلات فيزيد الناس إيماناً به ، ومعرفة بمقامه وبمدى جهالة خصمه المتوكل ، فكثيراً ما كان المتوكل يوعز إلى بعض أصحابه بأن يسألوا الإمام أسئلة صعبة لعله يتوقف فيها ، فمثلاً قال المتوكل لابن السكيت ، سل ابن الرضا مسألة عوصاء بحضرتي فسأله فقال ، لم بعث الله موسى بالعصا وبعث عيسى (ع) بإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ، وبعث محمداً بالقرآن والسيف ؟

فقال أبو الحسن (ع) ،

بعث الله موسى (ع) بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر ، فاتاهم من ذلك ما قهر سحرهم وبهرهم ، واثبت الحجة عليهم ، وبعث عيسى (ع) بإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمان الغالب على أهله الطب فاتاهم من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله فقهرهم وبهرهم ، وبعث محمداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر فاتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم وبهر سيفهم واثبت الحجة به عليهم .

فقال ابن السكيت ، فما الحجة الآن ؟ قال ،

" العقل يعرف به الكاذب على الله فيكذب " .

وقد كان ابن السكيت هذا عالماً كبيراً في النحو والشعر واللغة وقالوا عن كتابه المنطق أنه أفضل كتاب في اللغة كتبه علماء بغداد ، وكان المتوكل قد عهد إليه بتربية ابنه المعتز والمؤيد ، فسأله يوماً ليهما أحب إليك ابناي هذان لم الحسن والحسين فقال ابن السكيت والله إن قنبراً خادماً علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنك ، فقال المتوكل للأتراك سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات (رضوان الله عليه) .

٤ - وفي بعض ليام الربيع حيث كان الجو صحواً وحاراً خرج الناس في مناسبة رسمية صائغين ، وخرج الإمام الهادي (ع) في ثياب شتوية فلما توسطوا الصحراء خرجت عليهم سحابة ممطرة وفاضت عليهم الوديان ولم يسلم من أذى المطر والطين إلا الإمام فاهتدى إليه وإلى علمه الكثير من الناس .

وهكذا تكيف الإمام (ع) مع الواقع المر لعهد المتوكل حتى استفاد منه إيجابياً لمصلحة الدعوة الإلهية ، وذلك بحكمته الرشيدة وباستقامته وصبره في الله .

ولكن المتوكل عقد العزم على الإيقاع به في أيامه الأخيرة فلم يأن له الله بذلك بل أطيح به في إنقلاب دموي .

فقد جاء في الجزامة ، لمّا حبس المتوكل أبا الحسن (ع) ، ودفعه إلى علي بن كركر قال أبو الحسن ، أنا أكرم على الله من ناقة صالح ﴿ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (مرد/٦٥) ، فلما كان من الغد أطلقه واعتقد إليه ، فلما كان في اليوم الثالث ونب عليه ياغز وتاشى ومعطوف فقتلوه واعتقدوا المنتصر ولده خليفة^{٢٧} .

ولعل المتوكل اعتقل الإمام أكثر من مرة ولكن الله أنقذه من شره ، ولعله كان يخشى كل مرة من ثورة جماهيرية عارمة ضده بالإضافة إلى أنه لم يجد مبرراً للقضاء على الإمام مع أنه كان يعرف أن في أصحابه من يتشيع له .

فمثلاً عندما سعى البطحاني إلى المتوكل وكان من أولاد أبي طالب ولكنه يتشيع للبيت العباسي ، وقال له أن عنده سلاح وأموال ، فتقدم المتوكل إلى سعيد الحاجب وأمره أن يهجم ليلاً عليه ويأخذ ما يجد عنده من الأموال والسلاح ويحمل إليه .

فقال إبراهيم بن محمد ، قال لي سعيد الحاجب ، صرت إلى دار أبي الحسن (ع) بالليل ، ومعني سلم ، فصعدت منه إلى السطح ، ونزلت من الدرجة إلى بعضها في الظلمة ، فلم أدر كيف أصل إلى الدار فناداني أبو الحسن (ع) من الدار ، " يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة " .

فلم ألبث أن اتوني بشمعة ، فنزلت ووجدت عليه جبة من صوف وقلنسوة منها وسجاده على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة فقال لي ، " دونك بالبيوت " .

فدخلتها وفتشتها فلم أجد فيها شيئاً ، ووجدت البدرة مختومة بخاتم أم المتوكل وكيساً مختوماً معها ، فقال أبو الحسن (ع) ، دونك المصلى فرفعت فوجدت سيفاً في جفن غير ملبوس ، فآخذت ذلك وصرت إليه .

فلما نظر إلى خاتم أمه على البدرة بعث إليها ، فخرجت إليه ، فسأله عن البدرة ، فلخبرني بعض خدام الخاصة أنها قالت له ، كنت نذرت في علك إن عوفيت أن أحمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه ، وهذا خاتمك على الكيس ما حركها .

وفتح الكيس الآخر وكان فيه أربع مائة دينار ، فأمر أن يضم إلى البدرة بدرة أخرى وقال لي ، إحمل ذلك إلى أبي الحسن وأردد عليه السيف والكيس بما فيه ، فحملت ذلك إليه واستحييت منه ، وقلت ، يا

(٢٧) المصدر : (ص ٢٠٤)

سيدي عز علي دخول دارك بغير إذنك ، ولكني مأمور به ، فقال لي ، ﴿ سيعلم الذين ظلموا أي مقلب يتقلبون ﴾^{٢٨} .

والواقع أن الشيعة كانوا يحملون إلى الإمام الأموال ولكنهم كانوا قد اتقنوا أساليب الكتمان ، وكانت لديهم عناصرتهم في البلاط العباسي مما يجعلهم عارفين بمواقع الخطر وكيفية اجتنابها ، والحديث التالي يكشف لنا جانباً من ذلك .

فعن المنصوري ، عن عم أبيه قال ، دخلت يوماً على المتوكل وهو يشرب فدعاني إلى الشرب فقلت ، يا سيدي ما شربته قط ، قال ، أنت تشرب مع علي بن محمد ، قال ، فقلت له ، ليس تعرف من في يدك إنما يضرك ولا يضره ولم أعد ذلك عليه .

قال ، فلما كان يوماً من الأيام قال لي الفتح بن خاقان ، قد ذكر الرجل يعني المتوكل خبر مال يجيئه من قم ، وقد أمرني أن أرصده لأخبره له فقل لي من أي طريق يجيء حتى أجتنبه ، فجئت إلى الإمام علي بن محمد فصادفت عنده من احتشمة فتبسم وقال لي ، لا يكون إلا خيراً يا أبا موسى لم تعد الرسالة الأولى ؟ فقلت ، اجلتك يا سيدي ، فقال لي ، المال يجيء الليلة وليس يصلون إليه فبت عندي^{٢٩} .

الإمام بعد عهد المتوكل :

بعد أن قتل المتوكل بدعاء الإمام الهادي وبسبب مؤامرات قواته التركية ، انقضت عن آل أبي طالب والموالين لأهل بيت الرسول سحابة الإرهاب إذ كان المنتصر بن المتوكل يخالف إياه في كل شيء ويظهر الحب والإحترام لآل الرسول وشيعتهم ، حتى أنه عزل والي المدينة الذي نصبه لبوه واسمه صالح بن علي ونصب مكانه علي بن الحسين ، فدخل عليه يردعه فقال ، يا علي إني أوجهك إلى لحمي ودمي ، ومد جلد ساعده وقال ، إلى هذا وجهك فانظر ، كيف تكون للقوم ، وكيف تعاملهم - يعني آل أبي طالب^{٣٠} .

أما الخلفاء العباسيون الذين تعاقبوا بعد المتوكل وابنه المنتصر لم يكونوا في قوة المتوكل ولا في لين المنتصر ، ولم نجد في التاريخ حوادث مهمة تتصل بحياة الإمام الهادي (ع) ، الذي يبدو أنه تفرغ لتربية وقيادة الريانيين من العلماء وإدارة الشؤون العامة لمواليه وشيعته ، كذلك في ملاحقة بعض الغلاة والمشعوذين الذي لارادوا التسلل إلى صفوف الخط الرسالي مثل الذي اغتاله بعض الموالين وربما بعد صدور الفتوى الشرعية بإعدامه^{٣١} .

والكتاب التالي نموذج لمنهجية إدارة الإمام (ع) للشعبة ، قال ، (نسخة الكتاب مع ابن راشد إلى جماعة الموالين الذين هم ببغداد المقيمين بها والمدانين والسود وما يليها ،

" أحمد الله إليك ما أنا عليه من عافية وحسن عاندته ، وأصلي على نبيه وآله أفضل صلواته وأكمل رحمته

(٢٨) المصدر : (ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٢٩) المصدر : (ص ١٢٤ - ١٢٥) .

(٣٠) المصدر : (ص ٢١٠) .

ورافقته ، وإنني اقميت أبا علي بن راشد مقام الحسين بن عبد ربه ومن كان قبله من وكلائي وصار في منزلته عندي ، ووليته ما كان يتولاه غيره من وكلائي قبلكم ، ليقبض حقي وارتضيته لكم ، وقدمته في ذلك وهو أهله وموضعه .

فصبروا رحمكم الله إلى الدفع إليه ذلك والي ، وإن لا تجعلوا له على أنفسكم علة ، فعليكم بالخروج عن ذلك ، والتسرع إلى طاعة الله وتحليل أموالكم والحقن لدمائكم ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَا تَتَوَكَّلْ إِلَّا وَاتَّقُوا اللَّهَ فَمَا كَانَ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ فقد أوجبت في طاعته طاعتي ، والخروج إلى عصيانه الخروج إلى عصياني ، فالزموا الطريق يا جركم الله ويزيدكم من فضله ، فإن الله بما عنده واسع كريم ، متطول على عباده رحيم ، نحن وأنتم في وديعة الله وحفظته وكتبته بخطي والحمد لله كثيراً .

وفي كتاب آخر ، " وأنا أمرك يا أيوب بن نوح أن تقطع الإكثار بينك وبين أبي علي وإن يلزم كل واحد منكما ما وكل به وأمر القيام فيه بأمر ناحيته ، فإنكم إن انتهيتم إلى كل ما أمرتم به استغنيتم بذلك عن معاودتي وأمرك يا أبا علي بمثل ما أمرك به أيوب أن لا تقبل من أحد من أهل بغداد والمدائن شيئاً يحملونه ولا تلي لهم استئذاناً علي ، وممن أتاك بشيء من غير أهل ناحيتك أن يصيره إلى الموكل بناحيته ، وأمرك يا أبا علي بمثل ما أمرت به أيوب وليقبل كل واحد منكما ما أمرته به " ٣١ .

وبالتالي وبعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الإمامة ، وقيادة طليعة الأمة أحضر الإمام الهادي (ع) نجله الإمام الحسن العسكري وأوصى إليه وأشهد خيرة الطائفة بذلك واستعد للرحيل .

وفي الثالث من رجب وفي ملك المعتمد بالله فارقته روحه النقية الدنيا ونقل عن العالم الكبير ابن بابويه أن المعتمد قد دس إليه السم فمضى شهيداً ١

وقال المسعودي ، ولما توفي اجتمع في داره جملة بني هاشم من الطالبيين والعباسيين ، واجتمع خلق كثير من الشيعة ، ثم فتح من صدر الدار باب وخرج خادم أسود ، ثم خرج بعده أبو محمد الحسن العسكري حاسراً مكشوف الرأس ، مشقوق الثياب ، وكان وجهه وجه أبيه لا يخطئ منه شيئاً ، وأضاف ، وكانت الدار كالسوق بالأحاديث ، فلما خرج وجلس أمسك الناس وكنا لا نسمع إلا العطسة والسعلة وقال ، وصاحت سر من رأى يوم موته صيحة واحدة ٣٢ .

ويظهر من المسعودي أن وفاة الإمام كانت في عهد المعتمد الذي استهل بعام ٢٥٦ هـ ، وحيث كان أخوه الموفق الغالب على السلطة وهو الذي حضر جنازة الإمام ، ويقول المسعودي في ذلك ، ووثب إليه (الإمام الحسن العسكري) أبو أحمد الموفق فعانقه ثم قال له ، " مرحباً يا بن العم " ٣٣ .

(٣١) المصدر : (ص ٢٢٣) .

(٣٢) في رحاب أئمة أهل البيت : (ج ٤ ، ص ١٨٣) .

(٣٣) المصدر .

وهكذا يظهر من الشيخ ابن بابويه الذي يرى أن المعتمد قد سم الإمام ، وعلى هذا فلا بد أن تكون وفاته بعد عام ٢٥٦ وليس كما قالوا عام (٢٥٤) ، ويظهر ذلك أيضاً من كشف الغمة إن قال : وفي آخر ملك المعتمد استشهد مسموماً^{٣٤} .

ولعل هناك اشتباكاً عند النسخ بين المهدي والمعتمد ، إذ إن آخر ملك المعتمد يصادف عام ٢٧٩ ، ولعل الذي استشهد في أيام المعتمد هو الإمام الحسن العسكري الذي استشهد عام ٢٦٠ والله العالم .

(٣٤) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ١١٤) .

الفصل الثالث

كراماته ومكرماته

كما اختار ربنا من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، اختار لهذه الأمة اثني عشر إماماً هادياً إليه بإذنه ،
درية بعضها من بعض والله سميع عليم .. لوليس الله لعلم حيث يجعل رسالته ؟ بلى . لذلك كان الإمام
أفضل خلق الله في علم الله ، ولذلك اصطفاه الله لهذا المنصب الإلهي العظيم ١١
وهكذا كان الإمام عبداً لله قد وقر قلبه بالإيمان بالله ومعرفته ، أحب الله ، والتسليم له فاحبه الله ،
ورفعه مقاماً علياً ، وكان عند ربه مرضياً .

وما الكرامات التي ظهرت على يديه إلا آية بينة لمدى حب الله له ، وبالتالي لمدى حبه لله ، وتسليمه
له ورضاه بما قدر له وقضى .

لقد كان للإمام الهادي (ع) ذكراً يبدو أنه كان يكرره ، وقد علمه لشيعته وقال : دعوت الله ان
يستجيب لمن دعا به في مشهدي بعد وفاتي وهذا الذكر هو :

" يا عدتي عند العدد ويا رجائي والمعتمد ويا كهفي والسند ، ويا واحد يا احد ، يا قل هو الله احد ،
واسألك اللهم بحق من خلقتك من خلقتك ، ولم تجعل في خلقك مثلهم أحداً أن تصلي عليهم وتفضل بي
(كيت وكيت) ٣٥ .

هذا الذكر هو عنوان صفات الإمام ، ومفتاح معرفته فهو عبد لخص العبودية لله ، فكان مثلاً لما جاء
في الحديث القدسي :

" عبدي اطعني تكن مثلي - لو مثلي - أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

إنه عبد اطاع الله فطوع الله له الأشياء ، إنه خاف ربه فآخاف الله منه كل شيء .

ولابد أن نجعل كرامات أهل البيت (ع) في هذا الإطار ، وهو الإطار المناسب الذي وضعوا فيه أنفسهم
وعلمهم وكرامتهم على الله ، فمثلاً عندما أظهر الله على يد الإمام الهادي (ع) بعض آياته ولم يتحمله
بعض مواليه ، فدخله وسواس الشيطان فبادره الإمام (ع) برفع اللبس عنه وقال له :

" وأما الذي أخرج في صدرك فإن شاء العالم أنبئك ان الله لم يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من
رسول ، فكل ما كان عند الرسول كان عند العالم وكل ما أطلع عليه الرسول فقد أطلع لأوصيائه عليه ،

(٣٥) المصدر : (ص ١٢٧)

كيلا تظلو أرضه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته ، وجواز عدالته .
يا فتح عسى الشيطان أراد اللبس عليك ، فاهمك في بعض ما اودعتك ، وشكك في بعض ما انبأك ،
حتى أراد إزالته عن طريق الله ، وصراطه المستقيم ؟ فقلت : " متى أيقنت أنهم كذا فهم أرباب ، معان
الله إنهم مخلوقون مريبون ، مطيعون لله داخرون راغبون ، فإذا جأك الشيطان من قبل ما جأك
فاقمعه بما أنبأك به .

فقلت له ، جعلت فداك ! فرجت عني ، وكشفت ما لبس الملعون علي بشرك فقد كان لوقع في خلدي
أنكم أرباب ، قال ، فسجد أبو الحسن (ع) وهو يقول في سجوده ، راغماً لك يا خالقي داخراً خاضعاً ،
قال ، فلم يزل كذلك حتى ذهب ليلي " .

وهكذا كانت الكرامات التي تطوفاً عليك بفضل هذه الصلة الوثيقة بين الإمام وبين ربه سبحانه ، وكذلك
كان الذين اتبعوه مخلصين العبودية لله ، من العلماء الريانيين والمجاهدين الصابرين فإن الله لا يضيع
أجر من عمل صالحاً منهم ، وإن الله ينصرهم في الدنيا كما في الآخرة وقد قال سبحانه ،
﴿ وَكَيِّنْصُرُكُ اللّٰه مِّنْ يَّبْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَرِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج/٤٠)

وقال ،

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق/٣)

وهكذا نجد كيف يدعو الإمام للمؤمنين وكيف يتسجيب الله له دعاءه في حقهم .
لقد كان يونس النقاش واحداً من الموالين الذين حظي بخدمة الإسلام ، فجاء يوماً يرعد فقال ، يا
سيدي اوصيك بأهلي خيراً ، قال ، وما الخبر ؟ قال ، عزمت على الرحيل ، قال ، ولم يا يونس ؟ وهو
(ع) مبتسم ، قال ، موسى بن بغا وجه إلي بفص ليس له قيمة أقبلت انقشه فكسرتة بالثنين وموعده غداً
وهو موسى بن بغا أما ألف سوط أو القتل ، قال ، إمض إلى منزلك إلى غد فما يكون إلا خيراً .
فلما كان من الغد وافى بكرة يرعد فقال ، قد جاء الرسول يلتمس الفص قال ، إمض إليه فما ترى إلا
خيراً ، قال ، وما أقول له يا سيدي ؟ قال ، فتبسم وقال ، إمض إليه واسمع ما يخبرك به ، فلن يكون إلا
خيراً .

قال ، فمضى وعاد يضحك قال ، قال لي يا سيدي ، الجواري اختصمن فيمكنك أن تجعله فصين حتى
تغنيك ؟ فقال سيدنا الإمام (ع) ، اللهم لك الحمد إن جعلتنا ممن يحمدك حقاً (أي شيء) قلت له ؟
قال ، قلت له ، امهلني حتى أتأمل امره كيف عمله ؟ فقال ، أصبت .
وكان محمد بن الفرج واحداً من المجاهدين الصابرين الذين كتب إليه الإمام يحذره من بلاء وشيك
يقول ،

(٣٦) المصدر : (ص ١٧٩) .

(٣٧) المصدر : (ص ١٢٦) .

إن أبا الحسن كتب إليّ إجماع أمرك ، وخذ حذرک ، قال ، فأننا في جمع أمري لست أدري ما الذي أراد فيما كتب به إليّ حتى ورد علي رسول حملني من مصر مقيداً مصفداً بالحديد ، وضرب على كل ما أملك .

فمكنت في السجن ثمانين سنين ثم ورد علي كتاب من أبي الحسن (ع) وأنا في الحبس " ولا تنزل في ناحية الجانب الغربي " فقرأت الكتاب فقلت في نفسي ، يكتب إليّ أبو الحسن (عليه لاسلام) بهذا وأنا في الحبس إن هذا لعجيب ! فما مكنت إلا أياماً يسيرة حتى أفرج عني ، وحلت قيودي ، وبخلي سبيلي .
ولما رجع إلى العراق لم يقف ببغداد لما أمره أبو الحسن (ع) وخرج إلى سر من رأى ٣٨ .

وكان الإمام يهتم بتأديب شيعته مثلما يهتم بقضاء حوائجهم ، ومن ذلك قصة يرويها لنا أبو هاشم الجعفري ويقول ، أصابتني ضيقة شديدة فصرت إلى أبي الحسن علي بن محمد (ع) فاذن لي فلما جلست قال ، يا أبا هاشم أي نعم الله عز وجلّ عليك تريد أن تؤذي شكرها ؟ قال أبو هاشم ، فوجمت فلم أدر ما أقول له .

فابتدأ (ع) فقال ، رزقك الإيمان فحرم بدنك على الدار ، ورزقك العافية فاعانك على الطاعة ، ورزقك القنوع فصانك عن التبذل ، يا أبا هاشم إنما ابتدأتك بهذا لأنني ظننت لك تريد أن تشكو لي من فعل بك هذا ، وقد أمرت لك بمائة دينار فخذها ٣٩ .

ويبدو أن عمله (ع) كان مشروطاً بالتزامهم بفرائض الدين ، وهكذا يحكي لنا أبو محمد الطبري قصته مع خاتم حصل عليه بفضل الإمام ويقول ،

تمنيت أن يكون لي خاتم من عنده (ع) فجاءني نصر الخادم بدرهمين ، فصغت خاتماً فدخلت على قوم يشربون الخمر فتعلقوا بي حتى شربت قدحاً أو قدحين ، فكان الخاتم ضيقاً في أصبعي لا يمكنني إدارته للوضوء ، فاصبحت وقد افتقدته ، فتبت إلى الله ٤٠ .

إن ولاء الإنسان لأهل بيت الرسول إذا كان خالصاً لوجه الله ، يكون وسيلة لهديته وسعادته والقصة التالية تعكس مدى صدق هذه الحقيقة .

حدث أن جماعة من أهل أصفهان منهم أبو العباس أحمد بن النضر وأبو جعفر محمد بن علوية قالوا ، كان بأصفهان رجل يقال له ، عبد الرحمان وكان شيعياً قيل له ، ما السبب الذي أوجب عليك بإمامة علي النقي دون غيره من أهل الزمان ؟ قال ، شاهدت ما أوجب عليّ ، وذلك لأنني كنت رجلاً فقيراً وكان لي لسان وجراة ، فاخرجني أهل أصفهان سنة من السنين مع قوم آخرين إلى باب المتوكل متظلمين .
فكنا بباب المتوكل يوماً إذ خرج الأمر بإحضار علي بن محمد بن الرضا (ع) ، فقلت لبعض من حضر ،

(٣٨) المصدر : (ص ١٤٠) .

(٣٩) المصدر : (ص ١٢٩) .

(٤٠) المصدر : (ص ١٥٥) .

من هذا الرجل الذي قد أمر بإحضاره ؟ فقيل : هذا رجل علوي تقول الرافضة بإمامته ، ثم قال : ويقدر أن المتوكل يحضره للقتل فقلت : لا أبرح من ههنا حتى أنظر إلى هذا الرجل أي رجل هو ؟ قال : فأقبل راكباً على فرس ، وقد قام الناس يمناً الطريق ويسرتها صفيين ينظرون إليه ، فلما رأيته وقع حبه في قلبي فجعلت أدعو في نفسي بأن يدفع الله عنه شر المتوكل ، فأقبل يسير بين الناس وهو ينظر إلى عرف دابته لا ينظر يمناً ولا يسرة ، وأنا دائم الدعاء ، فلما صار إليّ أقبل بوجهه إليّ وقال : استجاب الله دعائك ، وطول عمرك ، وكثر مالك وولدك قال : فارتعدت ووقعت بين اصحابي فسألوني وهم يقولون : ما شئت ؟ فقلت : خير ولم أخبر بذلك .

فانصرفنا بعد ذلك إلى أصفهان ، ففتح الله عليّ وجوهاً من المال ، حتى أنا اليوم أغلق بابي على ما قيمته ألف درهم ، سوى مالي خارج داري ، ورزقت عشرة من الأولاد ، وقد بلغت الآن من عمري نيفاً وسبعين سنة وأنا أقول بإمامة الرجل على الذي علم ما في قلبي ، واستجاب الله دعائه فيّ ولي^{١١} . هكذا استجاب ربنا سبحانه دعاء وليّه الكريم الإمام الهادي في حق واحد من سائر الناس أحبه وأشفق عليه من ظلم السلطان ، وبالرغم من أنه لم يكن من مواليه وشيعته من قبل ، بينما نجد أخاه موسى بن محمد ينوي الإضرار بالدين فيدعو عليه ويستجيب الله دعائه فيه ، ألا يدلُّنا ذلك على أنه (ع) كسائر الأنبياء والأوصياء والصديقين يعملون لمرضاة ربهم والله يؤيدهم لأنهم ينصرون دينه ، وهكذا كل من نصر دين الله نصره الله سبحانه .

تعالوا نستمع قصة موسى هذا الذي عرف عنه بموسى المبرقع لكي نعرف أن أولياء الله المرضيين لا تأخذهم في دينه لومة لائم .

روي عن يعقوب بن ياسر قال : كان المتوكل يقول : ويحكم قد أعيانني أمر ابن الرضا وجهدت أن يشرب معي وينادمني فامتنع ، وجهدت أن آخذ فرصة في هذا المعنى ، فلم أجدها ، فقالوا له : فإن لم تجد من ابن الرضا ما تريده في هذه الحالة فهذا أخوه موسى قصاف عزاف ياكل ويشرب ويتعشق قال : ابعثوا إليه وجيئوا به حتى نموه به على الناس ، ونقول : ابن الرضا .

فكتب إليه وأشخص مكرماً وتلقاه جميع بني هاشم والقواد والناس على أنه إذا وافى أقطعه قطيعة ، وبنى له فيها وحول الخمارين والقيان إليه ، ووصله وبره وجعل له منزلاً سريراً حتى يزوره هو فيه .

فلما وافى موسى تلقاه أبو الحسن في قنطرة وصيف ، وهو موضع يتلقى فيه القادمون فسلم عليه ووقاه حقه ثم قال له : إن هذا الرجل قد أحضرك ليهتكك ويضع منك ، فلا تقر له أنك شربت نبيذاً قط ، فقال له موسى : فإذا كان دعائي لهذا فما حيلتي ؟ قال : فلا تضع من قدرك ولا تفعل ، فإنما أراد هتكك فابى عليه ، فكرر عليه القول والوعظ وهو مقيم على خلافه ، فلما رأى أنه لا يجيب قال : أما إن هذا مجلس لا

(٤١) المصدر : (ص ١٤١ - ١٤٢) .

تجتمع أنت وهو عليه أبدأ .

فأقام موسى ثلاث سنين يبكر كل يوم فيقال ، قد تشاغل اليوم فرح فيروح فقال ، قد سكر فيكر ! فيبكر فيقال ، قد شرب دواء فما زال على هذا ثلاث سنين حتى قتل المتوكل ولم يجتمع معه عليه ^{٤٢} .

علم الإمام :

لقد تحدثنا بإيجاز حول علم الإمام عندما تحدثنا عن حياة الإمام الباقر (ع) وقلنا ان علم الأئمة (ع) بالغيب ليس علماً ذاتياً بل بما أعطاهم الله سبحانه وبالقدر الذي شاعت حكمته ، وبطرق شتى أبرزها توارث العلم عن النبي وعبر أباهم الطاهرين .

وقد جاء في الحديث عن الإمام الهادي (ع) تأكيد على ذلك حيث قال ، إن الله لم يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول الله ، لكل ما كان عند الرسول كان عند العالم وكل ما أطلع عليه الرسول فقد أطلع لوصيائه عليه كيلا تخلو أرضه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته ^{٤٣} .

ومن أبعاد علمه (ع) إلهام الله له حسبما تقتضيه حكمته البالغة ، وقد قال ربنا سبحانه ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّينَ ﴾ (الجبر/ ٧٥)

وهكذا كان الإمام يعلم اللغات المختلفة بإلهام الله وقد استفادت الروايات التي تهدينا إلى علم الأئمة بذلك .

كذلك روي عن علي بن مهزيار ، قال ، ارسلت إلى أبي الحسن (ع) غلامي وكان مقلاً ، فرجع الغلام إلي متعجباً فقلت مالك يا بني ؟ قال ، كيف لا أتعجب ، مازال يكلمني بالقلابية كأنه واحد منا ، فظننت أنه إنما دار بيدهم ^{٤٤} .

وفي ذلك روايات أخرى تدل على علمهم بسانن اللغات الفارسية والتركية وما أشبه . وكان ينبئ الناس بما يحدث في المستقبل بتعليم الله ، كما حدث بالنسبة إلى موت الواثق .

روي عن خيران الأسباطي قال ، قدمت المدينة على أبي الحسن (ع) فقال لي ، ما فعل الواثق ؟ قلت ، هو في عافية ، قال ، وما يفعل جعفر ؟ قلت تركته أسوا الناس حالاً في السجن ، قال ، وما يفعل ابن الزيات ؟ قلت ، الأمر أمره وأنا منذ عشرة أيام خرجت من هناك ، قال ، مات الواثق ، وقد قعد المتوكل جعفر ، وقتل ابن الزيات قلت ، متى ؟ قال ، بعد خروجك بستة أيام وكان كذلك ^{٤٥} . وكذلك إخباره بموت المتوكل حيث دعا عليه وأخبر المقربين إليه أنه يهلك خلال أيام ثلاثة .

(٤٢) المصدر : (ص ١٥٨ - ١٦٠) .

(٤٣) المصدر : (ص ١٧٩) .

(٤٤) المصدر : (ص ١٣٠) .

(٤٥) المصدر : (ص ١٥١) .

وحينما حمله قائد المتوكل إلى سر من رأى أخذ حذره وأخذ لبابين ويرانس احتياطاً لما كان يتوقعه في الطريق من عواصف ثلجية أيام الصيف ولم تكن متوقعة أبداً ، ولكنها وقعت وقتلت طائفة من الجنود المرافقين له وبقي الإمام سالماً بفضل الله ^{٤٦} .

وتجلى علمه في احتجازه على يحيى بن أكنم ، الذي كان المقدم بين علماء عصره عند الخليفة ، فطلب منه إحضار أسئلة صعبة لإحراجة ، وسوف نذكر القصة في فصل آت .

وقد وعظ شاباً كان يبالغ في الضحك وأخبره بقرب وفاته وكان كذلك ،

قالوا ، حدث لبعض أولاد الخليفة وليمة فدعا الناس إليها ودعا أبا الحسن ، فدخلنا فلما راهو انصتوا إجلالاً له ، وجعل شباب في المجلس لا يوقره ، وجعل يلمظ ويضحك ، فاقبل عليه وقال له ، يا هذا تضحك مله فيك وتذهل عن ذكر الله وأنت بعد ثلاثة من أهل القبور ؟ قال ، فقلنا هذا دليل حتى ننظر ما يكون .

قال ، فامسك الفتى وكف عما هو عليه ، وطعمنا وخرجنا ، فلما كان بعد يوم اعتل الفتى ومات في اليوم الثالث من أول النهار ، ودفن في آخره ^{٤٧} .

وفي خبر مشابه حدث به سعيد بن سهل البصري قال ، اجتمعنا أيضاً في وليمة لبعض أهل سر من رأى وأبو الحسن (ع) معنا ، فجعل رجل يعيث ويمزح ، ولا يرى له جلاله فاقبل على جعفر فقال ، أما إنه لا يأكل من هذا الطعام ، وسوف يرد عليه من خبر أهله ما ينغص عليه عيشه ، قال ، فقدمت المائدة قال جعفر ، ليس بعد هذا خبر ، قد بطل قوله ، فوالله لقد غسل الرجل يده وأهوى إلى الطعام فإذا غلامه قد دخل من باب البيت يبكي وقال له ، الحق أمك فقد وقعت من فوق البيت ، وهي بالموت ، قال جعفر فقلت والله لا وقفت بعد هذا وقطعت عليه ^{٤٨} .

وأخر مكرمة نقلها عنه (ع) تلك التي ينقلها الرواة حول تل المخالي حيث سعى المتوكل لإرهاب معارضيه بما يملك من قوة عسكرية ، فامر العسكر وهم تسعون ألف فارس من الأتراك الساكني بسر من رأى أن يملأ كل واحد مخلاة فرسه من الطين الأحمر ، ويجعلوا بعضه على بعض في وسط تربة واسعة هناك ، ففعلوا . فلما صار مثل جبل عظيم واسمه تل المخالي صعد فوقه ، واستدعى أبا الحسن واستصعده ، وقال ، استحضرتك لنظارة خيولي ، وكان قد أمرهم أن يلبسوا التجانيف ويحملوا الأسلحة وقد عرضوا بأحسن زينة ، واتم عدة ، وأعظم هيبة ، وكان غرضه أن يكسر قلب كل من يخرج عليه وكان خوفه من أبي الحسن (ع) أن يأمر أحداً من أهل بيته أن يخرج على الخليفة .

فقال له أبو الحسن (ع) ، وهل أعرض عليك عسكري ؟ قال ، نعم ، فدعا الله سبحانه فإذا بين السماء

(٤٦) انظر المصدر : (ص ١٤٢ - ١٤٤) .

(٤٧) المصدر : (ص ١٨٣) .

(٤٨) المصدر : (ص ١٨٣) .

والأرض من المشرق والمغرب ملائكة مدججون فغشي على الخليفة ، فلما أفاق قال أبو الحسن (ع) ،
نحن لانناقشكم في الدنيا نحن مشغولون بامر الآخرة فلا عليك شيء مما تظن ^{٤٩} .

كرمه وجوده :

وكان (ع) من أهل بيت عادتهم الإحسان وسجيتهم الكرم .

جاء في التاريخ : دخل أبو عمرو عثمان بن سعيد وأحمد بن إسحاق الأشعري وعلي بن جعفر الهمداني
على أبي الحسن العسكري ، فشكى إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه فقال يا (أبا) عمرو - وكان وكيله -
ادفع إليه ثلاثين ألف دينار ، وإلى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار ، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار ، فهذه
معجزة لا يقدر عليها إلا الملوك ، وما سمعنا بمثل هذا العطاء ^{٥٠} .

والقصة التالية تعكس قمة الإيثار عند الإمام (ع) حيث سعى لقضاء حاجة واحدة من مواليه بطريقة
عجيبة دعنا نستمع إلى التاريخ يروي لنا قصته بكل عظمة ،

قال محمد بن طلحة : خرج (ع) يوماً من سر من رأى إلى قرية لهم عرض له ، فجاء رجل من الأعراب
يطلبه فقيل له قد ذهب إلى الموضع الغلاني ، فقصده فلما وصل إليه قال له ما حاجتك ؟ فقال : انا
رجل من أعراب الكوفة المتمسكين بولاية جدك علي بن أبي طالب (ع) قد ركبني دين فادح أثقلني حمله ،
ولم أر من أقصده لقضائه سواك .

فقال له أبو الحسن : طب نفساً وقر عيناً ثم أنزله ، فلما أصبح ذلك اليوم قال له أبو الحسن (ع) : أريد
منك حاجة . الله الله أن تخالفني فيها ، فقال الأعرابي لا لخالك ، فكتب أبو الحسن (ع) ورقة بخطه
معتزلاً فيها أن عليه للأعرابي مالاً عينه فيها يرجع على دينه ، وقال : خذ هذا الخط فإذا وصلت إلى سر
من رأى إحضر إليّ وعنددي جماعة ، فطالبي به وأغلظ القول عليّ في ترك إيقانك إياه الله الله في
مخالفتي فقال : أفعل ، وأخذ الخط .

فلما وصل أبو الحسن إلى سر من رأى ، وحضر عنده جماعة كثيرون من أصحاب الخليفة وغيرهم ،
حضر ذلك الرجل وأخرج الخط وطالبه وقال كما أوصاه ، فالان أبو الحسن (ع) له القول ورفقه ، وجعل
يعتذر ، ووعده بوفائه وطيبه نفسه ، فنقل ذلك إلى الخليفة المتوكل فأمر أن يحمل إلى أبي الحسن (ع)
ثلاثون ألف درهم .

فلما حملت إليه تركها إلى أن جاء الرجل فقال : خذ هذا المال واقض منه دينك ، وأنفق الباقي على
عِيالك وأهلك ، واعتدنا ، فقال له الأعرابي : يا ابن رسول الله والله إن أمني كان يقصر عن ثلث هذا ،
ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وأخذ المال وانصرف ^{٥١} .

(٤٩) المصدر : (ص ١٥٥ - ١٥٦) .

(٥٠) المصدر : (ص ١٧٣) .

(٥١) المصدر : (ص ١٧٥) .

تعالوا نتعلم من ائمتنا الإيثار والكرم ، فليس الكرم مجرد الإنفاق إنما السعي لقضاء الحاجة بكل وسيلة ممكنة وحتى ولو كانت في ذلك غضاضة على النفس .

وتذكرني قصة الإمام هذه بما روي عن أحد الأنبياء العظام الذي جاءه صاحب حاجة ، ومطلب منه مالاً ولم يكن يملك شيئاً ، فقال له خذني ويعني في سوق النخاسين كما لو كنت عبداً لك وخذ الدمن واقض حاجتك به ، وفعل الرجل ولكن الذي اشترى النبي عرفه بالتالي فتركه .. وبهذه الطريقة التي تفيض إيثاراً وكرماً وجوداً علّمنا قادتنا كيف نحسن إلى بعضنا ، وننفق بما نملك ونسعى لامتلاك ما نفقده بهدف قضاء حولج الناس .

كلماته المضيئة

لقد بلغ مذهب أهل البيت (ع) مرحلة النضج في عهد الإمام الهادي ، إلا أنه كان يهدده خطر التطرف الذي تسرب إلى بعض المسلمين عبر الثقافات المستوردة من الشرق ، كما أنه كان بحاجة إلى مزيد من الدفع الإيماني حتى لا تهبط الروح المعنوية عند البعض بسبب دعايات الأعداء وبالأذات الخلفاء العباسيين الذين لم يعرفوا مقام الأئمة فنسبوا إليهم أو إلى شيعتهم الغلو والغنوص ، وهكذا احتياج المذاهب إلى نصوص جامعة تكون بمثابة دروس توجيهية تتضمن أصول العقائد بلا زيادة أو نقصان . وهكذا جاءت زيارة الجامعة المروية عن الإمام الهادي (ع) التي تجعل الأئمة في مقامهم الأسمى بعيداً عن الغنوص والغلو .

دعنا نتدبر في بعض كلماتها المضيئة التي تعتبر أفضل وسيلة لتكريس حبهم في النفس ذلك الحب الذي يعتبر امتداداً لحب المؤمن لربه ، وليس بديلاً عنه .

" السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ومعدن الرحمة ، وخزائن العلم ومنتهى الحلم ، وأصول الكرم وقادة الأمم ، وأولياء النعم وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار ، وساسة العباد وأركان البلاد ، وأبواب الإيمان وأمناء الرحمن ، وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعتره خيرة رب العالمين ورحمة الله وبركاته ، السلام على أئمة الهدى ومصابيح الدجى ، وأعلام التقى وذوي النهى ، وأولي الحجى وكهف الورى ، وورثة الأنبياء والمثل الأعلى ، والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والأولى ورحمة الله وبركاته ، السلام على محال معرفة الله ، ويسكن بركة الله ، ومعادن حكمة الله ، وحفظة سر الله ، وحملة كتاب الله ، وأوصياء نبي الله ، وذرية رسول الله (ص) ورحمة الله وبركاته ، السلام على الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضاة الله ، والمستقرين " والمستوفرين " في أمر الله ، والتامين في محبة الله ، والمخلصين في توحيد الله ، والمظهرين لأمر الله ونهيه ، وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ورحمة الله وبركاته " ٥٢ .

وقال (ع) ينصح بعض مواليه ، " يا فتاح من أطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوق ، ومن اسخط الخالق فليقن أن يحل به الخالق سخط المخلوق ، وأن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه ، وإنى

(٥٢) زيارة الجامعة في كتاب الأنوار اللامعة - في شرح زيارة الجامعة (ص ١٢٣) للسيد عبد الله شير .

يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه ، والأوهام أن تتأله ، والخطرات أن تحدّه ، والأبصار عن الإحاطة به " .

" جل عما يصفه الواصفون ، وتعالى عما يدعته الناعتون ، نأى في قربه ، وقرب في نأيه ، فهو في نأيه قريب ، وفي قربه بعيد ، كيف الكيف فلا يقال كيف ، وأين الأين فلا يقال أين ، إن هو منقطع الكيفية والآينية " ^{٥٣} .

وقال (ع) : " من اتقى الله يُتَّقَ ، ومن أطاع الله يُطعَ ، ومن أطاع الخالق لم يبال سخط المخلوقين ، من امن مكر الله وأليم أخذه تكبر حتى يحل به قضاؤه ونافذ امره ، ومن كان على بيضة من ربه هانت عليه مصائب الدنيا ولو قرض ونشر ، الشاكر أسعد بالشكر منه بالنعمة التي أوجبت الشكر لأن النعم متاع والشكر نعم وعقبى ، إن الله جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى وجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، إن الظالم الحاكم يكاد أن يعفى على ظلمه بظلمه وإن المحق السفية يكاد أن يطفئ نور حقه بسفاهه ، من جمع لك وده ورايه فالجمع له طاعتك ، من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره ، الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون " ^{٥٤} .

" المرء يفسد الصداقة القديمة ويحل العقدة الوثيقة وأقل ما فيه أن يكون فيه المغالبة والمغالبة أسباب القطيعة " .

" العتاب مفتاح التقالي والعتاب خير من الحقد " .

وقال لرجل ذم إليه ولدا له ، " الحقوق تكل من لم يتكل " .

وقال ، السهر الذ للمنام والجوع يزيد في طيب الطعام ، يريد به الحث على قيام الليل وصيام النهار " .

" لذكر مصرعك بين يدي أهلك ، ولا طبيب يمنعك ولا حبيب ينقطع " .

" الغضب على من تملك لؤم " .

" الحكمة لا تنجح في الطباع الفاسدة " .

" خير من الخير فاعله ، وأجمل من الجميل قائله ، وأرجح من العلم حامله ، وشر من الشر جالبه ، وأهول من الهول راكبه " .

" إياك والحسد فإنه يبين فيك ولا يعمل في عدوك " .

" إذا كان زمان العدل فيه لقلب من الجور فحرام أن يظن أحد بأحد سوء حتى يعلم ذلك منه ، وإذا كان زمان الجور لقلب فيه من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه " ^{٥٥} .

(٥٣) سحر الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ١٧٧ - ١٧٨) .

(٥٤) في رحاب أئمة أهل البيت : (ح ٤ ، ص ١٨٠) .

(٥٥) المصدر : (ص ١٨١) .

الامام العسكري (عليه السلام)

قدوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الميامين ١

السلام على الهداة والمجاهدين ..

عندما تمرّ بنا ذكرى شهادة او ميلاد واحد من ائمة الهدى (ع) فنذكر مدى الفجوة بين حياتنا والحياة التي بشر بها الوحي ، وتجلت في سيرة النبي ولعل بيته (عليه وعليهم صلوات الله) .

والمصيبة الأكبر تتمثل في ان الكثير منا لا يعرف من حياة الأئمة إلا النزر اليسير وهل يمكن أنند من اتباعهم ، وانتهاج سيرتهم ؟

واليوم الثامن من ربيع الأول يصادف ذكرى شهادة الإمام الحسن العسكري (ع) النجم الحادي عشر الذي غاب عن أفق الإمامة في مدينة سامراء التي بناها الخلفاء العباسيون ، كمعسكر لجنودهم الأتراك .

بعد ان ضجت من عبثهم عاصمتهم الأولى بغداد !!

وحين اشرع في رسم صورة عن حياة الإمام العسكري اعترف بقلة المصادر المتوافرة لدينا عن سيرة الأئمة الأطهار من بعد الإمام الرضا (ع) ولا ادري ما السبب في ذلك ؟ على انني افترض قلة تحقيق المؤرخين في تلك الحقبة التي تميزت بهدوء نسبي في حقل السياسة . بالرغم من تنامي سائر الحقول لأن اغلب المؤرخين السابقين كانت تستهويهم الأحداث الكبيرة أكثر من الأحداث المؤثرة تاريخياً من غيرها .

الفصل الاول

الميلاد الكريم

في اليوم العاشر من الربيع الثاني من عام ٢٢٢ هجرة وفي مدينة الرسول استقبل بيت الإمام الهادي (ع) ثاني أبنائه من امرأة فاضلة ، صالحة كانت تسمى حديث أو سلسل .

وبقي في المدينة الى عام ٢٤٣ ، حيث انتقل - فيما يبدو - مع والده الكريم الى عاصمة الخلافة العباسية ، سر من رأى ، واستوطن معه في منطقة تُسمى بالعسكر ، ولُقّب على أساسها بالعسكري . كما كان يُلقب أيضاً بـ ، الصامت ، الهادي ، الرفيق ، الزكي ، النقي ، وكانت تعكس هذه الألقاب الخصال الحميدة التي تجلت في حياته ، للناس وكانت كنيته أبا محمد ، والعامّة من الناس ، كانوا يلقبونه هو ولبّاه وجده بابن الرضا (ع) .

وكان للإمام إخ أكرز سناً يُسمّى بـ (محمد) عظيم الشأن جليل المنزلة وكانت انظار أبناء الطائفة ترمقه بصفته الإمام بعد والده ، باعتباره أكبر أولاده ، إلاّ إن الإمام الهادي (ع) ، كان يشير لخواص أصحابه إن صاحب العهد من بعده أنما هو أبو محمد الحسن ، وفعلاً قبض محمد في سن مبكر . ودفن حيث مرقدّه اليوم بين بغداد وسامراء حيث يتوافد عليه الزوار ويدعون الله هناك فيستجيب لهم كرامة له ولأبنائه الطاهرين .

وبوفاة السيد محمد - وهذا هو الاسم الذي يشتهر به عند الناس اليوم - عرف الجميع ان الإمام الحادي عشر سيكون أبا محمد الحسن ..

ولمزيد من التوضيح قال له الإمام الهادي (ع) عند جنازة محمد كلمته المشهورة :
" يا بني أحدث لله شكراً فقد أحدث فيك أمراً " ٣ .

ولعل ، ما أحدث الله له إنما كان نعمة الاتفاق عليه ، وعدم حدوث خلاف حول امامته بعد والده ، بصفته الابن الأكبر بعد وفاة محمد .. وليس الإمامة ذاتها التي هي موهبة إلهية لا ترتبط بالعمر وما أشبه . والدليل على ذلك ان الإمام الهادي كان يشير إلى ذلك من قبل وفاة ابنه أبي جعفر محمد (المعروف بالسيد محمد) كما ان روايات أخرى أشارت إلى ذلك ماثورة من آبائه الكرام .. لنقرأ معاً

(١) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٢٣٦) .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر : (ص ٢٤٠) .

بعض تلك النصوص التي اتفقت على محتواها الطائفة وهي ذات دلالة كافية على امامة الإمام العسكري .
يقول علي بن عمر النوفلي : كنت مع أبي الحسن العسكري (يعني الإمام الهادي (ع)) في داره فمر علينا أبو جعفر فقلت له : هذا صاحبنا ؟ فقال : لا ، صاحبكم الحسن .
ويروي علي بن عمرو العطار ويقول : دخلت على أبي الحسن ، وابنه أبو جعفر في الأحياء ، وأنا لظن أنه الخلف من بعده ، فقلت : جعلت فداك من لخص من ولدك ؟ فقال : لا تخصوا أحداً من ولدي حتى يخرج إليكم أمري قال : فكتبت إليه بعد ، فيمن يكون هذا الأمر ؟ قال : فكتب إلي : الأكبر من ولدي وكان أبو محمد أكبر من جعفر^٥ وهو الذي لقب بعدئذ بالكذاب أو التواب ، لأنه ادعى الإمامة حيناً ، ثم تراجع عن دعواه وتاب .. وكان أبو جعفر ، السيد محمد ، أكبر أولاد الإمام الهادي ، إلا أنه كان قد توفي يومئذ فيما يبدو .

وكتب الإمام الهادي (ع) إلى أبي بكر الفهكي يقول له :
أبو محمد ابني أصح آل محمد غريزة ، وأوثقهم حجة ، وهو الأكبر من ولدي ، وهو الخلف ، وإليه ينتهي عرى الإمامة ولحكامها فما كنت سائلني منه فاسأله عنه وعنده ما تحتاج إليه^٦ .
وقد أشار الإمام الجواد (ع) إلى هذه الحقيقة أيضاً حيث جاء في حديث ماثور عن العقر بن دلف قال : سمعت أبا جعفر ، محمد بن علي الرضا ، يقول إن الإمام بعدي ابني علي ، أمره أمري ، وقوله قولي ، وطاعته طاعتي ، والإمام بعده في ابنه الحسن .
كما إن هناك روايات مستفيضة تناقلتها الثقة من أئمة الحديث عن النبي الأكرم (ص) تبين عدد الأئمة الاثني عشر وأسماءهم وصفاتهم بما لا يدع شكاً عند المؤمنين بأن حجة الله البالغة بعد الإمام الهادي كان سيدنا الإمام الحسن العسكري (ع) .
وهكذا انتقلت مهام الإمامة الإسلامية والخلافة الإلهية إليه بعد وفاة والده الإمام الهادي وله من العمر ثلاث وعشرون عاماً .

وكان في سني امامته بقية أيام المعتز العباسي ثم ملك المهدي ، وخمس سنين من ملك المعتمد^٨ .
صفاته وكراماته :

يصفه بعض معاصريه : أنه (ع) كان ، اسمر ، أعين ، حسن القامة ، جميل الوجه ، جيد البدن ، حديث

(٤) المصدر : (ص ٢٤٢) .

(٥) المصدر : (ص ٢٤٤) .

(٦) المصدر : (ص ٢٤٥) .

(٧) المصدر : (ص ٢٣٩) .

(٨) المصدر : (ص ٢٣٦) .

السن ، له هيبه وجلال^٩ .

وقد وصف جلاله وعظمته شأنه وزير البلاط العباسي في عصر المعتمد احمد بن عبيد الله بن خاقان مع انه كان يحقد على العلويين ويحاول الوقية بهم ، وصفه كما جاء في رواية الكليني فقال ، ما رايت ولا عرفت ، بسر من رأى ، من العلوية مثل الحسن بن علي بن محمد بن الرضا ، ولا سمعت بمثله ، في هديه وسكوته وعفافه ونبله وكرمه عند اهل بيته والسلطان ، وجميع بني هاشم وتقديمهم إياه على ذوي السن منهم والحظ ، وكذلك القواد والوزراء والكتّاب وعوام الناس ، وما سألت عنه احداً من بني هاشم والقواد والكتّاب والقضاة والفقهاء وسائر الناس إلا وجدت عندهم في غاية الاجلال والاعظام ، والمحل الرفيع والقول الجميل والتقديم له على اهل بيته ومشائخه وغيرهم ولم ار له ولياً ولا عدواً إلا ويحسن القول فيه والثناء عليه .

ووصفه الشاكري الذي لازم خدمته فقال ، كان استاذي صالحاً من بين العلويين ، لم ار قط مثله قال ، وكان يركب إلى دار الخلافة بسر من رأى في كل اثنين وخميس قال ، وكان يوم النوبة يحضر من الناس شيء عظيم . ويخص الشارح بالدواب والبغال والحمير والضجة ، فلا يكون لأحد موضع يمشي ولا يدخل بينهم . قال فإذا جاء استاذي سكنت الضجة ، وهذا سهيل الخيل ، ونهاق الحمير . وتفرقت البهائم حتى يصير الطريق واسعاً لا يحتاج ان يتوقى من الدواب تحفه ليزحمها ثم يدخل فيجلس في مرتبته التي جعلت له فإذا اراد الخروج وصاح البوابون ، هاتوا دابة ابي محمد ، سكن صياح الناس وسهيل الخيل ، وتفرقت الدواب ، حتى يركب ويمضي .

واضاف في صفة الإمام ، كان يجلس في المحراب ويسجد فانام وانتبه وانام ، وهو ساجد ، وكان قليل الاكل ، كان يحضره التين والعنب والخوخ وما شاكله فياكل منه الواحدة واثنين ويقول شل هذا يا محمد إلى صبيانك ، فاقول هذا كله ، فيقول ، خذه ، ما رايت قط اسدى منه^{١١} .

وعندما سجنه طاغية بني العباسي ، وقال بعض العباسيين للذي وكل بسجنه (صالح بن وصيف) ، ضيق عليه ولا توسع فقال له صالح ، ما اصنع به ؟ وقد وكلت به رجلين شر من قدرت عليه ، فقد صارا من العبادة والصلاة إلى امر عظيم . ثم امر باحضار الموكلين . فقال لهما ، ويحكم ما شانكما في امر هذا الرجل ، فقالا له ، ما نقول في رجل يصوم نهاره ويقوم ليله كله ، ولا يتكلم ولا يتشاغل بخير العبادة فإذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا . وداخلنا ما لا نملكه من انفسنا^{١٢} .

وقد كان الجميع يعرفون قدره ومدى كرامته على ربه حتى ان المعتمد العباسي حينما بويع بالخلافة في

(٩) سيرة الأئمة الاثنى عشر : (ص ٤٩٠) .

(١٠) المصدر : (ص ٤٨٢) .

(١١) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٢٥٣) .

(١٢) المصدر : (ص ٣٠٩) .

تلك الظروف المضطربة التي لم يكن يابث الخليفة سنة أو بعض سنة جاء إلى الإمام العسكري (ع) وطلب منه الدعاء له بالبقاء عشرين سنة (وكان عنده تلك المدة طويلة جداً بالقياس إلى من سبقه) فقال (ع) مد الله في عمرك فاجيب وتوفي بعد عشرين عاماً^{١٣} .

هذه واحدة من كرامات الإمام (ع) وقد حفلت كتب الحديث بكراماته التي تفيض عن حدود هذا الكتاب المختصر وإنما نسوق بعضها لنزداد معرفة بحقه ، وبأن أئمة الهدى نور واحد من ذرية طيبة بعضها من بعض اصطفاها الله لبلاغ رسالاته وإتمام حجته ، وإكمال نعمه علينا ..

تعالوا نستمع معاً إلى الرواة كيف قصوا علينا تلك الكرامات ،

١ - قال أبو هاشم (أحد الرواة) سال محمد بن صالح أبا محمد عن قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ يَفْعَلُ ﴾ (الرُّوم/٤) فقال (ع) - له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء ، فقلت في نفسي ، هذا قول الله ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الاعراف/٥٤) فأقبل علي فقال ،

هو كما أسررت في نفسك ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قلت ، أشهد أنك حجة الله وابن حجته في خلقه^{١٤} .

٢ - قال أحد الرواة (علي بن زيد) صحبت أبا محمد ، من دار العامة إلى منزله ، فلما صار إلى الدار وارتدت الانصراف قال ، امهل فدخل ثم أذن لي فدخلت فأعطاني مانتني دينار وقال ، اصرفني في ثمن جارية فإن جاريتك فلانة قد ماتت وأنت خرجت من المنزل وعهدي بها انشط بما كانت ، فمضيت فإذا الغلام قال ، ماتت جاريتك فلانة الساعة . قلت ما حالها ؟ قيل شربت ماء فشربت فماتت^{١٥} .

٣ - وروى أبو هشام الجعفري وقال ، شكوت إلى أبي محمد (الإمام العسكري (ع)) ضيق الحبس وشدة القيد ، فكتب إلي ، أنت تصلي الظهر في منزلك ، فاخرجت عن السجن وقت الظهر فصليت في منزلي^{١٦} .

٤ - وروى عن أبي حمزة نصير الخادم قال ، سمعت أبا محمد (ع) غير مرة يكلم غلمانهم وغيرهم بلغاتهم وفيهم روم وترك وصقالبة ، فتعجبت من ذلك وقلت هذا ولد بالمدينة ولم يظهر لأحد حتى قضى أبو الحسن (أي والده الإمام الهادي عليه السلام) ولا رآه أحد فكيف هذا ؟ أحدث بهذا نفسي ، فأقبل علي وقال ، إن الله بين حجته من بين سائر خلقه وأعطاه معرفة كل شيء فهو يعرف اللغات والأنساب

(١٣) والمعتمد استخلف أكثر من ذلك ولعله بعد عدة من حلاته طلب من الإمام ذلك ، المصدر : (ص ٣٠٩) .

(١٤) المصدر : (ص ٢٥٧) .

(١٥) المصدر : (ص ٢٦٤) .

(١٦) المصدر : (ص ٢٦٧) .

والحوادث ، ولولا ذلك لم يكن بين الحجة والمحجوج فرق .

٥ - وسلم الإمام إلى بعض أعوان الظلمة واسمه تحرير فقالت له امراته ، اتق الله ، فانك لا تدري من في منزلك ، وذكرت عبادته وصلاته ، واني اخاف عليك منه ؟ فقال : لأرمينه بين السباع ثم استلذن في ذلك (من طغاته) فلان له ، (وكانت هذه طريقة من طرق الاعداء في ذلك الزمان) .
فرمى به إليها ، ولم يشكوا في أكلها له ، فنظروا إلى الموضع ليعرفوا الحال ، فوجدوه قائماً يصلي ، وهي حوله ، فأمر بإخراجه .

٦ - وروى عن الهمداني قال : كتبت إلى أبي محمد (ع) أسأله التبرك بأن يدعو أن أرزق ولداً من بنت عم لي ، فوقع ، رزقك الله ذكراً فولد لي أربعة .

٧ - وروى العبدى قال : خلفت ابني بالبصرة عليلاً وكتبت إلى أبي محمد أسأله الدعاء لابني فكتب إلي : رحم الله ابنك ان كان مؤمناً قال الراوي : فورد علي كتاب من البصرة ان ابني مات في ذلك اليوم الذي كتب إلي أبو محمد بموته ، وكان ابني شك في الامامة للاختلاف الذي جرى بين الشيعة .

٨ - وروى بعضهم ، ان رجلاً من موالى أبي محمد العسكري (ع) دخل عليه يوماً وكان حكاك الغصوص فقال : يا ابن رسول الله ، ان الخليفة دفع إلي فيروزجاً أكبر ما يكون ، وقال انقش عليه كذا وكذا ، فلما وضعت عليه الحديد صار نصفين وفيه هلاكي ، فادع الله لي ، فقال : لا خوف عليك ان شاء الله . قال : فخرجت إلى بيتي ، فلما كان من الغد دعاني الخليفة وقال لي : ان حظيتين اختصمتا في ذلك الغص ، ولم ترضيا الا ان تجعل ذلك تصفين بينهما فاجعله ..

وانصرفتا واخذت (الغص) وقد صار قطعتين فالخذتهما ورجعت بهما إلى دار الخلافة فرضيتا بذلك ، واحسن الخليفة إلي بسبب ذلك ، فحمدت الله .

٩ - وروى بعضهم ، عن محمد بن علي قال : ضاق بنا الأمر قال لي أبي : امض بنا حتى نصير إلى هذا الرجل - يعني أبا محمد - فانه قد وصف عنه سماعته .

فقلت : تعرفه ؟ فقال لي ما اعرفه ولا رأيت قط ، قال : فقصدناه ، فقال لي - وهو في طريقه - ما احوجنا إلى ان يامر لنا بخمس مائة درهم ، مائتي درهم للكسوة ، ومائتي درهم للدقيق ومائة درهم للنفقة ، (وقال محمد ابنه) وقلت في نفسي ليته امر لي بثلاث مائة درهم ، مائة اشتريت بها حماراً ، ومائة للنفقة ومائة للكسوة ، واخرج إلى الجبل (اطراف قزوين) .

(١٧) المصدر : (ص ٢٦٨) .

(١٨) المصدر : (ص ٢٦٨) .

(١٩) المصدر : (ص ٢٦٩) .

(٢٠) المصدر : (ص ٢٧٤) .

(٢١) المصدر : (ص ٢٧٦) .

فلما وافينا الباب خرج إلينا غلام وقال : يدخل علي بن إبراهيم ، وابنه محمد ، فلما دخلنا عليه وسلمنا قال لأبي : يا علي ما خلفك عنا إلى هذا الوقت ؟ قال : يا سيدي استحييت أن ألقاك على هذه الحال . فلما خرجنا من عنده جاءنا غلامه فنأول أبي ، صرة وقال : هذه خمس مائة ، مائتان للكسوة ، ومائتان للدقيق ، ومائة للنفقة ، وأعطاني صرة . وقال هذه ثلاثة مائة درهم فأجعل مائة في ثمن حمار ، ومائة للكسوة ومائة للنفقة ، ولا تخرج إلى الجبل وصر إلى سورا (أطراف بغداد)^{٢٢} .

١٠ - وجاء في رواية ماثورة عن علي بن الحسن بن سabor أنه قال : قحط الناس بـ (سر من رأى) في زمن الحسن الأخير (الإمام العسكري (ع)) .. فامر الخليفة الحاجب وأهل المملكة أن يخرجوا إلى الاستسقاء فخرجوا ثلاثة أيام متوالية إلى المصلى يدعون فما سقوا .

فخرج (حبر النصارى) الجاطلي في اليوم الرابع ، ومعه النصارى والرهبان ، وكان فيهم راهب ، فلما مدّ يده هطلت السماء بالمطر فشك أكثر الناس وتعجبوا وصبوا إلى دين النصرانية . فانفذ الخليفة إلى الحسن (الإمام العسكري) وكان محبوباً فاستخرجه من محبسته وقال : إلحق أمة جدك فقد هلك ، فقال : اني خارج في الغد ومزيل الشك إن شاء الله تعالى .

فخرج الجاطلي في اليوم الثالث والرهبان معه وخرج الحسن في نفر من أصحابه فلما بصر بالراهب وقد مدّ يده أمر بعض ممالكيه أن يقبض على يده اليمنى ويلاذخذ ما بين أصبعيه ففعل ، وأخذ من بين سبائيته عظماً أسود . فأخذ الحسن بيده ثم قال : استسقى الآن ، فاستسقى وكان السماء متغيماً فتشعشت وطلعت الشمس بيضاء .

فقال الخليفة : ما هذا العظم يا أبا محمد قال (ع) : هذا رجل مرّ بقبر نبي من الأنبياء ، فوقع إلى يده هذا العظم ، وما كشف من عظم نبي إلا وهطلت السماء بالمطر^{٢٣} .

١١ - وروى أبو يوسف الشاعر القصير - شاعر المتوكل - قال : ولد لي غلام وكنت مضيقاً فكتبت رقاعاً إلى جماعة استرفدهم ، فرجعت بالخبرة قال قلت : أجيء فاطوف حول الدار طوفة وصررت إلى الباب فخرج أبو حمزة ومعه صرة سوداء فيها أربع مائة درهم فقال : يقول لك سيدي انفق هذه على المولود بارك الله فيك^{٢٤} .

١٢ - قال أبو هاشم : كتب إليه بعض مواليه يسأله أن يعلمه دعاء فكتب إليه أن ادع بهذا الدعاء " يا اسمع السامعين ، ويا لبصر المبصرين ، ويا عزّ الناظرين ، يا أسرع الحاسبين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا

(٢٢) المصدر .

(٢٣) أي اليوم الخامس أو الثالث ، بعد خروج النصارى ، وهو السادس منذ البدء بالاستسقاء .

(٢٤) المصدر : (ص ٢٧١) .

(٢٥) المصدر : (ص ٢٩٤) .

أحكم الحاكمين ، صل على محمد وآل محمد ، واوسع لي في رزقي ومدّ في عمري . وامنن عليّ برحمتك واجعلني ممن تنتصر به لديّك ولا تستبدل بي غيري " .

قال أبو هاشم ، فقلت في نفسي ، اللهم اجعلني في حزبك وفي زمرك ، فاقبل عليّ أبو محمد فقال ، أنت في حزبه وفي زمرة ، إذا كنت بالله مؤمناً ورسوله مصداً ، ولأوليائه عارفاً ، ولهم تابعاً ، فابشر ثم أبشر .

تلك كانت نبذة منتقاة من كرامات الإمام (ع) .. وهناك الكثير الكثير مما لا تسعه هذه الأوراق . وأكثر منها بكثير مما لم تنقله الرواة ..

وهي الدلالة الشاهدة التي جعلت الناس يؤمنون بأنه الوصي حقاً لرسول الله ، والإمام المعصوم من ذريته . وقد تحدثنا في كتب سبقت عن أئمة الهدى . جانباً من حكمة ظهور هذه الكرامات على أيديهم الطاهرة .

الفصل الثاني

الإمام شاهد عصره

معروف — لدى القارئ الذي تابع معنا قصص أئمة الهدى ، ان دور الأئمة (ع) امتداد لدور الأنبياء . ورسالتهم هي تلك الرسالة الخالدة التي بشرت بها كتب السماء .. من الدعوة إلى الله .. والترغيب في ثوابه والترهيب من شديد عقابه 11 وسوق الناس إلى اتباع رضوانه وتزكية نفوسهم - الرذائل . وتطهيرها بالحب والايمان والخلق الفاضل . ثم تعليمهم شرائع دينهم ..

وكان من ابرز مسؤوليات الأنبياء (ع) " قيادة المجتمع المؤمن بما لهذه المسؤولية من علاقة بتطبيق اصول القيم الإلهية على مفردات الحياة اليومية .. وبتمثيل تلك الأصول ضمن مواقف وفاعليات وأنشطة . حتى يصبح النبي والإمام من بعده ثم الصديقون قدوات وحججاً على الخلق وليقطعوا عنهم حبل المعادير والتبريرات . ويشحذوا وليشحنوا عزائمهم بومضات من الإرادة ، ومن هنا لا ينبغي ان نحدد دور الإمام في الحقل السياسي بالمعنى الضيق للكلمة بالرغم من ان السياسة تمثل تقاطع سائر الحقول أو ليست الثقافة ذات تأثير على السياسة ؟ أو ليس الإقتصاد والتربية والأنظمة الإجتماعية هي العوامل التي تصنع السياسة .

ومن هنا يجب ان نفرق بين معنيين للسياسة .. المعنى الخاص الذي يعني إدارة القوى الإجتماعية ذات التأثير في عالم الحكم .. والتي يقوم بها السلاطين والرؤساء السياسيون .. وهذه هي السياسة المباشرة (المعنى الضيق للكلمة) .

والمعنى العام والذي يعني صنع القوى الفاعلة في المجتمع والتي تؤثر بالتالي في عالم الحكم . وهي السياسة غير المباشرة ، والتي يقوم بها — عادة — المصلحون واصحاب المبادئ التغييرية (وهذه السياسة بالمعنى العام) .

ولا ريب ان الأنبياء واوليائهم كانوا يقودون عملية التغيير ، وثورة الاصلاح بكل ابعادها الثقافية (نشر الدعوة) والتربوية (تزكية النفوس) والإجتماعية (تكوين التجمع الایماني وتنظيم علاقاته) كما كانوا يتعاطون احياناً السياسة بالمعنى الخاص حيث يديرون البلاد بصورة منفردة أو يشتركون في الإدارة مع سائر القوى ..

كذلك قام النبي الأعظم (ص) باصلاح المجتمع في مكة ، وبنى هناك التجمع الایماني ، ونظم علاقاتهم ثم شكّل حكومته منهم في المدينة المنورة .

وخلال سني خلافته الظاهرية تعاطى الإمام علي (ع) السياسة المباشرة . بينما قام بدور اصلاحي قبلئذ عند حكومة الخلفاء من قبله وفي ذات الوقت ساهم معهم بصورة لو باخرى في السياسة المباشرة .
والأئمة الأطهار (ع) كانوا يقومون بالاصلاح بكل ما اوتوا من قدرة ويصنعون قوة سياسية فاعلة في المجتمع . وذلك عبر قيادتهم المباشرة للمؤمنين الاصفياء من شيعتهم .
حتى انتهى الأمر إلى الإمام العسكري (ع) إذ قام خلال سني امامته بإدارة الشيعة الذين أصبح وزنهم السياسي متعاظماً في عهد الإمام الكاظم واعترف بهم كقوة سياسية في العهود التي تلت ولاية العهد من قبل الإمام الرضا (ع) ، وحتى غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه ..
كيف كان يدير الإمام الشيعة ؟ وكيف تكونت عبر الأفاق شبكة الوكلاء الذين كانوا يمثلونه ؟ وكيف كانت تجري المراسلة بينهم وبينه ؟

تلك الحقائق لم يبحثها التاريخ الذي اقتصر - مع الأسف - على وصف الملوك وغزواتهم وحروبهم وحتى ليألي مجونهم . بينما اهتم حياة الشعوب والتيارات التي كانت تجري في المجتمع .
إلا أن الأحاديث التي سجلت الكثير من تفاصيل حياة الأئمة (ع) ، تعتبر مادة موثوقة نستطيع ان نستلهم منها بعض الحقائق .. لأنها تبقى لا تعكس وحدها كل الصورة التي نتشوق إليها لمعرفة حياة الإمام (ع) التي اتسمت بحياة غيره من الأئمة بطابع السرية المطلقة ليس فقط خوفاً من الطغاة وإنما أيضاً كإجراء احتياطي للمستقبل والمتغيرات التي تحكمه وكمنهج في تربية الناس على الحقائق الكبرى التي لا يحتمل قلب أغلب الناس ثقلها ..
وما نذكره فيما يلي بعض تلك الحقائق عن حياة الإمام العسكري التي لابد ان نكملها بما نعرفه من سيرة سائر الأئمة (ع) .

١ - الإمام والفقية الشديدة ، لان الإمام (ع) كان يمهّد للغيبة الكبرى . وكانت من سمات عصر الغيبة ، التقية . فان حياته اتسمت - وربما أكثر من غيره من الأئمة الهداة - بأقصى حالات التكتّم .. والقصص التالية تعكس جانباً من حالات التقية .

١ - يقول داود بن الأسود ، دعاني سيدي ابو محمد فرفع إلي خشبة كانها رجل باب مدورة طويلة ملأه الكف فقال ، صر بهذه الخشبة إلى العمري (احد وكلامه المقربين) فعضيت فلما صرت في بعض الطرق عرض لي سقاء معه بغل فزاحمني البغل على الطريق . فناداني السقاء ضح عن الطريق (أي وسع الطريق) فرفعت الخشبة التي كانت معي فضربت بها البغل ، فانشقت (الخشبة) فنخلت إلى كسرهما فإذا فيها كتب (رسائل) فبادرت سريعاً فرددت الخشبة إلى كمي فجعل السقاء ينادي ويشتمني ، ويشتم صاحبي .
٢٧

(٢٧) بحار الأنوار : (ج ٥٠ ، ص ٢٨٣) .

هكذا كان الإمام يستخدم أسلوب الكتمان وبهذا المستوى الرفيع .. حتى في نقل الرسائل من دار لدار أو بلد قريب إلى بلد قريب آخر .

وفي نهاية القصة نجد عتاباً شديداً تعرض له حامل الرسالة على تصرفه البعيد عن روح العمل السري فقال خادم الإمام ، حكاية عن الإمام قال ، وإذا سمعت لنا شائماً فامض في سبيلك التي أمرت بها ، وإياك ان تجاوب من يشتمنا أو تعرفه من أنت ! فلما ببلد سوء ، ومصر سوء ، وأمض في طريقك ، فان أخبارك واحوالك ترد إلينا فاعلم ذلك ^{٢٨} .

ب - وكان أسلوب التحدث بالإشارة شائعاً في أوساط الشيعة كما يظهر من كثير من قصصهم .. وفي القصة التالية نجد هذا الأسلوب كما نجد مدى تحذير الإمام من مخالفة التقية دعنا نستمع إليها ، يقول محمد بن عبد العزيز البلخي ، أصبحت يوماً في شارع الغنم ، فإذا بابي محمد (ع) قد أقبل من منزله يريد دار العامة ^{٢٩} ، فقلت في نفسي أن صحت إياها الناس هذا حجة الله عليكم فاعرفوه ، يقتلونني؟ فلما دنا مني لوماً بأصبعه السبابة على فيه ان اسكت . ورايته تلك الليلة يقول ، انما هو الكتمان أو القتل فاتق الله على نفسك ^{٣٠} .

ج - ونقرأ عن أسلوب الإشارة أيضاً قصة علي بن محمد بن الحسن قال وافت جماعة من الاهواز من اصحابنا وكنت معهم وخرج السلطان إلى صاحب البصرة (الذي خرج بالبصرة وهو صاحب الزنج المعروف) فخرجنا ننظر إلى أبي محمد (الذي كان يخرج عادة مع السلطان في مثل هذه المناسبات الرسمية تطبيقاً لمبدأ التقية) .

فنظرنا إليه ماضياً وقعدنا بين الحائطين بـ (سر من رأى) ننتظر رجوعه ، فرجع فلما حاذانا وقرب منا وقف ومد يده إلى قلنسوته فاخذها عن راسه وامسكها بيده وأمر يده الأخرى على راسه ، وضحك في وجهه رجل منا .

فقال الرجل مبادراً ، أشهد انك حجة الله وخيرته ، فقلنا يا هذا ما شأنك ؟ قال ، كنت شاكاً فيه فقلت في نفسي ان رجع وأخذ القلنسوة عن راسه قلت بامامته ^{٣١} .

ملاحع عن عصر الإمام :

وتتسارع دورة الحضارة في أي أمة من البشر إلى نهايتها المأساوية ، إلا إذا قام فيها مصلحون ودفعوا سفينة الحياة بعيداً عن عواصف الهلاك ، وأعاصير الفتن .. ولعل الآية القرآنية تشير إلى هذه الحقيقة إن يقول ربنا سبحانه ،

(٢٨) المصدر .

(٢٩) لملها كانت داراً يجلس فيها للعامة .

(٣٠) المصدر : (ص ٢٩٠) .

(٣١) المصدر : (ص ٢٩٤) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود/١١٦)

ثم يقول ،

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود/١١٧)

فما دامت حركة الإصلاح قائمة في الأمة . تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتقاوم باستمرار بؤر الفساد (الطغاة ، والمترفين ، والاشياع الجهلة) فان العذاب يتأخر عنها لانها تصبح قوة تردع الأمة عن الانزلاق إلى الهاوية .

ولقد كانت حضارة الأمة الإسلامية في عصر الإمام العسكري قد تكاثرت فيها عوامل الانهيار ولولا دفاع الإمام وشيعته عن قيم الحق والعدل ، وجهادهم العظيم ضد الترف والبغي والجهل .. ربما كانت الحضارة تتلاشى بصورة كلية .

لقد لوغل الخلفاء وحاشيتهم الفاسدة في الإرهاب والقمع ، وسرقة اموال الأمة . والاسراف في صرفها على لهوهم أو شراء ضماير الشعراء والتافهين ..

أما اربابهم وقمعهم للأحرار والمصلحين ، فقد كانت تلك قاعدة الحكم عندهم . مثلاً عندما انتفضت الشام ضد الحكم العباسي في عهد المتوكل بعث إليهم بجيش قوامه ثلاثة الاف راجل وسبعة الاف فارس . فدخلوا الشام واباحوا دمشق ثلاثة ايام ^{٣٣} .

وقد كان من اساليب الخلفاء يومئذ في الاعدام القاء المتهم امام السباع لتاكله . او القاعهم في تنور ليحترقوا او ضريهم حتى الموت ، لو ما اشبه من الاساليب الوحشية . وقد انعكس الإرهاب حتى أصبح اسلوباً في فض صراعاتهم الداخلية ، حيث نجد الانقلابات ، والإغتيالات أصبحت لغة التفاهم بين أبناء الأسرة الحاكمة ..

فهذا المتوكل الطاغية المرهوب يسلط الله عليه ابنه المنتصر . فيتحالف مع بعض قواد جيشه الأتراك . فيثبون عليه ليلاً ، ويقتلونه هو ووزيره الطاغية فتح بن خاقان ، وهما غارقان في اللهو والفجور حتى يقول الشاعر بحقه ،

هكذا لتكن منايا الكرام	بين نسي ومزهر ومسام
بين كلسين اورشاه جميعا	كلس لذاته وكلس الحمام
لم يذل نفسه رسول المنايا	بصنوف الأوجاع والأسقام ^{٣٣}

وبعد المتوكل لم يدم نظام ولده وقاتله المنتصر حيث قيل ان الأتراك الذين ساعدوه في اغتيال والده خشوا الفتك بهم فندسوا إليه السم عبر طبيبه المعروف بـ (ابن طيغور) الذي رشوه بثلاثين الف دينار

(٣٢) حياة الإمام العسكري : (ص ٢١٧) .

(٣٣) المصدر : (ص ٢٤٢) .

فقصده بريشة مسمومة ، فمات من ساعته .
 وحكم المستعين الذي خلعه الأتراك وباعوا المعتز . وكان قد هرب إلى بغداد وجرد جيشاً لمحاربة
 الأتراك ولكنهم هزموه وجيشه ثم قتلوه ولم يبلغ الثانية والثلاثين من عمره .
 اما المعتز الذي كان شديد العداء لآل البيت (ع) وقد ورث من أبيه المتوكل الحقد ضد الأسرة النبوية
 الشريفة ، فقد أخذ هو الآخر وأقيم في الشمس في يوم قانظ واضطر ليخلع نفسه امام قاضي بغداد ثم
 قتلوه صبراً .

وبعد المعتز نصب الأتراك المهتدي الذي سار على سنة أجداده في الإرهاب والضغط على أهل البيت
 (ع) وشيعتهم حتى قال ، والله لأجلينهم عن جديد الأرض ، ولكن الله نفاه إلى جهنم قبل ذلك ، حيث
 هجم عليه قائد تركي مخمور وضربه على أوداجه ثم أخذ يشرب دمه ، حتى روى منه .
 وبعد المعتز بويع المعتمد الذي لم يشذ في شيء من اللهو والفجور والإرهاب والقمع عن الشجرة
 الملعونة (بني العباس) . لقد كانت تلك صورة خاطفة عن طبيعة النظام القائم على الإرهاب خارجياً
 وداخلياً .

ولقد كانت سيطرة الأتراك الذين جاء بهم العباسيون كمرتزقة لحماية عروشهم ومقاومة غضب العرب من
 جهة واستئثار الفرس من جهة ثانية فتحولوا مع الزمن ، إلى أكبر مشكلة للحكم العباسي ، حيث تسييس
 الجيش التركي المرتزق ولعل بعضهم كان يتأثر بتيارات سياسية وثقافية معينة ويؤيده ضد تيار آخر ويقوم
 — تبعاً لذلك — بانقلاب عسكري ضد الخليفة — ولا نستبعد وجود قيادات مؤيدة للتيار العلوي حسبما
 تشير إلى ذلك بعض الشواهد التاريخية .

وهناك قانون سياسي مشهور كلما توغل النظام في الإرهاب كلما شجع على اللهو والفجور ليلهي الناس
 عن الحياة المرة التي يعيشونها . وهكذا فعل العباسيون منذ باكورة عهدهم حيث تشهد بذلك قصص
 ألف ليلة وليلة ولخيار قصورهم المليئة بأسباب اللهو والدعارة .

وكما تقدم الزمن وزاد إرهاب العباسيين وعزلتهم عن الجماهير كلما ازدادوا انهماكاً في اللذات حتى إذا
 بلغ عهد المتوكل بلغ به الخلاعة واللهو الذروة . فكانت مجالسته معروفة حتى قال المؤرخون انه كان
 يملك خمسة آلاف سرية يقال انه قاربهن جميعاً ، حتى حلف عبد من عبيده انه لو لم يقتل لما عاش
 طويلاً لكثرة جماعه^{٣٥} .

واللهو والترف كان على حساب الجماهير المستضعفة حيث كان النظام يستنزف الناس بزيادة الخراج
 (التي هي بمثابة الضرائب اليوم) وبقمع المعارضين ، وكلما سبب ترف النظام ويندخه افلاس الخزينة
 ابتدع الولاة أسلوباً جديداً في جمع الأموال من الناس ، وفرض الضرائب الفادحة عليهم .

(٣٤) المصدر : (ص ٢٤٦)

(٣٥) المصدر : (ص ٢٣١) .

واستأثروا بأموال الدولة وكانت اموال المحسوبين تقدر بالملايين . وكان يفرق الخليفة على رؤساء جنده ، وأقاربه وإرحامه ، والشعراء المتزلفين إليه الأموال الطائلة التي تعد بالآلاف الألوف . وكانت عطايا المتوكل على بعض جواريه تعد بخمسين ألف . وقد صنعت في عهد المقتدر صورة مجسمة لقرية من فضة وقد كانت كل ما في القرى من اشجار وحيوانات وبيوت ، وقد أنفق عليها أموال طائلة .. ثم هداها الخليفة إلى بعض جواريه لمة .

وقد بنى المتوكل قصراً فخماً أنفق عليه مليون وسبعمائة ألف دينار فدخل عليه بعض حواشييه (يحيى) وقال : أرجو - يا امير المؤمنين - ان يشكر الله لك بناء هذا القصر فيوجب لك به الجنة .

تعجب المتوكل من كلام هذا المتزلف التافه . لأنه كان يعرف انه سرق أموال الشعب وبنى به هذا القصر وانى يرضى الرب بذلك فقال : وكيف ذلك ؟ قال يحيى : لانك شوقت الناس بهذا القصر إلى الجنة ، فيدعوهم ذلك إلى الأعمال الصالحة التي يرجون بها دخول الجنة فسرّ بذلك المتوكل ^{٣٦} .

وكان المتوكل قد أمر ألا يدخل في هذا القصر احد إلا وهو في ثياب من الديباج والوشى وقد احضر اصحاب الملاهي والمعازف ..

والى جانب هذا البذخ كان يعيش عامة الناس اشد البؤس . او ليس قد قال الإمام امير المؤمنين (ع) : " ما رايت نعمة موفورة إلا وبجانبيها حق مضيع " .

وقد عبر الشعراء المعدمون عن تلك الحياة الصعبة التي كان يعيشها عامة الناس ، احسن تعبير فقال بعضهم وهو يصف حالة نفسه (التي تعكس حالة مجتمعه) وكيف ان له صبية أضرب بهم الجوع ..

و صبيبة مثل صغار الذر	سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهم بشـر	بغير قمص و بغير ازـر
تراهم بعد صلاة العصر	وبعضهم ملتصق بصـدري
وبعضهم ملتصق بظهري	وبعضهم منحجر بحجري
إذا بكوا عالتهم بالفجر	حتى إذا لاح عمود الفجر
ولاحت الشمس خرجت اسـري	عنهم وحلّوا بأصول الجـدر
كانتهم خفافس في حجر	هذا جميع قصتي وامـري
فأرحم عيالي وتول امـري	فانت انت تفتني وذخـري
كنيت نفسي كنية في شعـر	انا ابو الفقـر ولم الفقـر ^{٣٧}

وكان المعارضون للسلطة يواجهون حصاراً اقتصادياً شديداً . وقد بلغ الأمر بالسلالة العلوية في عهد

(٣٦) المصدر : (ص ١٩٢) نقلاً عن عيون التواريخ ٦ / ورقة ١٧٠ مصدر في مكتبة الإمام أمير المؤمنين بالنجف الأشرف .

(٣٧) المصدر : (ص ١٩٥) نقلاً عن طبقات ابن المعتز : (ص ٣٧٧) .

المتوكل ان القميص الواحد كان مشتركاً بين العلويات تصلي فيه الواحدة بعد الأخرى .
 وبسبب هذا الوضع الإجتماعي البائس اندلعت ثورات إجتماعية أبرزها - في عصر الإمام العسكري -
 ثورة يحيى بن عمر الطالبي التي اندلعت في الكوفة فاستولى يحيى عليها وأخرج من كان في سجونها ،
 ولكنها قمعت من قبل العسكر العباسي . وقتل قائدها وكان يوماً عظيماً في تاريخ الحركة الرسالية . إن
 كانت تلك المصيبة حلقة في سلسلة المصائب التي تواردت على آل النبي (ص) وقد رثاه بعض الشعراء
 بآيات منها ،

بكى الخيل شجوهها	وبكاه المهند المصقول
وبكاه العراق شرقاً وغرباً	وبكاه الكتاب والتنزيل
والمصلي والبيت والحـ	جر جميعاً عليه عويل
كيف لم تسقط السماء علينا	يوم قالوا أبو الحسين قتيل

ونورة الزنج التي قادها علي بن عبد الرحيم من بني عبد القيس وقد ادعى انه علوي إلا أن المؤرخين
 يشكون في ذلك وقد صدر عن الإمام العسكري بيان ينفي كونه منهم أهل البيت .
 ولا ريب انها من أعظم الثورات في ذلك العصر . حيث اتبعها المحرومون والفقراء ، وقد استنفذت
 طاقات الخلافة العباسية رداً من الزمن .

وقد أثرت هذه الطريقة الشاذة التي اتبعها السلاطين في إدارة البلاد باسم الخلافة الإسلامية أثرت تأثيراً
 سلبياً على الثقافة الدينية للأمة ، فاستغل المتأثرون بالفلسفة اليونانية هذا الوضع ، وحاولوا تشكيك
 الناس بحقائق دينهم وكان بينهم الفيلسوف المعروف " إسحاق الكندي " حيث اخذ في تأليف كتاب
 يظن انه يرد على القرآن الكريم ويبين تناقضاته (على طريقة الفلاسفة في الرد على بعضهم عبر بيان
 تهافت أفكارهم) فلما انتهى الخبر إلى الإمام العسكري طلب بعض تلامذة الكندي وقال له : اما فيكم
 رجل رشيد يردع استنادكم الكندي عما اخذ فيه من تشاغله بالقرآن ؟
 فلما سأل الرجل عن كيفية ذلك قال له الإمام (ع) ، " أتؤدي إليه ما القيه إليك " ؟
 قال : نعم قال ،

" صر إليه ، وتلطّف في مؤانسته ، ومعونته على ما هو بسبيله فإذا وقعت الأنسة فقل : قد حضرني
 مسألة أسالك عنها ، فانك تستدعي ذلك منك ، فقل له .. ان اتاك هذا المتكلم بهذا القرآن ، هل يجوز ان
 يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها انك ذهبت إليها ، فانه سيقول لك انه من الجائز
 لانه رجل يفهم إذا سمع ، فإذا اوجب ذلك فقل له : فما يدريك لعله اراد غير هذا الذي ذهبت انت إليه ،
 فيكون واضحاً لغير معانيه " .

(٣٨) المصدر : (ص ٢٣٤) نقلاً عن مقاتل الطالبين .

(٣٩) المصدر . (ص ٢١٦) عن ابن الأثير : (ح ٥ ، ص ٣١٤ - ٣١٦) .

فذهب الرجل إليه . وصنع مثلما أمره الإمام فوقع الكلام في قلبه موقعه لانه - كما اشار الإمام - كان رجلاً ذكياً فهماً . وعرف ان الإحتمال - مجرد الإحتمال - ييطل الإستدلال - كما يقول الفلاسفة - وان هذا الكلام لو انتشر في تلامذته لم يصدق له أحد في كتابه فيكون قد حكم على نفسه بالسفاهة إذا هو أصر في تأليف الكتاب فارتدع عنه ولكنه سال من الرجل وقال له :

اقسمت عليك الا ما لخبرتني من اين لك هذا ؟ قال الرجل : انه شيء عرض بقلبي فلوردته عليك قال الكندي : كلا ما مثلك من يهتدي إلى هذا ، قال الرجل : امرني به الامام أبو محمد .. فقال الكندي : وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت .. وعمد إلى كتابه فالتفقه .

وهكذا انتقد الإمام دين جده المصطفى (ع) من كتاب شبيهة وضلالة - ولعل - هذا التلميذ كان من شيعة الإمام الذي تسلل إلى جهاز الكندي . إذ من المناسب جداً استخدام هذه الأساليب من قبل القيادات الرسالية لمقاومة التيارات المنحرفة :

وكم من المبادرات الشجاعة قامت بها القيادة الرسالية لصد هجمات الأعداء الفكرية وظلت في طي الكتمان لطبيعتها السرية - مثل هذه المبادرة - او لضياح المصادر والمراجع التاريخية .

ومثل هذه المبادرة قصة الإمام (ع) مع الراهب الدجال الذي كاد يفسد على ضعفاء النفوس دينهم ، والتي سبق الحديث عنها .

(٤٠) المصدر : (ص ٢٢٠ - ٢٢١) نقلاً عن المناقب : (ج ٤ ، ص ٤٢٤) .

الفصل الثالث

شهادته الاليمة

كان يوم الثامن من ربيع الأول ، لعام ٢٦٠ هجرية يوماً كئيباً في مدينة سامراء حيث انتشر نيا استشهاده الإمام العسكري في عنقوان شبابه .

عطلت الأسواق وهرع الناس إلى دار الإمام يبكون وشبه المؤرخون ذلك اليوم الحزين بيوم القيامة ، لماذا ؟ لأن الجماهير المحرومة التي كانت تكتم حبها واحترامها للإمام العظيم خشية بطش النظام .. أطلقت اليوم العنان لعواطفها الجياشة .

أه كم عانى أهل بيت النبوة في سبيل ترسيخ دعائم الدين ونشر قيم التوحيد .
كم سفكت دماهم ، وهتكت حرمتهم ولم ترع حقوقهم وقرباتهم من رسول الله (ص) .
حقاً كم هي عظيمة محنة أولياء الله على مر العصور .. وكم هو عظم مقامهم عند ربهم ولجرحهم !
وهذا الإمام العظيم الذي يرحل عن دنياهم ، ولم يتجاوز عمره السادسة والعشرين . كم كابد من الوان المحن ، منذ عهد المتوكل الطاغوت التافه الذي ناصب أهل بيت الرسالة - العداوة - وهدم قبر أبي عبد الله الحسين (ع) .. وإلى عهد المستعين بالله الذي حبس الإمام عند واحد من أشد رجاله عداوة لآل البيت .. (أوتاش الذي امتدى بالإمام بعد أن رأى منه الكرامات) . وكاد أن يقتل الإمام لولا أن الله لم يمهله فخلع عن السلطة .

وإلى عهد المعتز الذي عمد على سجن الإمام فتضرع الإمام إلى الله حتى هلك .
وحتى عهد المهتدي الذي ظل يضايق الإمام حتى اعتقله وأراد قتله ولكن الإمام لخبر ولحداً من أصحابه واسمه أبو هاشم بما يلي ،

يا أبا هاشم إن هذا الطاغية أراد قتلي في هذه الليلة . وقد بتر الله عمره ، ليس لي ولد وسيرزقني الله ولداً^١ .

وأخيراً في عهد المعتمد الذي لم يزل يؤذيه حتى اعتقله .
بلى عاش الإمام أكثر أيام قيادته في محن وها هو يقضي نحبه . هل مات حتف أنفه . أم دس إليه السم ؟

(٤١) المصادر . (ص ٢٥٤) نقلاً عن مهج الدعوات : (ص ٢٧٤) .

لقد كان السم من أشهر وسائل الإغتيال عند السلاطين في ذلك العهد . وكانت خشيتهم من أمثال الإمام من القيادات الدينية المحبوبة تدفعهم إلى تصفيتهم بمثل هذه الطريقة .

ويزيدنا دلالة على ذلك طريقة تعامل النظام مع الإمام في مرضه حيث أوعز الخليفة إلى خمسة من ثقاته بملازمة الإمام في مرضه ، وجمع له بعض الأطباء ليرافقوه ليل نهار^{٤٢} .

لماذا ؟ يبدو ان هناك سببين لمثل هذا التصرف الغريب ،
لأولاً ، محاولة التنصل عن مسؤولية اغتيال الإمام ، امام الجماهير . وحسب المثل المعروف عن السياسيين ، لقتله وإبكت تحت جنازته .

ثانياً ، كان معروفاً عند كل الناس وبالذات عند الساسة ، ان ائمة اهل البيت يحظون باحترام اوسع الجماهير وان الشيعة يعتقدون بان الإمامة تنتقل فيهم كابراً عن كابر . وها هو الإمام الحادي عشر يكاد يرسل عنهم إذا لابد ان يكون هناك وصي له فمن هو هذا الوصي ؟ كان الخلفاء العباسيون يحاولون دائماً معرفة الوصي عند شهادة واحد من الأئمة . وكان الأئمة يخفون أوصيائهم عند الخوف عليهم حتى يزول الخطر .

ومن جهة أخرى كانت لحاديث المهدي المنتظر سلام الله عليه قد ملأت الخافقين وكان العلماء يعرفون انه الوصي الثاني عشر . ومن غير المعقول الا يعرف سلاطين بني العباس شيئاً من تلك الأحاديث . لذلك تراهم يبحثون عن المنتظر بكل وسيلة لعلمهم يقدرهم على اطفاء نوره الإلهي .. ولكن هيهات . من هنا اتخذ المعتمد العباسي تدابير استثنائية عندما نقل حال الإمام واشرف على الرحيل .
اما بعد وفاته فقد أمر بتفتيش داره ، ومراقبة جواريه ، ولم يكن يعرف ان الله بالغ امره وان الإمام المنتظر قد ولد قبل أكثر من خمس سنوات وأنه قد أخفي عن عيون النظام . وان صفوة الشيعة قد بايعوه .

وهكذا رحل الإمام بسم المعتمد^{٤٣} وبعد وفاته وغسله وتكفينه صلى عليه من طرف السلطة أبو عيسى ابن المتوكل نيابة عن الخليفة وبعد الفراغ كشف وجه الإمام وعرض على الهاشميين والعلويين - بالذات - وكبار المسؤولين ، والقضاة والأطباء وقال هذا الحسن بن (علي) بن محمد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه ، وحضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان ، ومن القضاة فلان وفلان ، ومن المتطبيين فلان وفلان ، ثم غطى وجهه الشريف^{٤٤} .
وهذا الاجراء جاء لنفي تورط السلطنت في قتل الإمام . مما يدل على انها كانت متهمة من قبال الناس بذلك .

(٤٢) المصدر : (ص ٢٦٧) عن الإرشاد : (ص ٣٨٣) .

(٤٣) المصدر : (ص ٢٦٧) عن الارشاد : (ص ٣٨٣) .

(٤٤) المصدر : (ص ٢٦٨) نقلاً عن الإرشاد : (ص ٣٨٣) .

هكذا رحل الإمام . وخلف وراءه مسيرة وضاعة ليهتدي بنورها الأجيال .. ودفن في مقامه الشريف في مدينة سامراء عند قبر والده حيث لا يزال المسلمون يتوافدون للسلام عليه .

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم بيعت حياً ..

وسلام الله على شيعته واتباعه إلى يوم القيامة .

الوصية الأخيرة :

كانت شمس الإمامة تميل إلى المغيب - حيث قدر الله ان تشع هذه الشمس من وراء حجاب الغيبة الصغرى ثم الكبرى . لذلك قام الإمام الحسن العسكري سلام الله عليه بدورين هامين ، أولاً ، التأكيد على بصيرة الغيبة ولخذ البيعة لولي الله الأعظم الإمام المنتظر عجل الله فرجه . ثانياً ، ترسيخ قواعد المرجعية الدينية .

ألف : البيعة للمنتظر :

تظافرت الأحاديث حول الإمام الحجة المنتظر سلام الله عليه ، التي صدرت عن النبي وعن أئمة الهدى جميعاً .. الا ان تأكيد الإمام العسكري (ع) على هذا الأمر كان ذا اثر ابلغ لأنه قد حدد شخص الإمام لخواص اصحابه وهناك روايات عديدة في ذلك نكتفي بذكر واحدة منها .

روى الثقة احمد بن إسحاق بن سعيد الأشعري ، قال ، دخلت على ابي محمد الحسن بن علي (ع) ، وأنا اريد ان أسأله عن الخلف من بعده ، فقال لي مبتدئاً ،

" يا احمد بن إسحاق إن الله تبارك وتعالى لم يخل الأرض منذ خلق آدم ، ولا يخلها إلى ان تقوم الساعة من حجة الله على خلقه ، به يرفع البلاء عن اهل الأرض ، وبه ينزل الغيث ، وبه يخرج بركات الأرض " .

فقلت له ، يا بن رسول الله ! فمن الإمام والخليفة بعدك ؟

فنهض مسرعاً فدخل البيت ، ثم خرج وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من ابناء ثلاث سنين فقال ،

" يا احمد لولا كرامتك على الله - عز وجل - وعلى حجه ما عرضت عليك ابني هذا إنه سمي باسم رسول الله وكنتيته الذي بملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، يا احمد مثله في هذه الأمة مثل الخضر ، ومثل ذي القرنين ، والله ليغيبن غيبة لا ينجو من الهلكة فيها إلا من ثبتته الله على القول بإمامته ، وروقه فيها للدعاء بتعجيل فرجه " ¹⁰ .

باء : المرجعية الرشيدة :

وكان لابد لهذه الإمامة التي كانت امتداد للرسالة الإلهية ، كيان إجتماعي على الأرض وهم الشيعة المخلصون ، وثان لابد لهؤلاء من نظام إجتماعي راسخ قادر على مواجهة التحديات ، وقد تمثل في

(٤٥) المصدر (ص ٢٦٣) .

القيادة المرجعية ، التي تعني تمحور الطائفة حول العلماء بالله الأمانة على حاله وحرامه . لذلك ترسخ في عهد الإمام العسكري نظام المرجعية حيث تعاظم دور علماء الشيعة باعتبارهم وكلاء ونواب وسفراء عن الإمام المعصوم (ع) وانتشرت روايات عن الإمام العسكري في دور علماء الدين منها تلك الرواية المعروفة التي نقلت عن الإمام العسكري عن جده الإمام الصادق (ع) . والتي جاء فيها ، " من كان من الفقهاء صانداً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام ان يقلدوه " . وهكذا طفق العلماء المهتدون بضياء اهل البيت (ع) بالتصدي لشؤون الطائفة في عصر الإمام (ع) . وكانوا يرأسلون الإمام فيما تاتيهم من مسائل غامضة فيأتيهم الجواب المختوم بتوقيعه مما سمي عندهم بالتوقيع ، وقد اشتهرت جملة منها عن الإمام العسكري (ع) . وفيما يلي نذكر أسماء طائفة من اصحاب الإمام والرواة عنه والذين كان بعضهم في مركز قيادة الطائفة حسبما يتبين من التاريخ .

١ - إبراهيم بن أبي حفص الذي قال عنه النجاشي ، انه شيخ من اصحاب ابي محمد العسكري (ع) وازاد في تعريفه ، ثقة وجه له كتاب الرد على الغالية وابي الخطاب ^{٤٦} .. ويبدو من كلمته انه وجه وانه كان شخصية معروفة عند ابناء الطائفة لو عند الناس جميعاً .

٢ - احمد بن إدريس القمي قال عنه النجاشي ، كان ثقة فقيهاً في اصحابنا كثير الحديث صحيح الرواية ^{٤٧} ..

٣ - احمد بن إسحاق الأشعري - كان وافد القميين وكان من خواص الإمام العسكري (ع) . وقد روى كتباً عن اهل البيت (ع) وقال عنه الشيخ ، انه ممن رأى الإمام صاحب الزمان (ع) ^{٤٨} .

٤ - الحسن بن شكيب المروزي كان عالماً متكلماً ومصنفاً للكتب وكان يسكن سمرقند وقد عدّه الشيخ الطوسي في اصحاب الإمام العسكري (ع) ^{٤٩} .

٥ - الحسن بن موسى الخشاب ، الذي يقول عنه النجاشي ، انه من وجوه اصحابنا ، مشهور ، كثير العلم والحديث ، له مصنفات منها ، كتاب " الرد على الواقة " وكتاب " النوادر " ^{٥٠} .

٦ - حفص بن عمرو العمري الذي عدّه الشيخ من اصحاب الإمام ابي محمد (ع) وقد خرج من الإمام بشأنه توقيع جاء فيه ،

" فلا تخرجن من البلد حتى تلقى العمري ، رضي الله عنه برضائي عنه فتسلم عليه ، وتعرفه وعرفك ،

(٤٦) حياة الإمام الحسن العسكري لمؤلفه الأستاذ باقر شريف القرشي : (ص ١٣١) .

(٤٧) المصدر : (ص ١٣٥) .

(٤٨) المصدر : (ص ١٣٦) .

(٤٩) المصدر : (ص ١٤١) .

(٥٠) المصدر : (ص ١٤٢) .

فانه الطاهر الأمين ، العفيف القريب منا وإلينا ، فكل ما يحمله إلينا من شيء من النواحي فإليه يصير آخر أمره ، ليوصل ذلك إلينا " ^{٥١} .

وهذا التوقيع يدل على منهجية الإمام (ع) في تكريس القيادات الصالحة في الطائفة ، لتكون المرجع ، لشؤونها في عصرهم ، وليصير سنة حسنة في العصور التالية .

٧ - حمدان بن سليمان ، أبو سعيد النيشابوري ، عده الشيخ من أصحاب الإمام العسكري وكان ثقة من وجوه الشيعة ^{٥٢} .

٨ - سعد بن عبد الله القمي حيث عاصر الإمام العسكري (ع) بالرغم من ان الشيخ الطوسي قال عنه ، لم أعلم أنه قد روى عنه ، وقال النجاشي عنه ، انه شيخ هذه الطائفة وفقهها وحجتها وقد صنف كتباً كثيرة ، وسافر في طلب الحديث . وسمعه من ائمة من مختلف المذاهب ^{٥٣} .

٩ - السيد عبد العظيم الحسيني الذي ينتهي نسبه إلى الإمام المجتبي (ع) . وكان عالماً فقيهاً زاهداً ، معارضاً للسلطات الطاغية ، وكان الأئمة يأمرون شيعتهم بالرجوع إليه . فقد روى أبو حماد الرازي ، وقال ، دخلت على علي بن محمد (الإمام الهادي عليه السلام) بسر من رأى ، فسأله عن أشياء من الحلال والحرام فلجابني فيها ، ولما ودعته قال لي ،

" يا حماد إذا اشكل عليك شيء من أمر دينك بناحيك ، فسل عنه عبد العظيم بن عبد الله الحسيني واقراه مني السلام " ^{٥٤} .

وقد اشتهر بين الشيعة في منطقة (الري) بالرغم من اختفائه وسرية أعماله حتى إذا مات ، دفن في بستان هناك ، وأصبح قبره مزاراً للطائفة حتى اليوم .

١٠ - عبد الله بن جعفر الحميري الذي كان شيخ القميين ووجههم وقد ألف كتباً كثيرة في حقول شتى وقد قدم الكوفة زهاء عام التسعين بعد المائتين فسمع أهلها منه حديثاً كثيراً ^{٥٥} .

١١ - علي بن جعفر الهماني الذي كان - حسب البرقي - فاضلاً مرضياً من وكلاء الإمامين الهادي والعسكري (ع) ، وقد روى الكشي فيه حديثاً طريفاً . جاء فيه ، انه حبس في عهد المتوكل العباسي لصلته بالإمام الهادي فلما طال حبسه وعد أحد أمراء العباسيين (واسمه عبد الله بن خاقان) بثلاثة آلاف دينار ليكلم المتوكل فيه فلما كلمه قال ، يا عبد الله لو شككت فيك لقلت انك رافضي وأضاف ، هذا وكيل فلان (يعني الإمام الهادي عليه السلام) وأنا عازم على قتله فلما بلغ الهماني هذا الخبر كتب إلى أبي

(٥١) المصدر : (ص ١٤٤) .

(٥٢) المصدر .

(٥٣) المصدر : (ص ١٤٨) .

(٥٤) المصدر : (ص ١٥٠) .

(٥٥) المصدر : (ص ١٥١) .

الحسن (ع) " يا سيدي الله الله فيَّ فقد - والله - خفت ان ارتاب ، فوقع في رقعة ،

اما إذا بلغ بك الأمر ما أرى فساقصد الله فيك .

وكان هذا في ليلة الجمعة فاصبح المتوكل محموماً فازدادت عليه حتى صرخ عليه يوم الاثنين . فامر بتخلية كل محبوس عرض عليه اسمه حتى ذكر له علي بن جعفر (الهماني) فقال لعبد الله (بن الخاقان) لِمَ لَمْ تعرض علي امره ؟ فقال : لا اعود إلى ذكره ابداً قال : خل سبيله الساعة وسله ان يجعلني في حل فخلّى سبيله وصار إلى مكة بأمر أبي الحسن (ع) فجاور بها ^{٥٦} .

وقد وقع خلاف بين علي بن جعفر وبين شخص كان يناقسه في زعامة الشيعة اسمه فارس . فكتب بعضهم إلى الإمام العسكري يسأله عنهما فجاء الكتاب بتوثيق علي بن جعفر وكان ضمن الكتاب :

قد عظم الله قدر علي بن جعفر . متعنا الله تعالى به واضاف ، فأقصد علي بن جعفر بحوائجك . واخشوا فارساً وامتنعوا في ادخاله في شيء من أموركم ^{٥٧} .

ومن هذا التوقيع يتبين كيف كان الأئمة (ع) يديرون شؤون الطائفة من خلال وكلائهم ، ويكرسون المرجعية الدينية في اوساطهم .

١٢ - محمد بن الحسن الصغار الذي كان وجهاً من وجوه الشيعة في قم وكان ثقة عظيم القدر وقد ألف عشرات الكتب حفظ فيها لحاديث اهل البيت (ع) في مختلف الحقول . وقد كانت له مراسلات مع الإمام العسكري (ع) ^{٥٨} .

١٣ - الفضل بن شاذان الذي كان من اكثر الشيعة انتاجاً ، وقالوا ان بعض مؤلفاته قد حظيت برضا الإمام العسكري (ع) وانه كتب فيه : هذا صحيح ينبغي ان يعمل به . وقالوا : ان الإمام (ع) نظر في بعض مؤلفاته وقال :

" اغبط اهل خراسان بمكان الفضل بن شاذان وكونه بين اظهرهم " ^{٥٩} .

١٤ - عثمان بن سعيد العمري الذي كان من اعمدة النظام المرجعي في عهد الإمام العسكري (ع) وقد اثار الأئمة بمقامه . وكان عظيم الشأن عند الطائفة وقد كان الإمام الهادي (ع) يرجع الطائفة إليه . حسبما جاء في رواية احمد بن إسحاق القمي قال :

دخلت على أبي الحسن علي بن محمد صلوات الله عليه في يوم من الأيام فقلت يا سيدي اين اغيب واشهد ، ولا يتھيا لي للوصول إليك إذا شهدت في كل وقت فقول من نقبل ، وامر من نمتل ؟ فقال لي صلوات الله عليه :

(٥٦) المصدر : (ص ١٥٦) .

(٥٧) المصدر : (ص ١٥٧) .

(٥٨) المصدر : (ص ١٦٥) .

(٥٩) المصدر : (ص ١٦١) .

" هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ما قاله لكم فعني يقوله . وما أداه إليكم فعني يؤديه " .
فلما مضى أبو الحسن (ع) ، وصلت إلى أبي محمد ابنه الحسن العسكري (ع) ذات يوم ، فقلت مثل
قولي لأبيه ، فقال لي ،
" هذا أبو عمرو الثقة الأمين ، ثقة الماضي وثقتي في المحيا والممات ، فما قاله لكم فعني يقوله ن وما
أدى إليكم فعني يؤديه " ^{٦٠} .

وبعد الإمام العسكري تولى عثمان بن سعيد مقام النيايه عن سيدنا ومولانا الإمام المهدي عجل الله
تعالى فرجه مده خمسين سنة حيث كان جسراً بين الطائفة وبين الإمام الغائب (ع) .
١٥ - علي بن بلال الذي كان من وجوه الشيعة في الواسط (فيما يبدو) وقد اعتمدته الأئمة (ع) في
رسائلهم . وقد جاء في بعض الرسائل الواردة إليه من الإمام العسكري (ع) : " وقد أعلم أنك شيخ
ناحيته ، فاحببت أفرادك وأكرامك بالكتاب بذلك " .

وجاء في رسالة منه موجهة إلى إسحاق (أحد أصحابه) ،
" يا إسحاق اقرأ كتابنا على البلالي رضي الله عنه فإنه ثقة المأمون العارف بما يجب عليه " ^{٦١} .
١٦ - العمري ، نجل عثمان بن سعيد الذي كان - كما والده - من أعمدة النظام المرجعي الذي
أقامه أئمة الهدى (ع) في الطائفة حيث جعلوه معتمداً من قبلهم في شؤون الشيعة وقد سأل أحمد بن
إسحاق الإمام العسكري ، وقال : من أعامل ، لو عمن أخذ ؟ وقول من أقبل ؟ فقال (ع) :
" العمري - عثمان بن سعيد ، وابنه - يعني محمد - ثقتان فما أدبا إليك فعني يؤديان " ^{٦٢} .

وورد التوقيع من لدن الإمام الحجة المنتظر (ع) عند وفاة والده جاء فيه :
" اجزل الله لك الثواب ، واحسن إليك العزاء ، رزيت ورزينا ، ولوحشك فراقه ولوحشنا ، فسرّه الله في
منقلبه ، كان من كمال سعادته ، ان رزقه الله ولداً مطلقاً يخلفه من بعده ويقوم مقامه بامرّه ويترحم
عليه " ^{٦٣} .

هؤلاء هم بعض وكلاء الإمام ونوابه والذين بهم ترسخت أعمدة النظام المرجعي في الأمة . ذلك النظام
الذي يعتبر منهجاً في التحرك السياسي ، وسبباً قوياً للدعوة إلى الله ، وتنظيماً رسالياً للمجتمع .
كما انه يصلح ان يكون نظاماً سياسياً للأمة إذا عاد الحكم إلى أهله .

وينبعث النظام المرجعي ، كما نظام الإمامة من صميم الدين ، إذ انه تنظيم بعيد عن الطائفية
والتعشائرية . كما هو بعيد عن الروح الحزبية والفئوية . ولا تزال الطائفة الشيعية تعيش في ظل هذا

(٦٠) المصدر : (ص ١٥٣) .

(٦١) المصدر : (ص ١٥٥) .

(٦٢) المصدر : (ص ١٦٨) .

(٦٣) المصدر .

التنظيم الرسالي منذ عهد الأئمة الأطهار (ع) وتتمتع بكفائته العالية ، بالرغم من ان تخلف الأمة قد سبب قدراً من التوقف فيه ، وعدم التسارع إلى التطور في بعض جوانبه . . .
ولان عهد الإمام العسكري قد تميز بتكريس هذه القيادة للطائفة ، ولان هذه القيادة لا تزال حتى اليوم تتصدى لشؤون الطائفة الدنيوية والأخروية ، فمن المناسب ان نتحدث قليلاً عن واقع المرجعية وابعادها بكلمات ،

أولاً ، لأن المرجعية نظام إلهي وتكمن قوة تنفيذ اوامرها من فطرة الإنسان ، ووجدانه وروح التقوى في ذاته . فان هذا النظام يكون متسجماً مع سائر الأحكام الشرعية التي تنفذ هي الأخرى بروح التقوى .
ان السياسة في الإسلام — كما المجتمع والشؤون الشخصية — محراب عبادة . ومعراج المؤمن إلى الله . فمن لجل الله بطيع المؤمن ولي امره وفي سبيل الله ينبعث إلى القتال ضد اعدائه وابتغاء لمرضاة الله ينضوي تحت راية الحركة الدينية وتنفيذ اوامرها . واتباعاً لأمر الله تراه يخالف الطاغوت . . ويتمرد ضد سلطة ظالمة ، ويبني كياناً سياسياً بديلاً . .

ومن هنا فان كلمة التقوى وليست حماية الجاهلية وعصبيتها الضيقة ، تضحى محور المجتمع الإسلامي . وقاعدة انطلاقه ، وأصرة الشد بين أركانه . . هكذا نقرا في كتاب ربنا سبحانه ،
﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (الفتح/٢٦)
وفرق كبير بين حماية الجاهلية وكلمة التقوى — إن الحماية التي يسميها ابن خلدون العصبية ويجعلها سبباً للملك ومحوراً للمدينة — انها ، تنبعث من قيم مادية ، وتبعث إلى الصراع والتناحر ، ولا تتناسب والأحكام الإلهية ذات القيم الإنسانية النقية عن شوائب الشرك والحقد والتحزب .
من هنا قال ربنا سبحانه ،

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء/٥٩)

وهكذا تصبح طاعة أولي الأمر ، امتداداً لطاعة الله والرسول ، بل تصبح تجسداً لهما ، ووسيلة إليهما .
فان يمكن طاعة الله ورسوله من دون طاعة تلك القيادة التي أمر الله بها ،
ثانياً ، لان اساس بناء المرجعية ، التقوى ، لا الحماية ، فإن هذا الكيان يتجاوز الأرض والدم واللغة ، وسائر الفوارق المادية التي تفصل بين الناس ، وينشأ المجتمع الإسلامي النقي ، الذي يقوم على اساس طاعة الإمام الحق (ولي امر المسلمين) ويكون جسراً بين سائر الأمم . ووسيلة لتقاربهم ، ومحوراً لتجميعهم ، وبالتالي يصبح المؤمنون بالشريعة ، فوق حواجز العرق والإقليم والمصلحة . شاهدين على الناس بالحق . وقوامين بينهم بالقسط ، كما قال ربنا سبحانه ،

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (القرة/١٤٣)

ان الحضيرة القدسية التي تدعونا إليها رسالات السماء ، تجمع الأسود والأبيض ، العقيق والعنبر ، الحرب

والعجم ، البعيد والقريب ، تجمعهم تحت ظل التوحيد ، وفي منزل صدق ، وعلى مائدة الرحمن ، وما المرجعية الرشيدة إلا إطاراً لهذا الجمع المبارك والوقد الميمون ؛

وإذا كانت رسالات الله عبر العصور تبشر البشر بمملكة الله في الأرض ، حيث يسود الحب والعدل والاحسان . فإن التجمع المرجعي الحق صورة لتلك المملكة الموعودة . ترعاها عناية الرب سبحانه .

ثالثاً ، ولأن محور التجمع في ظل المرجعية الرشيدة هو التقوى التي قال عنها ربنا سبحانه ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات/١٣)

لذلك ، فإن الكفاءة والامامة هما الوسيلة الوحيدة لصعود الأفراد . لا الغنى والتسبب والعرق والمحسوبيات ..

وهكذا تصبح الكفاءة والأمانة قصب السبق الذي يتنافس عليهما أبناء المجتمع فتعلو بذلك هممهم وتطلعاتهم ويخلق المجتمع عالياً في سماء المجد والعظمة . لأن الكفاءة والأمانة هما كجناحي طائر لأي مجتمع متقدم يخفقان بالسعادة والفلاح .

وكلمة أخيرة :

إن الله سبحانه قد اتم حجه البالغة على عباده بهذه المرجعية الرشيدة ولكنه لم يكرهم عليها ، كما لم يكرهم على سائر المبادئ والأحكام . والناس يسعدون بقدر قريهم من هذا النموذج الأسمى . أما إذا ابتعدوا عنه فقد تمت الحجة عليهم ؛

الفصل الرابع

كلمات من نور

كلمات النبي وأهل بيته تجليات تنعكس من انفسهم الزاكية بعد ان تشرق عليها شمس القرآن الكريم . فهي نور من نور الله ، وهدى من هدى الله . تطمئن إليه النفوس المضطربة .. وتستروح على شواطئها الأمنة ، سفن المساكين بعد رحلة مضنية في امواج الشك والتردد ، وفيما يلي نقرأ معاً كلمات النور التي خلدها التاريخ من اقوال الإمام (ع) .

١ - في وصيته الرشيدة إلى شيعته يحدد الإمام العسكري (ع) المنهج الذي ينبغي عليهم ان يتبعوه في تلك الظروف الصعبة .

يقول الإمام ،

" لوصيكم بتقوى الله ، والورع في دينكم ، والاجتهاد لله وصدق الحديث ، واداء الأمانة إلى من ائتمنكم من بَرٍّ أو فاجر ، وطول السجود ، وحسن الجوار ، فبهذا جاء محمد (ص) صلّوا في عشائهم واشهدوا جنانهم وعودوا مرضاهم ^{٦٤} وأدّوا حقوقهم فان الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه وأدّى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل : هذا شيعي فيسرني ذلك . اتقوا الله وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً ، جروا إلينا كل مودة ، وادفعوا عنا كل قبيح ، فإنه ما قيل من حسن فنحن أهله ، وما قيل من سوء فما نحن كذلك . لذا حق في كتاب الله ، وقرابة من رسول الله ، وتطهير من الله لا يدعيه أحد غيرنا إلا كذاب . اكنزوا ذكر الله وذكر الموت وتلاوة القرآن والصلاة على النبي (ص) فان الصلاة على رسول الله عشر حسنات . لحفظوا ما وصيكم به ، واستودعكم الله ، واقرأ عليكم السلام " ^{٦٥} .

٢ - ايمان الناس بالقيادة الشاهدة ، عليهم الحاضرة بينهم ، اشدّ صعوبة على انفسهم ، من ايمانهم بمن مضى من بينهم ، لانهم إذا امنوا بالإمام الشاهد الحاضر ، تطلب منهم اتباعه وطاعته والتسليم لأمره وما أصعب الطاعة ، والتسليم ، وبالذات إذا اختلفت الروى وتناقضت المصالح ، ومن هنا كثرت حالات الوقف عند كثير من أبناء الطائفة كلما مضى إمام ، وقام إمام مقامه ، وكثير ما كان الوقف من قبل الوكلاء الذين تجمعت عندهم اموال الحقوق ، ولعب باهوائهم ربح الرئاسة وشهوة السلطة . وقد لحق الإمام العسكري الكثير من الأذى بسبب هؤلاء ، وربما أكثر من الماضيين من أئمة الهدى ،

(٦٤) المصدر : (ص ٣٧٢) .

(٦٥) المصدر : (ص ٣٧٢) .

كما يظهر من حديث روي عنه يقول فيه ،

" ما مُنيَ أحد من أبائي بمثل ما منيت به من شك هذه العصابة في " .

ولعل مرد هذا الشك ، كان الشك في استمرار الإمامة ، لذلك قال الإمام في رد هذا الشك ،

" فان كان هذا الأمر أمراً اعتقدتموه وندتم به إلى وقت (يبدو انه كان يعني امر الإمامة) ثم ينقطع ، فللشك موضع ، وان كان متصلاً ما اتصلت لمور الله ، فما معنى هذا الشك " ٦٦ .

وفي كتاب كريم يرسله الإمام إلى واحد من أصحابه الثقة ، والذي كانت بينه وبين الإمام مراسلات كثيرة ، واسمه إسحاق بن إسماعيل النيسابوري ، نقرأ احتجاج الإمام على الإمامة ، ومدى أهميتها ، تعالوا نتأمل في هذه الرسالة .

" سترنا الله وإياك بستره وتولّاك في جميع أمورك بصنعه ، فهمت كتابك برحمتك الله ونحن بحمد الله ونعمته ، أهل بيت نرقّ على أوليائنا ونسرّ بتتابع احسان الله إليهم وفضله لديهم ، ونعتدّ بكل نعمة ينعمها الله تبارك وتعالى عليهم ، فاتم الله عليك يا إسحاق وعلى من كان مثلك -- ممن قد رحمه الله وبصره بصيرتك -- نعمته . وقدر تمام نعمته ، دخول الجنة . وليس من نعمة ، وان جل أمرها وعظم خطرها ، الا والحمد لله تقدّست اسماءه عليها ، مؤثر شكرها ، وانا أقول ، الحمد لله أفضل ما حمده حامد إلى أبد الأبد بما منّ الله عليك من رحمته ونجّاك من الهلكة ، وسهّل سبيلك على العقبة . وأيم الله انها لعقبة كؤود ، شديد أمرها ، صعب مسلكها ، عظيم بلاؤها ، قديم في الزّبر الأولى ذكرها . ولقد كانت منكم في أيام الماضي (ع) إلى ان مضى لسبيله وفي أيامي هذه ، امور كنتم فيها عندي غير محمودي الرأي ولا مسدّدي التوفيق .

فاعلم يقيناً يا إسحاق انه من خرج من هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً .

يا إسحاق ليس تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، وذلك قول الله في محكم كتابه حكاية عن الظالم إذ يقول : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (طه/١٢٥-١٢٦) . واي آية اعظم من حجة الله على خلقه وأمينه في بلاده وشهيدته على عباده من بعد من سلف من آبائه الأولين النبيين وآبائه الآخرين الوصيين (عليهم اجمعين السلام ورحمة الله وبركاته) . فالين يتاه بكم ولين تذهبون كالأنعام على وجوهكم ، عن الحق تصدقون ، وبالباطل تؤمنون ، وبنعمة الله تكفرون ، لو تكونون ممن يؤمن ببعض الكتاب ، ويكفر ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم ومن غيركم إلّا خزي في الحياة الدنيا وطول عذاب في الآخرة الباقية ، وذلك والله الخزي العظيم . ان الله بمنّه ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليكم بل رحمة منه -- لا إله إلّا هو -- عليكم ليميز الخبيث من الطيب وليبطل ما في صدوركم وليمحّص ما في

قلوبكم ، لتسابقوا إلى رحمة الله ولتتفاضل منازلكم في جنته ، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية وجعل لكم باباً تستفتحون به لبواب الفرائض مفتاحاً إلى سبيله ، لولا محمد (ص) والأوصياء من ولده لكنتم حيارى كالبهائم لا تعرفون فرضاً من الفرائض وهل تدخل مدينة الآ من بابها ، فلما منَّ عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيكم ، قال الله في كتابه ، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة/ ٣) ففرض عليكم لأولياته حقوقاً أمركم بآدائها ليحلَّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم ومللككم ومشاريكم ، قال ، ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (الشورى/ ٢٣) واعلموا أنَّ من يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، لا إله إلا هو . ولقد طالت المخطابة فيما هو لكم وعليكم " ٦٧ .

قد صعدنا ذرى الحقائق :

٣ - لم يفتخر الأئمة (ع) بمنصب دنيوي ، أو ثروة وشهرة . إنما كان فخرهم بحب الله ، والانتساب إلى رسوله .. وبالعلم والتقوى . وفيما يلي رائحة منسوبة إلى الإمام العسكري وجدها بخطه الكريم على ظهر كتاب جاء فيها ،

" قد صعدنا ذرى الحقائق بإقدام النبوة والولاية ، ونورنا السبع الطرائق بإعلام الفتوة ، فنحن ليوث الوغى ، وغيوث الندى ، وفينا السيف والقلم في العاجل ، ولواء الحمد والعلم في لأجل ، واسباطنا خلفاء الدين ، وحلفاء اليقين ، ومصاييح الأمم ، ومفاتيح الكرم ، فالكليم ألبس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء ، وروح القدس في جنان الصاقورة ، ذاق من حدائقنا الباكورة ، وشيعتنا الغنة الناجية ، والفرقة الزاكية ، صاروا لنا رداً وصوناً ، وعلى الظلمة إلباً وعوناً ، وسينفجر لهم يابيع الحيوان بعد لظى النيران " ٦٨ .

حكم للحياة :

خير الدروس تلك التي يستفيد منها الإنسان في حياته وقد أفاض أئمة الهدى المزيد من التعاليم الحياتية لو استوعبناها ، لكننا أسعد الناس في الدنيا وأقربهم إلى رضوان الله في الآخرة . وفيما يلي نتأمل بعض كلمات الإمام العسكري (ع) في هذا الحقل الهام ،

" ادفع المسالة ما وجدت التحمل يمكنك ، فان لكل يوم رزقاً جديداً . واعلم ان الإلحاح في المطالب يسلب البهاء ويورث التعب والعناء ، فاصبر حتى يفتح الله لك باباً يسهل الدخول فيه فما اقرب الصنيع من الملهوف ، والأمن من الهارب المخوف ، فربما كانت الخير نوع من ادب الله ، والحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، وانما تنالها في أوانها ، واعلم ان المدرس لك اعلم بالوقت الذي يصلح حالك فيه ، فثق بخيرته في جميع امورك يصلح حالك ، ولا تعجل بحوائجك قبل وقتها ، فيضيق قلبك وصدرك

(٦٧) المصدر : (ص ٣٧٤ - ٣٧٦) .

(٦٨) المصدر : (ص ٣٧٨) .

ويخشاك القنوط ، واعلم ان للسقاء مقداراً ، فان زاد عليه فهو سرف ، وان للحزم مقداراً فان زاد عليه فهو تهور ، واحذر كل ذكي ساكن الطرف ، ولو عقل أهل الدنيا خربت " ٦٩ .

" خير اخوانك من نسي ذنبك وذكر احسانك إليه " .

" اضعف الأعداء كيلاً من أظهر عداوته " .

" حسن الصورة جمال ظاهر ، وحسن العقل جمال باطن " .

" أولى الناس بالمحبة منهم من أمكوه " .

" من أنس بالله استوحش الناس ، وعلامة الأنس بالله الوحشة من الناس " .

" جعلت الخيانت في بيت والكذب مفاتيحها " .

" إذا نشطت القلوب فلودعوها ، وإذا نغرت فودعوها " .

" اللحاق بمن ترجو خير من المقام مع من لا تامن شره " .

" الجهل خصم ، والحلم حكم ، ولم يعرف راحة القلوب من لم يجرعه الحلم غصص الصبر والغيط " .

" من ركب ظهر الباطل نزل به دار الندامة " .

" المقادير الغالبة لا تدفع بالمغالبة ، والأرزاق المكتوبة لا تتال بالشره ، ولا تدفع بالامساك عنها " .

" نازل الكريم يحبك إليه ويقربك منه ، ونازل اللئيم يباعك منه ويبغضك إليه " .

" من كان الورع سجيته ، والكرم طبيعته ، والحلم خلته كثر صديقه ، والثناء عليه ، وانتصر من أعدائه بحسن الثناء عليه " .

" السهر الدائم للثمن والجوع ازيد في طيب الطعام " . (رغب به (ع) على صوم النهار وقيام الليل) ٧٠ .

" المؤمن بركة على المؤمن وحجة على الكافر " .

" قلب الأحق في فمه وفم الحكيم في قلبه " .

" لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض " .

" من تعدى في طهوره كان كناقضه " .

" ما ترك الحق عزيزاً إلا نل ولا اخذ به دليل إلا عز " .

" صديق الحامل تعب " .

" خصلتان ليس فوقهما شيء ، الايمان بالله ونفع الاخوان " .

" جرة الولد على والده في صغره تدعو إلى العقوق في كبره " .

" ليس من الأدب اظهار الفرح عند المحزون " .

" خير من الحياة ما إذا فقدته بغضت الحياة ، وشر من الموت ما إذا نزل بك لحبت الموت " .

(٦٩) المصدر : (ص ٣٧٨ - ٣٧٩) .

(٧٠) المصدر : (ص ٣٧٧ - ٣٧٨) .

"رياضة الجاهل ورد المعتاد عن عادته كالمعجز".

"التواضع نعمة لا يحسد عليها".

"لا تكرم الرجل بما يشق عليه".

"من وعظ اخاه سرّاً فقد زانه . ومن وعظه علانية فقد شانه".

"ما من بلية إلا والله فيها نعمة تحيط بها".

"ما اقيح بالمؤمن ان تكون له رغبة تذله" ٧١ .

مواضع الية :

ه - وقال (ع) ،

"لورع الناس من وقف عند الشبهة ، اعبد الناس من اقام على الفرائض ، ازهد الناس من ترك الحرام ، اشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب".

"انكم في آجال منقوصة وايام معدودة ، والموت ياتي بغتة ، من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة ، لكل زارع ما زرع ، لا يسبق بطيئه بحظه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له ، من اعطى خيراً فالله اعطاه ، ومن وقى شراً فالله وقاه".

وجاء في رسالته الكريمة إلى الفقيه المشهور بابن بابويه جاء فيها ،

"اما بعد اوصيك يا شيخي ، ومعتدي ، وفقهيني - ابا الحسن علي بن الحسين القمي ، وفقك الله لمرضاته وجعل من صلبك اولاداً صالحين برحمته .

بتقوى الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، فانه لا تقبل الصلاة من مانعي الزكاة .

واوصيك بمغفرة الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، ومواساة الاخوان ، والسعي في حوائجهم في السر واليسر ، والطمع عن الجهل ، والتفقه في الدين ، والترتيب في الامور والتعهد للقران ، وحسن الخلق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الله عز وجل ﴿ لَا خَيْرَ لِيْ كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ اِلَّا مَنْ اَمَرَ بِصَدَقَةٍ اَوْ مَعْرُوفٍ اَوْ اِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللّٰهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيْهِ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ (النساء/ ١١٤) واجتناب الفواحش كلها . وعليك بصلاة الليل - ثلاث مرات - ومن استخف بصلاة الليل فليس منّا .

فاعمل بوصيتي ، وامر شيعتي حتى يحملوا عليه ، وعليك بانتظار الفرج ، فان النسي (ص) قال ، "افضل اعمال امتي انتظار الفرج". ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر والدي الذي بشر به النبي (ص) انه يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

فاصبر يا شيخي ، وامر جميع شيعتي بالصبر ، ﴿ اِنَّ الْاَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُصْبِرِينَ ﴾ (الاعراف/ ١٢٨)

(٧١) المصدر : (ص ٣٧٤) وقد حذفنا من المصدر كلمة (وقال) التي تكررت عند نقل الكلمة

والسلام عليك وعلى جميع شيعتنا ورحمة الله وبركاته وصحبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير .

الدعاء : برنامج التحدي :

٦ - وكانت الأدعية الماثورة عن أهل بيت الوحي (ع) ، تعتبر دائماً برنامج التحدي ضد كل ألوان الفساد الثقافي والاجتماعي والسياسي .. لو ليس الدعاء يقرب القلب من الرب ، ويعرج بروح المؤمن إلى أفق معرفة الله . والإنسان كلما ازداد معرفة بالله ، ازداد إيماناً به وازداد - بالتالي - التزاماً بالشرائع الإسلامية ، والتي من أبرز مصاديقها الثورة ضد الطغاة والإستقامة والصبر في مواجهتهم ، وعدم التسليم لوسائل التطويع عندهم من الترغيب والترهيب والتضليل . .

وكانت كلمات الدعاء عند أهل البيت والتي توارثوها عن رسول الله (ص) كلغنى كنز واثم ركاز ، كانت دائرة معارف إلهية فيها آيات الحكمة ومناهج التربية ويصائر في السياسة ، ورؤى في الثقافة . والدعاء الذي علمه الإمام الحسن العسكري للقميين ، والذي انتشر بينهم كمنشور سياسي ، ووثيقة جهادية ، وبرنامج حركي ، ونهج رسالي في تلك المرحلة الحساسة . هذا الدعاء يعتبر اليوم من كنوز معارف أهل البيت ، ويجدر بنا ان نتعاهده ليل نهار حتى نزداد معرفة و يقيناً وصلابة وهدى .. دعنا نرتل كلمات هذا الدعاء معاً ونتأمل فيها :

" الحمد لله شكراً لنعمائه ، واستدعاءً لمزيدة ، واستجلاً لرزقه ، واستخلاصاً له ، وبه دون غيره ، وعباداً من كفرانه والالحاد في عظمته وكبريائه ، حمد من يعلم ان ما به من نعمائه فمن عند ربه ، وما مسه من عقوبته فبسوء جنائية يده ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، ونريعه المؤمنين إلى رحمته ، وآله الطاهرين ، ولآله امره .

اللهم : انك نديت إلى فضلك ، وامرت بدعائك ، وضمنت الأجابة لعبادك ، ولم تخيب من فزع إليك برغبته ، وقصد إليك بحاجته ، ولم ترجع بدأ طالبة صفراً من عطائك ، ولا خائبة من نحل هباتك ، وأي راحل رحل إليك فلم يجدك قريباً ، ووافد وفد عليك فاقطعته عوائق الرد جودك . بل أي محتف ، لم يممه فيض جودك ، وأي مستنبط لمزيدك دون استملاحه سجال عطيتك .

اللهم : وقد قصدت إليك برغبتي ، وقرعت باب فضلك يد مسالتي ، وناجاك بخشوع الاستكانة قلبي ، ووجدتك خير شفيع لي إليك ، وقد علمت ما يحدث من طلبتي قبل ان يخطر بفكري ، أو يقع في خلدي ، فصل اللهم دعائي إليك باجابتي ، واشفع مسالتي بنجح طلبتي .

اللهم ، وقد شعلنا زيغ الفتن ، وستولت علينا غشوة الحيرة ، وقارعنا الدل والصغار ، وحكم علينا غير المامونين في دينك ، وابتز أمورنا معادن الأبن ممن عطل حكمك ، وسعي في اتلاف عبادك ، وافساد

بلادك ، اللهم وقد عاد فيننا دولة بعد القسمة ، وامارتنا غلبة بعد المشورة ، وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة ، فاشتريت الملاهي والمعارف بسهم اليتيم والأرملة ، وحكم في ايثار المؤمنين أهل الذمة ، وولي القيام بأمورهم فاسق كل قبيلة ، فلا نائد ينودهم عن هلكة ، ولا راع ينظر إليهم بعين الرحمة ، ولا ذو شفعة يشيع الكبد الحري من مسغبة ، فهم أولوا ضرع بدار مضيعة ، واسراء مسكنة ، وخلفاء كآبة ودلة ٧٣ .

اللهم ، وقد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهايته واستحكم عوده ، واستجمع طريده وخذرف وليده وبسق فرعه ، وضرب بجرانه .

اللهم ، فاتح له من الحق حاصده ، تصدع قائمه ، وتهشم سوقه وتحب سنامه ، وتجدد مراغمه ليستخفي الباطل بقيق صورته ، ويظهر الحق بحسن حليته .

اللهم ، ولا تدع للجور دعامة إلا قصمتها ، ولا جنة إلا هتكها ، ولا كلمة مجتمعة إلا فرقها ، ولا سرية نقل الا خففتها ، ولا قائمة علو إلا حططتها ، ولا رافعة علم إلا نكستها ، ولا خضراً إلا أبرتها .

اللهم ، فكور شمسك ، وحط نوره واطمس ذكره وارم بالحق رأسه ، وفض جيوشه ، وارعب قلوب اهله .
اللهم ، ولا تدع منه بقية إلا أفنيت ، ولا بنية إلا سويت ، ولا حلقة إلا قصمت ، ولا سلاحاً إلا أكلت ، ولا حداً ولا كراعاً إلا اجتحت ولا حاملة علم إلا نكست .

اللهم ، وارنا انصاره عبايد بعد الألفة ، وشتى بعد اجتماع الكلمة ، ومقتني الرؤوس بعد الظهور على الأمة .

واسفر لنا عن نهار العدل ، وأرناه سرمداً لا ظلمة فيه ، ونوراً لا شوب معه ، واهطل علينا ناشنته ، وانزل علينا بركته وادل له ممن ناواه وانصره على من عاداه .

اللهم ، واظهر الحق ، واصبح به في غسق الظلم ، وبهم الحيرة .
اللهم ، واحيي به القلوب الميتة ، واجمع به الأهواء المتفرقة والاراء المختلفة ، واقم به الحدود المعطلة .
والاحكام المهملة ، واشبع به الخماص الساغية ، وارح به الأبدان اللاعبة المتعبة ، كما الهجتنا بذكره ، واخطرت ببالنا دعاك ، ووقفنا للدعاء إليه ، وحياشة أهل الغفلة عنه ، واسكنت في قلوبنا محبته ، والطمع فيه ، وحسن الظن به لإقامة مراسيمه .

اللهم ، فأت لنا منه على احسن يقين ، يا محقق الظنون الحسنة ، وبيا مصدق الآمال المبطنة ، اللهم واكتب المثاليين عليك فيه ، واخلف به ظنون القانطين من رحمك والأيسين منه .

اللهم ، اجعلنا سبباً من اسبابه ، وعلماً من اعلامه ومعقلاً من محاقله ، وانصر وجوهنا بتخليته ، واكرمنا بنصرته ، واجعل نيتنا خيراً تظهرنا لنا به ، ولا تشمت بنا حاسدي النعم ، والمتربصين بنا حلول الندم ،

(٧٣) بين الإمام في هذا المقطع الحالة المزربة التي بلغتها الأمة ، وأسباب الفساد فيها

ونزول المثل ، فقد ترى يا رب براعة خلو ساحتنا ، وخلو درعنا من الاضمار لهم على احنة ، والتمني لهم وقوع جانحة وماتنازل من تحصينهم بالعافية ، وما اخبالنا من اتهاز الفرصة ، وطلب الوثوب بنا عند
الغلة ٧٤ .

اللهم ، وقد عرفتنا من انفسنا ، وبصرتنا من عيوبنا خلالاً نخشى ان تقعد بنا عن اشتهار اجابتك ، وانت المتفضل على غير المستحقين ، والمبتدئ بالاحسان على السائلين ، فات لنا من امرنا على حسب كرمك وجودك وفضلك ، وامتناك انك تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد انا إليك راغبون ، ومن جميع دنوبنا تائبون ..

اللهم ، والداعي إليك ، والقائم بالقسط من عبادك ، الفقير إلى رحمتك ، المحتاج إلى معونتك على طاعتك ، إذ ابتدأت بنعمتك والبسته اثواب كرامتك ، والقيت عليه محبة طاعتك ، وثبت وطاته في القلوب من محبتك ، ووقفته للقيام بما اغمض فيه اهل زمانه من امرك ، وجعلته مفزعاً لمظلوم عبادك ، وناصراً لمن لا يجد غيرك ، ومجداً لما عطل من احكام كتابك ، ومشيداً لما دثر من اعلام دينك ، وسنن نبيك عليه وآله سلامك ، وصلواتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، فاجعله اللهم في حصانة من پاس المعتدين ، واشرق به القلوب المخطفة من بغاة الدين وبلغ به افضل ما بلغت به القائمين بقسطك من اتباع النبيين ، اللهم وأدلل به من لم تسهم له في الرجوع إلى محبتك ، ومن نصب له ، العداوة ، وارم بحجر الدافع من اراد التاليل على دينك بإذلاله وتشتيت امره ، واغضب لمن لا ترة له ، ولا طائلة ، وعادي الأقربين والأبعدين منا عليه ، لا مناً منه عليك ٧٥ .

اللهم ، فكما نصب نفسه غرضاً فيك للأبعدين ، وجاد ببذل مهجته لك في الذب عن المؤمنين ، ورد شر بغاة المرتدين المريبين حتى اخفى ما كان جهر به من المعاصي ، وأبدى ما كان نبذه العلماء وراء ظهورهم مما أخذت ميثاقهم على ان يبينوه للناس ولا يكتموه ، ودعا إلى افرادك بالطاعة ، والا يجعل لك شريكاً من خلقك يعلو امره على امرك ، مع ما يتجرعه فيك من مرارات الغيظ الجارحة بحواسي القلوب ، وما يعتوره من الغموم ، ويفزع عليه من احداث الخطوب ، ويشرق به من الغصص التي لا تبطلها الحلو ، ولا تحنو عليها الضلوع ، من نظرة إلى امر من امرك ، ولا قتاله يده بتغييره ، ورده إلى محبتك ، فاشدد اللهم ازره بنصرك ، واطل باعه في ما قصر عنه ، من اطراد الراتعين في حماك ، وزده في قوته بسطة من تلييدك ، ولا توحشنا من انسه ، ولا تخترمه دون امله من الصلاح الفاشي في اهل ملته ، والعدل الظاهر في امته . . .

اللهم ، وشرف بما استقبل به من القيام بامرك ليرى موقف الحساب مقامه ، وسر نبيك محمد صلواتك عليه وآله برويته ومن تبعه على دعوته ، واجزل على ما رايته قائماً به من امرك ثوابه ، وابن قرب دنوه منك

(٧٤) تأمل كيف يسمي هذا الدعاء في نفوس المؤمنين التطلع إلى جهاد الطاغوت والمبادرة بمقاومته .

(٧٥) يرمي هذا المقطع من الدعاء المؤمنين على الالتفاف حول القيادة الرشيدة والطاعة التامة لها .

في حياته ، وارحم استكانتنا واستخذاعنا لمن كنا نقمعه به إذا فقدتنا وجهه ، وبسط ايدي من كنا نبسط ايدينا عليه لنرده عن معصيته ، وافترقنا بعد الإلفة والإجماع تحت ظل كنفك ، وتلفنا عند الغوث محل ما أقعدتنا عنه من نصرته ، واجعله اللهم في امن مما يشفق عليه منه ، ورد عنه من سهام المكائد ما يوجهه اهل الشنآن إليه وإلى شركائه في امره ، ومعاونيه على طاعة ربه الذين جعلتهم سلاحه وحصنه ، ومفزعهم وآنسهم ، الذين سلوا عن الأهل والأولاد ، وجفوا الوطن ، وعطلوا الوتير من المهاد ، ورفضوا تجارتهم ، واضسروا بمعاشهم وفقدوا في انديتهم بخير غيبة عن مصيرهم ، وخالخوا البعيد ممن عاضدهم على امرهم ، وقلوا القريب ممن صدّ عن وجهتهم فانقلبوا بعد التدابر والتقاطع في دهرهم ، وقطعوا الأسباب المتصلة بعاجل حطام الدنيا ، فاجعلهم اللهم في امن من حرك وظل كنفك ، ورد عنهم بأس من قصد إليهم بالعداوة من عبادك ، واجزل لهم على دعوتهم من كفابتك ومحونتك وامدهم بتاييدك ونصرك ، وازهق بحقهم باطل من اراد إطفاء نورك ، اللهم واملا بهم كل أفق من الأفاق وقطر من الأقطار قسطاً وعدلاً ، ومرحمة وفضلاً ، واشكرهم على حسب كرمك وجودك ، وما مننت به على القانمين بالقسط من عبادك ، وادخرت لهم من ثوابك ما يرفع لهم به الدرجات . إنك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد ... " ٧٦ .

الامام المهدي (عجل الله تعالى فرجه)

قلوة وأسوة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله الهداة الميامين ، وعلى اصحابه المنتجبين وعلى عباد الله الصالحين .

لم تكن المشاكل الفلسفية ترفاً فكرياً ، لو اسرافاً في المثالية ، بل ان اغلبها تمس صميم واقع البشر لأنها تحاول معرفة العلاقة السليمة بين الإنسان وخالقه . وبينه وبين الكون المحيط به . ولولئك الذين حاولوا تجريد الفلسفة عن هذا البحث الهام ، أفقدوها مبرر وجودها وحكمة انتشارها بين الناس واهتمامهم بها .

والحديث عن الإمام الغائب " حجة الله على خلقه " والسبب الموصل بين الله والإنسان ، وحبل الله المتين ، يهدف - فيما يهدف - الكشف عن جوانب هامة من هذه الصلة المباشرة بين خالق السماوات والأرض وبين الإنسان !! .

إن تتجسد هذه الصلة في إنسان كامل لا يختلف في بشريته عن غيره ، إلا أنه حجة الله ، الذي تجلت فيه رسالات الله ، وصاغته بشراً كاملاً ، ليكون قدوة وإماماً .

ولأن اخترعت البشرية التأنية لبطالاً باسم الجندي المجهول وفي صورة (سوبرمان) وأبطال وهميين ، فإن يد العناية الإلهية صاغت إنساناً من لحم ودم ولكنه كان رمز كل فضيلة ، ودليل كل سمو ، وليكون حجة الله على الإنسان لكي لا يبرر تقاعسه عن بلوغ المقام المحمود بضعفه البشري .

وها نحن في رحاب هذا الإمام العظيم ، واني أرجو من أولئك الذين لا يؤمنون به ان يفكروا في الأمر من جديد لنلا يمنعوا عن انفسهم خيراً كثيراً .

والكتاب الذي بين ايدينا ، مساهمة بسيطة جداً في هذا المضمار . وكنت قد الفتة قبل حوالي عشرين عاماً . ولقد حددت النظم في بعض فصوله واقدمه اليوم للقراء عسى الله ان يتفغنني به يوم الحساب .

الفصل الاول

الاصل الكريم

من هو الإمام المهدي؟

والده (ع) :

الإمام الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم جميعاً صلوات الله - .

أمه (ع) :

وصيفة تركية انحدرت من سلالة طيبة تتصل بأوصياء عيسى ابن مريم (ع) واسمها نرجس أو (صيقل) وكانت قد أسلمت وهي في بلادها بسبب رؤيا شاهدها ، وعندما زحفت طلائع الجيش الإسلامي على بلادها سلمت لهم ليأتي بها القدر إلى بيت الإمام الحسن العسكري (ع) وتصبح والدة حجة الله .

ميلاده (ع) :

في ليلة النصف من شعبان من عام (٢٥٥) للهجرة وفي مدينة سامراء عاصمة الخلافة في عهد المعتصم العباسي ولد الإمام الحجة (ع) .

وكان لولادته شواهد دلت على ما قدر الله لهذا المولود السعيد من اثر على حياة البشرية .
دعنا ستمتع إلى السيدة حكيمة بنت الإمام محمد بن علي الجواد وعمه الإمام الحسن تقص علينا عن ولادة الحجة قالت : " بعث إليّ أبو محمد الحسن بن علي (ع) فقال : يا حكيمة احطي افطارك عندنا هذه الليلة - فانها ليلة النصف من شعبان فان الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجة - وهو حجته على ارضه .

قالت فقلت له : ومن امه ؟

قال لي : نرجس .

قلت له : جعلت فداك والله ما بها من اثر .

فقال : هو ما أقول لك .

قالت : فجنّت فلما سلمت وحلست جاءت - نرجس - تنزع خفي وقالت لي يا سيدني ، وسيدة اهلي ، كيف أمسيت ؟ فقلت : بل أنت سيدني وسيدة اهلي ، فانكرت قواي - وفالت : ما هذا يا عمّة ! (قالت) فقلت لها " ان الله تعالى سيهب لك في ليلتنا هذه علماً سداً في الدنيا والاخرة " .

قالت ، فخلجت واستحييت ، فلما ان فرغت من صلاة العشاء الآخرة - افطرت ولأخذت مضجعي فرقدتُ ، فلما ان كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة ففرغتُ من صلاتي وهي نائمة ليس بها حادثة - ثم جلست معقبة ثم اضطجعت ثم انتبهتُ فزعة وهي راقدة ، ثم قامتُ فصلت ، ونامت ، قالت حكيمة ، فخرجتُ اتفق العجر فإذا أنا بالفجر الأول كذنب السرحان وهي نائمة فدخلني الشك - فصاح بي أبو محمد (ع) من المجلس ، فقال لي ، " لا تعجلي يا عمة ! فهناك الأمر قد قرب " ، قالت ، فجلستُ وقرأتُ الم السجدة ويس . فبينما أنا كذلك انتبهتُ فزعة فوثبت إليها فقلت اسم الله عليك ، ثم قلت لها اتحسين شيئاً ؟ قالت نعم يا عمة - فقلت لها اجمعي نفسك واجمعي قلبك فهو ما قلت لك . فاخذتني فترة^١ وأخذتها فطرة^٢ ، وانتبهت بحس سيدي فكشفت عنها ، فإذا اتني به (ع) - ساجداً يطفى الأرض بمساجده ، فضممته (ع) ، فإذا أنا به نظيف منظف - فصاح بي أبو محمد (ع) هلمي إليّ ابني يا عمة - فجننت به إليه - فوضع يديه تحت آليته وظهره ووضع قدميه في صدره ثم أدلى لسانه في فيه - وأمر يده على عينيهِ ومفاصله^٣ .

وبعدما ولد - أجرى له والده الإمام الحسن (ع) مراسيم الولادة بما يلي تفصيله .
تصدق عنه - عشرة آلاف رطل خبزاً وعشرة آلاف رطل لحماً - وعق عنه - بذبح ثلاثمائة شاة - بعثها حية من يومه إلى بني هاشم والشيعة . ثم بعث إلى الخاصة من أصحابه يخبرهم بولادته وأنه الوصي من بعده ويأمرهم بكتمان ذلك عن كل أحد فقد اثر عن محمد بن الحسن بن إسحاق القمي قال : لما ولد الخلف الصالح (ع) ورد من مولانا أبي محمد الحسن بن علي (ع) إلى جدي أحمد بن إسحاق كتاب وإذا فيه مكتوب بخط يده الذي كان يرد به التوقيعات عليه ،
" ولد المولود فليكن عندك مستوراً وعند جميع الناس مكتوماً ، فإننا لم نظهر عليه إلا الأقرب لقرابته والمولى لولايته . أحببنا اعلامك ليسرك الله كما سرنا والسلام " ^٤ .
وروي عن إبراهيم صاحب الإمام الحسن العسكري (ع) انه قال :
وجه إليّ مولاي أبو محمد بارية لكباش وكتب إلي :

بسم الله الرحمن الرحيم
" هذه عن ابني محمد المهدي وكل هنيئاً وأطعم من وجدت من شيعتنا " ^٥ .

(١) أي استول عليّ التراخي .

(٢) فطرة : أي الولادة .

(٣) كمال الدين : (ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٣٨ - ١٠٨) .

(٤) كمال الدين : (ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٣٨ - ١٠٨) .

(٥) بحار الأنوار : (ج ٥١ ، ص ٢ - ٣) .

كتمان أمر الإمام :

وهكذا تمت ولادة الإمام الذي بقي محاطاً بسطار كثيف من الكتمان بسبب الظروف السياسية المعاصرة . ولم يبد الإمام العسكري (ع) أمر نجله إلا لأشخاص أصحابه ، فقد جاء في الحديث المأثور عن كتاب الغيبة ، عن جماعة من أصحاب الإمام أنهم قالوا ،

" اجتمعنا إلى أبي محمد الحسن بن علي (ع) نسأله عن الحجة من بعده وفي مجلسه (ع) أربعون رجلاً فقام إليه عثمان بن سعيد بن العمر العمري فقال له : يا بن رسول الله (ص) أريد أن أسألك عن أمر أنت أعلم به مني . فقال له : " لجلس يا عثمان فقام مغضباً ليخرج ، فقال : لا يخرج مني أحد ، فلم يخرج منا أحد إلى أن كان بعد ساعة فصاح (ع) بعثمان ، فقام على قدميه فقال : أخبركم بما جئتم . قالوا : نعم يا بن رسول الله (ص) قال : جئتم تسألوني عن الحجة من بعدي قالوا : نعم ، فإذا غلام كانه قطع قمر أشبه الناس بآبي محمد (ع) فقال : هو إمامكم من بعدي ، وخليفتي عليكم أطيعوه ، ولا تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم . ألا وأنكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر ، فاقبلوا من عثمان ما يقول وانتهاوا إلى أمره واقبلوا قوله فهو خليفة إمامكم والأمر إليه " .

كيف بدأ عهد إمامة الحجة ؟

وكعادة الخلفاء العباسيين إذا وجدوا فرصة لقتل لولياء الله بادروا بدس السم إليهم . اغتال المعتصم العباسي الإمام الحسن العسكري (ع) بالسم ، فاخذ يفتش عن نجله ليقتل عليه ويقطع دابر الإمامة الإسلامية في زعمه . فارسل إلى بيت الإمام ليحتجز ما فيه ومن فيه .

دعنا نستمع خبر ذلك عن لسان أحمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان ابن وزير المعتصم الذي قال ، " لما اعتل الإمام الحسن العسكري (ع) بعث إليّ أبي أن ابن الرضا قد اعتل فركب من ساعته إلى دار الخلافة ثم رجع مستعجلاً مع خمسة نفر من خدام (أمير المؤمنين) كلهم من ثقافته وخاصته معهم نحرير - وأمرهم بلزوم دار الحسن بن علي ، وتعرّف خبره وحاله ، وبعث إلى نفر من المتطهين فامرهم بالاختلاف إليه وتعاهده صباحاً ومساءً .

فلما كان بعد ذلك بيومين جاءه من أخبره أنه ضعف فركب حتى بكر إليه ، فأمر المتطهين بلزومه ، وبعث إلى قاضي القضاة فأخبره مجلسه ، وأمره أن يختار من أصحابه عشرة ممن يوثق به في دينه وأمانته وورعه فأحضرهم فبعث بهم إلى دار الحسن (ع) وأمرهم بلزومه ليلاً ونهاراً . فلم يزالوا هناك حتى توفي (ع) لأيام مضت من شهر ربيع الأول من سنة ستين ومائتين ، فصارت (سرّ من رأى) ضجة واحدة - مات ابن الرضا - .

وبعث السلطان إلى داره من يفتشها ويفتش حجرها ، وختم على جميع ما فيه وطلبوا اثر ولده ، وجازوا بنساء يعرفن بالحمل فدخلن على جواريه فنظرن إليهن فذكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل ، فأمرنها فجعلت في حجرة وكل بها نحرير الخادم وأصحابه ونسوة معهم " .

ثم قال ، " ولم يزل الذي وكلوا بحفظ الجارية التي توهموا عليها الحمل ملازمين لها سنتين وأكثر حتى تبين لهم بطلان الحمل فقسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر وادعت أمه وصيته وثبت ذلك عند القاضي . والسلطان على ذلك يطلب اثر ولده " .

ثم ذكر قصة مناوأة جعفر على الوصايا حتى قال ، " وخرجنا - والأمر على تلك الحال - والسلطان يطلب اثر ولد الحسن بن علي (ع) حتى اليوم " .

وهكذا حاولت السلطة الجاهلية المستكبرة في الأرض ان تقتلع جذور الإمامة ، وتقضي على الحركة الرسالية الأصلية .. فلم تفلح لان يد الله فوق أيديهم .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهُ أَنْ يُمِيتَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة/ ٣٢)

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

وكان للإمام الحجة عمّ يدعى بجعفر زعم ان له حق الإمامة من بعد أخيه الحسن العسكري (ع) ، فاخذ يدعو الناس إلى نفسه ، بل ويتوسل إلى السلطات الظالمة ليستمد منها الدعم دون ان يعلم ان مجبر استمرار خط الإمامة هو مقاومة هذه السلطات ، وقيادة الجماهير المؤمنة ضد فسادها وانحرافها . أما جعفر ابن الإمام علي الهادي (ع) فانه كان يفقد المؤهلات الكافية للإمامة ولانه كان يعرف ان الطائفة لا تعترف به ، فقد جاء إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان - وهو وزير الخليفة العباسي - يسعى من لجل دعم مركزه .

ابن الوزير يروي قصة ذلك فيما يلي ،

" فجاء جعفر - بعد قسمة الميراث - إلى أبي وقال له ، اجعل لي مرتبة لي ولوصل إلي في كل سنة عشرين ألف دينار مسلمة .

فزيه أبي وقال له ، يا أحمق ! ان السلطان اعزه الله (١) جرد سيفه وسوطه في الذين زعموا ان أباك وأخاك أنمة ، يريدوهم عند ذلك فلم يقدر عليه ، ولم يتهميا له صرفهم عن هذا القول فيهما ، فان كنت عند شيعة أبيك ولخيك إماماً فلا حاجة بك إلى السلطان يرتبك مراتبهما ولا غير السلطان ، وان لم تكن عندهم بهذه المنزلة . لم تتلها بنا " .

وما لبث جعفر ان تراجع عن هذه الدعوة الكاذبة . وعاد إلى رشده في التسليم لإمامة الحجة (ع) ، ولذلك سمي عند الطائفة بجعفر التواب بعد ان كان يسمى بجعفر الكذاب .

الغيبة الصغرى :

بعد ان بيّن الأنمة الهداة (عليهم الصلاة والسلام) عبر قرنين ونصف من عمر الرسالة بعد الرسول (ص) معالم الدين . وبعد ان احتمل خيرة أبناء الأمة علم الأنبياء (ع) عبر أوصيائهم المعصومين ،

(٦) كمال الدين : (ج ١ ، ص ١٢٥) .

وترسخت جذور المعرفة الإلهية في نفوس الألوف . وبعد أن تهايا التيار الرسالي للنهوض بأعباء الثورة ضد الظلم والطغيان ، والوقوف امام الانحرافات الأساسية في الدين .

بعد كل ذلك قدر الله الغيبة الصغرى لولي الله الأعظم ، الحجة بن الحسن (ع) التي امتدت من عام (٢٦٠) إلى عام (٢٢٩) أقام الإمام خلالها جسراً من الوكلاء بينه وبين أبناء الطائفة . ونوَّاب الإمام هم ،

(١) أبو عمرو عثمان بن سعيد الذي كان وكيلاً للإمام الحسن العسكري (ع) . وبعد وفاته أصبح نائباً للإمام الحجة (عجل الله فرجه) .

(٢) وبعد وفاته عام (٢٦٦) نصب الإمام الحجة ابنه أبا جعفر محمد بن عثمان ليصبح نائباً للإمام خلال خمسين عاماً .

(٣) أما النائب الذي استخلفه محمد بن عثمان فقد كان حسين بن روح ومنذ عام (٣٠٤) وعبر اثنين وعشرين عاماً كان مرجعاً عاماً للطائفة من قبل الإمام الحجة (ع) .

(٤) وبعد أن لبى حسين بن روح نداء ربه ، عين الإمام أبا الحسن علي بن محمد السمرري نائباً عنه ، وبقي في منصبه ثلاث سنوات ، ولما اقترب من أجله سئل عمَّن ينوبه فأخبر بانتهاه الغيبة الصغرى بوفاته .

وفي سني الغيبة الصغرى كان يمارس فقهاء الإسلام الأربعة العظام دور القيادة نيابة عن الإمام — ولعلها كانت كافية لتربية الأمة على أسس لختيار قادتها من بين أقرب الفقهاء إلى مثال النواب الأربعة في عصر الغيبة الكبرى — حيث كان من المفروض أن تستقل الأمة بانتخاب قادتها من الفقهاء العدول الراسخين في علم أهل البيت ، والزاهدين في درجات الدنيا ، والمجسدين لتعاليم الرسالة .

ولعل حكمة ذلك كانت تدرج الصلة الإلهية من الوحي إلى الوصاية والنيابة الخاصة ثم النيابة العامة ، فلقد كان عصر النبي الأعظم (ص) عصر الوحي الذي كان شاهداً في كل قضية ، وبعد أن اكمل تبليغ الرسالة عهد إلى الأئمة الهدى أمر تفسير المتشابه من آيات القرآن ، أما المحكم فكان على الناس أنفسهم الرجوع إليه مباشرة ، وهذه خطوة متقدمة في مسيرة التعامل مع الوحي .

وفي عصر الوصاية تفقه الكثير من المسلمين العلماء حتى أرجع الأئمة إلى بعضهم أمر الفتيا ، وبعد ذلك جاء عصر النيابة الخاصة حيث كان على المسلمين مراجعة الإمام الحجة من خلال بوابه وليس بصورة مباشرة كما كان في عصر الوصاية .

أما الآن وفي عصر النيابة العامة فأن على المسلمين أن يراجعوا الفقهاء العدول الذين يتعرفون على صلاحيتهم وفق المقاييس العامة التي بيَّنها لهم الأئمة .

وبالرغم من أن صلة حجة الله بولياء الله مستمرة بصورة أو بأخرى إلا أن ذلك لا يدخل ضمن إطار الأحكام الظاهرية حيث لا يمكن لأحد أن يدعي أنه النائب الخاص للإمام ، بل لا يمكنه أن يدعي ارتباطه

المباشر بالإمام ، فإذا فعل ذلك فإن على المسلمين ان يكذبوه رأساً . ولولا هذا التدرج لكانت الأمة تُصاب بكارثة حقيقية .

شُمائل وصفات الإمام :

لقد تم وصف الإمام بدقة من قبل النبي (ص) والأئمة الهداة ، ولعله كان لحكمة بالغة هي ردى كل من تسول له نفسه بادعاء المهديّة ، بعد ان أصبحت قضية ظهور الإمام المهدي (ع) في آخر الزمان من ضرورات الدين ، وبما أنه من المستحيل ان تجتمع كل تلك الصفات التي ذكرتها النصوص الإسلامية في شخص مدّعى للمهديّة مما تكشف كذبه للناس .

(١) قال النبي (ص) ،

" المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقى الأنف ، المهدي من ولدي وجهه كالقمر الدري ، عينه مستديرة ، اللون لون عربي ، والجسم إسرائيلي ، وجهه كالدينار ، أسنانه كالمنشار وسيفه كحريق النار " .

(٢) وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) ،

" المهدي أقبل لجد ، هو صاحب الوجه الأحمر والجبين الأزهر ، صاحب الشامة والعلامة ، العالم الغيور ، المعلم المخبر بالآثار ، هو أوسعكم كهفاً ، وأكثركم علماً ولو صلحتم رحماً ، يومئ للطيح فيسقط على يده ، ويغرس قضيباً في الأرض فيخضر ويورق " .

(٣) وقال الإمام الحسين (ع) ،

" تعرفون المهدي بسكينة ووقار ، ومعرفته الحلال والحرام ، وبحاجة الناس إليه ولا يحتاج إلى لحد " .

(٤) وقال الإمام الباقر (ع) ،

" وهو دري المقلتين ، شذن الكفين ، معطوف الركبتين ، مدمج البطن ، بظهره شامتان ، شامة على لون جلده وشامة على شبه شامة النبي ، مقرّون الحاجبين مسترخهما ، ظاهر العينين من سهر الليل والتبيل والعبادة ، دري المقلتين ، بوجهه اثر ، واسع الصدر ، مسترسل المنكبين عظيم مشاشتهما " .

(٥) وقال الإمام الصادق (ع) ،

" حسن الوجه ، لدم ، اسمر ، مشرب بحمرة ، لزج ، أبلج ادعج ، لعين ، اشم الأنف ، أقى ، أجلى ، وهو خاشع كخشوع الزجاجة ، هبوب ، قريب إلى الناس والنفوس ، عذب المنطق ، حسن الصورة ، أحسن الساقين مخدشهما ، هو قوي في بدنه ، إذا صاح بالجمال تكذكت صخورها ، لا يضع يده على عبد إلا صار قلبه كزبر الحديد ، ليس بالطويل الشامخ ، ولا بالقصير اللزق ، بل مربوع القامة ، مدور الهامة ، واسع الصدر ، صلت الجبين ، مقرّون الحاجبين ، على خده الأيمن خال كأنه فتات مسك على رضراضة العنبر " .

(٦) قال الإمام الرضا (ع) ،

" هو شبيهي وشبيه موسى بن عمران ، عليه جيوب النور ، تتوقد بشعاع القدس ، موصوف باعتدال

الخلق ، ونضارة اللون ، يشبه رسول الله في الخلق ، علامته ان يكون شيخ السن ، شاب المنظر حتى ان الناظر ليحسبه ابن اربعين سنة او دونها ، وان من علامته ألا يهرم بمرور الأيام والليالي عليه حتى يأتي لجله " ٧ .

(٧) ، قنبا خصص الروايات هذه من كتاب يوم الخلاص لمؤلفه كتاباً سماه : (ص ٥١ - ٥٥)

الفصل الثاني

الإمام الحجة .. الأمل المنتظر

انتظار الفرج أو الأمل الثائر :

هنالك سذن إلهية تجري على أساسها حياة المجتمعات كالسنن الإلهية التي تنقلب فيها حياة الأفراد . ومن أبرز هذه السنن انتصار الحق ودمر الباطل . ﴿ وَكُلُّ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الاسراء/ ٨١) . إن سفينة الحياة ترسو بالتالي على شاطئ رحمة الله ، لأن رحمته قد سبقت غضبه ، ولأن الله لنما خلق الناس ليرحمهم ، وسبحانه الذي لا يؤاخذ أهل الأرض بالوان العذاب . يقول ربنا سبحانه وهو يذكرنا بهذه السنة التي لو تأملنا في تاريخ البشر ، وفي ظواهر الحياة لرأينا آثارها بوضوح تام ،

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (البقرة/ ٣٣) فما دامت السماوات والأرض قد خلقت بالحق ، وعلى أساس الحق فإن سلطان الحق وحاكميته وسيادته سوف يكون متوافقاً مع مسيرة الكون ، ونتيجة تكامل حوادثه بإذن الله . ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الانبيا/ ١٠٥) ان هذه الحقيقة التي اكدت عليها رسالات الله ليست محدودة بقوم ، ولا محصورة بوراة الصالحين بقطعة محدودة من الأرض ، بل هي بيان لسنة إلهية عامة تتحقق في ثورات الصالحين ضد الطغاة ، وتتحقق بصورة تامة في وراثة الصالحين لكل الأرض ، والدليل على ذلك ،

اولاً ، ان الأرض جاءت محلاة بالآلف واللام مما يدل على ان المراد بها كل الأرض . ثانياً ، ان تأكيد القرآن على ان هذه حقيقة مكتوبة في أكثر من كتاب سماوي لا يدعنا نشك في انها تشير إلى سنة إلهية يسوق الله احداث الحياة وفقها حتى تتحقق بصورة كلية .

﴿ وَزَيْدُ أَنْ تُمْنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَظْفَرُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجَّيْنَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْرَثْنَاهُمْ * وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَبِيِّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصاص/ ٥-٦)

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِلَةُ لِلْمُتَحَسِّنِ ﴾ (الاعراف/ ١٢٨)

إن تجارب البشرية قد دلت على ان المسيرة الطبيعية للنظم الحاكمة في الأرض لن تصل بها إلى تلك

التطلعات السامية التي انطوت عليها نفوس البشر من تحقيق مدينة فاضلة تسودها العدالة ، ويحكم في أرجائها الحق بلا شريك .

إذن كيف ومتى يتحقق هذا الطموح الفطري المشروع .. هل يمكن ان يتكامل البشر بصورة عادية إلى ان يبلغ هذا المستوف الأرفع ؟

ان ترسانات الأسلحة الذرية والكيميائية ، ومؤامرات المستكبرين ضد مستضعفي الأرض ، وتقهر البشرية الواضح في ميادين الفضيلة والهدى ، وتدهورها المرعب إلى حضيض الفساد والاعتداء لدليل واحد وواضح على ان السبيل الوحيد إلى تحقيق أهداف الإنسان هي رحمة الله التي اخرجت الإنسان من الظلمات إلى النور .

وتلك الرحمة إنما هي في ظهور الحجة الأعظم — بقية الله الإمام الثاني عشر من أهل بيت خاتم الأنبياء ، وقدة الصديقين عليهم جميعاً صلوات الله — والإيمان بهذه الحقيقة الصادقة يبعث في قلوب المؤمنين شعلة خالدة من الأمل ذلك الأمل الذي يعتبر وقود الإنسان في مسيرته التكاملية .

ذلك الأمل الإلهي الذي يختطف عن الأمنية بفارق السعي الذي هو شرط ضروري لتحقيق الأمل الإلهي .. بينما الأمنية تبرير للكسل والتفاس .

ذلك الأمل الذي ينتشل المجاهدين من ظلام اليأس الذي يبعثه الشيطان في نفوسهم باستغلال ظروف الإرهاب والقلق والعجز المادي .

ذلك الأمل الذي يعكس على نظرات الفرد ومواقفه ، فتصيح بصيغة التناؤل الإيجابي ، ويملأ روح التشاؤم والشك والسلبية والإنهزامية التي تسعى لجهزة الطاغوت ووساوس الجبت ان تبثها في روح العاملين ، وربما لهذه الحكمة جاء في الحديث النبوي الشريف ،
" افضل اعمال امتي إنتظار الفرج " .

المهدي (ع) في النصوص الدينية :

ان ظهور عزير (ع) وعودة عيسى (ع) ورجعة بهرام في الديانات اليهودية والمسيحية والمحوسية سوف يتحقق جميعاً بظهور خاتم الأنبياء المهديين الإمام الحجة (عجل الله فرجه) .
وان تفسير خمسين آية قرآنية ، وعشرات الأحاديث الماثورة عن النبي (ص) ومئات النصوص المروية عن آل البيت يتم بظهور الحجة (عجل الله فرجه) .
لقد تواترت أكثر من ستمائة وسبع وخمسين حديثاً في المهدي (ع) ^٨ .
وقد رواها اعظم اصحاب النبي (ص) ، وقد ألف حول ظهور المهدي (عجل الله فرجه) ، علماء أهل السنة أكثر من مائة وأربع وأربعين كتاباً ^٩ .

(٨) نحد تفصيلاً لهذه الأحاديث في كتاب البحار : (ح ٥١ ٥٣) وفي كتاب " منتخب الأثر " (ص ٣١ ٦٠) .

(٩) نحد أسمائهم في كتاب " الإمام المهدي " : (ص ٢٩٩ ٣١٨) .

وادعى تواتر الحديث كثير من علماء المسلمين من مختلف المذاهب ، ولسنا بحاجة إلى ان نناقش الديانات السماوية في شخص المهدي لأننا لا نملك معهم أرضية مشتركة للحديث بل لابد ان نناقش النظرية القائلة بأن المهدي سيولد في آخر الزمان ثم يظهر ، ونظن ان عقدة المسألة تتمثل في قضية طول العمر التي تبقى مشكلة نفسية أمام الإيمان بحياة الإمام . إذاً ، إسمحو لنا ببحث قضية طول العمر أولاً ، قبل مناقشة هذه النظرية .

قضية طول العمر :

ان ربنا سبحانه بمنه القديم ورحمته . الواسعة شاء ان يتم الحجة على عباده بان بعث إليهم رسله دون ان يترك الأرض من دون حجة قائمة .

وامدّ الله في عمر خاتم الأوصياء إذ لا نبي بعد محمد (ص) لكي يبقى السبب المتصل بين الأرض والسماء ، فإذا انقطع الوحي فلا تنقطع الصلة الغيبية عبر ولي من أولياء الله .
وقدرة الله التي نفذت في كل شيء والتي خلق بها السماوات والأرض لا تعجزه سبحانه عن تطويل عمر الإنسان .

ونحن بصفتنا مسلمين نعتقد بأن الله امدّ في عمر نوح (ع) ٩٥٠ عاماً بل أكثر ، وان عيسى وإدريس والعبد الصالح (خضر) احياء فكيف لا نؤمن بالعمر الطويل الذي عمره الإمام الحجة (عجل الله فرجه) . ولكن دعنا نذكر فيما يلي نظر العلم الحديث في امكانية طول عمر الإنسان ، لعلمنا ان امام بعض الناس مشكلة نفسية لا تدعمهم يؤمنون بالإمام الغائب ، -

(١) جاء في مجلة الهلال - الجزء الخامس من السنة الثامنة والثلاثين (ص ٦٠٧ مارس ١٩٣٠) - تحت عنوان ، كم يعيش الإنسان ؟ ما يلي ^{١٠} ،

يعتقد بعض العامة وبعض الخاصة حتى من الأطباء ان مدى عمر الإنسان سبعون سنة على المتوسط - كما جاء في التوراة - وقل ان يجاوز ذلك ، وقد وقف رئيس مدرسة طبية ذات يوم خطيباً في تلاميذه فقال ، ان الأدلة الباثولوجية تدل دلالة على ان انسجة الجسم تبلى بعد مرور - زمان ما - وان هناك حداً محدوداً لعمر الإنسان .

فإذا صح قول هذا المدبر فان الأسباب الكثيرة التي تنشأ منها دورة العمر هي ثابتة غير متغيرة - دون متناول العلم - ولنفتقر ان منطقة (قتال بناما) المشهورة بالأمراض الكثيرة قُطعت عن سائر العالم ، وكنا نحن فيها نجهل احوال الحياة والموت في العالم - الذي وراعها - لكننا نقول ، ان كثرة الوفيات في هذه المنطقة وقصر العمر امور معينة بحكم الطبيعة ، وان التحكم فيها دون متناول العلم ، فالفرق بين الأمرين هو في الشخص لا في النوع ، فان جهلنا لأسباب بعض الأمراض هو الذي يحول دون تقليل

(١٠) أوردنا قصته من كتاب " منتخب الأثر " (ص ٧٧) .

الوفيات وإطالة العمر - في العالم - ودورة العمر كما نسميها متغيرة قابلة لتأثير العلم فيها ، والذي يعارضني في ذلك لسئل ، أي دورة من أدوار العلم هي ثابتة ؟

دورة العمر في الهند لم في نيوزلندا ؟ أم في أمريكا أم في منطقة القتال ؟ وأي الجِرَف نحترفها نقول عنها إن دورة العمر فيها - ثابتة طبيعية - لجِرَف الفلكي التي تكون الوفيات فيها من ١٥ إلى ٤٠ سنة تحت المتوسط ؟ أم المحاماة التي تكون الوفيات فيها من ٥ سنوات إلى ١٥ سنة فوق المتوسط ؟ أم تنظيف الشبائيك التي تكون الوفيات فيها من ٤٠ إلى ٦٠ سنة فوق المتوسط ؟ هذه امطة على الفرق بين الوفيات في اتوسط الوفيات بين بعض الحرف على ما فيها من احصاءات بعض شركات التأمين . وهناك أدلة كثيرة على ان ادوار الحياة بين الأحياء ومنها الإنسان تغيرت تغيراً عظيماً بالوسائل الصناعية ، وان ادوار الحياة - في بعض الأحياء - تزيد كثيراً على ما للإنسان . فلماذا تعيش السلحفاة مائتي سنة والإنسان سبعين سنة ؟ ولماذا تعيش الخلايا الداخلية في الأحياء أربع مائة سنة وفي الإنسان أقل ؟ وقد يقال جواباً عن هذا السؤال :

ان الإنسان يدفع بذلك عن عيشته الحضارية الراقية وتركيبه الراقى ، فالشجرة المشار إليها - تمكث في بقعة واحدة - فتظهر فيها جميلة ، ولكن ليس بين الرجال والنساء من لا يصنع أكثر مما تصنع الشجرة ، ويثال أجراً على ذلك :

وتجارب المختبرات البيولوجية - ذات مغزى كبير - فقد استطاع بعض العلماء إستنبات بعض الدعاميص - الضفدع الصغير - من لجسدها قبل لوان خروجها بتغيير مقدار الأوكسجين - في الوسط الموجودة فيه - وهذا بمثابة تغيير جوهري في دورة حياة الدعاميص .

وكذلك تمكن آخرون من اطالة عمر ذبابة الأثمار (٩٠٠) ضعف عمرها الطبيعي بحمايتها من السم والعدوى وتخفيض حرارة الوسط الذي تعيش فيه .

وتمكن كارل بتجاربه من ابقاء الخلايا في قلب جنين دجاجة حياً مدة سبع عشرة سنة بصيانتته عن بعض العوامل في المحيط الذي وضع فيه .

وانذا نظرنا إلى العوامل المتسلطة على دورة حياة الإنسان ، وجدنا انه إذا اخذنا شيئاً من المادة المعروفة باسم (الرانث) والمستخرجة من غدة درقية عليلة ، امكنا اعادتها إلى حالتها الطبيعية بحقنها بخلاصة غدة صحيحة ، وكثيراً ما انقذ الشخص المشرف على الموت بحقنة بخلاصة الكبد على اثر اشتداد اصابته بانيميا خبيثة وموته بها لا يختلف بمبدئه عن الموت بالشيخوخة ، ويعاد المصاب بالسكر إلى حالته الطبيعية بحقنة بخلاصة البنكرياس .

وامتدت يد العلماء إلى اصل الجينات - وقد كان يظن انه لا يمكن العبث بها - فتمكنوا من تغيير جنس الضفادع والطيور من الذكور والإناث والعكس ، ولم يُحَرَّب ذلك بعد في الإنسان ، ولكن مادام هذا المبدأ يؤيد في الحيوان فلا يمنع تلييده في الإنسان الا جهلنا للأشياء لابد ان تبدو لنا في المستقبل .

(٢) وقال الأستاذ (فورد نوف) : قد عملت إلى الآن (٦٠٠) عملية ناجحة وأقول الآن عن اقتناع ، انه لا ينصرم القرن حتى يمكن تجديد قوى الشيوخ ، وإزالة غبار السنين عن وجوههم كثيرة الغضون والأسارير - واجنباهم المحدودة الهزيلة - ويمكن أيضاً تأخير الشيخوخة ومضاعفة العمر الذي هو الآن سبعين سنة على الغالب ، وسيبقى الدماغ والقلب صحيحين إلى الآخر - وقد يمكن تغيير الصفات والشخصيات والعادات بهذه الطريقة ، ونقل الجرائم وتخلق العبقريات ، وتفرغ الشخصيات في قوالب على حسب الطلب^{١١} .

(٢) العلماء الموثوق بعلمهم يقولون :

ان جل الأنسجة الرئيسية من جسم الحيوان تقبل البقاء إلى مالا نهاية له ، وانه في الإمكان ان يبقى الإنسان حياً ألوماً من السنين إذا لم تعرض عليه عوارض تصرم حبل حياته ، وقولهم هذا ليس مجرد ظن ، بل هو نتيجة علمية مؤيدة بالامتحان^{١٢} .

فقد تمكن أحد الجراحين من قطع جزء من حيوان وإبقائه حياً أكثر من السنين التي يحياها ذلك الحيوان عادة . أي صارت حياة ذلك الجزء مرتبطة بالغذاء الذي يقدم لها بعد السنين التي يحياها ، فصار في الامكان ان يعيش إلى الأبد مادام الغذاء اللازم موفوراً له .

وهذا الجراح هو (الكسيس كارل) من المشتغلين في معهد (روكفلر نيويورك) وقد امتحن ذلك في قطعة من جنين الدجاج فبقيت تلك القطعة حية نامية أكثر من ثمان سنوات ، وهو وغيره امتحن قطعاً من أعضاء جسم الإنسان - من أعضائه وقلبه وجلده وكيته - فكانت تبقى حية نامية مادام الغذاء اللازم موفوراً لها حتى قال الأستاذ (ديمند ويرل) من اساتذة جامعة جونز هو بكنز :

" ان كل الأجزاء الخلوية الرئيسية من جسم الإنسان قد ثبت ، اما ان خلودها بالقوة صار أمراً مثبتاً بالامتحان لو مرجحاً ترجيحاً تاماً لطول ما عاشته حتى الآن " .

إلى ان قال الدكتور كارل : شرع في التحارب المذكورة في شهر يناير سنة ١٩١٢ م ، ولقي عقبات كثيرة في سبيله فتغلب عليها هو ومساعدوه ، فثبت له :

أولاً : ان هذه الأجزاء الخلوية تبقى حية مالم يعرض لها عارض يميتها ، اما من قلة الغذاء او من دخول بعض الميكروبات .

ثانياً : ان لا تأثير للزمن - أي انها لا تشيخ وتضعف بمرور الزمن ، بل لا يبدو عليها أقل اثر للشيخوخة ، بل تنمو وتتكاثر - هذه السنة - كما كانت تنمو وتتكاثر في السنة الماضية وما قبلها من السنين ، وتدل الظواهر على انها ستبقى حية نامية مادام الباحثون صابرين على مراقبتها ، وتقديم الغذاء الكافي لها ، فشيوخة الاحياء ليست سبباً ، بل هي نتيجة .

(١١) تفسير الحواهر : (ج ٢٢٤) عن محلة كل شيء . أنظر المصدر المتقدم : (ص ١٧٩) .

(١٢) نفس المصدر .

لكن لماذا يموت الإنسان ولماذا نرى سنيته محدودة - لا تتجاوز المائة الا نادراً جداً - وغايتها العادية سبعون او ثمانون ؟

الجواب :

ان اعضاء جسم الإنسان كثيرة ومختلفة ، وهي مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً محكماً حتى ان حياة بعضها تتوقف على حياة البعض الآخر ، فإذا ضعف بعضها ومات لسبب من الأسباب مات بموته سائر الأعضاء . ناهيك بفتك الأمراض الميكروبية المختلفة ، وهذا مما يجعل متوسط العمر اقل جداً من السبعين والثمانين . لا سيما ان كثيرين يموتون اطفالاً ، وغاية ما ثبت الآن من التجارب المذكورة ، ان الإنسان لا يموت لان عمره كذا من السنين - سبعين او ثمانين او مائة او اكثر - بل لان العوارض تنتاب بعض الأجزاء فتتلفها ولارتباط اعضاءه بعضها ببعض تموت كلها ، فإذا استطاع العلم ان يزيل بعض العوارض او يمنع فعلها لم يبقَ مانع استمرار الحياة مئات من السنين ، كما يحيا بعض انواع الأشجار ، وقلّ ما تنتظر العلوم الطبيعية والوسائل الصحية هذه الغاية القصوى ، ولكن لا يبعد ان نهايتها تضاعف متوسط العمر او يزيد ضعفين او ثلاثة^{١٣} .

(٤) وأكد تقرير نشرته الشركة الوطنية الجيوغرافية ،

" ان الإنسان يستطيع ان يعيش (١٤٠٠) سنة إذا ما خدر مثل بعض الحيوانات طيلة فصل الشتاء "^{١٤} . وهكذا يأتي قولنا بإمكان طول العمر مدة من الزمن بعيدة - مؤيداً - بالتجارب الحديثة . فهل نجد من الشك أي مانع عن قبول ذلك إذا عرفت ان الله يريد ان يبقيه كذلك ، وإذا اراد شيئاً وفرّ له أسبابه الطبيعية .

قال الإمام الرضا (ع) ،

" أبى الله إلا ان يجري الأمور بسببها " .

الدين وطول العمر :

هنا نبحث في الموضوع من جانب ديني بحث ، ان من يعتقد بالدين من اليهود والنصارى والمسلمين ، يؤمن بأن قدرة الله شاملة لكل الأمور ومنها امداد عمر رجل - يلزم ان يموت في السبعين - فيزيد فيه الفأ ، مثلاً .

وإن الاعتقاد بذلك ثابت لهم فعلاً ، حيث انهم لا يزالون يقبلون مبدئياً حياة كثيرين ممن تقدم تاريخ ميلادهم عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه) مثل ، خضر ، إدريس ، عيسى (ع) . كما يعتقدون انهم سوف يبقون أحياء في المستقبل أيضاً ، وكذلك تدل كتبهم الدينية على امتداد حياة أمة من الناس مدة طويلة في الماضي السحيق ، مثال آدم ، الذي عاش في معتقد اليهود ٩٣٠ سنة جاء في التوراة ما هذا

(١٢) المصدر السابق عن مجلة المقتطف العدد الثالث السنة التاسعة والحسين .

(١٤) الإمام المهدي (ص ١٦٤)

نصه ، " فكان كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة سنة وثلاثين سنة ومات " .

سفر التكوين - الاصحاح الخامس - الآية ٥ /

وشيث الذي عاش على ما في التوراة (٩١٢ عاماً) حسب ما جاء في النص ،
" فكانت كل أيام شيث تسعمائة واثنى عشرة سنة ومات ... " .

سفر التكوين - الاصحاح التاسع - الآية ٨ /

وأما نوح فقد عاش عندهم ٩٥٠ سنة . جاء في التوراة ،

" فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات ... " .

سفر التكوين - الاصحاح التاسع - الآية ٢٩ /

لما المسلمون فإنهم يعتقدون بحياة عيسى وخضر وإلياس .

وإن سرد هذه الحقائق تكفينا عن ذكر أسماء المعمرين بعدما ثبت أن طول العمر ممكن عقلاً وواقع فعلاً .

هل الإمام المهدي حي ؟

لقد سبق القول أن المذاهب الإسلامية تتفق تقريباً على قضية المصلح القائم بأمر الله - آخر الدهر - وأنه ينتمي إلى رسول الله (ص) ، وأنه ابن فاطمة ، وقد طفحت كتبهم بأحاديث بلغت التواتر في اثبات ذلك . كما أنه قد ألف كثير منهم كتباً تبحث عن الموضوع بصورة مسهية - نعم لا تنكر أن عدة منهم كثيرة شذت عنهم - وقالت ، حيث كانت الأحاديث تحتوي على بعض الغرائب فإنها لم تقبل التصديق ، ولكن الأحاديث التي تتضمن قضية المهدي ليست أكثر غرابة مما تضمنت لخبر الأمم السابقة ، والمعجز التي رافقت حياتهم ، والآيات التي ظهرت على أيديهم .

وهناك نقطة اختلفت المذاهب الإسلامية فيها ولا بد من مناقشتها في هذا المجال ، وهي :

هل أن الإمام المهدي (عجل الله فرجه) حي فعلاً أم أنه سيولد بعدئذ ؟ قبل أن نذهب بعيداً في البحث يجب أن نذكر ، أنه لم يمتنع أي المذاهب الإسلامية عن الإعتراف بوجود الإمام المهدي (عجل الله فرجه) ، وتاويل النصوص التي وردت بشأن ذلك إلا بسبب واحد هو : استغراب وجوده حياً منذ سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ١٤٠٥ هـ ، وقد سبقت مناقشة ذلك في ضوء التجارب الحديثة والمعتقدات الدينية ، فلم يبق هناك ما يدعوهم إلى الإنكار إلا أنهم قد يقولون ما هو الدليل القاطع على ذلك ؟

الحواب ،

أن هناك أدلة كثيرة علم ، حياة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) وفيما يلي بيان بعضها ،

١ - فارت أحاديث الله .ي. (ص) الواردة بشأن الأئمة الاثنا عشر - حد التواتر - واجمعت الأمة على حسنتها وثقة روايتها ، وما ذكر فيما يلي بعضاً منها :
(١) عن جابر بن سمرة : سمعت النبي (ص) يقول :

" يكون من بعدي اثنا عشر اميراً ... " . فقال كلمة لم اسمعها ، فقال ابي ، انه قال ، " كلهم من قريش " ^{١٥} .

(٢) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ،
" يكون من بعدي اثنا عشر اميراً ... " . ثم تكلم بشئ لم افهمه فسالت الذي يليني ، فقال ، قال ،
.. كلهم من قريش " .

١٦
قال الترمذي ، هذا حديث حسن صحيح .
(٣) قال ، دخلت مع ابي على النبي (ص) فسمعتة يقول ،
" ان هذا الامر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة .. " .
قال ، وتكلم بكلام خفي عليّ . فقلت لأبي ، ما قال ؟ قال ، " .. كلهم من قريش " ^{١٧} .
(٤) قال سمعت رسول الله (ص) يقول ،

" لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة - فكبر الناس وضجوا - ... " .
ثم قال ، كلمة خفيت ، قلت لأبي ، يا ابيه ما قال ؟ قال ، " .. كلهم من قريش " ^{١٨} .
(٥) قال سمعت النبي (ص) يقول ،
" يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة " ^{١٩} .

فإذا اضفنا الحديث الصحيح لدى الفريقين والصريح على انهم من قريش مع تلك الأخبار التي بيئت
مكارم اهل البيت ، وانهم كالنجوم يحفظون اهل الأرض ويهدونهم ، ثم إذا اضفنا إليها جميعاً تلك الأحاديث
التي تبين انه سوف ينتهي من بعدهم الأمر ، وأنه سوف يكونون في الأرض ما بقي فيها اثنان . عرفنا ان
المهدي يلزم ان يكون منهم ، ويكون مهديهم آخرهم . اضعف إلى ذلك الأحاديث التي وردت عن النبي
(ص) تقول ، " ان اخر هؤلاء الاثني عشر يكون قائم الأمة ومهديها " .
إذا كان ذلك عرفنا ، ان الإمام موجود فعلاً لانه الثاني عشر من الأئمة (عليهم السلام) . وقد كان حادي
عشرهم هو الإمام الحسن العسكري (ع) ولم يخلف باجماع المؤرخين إلا ولداً واحداً كما في الأخبار هو
الإمام المهدي (عجل الله فرجه) فلا بد ان يكون حياً .

(١٥) صحيح البخاري - الجزء الرابع - كتاب الأحكام : (ص ١٧٥) طبعة مصر ١٣٥٥ هـ

(١٦) صحيح الترمذي الجزء الثاني باب ما جاء في الحلفاء . (ص ٤٥) طبعة نيودلهي ١٣٤٢ هـ .

(١٧) صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب الناس تع لقريش والحلقة في فرسش : (ص ١٩١ ، ح ٢ ، ق ١) طبعة
مصر ١٣٤٨ هـ

(١٨) صحيح أبي داود : (ح ٢) كتاب المهدي : (ص ٢٠٧) طبعة مصر المطبعة النارية

(١٩) مسند أحمد وقد أخرج مع هذا الحديث ، رواية أخرى عن جابر من أربعة وثلاثين طريقاً .

ب - لقد سبق انه لابد ان تكون الحجة دائمة للخلق كصلة تربطهم بربهم ، فإذا ثبت ذلك ثبتت حياة الإمام ووجوده فعلاً داعياً للخلق ، ولا يستلزم غيابه عدم فائدة إذ انه بطبيعة صلته الغيبية بالله القادر العليم يستطيع ان يحقق ما يراه صالحاً بطريقة غير مباشرة ، وإذا كان الله قادراً على اعطاء الملائكة المقربين قوى قاهرة ، وتخويلهم بعد ذلك صلاحيات كبيرة فإنه سيكون قادراً على اعطاء مثل ذلك للنبي أو وصي النبي كالإمام المهدي (عجل الله فرجه) .

وإذا كانت سنة الله قد جرت في الخلق ان يجعل لكل شيء سبباً ، وأبث ان تجري الأمور إلا بأسبابها ، فما المانع عن قبول فكرة جعل بشر صالح مطيع لله سبباً لطائفة من الأمور ولو بصورة غيبية ؟ كما نقول في الإمام الحجة (عجل الله فرجه) .

ومن هنا نعرف ان الإيمان بالإمام الغائب (عجل الله فرجه) جزء رئيس من الإيمان بالغيب ككل . وأنه لا يستطيع أحد ان يبعث إيمانه فيسلم بالغيب ويستنكر تأييد الإمام الحجة (عجل الله فرجه) بالغيب ، لو يؤمن بتأييد الملائكة للرسول ثم يكفر بإمكانية تأييد الإمام الغائب للصالحين .
ومن جهة أخرى هناك جوانب أخرى للإمام نذكر منها ما يلي :

المهدي الحجة الشاهد :

ان الإمام الحجة (عجل الله فرجه) شاهد بإذن الله على الناس ، ومعرفة المؤمنين بهذه الحقيقة تجعلهم يسارعون في الخيرات ، ويجتهدون للاقتداء بسيدهم وجعل حياتهم نسخة من حياة سيدهم وولي امرهم .

وبما ان الحجة (ع) إمام حي ، وان القيادة الحقيقية له ، وأنه ينوبه في ذلك من يكون اقرب إليه وأحسن اقتداء بهديه ، فإنه يصبح كالميزان في انتخاب القيادة ن بل وفي فرز الخط الإلهي الذي ينتمي إليه الصالحون عن الخطوط المتفرقة التي لا تستقيم على هذا الإيمان .

الإمام الحجة في كتب الأديان :

بالرغم من تناول يد التحريف على الكتب السماوية الموجودة حالياً فإنه يوجد فيها بعض الحقائق ان لم تكن لنفيذ لآيات الواقع بناتها ، فإنها تفيد للاحتجاج على من يعتقد بها ، وفيما يلي نذكر نصوصاً من كتب الأديان عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه) .

(١) " الصديقون يرثون الأرض إلى الأبد " .

المزمور السابع والثلاثون - كتاب المزامير

كما قد تضمّن أيضاً تفاصيل كثيرة عن الأوضاع في آخر الزمان مما يؤيد ما في احاديث المسلمين ، ثم يقول ، " اما الأشرار فيبادون جميعاً - عقب الأشرار ينقطع - " .

(٢) " ويل للامة الخاطئة - الشعب الثقيل الأثم - نسل فاعلي الشر لولاد المفسدين تركوا الرب .. " .

" .. لرضكم تاكلها غرباً قدامكم وهي خربة كانهقلاب الغرباء ، وبعد ذلك تدعين مدينة العدل ، القرية

الأمينة " .

كتاب اشعيا - الاصحاح الأول

(٣) " فيرفع راية الأمم من بعيد ، ويصفر لهم من اقصى الأرض . فإذا هم بالعجلة ياتون ليس فيهم رازح ولا عائر " .

الاصحاح الخامس

(٤) " إلى ان تصير المدن خربة بلا ساكن ، والبيوت ، بلا إنسان ، وتخرب الأرض وتقفّر ويبعد الأرض الإنسان ، ويكثر الخراب في وسط الأرض ، وان يبقى فيها عشر بعد ، فيعود ويصير للخراب ، ولكن كالبطمة والبلوطة التي - وان قطعت - فلها ساق يكون ساقه زرعاً مقدساً " .

الاصحاح السادس - من كتاب اشعيا

(٥) " يقيم إله السماء مملكة لن تنقرض ابداً ، وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفدي كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد " .
ثم يقول ، " .. طوبى لمن ينتظر " .

كتاب حجار - الاصحاح الثاني

(٥) " قال رب الجنود . هي مرة بعد قليل ازلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة ، وازلزل كل الأمم ، ويأتي بعدها كل الأمم تملأ هذا البيت " .

كتاب حجار - الاصحاح الثاني

(٦) " ويكون في كل الأرض يقول الرب ، ان ثلثين يقطعان ويموتان ، والثلث يبقى فيها ، وادخل الثلث في النار ، وامحصهم كمحص الفضة ، وامتحنهم امتحان الذهب ، هو يدعو باسمي وانا اجيبه اقول هو شعبي وهو يقول الرب إلهي " ^{٢٠} .

كتاب زكريا - الاصحاح الثالث عشر

(٧) " ان يسوع - هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي إليكم كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء " ^{٢١} .
كتاب أعمال الرسل - العهد الجديد - الاصحاح الأول
(٨) " وان مضيت واعدت لكم مكاناً آتي أيضاً " .

إنجيل يوحنا - الاصحاح الرابع عشر

(٩) " لانه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطل " .
الاصحاح العاشر من الرسالة التي كانت إلى العبرانيين

(٢٠) لقد جاء في كثير من احاديث آل البيت عليهم السلام ان ثلثي أهل الأرض يموتون ويثقى الثلث الآخر فيمحص تمحيصاً .

(٢١) لقد استفاضت أحراراً الدينية - برجوع عيسى (ع) معه - تماماً كما يذكره هذا الكتاب .

(١٠) " ثبت للقضاء على كرسيه وهو يقتضي للمسكونة بالعدل ليالي الشعوب بالإستقامة " .

المزمور التاسع من مزامير داود

ثم يقول ، " وانما الذي عندكم تمسكوا به إلى ان ياتي من يقلب ويحفظ لعمالي إلى النهاية ، فساعطيهم سلطاناً على الأمم فيراعها بقضيب من حديد ، كما تكسر أنية من خزف ، ولعطيهم كوكب الصبح من له اذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس " .

(١١) " اما ذلك اليوم ، وتلك الساعة فلا يعلم بها احد " .

إنجيل متى - الاصحاح الرابع والعشرون

ولا لعل على هذه المقتطفات من كتب العهدين لانها تطابق بشئ من الاختلاف ما جاء في الأحاديث الصحيحة من علامات الظهور وسمات دولة الحق .

واما المجوس فانهم أيضاً يعتقدون برجوع إنسان باسم (بهرام) الذي لا يختلف معناه عن المهدي شيئاً .

والبراهمة أيضاً يعتقدون بظهور (كرشنا) على ما يدعون . إلا أن هناك أدلة كثيرة على بعث انبياء وصلحاء مع الإمام المهدي (عجل الله فرجه) ليروا الحق ظاهراً على الأرض كلها . ولعل بهرام وكرشنا كانا صالحين ممن لا تعرف اسمهم .

ان ظهور الإمام يعتبر عند الأئمة الطاهرين (ع) القيامة الصغرى ، حيث يبعث من كل أمة شهيداً .

الفصل الثالث

علامات الظهور

في هذا الفصل نتحدث عن بعض من العلامات التي سوف تتحقق قبل ظهور الإمام . وقد سبق في الفصل السابق الحديث عن بعضها من شمول الفساد والظلم جميع أرجاء الأرض ، وإشاعة الفحشاء والبغي فيها وتخيرات سماوية وقحط شديد ، وحروب ضارية تلتهم ثلثي أهل الأرض ، وظهور ما يدعى (الدجال) يدعو إلى الباطل ويتهافت الخلق إليه ، وأخيراً ادعاء البعض أنه المصلح الأكبر ، ثم فشله في تحقيق ما يدعيه ونعتمد في هذه العلامات على النصوص الماثورة الصادرة عن مهبط الوحي .

(١) عن الرسول (ص) أنه قال ،

"منا مهدي هذه الأمة . إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً وتظاهرت الفتن ، وتقطعت السبل وأغار بعضهم على بعض ، فلا كبير يرحم صغيراً ، ولا صغير يوقر كبيراً ، فيبعث الله عند ذلك مهدينا التاسع من صلب الحسين (ع) يفتح حصون الضلالة ، وقلوباً غفلاً ، يقوم في الدين في آخر الزمان كما قمت به في أول الزمان . يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً " .

(٢) قال أيضاً - ضمن حديث طويل - حدثه علياً (ع) ،

"ثم نودي ببناء يسمع من البعد كما يسمع من القرب يكون رحمة على المؤمنين وعذاباً على الكافرين . قلت ، ما لذلك النداء ؟ قال (ص) ، "ثلاثة اصوات في رجب أولها ، الا لعنة الله على الظالمين ، والثاني ، ازفت الأزفة والثالث ، يرون بدءاً بارزاً مع قرن الشمس . الا ان الله قد بعث فلاناً^{٢٢} ، حتى لينسبه إلى علي . فيه هلاك الظالمين ، فعند ذلك يأتي الفرج " قلت ، يا رسول الله ! فكيف يكون بعدي من الأئمة . قال (ص) ، بعد الحسين تسعة والتاسع قائمهم " .

(٣) وفي حديث آخر عن الرسول (ص) . فقلت ، إلهي وسيدي متى يكون ذلك ؟

فلوحي الله عز وجل ، " يكون ذلك ، إذا رفع العلم وظهر الجهل ، وكثر القراء ، وقل العمل ، وكثر القتل وقل الفقهاء الهادون ، وكثر فقهاء الضلالة والخونة ، وكثر الشعراء ، واتخذ امتك فيورهم مساجد^{٢٣} ،

(٢٢) أي " الإمام المنتظر (عجل الله فرجه) " منتسباً إلى أبائه المعصومين (ع) .

(٢٣) كناية عن عبادة الاشخاص شركاً بالله .. وليس من ذلك التقرب إلى الله بقور الصالحين التي حثرت عليه سة الإسلام والمسلمين منذ أول يوم ، ويعني الحديث عن حلية المصاحف ورحفة المساجد : اكتفاء المسلمين في ذلك اليوم بالمظاهر دون العمل بالحقائق .

وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وكثر الجور والفساد ، وظهر المكر ، وأمرامتك به ، ونهى عن المعروف ، واكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وصار الأمراء كفرة وأولياؤهم فجرة ، وأعوانهم ظلمة ، ودووا الرأي منهم فسقة ، وعند ذلك ثلاثة ، خسف بالمشرق ، خسف بالغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وخراب بالبصرة على يد رجل من ذريتك يتبعه الزنوج ، وخروج رجل من ولد الحسين بن علي (ع) وظهور الدجال يخرج من المشرق من سجستان وظهور السفيناني .

(٤) وقال (ع) في حديث :

" إَحْفَظْ .. فإن علامة ذلك - أي ظهور الإمام (ع) - إذا مات الناس الصلاة ، واضاعوا الأمانة ، واستحلوا الكذب ، واكلموا الربا ، وأخذوا الرشا ، وشيدوا البنيان وباعوا الدين بالدنيا ، واستعملوا السفهاء ، وشاوروا النساء ، وقطعوا الأرحام ، واتبعوا الأهواء ، واستخفوا بالدماء .. "

" .. كان الحطم ضعفاً والظلم فخراً ، كان الأمراء فجرة والوزراء ظلمة ، والعرفاء خونة والقراء فسقة ، وظهرت شهادة الزور ، واستعلى الفجور ، وقول البهتان والإنهم والطغيان ، وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وطولت المنابر وأكرم الأشرار وازدحمت الصفوف ، واختلفت الأهواء ونقضت العقود ، واقترب الموعود ، وشارك النساء أزواجهن في التجارة حرصاً على الدنيا ، وعلت أصوات الفساق ، واستمتع منهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، واتقى الفاجر مخافة شره ، وصديق الكاذب وانتمى الخائن واتخذت المعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، وركب نوات الفروج السروج ، وتشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء ، وشهد الشاهد من غير أن يستشهد ، وشهد الآخر قضاء لذيham بغير حق عرفه وتفقه لغير الدين ، وآثروا عمل الدنيا على الآخرة ، ولبسوا جلود الظان على قلوب الذئاب ، وقلوبهم أنتن من الجيف فعند ذلك الوحي الوحي . العجل العجل . خير المساكن يومئذ بيت المقدس . ليأتي على الناس زمان يتمنى أحدهم إنه من سكانه " .

(٥) وقال (ع) :

" إن لخروجه عشرة علامات ، أولها : تخريق الرايات في أزقة الكوفة ، وتعطيل المساجد ، وانقطاع الحاج ، وخسف وقذف بخراسان ، وطلوع الكوكب المذنب ، واقتراب النجوم ، وهرج ومرج ، وقتل ونهب . فتلك عشر علامات ، من العلامة إلى العلامة عجب ، فإذا تمت العلامات قام قائمنا " .

(٦) قال الإمام الحسين (ع) :

" إذا رأيتم منابر نادى من المشرق ثلاثة أيام أو سبعة فتوقعوا فرج أهل محمد (ص) إن شاء الله .. ينادي منابر من السماء باسم المهدي فيسمع من المشرق والمغرب حتى لا يبقى راقداً الاستيقظ ، ولا قائم الا قعد ، ولا قاعد إلا قام على رجله فزعاً ، ورحم الله من سمع ذلك الصوت فحباب ، فإن صوت الأول صوت جبرائيل ، الروح الأمين " .

(٧) وفي حديث عن رسول الله (ص) انه قال :

"اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! ان عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب ، فالويل لضعفاء امتي منهم ، والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يتجافون عن شيء جنتهم جنة الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين ..".

ثم قال : " .. فلم يلبث إلا قليلاً حتى تذور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلا أنها حادثة في ناحيتهم ، فيمكتون في ملتهم فتلقي لهم الأرض أفلاك كبدها . قال : ذهباً وفضة ، ثم أومى بيده إلى الأساطين فقال : مثل هذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة ، فهذا معنى قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (مُحَمَّد/١٨) .^{٢٤}

(٨) عن أبي جعفر محمد بن علي (ع) انه قال :

" لا يظهر المهدي (ع) إلا على خوف شديد وزلزال وفتنة تصيب الناس ، وطاعون قبل ذلك ، وسيف قاطع بين العرب ، واختلاف شديد بين الناس ، وتشتت في دينهم وتخبر في حالهم ، يتمنى المتمني الموت صباحاً ومساءً من عظم ما يرى من تكالب الناس ولكل بعضهم بعضاً ، فخروجه إذا خرج يكون عند اليباس والقنوط من ان يرى فرجاً ، فيا طوبى لمن أدركه وكان من انصاره والويل كل الويل لمن خالفه وخالف امره " ^{٢٥} .

(٩) عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال :

" خمس قبل قيام القائم (ع) : اليماني والسفياي ، والمتادي ينادي من السماء ، وخسف بالبيداء ، وقتل نفس زكية ، وقال : ليس بين قائم آل محمد وقتل النفس الزكية إلا خمسة عشر يوماً " ^{٢٦} .
وقال في حديث آخر : " تنكسف الشمس لخمس مضي من شهر رمضان ، قبل قيام القائم (ع) " ^{٢٧} .
هذا وهناك علامات أخرى كثيرة نكتفي عنها بما سبقت من المشابهة بينها وبين ما قلنا .

وعنه (ع) انه قال : " ستخلو كوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تازر الحية في جحرها ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم ، وتصير معدناً للعلم والفضل حتى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتى المخدرات في الحجال وذلك لا يكون إلا عند قرب ظهور قائمنا فيجعل الله (قم) واهلها قائمين مقام الحجة ولولا ذلك لساخت الأرض باهلها ، ولم يبق في الأرض حجة يفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فيتم حجة الله على الخلق حتى لا يبقى احد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم ، ثم يظهر القائم ، ويصير سبباً لنقمة الله ولسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلا بعد إكبارهم حجة " ^{٢٨} .

(٢٤) منتهى الأثر . (ص ٤٣٤) .

(٢٥) منتهى الأثر : (ص ٤٣٤) .

(٢٦) منتهى الأثر : (ص ٢٤٩) .

(٢٧) منتهى الأثر . (ص ٤٤١) .

(٢٨) منتهى الأثر عن البحار (ص ٤٤٣)

الفصل الرابع

من روائع الإمام

(١) أنت كنفي :

" .. لا إله إلا الله حقاً ، لا إله إلا الله صدقاً ، لا إله إلا الله تعيداً ورقاً .

اللهم معز كل مؤمن وحيد ، ومذل كل جبار عنيد ، أنت كنفي حين تعييني المذاهب ، وتضيق عليّ الأرض بما رحبت .

اللهم خلقتني وكنت غنياً عن خلقي ، ولولا نصرك إياي لكنت من المغلوبين ، يا منشر الرحمة من مواضعها ، ومخرج البركات من معادنها ويا من خصّ من نفسه بشموخ الرفعة ، فأولياؤه بعزه يتعززون ، يا من وضعت له الملوك نير المذلة على أعناقهم فهم من سطوته خائفون ، أسالك باسمك الذي فطرت به خلقك فكل لك مدعنون ، أسالك ان تصلي على محمد وعلى آل محمد ، وان تتجز لي امري وتعجل لي الفرج ، وتكفيني وتعافيني وتقضي حوائجي ، الساعة الساعة ، الليلة الليلة ، انك على كل شيء قدير " ٢٩ .

(٢) المحمّدة لك :

" اللهم ان اطعك فالمحمّدة لك ، وان عصيتك فالحجة لك . منك الروح ومنك الفرج ، سبحان من انعم وشكر ، سبحان من قدر وغفر ، اللهم ان كنت قد عصيتك فاني قد اطعك في احب الأشياء إليك وهو الايمان بك ، لم اتخذ لك ولداً ولم ادع لك شريكاً ، منّا منك به عليّ . لا منّا مني به عليك ، وقد عصيتك يا الهي على غير وجه المكابرة ، ولا الخروج عن عبوديتك ، ولا الجحود لربوبيتك ، ولكن اطعت هواي وازلني الشيطان ، فلك الحجة عليّ والبيان " ٣٠ .

(٣) عظم البلاء :

" إلهي عظم البلاء وبرح الخفاء وانكشف الغطاء وانقطع الرجاء ، وضائق الأرض ومنعت السماء ، وانت المستعان واليك المشتكى وعليك المعول في الشدة والرخاء " ٣١ .

(٤) اللهم ارزقنا :

" اللهم ارزقنا توفيق الطاعة ، وبعد المعصية وصدق النية ، وعرفان الحرمة ، واکرمنا بالهدى والاستقامة

(٢٩) الإمام المهدي : (ص ٢٣٦) ومن دعائه (ع) - للحاجة - .

(٣٠) الإمام المهدي : (ص ٢٤٠ - ٢٤٥) .

(٣١) الإمام المهدي : (ص ٢٤٠ - ٢٤٥) .

وسدد السنتنا بالصواب والحكمة ، واملاً قلوبنا بالعلم والمعرفة ، وطهر بطوننا من الحرام والشبهة ، واكف ايدينا عن الظلم والسرقة ن واغضض ابصارنا عن الفجور والخيانة واسدد اسماعنا عن اللغو والغيبة ، وتفضل على علمانا بالزهد والنصيحة ، وعلى المتعلمين بالجهد والرغبة ، وعلى المستمعين بالاتباع والموعظة ، وعلى مرضى المسلمين بالشفاء والراحة ، وعلى موتاهم بالرأفة والرحمة ، وعلى مشايخنا بالوقار والسكينة ، وعلى الشباب بالانابة والتوبة ، وعلى النساء بالحياء والعفة ، وعلى الأغنياء بالتواضع والسعة ، وعلى الفقراء بالصبر والقناعة ، وعلى الغزاة بالنصر والغلبة ، وعلى الأسراء بالخلاص والراحة ، وعلى الأمراء بالعدل والشفقة ، وعلى الرعية بالإنصاف وحسن السيرة ، وبارك للحجاج والزوار في الزاد والنفقة ، واغض ما لوجبت عليهم من الحج والعمرة ، بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين " ٣٢ .

(٥) شرطت عليهم الزهد :

" اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في اوليانك الذين استخلصتهم لنفسك وديتك إن اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد ان شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزيجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي واهبطت عليهم ملائكتك وكرمتمهم بوحبك ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذرية إليك والوسيلة إلى رضوانك فبعض اسكنته جنتك إلى ان اخرجته منها ، وبعض حملته في فلكك ونجيته ومن آمن معه من الهلكة برحمتك ، وبعض اتخذته لنفسك خليلاً وسالك لسان صدق في الآخرين فاجبته وجعلت ذلك علياً ، وبعض كلمته من شجرة تكليماً وجعلت له من اخيه رداً ووزيراً وبعض ولدته من غير اب وآتيته البيئات وايدته بروح القدس وكلاً شرعت له شريعة ونهجت له منهاجاً وتخيرات له اوصياء مستحفظاً بعد مستحفظ . من مدة إلى مدة إقامة لدينك وحجة على عبادك ، ولنلا يزول الحق عن مقره ، ويغلب الباطل على اهله ، ولنلا يقول احد لولا ارسلت إلينا رسولاً منذراً ، واقمت لنا علماً هادياً فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزي " ٣٣ .

(٦) المنتجب في الميثاق :

" اللهم صلّ على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة رب العالمين ، المنتجب في الميثاق المصطفى في الظلال ، المطهر من كل آفة ، البرئ من كل عيب ، المؤمل للنجاة ، المرتجى للشفاعة ، المفوض إليه دين الله . اللهم شرف بنيانه وعظم برهانه واقبل حجته ، وارفع درجته واضئ نوره وبيض وجهه واعطه الفضل والفضيلة والمنزلة والوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً يفيط به الأولون والآخرين " ٣٤ .

(٣٢) الإمام المهدي : (٢٤٦) في بلد الأمين (٥٢١) .

(٣٣) تحفة الزائر في آداب زيارته (ع) .

(٣٤) تحفة الزائر في آداب زيارته (ع) .

(٧) أفتتح الثناء بحمدك :

" اللهم إني أفتتح الثناء بحمدك وأنت مسدد للصواب بمنك وليقت لك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة واشد المعاقبين في موضع الذكال والنقمة وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة .
اللهم أذنت لي في دعائك ومسالك فاسمع يا سميع مدحتي واجب يا رحيم دعوتي وأقل يا غفور عنرتي ..
الحمد لله مالك الملك مجري الفلك مسخر الرياح فالق الإصباح ديّان الدين رب العالمين الحمد لله على حلمه بعد علمه والحمد لله على عفوه بعد قدرته والحمد لله على طول اناته في غضبه وهو قادر على ما يريد ، الحمد لله خالق الخلق ، باسط الرزق فالق الإصباح ذي الجلال والإكرام والفضل والانعام الذي بعد فلا يرى وقرب فشهد النجوى تبارك وتعالى ..

الحمد لله الذي يؤمن الخائفين وينجي الصالحين ويرفع المستضعفين ويضع المستكبرين ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين ، والحمد لله قاصم الحبارين مبير الظالمين مدرك الهاربين نكال الظالمين صريح المستصرخين موضع حاجات الطالبين معتمد المؤمنين .

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمه تعز بها الإسلام واهله وتذل بها النفاق واهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة .

اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه وما قصرنا عنه فبلغناه .

اللهم إنا نشكوا إليك فقد نبينا صلواتك عليه واله وغيبه ولينا وكثرة عدونا وقلة عددنا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا فصل على محمد واله واعنا على ذلك بفتح منك تعجّله وبضر تكشفه ونصر تعزه وسلطان حق تظهره ورحمة منك تحللناها وعافية منك تلبسناها برحمتك يا أرحم الراحمين " ٣٥ .

كلمة أخيرة :

منذ ألف ومائة وخمسين عاماً - أي منذ ولادته (ع) في عام (٢٥٥) وحتى هذه السنة الهجرية (١٤٠٥)، يتقلب سيدنا المهدي (عجل الله فرجه) في الساجدين يسهر الليالي تهجداً لله ، ويطوي الأيام عبادة وتسليماً لرب العالمين .

ويبتذل ساعة النصر حين ياذن الله له بالفرج ويدعو الله كما يدعوا المؤمنون ربهم بالفرج القريب ، ويمارس - بالتالي - أفعال أمة محمد (ص) وهو انتظار العرج .

إله مر ، وجه كرم عند الله . دعنا - إذاً - نقدمه بين يدي حاجتنا ونتوسل به إلى ربنا كي يكشف هذه الغمة عن أمتنا المعدة .

دعنا ندكره عند اشتداد الكرب ، ونقدمه على ربنا عبده الصالح المدخر لنصرة عباده المستضعفين لكي يكشف الله عنا العدا .

دعنا ندعو الله وحده لا شريك له ، لماعتة الهمة وإن جعلنا من أنصاره وأعوانه آمين رب العالمين .

(٣٥) مفاتيح الجنان : (ص ١٨١ - ١٨٢) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥

محمد (ص) قلدوة واسوة

٩	تمهيد
١٥	وبعد الرسالة
٣٥	الخلق العظيم

فاطمة الزهراء (ع) قلدوة واسوة

٤١	تمهيد
٤٣	الفصل الأول : الأصل الكريم
٤٧	الفصل الثاني : الشجرة المباركة
٦١	الفصل الثالث : مقام الزهراء
٦٤	الفصل الرابع : الصديقة فاطمة تتحدى نكسة الأمة

الإمام علي (ع) قلدوة واسوة

٨٥	تمهيد
٨٦	الفصل الأول : الأصل الكريم والميلاد المبارك
٩٢	الفصل الثاني : حياته في عهد الرسول
١٠١	الفصل الثالث : الإمام يواجه المحنة
١٢٢	الفصل الرابع : عهد إمامته (ع)
١٤٩	الفصل الخامس : فضائله ومناقبه
١٥٦	الفصل السادس : في فضائله (ع) على لسان النبي (ص)

الإمام الحسن (ع) قلدوة واسوة

١٦٥	الفصل الأول : الأصل الكريم
١٧٤	الفصل الثاني : عهد إمامته
١٨٨	الفصل الثالث : مواقف مشرقة
١٩٤	الفصل الرابع : مكارم الأخلاق
١٩٨	الفصل الخامس : من بلاغة الإمام

الإمام الحسين (ع) قلدوة واسوة

٢٠٣	تمهيد
٢٠٥	الفصل الأول : الوليد السعيد
٢١١	الفصل الثاني : بعد الرسول
٢١٩	الفصل الثالث : الخلق العظيم
٢٢٥	الفصل الرابع : نهضته

الإمام السجاد (ع) قلدوة واسوة

٢٣٥	تمهيد
٢٣٧	الفصل الأول
٢٥١	الفصل الثاني : ميلاده وعصره
٢٦١	الفصل الثالث : دور الإمام (ع) في الاعلام الرسالي

الإمام الباقر (ع) قلدوة واسوة

٢٧٧	تمهيد
٢٧٩	الفصل الأول : الميلاد الميمون
٢٩٧	الفصل الثاني : الإمام وعصره
٣٠٦	الفصل الثالث : وفاته

الإمام الصادق (ع) قلدوة واسوة

٣١١	تمهيد
٣١٢	الفصل الأول : الأصل الكريم

٣١٤	الفصل الثاني : عهد إمامته
٣٢٣	الفصل الثالث : مواقف مشرقة
٣٢٩	الفصل الرابع : مكارم الأخلاق

الإمام الكاظم (ع) قدوة وأسوة

٣٣٩	تمهيد
٣٤١	الفصل الأول : الأصل الكريم والمولد المبارك
٣٤٥	الفصل الثاني : الإمام وعصره
٣٥٥	الفصل الثالث : معاجز الإمام وعلمه
٣٦٤	الفصل الرابع : خلقه وفضائله
٣٧٠	الفصل الخامس : محنته وشهادته

الإمام الرضا (ع) قدوة وأسوة

٣٧٧	تمهيد
٣٧٨	الفصل الأول : وجاء المولود الميمون
٣٩٠	الفصل الثاني : الإمام وعصره
٤٠١	الفصل الثالث : شهادته ومزاره

الإمام الجواد (ع) قدوة وأسوة

٤١١	تمهيد
٤١٢	الفصل الأول : الأصل الكريم والميلاد المبارك
٤١٦	الفصل الثاني : حياته وإمامته
٤٢٧	الفصل الثالث : الإمام وعصره
٤٣٣	الفصل الرابع : خلقه وفضائله

الإمام الهادي (ع) قدوة وأسوة

٤٤١	تمهيد
٤٤٢	الفصل الأول : منعطفات الحركة الرسالية
٤٥١	الفصل الثاني : سيرة الإمام الهادي (ع)

٤٥٩	الفصل الثالث : كراماته ومكرماته
٤٦٧	الفصل الرابع : كلماته المضيئة

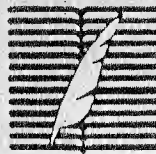
الإمام العسكري (ع) قلوة وأسوة

٤٧١	تمهيد
٤٧٢	الفصل الأول : الميلاد الكريم
٤٧٩	الفصل الثاني : الإمام شاهد عصره
٤٨٧	الفصل الثالث : شهادته الأليمة
٤٩٦	الفصل الرابع : كلمات من نور

الإمام المهدي (عج) قلوة وأسوة

٥٠٧	تمهيد
٥٠٨	الفصل الأول : الأصل الكريم
٥١٥	الفصل الثاني : الإمام الحجة .. الأمل المنتظر
٥٢٦	الفصل الثالث : علامات الظهور
٥٢٩	الفصل الرابع : من روائع الإمام

... اربع عشرة قدوة واسوة إلهية شهداء
على درب الإيمان معالم في طريق الجنة
اعلاماً للهدى هل تجد لهم في الخلق نظيراً؟
واورثوا الأمة من بعدهم - إلى جانب كنوز
العلم - تلك السيرة الوضيئة التي لاتزال
تدعونا إلى الفضيلة والهدى.
مسيرة اعلام الهدى تعطينا - ابداً - عزماً
راسخاً لاقتحام المستقبل و اكتشاف المزيد
من امكانات الانسان الكبيرة وبالذات الافاق
الروحية التي لاتحد.
واليوم حيث استطاع الانسان بفضل نعمة
المعرفة والتقنية، ان يتقدم خطوات واسعة
نحو تسخير الطبيعة، ازدادت حاجته إلى
الاخلاق كبح جماح فرس العلم برسن
الفضيلة ألا يقتحم بنا وديان الدمار..



دار البقيع للطباعة والنشر

العنوان : جمهورية ايران الاسلامية - صندوق البريد - ١٤١٥٥/٦٥٧٧